NICOLA ZIYADAH

حول العالم في (76) عاماً

رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الأفريقي

(1916-1992)

نقولا زيادة

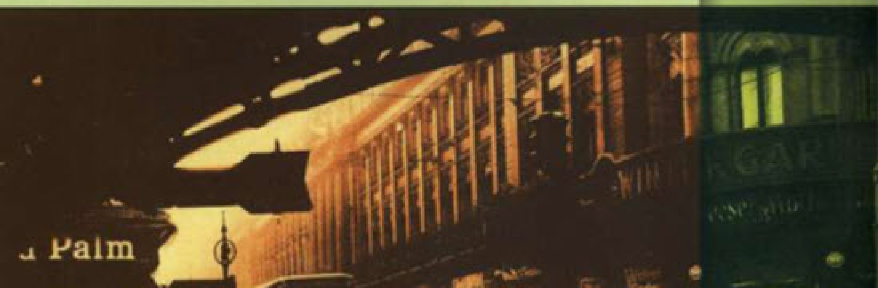

حررها وقدم لها: نوري الجراح

حول العالم في (76) عاماً

رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الأفريقي

(1992-1916)

حول العالم في (76) عامًا / أدب رحلات
نقولا زيادة / مؤلف من فلسطين ، [حررها وقدم لها : نوري الجراح / سورية]
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : 44480 ، الإمارات العربية المتحدة
هاتف 6372079 2 00971
فاكس 6214321 2 00971
e mail: nouri.aljarah@gmail.com

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 5460-11 ،
هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان ، ص.ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكتروني : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفني :
محمد سيبو ®
تصميم الغلاف : ناصر بخيت / السودان
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن
الصف الضوئي : القرية الإلكترونية / أبو ظبي + المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعي : مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشرين .

ISBN 978-9953-36-161-4

حول العالم في (76) عاماً

رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الأفريقي

(1916-1992)

نقولا زيادة

حررها وقدم لها: نوري الجراح

شبكة كتب الشيعة

٥٧٣٧٤

shiabooks.net

mktba.net < رابط بديل

يشرف على هذه السلسلة :

نوري الجراح

«المراقبة التي فرضت علينا في اللاذقية سنة ١٩٢٥ سبقتنا إلى الاسكندرون . فقد نقل الخبر إلى الأمن العام الفرنسي هناك أن جاسوسين - أو هكذا شبه للقوم - هما في طريقهما إلى الاسكندرون على ظهر الباخرة الخديوية . هذان الرجلان زارا مناطق العلويين وتحدثا إلى رجال الصحافة في اللاذقية . . .»

نص الرحلة ص 116

«أنا الآن في عاصمة وعد بلفور . . . وجهاً لوجه أمام أولئك الذين يفعلون ببلدي الكثير . وقد زاد الطين بلة مع الوقت قيام الإضراب ثم الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) وأنا في بلاد الإنجليز . .»

نص الرحلة ص 194-195

«في الفترة التي قضيتها في ألمانية عبر سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧ لم يكن هناك ورق تواليت للبيع . وكان الناس يستعملون ورق الجرائد . الاستعداد للحرب وكبح الحريات ، أظهر لي ما كانت تتمتّع به لندن وباريس من بحبوحة وحرية . .»

نص الرحلة ص 201

« . . . ولما مرّت سيارة الفوهرر أمام المشاهدين (في برلين) ، كان الترحيب به يشق عنان السماء . كانت أول مرة أشاهد فيها موكباً من هذا النوع . فموكب جمال باشا في طولكرم ، قبل ذلك بنحو عشرين سنة ، كان لعب أطفال ، بالنسبة إلى ما شاهدته في برلين . .»

نص الرحلة ص 207

استهلال

مكتبة عربية لأدب الرحلة . . . من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ ، وصخب لا ينتهي ، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة ، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات ، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير ، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش . مرايا تتعاكس ، بلدان قريبة وبعيدة ، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة . وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها ، بل يستغرق في ملامحها ، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها . . . تلك هي الرحلة ، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير ، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها . هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال ، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان .

***

بدأنا برحلة ، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة ، أما وقد وقفنا على أعتاب

الكتاب المائة فأي معجزة هذه . . ولم يمضِ على مشروع «ارتياد الآفاق» أربعة أعوام؟!

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة ، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج ، سالكين دروب الدهشة والخطر ؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين ، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه . أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب ، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات ، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل . إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض ، وسفراؤها إلى العالم ، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات ، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب .

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر . هذا شيء آخر غير أدب الرحلة ؛ واليوم ، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها ، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها .

الرحلة ، كما آلت إليه ، سفر في الأرض وسفر في المخيلة ، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود .

***

تَهْـدفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحـدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتـابةِ في ثقـافـتنا العربية ، من خلالِ تقديمِ كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتابٍ ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ،

لاسيما في القَرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشّرق، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلة جائعة إلى السِّحري والأيروسيّ والعجائبيّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر

الآخر للخروج من حالة الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتَّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرَّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديَّة مشوِّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوَّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

***

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي شارفت اليوم على المائة كتاب أسست ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلَّة مؤلَّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همَّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارَّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

***

ختاما ، أحيي رحالة من طراز آخر ، أولئك المثقفين المبدعين القائمين

على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين ، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد ، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه ، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين ، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر .

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة ، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام .

محمد أحمد السويدي

لندن – صيف 2006

المقدمة

نقولا زيادة علم من أعلام الثقافة العربية الحديثة ، مثقف أكاديمي موسوعي عني بتقديم سرود تاريخية وقراءات للتاريخ العربي في محطات أساسية على مدار أكثر من نصف قرن من النشاط الفكري الخلاق . وقد ميزت عناية زيادة بالتاريخ العربي انتباهة مبكرة لديه إلى أهمية الجغرافية في صناعة التاريخ وصناعة الحضارة . من هنا ، ربما تولد اهتمامه بالمدينة العربية ، وهو الذي اختص أساساً بالتاريخ المملوكي ، فضلاً عن اهتمامه بتدوين شيء من اليوميات والملاحظات المتعلقة بالسفر ، وأدب السفر ممثلاً بما تركه الجغرافيون العرب والمسلمون . . ونجد هذا الاهتمام مبثوثاً أيضاً هنا وهناك في مذكراته ويومياته التي صدرت في مطلع التسعينات .

وضع نقولا زيادة حوالي الـ65 كتاباً بين مترجم ومؤلف ومحرر ، تغطي ثلاثة حقول : التاريخ ، والتاريخ المتداخل مع الجغرافية ، ثم السيرة الذاتية في أفق موضوعي .

***

تعود علاقتي بنقولا زيادة إلى ثمانينات القرن الماضي في لندن . . وكنت أزوره في بيت ابنه رائد الواقع في منطقة غلوستر رود في العاصمة البريطانية .

في مطلع التسعينات كانت لي جولة ذكريات معه حول سكة حديد الحجاز التي وعى عليها طفلاً وكان والده يعمل فيها . كنت يومها مشغولاً بالتنقيب عن بدايات النقد الأدبي في بلاد الشام ، وأوائل الترجمات الأدبية الشامية عن الإنكليزية ، وكان لقائي الأول بزيادة من باب الحصول على شهادة منه حول أحمد شاكر الكرمي الابن البكر للشيخ سعيد الكرمي ، والأخ الأكبر للشاعر الفلسطيني الراحل عبد الكريم الكرمي أبو سلمى . وأحمد شاكر الذي توفي مصاباً بالسل سنة 1927 وكان نابغة أسس في دمشق مجلات أدبية أبرزها «الميزان» 1925–1927 ، وكانت أسبوعية رائدة نشر فيها الكرمي ترجماته من الشعر الإنكليزي ، خصوصاً شعراء البحيرات ، من أمثال شيلي ووردورث وبايرون ، ونشر على صفحاتها ترجمته لرواية تشارلز ديكنز الشهيرة «مذكرات بكويك» فضلاً عن آرائه ومقالاته النقدية ، وقد توقفت «الميزان» بموته المفاجىء . يومها قدّم زيادة لي شهادة قيمة عن الكرمي ، لم تخل من طرافة . ومما ذكره عن كرم هذا الناقد الشاب أنه وصل مرة إلى دمشق قادماً من الناصرة برفقة صديقه درويش المقدادي ، وقد نفدت نقودهما فلم يجدا غير أحمد شاكر الذي قدم لهما في تلك الأمسية آخر مجيدي يملكه ليمكنهما من العودة إلى الناصرة .

***

نشأت فكرة هذا الكتاب عندما اتصلت بنقولا زيادة سنة 2004 لأطلب منه الإذن بإعادة نشر كتابه «رواد المشرق العربي» الذي كان قد نشره في مصر مطلع الخمسينات . ووجدته مرحباً ومسروراً ، وقد أبدى إعجابه بمشروع «ارتياد الآفاق» ، وقال لي أتابع أخبارك في الصحف ، وأتابع هذا المشروع القيم الذي تشرف عليه .. إنه بلا شك عمل كبير . . وقد أخذ يشرح لي وجهة نظره في القيمة المستقبلية لهذا المشروع ، ووجدتني أشعر لا بالفخر وإنما بمزيد من المسؤولية إزاء ما وجدتني منغمساً فيه لسنوات بحثاً ودراسة وتحقيقاً في أدب الرحلة ، في ما يشبه انقطاعاً يكاد يكون كاملاً عن كل شيء إلا هذا الشيء المسمى أدب الرحلة . وقد أسعدني أن أكتشف أن تصور زيادة للأمر كان مشابهاً لتصوري له ، وأن حماسته للمشروع بدت منافسة لحماستي له . في تلك المحادثة اختصر زيادة الحديث بقوله : قبل «ارتياد الآفاق» كان أدب الرحلة العربي مهملاً ومحتقراً ، وبعده صار أدباً محترماً في نظر الناس ، هذا ما

سوف يسجله التاريخ الثقافي العربي لـ«ارتياد الآفاق» .

***

في تلك الحادثة لمعت في رأسي الفكرة . . قلت يا دكتور نقولا . . أنت أديب وناقد ومؤرخ ولكنك رحالة أيضاً . . ورحلاتك مبثوثة في مذكراتك وفي بعض كتبك الأخرى . قال : هات من الآخر . قلت : اقترح عليك أن تجمع نصوص هذه الرحلات من مظانها في أعمالك لتأخذ طريقها إلى القارىء العربي في كتاب مستقل . قال وتصدرها لي؟ قلت نتشرف بها . فهي مناسبة جداً لتخرج إلى النور في سلسلة «ارتياد الآفاق» . . ولم أتم كلامي حتى قال : اتفقنا .

مرت ثلاثة أشهر ، وفي صباح أحد الأيام دخلت مكتبي ووجدت طرداً بريدياً وفيه عنوان نقولا زيادة ببيروت . ها قد برّ الرجل بوعده ، وها أنا أتلقى الهدية بالصورة التي انتظرتها : رحلات نقولا زيادة مصنفة في كتاب . قلت هل تأذن لي أن أسميها؟ قال هي لك ، إنها رحلات نقولا زيادة . . ولك بعد ذلك أن تعطيها الاسم الذي يفي بهذا المعنى . استغرقت قراءتي لها أسبوعاً . .

ووجدتني في أسفار مع نقولا زيادة تمتد من سنة 1916 وحتى سنة 1992. وتغطي قارات العالم القديم الثلاث : آسيا ، وأوروبا وأفريقيا .

***

أولى رحلات نقولا زيادة المدونة كنص رحلي في الكتاب كانت من فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني إلى لبنان وسورية الواقعتين تحت الانتداب الفرنسي سنة 1925 برفقة صديقه وأستاذه الشاب درويش المقدادي ، رغم أن رحلته الفعلية الأولى المشار إليها في مذكراته كانت سفره برفقة أمه من دمشق إلى الناصرة إثر وفاة والده خلال الحرب العمومية الأولى سنة 1916 . وثاني رحلاته المدونة من الناصرة إلى المملكة البريطانية المتحدة سنة 1935. ثم بعد ذلك بين إنكلترا وألمانيا رحلات متواصلة من (1935) إلى (1939) خلال فترة دراسته في هذين البلدين الأوروبيين . أما باقي الرحلات فكان جلها بمثابة سفرات قصيرة ، لعل أطولها خلال فترة عمله في ليبيا ما بين سن التاسعة والأربعين والحادية والخمسين . وقد زار زيادة تركيا أيضا في سنة (1951) قادما إليها من ليبيا . وكذلك عاد فزار ليبيا في (1968) قبل وصول

القذافي إلى الحكم . وقام بعدة زيارات إلى المغرب في السنوات : (1959 - 1965 - 1966 - 1979) لكنها تميزت بكونها زيارات عمل . وبالطريقة نفسها زار تونس في السنوات : (1951 - 1959 - 1961 - 1968 - 1970) . والجزائر مرتين : في (1951 و1978) . ومن (1956) إلى (1992) زار كلا من العراق والبحرين والكويت وقطر والسعودية والإمارات . وآخر رحلاته إلى بلدان الخليج العربي كانت سنة (1992) . ولم ينقطع نقولا زيادة منذ أول مجيء له إلى بريطانيا سنة 1935 بقصد الدراسة ، وحتى أواخر التسعينات عن السفر إلى لندن التي ظل طوال حياته يؤثرها على غيرها من البلدان الأوروبية ، ولا غرابة في ذلك ، ففضلاً عن وجود بيت ابنه فيها ، فقد كانت البلد الأوروبي الأول الذي نهل فيه نقولا العلم .

***

ما إن فرغت من القراءة حتى عدت إلى العم نقولا بهذا العنوان : (حول العالم في 76 عاماً - رحلات مثقف فلسطيني في آسيا وأوروبا والشمال الإفريقي 1916 - 1992) . ووجدته سعيداً بالعنوان . . وقد علق يومها : ليش ما سميتني المثقف الشامي . . ألا تريدني أن أكون شامياً؟!

والواقع أن نقولا زيادة الذي يجمع في صوته وكلماته ثلاث لهجات معاً الفلسطينية والشامية واللبنانية هو أكثر من يليق به أن يحمل هذه الصفة «المثقف الشامي» فهو مَعْلَمَةٌ من بلاد الشام ، ومثقف قومي عربي ذو نزعة إنسانية تأسست نظرته على احترام الآخر أياً تكن قوميته أو عقيدته الدينية ، أو نزعته الفكرية ، ما دام شريكاً في بناء الحضارة ، وليس في تدميرها . وها أنا أستبدل شاميته الحضارية بوطنيته الفلسطينية .

***

كنت أسابق الوقت ليخرج الكتاب في حياة الصديق الكبير الراحل . لكن القدر كان أسرع ، والموت أسبق . آخر مرة تحادثنا فيها على الهاتف قبل شهرين من رحيله . . لم تكن الحرب قد فاجأت لبنان ، وبيروت كانت تقضي يوماً من أيامها العادية . . سألني عن الكتاب ، فقلت إنه في طريقه إلى المطبعة في بيروت . . مضت أسابيع قليلة ، وفجأة انقلب كل شيء رأساً على عقب . . عادت الطائرات

الإسرائيلية لتقصف المدن والبلدات اللبنانية ، والمدفعية البحرية المهولة بأصوات قذائفها المدوية راحت تصب حمم النار والموت . . . الجدران العالية تنهار على الأطفال والأبنية تتقوض لتدفن تحتها عائلات لم يسعفها الوقت لفهم ما يجري والتحرك بعيداً عن بيوت راحت تتحول إلى قبور . في تلك الأثناء كنت في سراييفو . . المدينة التي حاصرها الصرب المتعصبون لأربع سنوات . . دمروا فيها ما دمروا وقتلوا من أهلها من قتلوا بعشرات الآلاف . . ها هو الموت الذي ترك آثاره في المدينة الأوروبية الجميلة . . يبدأ من جديد في توقيع اسمه على بيروت . . فجأة وفي غمرة هذا العدوان البشع على المدنيين الآمنين حملت الأخبار . . من مدينة المقاومة العربية الأشرف خبر رحيل نقولا زيادة . . لكأن المؤرخ الذي شارف على عامه الـ99 يقول : لا قبل لي بتدوين هذه الصفحة مرة أخرى!

كان زيادة قد أرخ للاجتياح الإسرائيلي ولحصار بيروت الشهير سنة 1982 . الذي عشنا دقائقه وساعاته وأيامه اللاهبة ، وانصهرت أرواحنا بناره . . كانت نار أرواحنا أيضاً . . هناك ، وكنا نولد من جديد .

***

لطالما كنت معجباً بشخصية هذا الرجل بدأبه على الكتابة ، وبإخلاصه للبحث ، ووفائه للكلمات . ظل حتى أواخر أيام حياته يقرأ ويبحث ويكتب . إنما إن كان ثمة ما يطبع شخص زيادة بطابعه . . ولا يمكن أن يخطئه شعور ، هو تلك المحبة التي تشع بها روحه ، وتلك الطيبوبية التي يغمر بها أصدقاءه وتلامذته ومعارفه . إنه قطعة خالدة من الحب . حب كل الناس وقبلاً هو ذلك المثقف الموسوعي الذي أمكنه إلى جانب قسطنطين زريق تخريج دفعات متعاقبة من المثقفين العرب الذين تتلمذوا على يدهما في الجامعة الأميركية وجامعات عربية ولبنانية أخرى على مدار عقود أربعة امتدت من أواسط الأربعينات وحتى أواسط السبعينات ، قبل أن يتفرغ زيادة للتأليف بعيداً عن السلك الأكاديمي .

***

يسطر على هذه الأسفار والرحلات التي قام بها زيادة شرقاً وغرباً على مدار 75 عاماً الاهتمام التأريخي والأدبي والفكري ، ولعل غوص زيادة كمؤرخ في تفاصيل

التفاصيل المتعلقة بالعصر المملوكي جعلت من ملاحظاته حول الأمكنة والحوادث والفنون المرتبطة بهذه الحقبة سروداً إسلامية شائقة . لاسيما إذا ما أخذنا في اعتبارنا تلك المعالم الحضارية المملوكية التي تذخر بها المدن الإسلامية في مشرق العالم العربي والتي اهتم بها زيادة بصورة خاصة . وإذا ما يممنا معه شطر المغرب ، نجد أنفسنا بإزاء مثقف عربي يرى في ما أضافته الأندلس وأضافته دول الموحدين والمرابطين في الغرب الإسلامي عملاً خلاقاً ، ودفعاً حضارياً في اتجاه ولادة الثقافة العالمية الحديثة عبر أممية ، وكوسموبوليتية المختبر الأندلسي . لقد خبر زيادة المثقف العربي ذي الثقافة التأريخية الإسلامية الرفيعة أثر الشرق في الغرب من خلال معاينات ومراجعات ودراسات مدققة للمنجز الغربي على مفصل العلاقة بين الشرق والغرب . وهو ، شأنه في ذلك شأن جل أبناء النخبة المتنورة العربية ، اعتبر الإسلام طابعاً حفر نفسه عميقاً في ثقافة جميع الشرقيين ومن بينهم المسيحيين العرب الذين ينتمي زيادة إليهم ، والذين أسهموا بجلاء في تطوير اللغة العربية ، وبناء فكر عربي حديث وأصيل .

لن أصادر على قارىء هذا الكتاب فأستبق الرحلة باستحضار العلامات والصور التي تركها المؤلف على طرقات أسفاره وجولاته ونزهاته في الجغرافيا والثقافة والناس ، بل أترك لهذا القارىء أن يسلك على طريقته في مغامرة القراءة والفرح بالاكتشاف .

نوري الجرّاح

سراييفو أواخر 2006

إشارة

اعتمد هذا الكتاب في جانب أساسي منه على مؤلفاتي التالية :

1- نقولا زيادة : أيامي ، سيرة ذاتية في جزأين

Hazar Publishing London

1992

Edition Hazar, Paris

هزار غرافيكس بيروت

وبالتعاون مع الأهلية للنشر والتوزيع بيروت

2- نقولا زيادة

أفريقيات

رياض الريس للكتب والنشر

Riad El-Rayyes Books

London 1991

3- نصوص لم تنشر : بينها استجواب نوري الجراح لي في لندن سنة 1994 حول سكة الحديد الحجازية المنشور كملحق في الكتاب .

عملت على جمع هذه الأجزاء والأوراق الخاصة برحلاتي نزولاً عند طلب صديقي ناهض الهمة الشاعر نوري الجرّاح المشرف على ما أعتبره أول وأهم مشروع عربي من نوعه يختص بالأدب الجغرافي بطريقة تمزج بين العلم والأدب على نحو بارع ، وتعيد الاعتبار للعبقرية العربية في أدب الرحلة بطريقة لم يسبق لها مثيل . وإنه لمن الأريحية والواجب مساندة هذا العمل الذي نهضت له جماعة عالمة وملهمة من الأكاديميين العرب من أهل المشرق والمغرب ، والتأم جمعها في «ندوة الرحالة

العرب والمسلمين : اكتشاف الذات والآخر» التي إن فاتتني أن أكون عضواً فاعلاً فيها بسبب عزوفي عن السفر وجلوسي في بيروت ، فلا يفوتني أن يكون كتاب رحلاتي في منشورات «المركز العربي للأدب الجغرافي» الذي ينظم الندوة دورياً ، ويمنح جائزة فريدة في أدب الرحلة تحمل اسم شيخ الرحالين العرب ، بل رائدهم في العالم ، فلا مثيل ليوميات ابن بطوطة في أدب الرحلة بكل اللغات .

ولا أخفي هنا فرحي كلما قرأت الاسم الأدبي لهذا المركز «ارتياد الآفاق» فهو اسم على جسم وعَلَمٌ على فكرة إلى أبعد الحدود ، لما يجسده من معاني المغامرة مع نصوص السفر بحثاً وتحقيقاً وإبداعاً ونشراً في مضمار طال إهماله ، بل طالما اعتبر شأنه صغيراً ، وهو مضمار علم وأدب طالما شغفت به ، وألّفتُ فيه أكثر من كتاب منذ أواسط القرن الماضي ، وقد طال الوقت حتى صارت لهذا الأدب مؤسسة عربية تعنى به . بينما تأسست له في الغرب جمعيات ومراكز بحث ودور نشر مختصة منذ مطلع القرن التاسع عشر .

نقولا زيادة

بيروت أواخر 2005

من أيامي المبكرة

في الشام

1916-1907

دمشق مسقط رأسي

في 2 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1918 بلغت الحادية عشرة من عمري . فأنا مولود في الثاني من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1907 .

التاريخ الذي يعود إلى سنة 1918 ، له أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ العالمي ولحكاية هذا الشاب الحائر خاصة . فالحرب العالمية الأولى كانت قد انتهت قبل ذلك بثلاثة أسابيع إذ عقدت الهدنة في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر (تشرين الثاني / نوفمبر) سنة 1918 . وبانتهاء الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية العثمانية قد انتهى أمرها واقعياً ، وإن كان تخليها عن أملاكها السابقة وانكفاؤها دولة تركية ، لم يتم قانوناً إلا سنة 1923 .

أمّا بالنسبة لي أنا ففي ذلك اليوم ، أو ما يقاربه عرفنا أن أبواب المدرسة في جنين (في الجزء الشمالي من فلسطين) ستفتح . ذلك بأن بعض الضبّاط الألمان ، الذين كانوا جزءاً من مركز الطيران العسكري الألماني في جنين ، كانوا قد اتخذوا المدرسة مسكناً لهم ؛ وبذلك كنّا نحن ، الأولاد الذين يجب أن نجلس على مقاعد الدراسة لنتعلم ، نقضي ساعات النهار في الأزقة والحارات والشارع الوحيد في جنين ، وبعد الاحتلال البريطاني حل ضباط إنجليز مكانهم لبعض الوقت ولذلك فإن المدرسة فتحت في مطلع سنة 1919 ودخلنا المدرسة .

وقبل أن أتحدث عن هذا الشخص الحائر ، أي عن نفسي ، أود أن أقصّ على القرّاء ، باختصار كلي ، ما كان قد مرّ بي قبل أن أبلغ الحادية عشرة من عمري .

أبواي من بلدة الناصرة (في شمال فلسطين) وهي البلدة التي أنجبت السيدة

العذراء ، أم المسيح . والذي أعرفه أنه كان ثمة سبعة جدود ، من جهة والدي ، سكنوا الناصرة ، فأنا نقولا بن عبده بن عبد الله بن حنا بن خليل بن حنا بن زيادة . والذي عرفته فيما بعد هو أن أصل هذا الجد من جهات السلط (الصلت) في الأردن . وجدتي لأبي هي وردة الكردوش ، ويعود أصل هذه الأسرة إلى عشيرة الكرادشة في الأردن . ومن جهة أمي فإن الذي رواه لي جدي لأمي هو أن أمي هي ليا (الين) بنت عبد الله أسعد (شُرُش) ريحاني . وجدي عبد الله هذا مولود في الناصرة في السنة التي انسحب فيها إبراهيم باشا ، القائد المصري ابن محمد علي باشا من بلاد الشام (1840) . وكان أبوه (أو جده؟) قد هاجر إلى الناصرة من الحصن (في الأردن) وهذه البلدة هي مقر الرياحنة العشيرة التي ينتسب إليها هذا الجد . وجدتي لأمي من أسرة الحداد الحورانية الأصل . واسمها وردة . وهكذا فأنا أتمتع بأن أسمي جدي (لأبي وأمي) هو عبد الله وأسمي جدتي (لأبي وأمي) هو وردة . ولعل هذا من حسن طالعي .

لكن والدي كان يعمل مساعد مهندس في سكة حديد الحجاز ، وكان مقره في دمشق . فأنا ولدت هناك ، في بيت نقولا الشاوي في باب مصلّى في حي القرشي من الميدان (التحتاني) . فأنا دمشقي من هذه الناحية .

في صيف سنة 1912 كنت في منتصف السنة الخامسة من عمري . ويبدو أنني بدأت أدرك أنه من حقي أن أستفسر عن أمور عائلية ، وأنه يترتب على أبوي ، وخاصة والدي ، أن يتسع وقته لي . وقد كانت الأحوال ملائمة لذلك . فنحن كنا قد انتقلنا قبل مدة إلى أحد البيوت القريبة من مكاتب مؤسّسة سكّة الحديد الحجازية ومخازنها ومستودعاتها ومصانعها . كانت هذه البيوت تتألف من طابق (دور) واحد ؛ كانت مبنية من الطوب (الآجر أو اللبن) والخشب ، لكنها كانت مرتبة ونظيفة . وقد بنتها مؤسّسة السكّة الحديدية خصّيصاً لموظفيها ، وكان والدي واحداً منهم . كان أكثر القاطنين في حينا الصغير ، إذا جاز التعبير ، من الموظفين الألمان ، وكان هناك ثلاث أو أربع أسر يتكلم أفرادها اللغة العربية . وكان هناك رجل ألماني زوجته عربية ؛ هذه الأسرة ربطتنا بها صداقة خاصّة . ذلك أن أبي كان يتقن الألمانية ، أمّا أمي فلم تعرف منها سوى كلمات قليلة . لذلك كانت هذه الأسرة ، ونصفها يتكلم العربية ،

فرجاً لأمي .

كانت لكل بيت قطعة من الأرض ؛ كان المقيم في البيت حراً في استغلالها – لكن لم يكن حراً في تركها مهملة . وكان أبي يأتي إلى البيت مبكراً . وكانت أيام العطلة الصيفية ، وكنت أقضي أيامي في البيت .

وكان ما شغل بالي أننا نحن مجموعة صغيرة – أبي وأمي وأنا وأختي ماري . وكانت خالتي صوفيا ، التي تعمل ممرضة في المستشفى الإنجليزي في القصّاع تزورنا . لكن عرابي (إشبيني) أسعد صيقلي مثلاً كان له إخوة وأخوات وزوجته ثلجة كان لها إخوة وأخوات . وجارهم العزيز وشريك أسعد إلياس يارد له أقارب . لذلك كان فريد ، ابن أسعد وهو من جيلي ، يتحدث عن أولاد عمه وأولاد خاله وهكذا دواليك . فلماذا لا يكون لنا نحن أقارب مثلهم . حتى أخي الثاني (بعد أختي) قسطنطين كان قد تُوفي وهو بعد طفل .

حول هذه النقطة ، على ما أذكر إلى الآن ، (أي بعد ست وسبعين سنة ، إذ إنني أكتب هذا في صيف سنة 1988) بدأت أسئلتي لأبي . إذ طلبت منه أن يفسر لي لماذا لا يوجد له أو لأمي أقارب . أذكر أنه أخذني إلى نَشَزٍ في الأرض وأجلسني إلى جانبه وقال لي ، مفسراً وضعنا ، ما معناه : نحن يا ابني لسنا من الشام (دمشق) نحن أغراب هنا بمعنى أننا بعيدون عن بلدتنا . لذلك لا تجد أقاربي أو أقارب أمك حولك . أقاربنا في بلدتنا الناصرة .

قام أبي ودخل إلى البيت وعاد ومعه كتاب . فتحه وقال لي : إن الكتاب يحتوي على خرط (جرب أن يفسّر لي معنى الخريطة) والكتاب يسمّى أطلس . وفتح صفحة جمعت بين دمشق والناصرة لأنها ، على ما يبدو ، كانت تمثل التقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام . جرّب أن يبين لي أن المكانين بعيدان جداً (وقد كان يومها) واحدهما عن الآخر . لذلك لا يمكن لأقاربنا أن يزورونا .

وأوضح لي أنه يوجد لنا في الناصرة أقارب . وقال إن أباه ، يعني جدي ، عبد الله زيادة ، كان يملك محلاً تجارياً في سوق الجوخ في الناصرة . وسوق الجوخ كانت تباع فيه الأقمشة على اختلاف أنواعها ، وهو سوق التجار المحترمين ، ولو أنه لم يكن سوق التجار الأغنياء ، فهؤلاء كانوا في الجرينة . جرب أبي ، في مناسبات كثيرة أن يصف

لي الناصـرة ، لكن شـيئـاً من ذلك لـم يدخل رأسي . ولم أسـتطع أن أتبين معـالم الناصرة إلا لما زرتها لأول مرّة (وأنا واعٍ) سنة 1916 ، وبعد أن أقمت فيها وترددت عليها . ولأسرع إلى القول بأن الأجزاء المحورية من الناصرة لم تتبدل بين سنتي 1916 و1945 إلا قليلاً . لذلك فإن وصفي لها فيما بعد ينطبق عليها لما كان أبي يقيم فيها وهو يافع .

وتعدَّدت أسـئلتي وتعـدَّدت جلسـاتنا وأحـاديثنا ، وكـانت أمي تزودني ببعض المعلومات / الأسماء لأقاربها . والذي عرفته من أبي أن أباه كما ذكرت كان تاجراً في سوق الجوخ ، وأن شخصاً أطلق عليه النار وأرداه قتيلاً ، وهو شاب ، وكان له ولدان أبي وعمي رشيد . ورشـيد كان يقيم يومها في ألمانية . وأم أبي ، جدتي لأبي ، وردة الكردوش لا تقيم في الناصرة . وعرفت من أبي أن له ابنتي عم لطيفة وعفيفة (زيادة) تقيمان في الناصرة . كما عرفت أن أقاربه كثيرون لكنهم لا يستعملون اسم زيادة بل اسمين آخرين سكران وقنيش .

لكن الذي فهمته يومها من أبوي أن أسرة أمي المعروفة في الناصرة باسم «شُرُش» كبيرة . وأن أمي لها أخوات كثيرات وأخ وحيد وأبواها (عبد الله ووردة) يقيمان في الناصرة .

والذي أخبرته في تلك الصـيفيـة أنني أنا ذهبت إلى الناصرة مع أمي في زيارة لوالديها ، ولكنني كنت صغيراً - دون السنة الواحدة من العمر - لذلك لا أتذكر شيئاً من ذلك . ثم وعدني بزيارة للناصرة ، وعندها سأرى هؤلاء الأقارب . ولكن لما وصلت الناصرة بعد ذلك كان أبي قد تُوفي ودُفن في دمشق (في مقبرة مار جريس) . أحسب أن هذه الأحاديث أنعشتني . ذلك أنني لما عدت إلى بيت عرابي (إشبيني) أسعد صيقلي بعد العطلة الصيفية كنت أتحدث عن أقاربي في الناصرة .

كان من الطبيعي أن تتصل الأحاديث . فبعد أن عرفت أننا من الناصرة . كان لا بدّ لي أن أسأل ، وأن أعرف ، لماذا نقيم نحن في دمشق؟ ما الذي جاء بنا إلى هذه المدينة الكبيرة؟

قصة أبي، في سنواته الأولى، كما حكاها لي فضلاً عما أضافته أمي فيما بعد، ثم ما نقلته عن جدي لأمي (عبد الله أسعد شُرُش ريحاني) لما أقمنا في الناصرة في بيته، تدور حول بضعة أمور، كل منها هو تاريخ جيل في بلادي. أبي مولود في سنة 1880 وأخوه رشيد أصغر منه بسنتين. قُتل أبوه عبد الله، التاجر في سوق الجوخ وأبي في نحو العاشرة من عمره. كان الناس قد تنبهوا إلى أهمية التعليم.

والناصرة كانت تزود الصغار، صبياناً وبنات، بالتعليم إلى مثل السن التي كان فيها أبي. وإذن ينبغي عليه أن يخرج من الناصرة، والمكان الوحيد هو القدس. لكن الفقير يجب أن يذهب إلى مدرسة توفر عليه النفقات. والفقير اليتيم يفتش عن دار للأيتام. وكانت المدرسة التي هي محط آمال الأولاد (والبنات) الذين كانوا على هذه الشاكلة «دار الأيتام السورية» (شنلر) في القدس. أنشئت هذه المدرسة سنة 1862 وكانت أصلاً تعنى ببعض الأيتام الذين فقدوا أهلهم في حروب السنتين بلبنان. ثم وسعت أعمالها فأخذت التلاميذ من جميع المناطق وافتتحت أقساماً صناعية فنية ظلت، حتى إقفالها في الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلت، في مقدمة المؤسسات العلمية - الصناعية في المنطقة.

يبدو أن إلهة الحظ كانت ترفرف على رأسي أبي وأخيه، فقد أُدخلا كلاهما مدرسة شنلر. وأقاما فيها وقتاً كافياً ليتقن فيه الاثنان اللغة الألمانية، وليتعلم عمّي صناعة الخياطة. أما أبي فكان يعنى بالرسم الهندسي ودراسة المساحة: شيء يمكن أن يسمّى على طريق الهندسة، لكن في الخطوات الأولى.

ترك أبي المدرسة قبل أخيه. فقد تزوجت أمه ثانية وأراد زوجها، الذي كان يعمل في التجارة، أن يعتني بالولدين ليعتنيا أيضاً بتجارته. لبّى أبي الدعوة، وانضمّ إلى زوج أمّه. أمّا عمّي رشيد فقد بقي في المدرسة حتى سنة 1901، وعندها أرسلته المدرسة إلى ألمانية ليتعلم صناعة الخياطة تخصّصاً كي يعود ويعلّمها في المدرسة ولم يعد عمّي من ألمانية. وقد زرته في فرستن فلده أن درشبري (Furstenwalde an der spree) على مقربة من برلين في ربيع 1936، وكنت يومها طالباً في جامعة لندن؛ ولمّا

عدت في صيف العام ذاته وجدته قد انتقل إلى رحمته تعالى مخلّفاً زوجته الألمانية أيْما وابنه هاينز .

أخبرني أبي في أحاديثه أننا نحن نقيم في بيت يخصّ مؤسّسة سكّة حديد الحجاز لأنّه هو يعمل فيها . وهذه السكّة ، كما يعرف الناس ، كانت مشروعاً مهماً من مشروعات عبد الحميد الثاني ، سلطان تركية (1876–1909) . وقد بُدئ العمل بالمشروع في أيلول / سبتمبر سنة 1900 ، بقصد وصل دمشق بالمدينة المنورة أولاً ثم بمكّة المكرّمة وأخيراً باليمن . وفي سنة 1902 بدأت الشركة بمد فرع يصل درعا بحيفا ، وهو الذي تمّ بناؤه سنة 1906 .

المشروع كان حميدياً . والأموال كانت مسلمة ، والسكة اعتبرت وقفاً إسلامياً ، لكن العاملين في الشؤون الهندسية كانوا ألماناً أولاً ، ثم انضم إليهم مهندسون عرب .

أخبرني أبي أنه جاء عليه وقت تضايق من العمل التجاري من زوج أمه . لست أذكر فيما إذا كان السبب شخصياً أم أنه كان يتعلّقُ بنوع العمل . وكانت الشركة بحاجة إلى موظفين . وساعده أنه كان يتقن الألمانية ؛ فتعيّن بالمؤسسة وقّافاً على العمال ، وفرع درعا – حيفا في دور الإنشاء . وكانت منطقة عمله في الجزء من السكة الحديدية الذي يبدأ فيه الانحدار من الهضبة السورية نحو غور الأردن ، وينتهي عند محطة سمخ (غربي نهر الأردن) . وحتى بعد إتمام بناء الخط احتفظت الشركة بأبي مع ترقية . وفي أحد الأيام في خريف سنة 1906 كان يتنقل في مكان عمله بين الصخور على جانب الخط ، فشبك قنبازه – وكان يرتدي القنباز مع أنه في المدرسة لبس البذلة – ووقع ، وأصيب بكسور في عظام الساعد والكتف . فنقل إلى المستشفى الإنجليزي في الناصرة (أظن أنه كان يُسمّى مستشفى باثغيت (Bathgate) باسم الطبيب الذي أنشأه وعني به لسنوات طويلة) . وأعطي إجازة طويلة ليستريح ، مع وعد أو شبه وعد بترقية كبيرة ، ونقل من حقول العمل إلى أحد المراكز المستقرة . وأظن أن أبي كان يحسب أنه سيرسل إلى حيفا ، حيث كان لسكة الحديد مكتب كبير . وحيفا ، التي لا تبعد سوى نحو 35 كيلومتراً عن الناصرة ، كانت شيئاً مناسباً له .

إلا أن أمرين حدثا غيّرا مجرى حياة أبي ، ومن ثم حياة أسرته . فقد تعرف وهو

في الإجازة بالناصرة على أمي ، طبعاً التعرف كان في حدود التقاليد التي تقتضي مراعاة الحشمة والأدب التي كانت تفرضها الأحوال والقواعد الاجتماعية . وكما كان يقول زميلنا في مدرسة عكا الثانوية المرحوم جبرائيل خوري ، «كل شيء تنصيب ، إلا الزواج قسمة ونصيب» . وهكذا حكمت القسمة وصار النصيب وتزوج عبده عبد الله زيادة ليّا عبد الله أسعد شرش في 19 شباط 1907 ، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة ، أما أمي فقد ولدت سنة 1885 .

هذا هو الأمر الأول . أما الأمر الثاني فإن الإدارة كافأت والدي على نشاطه ومعرفته (اللغة الألمانية وأصول الرسم الهندسي) وتعلمه اللغة التركية ، فنقلته إلى دمشق – المركز الرئيسي – بمعاش جيد ووظيفة فنية ، إذ ضم إلى مكتب المهندسين بما يصح أن يسمى (تجوّزا) «مساعد مهندس» .

وهكذا عرفت لماذا كنا نعيش في دمشق . وعرفت أنني مولود في دمشق . أما التفاصيل عن تاريخ الزواج وتواريخ ولادتنا جميعاً فقد كانت مدونة على الجلدة الخارجية (لكن من الداخل) للكتاب المقدس يسجل فيه رب الأسرة أول ما يسجل تاريخ زواجه . ثم يدوّن تاريخ ميلاد كل من الأطفال ؛ وكان الكتاب لا يزال عندنا بعد وفاته بمدة قصيرة ، ثم اختفى ، أما هذه التواريخ فكانت مسجلة بالتاريخ الشرقي (أي اليولياني) والتواريخ معدلة للحساب الغربي (أي الغريغوري) كانت كالآتي :

زواج عبده وليّا (الناصرة) 19 شباط 1907 .

ولادة نقولا (بيت نقولا الشاوي . دمشق) 2 كانون الأول 1907 .

ولادة ماري (في الناصرة) 30 تشرين الثاني 1908

ولادة قسطنطين (بيت الشاوي . دمشق) 10 شباط 1910 (توفي طفلاً)

ولادة ألفرد (في المستشفى الإنجليزي بالقصاع) 24 حزيران 1913

ولادة جورج (بيت سليم شموط) 27 نيسان 1915

صور دمشقية

إنني أذكر ، من أيام طفولتي الأولى ، بيت نقولا الشاوي ، الذي كان أول بيت

سكناه في دمشق . كان للمنزل فسحة مربعة تتوسطها بركة مستديرة لها حنفيتان تيسران للسكان الحصول على الماء . كانت البرك التي تقام في وسط الفسحة في البيوت لها حفة قليلة الارتفاع . لكن بكرة بيت الشاوي كانت حفتها مرتفعة ، وذلك للحفاظ على أرواح الصغار . والمبنى كان له بوابة في الجهة الشرقية ، فإذا دخل الواحد عرصة الدار دارت به أربعة جدران ، في كل منها درج يصعد إلى طابقين فوق الطابق الأرضي .

كنا نحن نسكن الطابق الأول (فوق الأرضي) في الجهة الشرقية . وفي نفسي صورتان مرتبطتان بهذا المسكن : الأولى هي وفاة أخي قسطنطين . أذكر أنه حمل من البيت ، وأذكر أن الفرشة التي كان ينام عليها ، وكنا نتقاسم غرفة واحدة ، لفت على نفسها على التخت . ولما لم يرجع قسطنطين من رحلته استغربت ذلك . وكانت أمي قد قالت إنه ذهب إلى المدرسة (أما لماذا يذهب هو إلى المدرسة وهو الأصغر ولا أذهب أنا ، فلم يفسره لي أحد) . وهل يتصور القارئ ما الذي شعرت به . بل وخفت منه ، لما جاء الوقت للذهاب إلى المدرسة . خشيت أن لا أعود ، وقد بكيت كثيراً . أما كيف أزيلت عقدة الخوف من المدرسة من نفسي ، فأمر لا أدريه ، لأنني لم أدركه يومها .

أما الصورة الثانية فتتعلق بالطبيب الذي عالج أخي وهو مريض . كان اسمه الدكتور ملحم . وكان الدكتور ملحم جاراً للبناية التي نقيم نحن فيها - كما يقولون جار الحيط . كان الرجل بديناً ، وكانت بدانته تبدو واضحة لأنه قصير القامة . وكان جميع المرضى في الجوار يعرفون الدكتور ملحم ، إما في عيادته أو في بيوتهم . وفي يوم من الأيام ، وكان ذلك بعد وفاة أخي بمدة قصيرة ، انتشر الخبر في بيت نقولا الشاوي أن الدكتور ملحم مات . الصورة هذه المرة كانت صورتي - كيف يمكن للدكتور الذي يعالج المرضى ويشفيهم أن يموت هو؟ إنني أتصور الآن نفسي يومها وأنا أركض من جارة إلى جارة سائلاً إياهن كيف يمكن أن يموت الحكيم؟ ولم أسأل أمي فهي التي أذاعت النبأ ، ولما جاء أبي سألته كيف يمكن للحكيم أن يموت! لست أذكر ما الذي قاله ، ولكنني بقيت مدة وأنا حائر في هذه القضية . وزاد من اضطرابي أنني رأيت أمي والجارات ، وقد لبسن الثياب السوداء أو الغامقة جداً على الأقل ، ذهبن إلى بيت الرجل المتوفى لزيارة زوجته . لماذا يزرنها في هذا اليوم؟

لكن مما أذكره جيداً في تلك الأيام زيارة خالتي منيرفا ، التي كانت تقيم في الإسكندرية مع خالي الأرشمندريت (المتروبوليت فيما بعد) إيليا ديب . خالتي كانت متقدمة بالنسبة لذلك العصر . قضت عندنا بضعة أيام ثم ذهبت إلى بيروت لتبحر منها إلى الإسكندرية . أثناء إقامتها عندنا كانت تأخذني معها إذا خرجت «للتبضع» . أذكر أنها دخلت يوماً محل جبران بدرا على يمين الطريق المؤدي من ساحة المرجة (الشهداء ، التحرير) إلى الصالحية . هذا الشارع كان يشغل رصيفا عريضا نسبياً وخط تراموای وطريقا للعربات والدواب ، وكل هذه كانت جزءاً من الجسر الذي كان يقوم فوق نهر بردى ؛ وفي الجهة المقابلة ، على الطرف الآخر من الجسر كان يقوم رصيف وخط تراموای وطريق للعربات .

محل جبران بدرا كان ، في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى ، المكان - أظن الوحيد- الذي يمكن تبتاع فيه اللحوم المعلبة في دمشق . والمحل كان يعتمد على الزبائن الأجانب . وكان فيه معكرونة وشوكولاته وما شابه ذلك . وقد ابتاعت خالتي يومها علبة أسطوانية الشكل فيها لحمة مقطعة شرحات رفيعة ، وقد سمتها ، لما طلبتها من البائع ، مرتدلا .

أما الشخص الذي كان يزورنا أكثر ، والذي كانت زيارته تملأني غبطة - يومها وبعد ذلك- هو خالتي صوفيا . كانت صوفيا أصغر من أمي ببضع سنوات . وكانت تختلف عن أمي . أمي كانت قصيرة بدينة بيضاء البشرة كستنائية لون الشعر عسلية لون العينين . خالتي صوفيا كانت طويلة سمراء سوداء الشعر دعجاء العينين ، ناهدة الصدر والمشي . كنت مغرماً بها . ودون أن نرجع إلى فرويد أو غيرهما ، ودون أن أحاول - لا يومها ولا بعد ذلك ولا اليوم - تفسير الأمر - كنت أحبها . وقد زعلت جداً لما تركت دمشق وذهبت لتعيش في الناصرة . لكن مصيبتي الكبيرة جاءت لما مرضت بالكوليرا ومرضتها أنا بنفسي وسجيتها في التابوت . لقد ماتت صوفيا .

لعله آن لي أن أصف أبي وصفاً طبيعياً . كان نحيف الجسم ، أصلع على أن الشعر الذي لا يزال مقيماً في رأسه كان أسود . عيناه كانتا سوداوين ، وجبهته عريضة . كان يجيد الحديث ، ويتحدث على مهل . لكن إذا غضب كانت القيامة تقوم - صياحاً وصراخاً لا أكثر ولا أقل . ولم تدم العاصفة طويلاً في غالب الأحيان .

ومما أذكره أيام إقامتنا في بيت نقولا الشاوي هو أن أحد السكان – وقد نسيت اسمه – أوصى رجلاً من حوران أن يحضر له ضرفين من السمنة ، والضرف هو جلد العنزة (واحدة الماعز) مخيطاً لمثل هذا الغرض بعد قشطه وتنظيفه . وجاء الرجل بضرفي السمنة في يوم شامس لطيف . وسلم السمنة وسئل عن السعر فقال إن ثمن الضرفين ليرتان عثمانيتان .

كانت الدولة العثمانية قد أدخلت ، قبيل الحرب العالمية الأولى ، النقد الورقي ، ووضعت النقد موضع التنفيذ ، لكنها كانت تدفع نصف معاشات الموظفين والعاملين في المؤسسات الرسمية ، ذهباً والنصف الثاني ورقاً . وطلبت كذلك من السكان أن يدفعوا للدولة المستحق عليهم مناصفة . وأمرت بأن يكون التعامل بين الناس على هذا الأساس . لذلك فإن جارنا ناول الرجل ليرة ذهبية وليرة ورقية . أخذ الحوراني الليرة الذهبية فلفها بالليرة الورق ووضعها في كيسه بعناية ، ثم التفت إلى جارنا وسأله متى يعود لأخذ الليرة الثانية! الحوراني لم يعرف هذا الأساس الجديد للتعامل التجاري أو لعله لم يعترف به . وظن أن الورقة الملونة كانت للف الليرة الذهب حفاظاً عليها . ولما هم جارنا بالشرح والتفسير ظن الحوراني أن الرجل يمازحه . ولست أدري كيف انتهى الأمر ، أو لعل الأمر لم ينته . وعلى كل أنا أذكر الحادثة ولكنني لم أعرف خواتيمها .

بيت نقولا الشاوي مرتبط بأفراد عائلتنا بطريقة عضوية . فقد ولدت أنا فيه . كان أبي قد اتصل بالدكتور ماك إنو (Mc Enno) طبيب المستشفى الإنجليزي بالقصاع في ضاحية دمشق الشمالية الشرقية ، وسجل اسم أمي هناك وهي حامل . ويبدو أنها كانت تذهب هناك للفحص ، فلما اقتربت أيامها لتلد رُتب كل شيء بحيث تنقل إلى المستشفى عند اقتراب الساعات الحرجة . وفي صباح يوم الاثنين . قبيل الساعة السادسة صباحاً (2 كانون الأول / ديسمبر 1907) نزلت أمي على الدرج لتحضر بعض الماء من النافورة . هناك شعرت بالطلق فحملها أبي إلى البيت تمهيداً لنقلها إلى المستشفى . لكن الطلق اشتد ، وجاءت النسوة فساعدن ، واقترحن دعوة القابلة (القانونية؟) الموجودة في الحي . ولم تكد القابلة تصل وتعدّ نفسها حتى سقط رأسي في بيت نقولا الشاوي في باب مصلى من حي القرشي في الميدان التحتاني

بدمشق . كانت الساعة السادسة والربع صباحاً . هذه رواية أمي . روتها لي أكثر من مرة . وفي إحدى المرات كانت «زعلانة» مني لأنني عملت شيئاً بسرعة فأخطأت فقالت لي : «أي أنت من أصلها مستعجل . ما خليتنا نروح على المستشفى مثل الناس . عجلت وولدت في البيت» .

يمكن أن يدرك القارئ لماذا سميت نقولا . أولا ميلادي كان قريباً من عيد مار نقولا (6 كانون الأول/ ديسمبر) ثانياً صاحب البيت اسمه نقولا ، وقد كان صديقاً لأبي . وكنت أسمع أبي يقول فيما بعد كانت أيامنا في بيت الشاوي سعيدة .

الرحلة الأولى إلى الناصرة

أختي ماري/ملفينا لم يعجبها على ما يبدو أن تولد في دمشق . بعد ولادتي ببضعة أشهر حملتني أمي إلى أهلها في الناصرة . كان لأمي أربع أخوات وأخ وهذا كان الأصغر واسمه سامي . البنات هن فرحة وعطرة وليًا وكاملة وصوفيا . فرحة التي غيّرت اسمها إلى منيرفا لما كانت في الإسكندرية لأن زملاء أخيها الأرشمندريت (فيما بعد المتروبوليت) إيليا ديب ، وهم يونان ، لم يستطيعوا لفظ الحاء فأصبح اسمها فرخة . ولأنها كانت معجبة بالأساطير الكلاسيكية ، اختارت منيرفا اسماً لها . ولم تكن قد تزوجت يوم ولدت أنا . هي في الواقع سافرت إلى أميركا مع أخيها لما أصبح أسقفاً (مطراناً) وتزوجت نخلة متى من حصرون ، وسمت ابنيهما هومير وفرجيل وابنتيها بنلوب وسيبل . وعطرة كانت قد توفيت . أما كاملة وصوفيا فلم تكونا قد تزوجتا (صوفيا لم تتزوج قط) . لذلك فقد كنت أنا أول حفيد لعبد الله شرش (جدي لأمي) ووردة الحداد (ستي لأمي) . فكان من الطبيعي أن تحمل المولود الأول وهو صبي (ما شاء الله!) إلى الناصرة كي تكتحل عينا الأبوين / الجدين برؤيته . ورافقتها خالتي صوفيا في السفرة .

كانت أمي قد حملت ثانية ، فلما وصلت الناصرة ، وقضت هناك بعض الوقت - كانت صعوبات السفر كبيرة لذلك يجب أن يقضي الزائر من الوقت ما يساوي المتاعب التي يتحملها في الطريق . نعم بعد أن قضت هناك بعض الوقت ، رؤي من

المناسب أن لا تعود إلى دمشق في الشهرين الأخيرين ، إذ إنها ستترك الناصرة في عربة إلى العفولة (نحو ساعتين) ثم ستركب القطار (قطار سكة حديد الحجاز) من العفولة إلى دمشق ، وكان يقضي المسافر القسم الأكبر من النهار وبعض الليل في الطريق . فالسفرة كانت مزعجة ولامرأة حامل في أسابيعها الأخيرة . إذن فلتلد الطفل الثاني في الناصرة . والمستشفى الإنجليزي هناك جيد وتسجيل اسم أمي فيه ميسر بسبب صلة خالتي صوفيا به وبمن فيه . ولكن لما أقمنا في الناصرة فيما بعد ، ورأيت المسافة التي تفصل بيت جدي عن المستشفى والطريق إليه أدركت أنه كان العبث أن يفكر امرؤ عاقل بنقل أمي إلى المستشفى . وأدركت عندها لماذا جيء بالداية (القابلة) ، ولكن على مهل ، ووضعت أمي أختي في بيت أبيها . وأختي أصغر مني بسنة تنقص ثلاثة أيام .

حامي الحجاج والمسافرين

كان من المألوف في الأسر المسيحية أن يعطى الطفل أو الطفلة اسم قديس أو قديسة عند المعمودية ، إضافة إلى الاسم الأصلي إن لم يكن الاسم نفسه يتصف بالقداسة . أنا سُميت نقولا ، فلما عمدت ظل اسمي نقولا ، تيمناً بالقديس نقولا حامي الحجاج والمسافرين والصبايا . (بهذه المناسبة لأن القديس نقولا هو حامي الحجاج ، فهناك تقليد عند أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب في بلاد الشام أن يطلقوا لقب حاج على كل من اسمه نقولا) . أما أختي فقد سميت ملفينا وعند المعمودية أعطيت اسم ماري ، تيمناً بالسيدة العذراء ، فغلب عليها هذا الاسم بحيث إنها هي نسيت في وقت من الأوقات أنه كان لها اسم ثان . وأهل الناصرة يلفظون الاسم مَري ، ولذلك فقد كان اسمها في الناصرة ، ولا يزال عند الناصريات يلفظ مَري لا ماري .

لست أذكر سبب تسمية الأخ الثاني لي (الطفل الثالث في العائلة) قسطنطين . لعل أبي كان له صديق بهذا الاسم . والذي أعرفه أن قسطنطين كان أول من ولد في المستشفى الإنجليزي . لكن هذا الأخ تُوفي طفلاً .

كنت إذا خرجت من بوابة دار الشاوي سرت في زقاق مبلط إلى الشارع الرئيسي . النقطة التي تلتقي بها الشارع الرئيسي تُسمّى (إلى الآن) باب مصلى وكانت يومها تذكر بالجامع والسبيل . ولا يزال الجامع والسبيل قائمين (وقد رأيتهما لآخر مرة في ربيع 1987) . لكن المنظر العام اختلف . يومها كان خط الترام الذي يصل المرجة بالميدان يمر في الشارع الرئيسي . فبعد أن يخرج من المرجة كان الخط ينحرف جنوباً ويستمر في اتجاهه جنوباً ماراً بطرف سوق الحميدية تاركاً سوق النحاسين إلى اليمين ثم يسير إلى الميدان وباب الله (أو بوابة الله) . ووسائل النقل التي كانت تزاحم الترام هي الكارّات والخناطير والحيوانات ، بما في ذلك الجمال ، التي كانت تنقل إلى دمشق غلات حوران والأردن ، وخاصة الحبوب والسمن ؛ وتحمل من دمشق ما يحتاجه السكان هناك من الأقمشة والمصنوعات الجلدية ، خاصة ما تحتاجه الخيول والجمال والحمير ، والسكر والبن والزيت . وكان القطران الذي يستعمل كثيراً للجمال المصابة بالجرب من السلع المهمة . وكانت تظهر بين الجزء والجزء من الطريق ساحات فيها مخازن كبيرة هي التي تتلقى منتوجات الحبوب وتعد لأهل الجنوب حاجاتهم . لذلك كان من الضروري أن تكون هناك ساحة تتسع لعشرات من الإبل تأتي لتلقي أحمالها أو لتتلقى عليها الأحمال . من هذه الساحات في الميدان التحتاني تلك التي كانت تقع أمام مخازن عرابي (إشبيني) أسعد صيقلي وأخيه خليل وشركاهما . ولا تزال صورة براميل القطران الضخمة ماثلة أمام ناظري إلى الآن ، مع أنه قد مر عليها أكثر من سبعة عقود من السنين . وقد يحدث أن يأتي بدوي فيبتاع حاجته من القطران يضعه في وعاء ثم ينتبذ من دون الناس مكاناً قصياً ، ويدهن جسم جمله أو إبله معالجاً إياها ثم يعود أدراجه . ومن هنا كانت رائحة القطران ، تغلب على أي رائحة أخرى هناك .

وكانت هناك دكاكين بقالين وسمانين صغيرة كثيرة في باب مصلى .

ورد اسم أسعد صيقلي كثيراً ، كما وردت الإشارة إليه أنه عرابي . ولست أدري ، أو لعلي لا أتذكر ، كيف تعرف أبي الناصري على هذا الرجل الشهم الكريم ، الذي أصبح يعتبر عبده زيادة وأسرته كأنهم جزء من أسرته . وقد كان ابن أسعد ، فريد ، مجايلي ، فكان صديقي . لكن فريد تُوفي مبكراً ، وتوفي أسعد قبل سنة 1925 ، أما ثلجة أم فريد فقد زرتها مع زوجتي مرغريت في بيتها في دمشق سنة 1945 . ولا يزال جورج بن أسعد صيقلي حياً ؛ وتربطني به وبزوجته هند اللحام صداقة متينة .

لست أذكر ، بطبيعة الحال ، شيئاً عن الاحتفال بعمادي وما الذي فعله أسعد صيقلي . لكن أسعد كان عراب أخي ألفرد أيضاً . وأذكر أنه لمناسبة حفلة المعمودية وضعت المكسرات - الملبس والبندق وما إلى ذلك - في ألكان (الطشوت الكبيرة) الغسيل وخلطت قبل أن توضع في علب أو أكياس لتوزع على الذين حضروا العماد في الكنيسة .

أعرف أننا انتقلنا من باب مصلى (بيت الشاوي) إلى القدم - إلى بيوت مؤسسة سكة حديد الحجاز ، وأرجح أن هذا كان في أواخر ربيع 1911 ، إذ إن الذي لا تزال ذكراه قائمة في نفسي هو أن نقلتنا جاءت بعد وفاة أخي قسطنطين .

وهنا بدأت صفحة جديدة في حياتي . كنت قد أرسلت إلى المدرسة في مطلع تلك السنة . والمدرسة التي أدخلتها كانت مدرسة الفرير القريبة من بيتنا ؛ وهي أقرب إلى ما نسميه اليوم دار حضانة . لكن انتقالنا إلى القدم كان معناه الامتناع عن الذهاب إلى المدرسة . فالقدم مكان بعيد حتى للكبار ، فكيف بالنسبة للصغار . ولعلّي لم أرسل إلى تلك المدرسة بقية الفصل المدرسي بعد انتقالنا إلى القدم . إلا أن الأمر حسم في مطلع العام الدراسي الثاني . حسمه عرابي أسعد صيقلي . كانت تقوم على مقربة من بيتهم مدرسة خاصّة ، وهي التي كان يذهب إليها ابنه فريد ، وهو من سنّي . إذن أذهب أنا إلى تلك المدرسة ، وأقيم عندهم في البيت . وأقضي يومي السبت والأحد في بيتنا . وهكذا حلت المشكلة .

لست أذكر كيف تلقيت الأمر عند البدء بهذه المعيشة المقسمة ، لكن الذي أذكره

إلى الآن هو أن الأوقات التي قضيتها هناك كانت سعيدة . البيت كبير ، وفريد صديق عزيز علي ، وعمّي أسعد وزوجته ثلجة كانا يعاملاننا كما لو كنّا أخوين . مواعيد الدرس والنوم واللعب جميعها معينة معروفة . ووقت القصص التي كانت تحكيها لنا أخت أسعد ، وقد نسيت اسمها ، كان معروفاً . والمدرسة كانت مكاناً سعدنا به كثيراً . أظن أنه لم يعلمنا فيه معلم قط ؛ تعليم صفنا لمدة السنتين وبعض السنة كان على يد معلمات لطيفات . كنت أُسَرّ كثيراً عندما أذهب إلى البيت . وكان أبي يتابع أعمالي المدرسية بعناية . وهذا كان يشجعني . وأيام الفرص التي كنت أقضيها في البيت كانت أيام تدريب لي . فأبي كان يعطيني رفشاً صغيراً كي أساعد في الحديقة ، نكشاً وسقياً وتعشيباً ؛ وأمي كانت تكلفني أعمالاً صغيرة في المطبخ ؛ وكانت أختي ماري تكره ذلك لأنني ، بوصفي أكبر منها بسنة ، كنت أسرع منها في إنجاز ما يطلب مني . فكانت كثيراً ما تحرد ، وتنتظر عودة أبي من العمل لتشتكينا له .

ولادة الفرد

أعرف أن أمي تغيبت عن البيت بعض الوقت ، وأعرف أنها لما رجعت كانت ينتظر منها أن تستريح . يخيل إلي أن هذا كان في صيف سنة 1912 ، إذ إنني كنت يومها مقيماً في البيت . لذلك أصبح علينا أن نعمل - أنا وأختي - أكثر من ذي قبل . وقد جاءت خالتي صوفيا فقضت عندنا بضعة أيام للمساعدة والتسلية . وكانت هذه أياماً سعيدة بالنسبة لي . فأنا كنت فعلاً أحب خالتي .

على أن هذا كله لم يكن الشيء المهم . إن الشيء المهم كان في الحديث الذي يدور في البيت وأمام الزوار وخلاصته أن أمي يجب أن لا تحمل ، لأن هذا يعرض حياتها للخطر . ومعنى هذا أنني لن يتاح لي أن يكون لي أخ آخر أو أخت أخرى . ولعلّ هذا هو ما أثار في نفسي هذه الأسئلة الكثيرة حول الأقارب التي عرضت لي والتي ألقيتها على أبي في صيف سنة 1912 .

على أن الأمر الذي كان الكل يخشاه حدث . ففي مطلع سنة 1913 اتّضح لنا أن أمي حامل . وكم خشيت أن أعود من بيت عمي أسعد في أحد الأيام فأجدها قد

ماتت . إذ إن هذا هو الحديث الذي تردد طيلة شهور في بيتنا .

كانت أمي تذهب في أوقات معيَّنة إلى المستشفى الإنجليزي لإجراء الفحوص اللازمة . وكانت تعود دوماً مطمئنة إلى أن كل شيء كان على ما يرام .

ولكن لم يكن الباقون - أبي وبعض الأصدقاء والجيران على قلتهم هناك - يقبلون ذلك دوماً . وأخيراً اقترب الوقت كي تدخل أمي المستشفى لتلد ، على أن تقضي هناك أياماً إضافية كي تعالج معالجة خاصَّة .

كنت أيام وجودها في المستشفى في البيت - شهر حزيران 1913- وكنت أصلّي من أجلها بحرارة . وأخيراً وضعت صبياً في 24 حزيران من تلك السنة ، ثم جاء اليوم الذي عينه الطبيب لمغادرتها المستشفى . في ذلك اليوم استأجر أبي حنطوراً حملنا نحن الثلاثة -- هو وأنا وأختي - وحمل معنا خروفاً مسمَّناً كان أبي يعنى به دون أن يقول شيئاً . كان هذا هدية للطبيب (يعني للمستشفى) . وفي المستشفى وجدنا أمي وأخي وقد أعدا للرحلة إلى البيت ، وجاء الطبيب فودع الجميع ، وقال لي (وكان يجيد العربية ، ويتكلمها باللهجة الشامية) : صار إلَك أخو ، واسمه مثل اسمي .

من هنا كانت تسمية أخي ألفرد ، وهو اسم الطبيب . لكن لما حان موعد عماده فُتش له عن اسم قديس ووقع الاختيار على فلاديمير ، وهو قديس كبير في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية . ولكن لماذا هذا الاسم البعيد؟ كان لخالتي زميلة تعمل معها عرضة في المستشفى . وكان لهذه خطيب روسي الأصل اسمه فلاديمير ، فَرَجَتْ أهلي أن يطلقوا هذا الاسم على ألفرد . وهكذا كان . وعلى كلٍّ فقد كان من حظ أخي أن اسمه الأول - الأقصر والأسهل - هو الذي شاع ، فيما نُسيَ الاسم الآخر بالمرة . (وكنت أنا قد نسيته إلى أن ذكرتني أمي به فيما بعد) . ونحن كنا ، في الواقع ، نسمع اسمه ألفرد يُلفظ بأشكال مختلفة في جنين ، خصوصاً وأنه كان على شيء من الشقاوة ، فكان ينادى «بألف قرد» ، وحتى الشيخ الوقور سعيد مرعي دعاه بهذا الاسم مرة . وهذا ما حمل أخي ألفرد أن يأتي البيت حانقاً (وهو في سن السابعة تقريباً) ويقول لأمي : خلص أنا ما بدي هالاسم ، بدي غيره ، لأن الناس ينادونني «ألف قرد» . ولما سألته أمي عن الاسم البديل ، قال دون تردد («محمد» لأنه ما حدا يلفظه بشكل آخر) .

عادت أمي إلى البيت بعد ولادة ألفرد ، استراحت أياماً إضافية ، وذهبت لزيارة الطبيب بضع مرات ثم ثبت للجميع أنها حملت وولدت ولم تتعرّض صحتها لأي خطر . بل الذي حدث أنها حملت مرة أخرى ووضعت أخي الأصغر جورج في 27 نيسان سنة 1915 .

لكن لما جاء جورج كنّا قد تركنا بيت السكة الحديدية وانتقلنا لفترة قصيرة إلى بيت سليم شموط ، حيث ولد أخي على يد قابلة . أظن أن والدي لم يستطع يومها أن يدفع نفقات المستشفى .

مشاكل في سكة الحديد

كان الألمان يسيطرون على إدارة سكة حديد الحجاز سيطرة تامة . صحيح أنه بعد البدء بالعمل انضمّ إلى المهندسين الألمان عدد من العرب والمسلمين خاصّة إذ إن الألمان المسيحيين لا يمكن أن يعملوا في الحجاز . وقد تولّى جماعة من العرب حتى بعض الشؤون الإدارية . لكن القول الفصل ظلّ للألمان . وإذا تذكرنا أنّ العملَ في السكة الحجازية ، خاصّة بعد 1905 ، اتفق زمنياً مع تقوي النفوذ الألماني سياسياً وعسكرياً في إستانبول ، أدركنا ما كان يمكن أن يتعرّض له العاملون العرب في سكة حديد الحجاز على أيدي رؤسائهم الألمان . ويبدو أن الذي مكّن لوالدي ، بعد نقله إلى دمشق ، من الاستمرار في العمل سنوات يعود إلى أن رئيسه كان من طينة ألمانية ألين أو أنقى أو أصفى . لكن هذا الرئيس تبدل في مطلع سنة 1914 ، وقامت الخلافات بين الرجلين ، ويبدو أن أبي لم يُنْصَفْ ، فقرر ترك العمل ، على ما عرفت من أمي فيما بعد . وكان ذلك في أواخر صيف 1914 .

أما الذي أدركته أنا من القضية هو التبدل في حياتنا . فقد كان على أبي أن يتخلّى عن بيت السكة ، وبسرعة . فانتقلت الأسرة ، وكانت الآن أبي وأمي وأنا وماري وألفرد ، إلى بيت خشبي مؤقت هو جزء من بايكة كبيرة . والإقامة لم تطل هناك إذ حمل أبي وأمي الأسرة إلى بيت سليم شموط ، في الميدان أيضاً . هذا البيت كان يقع في الطابق الأول ، وكان صغيراً ومرتباً ، لكن الحي لم يكن على ما يجب .

أذكر إلى الآن أنه كان على مقربة من بيتنا دُكان صغير تباع فيه حلويات الأطفال . ملبّس (لم نسمه يومها بومبون ، لأننا لم نعرف الكلمة) وقضامة وقرمش وغزل البنات . كنا نحصل على خرجية بسيطة هي نحاسة (وقيمتها القانونية هي واحد من 640 جزء من الليرة العثمانية) . ولكن كان يكفينا نصفها لنبتاع ملء اليد (الصغيرة طبعاً) من هذه الأشياء المنوعة مجتمعة . وأذكر أنه كان إلى الجهة الغربية من المبنى ساحة مهملة كنّا نلعب فيها أيام العطلة الصيفية .

وفي بيت سليم شموط ، في الميدان ، ولد أخي جورج ، وكان اسمه عند الولادة والعماد ميشيل ، ولكن لتبديل اسمه قصة لعلّني أتذكر أن أرويها في مكانها . وولد على يد قابلة . ولم أدرِ يومها لماذا حدث هذا بعد أن ولد ألفرد في المستشفى . لكن أمي أخبرتني فيما بعد أن العمل الذي حصل عليه أبي بعد تركه الشركة لم يكن مربحاً مثل قبل ، ولذلك كان على الوالدين أن يتدبرا الأمور بالتي هي أهون أو أيسر ، وقد لا تكون الأحسن .

والدي سائق ترامواي

أمّا أبي فقد عمل سائقاً للترامواي في دمشق ، وكانت ساعات عمله طويلة . فلم أكن ألقاه إلا قليلاً ، باستثناء أيام عطلته . ومع كل ما كان يقع على كاهله من تعب ومسؤوليات كان يعنى بدروسي . أمّا المدرسة التي ذهبت إليها بعد عودتنا إلى الميدان فكانت مدرسة الفرير ، التي قضيت فيها بعض الوقت من قبل . وكان والدي يجيد العربية . لذلك كان عوناً لي في هذا الموضوع . وأذكر أنني لما أدخلت المدرسة وفحصت وعين الصف المناسب لي ، حضرت الدرس الأول باللغة العربية وكان الكتاب جزءاً من «مدارج القراءة» لجرجس همام . وكان المعلم - وهو راهب - يوقفنا صفاً على شكل شبه دائرة حوله في بعض الأوقات ، ويقرئنا . فإذا أجاد الواحد منا نقله المعلم إلى اليمين (يعني رفع مركزه) وإذا أخطأ نقله يساراً . أمّا إذا كان خطؤه كثيراً فإنه يعاقب بالطبشة عدداً من الضربات على يده ، بحيث يتناسب عددها مع عدد أخطائه . والطبشة هي خشبة طويلة كفاية للضرب ، لها عند القبضة يد مدورة ،

ثم تمتد كأنها لوح صغير من الخشب ، بحيث إنها عندما تستعمل لضرب الولد على يده تغطي اليد كلها ؛ فلم تكن كالخيزرانة أو العصا . والذي أعرفه أنني لم أذق طعم الطبشة ، بل كان المعلم ينقلني يميناً المرة بعد المرة ، حتى أصبحت على رأس نصف الدائرة . ولا شك أنه كان للعون الذي كنت أتلقاه من أبي فضل في ذلك .

الحرب العالمية الأولى

كان أبي موعوداً بعمل جيد ، ولكنَّه قبل أن يحصل عليه ، طُلِبَ للجندية . فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد قامت ، ودخلت تركية الحرب إلى جانب دول الوسط أي ألمانية وحليفاتها .

قبل ذلك ، وقبل أن يولد أخي الأصغر ، تركت خالتي صوفيا دمشق وعادت إلى الناصرة . كانت ، كما عرفت فيما بعد ، مخطوبة لرجل شامي من بيت سماره ؛ لكن خلافاً قام بينهما ، ففسخت الخطبة ، وقررت خالتي أن تعود إلى بيت أبيها ، لأن أبويها في الناصرة كانا يومها وحيدين ، فقد تزوجت كاملة وانتقلت إلى كفر ياسيف . وأخذت خالتي أختي ماري معها ، على أساس أنها يمكن أن تعود مع خالي عندما يأتي لزيارتنا . ولكن خالي لم يأتِ يومها ، وظلت ماري عند بيت جدها ، ولم أرها إلا سنة 1916 لما رجعنا إلى الناصرة .

وانتقلنا من بيت سليم شموط إلى بيت عرب ، في الميدان أيضاً . لكن بيت عرب كان كبيراً وفيه عائلات كثيرة وله ساحة واسعة مبلطة لكنَّها بدون بركة . وأحسب أنَّ أبي فضَّلَ أن تكونَ أمي بين عائلات ، إذ إنه كان يتأخَّر في ساعات عمله في الترامواي . وقد كانت هذه النقلة مفيدة لنا لما انتهى الأمر بأبي أن جُنِّدَ ، وكنَّا وحدنا ، أمي وأطفالها الثلاثة ، والصغير رضيع .

وصف دمشق

بالنسبة لي كانت دمشق يومها تمتد من (ساحة) المرجة إلى الميدان التحتاني .

طريق الترامواي ، وبعضها كنّا نمشيها دوماً . وأهم ما كان يتفرّع منها سوق الحميدية ، الذي كان يتعامد على سوق النحاسين (شارع جمال باشا اعتباراً من أواخر 1914 أو أوائل 1915) . سوق الحميدية لم يكن مجموعة من الحوانيت والدكاكين التي تبيع مصنوعات مستوردة من قماش ونايلون وألومنيوم وأرز وسكر كما هي الحال اليوم . لا لا . سوق الحميدية كانت الحوانيت فيه تحتوي على أجمل المصنوعات الشامية والحلبية من أقمشة البروكاد وشراشف التنتنة وأغطية اللحف الحرير وصايات القنابيز الحريرية والديما (القطنية) وحرائر ثياب العرائس والمرايا ذات البراويز النحاسية والفضية التي صنعتها أيدي مهرة الصناع السوريين والخزائن المزخرفة والطاولات والكراسي المطعمة بالصدف وعلب لعب الطاولة الأنيقة الصنع والأراكيل العادية والمذهبة ونرابيشها الملونة وملاقطها النحاسية . كانت هذه الحوانيت محط أنظار أهل العروسين لشراء ما يجب : القماش مع التخريج والأزرار والكلفة ، والقنباز الذي يخيطه الخياط العربي في سوق الحميدية ويثبت أزراره مكانها بعد أن يلف حولها الأبريم الحريري الرفيع . وفي حوانيت سوق الحميدية كانت تبتاع المناشف التي تحملها السيدات إلى الحمام ، وهي لم تكن تقل أناقة عن الثياب ، والطاسات النحاسية التي ترافق بقجة الحمام ، وإن كانت لا تستعمل . وإلى المنشفة والطاسة كان لا بد من الوزرة الحريرية (أو القطنية) الملونة والمزخرفة خطوطاً حمراء وعنابية وسوداء ، لكن لم يكن فيها زخرف صور .

وحوانيت سوق الحميدية كانت واسعة ومجهزة بأماكن للجلوس . إذ قلما كانت السيدة تذهب منفردة . فهي إما أنها تصطحب جارتها (أو تفرض جارتها نفسها عليها) ، أو تكون في رفقة أخريات خصوصاً عند تجهيز العروس . وحتى الرجال كانوا يذهبون ثنى أو جمعاً . الشراء -شراء الأشياء- سواء للنساء أو للرجال ، كان بحاجة إلى الرأي المشترك أولاً . ثم كان من المناسب ، إن لم يكن ضرورياً ، أن يكون أحد أعضاء الجماعة يعرفه صاحب الحانوت ، ليعرف الجماعة عليه وبالعكس .

شراء الحاجيات ، من أي حانوت ، كان دائماً مرتبطاً بالمعرفة الشخصية . ولا يزال مجتمعنا إلى الآن (أنا أكتب سنة 1988) يربط بين الشخص الذي يبيع وما يريد أن يبتاعه ؛ المحل / الشخص / السلعة مرتبطة الواحدة منها بالأخرى ومن هنا كان

للجماعة أهمية في الشراء . يضاف إلى ذلك أن المساومة (المفاصلة) كانت أمراً عادياً مألوفاً في عملية البيع والشراء . والجماعة أقدر على المساومة من الفرد .

كان على مدخل سوق الحميدية ، من جهة شارع جمال باشا صُنّاع القيمق (الدندرمة ، البوظة ، الجيلاتي) الذين يقومون بخفقه وضربه في أوعية كبيرة . ولأنهم كانوا يضيفون المستكا (المسطكي) له كان يمط . ومع القيمق كان هؤلاء الناس يحضرون الليموناده . كل ذلك كان طازجاً ، يحضر يومياً تقريباً . وفي أيام الشتاء كان هؤلاء الباعة أنفسهم يهيئون البزورات والقرفة والشاي .

والزبائن كانوا على نوعين - الواحد هو الفئة التي تقصد هذه الأماكن لأكل القيمق أو شرب الليمونادة أو البزورات والقرفة أو الشاي . وهم في غالبهم من الذين يصلون سوق الحميدية للشراء ، أو الذين يقصدون الجامع الأموي للصلاة . فالجامع الأموي كان يقع عند النهاية الشرقية لسوق الحميدية . أما النوع الثاني من الزبائن فكان الجماعات التي تقصد الحوانيت للشراء . إذ كان صاحب الحانوت يضيفها ، تكريماً لما يمكن أن تشتري . ومن القصص التي كانت تروى عن تجار سوق الحميدية أن صاحب الحانوت كان ، عندما تدخل عنده جماعة من الزبائن ، يطلب من الصبي الذي يعمل عنده أن يحضر للزوار الشاي أو ما يطلبون . وكان «الصبي» «يغيب» ؛ فإذا لم يبتع القوم شيئاً من الحانوت ، أو كانت البيعة على قد الحال فلا قيمق ولا ما يحزنون . أما إذا تم البازار وكان «بيحرز» ، عندها يصرخ صاحب الحانوت على الصبي معزراً إياه على تقصيره ، فيذهب ويحضر المطلوب .

الحميدية والأموي

كان الجامع الأموي مكاناً أقصده مع أبي للزيارة . كان أبي معجباً ببنائه وزخرفته وإيوانه وأعمدته وأبوابه . وكان يحدثني عنها ، لكنني لا أدعي أنني كنت أدرك هذا كله أو حتى بعضه ، إذ إن آخر مرة زرت الجامع بصحبته كانت وأنا في سن السادسة . لكن شيئاً واحداً حفظته وهو أن غليوم الثاني إمبراطور ألمانية لما زار دمشق (1898) زار الجامع الأموي ووضع رمزاً للاحترام على قبر صلاح الدين المدفون هناك .

ولذلك لما قرأت، وقرأ معي أولاد صفي، في دار المعلمين في القدس سنة 1922 قصيدة شوقي التي نظمها لهذه المناسبة، شعرت بشيء من الزهو لأنني كنت الوحيد الذي رأى ذلك. أما مطلع القصيدة فهو:

عظيم الناس من يبكي العظاما
ويندبه، ولو كانوا عظاما

كنّا، سواء كنت مع أبي أو مع أمي، لا نكتفي بالمرور بسوق الحميدية، وقد نبتاع وقد لا نبتاع شيئاً، لكن كان لا بدّ من الدخول في بعض الأسواق الأخرى المتّصلة بسوق الحميدية والتي كانت تبدو بالنسبة لي متاهات: سوق العطارين وسوق ساروجا وسوق البزورية والقباقبية وما إلى ذلك. في هذه الحوانيت كنّا نرى - ونبتاع - الحلاوات على اختلاف أنواعها والمربيات والمسكرات والمكسرات وقمر الدين والنقوع والبهارات والعطور والثمار المجففة. وفي سوق القباقبية، كان يمكن للواحد أن يبتاع القبقاب العادي أو المزخرف، أما القبقاب المزخرف الخاص فلا بدّ أن يأتي من سوق الحميدية، سواء أكان قبقاباً للبيت أو قبقاباً للحمّام، وسواء أكان للعروس أم لقريباتها.

وممّا كان يمكن أن يشرب في هذه الأسواق في أيام الصيف العرقسوس، وهو شراب، كما يعرف الكثيرون، يصنع من نقع جذور السوس (وكان يؤتى بالجيد من منطقة حلب). وكان البائع يحمله في قربة ويحمل بيده الكاسات ويقرعها الواحدة بالأخرى بحيث يكون لها صوت منتظم، هو إعلان عن بضاعته.

ولم يقتصر باعة العرقسوس على الأسواق أو المرجة، بل كان هؤلاء القوم يحملون قربهم إلى الحارات والأزقة في فصل الصيف، وهم يقرقعون بطاساتهم، وكان السكان يخرجون ويبتاعون منهم كميات توضع في أباريق كي يستمتع بها أهل البيت في السهرة. وكان البعض منهم يحملون القرب على عربات صغيرة ويحملون معها قطعاً من الثلج الطبيعي ملفوفة بخيش، كي لا تذوب بسرعة، فكان البعض يبتاع قطعة من الثلج يضيفها تدريجياً إلى العرقسوس كي يظل بارداً.

أمّا الثلج الطبيعي فكان يحمل من جبل الشيخ، ويخزن في مخازن خاصة به، بحيث لا يذوب. وقد كنت أستغرب كيف يظل الثلج كذلك حتى رأيته بنفسي في

مخازن الثلج . لكن أي عجب أو استغراب زال فيما بعد لمّا قرأت أنه في أيام الفاطميين في مصر (357 - 567 / 969 - 1171) والمماليك (648 - 922 /1250 - 1517) كان الثلج يحمل صيفاً من جبال لبنان ومن جبل الشيخ إلى القاهرة إمّا على الإبل أو في البحر كي يستمتع أولو الأمر بشرب الماء المثلج في حر القاهرة .

ساحة المرجة

ساحة المرجة كانت قلب دمشق من حيث تفرع الطرق منها إلى جهات المدينة . بعضها يذهب إلى الصالحية ، على سفح جبل قاسيون حيث يقوم ضريح ابن العربي (تُوفي 1248) . والصالحية ، كما عرفت بعد سنوات ، نمت لمّا استقرَّ بها بنو قدامة الذين هاجروا من سلفيت ، في جهات نابلس ، إلى دمشق بسبب احتلال الصليبيين لبلادهم .

المهم في الصعود إلى الصالحية هو أنك من هناك ترى دمشق منتشرة أمامك من الغوطة إلى الصالحية ومن الشمال إلى القدم . وترى الجامع الأموي يكاد يتوسط المدينة . هذا كان يومها ، أما الآن (1987 - 1988) فقد اختفت الغوطة تقريباً ، بسبب الحاجة إلى دور السكن ، وامتدت أحياء الميدان إلى القدم تقريباً . والطرق الضيقة التي كانت تدور حول المدينة وداخلها ، استعيض عنها بطرق واسعة تتمركز حول البحرات السبع وتنتشر منها : شارعا بغداد وحلب وغيرهما .

السيران

وكانت هناك جنينة الحليب . وهي حديقة على مقربة من باب توما . جنينة الحليب كانت خاصة بالعائلات . وكان فيها مكان خاص للصغار يلعبون فيه . جنينة الحليب أصبحت ملجأنا للنزهة بعد أن ترك أبي العمل في سكة حديد الحجاز . أما قبل ذلك ، وبعد عندما تسمح الظروف ، فقد كان مكان النزهة الأسبوعية لموظفي السكة في دُمّر . السفر بسكة حديد دمشق - بيروت (في الصباح والعودة في المساء)

مجاناً. ودُمّر فيها أماكن جميلة للسيران (أي ليوم الشطحة أو شمة الهواء). أذكر أن أمي كانت تقول يوم نذهب إلى دُمّر كان أبي يضع في جيب صداريته نصف ليرة عثمانية ذهباً ويقول هذه لهذا اليوم.

إلا أن السيران لم يكن إلى دُمّر فقط. كان هناك المَزّة وغيرها. وهنا كان على الذاهبين أن يلجأوا إلى الدواب. والمهم أن أمي أخبرتني فيما بعد أنه عندما كانت الأسرة تعتزم سيراناً من هذا النوع كان أبي يستأجر دابة خاصّة مع خُرج (أي مع كيسين محيكين معاً، يقع كل كيس منهما على جهة من جهات الدابة - البغل أو الحمار) وكان أبواي يضعانني أنا في عين من عيني الخُرج، ويضعان أختي ماري في العين الأخرى.

وكانت لنا زيارات للمستشفى الإنجليزي، إمّا لزيارة خالتي أو لزيارة الطبيب، الذي كانت تربطه بأبي صداقة متينة.

زيارة غريغوريوس حداد

كانت كاتدرائية طائفة الروم الأرثوذكس، وهي، مع ما حولها، مقر البطريركية الأرثوذكسية (الإنطاكية) هذه كانت كنيستنا أولاً، لكن كانت زيارتنا لها لا تنتهي عند الفراغ من القدّاس الإلهي. كانت العادة أن يذهب المصلُّون لزيارة البطريرك. وكان بطريرك الأرثوذكس يومها غريغوريوس حداد (1906 - 1928). فكنا إذا ذهبنا لحضور القدّاس الإلهي نذهب لزيارة البطريرك. ولم أكن أعرف لماذا نزور البطريرك، وأهم من ذلك أننا كنّا نلقى رعاية من غبطته. ظلّ هذا غير واضح لي إلى أن عرفت أن خالي - إيليا ديب- كان مطراناً في الكرسي الأنطاكي وكان متروبوليت صور وصيدا وتوابعهما. ولو أنه كان يومها في أبرشيته، وقلّما يكون في دمشق. وأنا لم أعرف خالي المطران فقد غادر البلاد (1911) إلى أميركا الجنوبية لزيارة أبناء الطائفة الكثر في البرازيل والأرجنتين والتشيلي، أملاً في أن يجمع من المغتربين من أبناء الأبرشية مالاً لإصلاح شؤون الكنائس والمدارس وتقوية هذه. ولكن لما وقعت الحرب العالمية الأولى لم يتمكن من العودة. وأقام طيلة أيام الحرب في تلك الربوع، وانتهى

به المطاف بأن استقرَّ في سنتياغو (عاصمة تشيلي) . والذي كنّا نعرفه عنه هو أنه مرض هناك وأصبح يرى أنه لم يتمكّن من العودة والعناية بأبرشيته (صور وصيدا وتوابعهما) . واستأذن غبطة البطريرك حداد في البقاء هناك ، سيّما وأنه كان هناك طائفة أرثوذكسية كبيرة . فسمح البطريرك بذلك ، ولكنّه لم يستطع أن يعيّنه مطراناً هناك إذ لم تكن ثمّة أبرشية في تلك الديار . وقد حلت المشكلة بأن خالي بقي في سنتياغو بحيث يعنى بالطائفة بوصفه قد رسم مطراناً من قبل ، وكان يوقع «إيليا ديب ، متروبوليت صور وصيدا وتوابعهما سابقاً» .

وقد راسلته فيما بعد ، وكانت عندي منه رسائل كلها تشجيع خاصةً بعد أن قرأ المقالات التي نشرتها في المقتطف في سنتي 1930 و1931 . ولهذه كلها مكان في هذه الحكاية ، آمل أن أتحدث عنها فيما بعد . وقد فقدت رسائله إلي في القدس سنة 1948 ، يوم نهب بيتي .

ثلاثة مبان دمشقية

كانت في دمشق ثلاثة مبانٍ فخمة أذكرها من تلك الأيام ، إلا أنني يجب أن لا أنسى أنني رأيتها بعد ذلك مرات متعددة . الواحدة كانت المشيرية التي تقع على الضفة اليمنى لنهر بردى قبل أن يدخل المرجة . أمّا سبب تسميتها بالمشيرية فهو أنها كانت مقرّ المشير الرسمي . من هناك كان المشير يدير أقسام الولاية . والمبنى الثاني الكبير ، وكان – ولا يزال – يقوم على مقربة من المشيرية هو محطة القنوات وهي نقطة الانطلاق الرئيسية لسكة حديد الحجاز – أي إلى المدينة المنورة . وفي مقابل المحطة كان مبنى فندق أورينت بالاس . وقد كان يومها الفندق الممتاز في دمشق . ولم يكن من اليسير النزول فيه . فقد كان أبي يقول إن هذا الفندق خاص بكبار زوار الحكومة ومؤسسة سكة حديد الحجاز .

قطارات قطارت

في الأيام التي قضيتها في بيت نقولا الشاوي من طفولتي كان ، فيما أذكر ،

أطفال تقرب أعمارهم من عمري . أمّا لمّا انتقلنا إلى مباني السكة في القدم لم أجد هناك من يمكنني أن ألعب معهم . فقد كان ثمّة أطفال لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي . إنهم ألمان . لذلك كانت ألعابنا محدودة .

لكن الشيء الذي لم أكن أتعب من مشاهدته هو هذه القطارات التي كانت تأتي إلى محطة القدوم واصلة من درعا أو عمان أو المدينة المنورة أو من حيفا ، والتي كانت تخرج من تلك المحطة إلى الأماكن المذكورة . قاطرة تدور كي تنتقل إلى الجهة المقابلة من القطار فتسحبه شمالاً مثلا بعد أن كانت تجره جنوباً . ولأن والدي كان يعمل في تلك المصلحة كان يسيراً علينا أن ندخل المحطة في أي وقت تقريباً .

لكن أثناء اقامتنا في مباني السكة كنت أنا أقضي الوقت الأطول من الأسبوع في بيت عمي أسعد ، وهناك كان فريد من جيلي وكذلك ابن خليل وابن الياس يارد . وفي أوقات المدرسة كانت هذه نعم المكان للدرس واللعب .

وكان آخر بيت سكنّا فيه بيت عرب . كان البيت كبيراً واسعاً . ساحته أو عرصته إذا كنتَ تفضل هذه الكلمة ، كانت مبلطة ببلاط أحمر . وكانت واسعة – أوسع ساحة لبيت سكنته في دمشق . والذي أذكره من البيت الآن يؤكد لي أنه لم يُبنَ وفق مخطط معين ، أو لعلّ الأصح القول إن المخطط الأصلي أُدْخلت عليه تعديلات كثيرة . فالساحة الأصلية كان الوصول إليها يتم عبر ممرٍّ طويلٍ نسبياً يدخله المرء خلال بوابة ذات بابين – على نحو ما كانت أكثر البيوت الكبيرة . البوابة الصغيرة كانت للناس عند دخولهم عاديين ، أما الثانية فكانت أكبر وكانت تفتح عند الحاجة .

فإذا وصلت هذه العرصة رأيت إلى يسارك مجموع من الغرف ، لها بابها الخاص ، كانت تسكن فيها عائلة عرب ، وهم المالكون . وكان أمامك مدخل إلى غرف ، أوسع من تلك شكلاً ، كانت تقطنها أسرة لم يكن لها ببقية السكان اتصال خاص . وكل ما أذكره عن الرجل الذي كان يخرج صباحاً ويعود مساء أنه كان يلبس نظارة (كُرْلُك) . وفي الجهة اليمنى كانت تقوم غرفتنان ومطبخ وهو المكان الذي استأجره أبي وكنّا نقيم فيه ، وإلى جانب غرفتنا كان يرتفع درج يوصل إلى ما كان يُسمّى الطابق الفوقاني ، ولم يكن هذا سوى ثلاث غرف صغيرة كانت تقوم فوق شقتنا . وأذكر أن أبي يشير إلى هذا البيت الفوقاني ويقول إنه مبني بدون إذن .

انتقلنا إلى بيت عرب وجورج أخي طفل (وهو مولود في 27 نيسان 1915) . ولم يقم أبي معنا سوى مدة قصيرة بعد ذلك . إذ إنه جُنِّدَ ، وضم إلى السوقيات .

من الأماكن التي ظلَّ اسمها راسخاً في ذهني من أيام دمشق الأولى «جنينة الحليب» . ظلّت جزءاً من محتويات ذاكرتي الدمشقية . وأذكر أنني كنت أسأل عنها في زياراتي للمدينة ، فلا أجد من سمع حتى باسمها .

جنينة الحليب

وفي سنة 1978 كنت أركب سيارة أجرة (تكسي) في دمشق وأنا متجه إلى شارع حلب . ولاحظت أن السائق متقدم بالسن نسبياً ، فسألته فيما إذا كان يعرف أين كانت جنينة الحليب . فأوقف السيارة والتفت إلي - وأنا إلى جانبه- وسألني كيف أعرف أنا عن جنينة الحليب وأنا غريب! وأضاف أن هذه زالت من الوجود من أكثر من أربعين سنة . ولما أخبرته عن سبب اهتمامي بها ، قال لي هناك عند مدخل شارع حلب توجد ساحة (ميدان) وعلى طرف الساحة تقوم كازخانة (أي محطة بنزين) وهذه تحتل جزءاً مما كان جنينة الحليب . لما سمعت هذا ساحت عبرة على خدي . ولما وصلت إلى المكان الذي أقصده ، أردت أن أدفع للرجل ، فرفض ، وقال يكفيني أن أحد ركابي ذكرني بجنينة الحليب ، فنحن أبناء ذلك الحي .

العودة إلى دمشق

غادرت دمشق مع أمي وأخوي ألفرد وجورج - من دون أبي الذي كان قد غيّبه الموت - في ربيع سنة 1916 . وجئتها زائراً (لأول مرة بعد ذلك) سنة 1925 . وقد كتبت فيما بعد عن تلك الزيارة : «وأخيراً عدت إلى زيارة دمشق» .

«عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة ، ثم انقطعتُ عنها سنوات طويلة . تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في منتزهاتها ، وعدت لأستعيد تلك الذكرى ، فأستمتع منها بساعات عذاب ؛ وعدت

إليها كذلك شاباً ملءُ بُرْدَيَّ رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء أنبائها . عدت وكلّي شوق إلى ذلك ، فلبّت دمشق شوقي وأطفأت حرَّ ظمئي وأشبعت بعض نهمي . فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقّة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية ، وهذه ، إلى جانب تلك ، معالم التاريخ تنادي بأعلى صوتها مشيرة إلى الدّور الذي مثّلته دمشق على مسرح التاريخ الإنساني ، فردَّدتُ قولَ شوقي :

وذكرى عن خواطرها لقلبي
إليك تلفت أبداً وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق» .

أبي والحرب

لما دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى في خريف 1914 إلى جانب دول الوسط (ألمانية والإمبراطورية النمساوية - الهنغارية وحلفائهما) ، أعلنت الحكومة النفير العام في الولايات العثمانية ، بما في ذلك الولايات العربية . وإعلان النفير العام كان معناه وضع قانون التجنيد الإجباري موضع التنفيذ ، (القانون كان قائماً) وبدأ أخذ الرجال إلى الجندية ، ليقوموا بخدمة دولتهم . وكانت ثمّة شروط تحمي البعض من التجنيد ، كأن يكونوا من موظفي الدولة .

لما كان والدي يعمل في سكة حديد الحجاز اعتبر موظفاً في الدولة فلم يطلب للجندية ، لكن والدي كان قد ترك هذا العمل . عندها أصبح من حق الدولة أن تجنده . إلا أن الدولة العثمانية كانت قد وضعت في قانون التجنيد الإجباري شيئاً اسمه «البَدَل» . إذا كانت ثمّة حجة قانونية تحول دون تجنيد رجل ، فيدفع البدل وقيمته أربعون ليرة عثمانية . فباعتبار أن والدي كان يقيم مع أسرته منفردين في دمشق ، وليس لها من يهتم بها ، أعفي من التجنيد ودفع البدل . ولأن الحكومة كانت أدخلت النقد الورقي قبل ذلك بقليل ، وفرضت التعامل على أساس النصف من الذهب والنصف من الورق (هكذا كانت الدولة تدفع المرتبات - عندما تدفعها) ،

فقد ترتب على والدي أن يدفع عشرين ليرة عثمانية ذهباً - وهذا هو المهم ، وعشرين ليرة ورقاً (وهذا أمر تافه) . لكن أولاد الحلال كثار ، كما يقول المثل ، فلم يلبث والدي أن طلب إلى الجندية ثانية ، وذلك بعد نحو شهرين من دفع البدل الأول . ولمّا احتجَّ كاد أن يسجن . وعندها تقدم بحجة ثانية ، كانت مشروعة في قانون التجنيد ، وهي أنه مسيحي ، ولذلك يستطيع أن يدفع البدل (ثانية طبعاً) . وهكذا فعل . وعندها دفع عشرين ليرة عثمانية ذهباً (للمرة الثانية) . على أن هذا لم يخلصه من أيدي أولاد الحلال . لذلك دعي بعدها إلى الجندية . (أظن أن المسؤولين كانوا يتلاعبون بالإيصالات ، لذلك لم يظهر في القيود أثر لدفعه البدل الأول أو البدل الثاني) . ولم يكن لديه المال اللازم . (وكان قد أمّن على حياته في شركة تأمين ألمانية ، لكنّها تبخرت من دمشق بعد إعلان الحرب) . لذلك سيق عبده عبد الله زيادة جندياً .

وصل جمال باشا إلى سورية حاكماً عاماً لبلاد الشام وقائداً للجيش الرابع ، وكان من الأمور التي عهد بها إليه إرسال حملة إلى السويس لمهاجمة مصر (لا نريد أن نتحدث عن حكم جمال باشا ولا عن أحداث الحرب فهذه أمور بعيدة عن المقصود من هذه الرواية الخاصة) . وهي خطة ألمانية كان المقصود منها رفع الضغط عن خطوط القتال في أوروبة . وإذن فلا بدَّ من اختيار الجنود الصالحين لاجتياز صحراء سيناء والهجوم على التحصينات البريطانية وما إلى ذلك . وقد كان مّمن وضع في الفرقة المعدة لذلك والدي . فبنيته قوية ، وهو يجيد الألمانية ويعرف التركية كما أن له بعض الخبرة الهندسية بحكم عمله . سيق إلى الجندية في شهر تشرين الثاني / نوفمبر 1915، وضم إلى الفرقة (أو على الأصح إلى إحدى الفرق) التي ستهيَّأ لحملة السويس . وكان أفراد هذه الفرق يطلق عليهم اسم «سَوْقيّات» .

والفرقة التي كان فيها والدي كانت تقيم ، مؤقتاً طبعاً ، في جامع المعلقة . فقد أفردَت فيه قاعة ، هي أحد الأروقة ، كان الأفراد يقيمون فيها - نوماً وأكلاً وما إلى ذلك .

عرفنا مكان والدي بعد جهد . ولأن الفرقة كانت تقيم في جامع ، لم يسمح الضابط التركي وأعوانه لوالدتي بدخول الجامع . لكن أنا كان يسمح لي بالدخول .

في أول الأمر ذهبنا نحن الاثنين - أمي وأنا إلى الجامع ، فدخلت أنا وحملت إليه

بعض ما تيسّر ، وكان كل شيء يفتش تفتيشاً دقيقاً (بدون لهجة لطف أو ما إلى ذلك) ، وكانت أمي تنتظر على بعد خشية أن ينالها من كلام الضابط التركي ما يؤذي . ثم انفردت أنا بالزيارة اليومية - في برد دمشق وأنا في مطلع الثامنة من عمري .

في جامع المعلقة

في هذه الفترة التي قضاها والدي في جامع المعلقة لم يكن ثمّة تدريب عسكري ولا من يحزنون . كان هؤلاء هناك مؤقتاً ، ينتظرون أن تصدر الأوامر لنقلهم إلى ميادين التدريب أو خطوط القتال - لم يكن أحد يدري ، ولست أعرف فيما إذا كان المنجّم يدري!

لم يكن أبي يدخن . والتدخين كان ممنوعاً منعاً باتاً على هؤلاء القوم . والعثور على سيجارة بيد أحدهم كان يعرضه لعقاب شديد . ولكن كان بين جنود السوقيّات (كدت أقول سجناء السوقيّات) من يدخن وهو مستعد لدفع أي ثمن للحصول على دُخَيْنَة (من كلمات الأب انستاس ماري الكرملي) ، بمعنى سيجارة . وفي يوم طلب أحد هؤلاء الجنود من أبي أن أحمل أنا معي له علبة سجاير ، إذ لاحظ أن الحراس لم يعودوا يفتشونني ، وقبل والدي الطلب ، وقال لي أن أفعل ذلك .

في اليوم التالي حملت علبة السجاير مع ما جئت به . وكان في ذلك الحكم على والدي . فهذه العلبة وقعت في يد الضابط -ولا أدري كيف- وهي بعد مع والدي (أو لعله ألقي بها إليه ثانية عند بدء التفتيش - لا أدري) . فغضب الضابط وحكم عليه أن يقضي ليلة أو ليليتين على مئذنة جامع المعلقة .

لا شك أنه من الصعب على من لا يعرف برد دمشق في الشتاء أن يتصور معنى ذلك . ولكن حتى لو تصور ذلك تصوراً طبيعياً ، فهناك أمور أخرى دخلت في الموضوع : أولاً بدون أكل ، ثانياً بدون الغطاء . ولم يكن أي من هؤلاء الجنود عنده من الثياب ما يعينه على قضاء ليلة أو ليلتين في العراء . إن الجيش لم يكن قد سلّمهم بعد الثياب الرسمية ، فكانت عندهم ثيابهم العادية ، وكانت كافية في الداخل .

ولم ينفع الرجاء . فأصعد إلى المئذنة بعد العصر . ولكنّه لم يحتج إلى أكثر من ليلة هناك . إذ لما جئت في اليوم التالي لزيارته قيل لي إنه أنزل من المئذنة مريضاً ونقل إلى المستشفى . كان عنده ، على ما يبدو ، بدءُ رشح ، فتأثّر من البرد وأصيب بالحمّى فحُمل إلى المستشفى!

ولكن أي مستشفى؟ من يدري! وأُسقط في يدي ، وعدت إلى البيت باكياً .

رحلة بحث في المستشفيات

وهنا بدأت الرحلة المزدوجة التي كنّا نقوم بها أمي وأنا ، هذا عندما كانت تستطيع أن توكل إحدى الجارات بأخوي الصغيرين! كان في دمشق عدد من المستشفيات . هناك واحد خاص بالألمان ، وهذا لا يمكن أن يكون والدي فيه . وكانت هناك بضع أبنية عادية حولت مستشفيات ، وهذه كانت للجيش . لكن من يمكن أن يحصرها أو يعرف تماماً أين هي . أوقات حرب ، وجمال باشا يبطش والضابط التركي يعمل بكرباجه (بسوطه) لا بلسانه . ولا من قيود ولا سجلات .

كان في دمشق مستشفيان أجنبيان : الواحد المستشفى الإنجليزي (وكان يُسمّى يومها مستشفى مكنو – على اسم الطبيب الذي كان فيه) في القصاع . والمستشفى الفرنسي في الجوار . وكانت لنا علاقة بالمستشفى الأول لأن أخوي ولدا فيه ، أمّا المستشفى الآخر فلا نعرف فيه أحداً . لكن هذا ليس المهم ، فحتى في المستشفى الإنجليزي بالذات أصبح القوامون أتراكاً من الجند . فالمستشفيان تابعان لدولتين عدوتين لذلك صودرا .

هذه فترة لا أنساها من حياتي . الترام كان ينقلني من قرب البيت إلى مكان قريب من أي مستشفى تستفسر عنه من الجيران ، وأمشي الباقي . وتفعل أمي الأمر نفسه . ونعود لنلتقي بعد الظهر ، وكل يحمل سلة فارغة . وقد نتبادل الزيارة للمستشفيات أملاً في أن يكون أحدنا قد أخطأ .

لم يكن من فائدة أن تسأل عن اسم مريض . إذا تفضل الحارس وسمح لك ، كنت تدخل غرف المرضى وتفتش عن مريضك بنفسك . الآهات والأنين والتوجع ،

إذ لم يكن من الأطباء ما يكفي عدداً، ولم يكن ثمة من العلاج ما يخفف الألم حتى ولو لم يشفِ، ولم تكن الأغطية كافية . ومن الطبيعي أن يكون المرضى موضوعين معاً، بقطع النظر عن نوع المرض .

في دمشق كان باعة الكوسا المملح (بعد نقره) يعدونه مونة للشتاء؛ وعند بيعه كانوا ينادون «العشرة بعشرة يا كوسا» . والعشرة الأولى هي عدد الكوسا والعشرة الثانية هي عشر بارات أي ربع قرش تركي صاغ (وهي العملة الرسمية) . وكان الأمر مألوفاً، فإذا سمعته عرفت البائع والبضاعة .

فتّش بين الموتى!

كنت إذا سألت عن أبي في مستشفى، ولم أجده مع المرضى، يقال لي : فتّش عنه مع الموتى . وفي يوم من الأيام تشجعت ودخلت المكان الذي فيه الموتى . كانت الجثث ملقاة على الأرض كما اتفق، لا ضبط للأطراف ولا تغطية إلا القليل جداً، وكانت المياه الباردة تدور بها كي تحفظها من التعفن . لا يا سيدي القارئ، لم يكن هناك مكان لحفظ الجثث . دخلت ونظرت وفزعت وهممت بالخروج . فإذا صوت يرن في أذني «العشرة بعشرة يا كوسا» . تلفّت فإذا برجل متقدم في السن (حسبته يومها عجوزاً، وما كان كذلك) ينظر إلى الجثث ويصفّق بيديه وينادي مشبِّهاً الجثث، في حالتها تلك، بالكوسا التي كانت تباع .

صعقني المنظر والصوت والوضع فخرجت راكضاً، دون أن أفتش عن والدي بين الموتى . ولم أروِ القصة لأمي ليلتها (رويتها لها في الواقع بعد شهور، وبعد أن عدنا إلى بلدتنا الناصرة)، ولكنّني طلبت منها أن تعفيني من الزيارة في اليوم التالي لأنني كنت تعبان .

وما الذي كان يحدث لهذه الجثث؟ بطبيعة الحال لم تكن جميع هذه الجثث لأبناء دمشق، وحتى جثث أبناء دمشق لم يفتش عنها جميعها، أو لم يعثر أهل أصحابها عليها . فكانت تحمل في طنابر، وتحفر لها القبور الجماعية وتدفن هناك . وفي بعض الأحيان كان يطلب من أحد رجال الدين - مسيحياً كان أو مسلماً - أن

يصلّي عليها . ولكن حتى هذا لم يحدث دائماً .

أمّا المرضى أنفسهم فكانوا يوضعون جنباً إلى جنب على تخت إن كان في المستشفى أسرة ، أو على فرشة أو حصيرة على الأرض . وكانت الروائح – من المصابين بالمعدة أو الأمعاء– تملأ المكان . والجرحى– وأكثرهم كانوا ، فيما قيل لي فيما بعد ، ممن جرحتهم سياطُ الضباط الأتراك –كان الشيء الوحيد الحسن في حظوظهم أن الفصل لم يكن فصل صيف وذباب!

وفي يوم ذهبت أنا إلى المستشفى الفرنسي – لعلّ وعسى . وفيما أنا أنقل ناظري في الغرف – وهذا المستشفى ظلت لبعض قاعاته سررها– فإذا بصوت يناديني «نقولا» . أبي هو الذي تعرف علي . وجه شاحب ، جسم ضعيف (هو أصلاً نحيف الجسم على أنه كان قوي البنية) ، وكان الصلع قد ازداد في رأسه كثيراً (كانت سنه ستاً وثلاثين سنة يومها) . لكنه حي ويخاطبني . وسُمِحَ لنا أن نتحدّث بضع دقائق . وأخبرني عن نقله من مستشفى إلى مستشفى إلى أن وصل هنا . وقال إنه أرسل لنا أخباره مع جار لنا كان مريضاً معه وتعافى وخرج . واستغرب والدي أن الجار لم يوصل الرسالة . أمّا أنا لم أستغرب . إن الرجل لم يتعافَ . وإنما ساءت حاله ، ونقلوه إلى حيث العناية به أقل كي يموت . وأنا كنت أعرف أنه مات ، وأن أمي ذهبت لتعزية الجيران به قبل ثلاثة أيام .

وأخيراً أمَرَنا الحارس بالافتراق . ورافقني أبي إلى الباب (وأوقف عنده بطبيعة الحال) . وهبطت أنا درجات المستشفى القليلة ، والتفت إليه ، وكانت شمس شتاء دمشق الجميلة تلقي نورها على وجهه ، فأعاد علي ما قاله في الداخل «سلم على أمك ، وقل لها أنا طيب ، وسأخرج بعد ثلاثة أو أربعة أيام» .

وكان هذا آخرعهدي به . لم يخرج . يبدو أنه انتكس ، وكانت النكسة شديدة ، ونقل – لعله نقل كما نقل جاره من قبل – إلى مستشفى آخر . هذا ما قاله لي الحارس لما ذهبت أبحث عنه بعد أن تأخر . وبدأتْ عملية التفتيش من جديد . أمي إلى مكان وأنا إلى مكان . وكنّا أحياناً نذهب إلى مراكز الجند ، لعلّنا نعثر عليه هناك . وطال التفتيش وطال الانتظار ، وضعف الأمل شيئاً فشيئاً .

وفي يوم أرادتني أمي أن أبقى في البيت إلى جانب إخوتي ، وذهبت هي بعد

الفداء للبحث والتفتيش . وعادت ، وكانت الشمس قد غابت ، وكنت قد أوقدت شمعة وجلست أنتظرها ، فأخواي كانا قد أخذتهما سنة من النوم . وإذا بها تدخل ، وكأن جميع متاعب الأيام السابقة قد سقطت عليها مرة واحدة ، وكأنَّ خيبةَ الآمال كانت أكبر مما حسبت ، فألقت بنفسها على الفرشة (نعم الفرشة ، لأننا كنّا بعنا الكثير مما عندنا لنعيش) وقالت يا نقولا أبوك مات!

***

لم نتبادل كلمة واحدة تلك الليلة . ولست أدري ، بعد هذه السنوات الطويلة ، أيّنا كان باستطاعته أن يُعين الآخر ، ولا أقول يعزيه . ولكن في اليوم التالي سألتها عن المكان الذي دُفنَ فيه فأعادت عليَّ حديثاً مقتضباً جرى بينها وبين كاتب لأحد المستشفيات الرسمية ، وهو الذي أخبرها أنه يوجد عنده اسم عبده عبد الله زيادة وأنه مات ودُفن .

قالت : وأين دفن؟

أجاب : هذا عبده خرستيان؟ (أي مسيحي باللغة التركية)

قالت : نعم خرستيان .

فكان جوابه : يمكن في تربة مار جريس! (والله أعلم!) .

وفتقت أمي بيت الفرشة التي كانت تجلس على طرفها ، وأخرجت منها قطعة قماش ملفوفة على شيء ، وأخرجت هذا الشيء من الغلاف . كانت ليرة عثمانية ذهبية ، وقالت : هذا كل ما معنا يا نقولا!

العودة إلى الناصرة

بعد وفاة والدي بفترة قصيرة عدنا إلى الناصرة ، موطن الآباء والأجداد . كان ذلك سنة 1916م . من أوائل تلك السنة إلى خريف 1921م تنقلت بين الناصرة وطولكرم وجنين . في هذه الفترة كنت كثيراً ما أرافق شباب أقارب أمي في تنقلاتهم بين الناصرة والعفولة (محطة رئيسية على سكة حديد الحجاز بين بَيْسان/سمخ وحيفا ، وهذا التمديد كان قد تمّ أثناء السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى . التمديد

كان من العفولة إلى طولكرم - فرع إلى نابلس- ثم إلى بئر السبع) لبيع الخبز للجنود وسواهم وأرافق أصحابي في تسلق جبل الطور - جبل التجلي- وسواه . وأزور مع جدي لأمي البساتين التي كان يقوم فيها بتطعيم - تركيب - الشجيرات الجيدة .

وفي جنين ، ولم تكن فيه مدرسة بين 1917 و 1919 ، كنت مع أولاد من جيلي نتنقل في البراري والبساتين والقرى المحيطة بالبلدة .

رحلات وزيارات في

فلسطين ولبنان وسورية

1916-1925

إن الذي أريد أن أقوله هو إنني أصبحت أحب المشي وأستطيبه وأقبلُ كلّ دعوة لذلك .

فلمّا دخلت دار المعلمين سنة 1921 ، عثرت على ما يثير رغبتي وهواي ومن ثم لما أعلن عن زيارة لدير مار سابا إلى الجنوب الشرقي من القدس ، فيما يسمّى صحراء القدس ، كنت سعيداً أن ذهبت . ودخلت مع الأصدقاء وبقيادة خليل طوطح (مدير دار المعلمين) وجورج خميس المدرس وزرنا أنحاء الدير بما في ذلك مغارة فيها عدد كبير من الجماجم يقول القيمون على الدير إنها تمثل القتل الذي أنزله الفرس لما هاجموا الدولة البيزنطية وانتصروا عليها في العقد الثاني من القرن السادس الميلادي ، وكانت فلسطين يومها جزءاً من الدولة البيزنطية .

كانت زوجة مدير دار المعلمين وأخت جورج خميس في رفقة الرحلة (لكن على حمارين) إلا أنه لم يسمح لهما بالدخول إلى الدير . كان الدير ، منذ أن دُشّن حكراً على الرجال ممنوعاً على النساء البَتّة .

زيارة أريحا والبحر الميت

لم أذهب إلى جنين – إلى البيت – لقضاء عطلة عيد الميلاد لأول سنة لي في دار المعلمين . فقد أعلن المدير (خليل طوطح) أن دار المعلمين سترتب رحلة إلى أريحا والأردن والبحر الميت خلال تلك العطلة . وأخبرنا أن أي تلميذ يمكن أن يشترك . والترتيب الذي اتُّخِذَ هو أنّ المدرسة ستتكفّل بنفقات النقل والأكل خلال الرحلة . أمّا النوم فأمره متروك للطلاب . فالذين يمكنهم أن يدفعوا أجرة الفندق – وهو 15 قرشاً

مصرياً في الليلة - ينامون هناك . أمّا الباقون فسترتب الأمور لهم بحيث ينامون في دير الروم الأرثوذكس أو دير الأقباط أو في الجامع الكبير . موعد الرحلة كان في الشتاء (أواخر كانون الأول/ديسمبر إلى أوائل كانون الثاني/ يناير) . لكن أريحا ، التي تنخفض عن سطح البحر أكثر من 300 متر ، تكون دافئة حتى في ذلك الفصل . وقد رتبت إدارة المدرسة لنا أن نحصل على بطانيات (احرامات من الصوف) تنقل من القدس لاستعمالها فرشة وغطاء . والواقع أن الديرين قدّما لأولئك الذين ناموا فيهما الفراش والغطاء . أمّا الذين ناموا في الجامع فكانوا يحملون الاحرامات معهم .

كانت فكرة الرحلة بالنسبة لي تحمل مجموعة من المعاني . فأنا كنت ، في صغري لا مؤمناً فحسب ، ولكنني كنت أمارس قراءة الصلوات المطلوبة صباحاً ومساء . وقد حملت معي من الناصرة إلى جنين السواعي - وهو كتاب الصلوات للكنيسة الأرثوذكسية - وكنت أنهض مبكراً بحيث أقرأ الصلاة الطويلة . أمّا في المساء فكنت أكتفي بالصلاة الصغرى . من هنا فقد كانت الفكرة في زيارة المكان الذي تعمد فيه المسيح في نهر الأردن شيئاً مهما بالنسبة لي .

مدرسة الأحد

لكن كان هناك شيء آخر . خلال الفترة التي قضيناها في الناصرة - قبل انتقالنا إلى جنين - كنت أذهب لحضور مدرسة الأحد . ومدرسة الأحد كان المقصود منها إعطاء الأولاد ، صبياناً وبنات ، المعلومات الدينية المسيحية الضرورية . ومدرسة الأحد في الناصرة ، مثل مدارس الأحد في كثير من الأماكن في بلادنا ، كان يديرها البروتستانت (الإنجيليون) . قد يكون المشرفون من المبشرين ، وقد يكون هؤلاء بعيدين عن الإشراف ، لكن هذه كانت طبيعة مدارس الأحد . ولم يكن لطائفة الأرثوذكس في الناصرة يومها مثل هذه المدارس . لذلك إذا كان أهلنا يريدون لنا هذه الثقافة الدينية والتعليم المسيحي كنّا نرسل إلى المدارس الموجودة . وكانت توزع علينا في المدارس هذه صور ذات موضوعات دينية مسيحية . وهو أمر كان ، ولا شك ، يرغبنا

في الذهاب إلى المدرسة يوم الأحد .

وكانت الدروس الأولى التي تعطى هناك للصغار - مثلي - تدور حول الكتاب المقدس ، بدءاً من العهد القديم ، الخليقة والطوفان وهكذا . وقد وُزِّعت علينا يومها كتب هي خلاصة لهذه الموضوعات التي كانت تسمى التاريخ المقدس . وكانت معلمتنا «شاطرة» في رواية القصص . أما الكتب ، على ما أذكر ، فكانت «مشوقة» كما كانت مصورة . ولم تكن جميع المعلمات مثل هذه المعلمة . فقد عرفت معلمات من العوانس اللواتي كن يشعرن بالمرارة والضيق .

لاشكٌ في أن قصة الخليقة ، في الأيام الستة ، كانت عظيمة ، وقصة الطوفان وفلك نوح كانت جذابة . لكن القصة التي تركت في نفسي يومها انطباعاً خاصاً كانت قصة لوط وزوجته . كان لوط من سكان سدوم وعمورة المدينتين الشريرتين ، الواقعتين في جنوبي البحر الميت . وقد قام سكانهما بكل أنواع الموبقات والجرائم والشرور . فغضب الله على سكانهما وقرَّر معاقبتهم بأن يسلط عليهم نيران الأرض والسماء (البراكين والصواعق) . ولوط كان ابن أخي إبراهيم ، ومع أنه كان شريراً وارتكب الكثير من الأعمال الشائنة ، فإنَّ الله عفا عنه إكراماً لعمه إبراهيم . هذه القصة هي الواردة في العهد القديم (من الكتاب المقدس) . ولذلك سُمِحَ للوط أن يخرج من مدينته مع زوجته وبعض أقاربه . وقد أنذر القوم بأن لا يتلفَّتوا إلى الخلف ، أي أن لا يعودوا بأبصارهم نحو سدوم وعمورة رغبة في أن يروها تحترق . وقيل لهم إن هم تلفَّتوا إلى الخلف فإنهم سيصبحون أعمدةً من الملح .

كان من الممكن أن يظل هذا الإنذار شيئاً عادياً مثل كثير من الإنذارات السماوية والأرضية ، لكن الإله الذي كان ينقم على تلك المنطقة كان جاداً في إنذاره . لذلك لما تلفتت امرأة لوط نحو سدوم وعمورة تجمدت في مكانها عموداً من الملح .

هذه هي القصص التي كثر ورودها في العهد القديم ، لأنَّ الذين كتبوه وحرَّروه مرَّات ، تصرفوا في الأمور على هواهم كي يظهروا أنهم هم القريبون من الله وهم الذين يرضى عنهم ، حتى ولو كانوا شريرين مثل لوط .

لست أذكر فيما إذا كانت المعلمة أضافت مثلاً قولها وهذا العمود لا يزال قائماً أو أنني أنا تخيلت يومها ذلك ؛ فالقصة أعجبتني وتركت في نفسي أثراً أكبر حتى من

حكاية الطوفان . ومن المؤكّد أنّ هذه القصّة ، التي ظللت أختزنها مدة ، لم تبقَ في ذهني مرتبطة بعمود ملح لما دخلت دار المعلمين . لكن زيارة البحر الميت ، الذي كانت جماعة لوط تقيم على شواطئه ، والذي تحوّلت امرأة لوط عمود ملح في جهاته ، كانت بالنسبة لي أمراً في غاية الأهمية .

كنت أكتب إلى أمي تقريباً مرّة في الأسبوع ، لكنّني لم أكن أتلقّى منها رسائل مقابل رسائلي عدداً . كانت أمي تكاد تكون أمية - تلك كانت ظروف حياتها في بيت أبيها . أخواتها خرجن أو تزوجن وكانت أعمال البيت الكثيرة تقع أعباؤها عليها . فكانت تحجز في البيت بدلاً من الذهاب إلى المدرسة . وقد ذكرت لي مرّة أن أبي أراد أن يأخذ بيدها ويعوض عليها ، لكنّها شغلت - كأم وزوجة- ببيتها ، فلم تنجح الخطة!

لذلك كانت تكتب أختي لي عندما تكون في البيت - فقد ورثت دور أمها في بيت جدي - وكانت تحب الجد والجدّة وكانا يحبّانها ، وكان لها صديقات ولدات هناك . أما أخواي الصغيران -ألفرد وجورج- فلم يكونا قد أحسنا مسك القلم بعد . وقد تكلف أمي إحدى صديقاتها أو أحد الجيران أن يحبّر لها رسالة لي .

العودة إلى رحلة أريحا

فلمّا كتبت لها عن الرحلة ، وأن معنى هذا أنني لن أكون في البيت في عيد الميلاد ، كان جوابها مشجعاً على الرحلة ، وأن أعياد الميلاد القادمة كثيرة . وسألتني في الرسالة عن النفقات والإقامة هناك . فقلت لها إن المدرسة (دار المعلمين) رتبت كل شيء ، وتكفّلت بالأكل والسفر والنوم ، وقد تعمدت أن أجعلها تفهم أن النوم في الفندق كان على حساب المدرسة ، لأنني لم أرد أن أحملها عبئاً مالياً جديداً (ثماني ليال في الفندق كان معناها 120 قرشاً ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا يومها) .

المسافة من القدس إلى أريحا كانت حول 35 كيلومتراً . وقد استأجرت إدارة المدرسة لنا عربات تجر الواحدة منها أربعة جياد (الكبيرة) أو جوادان (الصغيرة) . وقد كنّا في مجموعنا نحو ثلاثين شخصاً - التلاميذ ومدير دار المعلمين وزوجته والأستاذ

جورج خميس . ولست أذكر أن أحداً غيره من الأساتذة رافقنا .

قضينا النهار بكامله - والنهار في الشتاء قصير- تقريباً في الطريق . وقفنا في الخان الأحمر حيث تغدينا . ولما وصلنا إلى الفندق- فندق أريحا وكان الوحيد يومها في البلدة- كنّا مستعدين لعشاء كبير . وقد حصلنا عليه وقدم لنا في قاعة الطعام .

قضينا بعض الليل في الفندق كي نستمع إلى بعض المعلومات عن المنطقة . ونغني ونتحدث ، ثم ظلّ المقيمون في الفندق فيه ، وخرجنا نحن إلى حيث وزعنا للنوم . وقد قضيت بعض الليالي في دير الروم الأرثوذكس وبعضها في دير الأقباط . وكان الرهبان يتحدثون إلينا كثيراً ، لا لأنهم أرادوا أن يرفّهوا عنّا ، ولكن لأنهم أرادوا أن يرفّهوا عن أنفسهم (أن يتسلّوا) .

بلدة أريحا وبيّاراتها

قضينا اليوم الأول في أريحا -البلدة- وفي زيارة لعين السلطان ، وهي موضع أريحا القديمة . أريحا التي يقول العهد القديم إن العبرانيين لما احتلوها هدموا بيوتها وقتلوا سكانها ، أي أنهم قدّموها وأهلها قرباناً ليهوه باكورة لفتحهم فلسطين . ومع أن التنقيب التاريخي الأثري أثبت خطل هذه المعلومات ، فإنّ العقلية التي دونت مثل هذا الرأي هي عقلية شريرة مريضة .

لما زرنا أريحا القديمة في تلك الرحلة كان الموقع قد حفر فيه جماعة من صندوق التنقيب الأثري في فلسطين قبل سنة 1900 ، وبعثة نمساوية ألمانية في سنة 1907 - 1908 . لذلك فإن الذي رأيناه كان ضئيلاً . وبهذه المناسبة فقد قام غار ستانغ بأعمال حفر هناك في 1930 وما بعدها ، ثم قامت كاثلين كنيون بالعمل العظيم 1952 - 1958 . وهي التي وضعت أريحا على الخارطة الأثرية الزراعية الحضارية مبينة أن ذلك بدأ حوالي 9000 ق .م .

وكان من زياراتنا في أريحا - قبل عين السلطان- زيارة المدرسة هناك . غرفة واحدة معلم واحد- كان ، كما قال ، يقوم بجميع الأعمال المدرسية وما إليها . وبعد الزيارة أعلن أنه إكراماً لزيارتنا يعطي التلاميذ فرصة ذلك اليوم .

وبعد الظهر أقلتنا في بيارات أريحا . كانت أريحا - وظلت لمدة طويلة- تنتج أجود أنواع البرتقال طعماً ورائحة في المنطقة . لكنّه لم يكن معروفاً إلا في أريحا والقدس وعمان ، إلى درجة أقل . والسبب أن قشره رقيق جداً ، فلم يكن يتحمل النقل مسافات بعيدة ، وبوسائل التوضيب البدائية التي كانت معروفة يومها .

البحر الميت

اليوم التالي خصص للبحر الميت . مشينا بضعة كيلومترات ، أخذنا الزوّادة معنا ، بما في ذلك بعض الماء للشرب . وسبحنا في البحر الميت ، والذين لم ينتبهوا ودخل ماؤه المالح (27 ٪ أملاح) في أعينهم تضايقوا . وكانت المشكلة أن نحصل على ماء عذب لنغتسل بعد السباحة . جاء بضعة شباب يحملون تنكات الماء على حميرهم من مصب الأردن في البحر الميت ، لكن المبلغ الذي طلبوه كان كبيراً (5 قروش لوعاء يسع ربع تنكة) بحيث إن أكثرنا لم يبتع ماء للاستحمام ، وحملنا ملح البحر الميت على أجسامنا ، ونحن عائدون مشياً إلى أريحا ، حتى وصلنا الفندق ، وهناك استحممنا جميعاً .

أما أنا ، فمع أنني كنت قد نفضت قصة عمود الملح الممثل لامرأة لوط جانباً ، فإنني كنت أنظر إلى الصخور المحيطة بالغور معجباً بألوانها- الحمراء الصفراء السوداء اللامعة القاتمة . ولست أدري فيما إذا كنت فتشت -من تحت لتحت- على شيء يشبه التمثال لا من الملح ، ولكن من الصخر .

نهر الأردن وجسر اللنبي

تجربة زيارة نهر الأردن كانت مختلفة طبعاً . مشينا نحو ثمانية كيلومترات حتى وصلنا كنيسة صغيرة تقوم في دير يقيم فيه بعض الرهبان . هناك ، بحسب رواية العهد الجديد عُمِّد المسيح . عمّده يوحنا المعمدان ، بعد أن كان قد قال ، عن لسان يوحنا أن التعميد الذي يقوم به هو ، بالماء ، ولكن الذي سيأتي بعده ، أي المسيح

سيعمد بالروح القدس . ولما كان يوحنا يصب الماء على المسيح معمداً إياه ، نزلت حمامة ممثلة الروح القدس ، وجاء صوت من السماء «هذا هو ابني الحبيب ، الذي به سررت» (متى 3 : 13 – 17) . هذه هي الصورة التي كان يتصورها كل مسيحي يؤمن بحرفية الكلمة المقدسة عندما يصل إلى ذلك المكان .

وزرنا بعد ذلك جسر اللنبي – وهو قريب من نقطة العمّاد – وكان يومها جسراً بسيطاً يقيم في نهايته الغربية بوليس فلسطيني ، وفي نهايته الشرقية شرطي من شرقي الأردن . وكان هذا هو صلة الوصل بين القدس وعمان .

والدير والجسر يقعان على بعد ثمانية كيلومترات عن مصب الأردن في البحر الميت ، وفي طريق العودة ، أُقلتنا مرة أخرى على بيارات البرتقال لنبتاع ما نحب أن نأكل من الثمر الطيب .

وأعطينا يوماً آخر زرنا فيه البلدة ، وكانت أريحا يومها بالكاد تُسمّى بلدة . ذلك لأن الانتقال من القدس إلى عمان ، وبالعكس لم يكن يومها شيئاً كبيراً . فضلاً عن ذلك فليس في أريحا ما يحمل الناس العاديين على التوقف فيها . كانت أريحا مشتى لأغنياء القدس ، الذين كانوا يملكون بساتين أو قطع أرض أو بيوتاً فيها .

وهؤلاء كانت لهم اجتماعاتهم وحلقاتهم وكان أكثرها من نوع التسلية التي قد تتُخذ شكل لعب الورق (الشدة أو الكوتشينة) مساء ، ولعب الطاولة نهاراً في المقاهي أو البيوت . وقد تصبح بعض البيوت مكاناً للمقامرة البريئة ليلاً . أقصد بالمقامرة البريئة تلك التي كانت تقوم بين الأصدقاء في البيوت للتسلية لا للربح .

ولم يكن لنا ، بطبيعة الحال ، مجال للمساهمة في أي من هذه الأشياء ، سوى لعب الطاولة في المقاهي لمن يجيد اللعبة من الطلاب .

جبل الأربعين

ثم كانت لنا زيارة لدير قرنطل (كارانتل) ، أو جبل الأربعين . جبل الأربعين يبدأ الصعود إليه من عين السلطان . طريق جبلي للمشاة أو على الأصح للماعز . بعد صعود صعب ، إلى حد أن البعض منا تعب وعاد إلى عين السلطان أو إلى الفندق ،

وصلنا حول الساعة العاشرة إلى منتصف الجبل . هناك كان يقوم دير للطائفة الأرثوذكسية . لكن الرهبان جميعهم كانوا من اليونان . ولهذا سبب . ذلك بأنه اعتباراً من سنة 1534 إذ تولّى البطريركية الأوروشليمية (المقدسية) جرمانوس وهو أول يوناني وصل إلى هذه الرتبة ، أصبحت المؤسسات على اختلاف أنواعها ، خاضعة لأخوية القبر المقدس . والأخوية التي أنشأها ، أو على الأقل نظّمها على هذا الشكل هذا البطريرك ، أصبحت عضويتها «مقصورة» على اليونان ، ولا يجوز للعرب أن ينضموا إليها . ومعنى هذا أن كل راهب ، وكل كاهن أعزب ، وكل ارشمندريت وكل مطران ومن ثم كل بطريرك ، يجب أن يكون يونانياً . وحتى في مكان مثل دير قرنطل ، أو دير مار سابا على مقربة من القدس ، ما كنت ترى راهباً عربياً قط .

واسترحنا عند الرهبان قليلاً ، ثم تابعنا السير إلى قمّة الجبل حيث عثرنا على كنيسة لم يتم بناؤها .

هناك ، كما جاء في الإنجيل (متى 4 : 1 -11) قضى المسيح أربعين يوماً (ومن هنا جاءت التسمية جبل الأربعين - كارانتل- قرنطل) في صيام وتعبد ، وفي نهايتها جاء الشيطان مجرباً ، لكنّه فشل .

من قمة جبل الأربعين يمكنك أن ترى الجزء الجنوبي من الغور الذي ينتهي في البحر الميت . واحة أريحا هي الجزء الوحيد الذي كانت تصله المياه يومها بقني طبيعية بسيطة ، دون تخطيط . ولعلّ الذي رأيناه من هذه الناحية لم يكن يختلف عن الذي عرفته أريحا لآلاف من السنين خلت . فإذا مددت بصرك إلى المناطق البعيدة عنها لا ترى إلا الجفاف . جانبا غور الأردن في جنوبه كانا ، يومها ، مجموعة من التلال الترابية الملحة ، والماء في النهر لم يكن عميقاً . ذلك أن ثلوج جبل الشيخ وما جاوره لم تكن قد دبّت فيها الحرارة لتذوب وتتّجه مياهها نحو ينابيع الأردن الشمالية .

من قمّة جبل الأربعين كنت تُطِل شرقاً على جبال الأردن الممتدّة من مؤاب (منطقة مأدبا وجبل نبو - الصياغة) عبر البلقاء إلى جنوب جبال عجلون . ترتفع الجبال أمامك من أقدام الغور إلى نحو ثمانمئة متر فوق سطح البحر ؛ وقد تتجاوزها أحياناً .

البحر الميت يبدو سطحهُ هادئاً ، كما كان الناس يقولون ، كأنه الزيت ؛ ويومها لم نرَ البحر الميت غاضباً . لكنني رأيته فيما بعد والموج يتلاطم فيه . والذي يمكن أن أقوله هو إن الماء لا يؤمن جانبه- البحر الميت أو البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي .

نظرة إلى الغرب . عندها ترى الجبال التي تقوم عليها مدينة القدس ، وخاصَّة الكنائس التي تقوم على جبل الزيتون لكن المهم أن يكون الجو صحواً والهواء نقياً .

جوّاب آفاق

عدنا إلى الفندق قبيل غروب الشمس لنستمتع بعشاء طيب لذيذ - وكل شيء كان يبدو - لي على الأقل- لذيذاً . فأنا كنت يومها قد بدأت أتكوّن -فضلاً عن أمور كثيرة- جوّاب آفاق . وقد صرته ، ولا أزال مستعداً للقيام بالأسفار .

عدنا إلى القدس بالعربات ، ولكنَّنا هذه المرة كنَّا نصعد 300 + 750 = 1050 متراً من أريحا إلى القدس ، فيما كنَّا في رحلة الذهاب نهبط هذه الأمتار بالذات!

زرت البحر الميت وأريحا عدداً كبيراً من المرّات فيما بعد ، وأقمت في فنادقها الحديثة وزرت أماكن الحفريات ، وقضيت أمسيات في مطاعم أقيمت على شواطئ البحر الميت . لكن زيارتي الأولى ظلَّت الزيارة الأولى .

لما ذهبت إلى جنين في عطلة الفصح ، وهذه تقع عادة في فصل الربيع ، سُرَّتْ أمي بلقائي وسررت أنا بلقاء الأسرة ولم أذهب إلى الناصرة . لكنَّني أدركت أن أمي تعاني صعوبة مالية . فقد باعت أكثر ما كانت قد ابتاعته قبلاً من الذهب . وكانت تفكر في بيع أشياء بيتية حملناها معنا من دمشق إلى الناصرة وجاءت الآن إلى جنين . ولم تكن بطبيعة الحال متحمِّسة لذلك ، لكن الضرورة فرضت عليها أن تعرض السجَّادة العجمية الجميلة الوحيدة التي بقيت عندنا . كانت أمي تحب هذه السجادة . ولم تفرط بها بسهولة . وقد تمَّت الصفقة في صيف سنة 1922 ، أي لمَّا عدت في عطلة الصيف . ابتاع السجادة الكابتن بكت من ضباط الجيش البريطاني التي كانت وحدة منه تقيم في جنين . ودفع ثمنها خمسة عشر جنيهاً مصرياً .

الرحلة إلى طبرية

لمّا تخرجتُ وذهبت لقضاء ما تبقّى من عطلة الصيف في الناصرة ، رتّبتُ مع رفقاء لي فيها (وكلّهم كانوا طلاباً في دار المعلمين) القيام برحلة على الأقدام لزيارة طبرية .

في طريقنا إلى طبرية مررنا بقرون حطين حيث جرت المعركة المشهورة بين صلاح الدين والصليبيين سنة 1187/583 ، والتي انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً ساحقاً . وفي طبرية زرنا المناطق الواقعة على شواطئ البحيرة الغربية من مخرج نهر الأردن في الجنوب حتى كفر ناحوم في الشمال . وشاركنا صيادي السمك في أعمالهم .

أمّا رفقاء الرحلة فكانوا فهيم خوري وغمر حبيب (العُلَيمي فيما بعد) ومحمد نمر (الهواري فيما بعد) وحنا إبراهيم . وكان مضيفنا في طبرية إبراهيم مطر . فقد رتّب لنا أن نقضي ليالينا في منازل أصدقاء لأسرته مدرسين كانوا متغيبين بسبب عطلة الصيف .

وهذا المنقول التالي هو انطباع عمّا استمتعت به في تلك الرحلة كتب سنة 1934 .

انطباع حيّ

في شمال فلسطين مجموعة من المياه تشغل جزءاً من غور الأردن تقل مساحته عن الثلاثماية من الكيلومترات المربعة ، وينخفض سطح الماء فيها نحو مئتين من الأمتار عن سطح البحر . وتحيط بهذه المياه جبال ترتفع في أكثر الأحيان ارتفاعاً فجائياً ، وفي أقلها تدريجاً ، إلى مئات الأمتار . هذه هي بحيرة طبرية . وهي مثل من الأمثلة الكثيرة على أماكن الجمال وبقاعه في بلادنا . والحق أنه لا يجوز أن يخرج أحد أبناء بلادنا إلى الخارج قبل أن يزور هذه المنطقة . ذلك لأنها تضع أمامه مقياساً رفيعاً للجمال يسهل عليه الحكم على ما يرى في أجزاء كثيرة من العالم . والمقياس الرفيع هذا يرجع إلى تنوع الصور الجميلة التي تنطبع في ذاكرتك للأماكن . فأنت تجلس في صباح يوم أيام الربيع لتراقب الشمس تجد السير للطلوع علينا . فإذا ما بدت لك تباشيرها رأيت

غيمة تعترضها ، وينتقل بك الخيال إلى مشاهدة خصومة عنيفة بين الشمس والغيمة ، فترتفع الواحدة وترتفع الأخرى ، وتوشي الشمس أطراف الغيمة بخيوط فضية ، ثم بخيوط ذهبية ، فتعجب الغيمة بجمالها ، وتتيه دلالاً فيغلبها النور الوضاح ، وتزهو الشمس في الأفق . فإذا جئت في صباح آخر لترى مثل ذلك الشروق الجميل ، ولتستمتع مرة ثانية بهذه الخصومة تشنها جيوش النور على فلول الظلام وأعوانه شهدت عجباً . هذه الغيمة استعانت بأخوات لها ، عزيزات عليها ، وتقف الغيوم في طريق الشمس ، فإذا ظهرت هذه رأت عجباً من القوة والنفوذ ، فتلح في حقها ، وتجمع قوتها وتهاجم وتشتد الخصومة ويجرد السلاح ويعنف القتال وتسيل الدماء ، وكل ذلك صور تتعاقب أمامك وتملأك سروراً ومتعة ، وتثير في نفسك كوامنها وتهيجك للقتال والجهاد . فإذا انتهت المعركة بتغلب النور أيضاً ، رأيت الشمس رفيقة بالغيوم المنهزمة والمضرجة بدمائها ، فهي تجمع لها الورود تنثرها عليها ، ثم تلفها كلها بنورها ، وتنقلها معها إلى حيث يُنقل الأبرار والصالحون من أبناء الآلهة .

وإن لم تكن من عشّاق الشروق ، فأنت واجد في قارب يمخر بك مياه البحيرة ، يشق بحيزومه ماءها ، في ساعة من ساعات الصباح ، أو ساعة من ساعات المساء ، ما يذهب عنك التعب ، أو ما يعطيك رياضة جسمية إذا أرحت الملاح من عمله وتناولت مجاذيفه وحركتها بدلاً منه . وأنت إذ تنتقل من مكان إلى آخر في البحيرة ، توجه وجهك نحو جبل الشيخ الملتحف بردائه الأبيض ، فترضاه لك قبلة تتولاها ، تسترشد برشده ، وتهتدي بهديه ، وتعجب بعظمته ، وتقوى بقوته ، وتشعر بمعنى رسوخ العقيدة ، وبالاطمئنان إلى الإيمان .

على أن بحيرة طبرية تحوي في ربوعها غير هذا الذي ذكرت . فقد اختصم فيها النور والظلام غير مرة ، وانتصر النور . فشواطئ البحيرة شهدت الكثير من تنقل السيد المسيح ووعظه وإرشاده وأعماله ، ومن صيادي السمك هناك أخذ السيد المسيح بعض رسله ، وبين أهليها عاش . فالمجدل ، بلد مريم المجدلية ، وجبل البركة وكفرناحوم (تلحوم) وبيت حسدا ، أماكن تثير في نفس المؤمن ذكريات حية . وتفتح أمامه آفاقاً جديدة في التفكير الروحي ، وتقدم له ألواناً من الغذاء المعنوي ، لا يحصل عليه في أماكن كثيرة في بلادنا .

وعلى مقربة من البحيرة ، في وادي اليرموك وضعت الأسس العربية لهذه البلاد لما انتصر ابن الجرّاح على جيوش هرقل وهزمها سنة 15 هجرية (636 ميلادية) . وعند شعاب حطين ، إلى الغرب من البحيرة ، لقي صلاح الدين جيوش الصليبيين ، وانتصر عليهم ، وأثبت رسالة اليرموك في هذه البلاد . ونحن إذا توسعنا في المنطقة قليلاً تذكرنا معركة عين جالوت التي ردت جموع المغول عن سورية في القرن الثالث عشر . نعم هذه هي النواحي الروحية والقومية التي تنعشها في نفوسنا بحيرة طبرية وما حولها .

على أننا ، ونحن نستعرض هذه النواحي من بحيرة طبرية ، ورسالتها الروحية ، نود أن نذكر النواحي الأخرى لهذه المنطقة . فثمة الناحية الصحية المتجلية في حماماتها المعدنية ، وفي الحمّة التي يسهل الوصول إليها منها ، وفي الينابيع الأخرى الصغيرة المنتشرة في ربوعها ، وفي المصح الذي افتتحته إدارة الصحّة العامة بفلسطين في الطابغة . وثمة الناحية الأثرية التي يعنى بها المؤرخون والمنقبون والتي يجدونها ممثلة في دراسة أنقاض طبرية القديمة وكفرناحوم وما إليهما . وقد ظهر من نتيجة هذه الأبحاث أن بحيرة طبرية كان يحيط بها في أيام المسيح بضع عشرة مدينة قدّر عدد سكانها بنحو 70.000 نسمة . وفي المدينة نفسها بقية الأبراج والأسوار التي بناها ولد الظاهر عمر في القرن الثامن عشر للدفاع عنها .

ومن هنا نرى أن التنوع في جهات بحيرة طبرية هو العامل الرئيسي في حسبانها بقعة جميلة جذابة ، هذا على أن يحسن المرء اختيار الوقت لزيارتها ، وأفضله الشتاء والربيع . على أنني عرفت البحيرة وجهاتها في الصيف غير مرة ، ونعمت بحرّها ، وهو شرُّها ، ونعمت بمائها وهو الخير كل الخير . وإن أنسَ لا أنسى يوماً حاراً من أيام الصيف صرفته مع جماعة من الصحب تنقلنا فيه في قارب بين المدينة وتلحوم والطابغة والجدل . فحرقتنا الشمس ما شاء لها أن تحرق ، وغمرنا الماء ما شاء له أن يغمر ، وشاركنا البحّارة في التجذيف ، وساعدنا الصيادين في لم شباكهم ، فأعطونا من السمك الذي أفاء الله به عليهم ، وأوقدنا النيران وشوينا السمك واستمتعنا به .

فكان لنا كل ما يكون لطالب النزهة والراغب في اللهو البريء ، والمرح الذي يُذهب عن النفس أحزانها ، ويُورثها ذكريات عذبة .

جبال الجولان البركانية

والوصول إلى بحيرة طبرية ميسور على كل من أراد . فهي تقع على طريق العربات الرئيسي الذي يصل دمشق وصفد بحيفا . وهي إلى ذلك قريبة من فرع سكة الحديد الحجازية الذي يمتد من درعا إلى حيفا . فهي في متناول المقدسي في أقل من خمس ساعات ، وفي متناول الشامي في مدة تزيد على ذلك . أمّا أبناء المدن الأخرى فأمرهم أهون وخطبهم أيسر . ومتى وصل المرء إلى طبرية واستقرّ فيها اتخذها مركزاً لتجواله ، ونقطة ابتداء لأسفاره . وكل جزء من شاطئ البحيرة وضفافها حري بالزيارة . فمحب السير على الأقدام يمتع نفسه بتسلق وادي الحمام إلى قلعة ابن معن . وهي مجموعة من المآوي المنحوتة في الصخر والكهوف الطبيعية على عدوات الوادي ، يتسلق إليها المرء في شيء كثير من الصعوبة ، وشيء كثير من المتعة فإذا وصلها أطل منها على البحيرة الهادئة الصافية خلفها جبال الجولان البركانية ، فرأى منظراً ينطبع أثره في النفس ويعجز الإنسان عن وصفه . وإذا استمرّ في سيره ساعة أخرى وصل إلى خربة إربل ، حيث يعثر على أنقاض قصر هو واحد من القصور الصغيرة التي بناها الأمويون لاعتزال الحياة الصاخبة في دمشق والاستمتاع بحياة خاصة هادئة . وإن ساعة أخرى لتنقل السائر إلى سهل حطين ، حيث جرت الموقعة الحاسمة ، وإلى قرية حطين حيث يوجد مقام النبي شعيب . فإذا تسلق قرون حطين ، وألقى بنظرة إلى البحيرة والغور الذي تشغل بعضه ، تمثلت أمامه حقبات التاريخ منذ أن انتقل الإنسان من الهمجية إلى الحضارة إلى عصرنا الحاضر .

الرحلة في البحيرة

أما الذين يحبون التجذيف فإنهم واجدون في يوم أو أكثر متعة لا أحسب أن

أماكن كثيرة في العالم تجود بمثلها . إنهم واجدون لذة في الانتقال على شواطئ البحيرة كلها في قارب ، يحملون فيه زادهم ، وقد يحملون معهم خيمة ، إذا شاءوا ، ليقضوا ليلة في الجهة الشمالية الشرقية من البحيرة . وهم إذ يصلون إلى فيق ، في الجهة المقابلة لطبرية تماماً ، يرون هناك آثار الطريق الروماني القديم الذي كان يمتد من مرج ابن عامر ، ماراً بجنوب البحيرة ومنها إلى دمشق بطريق فيق . وكان يتشعب من هذا الطريق فرع يحمل المسافرين إلى جدرو أو جدارا التي كانت تقوم حول الحمة الحالية ، ذات الحمامات المشهورة . لقد كانت جدرو في العصر اليوناني الروماني مدينة كبيرة ذات مسرح ومسبق وملعب ، فتمثلت فيها الحضارة الرومانية بأجلى مظاهرها ، ونبغ منها شعراء وأدباء . والطريق الحالية من سمخ إلى الحمة تتبع آثار هذه السكة الرومانية ، محاذية نهر اليرموك إلى درجة كبيرة .

النظر نحو بيسان

ومن وصل إلى بيسان ، وهي على مسافة يسيرة جنوبي البحيرة ، رأى ما فيها من خصب ورخاء وأشرف على غور أبي عبيدة ، حيث يقوم قبر أبي عبيدة بن الجراح ، بطل اليرموك .

وقد كانت الأراضي المحيطة ببحيرة طبرية دائماً مركزاً رئيسياً لإنتاج نباتات المنطقة الحارة . ولا غرابة في ذلك ، فهي تنخفض نحو مائتي متر عن سطح البحر ، والحر فيها موفور والماء كثير . وقد روى جغرافيو العرب ، على اختلاف ألوانهم ، الكثير من أخبار المنطقة . فبانياس ونوى إلى الشمال حول الحولة ، كانتا هريا لدمشق في الأرز والقطن ، وطبرية كانت تكثر فيها ، على رواية ناصر خسرو ، البيوت المعدة لطلاب السرور واللهو الآتين إليها من أماكن كثيرة . ويروي الرحالة نفسه أن حصر الصلاة التي كانت تصنع في طبرية كانت جيدة متقنة فتباع واحدتها بخمسة دنانير ، أي ما يزيد على دينارين بعملة اليوم .

أما بيسان فيروي المقدسي أن مزارع الأرز فيها كانت تكفي سكان جندي (ولايتي) الأردن وفلسطين . وينقل القلقشندي أنها كثيرة الخصب واسعة الرزق .

هذه هي منطقة طبرية ، وهي على ما خبرتها بنفسي ، واحدة من البقاع الرئيسية في بلادنا التي تستحق أن يتعرف إليها كل واحد منا . فليقم كل منا بواجبه في التعرف إلى البلاد العربية ، وليبدأ بطبرية وبحيرتها . فإنها بداية طيبة» .

رحلة العُمر

في صيف 1925م قمت مع درويش المقدادي برحلة طويلة على الأقدام . بدأت الرحلة في أواسط شهر آب/أغسطس وانتهت في أواسط شهر أيلول/سبتمبر . كان الحديث عن هذه الرحلة قد بدأ في ربيع 1924 ، في دار المعلمين ، وكانت الفكرة تدور حول زيارة لجبل الشيخ . لكن لم يتم شيء من ذلك في صيف تلك السنة . فاكتفينا ، أنا ومجموعة من الأصدقاء ، على القيام برحلة على الأقدام إلى طبرية . وقد دونت انطباعاتي عن المنطقة في أوراق سابقة .

لما زارني درويش المقدادي في ترشيحا ، وكنت أنا معلماً في مدرستها ، قال لي إن مشروع الرحلة القديم تجدد الحديث عنه ، وإنه أصبح رحلة على الأقدام عبر شمال فلسطين ولبنان وبعض مناطق سورية الساحلية . وقال لي إن عدد الذين أظهروا رغبة في الانضمام كبير . لكن لا بأس فكل شيء يمكن ترتيبه .

اتفقنا أخيراً - وهو في زيارتنا - أن نبدأ رحلتنا في أواسط شهر آب ، وأنني سأكون في الناصرة ، وأنني أنتظر أخباراً منه .

وجاءت الرسالة وفيها يعين درويش يوم بدء الرحلة ، ويطلب مني أن أنتظره في الناصرة ، صباح يوم معين في كراج الميدان كي نذهب إلى صفد ؛ فالرحلة ستبدأ من هناك .

وجاء اليوم . وذهبت وانتظرت . أملت أن يكون العدد كبيراً . لكن وصل درويش وحده وقال تقلّص العدد من سبعة عشر إلى اثنين . وهكذا بدأنا الرحلة بالسيارة إلى صفد . قضينا يومين في صفد فقد كان يودّ أن يتأكد من ضبط أسماء القرى في قضاء صفد لأمر كلّفه به عمر الصالح البرغوثي - المحامي المؤرّخ .

وبدأنا الرحلة . وأنا هنا أود أن أضع جدولاً بسير الرحلة ، تاركاً التفاصيل عن

الأجزاء المختلفة التي قطعناها لمكانها الخاص بها .

طريقنا كان كما يلي : صفد إلى حوض بحيرة الحولة ، قرية الخالصة - التي يسميها الصهيونيون اليوم «قرية اشمونا» - ومنها عبر منابع الأردن إلى جباتا على سفح جبل الشيخ مروراً ببانياس .

من جباتا إلى قمة جبل الشيخ ، ومنها إلى شبعا في لبنان . من شبعا إلى جديدة مرجعيون بطريق الهبّارية ، ومن جديدة إلى صيدا عن طريق قلعة الشقيف والنبطية .

بعد يومين في صيدا خرجنا إلى روم وجزين وسرنا إلى باتر وعماطور . قضينا الليلة هنا عند رجل من آل عبد الصمد . وفي اليوم التالي إلى دير القمر . ومنها إلى بيروت بالسيارة لأن أحذيتنا تمزقت وكان لا بد من تبديلها .

إلى الشمال عبر بيروت

ثلاثة أيام في بيروت . درويش ، خريج الجامعة الأميركية ، دليلي . إقامتنا كانت في الفندق العربي الحديث الإنشاء في الطرف الشمالي الغربي لساحة البرج - الشهداء .

ونحن في بيروت زرنا ضبيّة وجونية وجُبَيْل . ذهبنا إلى جبيل بالقطار . كان مونته Monte قد بدأ قبل ذلك بمدة بأعمال الحفر الأثرية في جبيل . فشرح لنا ما توصل إليه يومها ، ولم يكن بعد كثيراً .

انتقلنا من بيروت إلى صوفر بالقطار . ومنها سرنا إلى بحمدون . وسرنا بعد ذلك عبر قرنايل وبزبدين إلى ضهور الشوير . قضينا ليلة في دير مار الياس . ومن ثم سرنا إلى صنين . بعد ذلك كانت طريقنا عبر العاقورة إلى الأرز .

من الأرز اتجهنا نحو طرابلس . وبعد يومين هناك سافرنا بالقطار إلى تلكلخ ثم كان لنا سير (مشياً) إلى قلعة الحصن (حصن الأكراد) ثم صافيتا ، فجبلة على الساحل (منها خرجنا في صباح مبكر وزرنا قلعة المرقب) .

وصلنا اللاذقية منتصف الليل . قضينا ثلاثة أيام فيها وأربعة في جبال النصيرية . ومن اللاذقية سافرنا بحراً إلى مرسين فالاسكندرون . ومنها إلى إنطاكية . وكانت

هناك زيارة للسويدية وما إليها (19 ساعة في يوم واحد) وهو آخر ما مشيناه ، إذ اقترب وقت فتح المدارس بفلسطين (9/14) ونحن الاثنان نشتغل بالتعليم . لذلك سافرنا بالسيارة من إنطاكية إلى حلب . ومنها إلى المعرة وحمص . وركبنا القطار من حمص إلى بعلبك وزحلة ثم بالقطار إلى دمشق .

وعدنا من دمشق بالسيارة ، فودعت درويش في الناصرة ، حيث قضيت يوماً ذهبت بعده إلى ترشيحا مقر عملي . أمّا درويش فاستمرَّ من الناصرة إلى طولكرم فالقدس!

هذه طريق الرحلة ، أمّا التفاصيل فتلي .

عبر بلدات الجنوب اللبناني

انحدرنا من جبل الشيخ غرباً ، فوصلنا شبعا حيث قضينا ليلة في ضيافة «رسمية» للمختار . ثم إلى حاصبيا وجديدة مرج عيون . حيث أخذنا في الانحدار التدريجي نحو نهر يسمى في جزئه الممتد من منبعه (في جوار بعلبك) حتى أقدام قلعة الشقيف (شقيف أرنون) نهر الليطاني . فإذا انحرف غرباً فيما يشبه الزاوية القائمة كي يصب في البحر المتوسط أصبح اسمه نهر القاسمية .

فلما وصلنا هذه الزاوية التي يبدل عندها اتجاهه ، تطلعنا إلى فوق . على قمّة الجبل الذي يسير على هذا الوادي في جهتيه ، تقوم قلعة الشقيف . هذا مكان لا بد أن يزار . ونحن أمام خيارين : إمّا أن ندور مع الدرب «وإن دارت» كما يقول المثل ، فنصل إلى القلعة من الجهة الجنوبية الغربية ، في طريق يرتفع متمهلاً ، ثم يقطع سهلاً يمتد بين القلعة والنبطية . والخيار الثاني أن نحزم أمرنا ونتسلّقَ إلى القلعة على نحو ما تتسلق الماعز . ولم نطل التفكير ، ولا حتى فكرنا فيما أذكر . قبل أن نحزم أمرنا تماماً كنا قد بدأنا التسلّق . وما كان أمتع ذلك . فقد كنا ننظر خلفنا بين الفينة والفينة لنتملّى من المناظر الخلابة . الأرض تكسوها نباتات الصيف الزاحفة ، الخيار والقثاء (الفقوس) والبطيخ ، وكروم العنب الملتهبة نضوجاً وخجلاً ، ونهر الليطاني - القاسمية يشق طريقه متمهلاً ، وموقع القلعة الحصين وإشرافها على الطرق أمر يوضح

لنا ، كما أوضح ذلك لغيرنا من قبل ومن بعد ، أهمية الموقع الجغرافي في الإشراف على الطرق إمّا لتسهيل سير التجار أو لمنع تقدم الجيوش .

واتجهنا نحو صيدا مروراً بالنبطية . كان وصولنا ضواحي صيدا وقد لفَّ الظلام الدنيا . وقبل أن ندخل المدينة لقيتنا دورية من الشرطة قوامها أربعة نفر جميعهم يمتطون الخيول ، ولست مستعداً لأن أقول الجياد فإنها لم تبد لي كذلك . وإذا بآمرها ، ولعله كان باشجاويش (أي من صف الضباط) يطلب منا الوقوف ويسألنا لماذا نسير في وقت متأخر من الليل . ولماذا ننتقل مشياً على الأقدام من فلسطين إلى لبنان ، ولماذا ولماذا . وهو لا ينتظر جواباً على السؤال قبل أن يطرح السؤال التالي . ثم يصدر أمره إلى أمين أونباشي (أي آمر العشرة بالتركية ، وكانت هذه التسميات التركية لا تزال سائرة في فلسطين ولبنان) أن يرافقنا إلى صيدا إلى القشلة . وهذا يأمرنا بدوره أن نسير أمامه . وظل هو على حصانه .

دخول صيدا

وهكذا دخلنا صيدا ، يمكن حول الساعة الثامنة مساء ، واجتزنا الشارع الرئيسي (العام) كما يجتازه أي شخص ملقى عليه القبض . كان الشارع الرئيسي في صيدا معجوقاً بالذين جاءوا يروحون عن أنفسهم من حر الصيف بالجلوس في المقاهي . كان القوم يحتسون الأشربة الباردة - العرقسوس أو شراب الرمان أو الورد أو الكازوزة ، إذ لم تكن الكولا ولا السفن أب معروفة يومها - أو يتناولون القهوة . والبعض كان يكتفي بالسيكارة فيما كان البعض الآخر يقرقر أركيلته . ولم يكن لدي شك في أن هؤلاء الناس ظنوا أن الدورية ألقت القبض على صيد سمين من الجواسيس أو المجرمين .

وقد اتضح هذا لنا لما زرنا الأمير نسيب الشهابي في اليوم التالي في مكتبه ، وكان بين يدينا رسالة توصية من صديق له ، فكان أن قال لنا لا تؤاخذوني كان يجب أن نعنى بأمركم لما مررتم أمامنا أمس مساء ، وكنّا في المقهى . وأضاف : «ولكن أنتم تعرفون أن الثورة قائمة في سورية ، ولذلك الحذر واجب» .

ولما وصلنا إلى القشلة ، وهي أيضاً الكلمة التركية لمركز الحامية العسكرية ، وكانت

يومها مركزاً للشرطة والدرك ، قرر المسؤول المؤقت هناك أن يستضيفنا إلى صباح اليوم التالي . فالمسؤول غائب عن المكتب ، وهو ، أي القائم بالأعمال ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً . وفي الصباح تحل المشاكل .

لكن درويش أصر على وجوب انتظار عودة المسؤول في المكتب لا في النظارة (كانت الغرفة المقترحة رقم 3) . ومع أنه كان هناك شيء من المناقشة بين درويش وبين هذا الرجل ، فإنه في الواقع لم يعطنا أية فرصة لاحترامه . وقد كان يكفي أنه يمارس وظيفته في مكتب رسمي وهو يلبس «قبقاباً» من الخشب!

ولم تطل المناقشة لأن المسؤول دخل ، والذي ظنناه هو أن الخبر وصل إليه فجاء لعله يجد صيداً حرياً باهتمامه . فوجد أمامه شابين محترمين ، يحملان أوراقاً رسمية صحيحة صالحة للسفر والتنقل ، وإنها كانت تحمل سمة بالدخول إلى لبنان وسورية من القنصل الفرنسي في القدس .

أدرك الموظف المسؤول أنه لم يفد من الصيد ، فليفد على الأقل من الاعتذار . وهكذا فقد اعتذر بما فيه الكفاية وزيادة . ثم عرض علينا أي خدمة . وكنت أنا قد لاحظت اسم الفندق الذي نصحنا بالنزول فيه ونحن داخلان إلى المدينة ، فشكرناه وسرنا حرين طليقين إلى الفندق - فندق فينيقيا .

زيارة الأمير نسيب الشهابي

زرنا الأمير نسيب في صباح اليوم التالي ، فأصرَّ على مرافقتنا لزيارة المدينة . صيدا كانت يومها المدينة القديمة بحاراتها التي تعود إلى العصور المتوسطة وأزقتها الضيقة وطرقها المبلطة ، مع انتشار العتمة في كثير من هذه كلها . إلى هذا كان هناك بدء انتشار خارج المدينة تزينه مدرسة الأميركان في المية ومية وأبنية تخص وجهاء المدينة الإقطاعيين . إذ لم يكن التجار قد أصبحت لهم بعد المكانة التي كانت لتجار بيروت .

لكن صيدا فيها بقية ميناء قديم وفيها قلعة تعود في أكثر ما بقي منها إلى العصور الوسطى ، ولو أن أجزاء منها تدعي العودة إلى الأزمنة القديمة . فصيدا كانت ميناء حوران والشام . ومن آثار صيدا الجميلة التي تعود إلى أيام فخر الدين المعني خان

الإفرنج الذي كان في زمن هذا الأمير في أوائل القرن السابع عشر، مركز التجارة الأجنبية، لما كانت صيدا مركز هذا الاتجار الأول مع الغرب .

لكن كل هذا كان من أخبار الماضي . إلا أن الماضي الذي كان يشع حبوراً في المدينة فقد كانت النواويس التي تعود إلى العصر الهلينستي، ويشار إليها باسم نواويس الاسكندر، لأن صورته منقوشة على أكثرها . هذه النواويس كشف عنها في عهد الدولة العثمانية، وكل ما عمل من أجلها أنها ظلّت مكانها . ولم تكن الإدارة الجديدة قد رتبت أمور هذه النواويس يومها . جبيل كانت مركز الاهتمام الأثري الأول . صيدا كان كل ما نالها إلى ذلك الوقت زيارة أرنست رينان الفيلسوف والمؤرّخ الفرنسي في أواخر القرن الماضي، ووصفه لما رأى وما نبش (وهو قليل) وذلك في التقرير الذي وضعه عن رحلته الأثرية (الأركيولوجية) في فينيقيا .

مسافران أغبران

في صبيحة اليوم التالي خرجنا من صيدا في اتجاه جزين . مررنا بروم، ووصلنا جزين عند الظهر، ولما سألنا عن مطعم أشير علينا بأن نقصد فندق النعمانية في أعلى البلد . وكان الطريق طويلاً ولكنه جميل . مررنا بالشالوف المشهور، وبالبيوت اللطيفة القائمة على التلال وفي الأودية، ورأينا في دكان أو اثنين نماذج مما تصنع جزين من السكاكين والملاعق والشوك ذات المقابض القرنية المتنوعة . ولكن لما وصلنا إلى فندق النعمانية لم يسمح لنا مدير صالة الطعام بالدخول للأكل . ولم يكن السبب أنه لا مكان لنا كما قال، ولكن الذي قصده أنه لم يكن هناك مكان لاثنين مغبرين على نحو ما كنا . فعدنا أدراجنا إلى وسط البلد ونعمنا بغداء شهي بسيط لذيذ على أيدي نُدل لم «يقرفوا» من الغبار الذي كان يكسونا .

اتجاهنا من صيدا إلى جزين كان شرقاً في جنوب . والآن، بعد الغداء وشيء من الراحة، اتجهنا شمالاً نحو بعقلين ودير القمر . الطريق ترتفع تدريجاً تجاري خطوط ارتفاع الجبل هناك، وتكتسي جنبات التلال بالأشجار المثمرة وإن كان بعضها كالمشمش قد انتهى موسمه . لكن الكرم كانت أيامه في عزها . فنحن في النصف

الثاني من آب/أغسطس . والمثل يقول «في آب اقطف العنب ولا تهاب» . وكانت أشجار التين على اليمين واليسار ، ونحن نسير مستمتعين مطمئنين إلى أننا سنصل مكاناً نجد فيه فندقاً ، إذ اتضح لنا أننا لن نطأ أرض بعقلين قبل المساء فدرويش المقدادي قضى أربع سنوات في الجامعة الأميركية في بيروت ، وقبلها كان تلميذاً في مدرسة ثانوية هناك ، وهو يعرف - أو يظن أنه يعرف كما اتضح لنا - أن جميع قرى لبنان الأوسط فيها فنادق لأنها مدن اصطياف .

غابت الشمس وهبط الظلام الخفيف أولاً ونحن على مقربة من عماطور - وبيننا وبين بعقلين مشوار ولما وصلنا عماطور سألنا في مكتب الشرطة عن فندق فقيل لنا لا يوجد فنادق في المنطقة . ويبدو أن الذي لم يكن يعرفه درويش ، هو أن الاصطياف كان له معنيان بالنسبة للبناني وخاصة المقيم في الساحل . فهناك الاصطياف في الفنادق وهذا يومها (سنة 1925) كان مقتصراً على عدد محدود من المدن والبلدان وحتى القرى في لبنان الأوسط وجزين والجنوب وحصرون وبشرّي في الشمال . هذه الفنادق كان يقصدها الأثرياء . وكانت الفنادق التي يمكن أن تقبل زواراً متوسطي الحال قليلة إن لم تكن نادرة .

ولكن الاصطياف الأعم هو الذي يقوم على أساس تملك بيت في قرية من قرى الجبل تذهب إليه الأسرة لقضاء فصل الصيف . وقد يذهب الرجل يومياً أو أياماً معينة في الأسبوع إلى عمله في بيروت أو طرابلس أو صيدا . وثمة بعد الأعم من هذا وهو أن يكون البيت القائم في القرية هو بيت الأسرة الذي تملكه هناك ، وتذهب إليه صيفاً لقضاء الوقت فيه .

وقد ظلّت هذه خطّة الاصطياف العامة ، لكن الذي يتبدل هو التفاصيل . فقد زاد عدد الفنادق زيادة كبيرة ، وفتحت فنادق يمكن أن يؤمها أهل الطبقة المتوسطة وفرشت شقق وبيوت للتأجير صيفاً .

ضيافة في مركز الشرطة

والمهم أننا لم نجد فندقاً في عماطور لكن الضيافة لا تعدم النصير في ديار العرب .

فقد دعانا آمر مركز الشرطة إلى قضاء الليلة عندهم في المركز . وذلك بعد أن أصر على وجوب تناول الطعام معهم . كانوا قد جلسوا يتناولون طعام العشاء مع صديق لهم ، وقبلنا الدعوة شاكرين ، لكنّنا اعتذرنا عن مشاركتهم في الشراب . فالجماعة كانوا «يأكلون مع كأس» . لذلك فقد اعتذروا لنا عن احتمال التأخّر في الأكل . وبعد وقت انتهى فيه ما ندبوا أنفسهم له . قام الكل إلى الطاولة ينظفها ، وأخذ رجال الشرطة ينظمون أمر مبيتنا ، وإذا بضيف الشرطة يقول : «تفضلوا إلى بيتكم ؛ كيف بتنامو عند الشرطة في عماطور» . وهكذا أخذنا السيد عبد الصمد ، كما عرفنا من الحديث ، وقضينا عنده ليلة مريحة مسرّة نافعة . استرحنا على الفراش الوثير المفروش على الأرض (فرشتين لكل واحد منّا) وسررنا بالضيافة المغلفة بالأنس والطبيعة واستفدنا من حيث الحديث معه . الرجل كان درزياً ، فالقرية بأجمعها كذلك ؛ والثورة السورية كانت أصلاً ثورة درزية بمعنى أنها ابتدأت في جبل الدروز . وحدثنا عن الصلات التحتانية - إلى يومها ، بين الجماعة هنا (في لبنان) والجماعة هناك . وقد وجدنا شيئاً مشتركاً بيننا - وجدناه ونحن بعد في مركز الشرطة- وهو أن أحد أفراد أسرة عبد الصمد يشغل منصباً مرموقاً في بوليس فلسطين .

إلى دير القمر

في صبيحة اليوم التالي سرنا إلى دير القمر . ليس باستطاعتي وصف البقاع الجميلة التي مررنا بها . ولعلّ أكثر ما لفت نظري الجلول التي شاهدتها في هذه المنطقة . كانت تشبه الجلول الموجودة في منطقة بتّير (على مقربة من القدس) ، لكنّها كانت أجمل بسبب وجود المياه في الربوع اللبنانية ومن ثم فإن الجلول قلّما تكون عريانة . والأشجار المثمرة وغير المثمرة والخضار والزهور أكثر تنوعاً وأشد إيناعاً وأبعث على السرور .

تناولنا غداء في بيت الدين وسرنا إلى دير القمر . والأولى كانت مقر الأمير بشير الشهابي الكبير (1789- 1840) وكانت إدارة الآثار قد أخذت بترميم السراي ، التي أصبحت فيما بعد المقر الصيفي لرئيس الجمهورية اللبنانية . أمّا دير القمر ففيها آثار

للأمير فخر الدين المعني (1572-1635) وبهذه المناسبة فقد كانت دير القمر في أواسط القرن الماضي مركز تجارة الحرير في لبنان .

كانت أحذيتنا بحاجة إلى تبديل (حذائي) أو تصليح (حذاء درويش) . فتسلق جبل الشيخ والسير المستمر بدا أثرهما في هذه الأشياء الخارجية . لذلك ركبنا سيارة من دير القمر إلى بيروت ، فوصلناها مع الغروب وإلى الفندق العربي .

بيروت

هبطنا بيروت وقد حلّ الظلام . وحللنا في الفندق العربي . هذا هو المكان الذي كان درويش قد اقترحه . فندق جديد نظيف ، وفيه مطعم هو جزء منه ومستقل عنه في الوقت عينه ، واسمه المطعم العربي . وما الذي كان أكثر إغراء لفتى فيه نزعة من القومية العربية من مثل هذا الاسم .

كان الفندق يقوم في الجزء الشمالي الغربي من ساحة البرج (الشهداء) ، في شارع يخرج من الساحة أو يدخل إليها لا فرق . كان المبنى كله حديثاً مرتباً منظماً . وقد نعمنا في إقامتنا في الفندق ، كما نعمنا بالأكل في المطعم يوم لم نأكل في مكان آخر .

لما جئت بيروت لأقيم فيها سنة 1949 أي بعد نحو ربع قرن من أول زيارة لي للمدينة ، ذهبت إلى الشارع القصير ، الواقع في شمال غربي ساحة البرج (الشهداء) ؛ رأيت المبنى وقد تقرّح جسمه وكشط جلده ، ووجدت القصير ، الفندق العربي وقد قَدِمَت «أرمته» التي تحمل اسمه ، لأن المكان قَدِمَ واتّسخ وأصبح المطعم أثراً بعد عين ، إذ قامت محله دكانة لبيع كل شيء يمكن أن يُتَصَوَّر ، بما في ذلك مكوى للطرابيش . ولست أدري فيما إذا كان اسم الفندق الذي ثبت على عوادي ربع القرن كان يدل على أن المكان كان لا يزال يأوي إليه المسافرون . ولكن في هذه الحالة أي مسافرين؟

لم تكن رؤيتي للترام شيئاً غريباً . فأنا قد ألفته في دمشق . ولكن بيروت هي التي شغفتني يومها . لست أدري فيما إذا كنت قد قابلت بينها وبين القدس . فهذه كانت

المدينة الأولى التي عرفت . لكن بيروت كان فيها شيء آخر . فهي مدينة كبيرة على بحر ، والقدس مدينة كبيرة على جبل . فالقدس ترتفع بك وتحطك معها ، أمّا بيروت فتسير معها الهوينا .

وبيروت كان لها مركز حركة هو ساحة البرج . فمن هناك تخرج طرق الترام إلى الجميزة والبسطة وفرن الشباك ورأس بيروت . ومن هناك تتفرع الطرق إلى أطراف بيروت وأنحاء لبنان . وهناك كانت المقاهي الكبرى مثل كوكب الشرق وقهوة القزاز . ولم يكن للقدس مركز مثل هذا . القدس كانت قد أصبحت ، أو قد أوشكت أن تصبح ، مدينتين عربية ، هي القديمة والمصرارة والشيخ جراح والطالبية ، ويهودية وهي ميشوريم (القديمة) والأحياء الجديدة . وكان بينهما فواصل ؛ لكن بيروت كانت مدينة عربية ، لها قلب واحد . هذا هو الانطباع الذي أحتفظ به من تلك الزيارة .

زيارة الجامعة الأميركية

أخذني درويش إلى الجامعة الأميركية ، فهي المعهد الذي تخرّج منه . كانت الجامعة في العطلة الصيفية . ولم تكن قد أخذت بعد بالتدريس في فصل الصيف (هذا بدأ سنة 1951) . ولذلك لم يكن درويش ينتظر أن يجد أياً من أساتذته هناك . وجل من يمكن أن يراه هو بعض الموظفين . لكن حظّه كان طيباً . فعلى درجات وست هول العريضة كان يجلس نيكولي وكروفود وواحد ثالث لا أذكر اسمه . نيكولي كان طويلاً ضخم الجثة ، وكان أحد أعمدة تدريس الاقتصاد وإدارة الأعمال ، وكان ، فيما أعتقد ، عميد كلية الآداب والعلوم يومها . وقد سمعنا عنه فيما بعد قصصاً جعلت منه «بعبع» الجامعة . أمّا كروفورد فقد كان يدرس موضوعات فلسفية وأخلاقية . كان طويل القامة نحيلها ، وله لحية مرتبة . وقد سُرَّ الثلاثة لرؤية درويش . فنهضوا وسلموا عليه عبطاً دون قبلات ، وتقبلوني كواحد من أصدقائه . وأضفت أنا ومن تلاميذه .

وكانت جلسة على الدرجات ، لا أكثر ولا أقل . فهم ، مثل غيرهم من أساتذة الجامعة ، الوطنيين والأجانب على السواء ، كانوا يقضون الصيف في الجبل ، وكانت مصايف الأميركان منهم في عاليه وسوق الغرب وعيناب . كان كل واحد من هؤلاء

الذين لقينا قد قضى سنوات في البلاد . وكان كل يملك بيتاً في المصايف . وكان الثلاثة قد هبطوا بيروت يومها لقضاء بعض الأعمال ، فكان حظي أن أتعرف إليهم .

ويومها وقعت في غرام الجامعة الأميركية ، من حيث طبيعة المكان . فمبانيها القليلة (يومها) القرميدية التي تحيط بها الأشجار ، وانحدار التل الذي تقوم عليه نحو البحر كان شيئاً أدهشني . ومن يومها كنت آمل أن آتيها تلميذاً . ومع أن ذلك لم يتم لي ، فقد تمّ لي أن آتيها أستاذاً سنة 1949 وأن أظلّ أعمل فيها في حقل التعليم أربعاً وعشرين سنة إلى سنة 1973 .

وذهبنا يومها إلى الضبية ، المكان الذي ترسل منه المياه إلى بيروت . وجونية ، وكانت ضيعة صغيرة لكنها آية في الجمال . يكاد يكون كل بيت فيها مغطى بالقرميد ، والأبنية تنحدر فيها نحو البحر انحداراً فيه تؤدة وجمال وهدوء . وفي جزء من الجبال -أو هكذا بدا لي- كان يقوم الصرح البطريركي (الماروني) في بكركي .

جولة في جبيل مع الآثاري مونته

ويومها شممت رائحة التاريخ القديم عملياً . ذهبنا لزيارة جبيل ، المدينة القديمة جداً ، والتي تحمل على أكتافها ألوفا من سني التاريخ أو تاريخ السنين . فيها بقايا قلعة صليبية بارزة تزار . لكن فيها بقايا السكان الأوائل وهياكل المصريين والفينيقيين واليونان والرومان ، وفيها مسارح هذين الشعبين . كل هذا كان معروفاً أمره . لكن حظّنا كان ممتازاً . كان العالم الأثري الفرنسي مونتة (Monte) قد بدأ أعمال الحفر الأثري المنتظم في أنقاض جبيل . وكان منشرح الصدر للذي بدا له ، ولو أنه قليل . وقد أصرّ على أن يرافقنا بنفسه ليشرح لنا هذا القليل الذي أظهره الرفش والمعول . وبين القليل الذي يعرفه من الإنجليزية والأقل جداً جداً مما كان درويش يعرفه من الفرنسية ، استطعنا أن نتعرّف إلى بعض ما كان يريد أن يقول . لكنّه شعر بأنه لم يستطع أن يوصل إلينا ما يريد فاستدعى أحد الشباب الذين كانوا يعملون معه ، وكان يجيد الفرنسية ، فنصبه مترجماً بيننا . وهذا يسّر الأمر له ولنا . وقضينا نحو ساعتين والرجل يفسّر ما تم ، ويتحدّث عمّا يأمل أن يتم .

كانت هذه أول زيارة إلى مكان قديم يعمل فيه الرفش والمعول على كشف ما ضم عليه قلبه قروناً طويلة . لذلك قلت إنني شممت رائحة التاريخ القديم في واحدة من أقدم متاحفه ومقابره .

وأن لنا أن نترك بيروت . فتسلقنا جبل لبنان إلى صوفر في القطار . أقول تسلقنا لأنني لأول مرة أركب في قطار كان يتوسط الخطين الحديديين اللذين يسير عليهما القطار ، خط مسنّن ، وفي وسط القاطرة من الأسفل يتدلّى «ضابط» حديدي ينطبق على هذا التسنين ، بحيث إذا توقفت القاطرة لأي سبب ، كان هذا الضابط يشبك في الخط المسنن ، فلا ترجع القاطرة القهقرى وينقلب القطار بمن فيه وما فيه .

كان القصد من الذهاب إلى صوفر مزدوجاً بالنسبة لي . الأول أن أرى المكان ، وأستمتع بهذه النقلة السريعة (طبعاً أبطأ من السيارة) من الشاطئ إلى ارتفاع يبلغ نحو 1200 متر . والثاني – وهنا كنت أشترك فيه مع درويش – وهو أنه أراد أن يقابل أصدقاء له عراقيين كانوا معه في الجامعة ، وكانوا –كما كان وظلَّ عدد كبير من العراقيين– يصطافون في لبنان . وكانت شركة نيرن (Nairn) قد أخذت تسيِّر باصاتها المريحة بين بغداد وبيروت فازداد إقبال العراقيين على الاصطياف في ربوع لبنان . وأحسب أن ممّا شجّع العراقيين على ذلك أن عدداً لا يُستهان به من اللبنانيين كان قد ذهب إلى العراق ليعملَ في التعليم ، وكانت الصداقة التي قامت بين الفريقين ممّا شجع الاصطياف أيضاً .

بعد الزيارة سرنا من صوفر (عودا) إلى بحمدون ثم إلى قرنايل وبزبدين وضهور الشوير .

وهنا جابهتنا مشكلة . وصلنا يوم سبت مساء ، وفتشنا عبثاً عن مكان نقضي فيه ليلتنا . وكنّا على وشك أن نُتمَّ المشوارَ إلى بيروت . فإذا بأحد الأشخاص يتبرّعُ وينصحُنا بأن نجرب قضاء الليلة في دير مار إلياس في الشوير . فالدير فيه غرف يؤجرها الرئيس بأجر معقول . وذهبنا إلى الدير . وعرفت قبل الوصول أن الخوري إلياس ، رئيس الدير ، أصله من الناصرة بلدي . فاستبشرت خيراً . وقال لي درويش «يلا يا نقولا فرجينا شطارتك» .

جاء الرئيس بعد وصولنا بقليل . سلمنا عليه وطلبنا منه أن نقضي الليلة في

ضيافته وحراسته مقابل ما يريد . لم يمانع لكنّه قال إنه ترك الناصرة وهو ولد صغير ولا يتذكر اسم زيادة . وأضاف عندي ثلاث سيدات متقدمات بالسن من الناصرة وهنّ ضيوف هنا ، ومتى عدن سنرى ماذا نصنع . لكنني لحت أنه استدعى أحد المساعدين وهمس في أذنه شيئاً (تبينت فيما بعد أنه طلب منه إعداد غرفة . فالرجل ما كان ليرمي بنا إلى الظلمة الخارجية) .

وجاءت النسوة . وقام الخوري إلياس بإجراء الفحص . قال لهنّ هذا الشاب يقول إنه من الناصرة وإنه ابن عبده زيادة . فهل تعرفنه؟

ولم يكن غريباً أن لا يعرفنني . فأنا شخصياً لم أقم في الناصرة كثيراً ، وحتى لو أقمت فقد لا أتعرف إلى هؤلاء السيدات . وأبي وعمّي تركا الناصرة صغيرين . وكان جد آل سكران ، وهم من عصبة بيت زيادة ، قد شهر بالسكران وادّعى فيما بعد أن عائلة زيادة من عصبتهم . ولم تتنبه النسوة الثلاث إلى هذا الأمر .

وكانت النتيجة أن قالت الثلاث لا تعرف عبده زيادة في الناصرة . وعندها لجأت إلى الاسم المعروف كثيراً لأن الأسرة كبيرة . سألتهن فيما إذا كنّ يعرفن عبد الله شرش . وأجبن بصوت أبو سامي معلوم . أخبرتهن أنه جدي لأمي . والنسوة الثلاث من حارة الروم (الأرثوذكس) يعني حارتنا . وعندها سألتني إحداهن (لتدلل على معرفتها للتّثبت من نسبي) أي واحدة من بنات عبد الله شرش أمك ، ولما أجبتها ليا أخذت تسألني عنها لأنها تعرفها ، إذ كانت ، على ما قالت ، صديقة لستّي وردة .

اجتزت الامتحان وضحك الخوري إلياس وقال أهلاً وسهلاً الغرفة جاهزة . «وتفضلوا كلوا معنا لقمة» . وبعد العشاء أعطانا مفتاحاً كي ندخل متى شئنا إذ عرف أننا ننوي الصعود إلى الضهور . وقد كانت إقامتنا في الدير ضيافة إكراماً للمواطنة الناصرية .

وفي صباح اليوم الثاني شكرنا الرئيس إلياس بعد الفطور وودعناه مع النسوة الثلاث واتجهنا نحو صنين .

من صنين إلى الأرز

كنّا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر ، وكنا قد سرنا إليه من ضهور الشوير ، في

طريق وعر لكنه جميل ، بين أشجار تتكاثف حيناً وتتباعد حيناً آخر ، وبين ينابيع متعددة ، وينابيع لبنان كثيرة كريمة . وكان الجوع قد نال منّا ، وكان الجمال قد نلنا منه ، فجئنا النبع القوي العذب ، نستمتع بخرير مائه ، ونستجلي محاسن وادي بسكنتا (وادي الجماجم) ونلتهم طيبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين . وما إن نلنا هذا كله حتى كان النشاط قد عاد إلينا ، فرنت أعيننا إلى صنين ، وعقدنا النية على التسلّق . فقال قائل : الوقت متأخّر ، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب . وأعجبتنا الفكرة التي قصد منها تحذيرنا ، فزادتنا شوقاً إلى الصعود . فأشار صاحب المنزل إلى الطريق . لكنّنا كنّا قد اعتزمنا أن لا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة ، ورأينا أن نجابه الجبل رأساً فنصعد فيه باستقامة . وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه ، فضحك في نفسه وتذكر أنه قد قيل في أشباهه :

رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التي تحمل مثله قد أنبتت جيلاً من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول» . وأخذنا نصعد فيه ، فتبطنا الوادي ، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صح فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر . فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فنتعثر ، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتنزلق أقدامنا وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها . وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادة ، وكلّما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمّة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا . ولكن الجبل أدرك أخيراً أن زائريه لن يتراجعا فكفّ عن تحديه وهدأت ثائرته واستعاض عن لذع أشواكه بروائحها الزكية ، وهشّ لنا . ووصلنا إلى القمّة .

وكان صنين شريفاً في خصومته . فما إن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره ، وضمّنا إلى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله ، وملأ نفسينا شعوراً بأننا جزء منه فشعرنا بالشمم والإباء يجري في عروقنا . ثم طفق الجبل يحدثنا حديث الند للند ، فقصّ علينا قصته في عذوبة ورقّة لكنّها عذوبة فيها قوة ورقّة فيها عزم ، وهو يهيب بنا أن ندرك سر عظمته . ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همساً نكاد لا نتبينه ، وأصخنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا ، لأن

وقت العبادة قد حان .

وخشعنا ، واتجهنا إلى حيث أشار ، فرأينا الشمس تنحدر بتؤدة ورفق نحو البحر ، ورأينا نورها يضعف شيئاً فشيئاً ، فيبهت لونها ، ويستحيل احمرارها شحوباً واصفراراً ، وإنها لتمس الماء ، فتشعر أن ساعة هلاكها قد دنت ، فتعود إليها رغبتها في الحياة وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع ، ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخر صريعة وقد تضرجت بدمائها . وتنتشر هذه في الأفق ، وترأف غيوم المغرب بالدماء المراقة فتلمها وتنصبغ بها ، فيحمر الأفق الغربي كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا . ويسود الكون صمت تخلو معه العبادة ، فيرددُ صنين صلاته ، وتنقلها الأودية منه ، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر . ويقف الزائران مشدوهين – فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف ، والألم أكبر من أن يحد ، والهدوء لا يشوبه شيء ، فيفزعان إلى الصلاة ، وهما على مقربة من السماء . وإذ هما ينظران حولهما ، بعد أن ثابا إلى رشدهما ، لا يريان شيئاً ، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كل شيء ، فاستوى الجبل والوادي . ويبدأان النزول في هذا السكون الشامل ، ودليلهما عصا انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق . ولكن صنين كان رفيقاً بهما في هذا الدور ، فما خاصم ولا رمى بحجارته ، بل إنه جنَّبَهما الكثير من العثرات . ويقضيان ساعة وبعض الساعة ، وإذا بنور النزل يبدو ، وإذا بالكلب يعوي فيتمثل صديقي «عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى» ، وإنها لدقائق قليلة فإذا نحن عند الجماعة الطيبة ، التي أقلقها تأخرنا فأخذت تعد العدة للخروج إلى الجبل تسأله عنّا وتحاسبه عمّا فعل بنا . وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق .

وهكذا أتيح لي أن أرى ولادة الشمس من قمّة جبل الشيخ وهلاكها من قمّة صنين .

نهاية ليلة ساحرة

وكان جسمنا بحاجة إلى الراحة ، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا وأحاديث أهل لبنان العذبة ، ويأوي إلى فراشه . لقد أكسبتنا هذه نشاطاً

من جديد فجلسنا إليهم نتحدث حتى مرّ من الليل شطرٌ كبير ، وتفرّق السُمّار فتفرقنا معهم ، وأوينا إلى الفراش ، لننعم بالراحة ، ونحلم .

دعانا الفجر إليه فهرعنا إلى الماء نحاول أن نغسل منه أيدينا ووجهنا فما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، لقد كان بارداً . فاكتفينا بما نلنا . وحملنا زاداً كان قد أُعِدَّ لنا ، وسرنا - وذكاء بعد لم تجمع كل قوتها- نهبط وادياً ونصعد جبلاً ، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل . واجتزنا جسر الحجر وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالي الأيام أجزاءه السفلى وتركته معلقاً كما لو أن مهندساً وضع تصميمه ويداً صناعاً بنته ، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان .

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض ، ولكن الأرض هناك ضنينة ، ذلك لأننا كنّا نساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب إلى طبقات التربة السفلى ، فلا ينتفع بها ولا يستفاد منها ، إلا حيث تتجمّع فتنبع في صدر واد ، دان أو قصي .

نهر الراهب إبراهيم

وأشرفنا بعد خمس ساعات على المكان الذي استأثر بمياه الجهة كلّها ، ذلك أننا انتهينا بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع إلى منابع نهر إبراهيم . فرأينا عجباً من الأمر . ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي ، ويعجز الكهف عن حمله فينحدر في شلال صغير إلى بركة يتجمع فيها حيناً إلى أن تجمع قوته ويعود إلى السير ، لكن كتف الجبل التالي يعجز عن حمله فيهبط ثانية . ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات ، وتغذيها ينابيع أخرى على جانبي النهر ، وتغذي المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته ، فتكتسي بثوب من الخميلة أخضر ، وتقع العين على هذا الجمال المتناسق المتّسق من مياه تتعثّرُ في سيرها ، وأشجار الجوز الوارفة الظلل وشجيرات منوعات مزهرة كالدفلة وغيرها ، وكلها تتحدث بنعم الخالق .

وأوينا إلى ظل شجرة نستريح ونمتع أنفسنا بهذا الذي نرى ، وقال صاحبي «هذا النهر هو نهر إبراهيم ، وهو شديد الانحدار إلى الساحل ، وقوته المائية كبيرة وقد كان

ولا يزال يدير الطواحين في طريقه . ولو أن الكهرباء ولدت منه لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلّها وإدارة عدد كبير من الآلات . أمّا إبراهيم فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد قبل مدة .

حكاية تموز

وقبلت ما قال صاحبي ، فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها ، لكن شيئاً من الريبة خالجني حول الاسم ، فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة ، فما هي قصة هذا النهر؟ .

ولم يطل تساؤلي . فلم نكد ندخل الكهف الأول لنرى انبثاق الماء من الصخرة حتى سمعت صوتاً يسر في أذني «أن أصغِ إلى قصتي ففيها متعة لك .» وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس فلم أتمكن ، لكن الصوت استمر قائلاً «أنا قديمة العهد في هذه البقعة . . . وقد أعجبت بي الآلهة القديمة عشتاروت فأوت إلى صدري أحنو عليها وأرضعها . وتفيأت ظلال هذا الوادي ، تنعم بخيراته خالية البال ، حتى بدا لها يوماً شاب وسيم الطلعة جميل الخلقة ، فأسر لبها ، وملك عليها قلبها ، فأغرمت به ، وأغرم هو بها ، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه ، وعاشا في غبطة وهناءة . وكان اسم هذا الحبيب تموز ، ولم يعرف أحد من أين جاء ، ولكنّه كان يتحلّى بصفات أقنعت عشتاروت أنه من الآلهة . وكان تموز يغيب عن حبيبته أياماً بلياليها يجوب فيها الآفاق فيوزع على البشر من بذور حبّه ما شاء ، فتنبت هذه في قلوبهم حُبّاً قوياً ، يعصف بهم حيناً ، ويملؤهم اطمئناناً حيناً آخر . وإذا عاد تموز إلى عشتاروت أحسّتْ هذه بأنفاسه تعطر الجو فاستقبلته وفي قلبها أغنية وفي نفسها سرور .

«وطوف مرة بالآفاق كعادته ، وعاد ، لكنّه لم يكد يطل على الوادي ، حيث تقيم حبيبته ، حتى استشعر في وجهها وجلاً وفي نفسها اضطراباً . فأقبل عليها يسائلها ، فحدثته أن وحشاً قوياً اعتدى على الحي ، وأخذ يعيث في الوادي فساداً ، وإنه طاردها مرة وكاد ينال منها لولا أن عصمتها الأشجار منه . فطار صواب تموز ، وتقلّد سلاحه وأخذ يطوف في الوادي صاخباً منذراً ، حتى وجد الوحش وقد أسند ظهره إلى صخرة

قوية ، وتدرع للقتال . واقترب تموز منه ، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كل وجال ، ونال من صاحبه ما شاء له القدر أن ينال . وثار ثائر الوحش فنبت له قرنان من شدّة غضبه ، فضرب تموز بأحدهما بقر بطنه ، وخلاه صريعاً يتضرّج بدمه ، وفرّ هو كمن أصيب بالصرع ، ولم يقف له أحد على أثر . بلغت أنّات تموز مسامع عشتاروت فأقبلت على الحبيب تضمِّدُ جراحَه ، وحملته إلى الماء تغسله فيه ، لكن الدم الذي نزف كان كثيراً ، فلم يقوَ تموز على مغالبة الموت الذي حمله إليه .

وندبت عشتاروت حبيبها ، واتخذت موعد وفاته يوماً تحيي فيه ذكراه . وسمعت النساء بما أصاب عشتاروت فحزنَّ على تموز وشاركْنَها أساها ، وندبْنَه معها ، وأقَمْنَ يوماً في السنة يحيين فيه ذكراه ، حتى بلغ ذلك مسامع أحد الأنبياء فنهى فتيات بيت المقدس عن البكاء على تموز . وسالت دماؤه في النهر ، فصبغته ولا يزال الماء إلى يوم الناس هذا تجري فيه بقية من دماء تموز .

وتبدل السكان القدماء بسكان جديدين ، وعاشت بينهم ذكرى عشتاروت وتموز . لكنّهم غيروا الاسم بحيث تتناسب مع لغتهم فقالوا عنهما أفروديت وأدونيس .

وأنت يا صاح إن سرت مع هذه المياه التي تنبع من هذا المكان ساعة وبعض الساعة وصلت إلى أنقاض هيكل أدونيس حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر ، بين الحياة والموت ، بين المودة والهلاك . وصمت الصوت .

وعاودتني ذكرى مكان آخر تنبثق فيه المياه من الصخر الأصم ، وقد أقام الناس فيه هيكلاً لإله آخر . نعم في بانياس ، حيث عبد «بان» . وقلت في نفسي ، ما أقدم الحياة في بلادنا هذه ، وما أبعد مدى الفكر فيها . إنَّ هذا يرجع إلى الوقت الذي كان فيه الناس يوزِّعون الآلهة على كل مكان ويفرقون بين خالق وخالق . نعم لقد كان هذا قبل أن يأتيهم من قال «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك» ، وقد كان هذا قبل من جاءهم برسالة ربه إذ قال ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ .

فلمّا جاءهم الرسل بالبينات عزف الناس عن تموز وعشتاروت وأفروديت وأدونيس ، وبقيت أخبارهم أساطير يتندر بها الناس ، وتهمس بها الأصوات الخفية في الكهوف النائية .

وانتهى بنا التطواف ذلك اليوم بالعاقورة ، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقاً ، وسرنا مع شروق الشمس في اليوم التالي ، فمررنا بعرب اللقلوق ، وأقسمت نوخة بنت حسين الآمنة أن لا نبارح طنبها قبل أن نأكل : نذوق العيش والملح . وأبى علينا جورج سلهوب الطرابلسي إلا أن نتناول القهوة مع البسكوت وراحة الحلقوم في خيامه التي يصطاف فيها مع أسرته . وجورج كان من خريجي الجامعة الأميركية .

وظلَّ اسم إبراهيم المضاف إلى النهر يشغل بالي ، إلى أن أتيح لي أن أعرف أنه اسم راهب مسيحي جاء المنطقة في القرن الرابع للميلاد للتبشير بالمسيحية . وترك بين الناس المسيحية واسمه للنهر .

وتنقلنا من مكان إلى آخر حتى مررنا بوادي الدوير ، وكان القوم يحصدون والشمس تلفح وجوههم . وقد انتهى أحدهم من عمله مبكراً ، فانتبذ من دون الناس مكاناً قصياً ، وأوى إلى ظل شجرة تقيه حرَّ الشمس اللافح ، وكأن الجو أطربه فأخذ يغني :

لأطلع لراس الجبل
وأشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل
نسم هوا بلادي
أيمتى يسيل النهر
تيجر الوادي
لحط صدري جسر
لتعبر البنية

وردَّد الوادي غناءه ، وحمله إلى آذان البنية .

وتسلقنا جبل بريصات ، وأشرفنا على الوادي ، وشعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيراً كان جديداً علينا .

إنهما يومان قضيناهما بين صنين والأرز . يومان مليئان بكل ما يؤمله المرء ، وما تطمع فيه النفس وما ترتاح إليه العين من معاني الجمال ولطف الأسطورة ، ومعنى العبادة ، وقيمة الخشوع . إنه جهد حقاً ، ولكنَّ الله لا يضيع أجرَ من يبذل مثل هذا الجهد .

أطللْنا على الأرز من فوق الجبل الذي يحتضن حصرون وبزعون إلى الجنوب منهما. كانت ساعة الغروب تقترب، لكن الضباب كان يكسو المنطقة بحيث إن الذي تراءى لنا، حيث تقوم غابة الأرز، بدا كأنه مجموعة من الأشجار متداخلة بعضها في بعض؛ كادت تبدو دكناء بسبب انحجاب أشعة الشمس عنها وراء الضباب. لكن، مع ذلك، تركت المنطقة، لما أطلَلْتُ عليها، في نفسي نوعاً من الرهبة ممزوجاً بالشمم والحنو. غريب مثل هذا الشعور. هل كان، يا ترى، نتيجة قراءة بعض ما كتبه جبران وغيره من أدباء لبنان عن الأرز؛ أم هل كان هذا رد فعل لما توقعته؛ كنت أحسب أنني سأرى غابة من الأرز تغطي الجبل والمنطقة. فرأيت «حفنة» من الأشجار. فهل أقنعتني هذه الأشجار، وبدون مقدمة، أنها قوية متينة عنيفة ولذلك تمكّنت من التغلّب على عناصر الإتلاف وصَمَدَتْ؟

وكان علينا أن ننتقل من حصرون إلى بشرّي لنقضي الليلة هناك. وفي هذه الدورة من الطريق، أدركت تماماً أن وادي قاديشا يرتكز رأسه عند أقدام الأرز. وقد علا الأرز إلى السماء طمعاً في عطفها، فانحنت عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من عينيها، فأشفق الأرزُ وجَبَلُهُ على هذه الدموع أن تهدر فجمعها حبة حبة وأودعها قلبه، فلمّا ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صافٍ مقدس، كان له في يوم من الأيام إلهه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولد الكهرباء.

كنّا استفسرنا فيما إذا كان من الممكن قضاء ليلة أو ليلتين في الأرز، فقيل لنا إنّ الناسَ لم يبنوا بعد الفنادق في الأرز. على كلٍّ فنحن في بشرّي، بلدة جبران خليل جبران، صاحب الكتب التي استمتعنا بها، مثل العواصف والأجنحة المتكسرة. ولما سمعت في ذلك المساء أن بشرّي بها سبعة وثلاثون من رجال الدين – ولعلَّ هذا الرقم كان مبالغاً فيه– أدركت لماذا كتب جبران قصة «خليل الكافر». وبهذه المناسبة فإننا، أنا وعدد من أصحابي في الناصرة، كنّا عزمنا على كتابة القصّة في نصٍّ مسرحي لنمثلها في الناصرة. لكنّنا لم نلقَ تشجيعاً من أحد فصرفنا النظر عنها.

صرفنا اليوم التالي في الأرز، وفي ما حول هذه الشجرات. كم يبغ عمرها؟ من يدري. ولكن الذي يدريه الناس، رواية وحكاية وقصّة وتاريخاً، هو أنّ هذا الجبل الذي نحن واقفان عليه كان مغطى بالغابات من أقدم عصوره، ويبدو أن الأرزة كانت الشجرة الغالبة عليه. لكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار: البعض قطعها ليصطلي بنارها ويطهو طعامه؛ والبعض الأخر قطعها ليصنع منها باباً أو شباكاً أو طبلية. وهناك بعد الأهم، وهو قطع الأشجار للمتاجرة بالأخشاب التي كانت مطمح أنظار المصريين، كما كانت أخشاب الأمانوس محطّ أنظارِ أهلِ أرضِ الرّافدين - كانت هذه الأخشابُ تصلحُ جوائز للهياكل ولأجزاء من السفن التي تمخر عباب اليم. لذلك تعرّت الجبال، ولم يبقَ في المنطقة بأجمعها، سوى هذه المجموعة الصغيرة نسبياً.

عيد التجلّي

عرفتُ يومَها لأوّلِ مرةٍ أنّ سكانَ المنطقةِ يُسمُّون أرزهم «أرزَ الرّب». ولكن لماذا؟ الجواب الذي جاءني كان أن التجلي حدث هنا، والمسيحيون يحتفلون بعيد التجلي في اليوم السادس من آب/أغسطس من كل عام. إلا أن الأمرَ الذي أعرفه أنا هو أنّ التجلّي تمّ على جبل طابور في شمال فلسطين. وأن الاحتفال يتم هناك. فكيف نقل الاحتفال بعيد التجلي إلى أرز الرب؟

كان الاسم السامي القديم الأكثر شيوعاً على ألسنة الناس للإله هو «بَعْل»، ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو «إيل». وقد توزع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من أسماء المدن والقرى مثل بعلبك وبعل شمي (بعلشمس) وبيت إيل. على أن الأماكن المرتفعة، التي كانت تعتبر في نظر القوم الأوائل أماكن عبادة، اعتبرت تابعة لهذا الإله أو ذاك ولو لم تكن حولها قرية أو بلدة. فكان الأرز هذا يقال له «أرز بعل».

ويبدو أن السكانَ كانوا يقيمون احتفالاً خاصًا بالمنطقة. وبهذه المناسبة فإن أي احتفال في الأرز يرجح أن يرتب في الصيف. ولمّا اعتنق سكان المنطقة المسيحية

وسموا أرزهم أرز الرب، لم يتخلوا عن الاحتفالات المرتبطة بالأرز، ولكنّهم، ربطوها بالأشياء المسيحية، ووقع اختيارهم على عيد التجلي لأنه عيد صيفي. والذي نعرفه هو أن الاحتفال بعيد التجلي في أرز الرب يعود إلى القرن الثالث عشر. وقد تكون ثمة أخبار عن فترات أقدم لكنّنا لم نعثر عليها بعد.

النزول إلى طرابلس

لم يتح لنا يومها أن نصل إلى ظهر القضيب (أو قرنة السودا) أعلى قمّة في لبنان. هذه الزيارة، بالنسبة لي، انتظرت عشر سنوات حتى حققتها في سنة 1935. لما زرنا الأرز سنة 1925 كان فندق الأرز يبنى، ولمّا ذهبت بعد عشر سنوات كان ثمّة إلى جانبه فندق «مون ربو»، الذي يشرف على وادي قاديشا إلى مسافة بعيدة. وفي هذا الفندق أقمت بضعة أيام في زيارتي الثانية (1935)، ومنه تسلقت إلى قرية السودا أو ظهر القضيب.

وانحدرنا، طبعاً على الأقدام، نحو طرابلس. وكانت أول مدينة مررنا بها إهدن، التي تتكئ على وادي قاديشا. واسم هذه البلدة قديم منذ أن كانت قرية صغيرة، والكلمة أرامية الأصل ومعناها المكان المنيع القوي الهادئ. واسمها، وأنا أتحدث عن سنة 1925، ينطبق عليها تماماً. وكان سيرنا مع طريق العربات غالباً، إلا أننا كنّا «نقودم» أحياناً اختصاراً للوقت. وأخيراً أشرفنا على طرابلس.

كان هذا الاشراف الأول من مرتفع يمكنك أن ترى وحدتين من التجمعات السكانية، بين الواحدة والأخرى قرابة الكيلومترين من المسافة. هاتان يتحدث عنهما البعيدون عن طرابلس بهذا الاسم فقط. أمّا محلياً فالأولى تقع إلى الشرق وعلى جزء من تل وفيها القلعة، وهي طرابلس. أمّا الجزء القريب من البحر فهو الميناء. والميناء هي التي انطمرت تحت أنقاضها وفي جنباتها المدينة الفينيقية واليونانية ومدينة العصور الوسطى. ذلك أن المماليك، لما استعادوها من الصليبيين، دمروها تماماً كي لا تقع ثانية في أيدي الأعداء الذين نقلوا مملكتهم من فلسطين إلى قبرص. ثم أدرك هؤلاء الحكام أنه لا يجوز أن تظل المنطقة من دون حصن أو قلعة

للدفاع عنها ، فكان أن بنوا القلعة ، وهي التي شاهدناها وإن كانت فيها زيادات عثمانية . وكان من الطبيعي أن تنشأ حول القلعة مدينة جديدة .

ويدرك الواحد ، كما أدركت يومها ، أهمية طرابلس بالنسبة للمنطقة . هي أولاً مرتكز دفاع هام عن المنطقة الساحلية هناك ، باعتبارها مدخلاً إلى المناطق الواقعة شرقي طرابلس . وهي ثانياً ، وهذا ما أدركته بعد يومين لما خرجنا من طرابلس نقصد تلكلخ . هذا الطريق الذي سرنا فيه هو جزء من الطريق الذي يصل بين طرابلس وحمص ويُسمَّى ، في جزئه الغربي ، سهل البقيعة . وعندما يتذكر الواحد منّا أن الساحل الشامي كلّه تقع إلى شرقه سلاسل جبال صعبة المرتقى ، بدءاً من أمانوس في الشمال وحتى جبال القدس والخليل في الجنوب ، عبوراً بجبال النصيرية ولبنان والجليل ونابلس ، وعندما يتذكر هذه الجبال ، يدرك معنى وجود ممر جبلي يصل الساحل بالداخل وأهميته . وهذه الممرات هي ، من الشمال إلى الجنوب ، مدخل إنطاكية إلى حلب ، وممر اللاذقية إلى حماة ، وسهل البقيعة الذي يربط الساحل بحمص ، وطريق صيدا شرقاً إلى دمشق ، ومرج ابن عامر من سهل عكّا إلى شمال غور الأردن .

نعم هذه الإطلالة على طرابلس تمكّنك ، كما مكّنتْني ، من تصوّر هذه الأمور ، إذا كنت تعرف الحد الأدنى من التاريخ وعندك تصوّر للجغرافية . ومررنا بالقلعة التي تحمل آثارَ ستّةِ قرون من البناء والتخريب . ذلك بأنها لمّا بناها المماليك واستعملوها ظلّت العناية بها قائمة . لكن بعد مجيء العثمانيين كانت تمرُّ بها فترات إهمال فيسطو الناس على حجارتها فإذا عاد أحد الحكام العثمانيين لاستعمالها حال حجمها دون إصلاحها بأكملها ، فيكتفي بإصلاح جزء منها ، بل وقد يضيف إليها أجزاء أخرى . وبذلك يظل بعضها خرباً . ولما زرناها لم يكن فيها سوى فريق صغير من الجنود والدرك .

ومما أدخل السرور إلى نفسي رؤية البساتين المحيطة بطرابلس . فقد كانت المناطق المأهولة صغيرة ، بحيث كانت المدينة تبدو كأنها قد ألقيت وسط خميلة خضراء .

واتجهنا نحو الميدنة نستجلي معالمها وما أكثرها وأغناها . وكان أول ما بحثنا عنه مكاناً للأكل . ولم نلبث أن عثرنا على مطعم صغير لكنّه مرتّب فدخلناه . وكانت الآرمة المعلقة فوق الباب مكتوب عليها بالعربية «المطعم الوطني» ، وبالفرنسية Restaurant Francaise . وقد كان هذا المطعم موجوداً في مكانه لما زرت طرابلس للمرة الثانية سنة 1935 .

وسرنا بعد الظهر في شارع عزمي ، وكان أنقَ شوارع المدينة ، ثم زرنا الميناء . وكان الخط الحديدي للترامواي الذي بني لوصل طرابلس بالميناء لا يزال مكانه . ولهذا الترامواي قصّة . فقد كان من الطبيعي ، بعد أن دخل الترامواي بيروت ، أن يفكر فيه بالنسبة لطرابلس رغبة في وصل الميناء بالمدينة . والحركة بين القسمين كانت نشيطة بسبب النشاط التجاري الذي كانت طرابلس تتمتع به . فطرابلس ، كما أشرنا قبلاً ، كانت ميناء المناطق الوسطى من سورية الداخلية . ورتبت الأمور لإنشاء الترامواي ، وبني الخط وجاءت عربات الترامواي ، ولكن القاطرة لم تصل بسبب الحروب المتعاقبة التي اشتبكت بها الدولة العثمانية منذ سنة 1911 من الحرب الإيطالية بسبب اعتداء إيطالية على ليبيا ، إلى حربي البلقان ثم لم تلبث أن تلتها الحرب العالمية الأولى . ولكن ذلك لم يفت في عضد القائمين على الأمر ؛ فقد أحضروا خيولاً قوية ، فاستخدمت في جرّ الترامواي بين المدينة والميناء .

في الصيف يكون النهار طويلاً ، وهذا ما يسّر لنا زيارة معالم طرابلس وقضاء ساعة أو أكثر في إحدى مقاهيها نستمتع بالراحة التي أصبحت حقاً ، لنا ، بعد السير الطويل والتي يجب أن نختزن بعضها للغد .

في يوم واحد تركنا نبع قاديشا ، وسرنا مع وادي قاديشا ، ولما وصلنا إلى طرابلس اكتشفت أن اسم هذا النهر هنا هو أبو علي .

حصن الأكراد (قلعة الحصن)

نحن في القطار ، وقد غادرنا طرابلس في الساعة السادسة من صباح يوم تبينا فيه

حره اللافح من ساعاته الأولى . ولكن المسافر الذي استمتع بما كنّا قد استمتعنا به ، والذي يأمل فيما كنّا نؤمل ، لا يذكر حرّاً لافحاً ، ولا يعنى بوهج الشمس ، وإنما ينصرف إلى ما حوله ، فتلتهم عينه الصور التهاماً ، وتحاول أن تحتفظ بها ذخيرة للمستقبل وعدة لوقت لا يتاح لها فيه أن ترى مثل هذا الذي يمتدُّ أمامنا مسافات طويلة .

وكانت طريقنا تجتاز سهل البقيعة ، وهو الوادي العريض الذي يفصل جبال لبنان الشمالية عن جبال النصيرية . يفصل الجبال بعضها عن بعض ليربط السهل الساحلي بالسهل الداخلي ، وليربط موانئ البحر المتوسط بموانئ البحر الرملي الممتد إلى الشرق .

كان القطار يخترق السهل ويداور ما فيه من تلال ويروغ من وجه المرتفعات شأنه في ذلك شأن جيوش القدماء التي كان الملوك يبعثون بها من طرابلس لتحتل حمص . وكنّا ، ونحن نراقب البلاد التي تمرُّ بها ، نسمع في وقت واحد أصواتاً متباينة الأصل مختلفة القوة متشعبة القصد . فصوت القاطرة تخنقه حيناً ضجة تتصاعد من الأرض ، فيها وقع أقدام الخيول وجرس أعنتها وصليل السيوف وأصوات المركبات ، وتمتزج بهذه أصوات الباعة وقوافل التجار تنقل البضائع على جانبي الطريق . وكأن هذه كلها تحدثنا عن الناس الذين اجتازوا الطريق قبلنا جماعات ووحداناً ، وكلهم له في سيره غرض يخفيه حيناً ويظهره حيناً ، وكأنما هم عند قول الشاعر :

كل من في الوجـــود يطلب صيـــــدا

غـيـــر أن الشـبـــاك مـخـتـلفــات

وفجأة وقف القطار ، وكانت المفاجأة لي ، أنا الذي كنت آنئذ فريسة هذه الأصوات والصور ، التي أخذت تنقلني من عالم إلى عالم نقلاً سريعاً لم يتح لي أن أتابعه . ونزلنا ، وكانت قرية تلكلخ نقطة انتقالنا في ذلك اليوم . فتركنا الركوب وعدنا إلى السير ، ونحمد الله على أن لنا أقداماً تمكننا من السير إلى هذه البقاع النائية .

وانحرفنا شمالاً ، وأخذنا نجوس خلال الأماكن في طرق «قادوميَّة» تنقلنا من الباروحة إلى السنديانة الغربية ، وحرُّ النهار يشتدُّ بنا ، وسيرنا يتّجه في صعود ، حتى وقفنا أمام حصن الأكراد . وقفنا نتأمل هذه القلعة الضخمة الفخمة التي مرّت عليها

ستمائة من السنين أو يزيد منذ أن تخلّى عنها آخر فارس كلف بحراستها، ولا تزال مع ذلك تملي على الناظر إليها إرادتها، وتفرض عليه سلطانها، وتحتم عليه أن يقف وقفة إعجاب وخشوع. وكأنها تشفق عليه أن يؤخذ بالضخامة والعظم فتذكره أنها جميلة مع ذلك، فيتلفت إلى ذلك ويرى هذين السورين المتداخلين، الخارجي منهما أقل ارتفاعاً من الداخلي تخرج منهما نتوءات ترتفع إلى الجو فتكون أبراجاً وحصوناً تسهل على أهلها الدفاع عنها. وتتناوب هذه الأبراج الاستدارة والتربيع فتجعل منها منظراً تقف العين عليه فتعجب بالمهندس الذي أقام قلعة يأوي إليها المحارب ولم يغفل مع ذلك عن إدخال عنصر التناسب فيها فيجعلها جميلة. وهذه الرتوك في أعلاها، والستائر التي تقف سداً في وجه من يحاول أن يخترق الجدران ليستطلع خفايا هذه القلعة.

وندخل القلعة ونطوف في أرجائها، فننتقل من سرداب إلى سرداب، ونقاد من قاعة إلى قاعة وتطالعنا في أنحاء البناء المختلفة روائح هي مزيج من قذارة بعض سكانها الحاليين ومن أريج تاريخها المجيد العاطر. فبعض سكانها أبقار وأغنام وماعز، ذلك لأن القلعة يقطنها نحو ثلاثمائة من البشر، ويحتفظون فيها بمواشيهم التي هي مصدر قوتهم ورزقهم (لقد أخرج السكان من القلعة، وأصبحت الآن من الآثار التي يحافظ عليها).

وإننا لننتقل من جزء إلى آخر، نستجلي ما خلفه بناتها وسكانها الأقدمون، فإذا بنا في قاعة فخمة واسعة عالية الجدران قاتمة اللون ممّا علق بها من الهباء والدخان. وبينا نحن على هذه الحال إذ بي أرى الجدار ينشق برفق وهدوء، ويخرج منه رجل مجلّل بالسواد من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، وعلى جانبه سيفه. وأكاد أصرخ فزعاً ولكن إشارة منه تطمئنني، فيزول من نفسي الروع الذي كاد يهزمها، ويشير إلي الرجل الأسود، أو الفارس الأسود فقد تبينت الساعة أنه فارس، أن اتبعني، فأتبعه وأنا مسيَّر لا مخيَّر. ويسير بي من دهليز إلى دهليز حتى يصل إلى ساحة واسعة، تنتهي بأحد هذه الأبراج التي كنت قد رأيتها من الخارج. وإذ يطمئن إليّ يبدأ بالكلام. ولم أفهم كلامه، فإنه كان رطانة لا عهد لي بها، لكنّه يعينني على فهمه بالإشارات الكثيرة. وأدرك أنه يروي لي قصة، فأجهد نفسي وأحاول تتبع حركاته

وسكناته ، وأستخلص منه الكثير من الذي قال . لقد كان أحد فرسان هذه القلعة ، وكان من فرقة رجال الاسبتارية الصليبية ، وهذا الصليب الذي يكسو جزءاً من ردائه الأسود علامة على ما يقول . كان أصل فرقته ، على ما حدثني ، جماعة دينية أنشئت في هذه البلاد ومركزها القدس وغايتها مساعدة الحجاج الأوروبيين ، والمرضى والفقراء منهم على الخصوص ، ليقوموا بفريضة الحج إلى الأرض المقدسة . وكانوا مطمئنين إلى حياتهم في البلاد في حماية أهلها العرب الكرماء ، لا يكدر عليهم صفو عيشهم مكدر ، ولا يطمعون هم بغير خدمة المحتاجين والمعوزين من أبناء بلادهم . ثم قال : «ودار في خلد أهل بلادي الأوروبيين أن يأتوا إلى هذه البلاد جماعات كبيرة محاربة . فجاءوا واحتلّوا الأرض المقدّسة وما جاورها ، وبنو القلاع للدفاع عن أنفسهم ضدّ أهل البلاد واحتاجوا إلى من يعمر هذه القلاع والحصون ، فوكلوا أمرها لنا ، فانتقلنا من رجال دين نعنى بالبائس إلى رجال دين وسيف نقاتل ونحارب ونجالد ونحمل السيوف ونثخن في خصومنا الجراح دون أن نضمدها . وها نحن يا سيدي نجمع بين النقيضين . فلا يطلع الفجر حتى نكون قد صلّينا مرتين ، ولا تشرق الشمس حتى نكون قد أخذنا أجسامنا بالتمارين الشاقّة ، ولا ينتصف النهار حتى نكون قد بحثنا شؤوننا وفصلنا قضايانا وعاقبنا المذنب منّا بالحرمان أو الجلد ، فإذا جلسنا لنأكل صمتنا كلنا وانفرد منّا واحد يقرأ لنا آيات من الإنجيل . فإذا كان العصر امتطينا خيولنا ولعبنا على ظهورها بسلاحنا خشية أن يصدأ وتصدأ معه الأيدي التي تحمله ، ودرنا خلال المنطقة نستطلع خبر الخصوم . فإن كان ثمّة منهم أحد التقينا واقتتلنا ودارت الدائرة على أحد الفريقين فكان نهب وسبي للفريق المنتصر . ومتى هلكت الشمس صلّينا وأوينا إلى مخادعنا بعد أن أقمنا العسس على الأبراج يحرسها ويتسقط الأخبار فيوقظنا إن ألمّ بنا طارق» .

وهممت بسؤال الفارس الأسود عمّا آل إليه أمره وأمر أصحابه فلم أجده ، وخلت أنني كنت أحلم . ولكنّني لمحت غباراً يعلو فجأة أمامي فيغبر منه الأفق ، وسمعت جلجلة وصليلاً ، ثم انقشع الغبار وظهرت أمامي صورة لم أعهدها في تلك الجهة لما وصلتها . لقد كانت الأرض جبالاً ووهاداً وأودية وسهولاً ، لكنّها الآن تتحرك وتنتقل . لقد غطّت الأرض جيوش قادمة تقصد القلعة ، فأحاطت بها من كل

جانب . ولم تلبث أن خرجت منها صيحة زعزعت كل ما حولي ، لقد كانت الضجّة في لغة فهمتها . فزعت إلى صديقي أفتش عنه لأحمل إليه الصورة التي شاهدت ، ولأحمله على القدوم إلى حيث أنا ، فلم أستطع الاهتداء إليه سبيلاً .

وتلفّتُ حولي ، فإذا بي أمام فارس يحمل قوساً ويتزين بسيف جميل ويرتدي جبّة واسعة وتعلو رأسه عمامة ، وإذا به يحدثني بلغتي ، فأفهم كلماته وإشاراته دون عناء أو جهد . فينبئني أن هذا الجيش الذي رأيته يغطي السهل والجبل كان جيش الملك الظاهر ، وقد اعتزم الملك أن يحتلّ به القلعة ، وكان قد ضرب عليها حصاراً قبل أيام ، فقطع السبل على قاصديها ، فاضطر أهلها أي سكانها من فرسان الإفرنج ، إلى التسليم . وقد أخلوها ، فعادت البلاد إلى أهلها وأصحابها .

وصمت الفارس برهة ثم أشار إليّ أن أتبعه لأرى ماذا حدث في هذه الفترة . فتبعت ، وأنا لا ألوي على شيء ، وسرت مفتح العين والأذن ، آملاً أن أدرك هذا الذي أرى ، فإذا القاعة الكبيرة قد غصّت بالفرسان الذين كانوا على شاكلة رفيقي هذا : وإذا بهم يتناشدون الأشعار العربية ، ويروون الأحاديث ، وإذا بهم يخشعون فجأة لأن قارئاً بدأ يرتل القرآن ، ويدعوهم إلى الصلاة فيلبون . فإذا فرغوا من صلاتهم ، وقد امتلأت قلوبهم خشية لذكر الله ، انصرفوا إلى طعامهم ينالون منه ، ثم عمدوا إلى خيولهم يمتطونها وقد تقلّدوا أسلحتهم وشدُّوا أزر بعضهم بعضاً . وما إن وصلوا السهل حتى تفرقوا جماعات في أنحائه الواسعة .

الفرسان والصيد

قال الفارس وقد علت وجهَهُ ابتسامةُ الظفرِ والسرور : «إن القوم بعد أن نالوا حظّهم من العبادة ، خرجوا إلى الصيد ، والصيد يا أخي ، رياضة الفارس وسلوته ومجال تمرينه . وهذه الأرض التي تمتد أميالاً إلى الغرب ، غنية بالصيد على اختلاف أنواعه ، ففيها الغزلان والثعالب والأرانب والحجل والدراج وطير الماء ، تحتمي كلها في الأزوار فيتابعها الفرسان بسهمهم وبزاتهم وصقورهم وكلابهم فينالون منها وتنال منهم ، فيصطادونها وتنهكهم . ولكن هذا الجهد الذي يلقونه هو الذي يصون لهم مقدرتهم

على حمل السلاح والضرب به متى جد الجد . فنحن في حرب ، ونحن أمام خصم اعتدى علينا واستقرَّ في دورنا ونعتزم استعادة أرضنا منه ، واسترداد بلادنا . ولن نتمكن من ذلك إلا إذا كنّا في كلِّ ساعة على أتم الأهبة والاستعداد . فإذا عاد هؤلاء الفرسان من رياضتهم أو حربهم أو لعب الصوالج والأكر ، عنوا بخيولهم وهي لهم كالإخوان ، ثم اجتمع بعضهم . إلى بعض فتذكروا الشعر ورووه وتطارحوا الحديث وقلّبوا أفانينه وسمعوا القرآن واتّعظوا واهتدوا بهديه ، فكان لهم غذاء روحياً ، فيتم الله نعمته عليهم» .

وشعرت بصديقي يلكزني ويهمس في أذني أن أفق : فلا يجوز أن تنام والناس يكرموننا . فأفقت مذعوراً ، ولكنّني تذكرت الحلم .

وكان الجماعة قد هيّأوا لنا خبزاً مصنوعاً من الذرة البيضاء وبيضاً مقلياً فأكلنا منه ما شاء لنا الجوع أن نأكل . وأراد القوم إكرامنا فقدموا لنا شيئاً مصنوعاً من اللبن الرائب المجفف المكسو بطبقة من السعتر وكأنه قد مرت عليه سنون وهو مخزون ، فكرهنا رائحته ، ولم نذقه ، وحز في نفوسهم أن نرفض إكرامهم إيانا «بالقريش» أو «الشنكليش» ، ولكننا لم نستطع إلى إرضائهم سبيلاً .

إلى برج صافيتا

وخرجنا من قلعة الحصن وسرنا إلى برج صافيتا . خرجت وأنا أتلفت ما استطعت إلى التلفت سبيلاً ، آملاً أن تنطبع صورة القلعة في ذاكرتي كما انطبعت قصّةُ هذين الفارسين . الفارس الذي انكسر وانهزم ، والفارس الذي انتصر وأقام ، وخلفه في حصنه وبرجه أحفاده وأحفادهم من بعدهم ، ولكنّهم ليسوا منه إلا في الاسم . واستغربت ذلك ، ولكنّني أدركت بعد حين -بعد زمن طويل- أن ذلك الفارس كان يؤمن بحقّه فدفعه إيمانه إلى السير إلى الأمام ، وأن أحفاده فقدوا إيمانهم بحقّهم ، فضاع حقّهم ، ووصلوا إلى ما هم عليه . وقلعة الحصن تمثل الأريج الذي يخرج من بطون التاريخ فيعطر الجو ، والرائحة التي تنبعث من سراديب القلعة اليوم فيضيق بها الصدر وتضيق بها النفس .

وسرنا إلى برج صافيتا ، ومررنا بدير القديس جريس . دير بناه البيزنطيون ولا يزال قائماً إلى الآن ، لكنّه مثل القلعة عربي الهوى والفؤاد ، ففيه مدرسة لتخريج رجال الدين لكنّها مدرسة عربية أنشأها الدكتور أيوب تحت رعاية المغفور له البطريرك غريغوريوس حداد . (1906 - 1928) .

ووصلنا إلى برج صافيتا . إنه برج آخر من هذه القلاع العديدة ، المختلفة ضخامة وقوة ، المنتشرة في هذه المنطقة من البلاد . بناها الحكام للدفاع عن البلاد ضد خصومهم من جيرانهم ، فلما زال الخصم الخارجي اتخذها أصحاب النفوذ مراكز للضرب على أيدي من تحدثه نفسه بالثورة أو العصيان ضد رغباتهم .

وكان مساء صافيتا حافلاً بمجموعة من الاختبارات ، الحسن منها والسيء ، ولكنّها اختبارات توحي إلى المرء الكثير من الخير ، وتبعث في نفسه رغبة في أن يفتش عن سبيل للإصلاح .

وأويت إلى فراشي ، وأمامي صورة قلعة الحصن وما رأيت فيها وما سمعت ولا تزال الصورة أمامي ، ولا أزال كلّما أذكرها أردّد قول الشاعر :

والحق والإيمان إن صبا على

برد ففيه كتيبة خرساء

وآمل أن يأتي اليوم الذي أرى فيه أبناء قومي يؤمنون بحقّهم ليكون منهم خير لأنفسهم ولبلادهم وقومهم .

في اللاذقية ورباها

ودّعنا قلعة الحصن واتجهنا نحو صافيتا . تقع صافيتا على تلال تشرف على السهل الساحلي لكنّها تكتسب جمالها من توزعها الجغرافي وطقسها الجميل وعناية أهلها أصلاً بالأرض . كان دخولنا إليها منعشاً ، بعد سير دام بضع ساعات ، وبعضه كان في سهل منحدر أقرب إلى الجفاف الصيفي في السهول منه إلى ما قابلنا لما وصلنا ربوع صافيتا .

لم تكن صافيتا قد عرفت معنى الفندق ، لكنّنا عثرنا على غرفة عند سيدة

تؤجّرها لمن تتوسّم فيهم الخير كما قالت . وكان من حسن حظّنا أن قدّمت لنا عشاء مكوناً من بيض مقلو وإلى جانبه سلطة وجبن وخبز شهي . والواقع ، كما يعرف الذين جربوا ذلك ، كل الأكل شهي عندما يكون المرء جائعاً وخاصّة بعد مشي طويل .

ونعمنا بالنوم . ولكن فوجئنا ، لمّا استيقظنا ، بما فوجئنا به من قبل في جديدة مرجعيون -لا يوجد مكان لقضاء الحاجة . فالحاكورة واسعة . وكان لا بدّ لنا من ذلك .

وأخذنا ننحدر ثانية نحو الساحل . والانحدار نحو الساحل في الصيف في بلاد الشام معناه الاتجاه نحو الحرارة والرطوبة . فأكثر مدن الساحل الشامي لا تقل رطوبتها في الصيف عن 70٪ وقد تصل 90٪ لكن كيف يتعرّف الواحد إلى بلاده إن لم يقبل من الأمور حلوها ومرّها . ليلة ناعمة هادئة لطيفة في صافيتا يتبعها سير نحو الساحل . وكانت طرطوس هدفنا . زرت طرطوس بعد تلك الزيارة بنحو ثلث قرن ، فوجدتها قد نَمَتْ وأصبحت مدينة . أمّا في سنة 1925 فلم يكن فيها سوى ثلاثة أشياء - الكنيسة الصليبية الجميلة التي حافظ حكام طرطوس عليها (وهي الآن متحف ، على طريقة كنيسة أيا صوفيا في إستانبول) وصيادو السمك ، فقد كان الصيد المهنة الرئيسية لسكان البلدة يومها ، وإنها الميناء التي يزور منها الناس جزيرة أرواد . وقد فعلنا نحن كما يفعل بقية الناس . زرنا الكنيسة واستمتعنا بما فيها من بناء وزخرف جميلين ، وقضينا بعض الوقت في مقهى على الشاطىء مع الصيادين ، نتحدث عن كل شيء ، وأخذنا قارباً إلى جزيرة أرواد .

أرواد منفى الوطنيين

وكانت لأرواد أهمية تجارية فيما سلف من العصور ، وكان الإسفنج يوجد في مائها . ومن الطريف الذي ذكره لي درويش يومها أن العرب فتحوا بلاد الشام كلّها واستعصت عليهم هذه الجزيرة التي لا تبعد أكثر من بضعة كيلومترات عن الشاطئ . كان السبب في ذلك أن العرب لم يكن لديهم يومها سفن حربية . وكانت طرطوس

تحصل عى ما تحتاجه من زاد ومؤن وعتاد عن طريق الأسطول البيزنطي . فلمّا نجح معاوية في اقناع الخليفة عثمان بأن يسمح له بركوب البحر إلى قبرص ، وكانت حملته الموفقة عليها سنة 25هـ / 645م ، وأصبح للعرب سفن حربية ، احتلوا أرواد في السنة التالية .

لكن الفرنسيين أعطوا -أثناء انتدابهم على سورية- أرواد شهرة من نوع جديد . جعلوها منفى لرجال السياسة السوريين (ولست أذكر فيما إذا كان اللبنانيون يرسلون إليها أيضاً) . فقد كان الفرنسيون المغرمون بالاقتصاد أمهر من البريطانيين في اختيار المنفى القريب من الساحل والذي لا يكلف الانتقال إليه نفقات باهظة . أمّا الإنجليز فقد اختاروا مالطة أولاً (لسعد زغلول وغيره وبعض زعماء فلسطين) ثم اختاروا جزر سيشل لذلك . والمكانان يحتاجان نفقات للسفر والنقل . ومع ذلك فممّا يُروى عن اللورد بلومر المندوب السامي في فلسطين 1925 – 1928 أنه أنذر الزعماء الفلسطينيين يوماً بقوله : مالطة قريبة .

زرنا الجزيرة . جلسنا في مقهى . تحدثنا إلى الموجودين هناك . صيادون ، أصحاب دكاكين فيها لوازم الصيد والمعاش . وهذه الدكاكين تقوم جميعها في الساحة الوحيدة في الجزيرة . ولأن السكان قليلون فهم يعرف بعضهم بعضاً . ولكنّهم لا يعرفون جيرانهم المنفيين ، ولا يعرفون شيئاً عنهم . كل ما يصل إليهم أن منفياً جديداً قدم ، وأن أحد المنفيين أخرج . لكن من هو الذي جاء ، ومن ذا الذي أخرج ، فأمر لا يعرفه إلا أولو العلم ، وهم من الضباط الفرنسيين .

ولنذكر دوماً أنني أنا أتحدث هنا عن سنة 1925 . الصحف لا تصل مكاناً مثل أرواد بالسهولة واليسر كما هو اليوم ، وإن وصلت فلا يقرأها إلا القلّةُ ، فالأميّةُ كانت الصفة الغالبة على مثل هذه الأمكنة . ولم تكن الإدارات المحلية قد أنشأتْ محطات للإذاعة . وكل ما كان يسمعه الناس في البيوت والمقاهي أسطوانات مسجّلة عليها أغانٍ للمشهورين من مغني العرب في فونوغرافات ذات أبواق واسعة . الأسطوانات كان يغلب عليها أنها تسجيل شركة بيضا والفونوغرافات من نوع صوت سيده ؛ التيكانت تحمل صورة كلب يصغي عبر البوق الكبير ويتعرّف على صوت سيده . كان هذا معناه أن الفونوغراف جيد ثم إن التسجيل دقيق .

ليلة في طرطوس

بعد الزيارة التي استغرقت جزءاً لا بأس به من النصف الثاني من النهار ، قضينا الليلة في طرطوس ، وفي اليوم التالي اتجهنا إلى بانياس . وحريٌّ بالذكر أنه باستثناء اللاذقية ، التي كانت تعتبر مدينة حتى يومها ، فإنَّ الأماكن الأخرى التي مررنا بها -طرطوس وبانياس وجبلة- لم تكن سوى بلدات على الساحل . والفرق الرئيسي بين الواحدة والأخرى هو اتساع الجيب (السهل) الساحلي الذي يحيط بها . فإذا اتسع فلحت الأرض وأثمرت حبوباً وخضاراً وفواكه صيفية أو شتوية حسب الموسم . وإذا ضاق الجيب أفاد الناس بعض الشيء من التلال المجاورة ، لكنَّهم استعاضوا عن فلاحة الأرض بملاحة البحر ، ينعمون بالصيد فيه هادئاً ، ويخشون عواصفه وزوابعه الكثيرة ، وكل ذلك في سبيل العيش . هكذا عاش سكان الساحل السوري الذي كنّا فيه سنة 1925. وعلى مثل ذلك عاش الناس فيه سنة 1925 ق .م . ولعلَّ الفرق الأساسي بين السنتين هو من كان يحكم هذا الساحل ، وإلى أي حد جرَّب أن يستغلَّ السكان لمصلحته . وهل تغير الأمر اليوم؟

قضينا الليلة في بانياس في ضيافة القاضي ، وقد نسيت اسمه ،لست أذكر تماماً كيف وصلنا إلى بيته . لست أذكر أننا كنّا نحمل رسالة إليه . وأكبر الظن أنه ألقى القبض (أدبياً) علينا . وكان لا بدَّ لنا من أن نقبل ضيافته . وإلا فأين ينام الغريب في بانياس؟

حديث عن الثورة السورية

وقد أكرمنا مضيفنا بأن دعا فريقاً من أهل البلدة سهرنا معه . وقد دار الحديث يومها عن الثورة السورية ، لكن بكثير من الحذر . فالناس -في بلادي- يكرِّرون دوماً «الحيطان لها آذان» . لذلك فإنهم يفضِّلون عدم الخوض في شؤون سياسية إلا عند الاطمئنان التام . وأحسب أن هذا الموقف الذي يتَّخذه الناس فيه حكمة القرون . فإنَّ أطول فترات التاريخ التي عرفتها هذه الأقوام وهذه البلاد كانت فترات فيها إرهاق

للشعب . ولذلك فإنَّ الحديث في «السياسة» يعني انتقاداً للذين «فوق» ، وهذا أمر لا يجوز لأنه يكون انتقاداً للأعمال أو انتقاصاً للحكمة . وهل يعقل أن لا يكون الحاكم حكيماً أو أن أعماله يمكن أن تكون موضع انتقاد؟

وإذن فالحديث عن الثورة السورية يجب أن يكون محاطاً بالعناية وليس المقصود بذلك السرية . السرية تلزم عند تنظيم الثورة . المقصود بالعناية أن لا يسمح المتحدثون لأنفسهم بأن يجدوها في اليوم التالي في مكتب الشرطة أو في نظارة البوليس أو أمام الحاكم العسكري . والله أعلم ما الذي يحدث بعد ذلك .

أوينا إلى المخدع . ولكن درويش بيَّت أمراً أسرَّ به إليَّ طبعاً . يجب أن نزور قلعة المرقب القريبة من بانياس . ويجب أن نزورها بهدوء وبغير ضجَّة ورفقة . فإنَّ القاضي لو عرف برغبتنا لطلب لنا الإذن من السلطات ولكثر حول ذلك اللغط والسؤال والجواب .

تركت الأمر لدرويش . وحول الساعة الخامسة والنصف صباحاً استيقظنا والناس نيام (أغلب الظن أن القاضي أدّى صلاة الفجر وأوى إلى مخدعه ، أو أنه ذهب إلى المسجد لأدائها) . المهم لم يشعر بنا أحد . خرجنا من البيت وذهبنا لزيارة القلعة التي كانت ، في العصور الوسطى المتأخِّرة ، تحرس المنطقة الممتدَّة من طرطوس إلى اللاذقية ، كما تحمي الطريق الممتد منها إلى القدموس ومصياف ومن ثم إلى سهل حمص وحماة . وقد بنى هذه القلعة الصليبيون ، وكانت من آخر القلاع التي استولى عليها المماليك (685هـ/ 1285م) أيام الناصر قلاوون ، أي قبل إخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام بست سنوات .

عدنا إلى البيت حول الثامنة والنصف . فوجدنا قلقاً وغضباً لطيفاً يلفّان الجو -القلق- أين ذهبنا؟ والغضب لماذا نذهب بدون معرفة القاضي الذي كان يمكن أن يؤمّن لنا سيارة وموظفاً يدلنا ويرشدنا . أمّا اللطف في الغضب فقد جاء من كوننا عدنا سالمين ولم نخرج من البيت نهائياً دون أن يودعنا أهله وداع الصداقة والمودَّة .

والأمرُ الذي لم يخطر ببالِ أحد أن نكونَ قد تسلَّقنا الجبلَ لزيارةِ قلعة المرقب . إن زيارتنا كلها ، التي كانت على الأقدام ، كانت في أحيان كثيرة موضع تندر . لماذا التعب؟ ولست ألوم أولئك القوم ، لكنَّني ألوم الذين لا يفعلون فعلنا الآن!

على كلٍّ تناولنا طعامَ فطورٍ شهي وأكلنا ما يعوّض عمّا صرفناه قبل الفطور وكان علينا أن نختزن للطريق . وطريقنا كانت على السهل الساحلي الآن . من بانياس إلى جبلة . وقد أرشدنا قاضي بانياس إلى مضيف في جبلة ، لكنّنا كنّا اعتزمنا الوصول إلى اللاذقية ذلك اليوم .

مفاجأة في اللاذقية

وهكذا بدأنا رحلتنا . أغراضٌ قليلة . الطريقُ واضحٌ لا سبيلَ إلى الخطأ فيه كما يحدث في الجبل حيث لا طرق البتة . ولم يكن في جبلة شيء يختلف عن بانياس . لذلك بعد غداء متأخر ، وجلسة في المقهى ، التي أصبحت لنا أمراً ضرورياً للتعرّف إلى الناس . سرنا إلى اللاذقية .

وصلناها في منتصف الليل وذهبنا إلى فندق جبلة - هكذا نصحنا .

في الساعة السادسة صباحاً قرع خادم الفندق باب الغرفة وقال الشرطة بانتظاركم تحت . نزلنا فإذا بالشخص يطلب منّا أن نرافقه إلى مكتب الأمن العام حالا . أظن أنه سمح لنا أن نحلق ونغسل وجوهنا ، واقتادنا إلى المكتب . وهناك بدأ السؤال والجواب .

لماذا نتجول في سورية مشياً على الأقدام . السواح ينتقلون بالسيارة أو بالعربة أو على الخيل . الذين يمشون هم أشخاص مشتبه فيهم . ثم لماذا تصلون إلى اللاذقية في منتصف الليل . لا شكّ أنكم تقومون بمهمّة خاصّة . ومن الذي أرسلكم . نحسب أنكم مكلفون من الحكومة الإنجليزية ، ما دمتم من فلسطين ، بإثارة الشعب في المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

كان من الممكن أن نُسأل مثل هذه الأسئلة في صيدا لو أننا وقعنا في يد ضابط أمنٍ عام فرنسي . لكن هذا لم يحدث . على كلٍّ الآن الضابط فرنسي . والمسافة التي قطعناها مشياً طويلة ، ومررنا بطرق ملتوية . فالسوّاح لا يعرجون طريقهم - جبل الشيخ ، جبل صنين ، الأرز ، قلعة حصن الأكراد صافيتا ، طرطوس مع زيارة لأرواد أيضاً - خاصّة أرواد . ثم قلعة المرقب . طبعاً هذا عمل جماعة يشتغلون بالجاسوسية .

ولم يرَ في إجابتنا الصحيحة والدقيقة ما يقنعه . ولمّا عرف أننا سنكون ضيوفاً على أسرة زريق ، زاد احمرار وجهه . أولاً لماذا لم تذهبوا إليهم رأساً . لا بأس بالذهاب في منتصف الليل ما داموا أصدقاءكم . ثم ما هي علاقتكم بأسرة زريق . ستكونون ضيوفاً عند أمين زريق . يجب أن نراقبكم لعلّ هذه الضيافة ستاراً فقط .

في ضيافة آل زريق

أمين زريق هو والد جلال زريق الذي كان زميلاً لدرويش المقدادي في دار المعلمين في القدس . وكان بين الرجلين صداقة . لذلك كان من المتفق عليه أن ننزل ضيوفاً عليهم متى جئنا اللاذقية . ولكن لم نرَ من الأدب أن نطرق الباب في منتصف الليل .

لكن المهم أن سجل أمين زريق ، والد جلال ، لم يكن «نظيفاً» عند الأمن العام . والنظافة هنا لا علاقة لها بأي نوع من أنواع الإجرام ، بل كان لها دلالة واحدة «إنه كان يعمل بالسياسة» ولو عن بعد ، ولو كان الأمر ابتساماً . ومن هنا فإن ذكر أسرة زريق ، وأمين زريق بالذات ، لم يكن مما ييسر الأمر لنا .

لكن من الجهة الأخرى كان أمين زريق وأبناؤه الثمانية يتمتّعون بمركز مرموق لا في اللاذقية فحسب ولكن بين أهل الجبل . ولم يكن باستطاعة ضابط الشرطة ، ولو أنه فرنسي ، أن يتجاهل هذا الوضع . فقد يكون لأمين زريق – رغم أن سجله لم يكن نظيفاً عند هذا الضابط – منزلة عند ضابط فرنسي أرفع مقاماً وأكثر أهمية . إذن يجب أن يحتاط الضابط للأمر . وكان احتياطه أن أرسل رسولاً خاصّاً إلى أسرة زريق يسأل فيما إذا كان أحد أفرادها يعرف درويش المقدادي أو نقولا زيادة أو كلا المذنبين معاً؟

وجاء الجواب : جلال زريق وأخوه يوسف وصلا معاً ليعتبا علينا أولاً لأننا لم نذهب إلى البيت رأساً . نصف الليل؟ وما له؟ ثم ليؤكدا للضابط أننا ضيوف الأسرة . وانتهى الأمر ساعتها بأن خرجنا إلى بيت المضيفين . لكن تبدى لي فيما بعد أن القضية ابتدأت هنا وأنها لم تنتهِ .

جاسوسان إنكليزيان

يبدو أن الضابط في مركز الشرطة اقتنعَ أننا جاسوسان نعمل لمصلحة بريطانيا في إثارة السكان في سورية ولبنان لمقاومة فرنسة . ويبدو أن شكل درويش كان سبباً أساسياً في هذا الاقتناع . درويش كان طويل القامة أشقر الشعر ، وإن كان شعره خفيفاً ، أزرق العينين - يعني إنجليزي متخفٍ خلف جواز السفر الفلسطيني الذي يقول إنه مولود في طولكرم بفلسطين . وأنا الشخص المساعد . وقد ظنَّ الضابط أننا نعرف الفرنسية ولكنَّنا نخفي هذه المعرفة ، فقد تنبهت أنا ، بعد ذلك ، إلى أنه كان يأخذنا على حين غرّة ويسألنا سؤالاً بالفرنسية ، أو يقول شيئاً بتلك اللغة يقتضي منّا ، لو أننا عرفناه ، إبداء الدهشة أو الاستغراب .

والمهم أن اسمينا وضعا في سجل المشبوهين ، ومع أن أمين زريق وأولاده كانوا الضمانة (قد لا تكون ضمانة خطية مصدقًا عليها من كاتب العدل) فإنَّ مراقبة شديدة فرضت علينا . لم يطلب منّا أن نزور مكتب الشرطة مثلاً ، لكنَّنا لاحظنا أن أفراداً من الشرطة كانوا يوجدون حيث نكون - طبعاً في الأماكن العامّة أو الحسّاسة .

وكانت الأيام الثلاثة التي قضيناها في مدينة اللاذقية والأيام الأربعة التي جلنا خلالها في الجبال المصاقبة للمدينة فيها الكثير من الأماكن العامّة والحسّاسة . فأسرة زريق يسّرت لنا الاجتماع بعدد كبير من أدباء المدينة وصحافييها . وزيارة الصحف بحدِّ ذاتها كانت يومها جريمة لا تغتفر . وأذكر أن الأسرة الكريمة أقامت حفلة عشاء مختصرة كي نجتمع ببعض الشخصيات ذات الأثر في حياة المدينة العامّة ، فكان بين المدعوين أحد ضباط الشرطة . وقد عرفنا فيما بعد أن دعوته كانت ضرورية لدفع أي أذى يمكن أن ينتج عن تفسير حركاتنا أو تحركنا .

وكنّا عندما نجلس في قهوة نلاحظ أن هناك أشخاصاً يجلسون لمراقبتنا أو يُقال لنا ذلك فيما بعد .

عيون من القرداحة

وعلى كلٍّ فالقضية في اللاذقية نفسها اقتصرت على المراقبة لكن لمّا انتقلنا إلى

الجبل اتخذت المراقبة شكلاً آخر . انتقلنا من اللاذقية إلى قرية القرداحة بالسيارة - وقد رافقنا جلال وأخوه يوسف . من القرداحة كانت ستبدأ رحلتنا في جبال النصيرية أو العلويين . وقد أعد من الخيل ما يكفي للجميع ، لكنّنا أنا ودرويش قررنا المشي . ليس هذا المهم . في تلك الليلة ، بعد العشاء ، جاء الشيخ علي وهو مدير الناحية ، للسلام علينا . وليس في الأمر غرابة . لكن قبل أن يذهب ، طلب منّا ، بواسطة المضيف ، أن نسلمه جوازات السفر . رفضنا ذلك واكتفينا بأن أريناها له . وخرج خجلاً .

وفي الصباح ، قبل أن نبدأ الرحلة ، قيل لنا إن الشيخ علي سيرافقنا في الطريق . وجاء ، وسرنا كلنا نتحدث . وأصرَّ أن يعرف لماذا ننوي أن نزور جبل الشعرا ، وهو أعلى جبل في المنطقة ، وكان جوابنا محيراً بالنسبة له . إننا ننوي زيارة النبي يونس هناك . ولكن ما شأننا نحن بالنبي يونس ودرويش وآل زريق مسلمون سنة وأنا مسيحي أرثوذكسي . وقد حيره هذا الأمر . ولما عدنا إلى اللاذقية سُئلنا ثانية في مركز المحافظ (ترقينا قليلاً) عن سبب هذه الزيارة . ذلك بأن الشيخ علي بعث بتقرير مفصَّل عن تصرفاتنا .

قضينا اليوم في الطريق - نزور الجبال والقرى ونتحدث والشيخ علي رفيقنا . لقد اتّضح أن الشيخ علي لم يكن مجرّد مرافق في الطريق ، بل كان مراقباً لحركاتنا .

في ذلك المساء نزل الشيخ علي ضيفاً معنا . فهذه القرى لا مكان فيها لقضاء الليلة إلا ضيفاً عند أسرة ما . وفي صباح اليوم التالي أحسسنا بوجود نوع من التوتّر . ثم حلّت المشكلة - ولم ندرِ ساعتها أي مشكلة- وانتهى الأمر بأن ودَّعنا الشيخ علي وعاد إلى مركز عمله . ولمّا بدأنا السير أصرَّ ابن مختار القرية التي قضينا ليلتنا فيها ، والمختار وجيه القرية ، على مرافقتنا - واجب الضيافة وحقوق الضيف . ولم نستطع إقناعه بتركنا وحدنا . ووصلنا القرية التالية حيث سنقضي الليلة الأخيرة (الثالثة) وبات ابن المختار معنا . ولكن الغريب أنه أصرَّ على مرافقتنا في اليوم التالي إلى بابنا وهي مركز محافظة صهيون . وقد سميت صهيون بسبب القلعة الضخمة التي كانت تقوم في وسط المحافظة ، والتي كانت ولا شك تسيطر على شبكة الطرق التي تصل الساحل بالداخل . وكانت مهمّة لا بالنسبة للصليبيين فحسب . بل بالنسبة

للحشّاشين الذين كان لهم فيها وفي مصياف وغيرهما دولة ورجال . (وبدَّلت الحكومة السورية مؤخَّراً اسم القلعة فأصبحت قلعة صلاح الدين) .

ولم نحاول منع ابن المختار ؛ فقد كان إصراره نهائياً . وصلنا بابنا بعيد العصر . وإذا بنا نؤخذ إلى منزل المحافظ . وقد استقبلنا الرجل - وهو عربي من سورية- بمنتهى البشاشة واللطف والاحترام . وحتى شعرنا كأنه كان يعتذر عن تصرف الشيخ علي والذين أصدروا إليه الأوامر من اللاذقية رأساً .

مناظر خلابة

غادرنا منزل المحافظ وركبنا سيارة إلى اللاذقية ، بعد أن ودعنا ابن المختار . وفي الطريق عرفنا سر مرافقة هذا الشاب لنا . كان المفروض أن يرافقنا الشيخ علي بنفسه وأن يقوم هو بتسليمنا إلى المحافظ . لكن المختار أقنعه بوجوب احترامنا ، ووعده بأن يشرف هو على تسليمنا للمحافظ . وقبل أولو الأمر الطلب من الشيخ علي . ولكن قبل مغادرة مدير الناحية أخذ من ابن المختار وصلاً علينا .

كانت نسخة الوصل بين أوراقي التي نهبت سنة 1948 في القدس ، لكنّني أذكر محتوى الوصل :

بتاريخه أدناه وصلني أنا مختار . . . الشخصين من فلسطين درويش المقدادي ونقولا زيادة على أن أسلمهما لمحافظ صهيون في مركز بابنا .

ولما دخلنا منزل المحافظ (أي لما تسلمنا المحافظ) أخذ ابن المختار منه وصلاً بذلك ، أوصله فيما بعد إلى الشيخ علي .

وكان علينا أن نزور محافظ اللاذقية ، ثم حاكم دولة العلويين (كما كانت الولاية تسمّى يومها) ، كي يطمئن الجميع أن تصرفنا في الأيام التي قضيناها في الجبل كانت بعيدة عن الفتن والتجسّس وإثارة الأحقاد والاضطراب .

المنطقة التي زرناها في اللاذقية وجوارها كانت جميلة جداً . كانت لا تزال على طبيعتها . أرضها صالحة لجميع أنواع الأشجار ، المثمرة وغير المثمرة ، التي كانت تغطي الجبال والسفوح . والسهول تنتج الحبوب والخضار . ولكن كانت الطرق يومها قليلة .

أذكر أننا مررنا بصلنفة، التي كان فيها بضعة بيوت. لكن كان فيها مطعم متواضع تناولنا فيه إما بعض الطعام أو بعض الشراب. وكم تمنيت لو أن المكان يتخذ مصيفاً.

في سنة 1953 زرت المكان للمرة الثانية. القرية ازداد عدد البيوت فيها. وكان هناك فندق كبير للاصطياف مع فنادق صغيرة متعددة وبيوت أعدت للمصطافين. وكانت الطرق التي تصلها باللاذقية وبالأماكن المجاورة جيدة.

وفي اللاذقية زرنا مكاناً لتصنيع الدخان تمهيداً لإرساله إلى بريطانيا لتصنع منه السجاير وأنواع الطباق الصالح للغليون. كانت أوراق الدخان وهي كبيرة تجفّف بعض الشيء في الشمس. لكن قبل أن تصل درجة التقصف كانت تؤخذ إلى داخل بايكات (مثل قاعات الخان) كبيرة، وتعلق على الحبال، ويوقد تحتها نبات قريب من الغار بشكله ورائحته، وهو بعد أخضر. لذلك فإنه لا يلتهب بل يحترق ويطلق الدخان. هذا الدخان هو الذي تتعشقه أوراق التبغ وتكسبه نكهة يُعجب بها المدخنون.

لم أكن يومها أدخن، ولكن لمّا قرّرت البدء في التدخين، وبتدخين الغليون (صيف 1939) كنت ألاحظ على بعض أصناف الطباق الغليوني عبارة «مصنوع من أجود الأنواع اللاذقية».

الطريق إلى أنطاكية

كنّا، أنا وصديقي درويش، قد قضينا قرابة الأسبوع في اللاذقية وجبال النصيرية، وآن لنا أن نتجه نحو إنطاكية. نحن كنّا ننتقل سيراً على الأقدام. هذه كانت خطتنا، منذ أن بدأنا من صفد في شمال فلسطين قبل ذلك نحو ثلاثة أسابيع. لكن لا مضيفنا جلال زريق ولا أي شخص سمع برغبتنا في الانتقال نحو إنطاكية سيراً وافق على الخطة. المنطقة كانت خطرة، بسبب الثورة السورية التي كانت يومها تشغل البلاد. وقد اغتنم بعض اللصوص والأشقياء الفرصة فعاثوا في الأرض فساداً؛ وهذا هو مصدر الخطر على المسافرين. والحلّ؟ ننتقل من اللاذقية إلى الاسكندرونة بحراً، وعندها نتدبر أمرنا.

إذا لم يكن من الأمر بد ، فلنفعل . والباخرة الوحيدة التي يمكن أن نسافر عليها هي الخديوية وطريقها يمر بمرسين ، قبل الاسكندرونة . هذا معناه مئة وثمانون قرشاً مصرياً لكلٌ منّا إذ إن الباخرة كان فيها درجة واحدة سمُّوها أولى ، وهي دون ذلك ، على ما عرفت فيما بعد . ودفعنا المبلغ الكبير ، بالنسبة لنا ، وقضينا ليلة بين اللاذقية ومرسين . وأصبحنا فيها ، وأملنا أن يتاح لنا النزول إلى البر . وكانت غايتنا من ذلك مقابلة الأمير شكيب أرسلان ، ومرسين يومها على ما بلغنا .

لكنَّ السلطات التركية أبت علينا ذلك لأنه لم يكن لدينا تأشيرة بالدخول إلى البلاد التركية . فقضينا يوماً كاملاً على ظهر السفينة . وأصبحنا ، بعد ليلة ثانية في الطريق ، في الاسكندرونة . ولم يكن في هذه البلدة ما يلفت النظر سوى موقعها في هذا الخليج الطبيعي الصالح لدرء خطر الرياح على السفن التي تقصده .

وكان منظر جبال أمانوس المرتفعة ، التي كأنها تكاد تسقط على الميناء والمدينة ، شيئاً جميلاً . وسأل راكبٌ الشخصَ الذي يسوق السيارة ، كيف يصل المرء إلى قمّةِ هذا الجبل؟ . فكان الجواب بهذه السيارة فورد . هذه مثل العنزة تصل إلى كل الجهات .

وقد أبلغنا ، حين نزولنا من الباخرة الخديوية ، بوجوب التوجه إلى مكتب حاكم سنجق اسكندون . وكان الحاكم يومها كاربيه الذي كان في جبل الدروز ، والذي أثار هناك المشكلات التي انتهت بقيام الثورة التي بدأت في الجبل ثم عمَّت سورية (1925 - 1927) .

في لواء الإسكندرونة

وذهبنا . وأُدخلنا إلى مكتبه . وجاء الترجمان . والأسئلة ، توجه إلينا وهو يقرأ رسالة : لماذا جئتما إلى سورية؟ لماذا دخلتما إلى لبنان عن غير الطريق الشرعي؟ لماذا تنتقلان سيراً على الأقدام؟ لماذا قضيتما كل هذه المدّة في اللاذقية وجبالها؟

كل هذه الأسئلة تبدو بريئة ، كأنها شيء يقوم به رجل أمن عام في منطقته . لكن هذه الأسئلة جميعها كانت مرتبطة ، على ما اتضح لنا ، بهذه الرسالة التي كان

يقرؤها . كانت تقريراً وصله من الإدارة في اللاذقية عن تصرفاتنا . نحن لا بدّ أنّنا جواسيس لبريطانيا لإثارة الناس في سورية ضد الحكم الفرنسي . ولا شك في أن طول قامة درويش وزرقة لون عينيه وشعره الأشقر حملت المسيو كاربيه على الظن بأنه أمام لورنس جديد .

وبعد أخذٍ وردٍّ سمحَ لنا بإتمام السير على أن لا نبعد عن أعين الرقباء . ولم تطل إقامتنا في الاسكندرونة ، تفقدنا أسواقها القليلة والحوانيت الفقيرة في سلعها وبضائعها ، وزرنا مركز الأمن العام كي يتأكد «قوميسير البوليس» من صحة أوراقنا وهويتنا . كانت زيارتنا لقوميسير البوليس بناء على تعليمات تلقيناها قبل أن نغادر السفينة . إنّ المراقبة التي فرضت علينا في اللاذقية سبقتنا إلى الاسكندرون . فقد نقل الخبر إلى الأمن العام هناك أن جاسوسين - أو هكذا شبه للقوم - هما في طريقهما إلى الاسكندرون على ظهر الباخرة الخديوية . هذان الرجلان زارا مناطق العلويين وتحدثا إلى رجال الصحافة في اللاذقية وكانا في ضيافة أسرة زريق هناك ، وأسرة زريق لها ضلع ، ولو أنه غير ظاهر ، في الحركات التي قام بها مرشد العلي ضد فرنسة .

ثم ركبنا فورداً آخر إلى إنطاكية . وقد لطف الله بنا فلم يجد السائق سوى ستّة ركاب للطريق ، وكان يأمل أن «يلُم» راكباً أو أكثر في طريقه ، ولكن آماله لم تتحقّق .

في إنطاكية

لمّا وصلنا إنطاكية وضعنا أغراضنا في غرفة بفندق . وأغراضنا كانت قليلة جداً : على ظهر كل منّا شنتة تنقل فيها غياران من الثياب ، وكنّا نلبس السروال أو البنطلون القصير يعني ، بلغة اليوم ، الشورت . وفيها عدة الحلاقة وفرشاة الأسنان وما إلى ذلك . وكان كل منّا يحمل دليلاً يختلف عن دليل الآخر . وكان درويش يحمل آلة تصوير - وقد ضاعت جميع الصور المتعلّقة بهذه الرحلة لمّا نُهِبَ بيتي في القدس ، سنة 1948. وكنت أحمل مطرة للماء وكان كل منّا يحمل عصا . وعندما نَحْمِلُ أو نُحمِّلُ «زوادة» كنّا نحشرها في الشنتتين . لذلك كانت أحمالنا خفيفة . وكنّا نغسل

ثيابنا في الفندق مساء ونعلّقها لتنشف ليلاً .

وضعنا أغراضنا في الفندق ، وخرجنا نبحث عن مطعم يمكن أن نتحدث فيه إلى الناس . وهذا أمر كنّا نفعله دوماً . وعثرنا على ذلك في حي عربي . في تلك السنة ، أي سنة 1925 ، كانت إنطاكية تعد جزءاً من لواء الاسكندرون ، الذي كانت تديره فرنسة ، كما كانت تدير سورية بأجمعها ، ولذلك كان لا يزال يُعتبر جزءاً من سورية . واللواء لم ينقل إلى تركية إلا في سنة 1939 .

تناولنا طعام الغداء ، وكنّا خطّطنا لزيارة ضاحية على مقربة من إنطاكية اسمها الحربية واسمها القديم دفنة . إنطاكية بُنيت سنة 300 ق .م . على أيدي الملك السلوقي انطيوخس الكبير الذي اتخذها عاصمة لدولته . اختار المكان لسهولة الدفاع عنه ، ولتيسر الأخشاب في الغابات المجاورة لها ، ولخصب المنطقة التي يمكن أن تزود السكان والجنود بحاجاتهم من المؤن لهم ومن العلف لدوابهم . وكان نهر العاصي يدور بجزء من المدينة ويربطها بمينائها سلوقية التي سمّاها السكان مؤخّراً السويدية .

وعني الرومان بإنطاكية في أيام أغسطوس قيصرا ، إذ كانت تابعة للإمبراطور مباشرة . وقد يُولّى حاكمها إمرة الجيوش الرومانية في المشرق . وأراد الإمبراطور أغسطوس وخليفته طيباريوس أن يكون لإنطاكية هياكلها الجميلة ومسابقها الفسيحة وتماثيلها الأنيقة وحدائقها الواسعة . فاختار ضاحية بُني فيها هيكل لجوبتر وآخر لديونسيوس ، وأقيمت تماثيل ضخمة في الميادين وبني المسبق والملعب . وقد كانت هذه جميعها موطن السرور والمرح للإنطاكيين وضيوفهم . هذه هي دفنة (أو الحربية حديثاً) .

سلخ لواء اسكندرونة

لكن الزلازل المتعدّدة والحرائق الكبيرة والحصارات التي تعرّضت لها إنطاكية ومنطقتها قضت على أكثر هذه الأشياء الفنية . لذلك لمّا ذهبنا إلى المكان لم نجد فيه سوى مجاري الماء وأقنيته وقطع من التماثيل وبعض من آثار الهياكل ، إلا أنها كانت جميعها تقوم وسط حدائق غنّاء تضيف الطيور المنتشرة في أفنائها جمالاً إلى جمالها

بتغريدها المتواصل .

اتفقنا في المساء ، بواسطة صاحب الفندق ، مع شخص يدلُّنا على الطريق إلى السويدية ، ميناء إنطاكية القديم/الحديث . جاء الرجل وأيقظنا ، وبعد أن لبسنا ثيابنا أدركنا أنَّ الرجل أخذ بضوء القمر فظنَّ أنَّ الفجر قد لاح - فهو لم يكن لديه ساعة يسترشد بها - وأنَّ الساعة كانت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . على كلٍّ قرَّرنا السير . وسرنا ذلك اليوم إلى الساعة الثامنة والنصف مساء ، لمَّا عدنا إلى الفندق . وكان يوماً عظيماً .

أنا لم أصدق يومها -كما أنني لم أصدق أموراً كثيرة - أنَّ هذه البلدة الصغيرة التي يمتاز سكانها بالفقر والجد - فالذي يعمل في البحر ويعتمد عليه في معيشته ، لا يمكن إلا أن يكون جدياً في تصرفه - كانت في يوم من الأيام معبرَ سورية الشمالية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية مثلاً ؛ وأن سفراء من الهند مرُّوا بإنطاكية وسلوقية/السويدية وهم في طريقهم إلى رومة لزيارة الإمبراطور أغسطوس ، على رواية نيقولاوس الدمشقي من أهل القرن الأول الميلادي ، وقد شاهد ذلك بنفسه .

ولكن هذه هي الدنيا . وقد وفقت إنطاكية بعالم آثار ومؤرِّخ كبير هو غلانفيل داوني ، الذي صرف ثلاثين سنة يتعامل مع المدينة منقباً أثرياً ودارساً وثائقياً ومحاضراً تاريخياً للمدينة قبل أن يضع تاريخاً لها عبر القرون العشرة الممتدة من تأسيسها على يد انطيوخس إلى الفتح العربي الإسلامي . وقد نشر الكتاب سنة 1961 ، ولم يُكتب ما يماثله ، بل يتجاوزه ، بعد!

إلا أن الذي عرفته يومها ، وقد مررنا بقرى متعددة وجلسنا لتناول طعام الفطور ، ثم لتناول طعام الغداء ثم لأكل بطيخة وشرب فنجان قهوة ، أنني كنت في جزء من أجزاء بلد عربي . في المنطقة عدد من الأتراك ، لكن هذا لم يكن يبرر المطالبة بضم سنجق أو لواء الاسكندرون إلى تركية .

ومع ذلك فقد ضم . ضم نتيجة لاستفتاء أجرته عصبة الأمم ، التي قامت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وخرجت بنتيجة أن أكثرية السكان صوتوا إلى جانب الانضمام إلى تركية ، لأنهم أتراك . والواقع ، كما أخبرني الكولونيل نيوكمب بعد ذلك بسنوات وكانت له يد في العملية ، هو أن السكان لم يوزعوا بحسب عنصريتهم

- أي العرب معاً، والأتراك معاً. إذ في هذه الحالة سيكون العرب هم الأكثرية المطلقة، لكنّهم وزّعوا سُنّة - عرباً وأتراكاً - وعلويين وشيعة ومسيحيين. واعتبروا السنة جميعهم تابعين للمذهب الذي يقبله الأتراك. وعند الاستفتاء ظهر أن الأتراك - أي السُنّة - هم الأكثرية.

وباختصار لُفَّ الطابق لمصلحة تركية، وضُمَّ إليها، وأصبح اسمه ولاية هيتاي!

من أنطاكية إلى حلب

أصبح وجودنا في سورية سباقاً مع الوقت الذي يبدأ فيه عملنا. فنحن نعمل في التعليم - هو في دار المعلمين وأنا في ترشيحا. وكان من الضروري أن يصلَ كلٌّ منّا إلى مركز عمله بحيث يبدأ الشغل في 15 أيلول/سبتمبر. لذلك أصبح التنقل على الأقدام غير ممكن. ومن هنا عدنا من إنطاكية إلى فلسطين راكبين.

خرجنا من إنطاكية في صباح يوم حار رطب، لكنّنا لمّا اجتزنا بعض المسافة خفّت الرطوبة واكتنفت الحرارة بإزعاجنا. أجزنا سهل إنطاكية - حلب، الذي كان قد تخلّص من موسم الحبوب لكنّه كان كريماً في قثائه وبطيخه وخياره وبندورته. ولم تكن السيارة مزدحمة؛ كان فيها ستّةُ ركاب فقط. والحديث، مثل حديث أية مجموعة من الركاب، يدور حول الطقس والموسم وإبراهيم هنانو. فالزعماء الذين انتقلوا إلى رحمة ربهم يمكن ذكرهم للترحّم عليهم، لا للتحدّث عن أعمالهم. فهم لم يكونوا ثواراً وطنيين - كانوا عصاةً على الدولة (الفرنسية). ألم تقر عصبة الأمم صكَّ الانتداب (لفرنسة) على سورية ولبنان، كما أقرّت صكّاً مماثلاً (لإنكلترا) على فلسطين. وإذن فقد أصبح الوجود الفرنسي في سورية ولبنان والوجود البريطاني في فلسطين أمراً مشروعاً. والسياسة التي تنفذها كلٌّ من الدولتين في منطقة انتدابها هي السياسة الصحيحة الصائبة، بقطع النظر عن مخالفتها للمادة الثانية والعشرين من شرعة عصبة الأمم. وأي شخص يمكن أن يفكّر في قضايا بلده خارج هذا النطاق فهو، في نظر الدولة المنتدبة، عاصٍ ويعامل كالعصاة. أمّا أن يعتبر وطنياً - زعيماً كان أو رجلاً عادياً - فأمر لا مكان له في قاموس الدولة المنتدبة.

وكان إبراهيم هنانو ، كما كان صالح العلي زعيمين وطنيين ثارا على فرنسة وقاوماها بالقدر الذي أمكنهما .

ذلك بأن فرنسة ، لقيت منذ بدء وجودها في البلاد مقاومة ، بحيث كانت البلاد في حالة غليان يكاد يكون مستمراً . ففي سنة 1919 قاد الشيخ صالح العلي ، زعيم العلويين الروحي ، ثورة في جبال النصيرية (العلويين) وقد استمرّت هذه الثورة حتى سنة 1921 .

وفي صيف سنة 1920 ، بعيد احتلال فرنسة للبلاد وإخراجها فيصل منها ، قامت ثورة بقيادة إبراهيم هنانو . وقد انتشرت الحركة في منطقة واسعة تشمل الأجزاء الواقعة غربي حلب وشمالها الغربي ، وكانت قيادتها متمركزة في جبل الزاوية ، لكن قواتها لم تلبث أن احتلت عدداً من البلدات الصغيرة مثل إدلب والمعرّة ، وحملت الفرنسيين على الفرار في معارك صغيرة متعددة حفاظاً على حياتهم .

وقد أعدت السلطات الفرنسية العسكرية جيشاً لمهاجمة قوات صالح العلي وإبراهيم هنانو ، إذ إنهما كانا يعملان متعاونين . وقد هزم صالح في معركة القدموس . ولما حشر هنانو بعد أن سقطت البلدات التي كان يحتلها ، نجح في الانتقال (صيف 1921) إلى شرق الأردن . ولما كان يقوم بزيارة للقدس ، ألقى البريطانيون القبض عليه وسلموه إلى الفرنسيين في بيروت بالرغم من احتجاج العرب في أماكن كثيرة .

ويقول جورج حداد : «وقد حاكمته محكمة عرفية لكنّها بدل أن توقع به عقوبة مجرم ، اعتبرته زعيماً وطنياً يدافع عن بلاده فبرّأته» .

وإذن فالحديث عنهما ، في مكان عام ، كالسيّارة أو المقهى أو المطعم ، يجب أن لا يتعدّى الإشارة إليهما كزعيمين لعصابات مزعجة . وإلا فلْيَصمت الناس . وكان الناس يومها أشدّ حرصاً من ذي قبل لأنّ البلاد كانت قد قامت فيها ثورة قبل نحو شهرين . وهذه بطبيعة الحال كان يجب أن يُشار إليها على أنها عصيان مسلّح . بقطع النظر عن سبب هذا العصيان .

وسائل بدائية

وإذن فلنستمع نحن إلى حديث الطقس والموسم والغيارات والسيارات التي

سهّلتْ على الناس السَّفرَ والتنقل . وحتى عندما يصيب السيارة عطل ، كأن ينفّس دولاب أو تنسدُّ أنبوبة البنزين ، فالناس لا يتذمرون كثيراً . فالقضية لا تعدو أن يخرج الركاب من السيارة ويأتي السائق «بالعفريتة» أي الرافعة ، ويرفع السيارة ثم يفك الدولاب ويخرج عدة إصلاحه : وهي قطع من المطاط من نوع مطاط الدولاب والصمغ اللازم للإلصاق . ويخرج السائق الدولاب الداخلي ، ويفتش عن الثقب الذي تسرب منه الهواء بأساليب بدائية أكثرها «تقنية» هي أن يكون في متناول يديه كمية من الماء في لكن (لجن) بحيث يغطس الدولاب في الماء ويضغطه ، فيخرج الهواء من الثقب . وبعد ذلك ينظف منطقة الثقب بورق الزجاج ، ثم يرقعه . ويأتي بعد ذلك نفخه بالمنفاخ . هذه العملية تحتاج إلى وقت طويل . وبهذه المناسبة فقد ركبت في سيارة من جنين إلى الناصرة (والمسافة بينهما واحد وعشرون كيلومتراً) وكان ذلك في صيف 1920 وحدثت ثقوب في دواليب السيارة بلغ عددها عشرة .

ولم يصب السيارة أي عطب بين إنطاكية وحلب والمسافة نحو مئة وخمسين كيلومتراً . والطريق تجتاز سهل العمق في شماله ، وتكون أكتاف التلال على الجهة اليسرى من الطريق . والخضار والفواكه هي الخضار والفواكه التي شاهدناها في طريقنا عندما كنّا نجتاز سهلاً . إلا أن الشجيرة التي كانت جديدة علي هي شجرة الفستق الحلبي . ولما وصلنا حلب رأيت جذور العرقسوس .

فندق البارون في حلب

حللنا في حلب في فندق بارون . الفندق الوحيد الذي سمعنا عنه في حلب . وكان فندقاً فخماً ، يعود بناؤه إلى أواخر القرن الماضي أو مطلع القرن الحالي . وقد خُطط البناء ليكون فندقاً من الأصل . وقد عرفت يومها من صاحب الفندق بارون (وهو رجل أرمني اسمه بارون) بأن جمال باشا كان ينزل في هذا الفندق عندما كان يزور حلب . وقد حدث فيما بعد -في الخمسينات- أن أحد زملائنا في الجامعة الأميركية ، وكان مهتماً بالتاريخ العثماني ، زار حلب وطلب من بارون الابن ، فالأب كان قد تُوفي ، أن يعطيه الغرفة نفسها التي كان جمال باشا ينام فيها . وقد لبّى

الشاب رغبة الزميل فأنزله غرفة جمال باشا ، والله أعلم .

حلب في سنة 1925 وفي كل وقت فيها أمران يجب أن ينالا اهتمام الزائر : القلعة والأسواق . القلعة تتوسط المدينة وهي قلعة ضخمة أيوبية الأصل بناها الملك الظاهر (582 - 613هـ/ 1186 - 1216م) . وفضلاً عن ضخامتها فإنّ الزائرَ يمكن أن يتأكّد من أنها كانت منيعة . في سنة 1925 كانت أكثر من بقايا قلعة - كانت بقايا جيدة واضحة لقلعة ضخمة حصينة . وقد عُني بالكشف عن بعض محاسنها فيما بعد . فتبدت آيات حسن في معمارها وتخطيطها .

أمّا الأسواق فهي مسقوفة ، وأنت تدخلها تشعر كأنك تهبط عن سطح المدينة درجات . كانت الأسواق لا تزال في تلك السنة تحافظ على شخصيتها وكيانها . فالسوق يدل اسمها على تجارتها - العطارين ، النجارين ، الصاغة وما إلى ذلك . في زياراتي التالية لحلب ، وهي كثيرة ، كنت أرى هذه الأسواق تعرى من سلعها الأصلية لتحلّ محلّها ما يحتاجه الناس - أدوات الطبخ من طناجر ومقال والألعاب للأولاد والثياب الشعبية . فإن البروكاد مثلاً ، وهو من الأقمشة الحلبية المشهورة ، انتقل بيعه إلى الأماكن الجديدة ، إلى منطقة السبيل وغيرها .

نعمنا - أنا للمرة الأولى ودرويش للمرة الثانية - باللحم الطيب الشهي في حلب ، وأيسره وأسهله المشوي ، لكن الكباب والكفتة والكفتة الحلبية خاصّة ، تشتهى بعد أن يأكلها الواحد هناك . وليس السبب الإتقان في تهيئة اللحوم ، ولكن السبب يعود إلى جودة المراعي في تلك المناطق ومن ثم اللحم الطري الذي يطاوع الشواء .

بلاد المعري

خلفنا حلب وراءنا . وكان اليوم حارّاً ، والأرض جافة والطريق صيفية ، والسيارة مضطربة عصبية . ولم تكن تنهب الأرض نهباً ، بل كانت تسير سيراً عادياً . فإنّ السيارات ، في تلك الأيام ، وقد بعد بسفرتنا تلك العهد ، لم تكن تستطيع أكثر من طي تلك السهول طياً عادياً . وما كان أكثر تعريجها على أحياء الناس . فثمّة حاجة

إلى الماء ، وثمّة حاجة إلى إراحتها فقد اشتدّت الحرارة فيها ، وثمّة حاجة إلى إصلاح مجرى الزيت . وكل أولئك أمور تثير الأعصاب وتجعل السفر أمراً صعباً . لكن لماذا تثور أعصابنا ولماذا نكره السفر؟ ألم تكن المدة التي قضيناها في حلب ، على قصرها ، كافية لتزويدنا بما نفكر به فننسى غبار الطريق وشتائم السائق وصخب بقية المسافرين؟ أليست قلعة حلب بضخامتها واستيلائها على مركز البلد وإشرافها على شؤونه أمراً يذكره المرء مدة طويلة؟ أليس في هذه المدينة ما يذكر المرء بأيامها الماضية لمّا كانت مركزاً رئيسياً للاتجار الداخلي؟ ألم يقل عنها ابن جبير إن أسواقها كانت مليئة بالتجارات والصناعات ، بحيث تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، وكل ذلك مرتب منظم؟ بل أليست حلب مقر سيف الدولة وعاصمة إمارته؟ وسيف الدولة هذا صاحب المتنبي ، ومن يتذكر حلب ولا يربط اسمها بهذين الرجلين الفذين – صاحب السيف ومالك عنان الشعر؟

وتنقّلت بي أفكاري ونحن نجتاز هذه البقاع ، فحامت حول هذه الطرق ومن اجتازها قبلي من الأمم والأفراد ، وتذكرت الجيوش التي جاءت وحاربت وهدمت ودمّرت ، والناس الذين عمروا وزرعوا وأحيوا الأرض . وقارنت التدمير بالتعمير والقتل بالإحياء . ومرّت برأسي أخبار الأمم التي سكنت هذه الجهات منذ أن عمر الناس الأرض التي أورثهم الله ، وترددت في نفسي الأساطير التي خلقها الناس ليفسروا أسماء البلاد والمدن . قالوا حلب ، من حلب إبراهيم لنعاجه فيها ، وقالوا غير ذلك . وانفتحت أمام ناظري هذه الآفاق الواسعة من التاريخ الذي أوجدني وأوجد البلاد التي اجتازها . فرأيتني أقع في ذاكرتي التاريخية على أمم وشعوب ذات لغات مختلفة ، تعمر هذه الرقعة من العالم ، فتنشر لغتها ، وتنشر ثقافتها ، وتنشر علمها ، وتنشر شرعها ، وتنشئ المدن لتجعل منها مراكز لنشر كل هذا . ولكن علمها وحضارتها ولغتها تقتصر على المدينة ، ولا تنفذ إلى أعماق القلوب خارجها . حتى تأتي جماعة أخرى ، لها من إيمانها دافع ، ولها من يقينها باعث ، ولها من اقتناعها وازع ولها من خلقها رادع ، فتنتشر عنصرها العربي ، وتنشر لغتها العربية وينتشر إيمانها في الربوع كلها ، وتلحق به اللغة وتجاربه . فتصبح لغة كل الناس ، أميرهم وغنيهم وفقيرهم وتاجرهم وصانعهم وراعيهم وزارعهم . وتصبح في جميع المنازل : المدينة

والقرية والقصر والكوخ والقلعة - تصبح لهذه كلها لغة واحدة ، يتاجر بها الناس ويتعلّمون ويصلّون ويخشعون ويحبّون . وعندها تتوحّدُ الحياة التي كانت متشعّبة التفكير ، ويصقل الفكر الذي كان متباين الغايات مشعث الأهداف . ويخرج من هذا كله هذا الرجل الذي يسميه الناس المتنبي ، والذي ينشد بيتاً من الشعر في مصر فتردّده دجلة ويتغرّب لا مستعظماً غير نفسه ، ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً ، فيؤمن على قوله أولئك الذين يرون نفوسهم لا تطيق اللحمَ والعظمَ ، فيحقرون الدنيا ويزيدون في كرائهها قدماً .

وأنا في هذه الأفكار إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدّة ، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة ، ولكنّها أمرٌ بين الأمرين . وحسبت أن السيارة أوقفت لتعالج . لكنّني لم ألبث أن أدركت خطئي ، لما ذكر الركب أنها المعرة - معرّة النعمان . فعدت إلى دنيا الناس ، وعجبت لهذه الحياة التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي ، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعرّي .

هنا عاش أبو العلاء

وكدنا لا نعرف أنفسنا ، فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء . ولم يكن من المتيسّر إزالتها البتّة ، فاكتفينا بإزالة القليل منها على النحو الذي تيسّر لنا ، وسرنا نحاول التعرف على الجو الذي عاش فيه أبو العلاء . فكان أول ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد ، في مكان يعرف باسم مدرسة أبي العلاء . والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم . ونور الدين الذي أحيا من دنيا الإسلام يوم أن تصدعت ما أحيا ، ينظر الناس إلى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادي هو أم قبر هذا الذي هيّأ لصلاح الدين أن يضرب الصليبيين؟ .

وكان بي شوقٌ إلى قبر المعرّي . فقد أعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعي وصوت البشير ، فذهبنا لزيارة «مولانا أبو العلاء» . مولانا؟ نعم لقد أصبح المعرّي في بلده ولياً من أولياء الله ، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر ، وتعلو مكان الرأس منه عمة ، ويتقرّب الناس إلى الله بقراءة الفاتحة في مقامه ، ويربط قطع

من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته . وكأن رهين المحبسين في حياته أبى إلا أن يكون له بعد وفاته محبس ثالث ، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة . وقد تلطّف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة
نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها
فأرجعها رحمة منه إلى الصدف

هذه حالة قبر أبي العلاء (زائر المعرّة اليوم يشاهد قبراً لأبي العلاء فيه فخامة) . وإنّ الأمر لمؤسفٌ حقّاً . وقد تذكرت هذه الحالة مرّات لما زرت قبور عظماء الأمم الأخرى . فرأيتهم قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكاناً يعبر عن حياته . فثمّة متحف صغير يحوي آثاره أو مكتبة تحوي نسخاً مختلفة من الكتب التي ألّفها أو غير ذلك من آثاره في حياته .

خرجت من قبر أبي العلاء ناقماً ساخطاً ، وقضيت ساعات في المعرّة بعد ذلك وأنا ناقم ساخط ، وتناولنا بعض الطعام في شبه مطعم أبى إلا أن يبز قبر المعرّي في نوره ونظافته ، حتى إنه لولا جوع شديد لما جلس المرء فيه ولا أكل .

رهين الثلاثة

وكنت أفكّر بالمعرّي ، لمّا عدنا إلى السيارة لنستأنف السير إلى حماة . وجلسنا فيها ، وعادت إلى شنشنتها ، تسير حيناً وتقف حيناً وتصرخ مرّة وتعوي مرّة . وكان الجهد والسخط قد نالا مني ، فلم ألبث أن أخذتني سِنَةٌ من النوم ، نقلتني من عالم القيود إلى عالم الحرية ، ومن دنيا الواقع إلى دنيا الأحلام ؛ فرأيت رجلاً شيخاً صغير الجسم قاعداً على سجادة لبد ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم . وإنه ليتحدّث إلى الناس فيعلمهم اللغة وآدابها . فإذا انصرفوا من عنده ، وانفضّوا من حوله ، انصرف هو إلى عدسه وتينه ، يأكل منهما ما تيسّر له ، وعاد إلى كتبه يقرأ له فيها ، وإلى تفكيره

وبحثه . فإذا وقع على المعنى الجيد في نفسه وصاغه شعراً أو نثراً أملاه على من كان عنده ، ليكون من بعده ذخراً لنا ، نحن الذين نقرأ شعر أبي العلاء فنجد فيه غذاء روحياً ومتعة فكرية ولذّة نفسية . وسمعت هذا الشيخ يردّد هذين البيتين من الشعر :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل على الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث

وسمعت المعرّي يقص على من كان حوله أخبار تنقله في طلب العلم . فما كانت المعرّة على ثراها وجاهها ، وعلى ما كان في بيت الرجل وآله من علم وفضل ، لتكفي أبا العلاء أو تشبع ما فيه من ميل للعلم . فذهب إلى طرابلس ، وسافر إلى اللاذقية وانتقل إلى بغداد ، وهذه كانت عواصم الفكر في أيام صاحبنا في القرن الثالث للهجرة والقرن التاسع للميلاد . وأقام المعرّي في بغداد سنة وبعض السنة ثم رحل عنها إذ إنه لقي بعض الشر من أصحاب النفوذ فيها . وكان سبب الخصومة بينهم وبينه تعصبه للمتنبي ونقمتهم عليه . واشتدّ شوقُه إلى أمّه وهو ببغداد ، وشعر بفقره ، فودّع بغداد وأهلها ورحل رغم أن أهل بغداد حاولوا أن يثنوه عن عزمه ، وحاولوا أن يغروه بالبقاء لما عرفوا من علمه وأدبه .

وكأني سمعت المعرّي يذكر شوقه إلى بلده فيقول :

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا
إلى الشام ، لولا حبسه بعقال
فيا برق ليس الكرخ داري وإنما
رماني الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرّة قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسال

هذا وماء المعرّة ماء آبار ، وماء بغداد ماء دجلة العذب .

وصان المعرّي في بغداد ماء وجهه ، فأشار إلى ذلك في تشوقه إلى الشام فقال :

أنبئكم أني على العهد سالم
ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما
تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضلي وحده
على بعد أنصاري وقلة مالي

ثم يروي هذا الشيخ الصغير الجالس على اللبد أبياتاً أخرى يخاطب فيها أهل وطنه :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا
رزي الأماني لا أنيس ولا مال
وماء بلادي كان أنجع مشرباً
ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني إن فاتني بك سابق
من الدهر فلينعم لساكنك البال

لكن موجة من الأسى تمر بذلك الوجه الحزين ، إذ يروي لي ، وقد خلت أنه يروي لي وحدي ، أن الشوق إلى بغداد عاوده فقال :

يا لهف نفسي على أني رجعت إلى
هذي البلاد ولم أهلك ببغدادا
إذا رأيت أموراً لا توافقني
قلت الإياب إلى الأوطان أدّى ذا

ولمّا ودّع أهل بغداد قال لمودعيه :

أودّعكم يا أهل بغداد ، والحشا
على زفرات ما ينين من اللذع

وَدَاعَ ضَنًى لم يستقل وإنما
تحامل من بعد العثار على ضلع

ألا زودوني شربة ولو أنني
قدرت ، إذا أفنيت دجلة بالجرع

أذلن الليالي وهي خُونٌ غوادر
بِرَدَّي إلى بغداد ، ضيقة الذرع

وكان اختياري أن أموت لديكم
حميداً ، فما ألفيت ذلك في الوسع

سمعت هذا كله من أبي العلاء ، فقلت في نفسي هذا : هو المعرّي يرى في كل بلد وطناً له ، فإذا أوذي في نفسه ونقم مرة ، فإنما النقمة هذه أمر يسير لا يلبث أن يذهب ويبقى هذا الشعور العام لوطنه ، وهذا الوعي القومي نحو جماعته .

وتلفت حولي فرأيت في زاوية الغرفة التي كنت فيها رجلاً كله آذان ، يسمع ما يقال ويلتهمه ، فاقتربت منه وسألته إذا كان هذا الرجل الذي يُسمّي نفسه رهين المحبسين ، قد نجح في اعتزال الناس وانصرافه عنهم . فقال الرجل ، وهو يهمس همساً خفيفاً كأنه يخشى أن يسمعه المعرّي فيغضب : «لا يا أخي . وكيف يستطيع من له شعره ونثره ، ومن له درايته وخبرته ، أن يعتزل الناس ، وهل يتركه الناس لو تركهم؟ وكيف يجوز لهم أن يتركوه؟ أليس من حقّهم أن يفيدوا من علمه ، وأن يروا شعره وأن يتعلموا نثره؟ أليس من واجبه أن يعلم أولادهم وشبابهم؟ إن أبا العلاء حملته على العزلة رقّة في حسه ، ولكن هذه الرقّة والشعور بواجبه حملاه على أن يفعل هذا الذي ترى . فنحن في كل يوم لنا منه مدرسة لطلاب العلم ومدرسة لطلاب اللذة العقلية . فهو ينبوع فيّاض نغترف منه ولكنّنا لا نستطيع أن نفنيه . إنه لنا دجلتنا ، كما أن لبغداد دجلة» .

وصمت محدثي قليلاً ، لكنّه عاد يقص عليّ قصّة جرت للمعرّة وكان أبو العلاء مشاركاً فيها . قال جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة إلى مسجد المعرّة فشكت إلى الناس أن أناساً تعرضوا لها وأرادوها بمكروه ، فانتصر الناس لها ، وهدموا البيت ، وأتلفوا

ما فيه ، فقال أبو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة :

أتت جـــامع يوم العـــروبة جـــامـــعـــاً
تقص على الشـــهـــاد بالمصـــر أمـــرها
فلو لم يقـــومـــوا ناصـــرين لصـــوتهـــا
لخلت ســـمـــاء الله تمطر جـــمـــرها
فـــهـــدّوا بناء كـــان يؤوي فناؤه
فـــواجـــر ألقت للفـــواحش خـــمـــرها

لكن صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرّة ونقم عليهم . فجاء المعرّة وخيّم بظاهرها سنة 417هـ ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً . ففزع أهل المعرة إلى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر . فخرج هذا الشيخ القصير الذي ترى إلى صالح ، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال : «الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع ، قاظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع لان متنه وخشن حداه ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ . فقال صالح : (لا تثريب عليكم اليوم . قد وهبت لك المعرّة وأهلها) . وقوض خيامه ورحل . فقال أبو العلاء :

نجى المعـــــرة من بـــراثـــن صـــــالـــح
رب يفـــــرج كـل أمـــــر مـــعـــضـل
مـــا كـــان لي فـــيـــهـــا جناح بعـــوضـــة
الله ألحـــفـــهـــم جناح تفـــضـــل

وصمت محدثي لحظة ثم قال : هذا المعري الذي يكره السياسة العامة ، والذي رفض دعوات الحكام والأمراء ، لم يتخلّف عن أن يكون شفيعاً إلى صالح لمّا دعاه قومه وأهله . وقد أشار فيما بعد إلى هذه الشفاعة في شعره فقال :

فلمّـــا مـــضى العـــمـــر إلا الأقل
وحـم لـروحـي فـــراق الجـــســـد
بعـــثـت شـــفـــيـــعـــاً إلى صـــالح
وذاك من القـــوم رأي فـــســـد

فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق
فكم نفقت محنة مسا كسد

وأحسست كأن الأرض قد زلزلت بي، ورأيتني كأنني رفعت من مكاني وقذف بي من حالق، فصحوت وأخذت أتحسّس نفسي، فإذا بالسيارة قد وقفت إحدى وقفاتها بعد أن صدمت حجارة اعترضتها بالطريق، وإذا بالسائق يصخب ويلعن. فالتفت إليّ صاحبي، صاحب الرحلة، وقال أين كنت يا هذا، فقد عودتني أن تفتح عينيك لترى ما حولك، فأخبرته أنني كنت مع أبي العلاء فقال ومن أجل ذلك كنت تردد:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد
سر إن استطعت في الهواء رويداً
لا اختيالا على رفات العباد

فابتسمت وسألت أين نحن فقال: انظر إلى يمينك وأمامك تعرف أين أنت، فنظرت حيث أشار فرأيت شيزر على يميني، وحماة تنبسط أمامي. فقلت لصاحبي، هناك ولد أسامة بن منقذ، وهنا يرقد ياقوت وأبو الفداء.

وهكذا في يوم واحد مررنا بلاداً غنية بالذكرى، غنية بالعظمة الخالدة وإنما تحتاج إلى من يتذكر فيعيد بعض هذه العظمة. وأي شيء أحق بالذكرى من سيف الدولة والمتنبي والمعري وابن منقذ وأبي الفداء؟

من حماة إلى زحلة

لما وصلت بنا السيارة إلى حماة، وهبطنا منها، وصرنا في البلد، استأثر بي شيئان اثنان فيها: العاصي والنواعير. إلى ذلك الوقت لم أكن قد رأيت نهراً حقيقياً. رأيت الأردن في الشتاء وكان شبه ملآن، لأن الأردن كان يمتلئ في الربيع. ورأيت مجاري

مياه نسمي واحدها نهراً وهي لا تزيد عن ساقية - مثل النعامين (جنوبي عكا) والعوجا قرب يافا . لكن العاصي كان نهراً . عرفت فيما بعد (أو فيما قبل) أنه ينبع من لبنان ، وأنه يعصي أصول سير الأنهار فيتجه من الجنوب إلى الشمال ولذلك سموه العاصي (كان هذا على ما يبدو قبل أن يعرفوا أن النيل ، وهو نهر كبير ، يتجه من الجنوب إلى الشمال) . ويبلغ النهر عند حماة أشده لذلك فإنه يبهر شخصاً أميًّا في الأنهار مثلي .

أما النواعير ، وهي هذه الدواليب الخشبية الضخمة التي تلصق بها أكواب ضخمة ، فتدور الدواليب فإذا حطت بالماء امتلأت الأكواب ، وعندما يصل الدولاب إلى أعلى نقطة تنقلب الأكواب وتفرغ ماءها في قناة تحمله إلى الأرض العطشى .

هذه وظيفة الناعورة . لكن الناعورة تغني : الغناء هو الصوت الذي يخرج من دوران الناعورة حول الجسر الخشبي ، وعندها يصك الخشب بالخشب ، فيئن ويتألم ويتحسَّر ، وقلَّما يُتاح له من البطء في الدوران ما يمكنه من إطلاق صوت فرح أو سرور أو انتصار على اللصوص .

نعم العاصي ونواعير حماة . العاصي يمثل تجمع الماء الكثير وتدفقه البطيء نحو الشمال ونحو البحر ، والناعورة تنوح على العاصي . وأي عاصٍ تنوح عليه؟

ليلة نقضيها كما قضينا ليالي أخرى . فندق ، كيف ما كان!

لقاء عبد الله مشنوق

في حماة تعرفت ، عن طريق درويش ، بعبد الله المشنوق . كان لا يزال يقيم في بلده وكان يشتغل بالتعليم ، شأن عدد كبير ممَّن تخرج من الجامعة الأميركية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . أخذت المدارس تزداد عدداً في فلسطين والعراق وسورية ولبنان والسودان . وكانت هذه المدارس بحاجة إلى مدرسين . وكانت الجامعة الأميركية الوحيدة التي يمكن أن تزود هذه المناطق بالمدرسين . فالجامعة اليسوعية ، بحكم أن لغة التعليم فيها كانت الفرنسية ، لم تتح لها الفرص المساوية لفرص خريجي الجامعة الأميركية .

درويش وعبد الله كانا طويلين ، وكانا يومها شابين ، فليس ثمة كرش وجاهة ولا ترهل عضلات . ووقفت أنا بينهما أتسقط الأخبار التي كانت «تسقط علي من فوق» . ودعانا المشنوق إلى الغداء . ومّما أذكر من الحديث أن عبد الله المشنوق قال يوجد في المدرسة طالب نبيه سيكون له شأن ، واسمه أديب الشيشكلي .

كان لتعرفي على عبد الله المشنوق في حماة أثر على صداقتنا في بيروت بعد أن جاء هو إليها وتبعته أنا بعد سنوات طويلة إليها . التقينا وكان يرأس تحرير مجلة أهل النفط التي كانت تصدرها شركة نفط العراق . وفيها كتبت ، بتكليف من عبد الله ، عدداً كبيراً من المقالات .

زرنا شوارع المدينة في صبيحة اليوم التالي وجدت كتاباً عن تاريخ حماة حملته معي وحافظت عليه إلى سنة 1948 ، لما كان حظه السلب كما أصاب أوراقي وكتبي وأثاث بيتنا في القدس .

بالقطار إلى حمص وبعلبك

وانتقلنا من حماة إلى حمص بالقطار . تغيير وتبديل وتنويع . الخط بين حماة وحمص هو جزء من خط دمشق حماة وتمديداتها . وقد بدأت أصلاً لما مدت سكة الحديد من بيروت إلى دمشق . ثم مدت وصلات من رياق إلى حمص وحماة وحلب أخيراً .

الطريق من حماة إلى حمص اجتاز سهلاً تتخلله هضاب . الصيف في هذه المناطق حار ، وقد تكون الأرض فيه خالية من الخضار أو الأشجار . ولكن الذي أذكره هو أن المنطقة كانت تسيطر عليها روح الأسى ، كأنها قد خابت أملاً في ما رجته من موسم صيفي جيد . وهذه المنطقة كانت تصل إلى أجزاء منها مياه العاصي أو مياه ينابيع عبر قنوات كان طولها يبلغ الخمسة عشر كيلومتراً . لكن هذه القنوات أهمل أمرها .

في حمص زرنا جامع خالد بن الوليد . خالد بن الوليد بطل الردة واليرموك وبطل أمّر الرجل نفسه . وحكاية هذه أن عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد عن القيادة ،

فقال خالد قولته التي ذهبت حكمة ومثلاً «لا أحارب من أجل عمر» . وسار الرجل يحارب جندياً من الجنود . وكانت فرقة تقاتل في جهات حلب وعليها أمير ، فإن هلك فآخر ، وتعقدت الأمور ، وهلك الاثنان . فتقدم عندها خالد ونظم أمر الانسحاب دون أن يفقد جندياً واحداً . ولمّا بلغ عمر بن الخطاب هذا الخبر قال «لقد أمّر الرجل نفسه» .

وهذا الرجل البطل الصنديد مات ، كما وصف هو نفسه وهو على فراش الموت ، موت الجبناء . لا ، مات موتاً طبيعياً ، لأنه لم يمت في المعركة . لكنّه انتصر في معارك كثيرة .

وتحدثنا يومها عن خالد . أين مات؟ هل أنجب ذكوراً؟ ومثل هذه الأسئلة كثير . وقد سألها المؤرّخون القدامى فأجابوا عنها كما يريدون ، متأثرين بالرواية المغرضة إيجاباً أو سلباً . ولكن الباحثين المحدثين لم يكونوا أفضل حظاً . فهم قد يكونون قديرين على رفض بعض الروايات والأخبار ، لكن هذا لا يعني إقامة بناء صحيح للموضوع . إذ إنه يحدث عندما ترفض الروايات والأخبار على أسس منطقية ، فقد لا يبقى شيء آخر تبني عليه شيئاً أو تفسر به أمراً . وعندها قد يندم الباحث الحديث على هذا الذي اقترفه ، وقد يفكر بالعودة إلى ما هدم ليبنيه ثانية . لكن ضميره العلمي وأسلوب بحثه اللذين أوصلاه إلى هذه النتيجة لا يسمحان له بإغفالها أو إهمالها . وهكذا بين الرواية اللطيفة والأسلوب الصارم ، نفقد المتعة واللذة . أنا لا أدعو إلى إهمال البحث والاكتفاء بالرواية . لكنني أخشى على الناس إن فقدوا رومانسية القصة ، ولم يقيموا بناء على أساس البحث والمنطق ، أن يخسروا عنصرا من عناصر حياته السيكولوجية ، دون أن يعرفوا ما الذي فقدوه .

هيكل جوبيتر ومعبد باخوس

وما دمنا نتحدث عن هذه الأمور حديثاً لا يسمن ولا يغني من جوع ، إلا أنه يثير الشكوك ، فإنني أودُّ أن أذكر أن الوقفة التالية (وكانت السفرة بالقطار) كانت في بعلبك . وكانت إقامتنا في فندق صغير على مقربة من فندق بلميرا .

والحديث عن بعلبك يختلف عن الحديث عن حمص . فهنا روايات وأخبار ، وفي بعلبك أبنية وآثار . صحيح أن هذه الآثار كانت مغطاة بالكثير من الأتربة ، كما أن الأعمدة المتبقية كانت قد وقعت وغطيت ببقايا الأبنية المتداعية . إلا أن بعثة ألمانية أرسلت إلى بعلبك حوالي سنة 1900 للعمل على كشف كنوز المكان . ذلك أن غليوم ، إمبراطور ألمانية ، زار بلاد الشام سنة 1898 ، ومرَّ ببعلبك ، وأسف لأنها مطمورة فأرسل هذه البعثة ، طبعاً بإذن من السلطان عبد الحميد الثاني ، وهي التي عملت على إزالة الكثير مما كان يغطي الآثار المهمة ، وهي التي رفعت الأعمدة القائمة الآن في هيكل جوبتر .

هذا هو الذي شاهدناه في بعلبك يومها . أمّا ما يراه الزائر اليوم فهو نتيجة عمل مستمر هادئ تمَّ خلال العقود الماضية .

لما زرنا بعلبك كانت تقوم بلاطة رخام بيضاء في هيكل باخوس فيها إشارة إلى زيارة غليوم للمكان وإلى عمل البعثة الألمانية . إلا أنها كانت قد كسرت ، ولكن بعض أجزائها كان لا يزال قائماً . وذكرني هذا التكسير الذي تمَّ على أيدي الفرنسيين بعد استقرارهم بلبنان بتكسير البلاطة الرخامية التي وضعت على قمّة جبل الشيخ ، بقرب «قصر عنتر» ، لذكرى زيارة فيصل للمكان سنة 1920 . وهكذا بلغ الأمر بالفرنسيين أن يحطموا أثرين لا لسبب إلا لأنهما يذكران بخصوم لهم وأعداء .

سكان بعلبك يسمُّون هذا المكان الأثري المعقد «قلعة بعلبك» ؛ والمكان في حقيقته وأصله هيكل للعبادة ، وقد أضيف إلى الهيكل الكنعاني (الفينيقي) الأول هياكل كثيرة كان أكبرها وأجملها هيكلي جوبيتر وباخوس . وباخوس لا يمكن أن يكرم في بقعة ألطف من هذه ، فالمنطقة التي تحيط ببعلبك ، والتي تمتد إلى زحلة وشتورا جنوباً ، كما تمتد شرقاً وشمالاً وغرباً ، هي منطقة الكرم الكبيرة . ولا يمكن أن يكرم باخوس بأفضل من ذلك .

لكن لما احتلَّ العرب لبنان ، ولما كانت بعلبك في أيام بني أيوب مركزاً مهماً للدفاع عن الطريق الأوسط في المنطقة ، وهو الطريق الشمالي الجنوبي ، أقيمت في تلك البقعة قلعة أفيد في بنائها من الموقع المرتفع الحصين ، القريب من الماء الغزير ، ومن بعض الحجارة الضخمة . ومن ذلك الوقت غلبت على بعلبك صفة القلعة .

وممّا أعجبني في بعلبك يومها شجر الجوز الكبير الضخم الكثير . وقد أذكرني ذلك باليوم الذي سرنا فيه من صنين إلى العاقورة . إن أصحاب الفندق عند نبع صنين زودونا بالكمية الوافية من الزوادة . لكن هذه استهلكت قبل الوصول إلى المنيترة (قرب خربة أفقة) . وكان رجل لقيناه مصادفة بالقطار بين بيروت وصوفر أعطانا اسمين لرجلين يمكن أن يستضيفانا عند الحاجة . الشيخ ج . ج . في المنيترة والشيخ فريد العماد في العاقورة . لذلك اطمأننا إلى أننا سندعى إلى لقمة غداء في المنيترة . لكن ، مع أننا وصلنا الظهر ، فإنّ كوباً من الماء لم يعرض علينا إلا بعد أن طلبناه وجاء ليمونادة ؛ واستأذنّا دون أن تصدر من الشيخ كلمة واحدة تتعلّق بالأكل . لذلك لما أجزنا قريته ووصلنا إلى وادي الجوز ، أخذنا نرمي بالحجارة لعلّنا نحصل على حبات جوز تسد بعض الجوع . ثم أدركنا أن الجهد أكبر من الفائدة ، فتركنا .

ولمّا وصلنا العاقورة ، وكانت الشمس قد اختفت خلف الجبال ، خشينا أن يصيبنا هنا ما أصابنا هناك ؛ وتردّدنا في الذهاب إلى بيت الشيخ العمادي . لكن الضيافة التي لقيناها في بيت الشيخ فريد أنستنا ما مرّ بنا في ذلك النهار . من هنا كان من حقي أن أتذكر في بعلبك جوزات وادي الجوز بين المنيترة والعاقورة .

وفي بعلبك تشم رائحة النقاء ، في الهواء وفي الماء ، وفي اللحم الذي تأكله وفي الخبز الذي تغمس به طعامك . وفي الصفيحة البعلبكية . وبعد أن تملأ عينيك ونفسك وتستريح تتم الانتقال من بعلبك بالقطار إلى زحلة ، عروس البقاع . هذا صحيح من حيث إنها العروس الكبرى ، لكن البقاع فيه كثير من العرائس الصغيرة .

زحلة وادي العرايش

في زحلة تغدينا في وادي العرايش أو وادي البردوني . وهذه التسمية هي الأصلية لاسم النبع والنهر ؛ لكن وادي العرايش كان تسمية الواقع . فالمقاهي التي كانت تقوم على جوانب الوادي كانت مسقوفة بالقصب وما يشبهه من الأغصان والأوراق . والناس يجلسون على الموائد ليأكلوا الكبّة الزحلاوية المدقوقة بالجرن ، والفروج المشوي على الفحم . وقبل أن يصلوا إلى هذين فهناك كأس العرق الزحلاوي وما يتبعه من

مازة وكان من تمام السرور الأركيلة . نحن اكتفينا بالأكل لأننا لم نكن نشرب يومها . هذا ما كان يقدمه وادي العرائش لزواره ، وهذا هو الوادي الذي أشار إليه شوقي لما قال مخاطباً زحلة .

يا جـــارة الوادي طربت وعـــادني
مـــا يشـبـــه الأحـــلام من ذكـــراك

جزنا البقاع في الثلث الأول من شهر أيلول/ سبتمبر . وأنا لأول مرة أرى ، وأنا واقف على تلة قرب زحلة ، منظراً طبيعياً فيه هذا الجمال الأخّاذ . أذكر أنني دوّنت ليلتها لما وصلنا دمشق بضعة سطور أصف بها شعوري ، لكن الكلمات التي كتبتها وقتها لا أذكرها ، والدفتر ضاع في القدس سنة 1948 . إلا أنني لا أنسى الانطباع . سهل ينبسط أمامي وفيه قطع من الأرض تمثل ألوان الطبيعة كلها - من أخضرها حيث الخضار والأشجار تنمو إلى أحمرها حيث أعدت الأرض للزرع إلى مزيج من الأخضر والأحمر حيث توجد الكروم . وهناك الأرض الصفراء التي يغطيها التبن الذي تبقى في الأرض بعد الحصاد . وبين هذه الألوان الأصلية ألوان تختلط على الرائي لأنها بين بين .

قطار إلى دمشق

وركبنا القطار إلى دمشق . وصلناها مساءً ، وذهبنا إلى فندق متواضع ، ألقينا إليه بأغراضنا القليلة وهمنا الكبير . فقد نفد المال . وأملنا الوحيد ، الذي جاء من جهة درويش ، هو أن نجد أحمد شاكر الكرمي ، الأديب الشاب ، في دمشق . فهو يحل مشكلتنا .

وقد وجدناه في صبيحة اليوم التالي . فحل مشكلتنا ، وكان سبيلنا إلى دمشق الأديبة العالمة . فأحمد شاكر الكرمي هو ابن الشيخ سعيد الكرمي العالم المعروف والذي تولّى منصب قاضي قضاة شرقي الأردن . ولأحمد شاكر إخوة هم محمود وعبد الكريم (أبو سلمى) وحسن ، وكل منهم له في مجال الفكر جولات . فأحمد شاكر ومحمود كانا أديبين وعبد الكريم (أبو سلمى) شاعر كبير وحسن عالم في اللغة

العربية وقاموسي معروف . وله من القواميس - المنار والمغني (الاثنان إنجليزي-عربي) .

أخيراً عدت إلى دمشق لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة ، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة . تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في متنزهاتها ؛ وعدت إليها لأستعيد تلك الذكرى فأستمتع منها بساعات عذاب ؛ وعدت إليها كذلك شاباً ملء بردي رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء أنبائها . عدت وكلّي شوق إلى ذلك ، فبلّت دمشق شوقي وأطفأت حرَّ ظمئي وأشبعت بعض نهمي . فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية وهذه ، إلى جانب تلك ، معالم التاريخ تنادي بأعلى صوتها مشيرة إلى الدور الذي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الإنساني ، فردّدت قول شوقي :

وذكرى عن خواطرها لقلبي
إليك تلفت أبداً وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق!

هذه دمشق تعود إلى العصور المتوغلة في القدم ، مدلة بأنها أعتق مدينة على وجه البسيطة ، استمرّت فيها الحياة منذ إنشائها حتى اليوم! هذه دمشق تنظر إلى سورية الوسطى والجنوبية مدلة بفضلها ، ذاكرة دورها في الدفاع عن أخواتها من مدن تلك الجهات وقراها ، فإن أنكر عليها منكر ذلك ذكرته بأنها منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد كانت دمشق تصد عن بلادنا عادية الأشوريين ، يوم أن كانت أرامية سامية تنقل المتاجر شرقاً وغرباً ، بين البحر الرملي الصحراوي والبحر المتوسط . فإذا عدا عليها أو على جوارها عاد تركت الميزان وحملت السيف ، ورمت الحمل وتنكبت القوس ، وأغلقت السوق وفتحت الحصن . فلا تلبث أن ترد العادية وتبعد المصيبة وتقصي النكبة ، فإذا الناس في سلام وأمن واطمئنان ، فيعود السيف إلى غمده والقوس إلى مأواها والحصن إلى إغلاق أبوابه ، ويعود الميزان والسوق والحمل إلى العمل . لكن دمشق هذه لما تألّب عليها خصومها الأقوياء واستعانوا عليها بالسذج من أعوانها ، واستمالوا إليهم الخائنين من أنصارها ، عجزت عن المقاومة

وقتاً ، فاحتلت ودكت أسوارها وهدمت حصونها وعطلت أسواقها . وكان سقوطها سقوط الجوار كله ، مدناً وقرى ، أسواقاً ومزارع ، مصانع وبساتين . ولما انتبه السذج والخونة إلى ما حاق بهم ندموا ولات ساعة مندم .

وجاء الاسكندر الكبير ، ثم توالى على البلاد خلفاؤه وبعدهم الرومان . وكل من كان له شأن في هذه الجهات أدرك الأثر الذي يمكن دمشق أن تؤثره في الناس والبلاد . فليس من السهل على بلد يشرف على طريق الداخل إلى الساحل ، وتجتمع فيه تجارة العرب من الحجاز إلى نجد إلى العراق ، ويتوسط مركز الاتصال بحمص وحماة وفلسطين وبيروت - ليس من السهل على بلد هذا شأنه أن يهمل . وإمّا أهمل فإنه قائم وفارض إرادته على أصحاب الأمر . وهذا ما حدث مراراً في تاريخ دمشق . تحطم وترغم على الإخلاد إلى السكينة ، ولكن لا يطول بها الزمن . فنشاط أهلها ، ونشاط البلدة الموقع ونشاط الزمن ، كل أولئك يحفزها إلى القيام فتقوم وتفوز بما تريد .

وهكذا فازت دمشق بما تريد أيام كان الرومان يعنون بهذه البلاد .

ثم جاء دمشق من عرف قيمتها قبل أن تفرض هي إرادتها عليه . جاءها معاوية بن أبي سفيان .

فقد اتخذها معاوية عاصمة للدولة الأموية ، وعرفت بذلك دمشق عزاً لا مثيل له . فقد كانت عاصمة لملك يمتد من الهند إلى إسبانيا ، فكانت مقر الخليفة وأمراء الدولة ورجال الحل والعقد . منها كانت تدار الولايات ، وفيها كانت تعقد المشاورات ، وإليها كانت ترفع الشكايات ، وفيها كانت تنظر الظلامات .

وبنى فيها معاوية القبة الخضراء وأنشأ فيها الوليد جامع بني أمية وعقد فيها عبد الملك مجالسه . وتعربت دمشق في عهدهم فصارت العربية لغة شعرها وأدبها ولغة مجلسها وديوانها ولغة سوقها وحاراتها . ذكرت هذا كله وأنا أتنقل بين معالم المدينة الأموية فتذكرت قول شوقي :

لولا دمشق لما كانت طليطلة

ولا زَهت ببني العباس بغدان

في هذه الفترة كانت دمشق تتقدم وتنمو وتزدحم بالسكان ، فتمتد شمالاً ، ويعنى بتوزيع الماء على أجزائها البعيدة . ولذلك نجد نهر يزيد يشق فيها ليوصل الماء

إلى أجزائها ونواحيها الجديدة . وفي هذه الفترة تعود الأسواق الرومانية إلى الظهور ، وهي بعد أوسع نطاقاً وأحفل بالخيرات وأعمر بالمتاجر ، فقيسارياتها كثيرة وأسواقها مليئة . وتستمر هذه الحركة فيها ولو أنها تأخرت قليلاً ، فتصل دمشق إلى عزها التجاري في أيام الأيوبيين والمماليك ، هذا مع أنها ترى سلطانها السياسي ينحسر فيقتصر على سورية الوسطى والجنوبية بعد أن كان يشمل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه . وكأنها عوضت بتجارتها وثروتها بعض ما خسرته من عز وسلطان ، فتراها تفرض صناعاتها على أهل الشرق ومتاجرها على أهل الغرب ، فسيوفها ورماحها وجلودها وحريرها يبتاعه أهل البلاد ، وما فيها من الأفاوية والتوابل والمنتوجات الهندية ينقل منها غرباً . كما أنها استكثرت المدارس والرباطات والزوايا والمستشفيات . فكان لها في ذلك كلّه فضل أي فضل وشرف أي شرف! ونحن واجدون ذلك كلّه واضحاً فيما رواه الرحالون الذين زاروها في تلك العصور . فهذا بنيامين الإسباني ، (القرن الثاني عشر) يقول : «يخترق دمشق نهر أبانا الذي تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها ، في أنابيب كما تنقلها القني إلى الشوارع والأسواق . وتجارتها واسعة ويقيم بها تجار من جميع الأقطار ، وجامعها قلّما يساويه بناء آخر في فخامته» . وهذا ابن جبير يحدثنا عن المدارس والمستشفيات ، فمدارسها عشرون وبها مستشفيان جرايتهما في اليوم ثلاثون ديناراً (أي نحو خمسة عشر ديناراً حديثاً) . والأطباء يبكرون كل يوم فيتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل منهم . والمدرسة التي لفتت نظر ابن جبير هي المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين .

أمّا تجارة دمشق وقيمتها الاقتصادية في تلك العصور ، فقد رسم لها الرحالون صوراً كثيرة لعلّ من أوضحها تلك الصورة الي خلفها لنا فون سوخم (في القرن الرابع عشر) ، فقد قال عنها «دمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر ، وفي كل ناحية منها شيء مبهج . فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلئ والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية وأوروبة . وكل ما يشتهيه المرء يجده فيها . وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق .

وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص بها . وكل صانع يتّخذ أمام بيته مكاناً

يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء . وكذلك يصنع التجار بسلعهم . وكل ما يصنع بدمشق متقن ، والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام بيوتهم . مع أن المدينة مزدحمة بالسكان ، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة ، فليس ثمّة من يذكر أن أحداً قُتل في دمشق . وقلّما تُسرق فيها السلع المعروضة للبيع» .

قلعة دمشق

ولعلّ من أروع الأبنية التي ترجع إلى هذا العهد في دمشق قلعتها . فهي على شكل مستطيل فسيح طوله 220 متراً وعرضه 160 متراً ، لها مدخلان كبيران ويدور بها ثلاثة عشرة برجاً . والقلعة على شكلها الحالي ترجع إلى سنة 1206 ميلادية ، وإن كانت قد بنيت قبل ذلك بمدة يسيرة . وكانت القلعة في ذلك الوقت تشغلها حصون الدفاع ودار صاحب السلطان الخاصة ، وفيها الإيوان الرسمي الكبير والإدارات العسكرية والمدنية وبرج الحمام يأوي إليه الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومخازن السلاح وبيت المال ودار سك النقود والسجن . فهذه القلعة كانت مدينة داخل مدينة .

وفي أيام المماليك صارت دمشق مركزاً لسورية وفيها مقام نائب السلطنة . وعناية المماليك العسكرية بها كبيرة . وتظهر آثارهم في المنشآت العسكرية الكثيرة وفي إنشاء الميادين التي تتطلبها الكثرة المطلقة من الفرسان : فميدان للسباق وميدان للعب بالكرة . وهناك سوق للخيل وللسروجيين وهكذا .

على أن دمشق شقيت بعد هذا الثراء . فقد تناوبتها أحداث أقضت مضاجع أهلها حتى خيف عليها وعلى جاراتها . ففي السنة 1400 ميلادية هاجمها تيمور التتاري وفرض عليها غرامة كبيرة ثم انتزع ألفين من صناعها ومهندسيها وحملهم إلى سمرقند ليبنوا له عاصمته . وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ تحول التجارة عن سورية ومصر إلى طريق جنوب إفريقية ، فقلّت البضائع الواردة إلى دمشق وتناقص عدد البائعين والمشترين . وفي أوائل القرن السادس عشر احتل العثمانيون سورية .

فكان ذلك الانتقال مؤذناً بتغير في حالها .

لكن دمشق قويت على أحداث الدهر ومصائبه . فهي لا تكاد تقع حتى تنهض . وعلى هذا فنحن نجدها في القرن السابع عشر ثم في القرن الثامن عشر تعود إلى ما كانت عليه . فتمتلئ أسواقها وتعمر حوانيتها وتعمل مصانعها ويعود البائعون والمشترون من الشرق ومن الغرب فيتنافسون في سبيل بضائعها .

عدت إلى دمشق ، وقضيت فيها أياماً أستعيد ذكريات الطفولة وأستنطق معالم التاريخ ، فأنبأتني المعالم بالكثير ، ونطقت الآثار بالكثير .

وخرجت من دمشق وأنا أردّد أبيات شوقي :

أليسَتْ دمشق للإسلام ظئرا
ومرضعة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل
ولم يوسم بأزين منه فرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب
وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا
غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام أعلام وعرس
بشائره بأندلس تدق

رحلة إلى القنيطرة

أقيم مهرجان لأبي الفداء الملك المؤرّخ الجغرافي الحموي . أقيم جزء من المهرجان في دمشق ، والثاني في حماة . وقد رتبت للمشاركين في المؤتمر زيارة لمدينة القنيطرة التي كان الجيش السوري قد استعادها في حرب أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1973 .

كانت المدينة قد نسفت جميع بيوتها باستثناء مكتب المحافظ وعدد آخر صغير من المنازل . ولما جاء دفتر تسجيل الخاطرات وتقدمني الزملاء (قسطنطين زريق وحسن

الساعاتي وعبد العزيز الدوري وعمر فروخ) وكتب كل ما كتب ، بدت الحيرة تراودني ما عساي أن أضيف أنا؟

ولما جاء دوري كنت قد حللت المشكلة في ساعتها . كتبت أنشدنا مع شوقي من قبل :

سـلام من صـبـا بـردى أرق
ودمع لا يـكـفـكـف يـا دمـشـق

أما اليوم فإننا نقول :

«سـلام من صـبـا بـردى أرق»
وعـزم لا يـحـطَّمُ يـا دمـشـق

الصعود إلى جبل الشيخ

في سنة 1925 لم نتمكن من شهود شروق الشمس من قمة جبل الشيخ . ولم يتح لنا أن نرى ذلك من قمة جنين . ولم يمكننا أن نصل إلى القرنة السودا أو ضهر القضيب قمة جبال الأرز ، وأعلى جبل في بلاد الشام .

في سنة 1935 جئت لبنان ثانية . كانت محطتي الأولى جزين ومن هناك زرت الزميل الكريم (في عكا الثانوية) المرحوم سامي أمين العيد في بعقلين . انتقلنا من هناك إلى راشيا بالسيارة ثم تسلقنا جبل الشيخ ليلا لنشاهد شروق الشمس من قمته . هذا الوصف منقول من كتابي «صور من التاريخ العربي» ، القاهرة ، دار المعارف سنة 1946 ص 88 - 96 .

تسلقت سنتها جبال الأرز إلى القرنة السودا أو ظهر القضيب . سرنا في الرابعة صباحا من فندق في الأرز ، وعدنا بعد سير دام نحو 12 ساعة (طبعا على الأقدام) . وبذلك سددت فاتورة سنة 1925 .

أمنية جاشت في نفسي منذ أن كنت يافعاً - هي أن أصل إلى قمة جبل الشيخ . فقد رأيت الجبل الكبير ، رابضاً على أطراف السهول الواسعة لأول مرة ، إذ كنت مسافراً من دمشق إلى حيفا ، فألهاني منظره عن الأراضي الفسيحة التي يجتازها

المسافر، وشغلتني رؤيته عن كل ما عداه، فملأ نفسي رهبة وأشاع فيها خشية الشيء العظيم الأبي، ورغبت في أن أرقاه. وكنت أينما سرت في مرتفعات هذه البلاد، يبدو لي جبل الشيخ يدعوني لارتقائه، وكأنه يتحداني. وكل مرة كنت أسمع فيها دعوته، كنت ألبي نداءه وأعده بالذهاب، حتى تمَّ لي ذلك مرتين. فتسلقت جبل الشيخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متباينين وعرفت لذة الوصول إلى القمة، وأدركت معنى الاستمتاع بالأفق الواسع يشرف منه المرء على الأمور إشرافاً كلياً، فتغيب الجزئيات والصغائر أمام الكليات والعظائم.

كان اليوم أحد أيام النصف الأول من شهر آب/أغسطس وكان الحرُّ شديداً، سيَّما وأن الليلة السابقة قضيناها أنا ودرويش المقدادي في الخالصة شمالي بحيرة الحولة في غور الأردن. وكانت الشمس قد ملأت الأفق، لما اتخذنا طريقنا - أنا وصديق- من الخالصة إلى جباتا الزيت. كانت طريقنا تمر في بقعة من أجمل بقاع بلادنا، إذ كان علينا أن نجتاز المنطقة التي تقطعها روافد الأردن. وكان تل القاضي أجمل هذه الينابيع وأولها في طريقنا. فقد وصلنا إليه قبل الظهر، فأشرفنا على تلة، لعلَّ طولها لا يتجاوز الثلاثين من الأمتار، ولا تكاد ترتفع عشرين متراً، تكسوها الأشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوي، يشق طريقه من أحشاء الأرض ويبري الجنادل في سيره، ويملأ الجو صوتاً موسيقياً، ويملأ النفس لذة وسروراً. ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالة من القداسة، فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدم أحدهم فيروي لك في كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصة لذلك، فإذا الأوتاد تنبت شجراً كريماً، وإذا الشجرات العشر تبقى إلى يوم الناس هذا.

وإن ساعة وبعض الساعة من المشي لتنقلنا إلى بانياس، فنجتاز في طريقنا أرضاً خصبة جميلة، مكسوة بالأشجار، ونعبر النهر على بقية صالحة من جسر روماني، فنصل إلى غار كبير - بعض أجزائه حمراء. ومن صدر الغار يخرج نهر كامل العدة والصورة. وإذ تقف داخل الغار: فترى هذه الولادة العجيبة، وتمتع نفسك بهذا الجمال الفذ، وتستروح معنى هذا الانبعاث، تفهم السر في أن الأقدمين قدسوا هذا المكان

وباركوه وعزوا إليه قوة خارقة . فعبد الساميون القدماء فيه آلهة الماء الجارية تحت الأرض ، وكرسه اليونان للإله بان وإلهات السحر الجميلة . ومن «بان» اشتقت المدينة والمنطقة اسمها ، واحتفظت به ، رغم أن كل حاكم أقام هناك حاول أن يغير المدينة ويسميها باسمه . لكن الأيام حفظت اسم الإله الجميل ، واستغنت عن أسماء الحكام . ولم يكتفِ «بان» بطبع المكان بطابع الاسم ، لكن أثره تعدى ذلك إلى النقود التي سكَّت هناك ، فظهرت صورته عليها ، يحمل نايه يغني الأغنية التي تبقى بعد أن تفنى الحياة .

وبانياس اليوم قرية ، قد لا يتجاوز عدد سكانها الألف ، لكنها كانت في أيام الرومان والعرب مدينة كبيرة ، تتركز فيها الحياة التجارية والزراعية والإدارية للمنطقة كلها . وقد أعجبت ابن جبير إذ مرَّ بها في طريقه من دمشق إلى عكا فقال فيها : «هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين (وهي صغيرة) ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها . . . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين» .

على أن القلعة الرئيسية التي تحمي المنطقة منذ أقدم الأزمنة لم تكن قلعة بانياس نفسها ، ولكنها قلعة الصبيبة التي تقع على مسير نحو ساعة إلى الشرق من بانياس . هذه القلعة ، على ما تظهر مما تبقى منها قائماً إلى الآن ، أكثرها من نتاج العصر الصليبي ، وعليها نقش يرجع إلى أيام الملك العادل . وتقع القلعة على مرتفع من الأرض يمكن الواقف في أعلاها من رؤية قلعة الشقيف (أرنون) وهونين غرباً ، وسهل الحولة وقراه غرباً في جنوب ، وجباتا الزيت شرقاً . وقد أطلقت الأسطورة المحلية ، منذ زمن قديم ، على القلعة اسم قلعة نمرود . ذلك لأن ضخامة الحجارة ، وعظم البناء ، وارتفاع الأبراج ، وحصانة الأسوار – كل أولئك أقنع الناس من أجيال أن هذه القلعة من بناء الجبابرة القدماء لا من عمل الإنسان ، فنسبوها إلى بطل الجبابرة نمرود .

أليس في هذه الأماكن متعة تهيئ المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء في جباتا الزيت ، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوط لها في الأفق؟ وتقضي بعض المساء في تحدث عن رحلة الغد . نعم إلى قمَّة جبل الشيخ الواقعة جباتا على طرفه الجنوبي . إن حلم الصبي على وشك أن يتحقَّقَ . ويتقدم القوم المجتمعون محاولين

إقناعنا بالعدول . فالطريق صعب المرتقى والمسافة طويلة ، والماء نزر ، ولا سبيل إلى الحصول على دليل يرافقنا . ويرى مضيفنا أننا نسمع كلامه وكلام رجاله ، دون أن نقبل نصحهم ، ويتأكد من أننا لا بدَّ صاعدان . فيهيئ لنا كل ما نحتاج ، فثمة دليلان بدل الواحد ، وكل منهما يأتي ببغلته معه ، على سبيل الاحتياط . والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كل من الدليلين دابته وسارا يرشداننا إلى الطريق . وهذا مضيفنا الكريم يعد لنا زاداً كثيراً ، وماء نحمله في تنكتين ، فقد لا نجد عند القمَّة ثلجاً نذيبه ، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكراً تلك السنة ، ولعلَّه زال كله عن الجبل ، وهذا ما لقيناه فعلاً .

كانت الساعة الرابعة صباحاً لما خرجنا من جباتا . وإن أنسَ لا أنسَ مختار القرية ، وقد رآنا نخرج منها ، إذ لحق بنا يحاول في آخر لحظة أن يثنينا عن عزمنا . لقد أقسم بوجود الخطر ، ولما يئس منا ، بعد أن سايرنا مسافة طويلة ، أشهد الفلاحين علينا أنه براء من دمنا ، إذا مسنا ضر ، فقد أنذرنا ولم نلتفت له ، وتركناه صاخباً .

سرنا بين كروم العنب أولاً ، لكن هذه لم تلبث أن انقطعت . واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمص الأخضر ، حتى وصلنا «مرج أبو عبد الله» ، وهو آخر الجزء الذي يزرع ، ولم نر بعد ذلك إلا بقية أعشاب ترعاها الماشية ، التي تصطاف هناك مع رعاتها ، وترتوي من نبعة «معنون» الباردة . على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتحل محلها نباتات شائكة ذات رائحة زكية .

بعد عشر ساعات من السير وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ ، على قصر عنتر أو شيبوب ، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرس لبعل حرمون . وإن كان الهيكل القديم رمز العبادة الإلهية ، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة ، فعلى قمة جبل الشيخ أثر صغير هو رمز الآمال العربية . فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة المغفور له فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكاً لسورية .

ولجبل الشيخ ثلاث قمم - قصر عنتر في الجنوب ، وأخرى في الشمال ، وهما متساويتان في الارتفاع البالغ 2753 متراً ، أمَّا الثالثة فتقع في الغرب ، وتنخفض عنهما قليلاً . وامتداد جبل الشيخ العام من الشمال الشرقي إلى الجنوبي الغربي ، وطوله يتجاوز الثلاثين من الكيلومترات .

أمّا المرة الثانية فقد كان صعودي جبل الشيخ من راشيا ، من الغرب . بدأنا السير في العاشرة مساء ، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا ، فقد أنبئنا أن البرد يكون في الصبح شديداً . كانت الليلة هادئة ، وكان القمر بدراً أو يكاد ، وكانت النفس مطمئنة ، وكانت السفرة مهيّأة ، وأراد الله أن يتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت . ولم نكد نلتحف الوادي ، ونطمئن إلى أننا في الطريق الصحيح ، حتى أخذت صاحبنا فورة من الطرب ، فانطلق يغني غناءه الجبلي القوي العذب ، وأخذ الوادي يردد صدى غنائه ، فيبعث في نفوسنا رهبة الجبل العظيم ، وسرور الطبيعة ، وأمل الليل البهيم (فعتّب) صاحبنا ما شاء له الهوى ، (وميجن) ما شاءت له الذكرى ، (ودلعن) ما هاجه غرامه ، وهو في كل ذلك جذلان طرب ، ونحن معه جذلان طَرِبان .

إنها قرابة خمس ساعات ، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل . وإذا بالطبيعة تقدم لنا كهفاً يأوي إليه صديقي والدليل ، فيعطيان جسدهما حقّهما من الراحة ، وأبى أنا على نفسي ذلك . لقد خشيت إن أنا استلقيت أيضاً أن تأخذنا كلنا سنة من النوم ، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة . لقد كنت ضنيناً بأن أضيع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل الذي تتعاقب عليه السنون ، فلا تبلى جدته ، ولا تزيل أثره . أبيت على نفسي أن أعطي جسدي حقه ، وقمت بدور الحارس . فلما حسبت أنهما اكتفيا ، أيقظتهما ، وتابعنا السير . ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على قصر عنتر ، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية . ولكن هذه المرة في آخر الليل ، وكانت المرة الأولى في وضح النهار .

الجمال الفاتن

ولست أشك ، بعد أن وقفت على قمّة أكثر الجبال المرتفعة في لبنان وفلسطين وسورية ، إن ما يراه المرء من قمّة جبل الشيخ أوسع من كل ما يُرى من أي جبل آخر . وتنوع المناظر التي تجتليها العين من قمّته لا يتيسر في مكان آخر . فأنت إذ تقف على قمّة الجبل - على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون - وتمد ببصرك

حولك ، تستجلي عينك آفاقاً مترامية ، وأبعاداً شاسعة : ففي الغرب يخيل إليك أن البحر ، بين جبل الكرمل وصور ، يرتمي عند موطئ قدميك ، وترى وادي نهر القاسمية يمتد أمامك كأنه يرشد نظرك إلى مغاني الجمال الفاتن . وهذا الوادي نفسه يريك حداً فاصلاً بين لبنان الجنوبي وجبال الجليل ، التي تحمي الحولة وطبرية وسهليهما من المكروه ، فإذا صوبت نظرك في اتجاه الشمال رأيت الجبل الشرقي . أما في الشمال الشرقي فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية . وثمة اللجاة ذات الصخور النارية ، وحوران وسهوله الخصبة . وفي الجنوب الشرقي الجولان وفوهاته البركانية . أليس في هذا الاتساع والعلو ما يحملك على احترام شيخ الجبال وسيدها ، والاطمئنان إلى العزيمة التي تخلفها في نفسك الإقامة فوقه ساعات ، قلت أو كثرت!

على أن كل هذا الذي ذكرت لا يعدو جزءاً صغيراً من الحقيقة كما تلمس هناك والتي لا سبيل لي إلى وصفها .

بل إن هناك منظراً آخر ينقل ناظره إلى جنات من الخيال ويحمله على أجنحة من الإعجاب لا يستطيع أن يدركها إلا من حمل نفسه مؤونة تسلق جبل الشيخ .

كان الليل لا يزال يرخي سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلنا في المرة الثانية . وكان القمر رفيقاً بنا في سيرنا ، لكنّه ازداد بنا رفقاً لما وصلنا ، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخبئ القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذة . واختفى دون إنذار أو تحذير ، حتى كدنا نتعثر في سيرنا في الجزء الأخير من القمة العنترية . وما استقرَّ بنا المقام حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا واتجهنا نحو الشرق نرتقب الجمال والضياء .

ولم يطل انتظارنا . بدت تباشير النور في أشعة فضية باهية ، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد ، فبدا كله مفضَّضاً ، ثم استحالت فضته ذهباً يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء ، فبدا كل شيء موشّى بنورها ملتحفاً بضيائها وشعرت آنئذ أن الحياة انبعثت في كل ما يرى ، من جديد ، فظباء الفلاة أخذت تتلفت نحو مصدر الحياة السماوي ، ورمال الصحراء أخذت ترقص طرباً

وحبوراً ، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم ، ووجهت وجهها نحو الشمس وحنت رؤوسها إجلالاً لها . ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء فملأت فراغه ، وأشاعت فيه امتلاء روحياً . ووقفت في مكاني مشدوهاً لا أتحرّك ولا أتلفّت ، حتى كأنني أصبحت جزءاً من جبل الشيخ . وعندها سرت في نفسي شرارة من عزيمته وثباته ، فرأيتني أحس بقوة ونشاط عجيبين . وطال استمتاعي بالمنظر الخلاب ، تتبدل فيه الألوان دقيقة بعد دقيقة ، وتتوالى فيه الصور مع تبدل الألوان ، حتى صاح صديقي «انظر» . فتلفت إلى حيث أشار فرأيت ظل جبل الشيخ مبسوطاً على سهل البقاع والجبال الواقعة إلى الغرب منه ، ثم رأيت هذا الظل المديد يتقلص تباعاً لارتفاع الشمس في الشرق .

وهكذا تمّت أمنيتي مرتين ، فعرفت جبل الشيخ . وانحدرت منه مرّة في الليل وأخرى في النهار . فالمرّةُ الأولى كان نزولنا في وادي جنعم الحجري الملتوي ، وطال سيرنا فصرفنا أربع ساعات هبوطاً حتى وصلنا شبعا . وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعا ، لكن الظلام كان حالكاً فلم نتبين منها شيئاً . وأي لذة شعرنا بها ، وأي سرور شملنا ، لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمرَّ عشر ساعات ، وهبوط استمرَّ أربع ساعات وكانت غايتنا في السير قمّة جبل الشيخ .

الهبوط والمرور بوادي التيم

أمّا هبوط النهار فكان عوداً إلى راشيا . وأطبق دليلنا فما يحدث ولا يغني . ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار ، ومن رأى شروق الشمس من قمّة جبل على بادية الشام يطبق جفنيه لتنطبع هذه الصورة في ذهنه . وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم ، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي كأنّها وليدة صباحي هذا .

ونحن في انتقالنا من شبعا إلى حاصبيا نجتاز وادي التيم من شرقه إلى غربه ، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة ، ونمر بقرية الهبارية ، القرية التي استغرب أهلها زينا ، وكنّا نرتدي السراويل القصيرة ، وسألونا إن كنّا جنوداً فارّين أو بائعي حكمة (أي عقاقير) . وأهل الهبارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشئ

ببلدهم . فقد نقشوا عليه «وجعلنا من الماء كل شيء حي . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . حبذا أهالي الهبارية وحبذا سعيهم المأثور وثباتهم المشكور . بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس فباءوا بنجاح باه باهر أجرى عليهم ماء سلسبيلاً وشراباً طهوراً فاشرب أيها الوارد وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قدري بك الذي بفضل همته الشماء تسنّى جر هذا الماء لهذا البلد الطيب فأحيا الزرع والضرع . وهذا من بعض آثاره الكريمة حياه الله وبياه سنة 1331» .

وأنت لو انحدرت إلى الشرق من جبل الشيخ لهبطت إلى الطريق الموصلة بين دمشق وبيت جن الشامية ، وهي الطريق التي اجتازها ابن جبير .

هذا ، أيها القارئ الكريم ، جبل الشيخ . وإن زيارته لأمر حري بأن يقوم بها كل عربي ليرى كيف يثبت الشيخ على عوادي الدهر ، لعلنا نتعلم منه درساً في الحياة .

رحلتان إلى القاهرة

1934-1933

من حيفا إلى الإسكندرية

قررنا ، نحن أصدقاء ثلاثة ، ميشيل خمار واميل عصفور وأنا ، أن نقضي عطلة الشتاء ، أي عطلة الميلاد ، للسنة 1933 - 1934 في مصر . أعدَدْنا كل ما نحتاج وأهمه أمران : جواز السفر مع تأشيرة دخول إلى مصر والنقود . أما الثياب فأمر ثانوي . فنحن ذاهبون للنزهة وليس أمامنا لا استقبالات ولا حفلات . فضلاً عن ذلك فإننا كنا نعرف - على الأقل أنا كنت أعرف - أنك تستطيع أن تبتاع في مصر قمصاناً أنيقة الصنع وأحذية جيدة بأسعار معقولة جداً . وكنت أنا أنوي أن أفعل ذلك .

ركبنا القطار من حيفا ، وهو القطار الذي يحملنا رأساً إلى القنطرة على قناة السويس . كان أمامنا سبيل آخر للسفر ، وهو السفر البحري من حيفا إلى الإسكندرية . لكن نحن ، كموظفين في الحكومة ، كنّا نحصل على تذكرة سفر مجانية من حيفا إلى القنطرة ، ويتبقى علينا أن ندفع إما سبعة وثلاثين قرشاً ونصف القرش ثمن تذكرة درجة ثانية أو ثلاثة وخمسين قرشاً ثمن تذكرة درجة أولى . وقد نصحنا الذين جربوا ذلك قبلنا أن ندفع المبلغ الأكبر . وتمّ ذلك بناء على إصراري .

حوالي الساعة الثانية بعد الظهر كان القطار قد اجتاز المناطق التي يمكن أن تقع العينُ فيها على بساتين أو بقع خضراء هنا وهناك ، وأخذنا نمتّعُ أنفسنا بالأرض الرملية المتحركة سطحاً مع هبوب الريح ، أو حتى مع حركة الهواء أحياناً ، إلا أن تباغتنا مجموعات من شجر النخيل ، تكبر أو تصغر على نحو ما تسمح لها التربة والمياه .

وكانت أكبرها عند العريش . ولا غرابة في هذا الذي نراه ، فنحن نقطع الجزء الشمالي من صحراء سيناء من الشرق إلى الغرب .

ركاب القطار مختلفون في تصرفهم . فئات استطاعت أن تقطع الوقت في حديث، أنا واثق أنه كان خالياً إلا من اللفظ والصوت . وفئات أخرى احتالت على الوقت فقطعته بالنوم . وجماعات تثاءبت عن وقت فاتها لم تتثاءب فيه . وفريق أو أكثر لعب الورق . وكان هناك أفراد يقرؤون . وصاحباي شاركا الركاب الآخرين في كل ما فعلوا . تحدثا (وأنا أحياناً معهم) ما شاء لهما ذلك . وأغفلا بعض الوقت ، وتثاءبا كثيراً ، وقرأا قليلاً . ولكن الشيء الذي غلب عليهما ، في هذا الجزء الصحراوي من الطريق ، هو التذمر . القطار بطيء ، الطريق طويل ، متى نصل . وأنا شاركتهما الحديث ، وأحسب أنني غفوت إغفاءتي التي ألفتها منذ سنوات طويلة بعد الغداء . ولكنني كنت عودت نفسي ، منذ مدة طويلة أيضاً ، أن أستعيض عن التذمر بالتفكير . وما أكثر ما يمكن أن يقوم به الواحد إذا استطاع أن يوجه نفسه نحو التفكير بدل التذمر . لكن الغالب على الناس أن يتبعوا الطريق الأسهل ، والتذمر هو الأسهل من الطريقين .

وأخيراً وصلنا القنطرة الشرقية . القنطرة الشرقية في مصر . ونكون قد أجزنا ساعات ونحن في الأراضي المصرية قبل أن نبلغها . لكن جوازات السفر تفحص في القنطرة الشرقية ، وفيها يتم التفتيش الجمركي أيضا . والمهم هو أن الموظفين الذين كانوا يقومون بالتفتيش الجمركي كانوا هم موظفي الجمرك المصري . فكانوا يقومون بالعمل نيابة عن مصر للقطار الآتي من حيفا ، ويقومون بالعمل نيابة عن الجمرك الفلسطيني بالنسبة للقطار العائد إلى حيفا .

أنزلنا من القطار لإجراء الفحصين في الجمرك وعن جواز السفر ثم نقلنا على معدية عبر قناة السويس إلى القنطرة الغربية حيث ركبنا القطار الذي أقلنا إلى القاهرة ، فوصلناها حوالي الحادية عشرة مساء ، أي بعد نحو خمس عشرة ساعة في القطار .

ولقينا في محطة القاهرة محمد رفيق اللبابيدي وأكرم الخالدي ومحمد علي الخياط ، وهم تلاميذ من عكا كانوا يدرسون في مختلف المعاهد المصرية ، لكن أكرم الخالدي كان يعمل في الصحافة أيضا . وكانوا قد أعدوا لنا فندقاً ، انتقلنا منه إلى آخر في اليوم التالي .

نزلنا في فندق استقلال هاوس أو إيدن روك (لا علاقة للتسمية بإيدن السياسي

البريطاني) في رقم 5 شارع فؤاد الأول ، الذي أصبح اسمه شارع 26 آب/أغسطس فيما بعد . كنّا ندفع خمسة عشر قرشاً عن الشخص الواحد لليلة الواحدة ، وأعفانا المدير من إضافة الخدمة المئوية لأننا كنّا ثلاثة .

هذه هي المدينة

في القاهرة رأيت مدينة لأول مرة . القدس ودمشق وحلب وبيروت بدت لي قرى كبيرة جداً بالنسبة إلى هذه المدينة . ففيها عرفت لأول مرة المخازن ذات الطوابق المتعددة ، صيدناوي ، شيكوريل ، عدس ، عمر أفندي مثلاً . فيها رأيت لأول مرة المخزن الكبير الذي يمكنك أن تدخل إليه ومعك الفلوس اللازمة ، فتخرج منه وقد ابتعت كل ما يلزم لعروسك من جهاز . هناك دخلت المخزن الكبير الواحد الذي يمكنك من تأثيث منزلك بأفخر الرياش وأجمل الأثاث مع ما قد تشتهيه من لوحات وما إلى ذلك .

في القاهرة عرفت ، لأول مرة ، شارعاً واحداً اسمه عماد الدين فيه دور للتمثيل وصالات الغناء وقاعات للسينما ، وبارات وحانات ومطاعم بحيث يمكنك ، إذ أردت ، أن تشاهد أكبر الممثلين ليلة بعد أخرى دون أن تبتعد عن الشارع .

في القاهرة عرفت معنى المتحف - المتحف المصري ودار الآثار الإسلامية والمتحف القبطي . وفي القاهرة رأيت إحدى المحاولات الأولى للإفادة من فن العمارة العربية لبناء مؤسسة كبيرة حديثة في محطة سكة الحديد الرئيسية في باب الحديد .

وهذا الذي ذكرته شيء قليل . أنا باختصار بهرتني القاهرة المدينة ، وبهرتني القاهرة الجميلة بشوارعها العريضة ، بقصورها الفخمة ، بدار الأوبرا التي بُنيت كي تمثل فيها أوبرا عايدة سنة 1869 لمناسبة افتتاح قناة السويس . ولم تمثل هذه الأوبرا بالذات لأن فيردي ، صاحب الأوبرا ، فَقَدَ أعصابه في آخر لحظة وأبى ركوب البحر إلى مصر ، وأعطى النوتة والنص لمن يريد أن يقوم بالعمل ، ولكن من يستطيع أن يقوم بذلك مكان فيردي . وقد مثلت أوبرا عايدة لأول مرة في مصر سنة 1988 وفي الأقصر - طيبة القديمة .

ذهبنا لزيارة الأهرام . ورغبت في الصعود إلى قمّة الهرم الأكبر ، وحاول صاحباي أن يثنياني عن عزمي بحجّة أنه ليس ثمّة طريق معروف ، وأن القضية لا تعدو التعلق من حجر إلى حجر . لكنني كنت مصراً ، فانتظراني تحت فيما أذكر . وقد كتبت فيما بعد ذلك بسنوات ما يلي :

«وقفت على قمّة هرم الجيزة الأكبر ، وألقيتُ بنظرة إلى ما انبسط أمامي ، فرأيت دنيا تآمرت الطبيعة والإنسان على إقامتها وتزويقها وزخرفتها . فقد حباها الله بماء النيل الذي يحيي الأرض ويبعث فيها الروح والريحان ، ومكن للإنسان أن ينقل هذا الماء إلى أمكنة متعدّدة . لكن حيث يقف الماء تبدأ الصحراء . وهكذا فقد رأيت خطاً يفصل اللون الأصفر عن اللون الأخضر ، دون أن يكون بين اللونين خلافٌ أو بين الأرضين شقاق .

وخلف هذه الأرض الصفراء والحقول الخضراء انساب نهر لمعت مياهه في شمس الأصيل ، فكانت كأنها عصى موسى جاءت تأكل السحر والساحر . فتلوّت لاحقة بهم ، وتعوّج سيرُها تبعاً لذلك ، فغُشَّ بها الناسُ فظنوها حية تسعى ، وما هي إلا الخير والبركة .

ورأيت يومها أمامي ، على شيء من البعد ، جبل المقطم ، الذي تسلقته إلى القمة أيضاً بعد بضعة أيام ، وكانت تعلوه قلعة للحراسة ومسجد للعبادة . وبين «المقطم» و«الأهرام» نشر التاريخ أمجاده ، التليد منها والطريف : فثمّة عفيس وأبو هولها وأهرامها ؛ وهناك مصر العتيقة التي وجدها العرب يوم فتحوا مصر وكنيستها الكبرى ماري جرجس ، وعلى مقربة منها جامع عمرو بن العاص حيث قامت الفسطاط ؛ وهناك القطائع والعسكر ثم القاهرة المعزية ، والمنائر تزين الأفق ، والأزهر يؤوي العلم ، وجامع السلطان حسن يقف أمامك كأنه قلعة للفن . وقد رأيت هذا المنظر بعد ذلك مرات من الطائرة ، لكن قمّة الهرم ورأس المقطم أثبت للرائي ، وأكثر عوناً للمتأمل ، وأرحب فسحة لصاحب الأمل» .

أحسب أن اهتمامي بالمدينة العربية الإسلامية وتتبعي لتطورها وتخطيطها

ومعاهدها ومؤسساتها وارتباطها بنمط الدولة والمركز التجاري والطريق الدولي – كل هذه أمور تعود في نفسي في جذورها إلى الأثر الذي تركته القاهرة في نفسي ، من حيث إنها مدينة ، ومن حيث أنك ، حتى في سنة 1933 ، كنت تستطيع أن تتابع تطورها من الفسطاط إلى قاهرة محمد علي : المناطق المتميزة ، والعمارة الواضحة خطوطها . يومها ، لما عدت إلى عكا وسئلت أجبت كثيراً وقلت كثيراً عن انطباعاتي ، لكن الشيء الذي اعتبرته تعبيراً صحيحاً عن شعوري هو أن القاهرة ، والقاهرة المملوكية خاصة ، هي متحف ممتاز للفن العربي الإسلامي . قلت هذا إذ أنني ، بعد أن عاد صاحباي قبلي إلى عكا ، انصرفت إلى زيارة مساجد القاهرة ، فزرت في تلك الرحلة نحو خمسين منها ، وفي الرحلة الثانية ، وقد جاءت في السنة التالية ، زرت ما يزيد عن ثلاثين مسجداً غيرها .

ناس القاهرة

لا يحسبن أحد أنني عندما أزور بلداً أقضي وقتي بين حجارته وآثاره! لا . أنا ألقي بالي للناس وألقيه بوسائل مختلفة . وفي القاهرة كان هناك فئة من الناس هم قادة الحركة الفكرية والأدبية في مصر والعالم العربي . ومصر ، إلى ذلك ، مركز الحركة السياسية . فكان لا بدّ من العمل على لقائهم .

كان أول من تعرفت إليه شخصياً المرحوم الدكتور فؤاد صرّوف ، رئيس تحرير المقتطف . أقول شخصياً لأنني كنت قد راسلته وكان قد نشر لي مقالات في المقتطف (سنتي 1930 و 1931) . وقد كان نشر هذه المقالات انطلاقة هامة بالنسبة لي . وكانت من المؤسسات النشيطة في المجال الفكري في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والمجلّةُ التي كانت تصدرها عنها وهي «الرسالة» كانت واحدة من الصحف التي أخذنا عنها الكثير من أفكارنا .

كان بين هذه الجماعة أسماء لامعة . وعرفنا أن اللجنة ، بمن حضر من أعضائها وضيوفهم أو ضيوفها ، يجتمعون مساء كل خميس في دار اللجنة رقم 19 شارع الكرداسة ، للتحدث في شؤون العلم والأدب والفكر . «فَطَبَّبْنا» على الجماعة .

وكانت مكافأتنا استقبالاً حاراً، ولقاء أحر، وحديثاً ممتعاً مفيداً. وقد أعدت الكرة ثانية قبل عودتي إلى عكا. وفي السنة التالية زرت الجماعة أيضاً. في هذه الاجتماعات توطدت صداقة بيني وبين عدد من أعضاء اللجنة الذين انتقل أكثرهم إلى رحمة الله. منهم الأساتذة أحمد أمين ومحمد عوض محمد وأحمد حسن الزيّات وعبد الحميد العبادي وأحمد زكي ومصطفى زيادة.

ورافقنا أكرم الخالدي في زيارة لمكرم عبيد، سكرتير حزب الوفد المصري يومها. زرناه في بيته. وتحدثنا - أو على الأصح تحدث هو - كثيراً ومما قاله يومها: «قبل سنتين كما تعرفون زرت بلاد الشام. لما جاءت الدعوة قبلتها، ولما دنا موعد السفر قلت لنفسي عن أي شيء يمكن أن أتحدث إلى هؤلاء الشوام (وهو الاسم الذي يطلق في مصر على الآتين من لبنان وسوريا وفلسطين والأردن). تساءلت وطال تساؤلي وأخيراً قلت: يلا كلمتين على الماشي. لكنّني وجدت نفسي، لما وصلت القدس وفي ما تلا من الزيارات، أتعلم منكم. نعم تعلمت منكم. هذا دليل على جهلنا حتى شؤون جيراننا!».

كان هتلر قد ملأ الدنيا و«طرش» الناس بدعاياته؛ والمهم أن حزبه كان له برنامج اجتماعي اقتصادي تربوي سياسي مفصل، هو برنامج هتلر نفسه. فاغتنمت الفرصة وسألت مكرم عبيد فيما إذا كان للوفد المصري مثل هذا البرنامج: فكان جوابه: لا، المهم الحصول على الاستقلال، والأمور الأخرى تأتي حالاً وبالطبيعة.

كان محمد رفيق اللبابيدي طالباً بدار العلوم (التي أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر معهداً مستقلاً، وضُمَّتْ في الأربعينات إلى جامعة القاهرة)، فكان بطبيعة الحال يحضر بعض المحاضرات في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وفي أحد الايام استأذن لي أستاذه في أن أحضر محاضرته. وكم كانت دهشتي لما دخلت القاعة الصغيرة فإذا بالأستاذ المحاضر هو الشيخ مصطفى عبد الرازق. لقد مرَّ على هذه الحادثة خمس وخمسون سنة (فأنا أكتب هذا سنة 1988) ومع ذلك فصورة مصطفى لا تزال ماثلة أمامي في زيّه الأنيق ولفظه الدقيق ومعناه الرقيق وأدائه السوي. وبدا لي أن القاهرة لا تكفي. فمن يضمن لي أن أعود إلى مصر وأتمكّن من زيارة الأقصر وفيها الكرنك وقبر توت عنخ آمون، الذي كان قد اكتشف قبل ما يزيد على عقد من

السنين ، والذي، قال فيه شوقي قصيدته المشهورة ومطلعها :

درجت على الكنز القرون
وأتت على الدنّ السنون

رحلة إلى الأقصر

وكانت الحكومة المصرية قد هيّأت شيئاً سمّته قطار الآثار . كان يخرج من القاهرة يوم الجمعة الساعة الثامنة مساء فيصل الأقصر الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، يقضي الزوار يومين في المنطقة ويعودون مساء الأحد ليصلوا القاهرة في الوقت المناسب للذهاب لأعمالهم . واقتنع صاحباي على مضض ، بالذهاب معي . وابتعنا التذاكر الثلاث وثمن الواحدة مئة وثمانون قرشاً مصرياً يدخل فيها أجرة السفر وثمن الأكل ليومي السبت والأحد ورسوم الدخول إلى الأماكن الأثرية والتنقل فيما بينها .

وزرنا الدير البحري وقبر توت عنخ أمون والكرنك . وقضينا ليلة في الأقصر نمنا فيها في القطار على الطريقة التي نمنا فيها في السفر . ولم يندم صاحباي . لكنّهما رفضا أن يرافقاني لقضاء ليلة رأس السنة 1933 - 1934 في ونتر بالاس في الأقصر ، طيبة القديمة . ولم يمنعني ذلك التصرف من الاستمتاع بتلك الليلة .

زيارة شيخ العروبة

وكان ينبغي علينا ، بوصفنا عرباً وضيوف مصر ، أن نزور شيخ العروبة أحمد زكي باشا .لست أحسب أن الرجل كان يغضب علينا «شخصياً» فيما لو لم نزره . لكن نحن ، وأنا على الأقل ، كنت لا شك أغضب على نفسي . أحمد زكي باشا كان صديقاً لعبد الله مخلص ، وأغلب ظني أنها كانت صداقة مراسلة ، لكنّها كانت عميقة قوية . فالرجلان عالمان ، وأحمد زكي نشر الجزء الأول من كتاب التعريف لابن فضل الله العُمَري ، وكان في عمله قد قدم لنا خدمة كبيرة .

وعلى كلٍّ فلا بدّ من زيارة شيخ العروبة . وشيخ العروبة لا يستأذن في الزيارة ولا

يُتْعَد . بيته مفتوح للزوار في أوقات معينة . لذلك طببنا عليه ، كما طببنا على لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولقينا الترحيب والتأهيل ، ولما أبلغته تحية عبد الله مخلص خصّني بقبلة ثانية عن صديقه ولصديقه .

وكان من الطبيعي ، بعد هذه الزيارة ، أن ندعى لتناول الطعام في منزله . والغالب على الدعوة في فصل السياحة والزيارة في مصر ، في الشتاء ، أن تكون للعشاء . فالرجل يعرف أن الحديث يحلو ويمكن أن يطول إذا كان فيه متعة ، بعد العشاء . أمّا بعد الغداء فالغالب على الناس أن يتثاءبوا ، كما لو كانوا في القطار . ولم تكن القضية قبول الدعوة أو الاعتذار عنها . أحمد زكي باشا كان يقول ننتظركم غداً مساء . فإذا كان الغد لا يصلح ، لسبب ما ، فعندها يختار الزائر اليوم الذي يحب .

قبلنا الدعوة ، لكن صديقيّ قرّرا –يوم الدعوة– عدم الذهاب . وحسبا أنني سأوافق على تصرّفهما وأمتنع عن الذهاب . لا . لم يذهبا ، لكنّني ذهبت أنا . وكان اعتذاري أن أحدهما مريض وكان لا بدّ لواحد منّا أن يبقى معه . وقد اختار الآخر أن يقوم بذلك ، وأن يعطيني مجال هذا الشرف . وكانت ليلة من ليالي العمر .

لم يكن يومها كثيرون من العاملين في مجال الفكر أو حتى في مجال السياسة في مصر ، يعرفون ما فيه الكفاية عن قضية فلسطين وما يجري فيها . لكن أحمد زكي باشا – شيخ العروبة– كان يعرف . لذلك كان كله آذاناً لما حدثته عن إعدام الأبطال الثلاثة الذين حكم عليهم لمناسبة حادثة البراق (حائط المبكى) . هذه الحادثة ذكرت عنها ما يكفي قبلاً ، لكن وصفها لأحمد زكي باشا ، وقد حدثت في عكا وأنا فيها ، كان كافياً لأن تدمع عيناه .

كان على كلّ شخص غير مسلم أن يدفع رسماً معيناً لزيارة المساجد في القاهرة . وما كانت هذه لتحول دوني وزيارة المساجد . لكن لما زرنا أحمد زكي باشا أول مرة تحدثنا عن زيارة المساجد . فقال ، متبرعاً ، ستجدون عندما تقدمون بيتكم في المرة القادمة أي عند دعوة العشاء ، ستجدون هنا تصريحاً لزيارة جميع المساجد . وقد وجدت ثلاث رخص : واحدة لكلٍّ منّا ، وفيها إذن من وزارة الأوقاف بزيارة أيّ مسجد مجاناً . القضية كانت أن هذه الورقة يسّرت لي الزيارة ، إذ إن الحصول على التذكرة بالدفع لزيارة أي مسجد قد تؤخرك بعض الوقت حتى تجد الشخص المسؤول!

حضرت في هذه الزيارة للقاهرة عدداً من الروايات التمثيلية . منها الكثير حضرته منفرداً . صاحباي كانا يحبان النوم المبكر . لينم الواحد مبكراً في عكا ، أمّا في القاهرة! عماد الدين قضيت فيه أمسيات ، مع الريحاني ووهبه والمونولوجيست هنا وهناك . ولما زرت القاهرة في السنة التالية ، وكان رفيقاي شريف القبج وإبراهيم مطر ، اتهمني شريف القبج ، الخفيف الدم الدميم الخلق (بسبب أنفه) بأنني إنما جئت إلى القاهرة لأفترش الرصيف في عماد الدين!

وبهذه المناسبة فشريف القبج ، الذي كان تلميذاً في أيامي في دار المعلمين ، كان في رجله اليمنى خلل كبير . لذلك نظم فيه علي السرطاوي قصيدة افتتحها بقوله :

أنف شـــريف القـــبج
أنف كـــثـــير العـــوج
من ثقله قـــد بُليت
أرجُلُه بالعـــرج

لكن شريف القبج كاد أن يفترش رصيف عماد الدين معي ، أمّا إبراهيم مطر فلم يستطع ذلك . فكان كثيراً ما يأوي إلى الفراش مبكراً .

رسائل قاهرية (1)

عكاء / 26/ 12/ 33

عزيزي عيسى،

«اللغز»- هذا هو اسم الرواية التي عدنا الساعة من حضورها في مسرح رمسيس . ومسرح رمسيس هو مسرح يوسف وهبي . ومع أن الذهاب إلى المسرح كان مرتجلاً فقد وفقنا ، وكان حظنا طيباً . ولست أحب أن أعرض هنا لموضوع الرواية ، فقد لا يكون فيها شيء إذا حاولت أنا أن أجردها من شخصياتها الفذة ، وأبسطها قصة في بضعة سطور على هذه الصفحة . ولكن الذي يهمني من كل ما هناك الاسم - «اللغز»- مع أنني سأنقله إلى معنى آخر .

مساء الأمس حضرنا جلسة في مجلس النواب . مجلس كبير ، بناء فخم ، قبة ضخمة شامخة ، نور قوي ، مظاهر العظمة الممتازة ، رئاسة ، نيابة رئاسة ، نواب ، وزراء ، حضور ، ازدحام في الأروقة . وزير الحقانية يتقدم بتوضيح لقانون تقترحه الحكومة ، يناقشه حافظ بك رمضان ، وتحدث ضجة شبيهة بما يحدث في المجالس النيابية الأخرى في العالم الخارجي ، ويحتج زعيم المعارضة . ويعلو الضجيج بين الأونة والأخرى ، ويطلب الرئيس حفظ النظام أكثر من مرة . وكلٌّ يدّعي أن السلطة التشريعية قوية قوة عجيبة ، حرّة حرية متينة ، ويغتنم الرئيس – رئيس المجلس– الفرصة ، فيطلب من الموجودين الموافقة ، فيوافقون . ونخرج نحن ، وقد خيل إلينا أن هذا البناء المتين الأركان يمثّل حقاً حرية الحياة التشريعية . فإذا اتصلت بأحد العارفين ، قال لك إن وزير الحقانية هذا مقيد في كل أعماله – كزميليه وزير المالية والأشغال مثلاً – بمستر « . . . » هو المستشار لتلك الوزارة . فإذا حاولت أن توفق بين تلك المظاهر وبين هذه الحقيقة ، تراءت أمامك كلمة واحدة – «اللغز» .

وترى الناس يغدون في شوارع القاهرة ويرجعون ، وتراهم -كثيراً- أزواجاً ؛ سيداً وسيدة . فإذا أخذت الأمور على علاتها – أو على ظواهرها– قلت أخ وأخته ، خطيب وخطيبته ، زوج وزوجه . أمّا إذا أردت أن تتعرّف الحقيقة ، فلا تعدم وسيلة توصلك إليها بعد بضع دقائق . فهما رجل وامرأة ، جمعت بينهما شهوته وحاجتها . فهو يدفع الثمن ، وهي تقدم البضاعة . وهذا «لغز» أيضاً .

ونقف ننتظر الترام . وقد ننتظر أحد قطر الترام بضع دقائق على الأكثر . فيتقدم إليك الباعة ، يحمل الواحد بعض حاجيات المطبخ ، وآخر مأكولات . ثم يتقدّم أحدهم وبيده «باكيت الشوكولاته» -وهذه حدثت اليوم معي– فيقول «حاجة حلوه يا بك» – «حاجة لذيذة» – «مصري» . «في أجنبي يا بك» «الدنيا برد يا بك» . «عاوز أوريلك» . «فميليات» – «حاجات نظيفة» . «حلو حلو خالص – حلاوة» . وهو يشير إليك بالشوكولاته لكنّه لا يعنيها . إنما يسألك إن كنت تريد أن تمتع شهوتك ، فهو يدلك على ما تريد . والويل لك إذا مكنته من التمادي في الكلام . ولكن هذا أيضاً «لغز» .

وأينما سرت في شوارع القاهرة يتقدم إليك أشخاص من كل الأنواع ،

والأشكال ، والألوان ، والأعمار ؛ هذا يرجوك ، وذلك يستعطفك ، وذاك يؤملك . وكل يحمل تذاكر اليانصيب . «بقرش صاغ» . كل جمعية ، كل مدرسة ، كل ملجأ ، له يانصيبه أو «لوتريته» كما يقول المصريون . وقد ابتعت منه ، وفتشت النمر الرابحة فوجدتني كالعادة ، في عداد الخاسرين . وهذه التذاكر الكثيرة «لغز» أيضاً .

هذه بعض ألغاز القاهرة ، اخترتها - أو على الأصح - كتبتها كما جاءت ببالي الساعة «ارتجالاً» . ومنها أيضاً أن أذهل إلى درجة أن أضع «عكا» بدل «القاهرة» في أول الكتاب ، فلما لاحظت الخطأ تركته شاهداً على ألغاز القاهرة . أمّا الحقيقة فإنني أقيم في «الاستقلال هاوس» - «شارع فؤاد الأول»- فإذا فكرت بالكتابة فهاك العنوان .

كنت أود أن أطيل أكثر ، لكن الحبر انتهى أو كاد ، وليس في مقدوري أن أحصل على حبر في الساعة الواحدة بعد نصف الليل . وأمامي أن أقرأ قليلاً عن المتحف المصري ، ودار الآثار العربية والأقصر ، فإننا مسافرون إلى الأقصر مساء السبت من هذا الأسبوع وعائدون صباح الثلاثاء . إليك وإلى زوجك وطفليكما تحياتي .

المخلص

نقولا

رسائل قاهرية (2)

عكاء / 14 / 1 / 34

عزيزي عيسى،

عودة إلى حياة الهدوء التام ، والبساطة المتناهية ، بعد هذا الصخب والضجيج الذي صمّ منّي الآذان عشرين يوماً متوالية .

هذا اليوم الثاني أقضيه في عكا ، إذا جاز لي أن أعدّ الأمس يوماً ، وهو يوم وصولي . فقد كانت الساعة العاشرة ينقصها ربعها الأخير لما دخلت البيت صباح الأمس . وقد كان طقس الأمس من النوع الثائر ، أمّا اليوم فقد كان ربيعاً في فصل الشتاء .

ولقد حاولت أن أكتب إليك ثانية من القاهرة ، لكن حال دون ذلك ما يكون فيه المسافر الذي يرى أيام الرحيل تقترب ، فيرغب في أن يعب من هذه الحياة ما

يستطيع ، خشية أن يبقى هناك شيء لم يتذوقه . فشغلت ليلي باللهو البريء والقراءة عن نواحي القاهرة ، وشغلت نهاري بالتجوال والتنقير عن مخلفات الماضي المصري في حفرياته وأهرامه ، وعن الماضي العربي الإسلامي في مساجده ومدارسه القديمة . حتى لقد زرت من هذه ما يزيد عن الخمسة عشر . وكانت لي إلى أكثرها زورة خاصّة منفرداً عن صاحبي اللذين سبقاني إلى فلسطين .

والحق فقد كانت لنا جولات - خصوصاً ما انفردت فيه - إلى أحياء من القاهرة ، أحسب أن كثيرين من أهل المدينة نفسها لم يطرقوها . وممّا انفردت فيه صعدة إلى قمّة هرم الجيزة الأكبر . ومن هذه القمّة أشرفت على القاهرة التي تتوسّط متّسعاً من الأرض أخضر ، لا يلبث حتى يحده نطاق من الرمال .

والحق أنك قد تستطيع أن تتصور مدى القاهرة ، واتساعها ، ولكنّك لا تستطيع أن تدرك ذلك حقاً قبل أن يُتاح لك هذه الزيارة . فليست بيروت ودمشق وحلب بالشيء الذي يذكر أمامها . ويكفيك أن تركب الترام من نقطة وتسير في الخط نفسه إلى آخره ، حتى ترى أي مدى هذا الذي تجتازه ، والذي تسير فيه .

وفي القاهرة ترى كلّ شيء ، وتجد كلّ شيء . الماضي السحيق والحاضر الجديد . المدينة الغربية بكل مستحدثاتها ، وحتى برطانتها الإفرنسية ، والجمود بكل مظاهره . الأحياء الكبيرة الراقية العظيمة ، والأزقّة القذرة المضطربة بوحولها . المتاجر الكبيرة ، والحوانيت الصغيرة . ويستتبع ذلك أنواع المعيشة المختلفة التي تستطيع أن تحياها هناك . فأنت يمكنك أن تقضي يومك كلّه بقرشين ، إذا جدّ بك الجد ، ويمكن أن تصرف المئات من الأوراق الخضراء أو الحمراء أو الزرقاء . وليس في قولي مبالغة إذا قرّرت أن القاهرة أرخص من حيفا والقدس ، فضلاً عن أن الوسائل أكثر للحصول على حاجياتك .

أحب أن أكتفي الآن بهذا القدر ، فإنني أستشعر من نفسي ميلاً إلى النوم . وقد خشيت أن أؤخر الكتابة إلى الغد فتعيقني عنها شواغل . لكنّني سأكتب إليك ، وكنت أفضل لو أجتمع بك وأحدثك . أشكرك على الكتاب الذي بعثت به مع ألفرد . إليك وإلى زوجك وطفليكما تحياتي .

المخلص نقولا

رسائل قاهرية (3)

عكاء / 31 / 1 / 34

عزيزي عيسى،

لي صديقة لبنانية تربطني بها مودة قديمة ، ومراسلة متقطّعة . حمل إلي البريد كتاباً منها إلى عكاء لما كنت بمصر ، فألحق الكتاب بي . وتناولته بعد عودتي من نزهة في القناطر الخيرية ، وهي إحدى جنّات الأرض لجمالها ، فقرأته شغفاً كلفاً . فلمّا كان المساء ، ذهبنا إلى الأوبرا الملكية - وكان من الواجب علينا أن ندخلها ليلة لنرى المكان مع أننا كنا نعرف أن الفرقة التي ستمثل في تلك الليلة فرنسية . وانتظرنا أن يكون هناك غناء ، أو موسيقى . ولكن كانت الرواية فرنسية من النوع الكوميدي . ولم نكن في حاجة إلى أي تمثيل لنكوّن كوميدي . فقد كفى أن نكون ثلاثتنا في الأوبرا وليس فينا من يعرف من الفرنسية إلا «أمور» ، وأنا أعرف بالإضافة «توجور» و«شكجور» . فلما طال بي الانتظار ، تركت صاحبي والأوبرا ، بعد أن مللت هذا الخداع على النفس ، ورحت إلى الأوتيل . قرأت قليلاً ، ثم فكرت في الكتابة إلى صاحبتي إجابة لكتابها . فكتبت بعد السطر الأول والتحية والاعتذار ما يلي : إن لم يكن بالحرف الواحد ، فهو بالمعنى الواحد .

"Marvelous, lovely, gorgeous are words that one uses because one lacks others, they represent only a miniature of the actual things that one sees in Cairo. This wonderful city contains everything, and there lies the secret."

ولم يكن عجباً أن أكتب إليها مثل ذلك ، وقد كنت ذلك اليوم في حدائق القناطر الخيرية التي نقلتنا من كل شيء أرضي إلى ما هو شبيه بالسماوي في وصف الشعراء والمؤمنين . والحق أن في القاهرة الكثير من مثل هذه الحدائق ، التي تلقى فيها الجمال الطبيعي ، وقد نظمته اليد البشرية .

ولكن أهذه أروع صورة أبقتها القاهرة في نفسي؟ لا ، فهناك صور كثيرة تمتاز عنها ، وتفضلها . ولكن إذا جئت أنتقي واحدة من هذه الصور لأجعلها صورة خالدة ، أجد من الصعوبة الشيء الكثير . وليست الصعوبة ناشئة عن كثرة هذه الصور الرائعة فقط ، ولكن هي نتيجة لهذه السرعة التي مرّت بها هذه الصور علي .

فقد مرّت عشرون يوماً ، كانت ، كما كتبت بالأمس إلى صديقة في بيروت ، لا تتسع لغير الحركة في النهار والليل . ولا تنسَ أن الحوادث والصور هذه تدور ، إذا أردنا تعبيراً هندسياً أو جبرياً ، على محورين لرسم بياني . المحور الواحد الوقت ، والآخر المكان . فأنت تستعرض في مصر كل ما مرَّ على العالم من الحوادث ، منذ أن عرف البشر البناء والكتابة ، إلى أن حلّقوا في الجو طائرين . فهذه الأهرام وقبور الملوك في الجيزة ، وهذه الهياكل القوية العظيمة المتينة الضخمة في طيبة والكرنك ، وهذه آثار الدول التي تعاقبت على مصر ، والحضارات التي ترعرعت فيها ، تراها في المتحف المصري . ثم يطالعك العصر البيزنطي القبطي بكنائسه ونقوشه وأعمدته ، ثم العصر العربي الإسلامي بمساجده وقبوره ودار آثاره . فإذا تركت هذه في النهار ، فعليك بمخترعات العصر الحديث ومنافعه . وآثاره الحيّة السائرة بسرعة الريح فوق الأرض ، وفوق الماء ، وفوق الهواء . ألست ترى معي أن محور الزمان أو الوقت طويل جداً ، ويدور بسرعة هائلة لمن يريد أن يستعرضه في عشرين من الأيام فقط ، ولأول مرة؟

فكيف إذا جمعت إلى ذلك محور المكان أو المسافة . فأنت تنتقل من جبل المقطم والقلعة ، إلى مدينة الأموات (القبور الحديثة) إلى الفسطاط التي لم يبقَ منها إلا بقايا مدفونة تحت التراب ، إلى مصر العتيقة إلى حي الأزهر والغورية إلى العتبة الخضرا ، إلى شارع فؤاد الأول ، والزمالك ، وسيتي جاردن ، إلى الجزيرة والروضة إلى الأهرام . ألست ترى أن هذا الميدان واسع كل السعة ، ممتد إلى أنحاء بعيدة ، وإنه من الصعب على من يستعرض في هذا الوقت القصير أن يفاضل أو يميز ؛ فكيف إذا أضفت إليه شعبة أخرى طويلة تمتد نحو سبعمئة ميل إلى الجنوب حتى توصلني إلى الأقصر؟

وتسألني بعد ذلك عن الصورة الخالدة التي انطبعت في ذهني ، وتنتظر مني جواباً حاسماً في هذا الأمر؟ إنك إذن لتكلفني شططاً . وما أحسب أنك تودني أن أتورّطَ فيما لا قبل لي به . وإذن فكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أنقل إليك بعض هذه الصور والتي تركت في نفسي بعض الأثر ، سواء أكان مضطرباً أو واضحاً ، لعلك تستطيع فيما بعد أن تكوّن من مجموعة هذه الصور رأياً . على أنني آمل أن نجتمع في عطلة الربيع ، فيكون ثمّة مجال للتحدّث ، وفي التحدث شفاء للغلة ، قد لا تستطيعه الرسائل ، سيّما التي تحبرها الأقلام الضعيفة . ولتذكر قبل كل شيء أن هذه الصور

التي أحاول نقلها إليك ليست مرتبطة قط بأي ترتيب مهما كان نوعه .

كنت قبل أيام في زيارة الأستاذ عبدالله مخلص ، وكان الحديث عن مصر وعما فيها . وكان هناك شيخ في سنه وعقله ، وإن لم يكنه في زيه وشكله . وقد كانت له قبل سنتين إلى مصر زورة . ولي في نفس هذا الرجل مكانة أحسد عليها . فالتفت إليّ وسألني «ما هي أهم الأمور التي أثّرت فيك في مصر؟» وقد كنت توقعت مثل هذا السؤال كثيراً ، لكنّني لم أستطع أن أهيئ له جواباً تاماً . لكن لا بدّ من إجابة هذا السائل فالتفت وقلت «أمران في الدرجة الأولى ، الواحد فني ، والآخر اجتماعي : أمّا الأول فهو هذه الأبنية الضخمة الخاصّة -من نوع الفيلات- التي يقيمها المثرون هناك لسكناهم ، والدور التي تقيمها الوزارات لمصالحها ، والبنوك لأعمالها ، والمتاجر لمتاعها . إن هذه الأبنية لها صبغة فنية محدّدة ، فضلاً عن هندستها . فأمّا هندستها فليست تعنيني هنا . وأمّا صبغتها الفنية فهي أنهم يلجأون هناك إلى تقليد عنصر فني في وضع الأعمدة ، أو إقامة البلاكين ، أو بناء الأقواس . فقد ترى الأعمدة الفرعونية بتيجانها النخيلية أو اللوتسية ، وقد تقع عينك على دار لها بلكون يحيط بثلاث من جهاتها ، وقد صنع على شكل رواق خارجي لهيكل يوناني قديم ، وقد يتقابل نظرك مع قناطر لمداخل الدور ، وأقواس للشبابيك ، على الطراز العربي الإسلامي . ولا شكّ في أن هذه الروح الفنية تؤثر في مظهر الدار . وفي كل ما يحيط بها . ولا شكّ في أن النوع الأخير أكثر شيوعاً في الأمور الرسمية وأبنيتها . فهذه محطة القاهرة ، لا يسعها إلا أن تكون هندستها بحيث تسهل دخول القطر وخروجها ، وهذا النوع من الأبنية لم يعرفه الرومان ولا اليونان ولا العرب . ولكن المصريين جعلوا المحطة بهذا النوع ولهذه الغاية ، فلما جاء دور الزخرفة ، لجأوا إلى المشربيات ، والمقرنصات ، والأقواس والزخرف الأرقم ، ممّا زخرف به العرب أبنيتهم فكانت جميلة المنظر ، دالة على الروح اللازمة للشرق . قديم منسق ، وحديث منسجم معه .

أمّا الأمر الاجتماعي فهو أنه لا يمكنك -إذا استثنيت بعض الأحياء البلدية- أن تفرّق بين السيدة المسلمة والمسيحية . فليس هنا حجاب في الأحياء المتقدمة الراقية . وقد حدث مرة أن كنت أنتظر الأوتومبيل ، فراعني منظر مئات من الصبايا يخرجن

في بذلة كحلية من الصوف ، وعلى رؤوسهن جميعاً طاقية من نوع -بريه- وكان ظاهراً من الكتب وما إليها أنهن تلميذات . فملت إلى صديقي ، وهو ممن أقام بمصر سنتين ، وسألته عمّا إذا كنّ تلميذات مدرسة تبشيرية . قال لا ثم أشار إلى المكان الذي كنّ يخرجن منه فإذا به مدرسة تابعة للوزارة . وإذا بصاحبي يضيف كل الطالبات هنا يلبسن هذا الزي ، وليس هناك حجاب . وحدث أنني كنت مرة بقرب مدرسة دار المعلمات السنية في حي السيدة زينب فرأيت بعض المدرسات المصريات ، وعدداً من الطالبات ، وليس هناك حجاب» .

هذا ما أجبت به سائلي ، ثم انتقل بنا الحديث وتشعب . وكنت بعد عودتي من المدرسة اليوم سائراً قرب بيتنا فقابلت سيدة إنجليزية ، فتحدثت إليها قليلاً بعد التحية ، فسألتني عن إقامتي في مصر ، وهل أعجبتني ، فأجبت بنعم . فعطفت سائلة «وهل يممت قاعات الرقص هناك؟» فأجبت نفياً ، فاستغربت وقالت «كنت أحسبك ستعوض في القاهرة عما فاتك في عكاء» . قلت «لكن هذه الأماكن يجب أن لا يزورها الرجل بدون رفيقة . وقد كان في مصر رفاق ولم يكن لي رفيقات ، فابتسمت وقالت : رفاقك يعيشون في مصر ، وليس لهم رفيقات؟ أليس هذا غريباً؟» قلت «أجل غريب ، ولكن لست أنا الذي أقيم ، وإلا لكان لي منهن عدد يضايقني بكثرته» . قالت «أعرف ذلك عنك ، ولهذا سألتك» .

ألست ترى أن لكل ناحية من التأثر يسأل عنها؟ فهذه سألت عن هذه الناحية لأنها تسرها . وأجبتها عما سألتني . فلو أنها سألتني عمّا أثر بي رأساً . أكنت أجيبها بما أجبت به صديقي النصف شيخ؟ ما أحسب ذلك . ولعلّي كنت أحدثها عن التياترو والسينما . ولعلّي أجبت ذلك الشيخ عن غير قصد لأنني رأيت بسرعة أن هذه أموراً تعنيه ، ولست أدري أتغيظه أم ترضيه؟

أحسب أنني سأقف من هذه الصور الليلة عند هذا الحد ، وسأعود إلى أخرى في وقت آخر . ولنعد إلى التأمين .

إنَّ المبلغَ الذي أنا مؤمن عليه هو 400 جنيه لمدة عشرين سنة والدفع نصف سنوي وهو عشرة جنيهات تقريباً للمرة الواحدة ، والمبلغ الذي خصمه لي السيد إميل نصار هو خمسة جنيهات أي نصف القسط الأول ، فدفعت في السنة الأولى خمسة عشر

جنيهاً فقط . فإذا أمنت نفسك على 500 جنيه للمدة نفسها أي لعشرين سنة ، وكان القسط السنوي نحو 25 جنيهاً فيكون الخصم بمقدار ربع السنة الأولى . وسأكتب إليه أنا الآن وأشير إلى هذه الأرقام لأنه طلب ذلك في كتاب وصلني مع كتابك . واقبل الآن مع عائلتك .

تحيات المخلص

نقولا

رسائل قاهرية (4)

عكاء / 15 / 2 / 34

عزيزي عيسى،

بضع درجات عريضة تصل بين أطراف القصر الجميل الذي أقامه ولي الأمر بمصر في «جزيرة الروضة» ، بالنيل ، فتنقل من الأول إلى الثاني مظاهر العظمة حيناً ، وأهل السرور حيناً آخر ، وحظايا الحاكم آن ، وعذارى القصر آنا .

خلت هذه الدرجات من كل هذه المظاهر التي ألفتها يوماً ، ومر أحد أولئك الذين يوليهم القصر وأهل القصر نعمة . فيخلع على القصر وأهل القصر تظيم ثيابه ، فرأى الدرجات ، وأعجبه جمالها ، واستعذب شكل النيل النجاشي ، وشعر بهذه الموسيقى النيلية الممتعة ، فاستحالت كل هذه أفقاً شعرياً في خياله ، فجلس على درجة وأسند ظهره إلى الأخرى ، وأخذ يرسم خطوطاً وحروفاً ، ويقطع هذه الحروف كلمات ، ويفصل هذه الكلمات أبياتاً من الشعر ؛ وهو آمن مطمئن ، يستمتع بخياله ، يستعذب صفاء الناحية .

ويمر من هناك أحدهم ؛ أحد أولئك الذين يرون الحياة سحراً ، والموت سحراً ، والخلود سحراً ؛ ويرون فيضان النيل عمل ساحر ، ونقصانه سحر ساحر . أحد أولئك الذين تقمصت أرواحهم أرواح من عاصروا موسى وعصاه ، وفرعون وثعابينه ، فيلمح الشاعر ، ويراه يخط ويرسم ، فتتبادر صور السحر إلى نفسه ، ويرى في هذا الناسك رجلاً يريد أن يسحر النيل حتى لا يفيض . وتمتلئ نفس هذا الرجل بفكرته هذه ، ويؤمن بها ، ويعتقد بصحتها ، وتأبى عليه أن يصدق غير هذا ؛ وأن يفكر بغير هذا ،

فيرى حتماً لزاماً عليه أن لا يحرم أهل مصر خير النيل ، وأن لا يعوقه عن الفيضان سحر أو رقية ، فيدفع بالشعر إلى النيل ضحية ، فلا يقف أحد له على أثر . . .

خشيت -وأنا على المقطم ، وقد هممت بالنزول من الجهة الأخرى ، أن يصيبني ما أصاب أحمد يوم جلس على درجات القصر . خشيت أن تملأ فكرة السحر رأس حارس القلعة والمقطم ، فيفعل بي ما فعل ذلك بأحمد . خشيت- وقد رآني أحمل هذه الآلة التي تلتقط الصور ، وليس على رأسي غطاء ، وأكثر من الأسئلة عن كل شيء ، وعن كل ناحية . خشيت- وقد سألته عن عين موسى ، حيث يقال إن الله كلّم النبي وخاطبه ؛ ثم سألته عن القبور وما إلى القبور ، والموتى وما إلى الموتى- خشيت حقاً أن يحسبني ساحراً جئت أتلقى الوحي عن الله ، ثم أقترب من الموتى فأغير حالهم ، وأستطلع أسرار القلعة والجبل ، فأنقله عنهم إلى حيث يعدمون فوائده ، ويتعرَّضون لخطر الجيش المهاجم ، والعدو المداهم . فيرى من واجبه أن يعترض سيري ، ويوقف أمري ، ويحتفظ بقومه ، فيدفع بي من قمّة الجبل إلى أسفله ، فيقضي على سحري ، ولا يقف الناس على أثري .

خشيت من ذلك فطلبت إليه أن يتقدم في السير ، ففعل . وهذه الجهة من المقطم إن لم تحتل عليها في السير ، دفعت بك إلى حيث لا سبيل لك إلى رؤية النور ثانية . دفعت بك إلى السحيق ، فإذا تبقت منك بواق ، حملها الناس -إن عرفوا أمرك- إلى إحدى هذه الدور ؛ وإلا فالوحش كفيل بما لا سبيل للناس إلى إدراكه . أمّا نحن فاحتلنا ، لأنَّ هذا الرجل الذي يرشدنا خبير بالطرق ، عارف بالأمور ، بصير بالشؤون ، ثم هو ينتظر شيئاً ، وما كنا لنخيب له أملاً .

ولكن ما هذه الدور التي قد يؤويك الناس إلى واحدة منها إن أدركوا منك فلول جسم مهدم مقسم زلت به القدم ، أو دفعت به جهة المقطم؟ تستطيع أن تراها من رأس الجبل ، وتستطيع أن تراها وأن ترى مثلها من نواح أخرى من القاهرة . وهي تمتد امتداداً يكاد يبلغ اتساع امتداد عكاء ، وأنت تقترب منّها فتحسب أنك تقترب من بيوت ومدينة . وأنت مقبل حقاً إلى بيوت ومدينة ، ولكن ما أكثر ما يعروك من الدهشة إذا بلغت أحدها . فعلى الباب سعف من نخيل ، وفي الداخل صوت يرتل بعض آي القرآن الكريم ، ويذكر الحياة الفانية الزائلة ، ويحبب إلى النفس الخلود

المزعوم ، ويحذر المرء عاقبة الاثم ، ويؤمل المذنب بعفو الغفور الرحيم . وتشتد بك الدهشة إذ تلمح هذه الحالة في كل بيت ، فإذا استعنت بإدراك العين في توضيح ما تدركه الأذن ، رأيت قبوراً في غرف هذه الدور وأبهائها . وإذا أنت في دور وفي مدينة ، ولكنّها دور الأموات ، ولكنّها مدينة الأموات . فأنت إذن بين موتى ، وفي مقبرة! وما تذكر عندها؟ أقول المعري ، فتخفف الوطء حتى لا تؤذي أديم الأرض وهو بقايا تلك الأجساد؟ أم أنت تسترق الخطى حتى لا تؤذي قوماً ناموا هناك نومة أهل الكهف ، فأنت تريد لهم أن يحتفظوا بكل ما كان لهم حتى إذا أن لهم أن يبعثوا - ليثبتوا القيامة والبعث بالجسد والروح -كانوا غير منقوصين؟ أم أنت تذكر قصيدة «غراي» - «ملحمة في مقبرة كنيسة» - وتذكر ما اصطنعه ذلك الشاعر الإنجليزي من فنون الجمال وضروب الفلسفة وألوان التفكير؟

قد تفكر بهذا أو ذاك ، وقد تفكر بالاثنين معاً ، وقد يجرك التفكير إلى أمور كثيرة . ولكنني لم أفكر عندها ، ولم أهتم بالتفكير ، وإنما فكرت فيما بعد . لم أفكر عندها ، ولم أهتم بالتفكير ، لأنني كنت أقصد من هذه المقبرة مكاناً معيناً . فنحن في الإمام الشافعي ، ونحن قريبون من قبر سعد ، فلا بدّ إذن من زيارة له . وإذا نحن بمن يرتل القرآن الكريم ، وإذا نحن داخل الحجرة . والقبر عادي ، لولا علم مصري أخضر يجلّله ، وزهرات تنثرها عليه أيدي الزوجة الوفية ، لما أثّر بك شيئاً . ولكنّك أنت إذ تزور قبر سعد ، تزوره وفي نفسك ما فيها ، فترى سعد يرفع اسم قبره ، وتدرك أن المرء يستطيع أن يمجد الموت ويكسبه الاحترام ، كما يستطيع أن يمجد الحياة ويكسبها الاحترام .

وتنتهي الزورة ، ونخرج من المقام ، ونرجع إلى حيث بدأنا في الصباح ، فهذا السلطان حسن ، والرفاعي والقلعة ، وهذا الترام ، وهذا شارع محمد علي ، والعتبة الخضرا ، وميدان الأوبرا وشارع فؤاد الأول ، والأوتيل . وهذه الشكوى اسمعها من صاحبي على مشاق ذلك النهار ، إلا أنها ممزوجة بالاعتراف بأن تلك السفرة كانت ماتعة . أما الشكوى فوزرها علي ، وأمّا المتعة ففضلها إلى المقطم .

فإذا جاء وقت الهدوء فإلى المضجع ، وإذا أخذ النوم السريع بخناق صاحبي ، فكرت في مدينة الأموات . ولست أرغب في أخذ العبرة ، ولا اهتبال فرصة النصيحة . ولكن ما هذه العناية بالموت؟

هذه فلسفة مصر كلها ، فيما أعتقد ؛ الموت فوق الحياة ، والموت أعز من الحياة ؛ والخلود فوق الفناء . والحياة فانية زائلة ، والموت ثابت خالد . فليترك المصري الحياة وشأنها ، وليجعل للموت طريقاً قوي الدعائم ، واضح السبل ، حتى تبقى للموت قيمته .

خشي المصري الموت ورغب فيه ، خشيه فاحتاط لكل ما قد يحتاج إليه في الحياة الأخرى ، ورغب فيه فأعد له كل ما من شأنه أن يظهر بواسطته اعترافه بهذه الرغبة ، وإظهار الاحترام . فالمصري القديم ، والمصري اليوناني والمصري القبطي والمصري العربي المسلم -- المصري القديم والمصري الحديث - يلد للموت ، ويبني للخلود . وما يشذ عن ذلك إلا من عقل . أمّا الشعب بنفسه ، والشعب «بعقله الاجتماعي» ، فهو هو .

بنى المصري القديم الأهرام ، وأقام الهياكل ، ونحت التماثيل ، وترك من الأعمدة أجمات ، ومن النصب الغرانيتية القوية الكثير . فعل كل ذلك ليخلد ، ليبقى . وقد خلد ، وبقي . فهذه المئات تعقب المئات ، وهذه الألوف تتلو الألوف ، من الناس والأجيال والسنين ، وكل ما ترك باق . والمصري الحديث يكرم الموت ، ويخشى الموت ، ويرهب الموت ، ودافعه في كل ذلك تلك الروح المصرية القديمة التي بقيت في نفسه ، وفي عقله ، دون أن يدرك أو يشعر . وإنما نجد فرقاً بين المصري القديم والمصري الحديث في الطرق والوسائل التي يخلد فيها نفسه و«موته» . فالقديم قوي ووسائله قوية ظاهرة بارزة ، والحديث ضعيف وأساليبه ضعيفة خافتة باهتة . أمّا فيما سوى ذلك «فالكل واحد» .

أخشى أن يجرنا حديث الموت إلى ما لا نرغب فيه من تشاؤم واضطراب نفسي ، فلنخرج منه إلى الحياة . الحياة التي نرغب فيها ، والتي نفهمها وتفهمنا ، ولنبتعد عن ذلك الموت الذي ينتهي بالانحلال ، فيما أؤمن وتؤمن ؛ والذي ينتهي بأسرار «الحياة الأخرى» فيما يعتقدون ، واعتقادهم متين .

ومن هذه الحياة الحالية أن «محمد ديب علي التهتموني» سيكتب كتابه غداً على آنسة عكية هي إسعاف حبيشي ، أخت بهيرة حبيشي . وقد ذكرت الثانية لاعتقادي أن أم سامي تعرفها فهي خريجة دار المعلمات . أما الزواج ففي حزيران . وإن بهيرة سيكتب كتابها على أحد خريجي الجامعة الأميركية يوم الجمعة القادم . وإن شفيق

درويش ، وهو هذا الشاب النحيل الذي تعرفت عليه في الصيف ، قد يكتب كتابه في بحر الشهر التالي .

ومن شؤون هذه الحياة أن الأستاذ سامي عيد يستعد ليصبح أباً . فقد تزوّج في آب الماضي .

ومنها أنني قد وفقت إلى مختبر مدرسة الفرندز لاستعماله كما أشاء ، وعندي هناك أستاذ إنجليزي يساعدني . وعلى ذلك فلست بحاجة إلى التحدث إلى الأستاذ الخالدي بعد . وأرجح أن أغادر عكاء في صباح اليوم الأول للفرصة الربيعية إلى رام الله . وسأزوركم في بيت جالا بضعة أيام ونتحدث . . . ونتحدث كثيراً .

والآن فإلى لقاء آخر ، تحياتي إليك وإلى زوجك وأطفالك .

المخلص نقولا

السفر إلى لندن

1935

أُنبِئتُ صبيحة يوم الجمعة 27 أيلول/سبتمبر 1935 أنه يترتب عليّ أن أذهب مساء ذلك اليوم من عكا إلى القدس ، وأن أكون في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي في إدارة المعارف المركزية كي أتم جميع المعاملات اللازمة بحيث أكون جاهزاً صباح الأحد للسفر إلى لندن . لقد منحت بعثة دراسية لجامعة لندن .

عند الساعة الثامنة من صباح يوم السبت 28 أيلول/سبتمبر استقبلني مساعد مدير المعارف ، وأعطاني التعليمات اللازمة . وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً كان جواز سفري عليه التأشيرة لدخول بريطانية وتذكرة الباخرة من بورسعيد إلى لندن في جيبي ، ومبلغ سلفة في جزداني . وذهبت إلى رام الله لوداع الصديقين الكريمين الدكتور خليل طوطح وعبد الحميد ياسين . وفي المساء جلست مع أخي أوصيه القيام ببعض الأمور التي كانت مترتبة عليّ ، إذ إنه بدا وكأنني هربتُ من عكا . فمن كان يمكنه أن يصدق أن نقولا زيادة يعطى هذه المنحة الجامعية ، ويؤمر بالسفر خلال ساعات!

في المساء المتأخر دخل علينا الفندق أديب عتقي ، الذي جاء من عكا ليودعني . في الساعة السابعة من صباح يوم الأحد كنّا نحن الثلاثة في القطار الذاهب إلى اللد ؛ هناك يعود أخي وأديب إلى عكا وأستقل أنا قطار القنطرة إلى بورسعيد . وقبل أن يتحرك قطاري تناول أديب قبعته ووضعها على رأسي - هدية السفر .

في الطريق إلى بورسعيد

أمامي نهار طويل وجزء من ليل قبل أن أصل بورسعيد . والطريق إلى القنطرة أعرفها من قبل ، لذلك لم يكن فيها ما يدعو إلى التأمل الخاص . ولكن أنا كلي

كنت كتلة من التأملات . أولا هل صحيح هذا الذي أنا فيه ، أم لعلي في حلم؟ هل صحيح أن هذا الذي سعيت له مدة طويلة قد تحقق ، وأنني أنا الآن لست مسافراً لقضاء عطلة في مصر . وما الذي ينتظرني في ديار الغربة . وهي ديار غربة ، ومدة هذه الغربة ثلاث سنوات ، وقد دامت أربعاً في واقع الأمر .

القطار يسير ، وتسير معه أفكاري ، بل كنت أحس أحياناً أنها استبطأت القطار فطارت . ثم أحسُ بها ، أو ببعضها ، تعود القهقرى إلى عكا إلى ما بقي علي مّما لم أخبر به أخي . وهذه كنت أصفيها ثم أدون ما نقص في كراس صغير كي أعنى بها في أول فرصة . أمّا أمور المستقبل - الصور التي لا أدري لها شكلاً ، الآمال المرتبطة بهذه الرحلة الطويلة ، التجارب التي سأتعرض لها - هذه لا مكان لها في كراستي . فأنا كنت أرتب الماضي بعض الشيء ، لكنّني لم أكن أخطط للمستقبل .

وكيف يمكنني التخطيط للمستقبل؟ كان المألوف في إدارة المعارف أن تبلغ الطلاب الذين سيمنحون مثل هذه البعثات الخبر قبل السفر بما لا يقل عن الأشهر الستّة . وعندها يمكن التخطيط وإلقاء النظرة المستقبلية ولو على نطاق ضيق . لكن أن تخبر عن مثل هذا التطور الكبير في حياتك في ساعات ، وتحمل على جميع أجنحة السرعة لتكون جاهزاً خلال أربع ساعات ، فأمر آخر .

هذه الأفكار ظلّت تدور في رأسي ، وتتقلب كأنها أصيبت بالعدوى مني فلا تستطيع هدوءاً بله النوم . وقد أجهدتني في الطريق فغفوت في مقعدي بالقطار ، وحلمت أنني في عكا ، وأن كل هذا الذي أحس به : أنني في قطار وأنني مسافر إلى لندن ، إنما هو حلم . وأفقت مذعوراً .

وصلت الفندق في بورسعيد حول الساعة الحادية عشرة مساء . وعرفت من المسؤول عن الموعد الذي يجب أن أغادر فيه الفندق بعد ظهر الغد - يوم الاثنين- إلى الباخرة . وسررت لأنني قررت أن أقضي الصباح في زيارة بورسعيد أولاً وأن أبتاع حقيبة .

الرحلة البحرية الأطول

لما نزلت من العربة التي أقلتني من الفندق إلى الميناء في اليوم التالي ، حملت

الحقيبتين بيدي ، ولست أحسب أنه كان فيهما أكثر من عشرة كيلوغرامات . وهجم عليّ العتالون (الشيّالون) ، وفي محاولتهم نتش الحقيبتين من يدي كاد أحدهم أن يمزّق سترتي . وأخيراً نجحت في حمل ما أريد بنفسي ، حتى وصلت إلى المكان الذي تخلّصت فيه منهما بأن سلمتهما إلى رجال السفينة ، ودخلت السفينة وأرشدت إلى مكاني فيها .

كان أمامي الكثير من الوقت لاكتشاف سفينتنا . فقد كانت صغيرة ، حمولتها 13.000 طن فقط . كان اسمها (بالرانلد Balranald) وكانت في سفرتها الأخيرة ، إذ إنها بعد أن توصل ركابها إلى لندن سترسل إلى حيث تفك وتباع حديداً وخشباً وما إلى ذلك . كانت قد بدأت رحلتها من أستراليا ، ومعنى هذا أنه كان عليها ركاب قد مرت عليهم خمسة أسابيع وهم على ظهرها .

السفر في البحر متعة لمن عرفه ولمن عنده استعداد على تحمل الوقت الذي يصرف فيه . من قبل لم يكن أمامنا سوى البحر وسيلة للأسفار البعيدة . اليوم يسافر الناس بالطائرة . أمّا أنا فإنني أستمتع بسفر البحر إلى حد أنني مستعد للانتقال بحراً من مكان إلى آخر عندما يكون لدي متسع من الوقت . والسفينة يمكنها أن تزود الراكب بأمور كثيرة «يُقَطِّعُ» فيها وقته . هذه السفينة كانت صغيرة ومع ذلك فقد كانت فيها صالة سينما وغرفة جلوس ومكتبة وغرفة مطالعة ومقصف ، وكان المرء يستطيع أن يمارس على السطح الأعلى أنواعاً من الرياضة متنوعة . لكن لما سافرنا على كوين اليزابث عبر الأطلسي سنة 1957 كنّا ، في الواقع ، في مدينة عائمة . وزنها كان ثلاثة وثمانين ألف طن ، فيها ثلاث درجات للركاب . ركاب الدرجة الثانية ، حيث كنّا ، كان لهم ثلاث قاعات كبرى وثلاث صالات للسينما تعرض أفلاماً مختلفة . وعلى ذلك قس .

المهم ، للذين يضجرون أو يزهقون ، هو أن يصاحبوا الركّاب . والمألوف في سفر البحر أن تبدأ الحلقات بالتكون في الأيام الثلاثة الأولى . ومن الطريف ملاحظته هو أن هذه الحلقات تصبح مغلقة فيما بعد . عدد أفراد الحلقة الواحدة يتوقف على الهوايات . فلاعبو البردج يتكونون من «أربعات» ، ولاعبو البوكر يبلغ عدد أفراد الحلقة الواحدة ستة إلى ثمانية . وهناك حلقات لاعبي الشطرنج . وهواة الموسيقى يتحلق

حولهم ، عندما يلعبون البيانو أو أي أداة موسيقية أخرى متيسرة ، فئات تختلف في أعدادها باختلاف مقدرة اللاعب وذوق المستمعين ، ورغبتهم في المشاركة غنائيا أحياناً .

السفينة تتيح لمن يحب القراءة الوقت الكثير لذلك ، كما أن الذي يريد أن يكتب يجد حاجته من الورق والأقلام الحبرية . وما أكثر الذي يستفيدون من ذلك فيكتبون رسائل إلى الأهل والأصدقاء ، لذلك كثيراً ما يرى الواحد الركاب يحملون الرسائل لإيداعها البريد عندما تقف الباخرة في مكان ما .

وما الذي فعلته أنا في الأيام التي قضيتها على ظهر الباخرة ، وكانت عشرة ، لأنني نزلت في بليموث ولم أتم الرحلة إلى لندن . أولاً أتممت شريط الأحلام الذي بدأت في القطار . ثانياً صرفت بعض الوقت ، بين بورسعيد ومالطة ، المحطة الأولى ، والوحيدة ، التي وقفنا فيها ، في ترتيب أمور كانت عالقة في عكا . وكتبت الرسائل اللازمة ، وكانت عديدة ، وأودعتها البريد في مالطة . ثالثاً استمتعت بهذا الأفق الواسع الجميل الذي كان البحر المتوسط يزودني به عندما تلتقي مياهه الزرقاء بقبة السماء . أمّا بعد أن أجزنا جبل طارق ودخلنا خليج بسكاي واتجهنا شمالاً نحو إنكلترا ، تغير الجو . شحب واسود وزمجر واكفهر ، حتى في وسط النهار . لكنّه ظل جواً واسعاً فسيحاً ، تتنقل فيه فكراً وأمالاً وأحلاماً من بقعة إلى بقعة دون أن تتحرك من مكانك .

كان الوقت عندي كثيراً . فأنا لا ألعب أيّاً من أصناف الورق ، لكنّني لا أضجر من الوقت ولا «أزهق» فيه . الكتاب صديقي إذا مللت الجو ، وأنواع الرياضة كثيرة وفيها متعة وصحة . وكنت أراقب الناس ، لكنّني لم أمت همّاً ، لأنني لم أراقبهم حسداً ، ولا تطاولت على خصوصياتهم . راقبتهم يملون ، فيذهبون إلى المقصف . ويملون من المقصف فيصعدون إلى السطح للتدخين . فيهم كثيرون كانوا يحارون إذا وجدوا أنفسهم جالسين لبضع ساعات ، فماذا يعملون وقد مرّت عليهم أسابيع على هذه السفينة وكل يوم فيه ساعات وساعات وساعات يجب أن تُقطّع!

كان على ظهر المركب عربيان آخران : ركبا السفينة من بورسعيد ، وهما مصريان كان اسم الواحد ماهر وكان اسم الآخر نجيب . التقيا لأول مرة على الرصيف عند

النزول إلى السفينة . كان نجيب يدرس الطب في اسكتلاندا وكان عائداً إليها بعد عطلة صيف قضاها في مصر . أما ماهر فكان يسافر لأول مرة وكان يقصد درس الصيدلة في بلاد الإنجليز . كانت معرفتهما باللغة الإنجليزية ضعيفة جداً . لم تكن لغتي الإنجليزية أفضل من حيث المفردات لكنَّها كانت أنجع في توصيل أفكاري . سألني ماهر يوماً ، وكنَّا جارين في الكابين ، لماذا يترك لك خادم الصباح كل يوم فنجان شاي وبرتقالة ، فيما يسأل بقية الركاب فيما إذا كانوا يريدون فنجان الشاي أو البرتقالة! قلت له بكل بساطة : لما عرفت من هو الشخص الذي سيعتني بي في سفرتي أعطيته شلنين أي عشرة قروش مصرية ؛ لذلك يعتني به ويلمع لي حذائي يومياً ، وأحسب أنه ينتظر شلنين في نهاية الرحلة أيضاً . هذه الدنيا يا ماهر ، لا تنتظر شيئاً بدون مقابل : أكان ذلك دعاء أم ابتسامة أم شلنين!

في ميناء بليموث

وصلت السفينة بليموث ، ونقلنا مع أمتعتنا إلى البر . كان أول ما لفت نظري هذا الخط الأخضر الذي هو الشاطئ يلاصق الفسحة الزرقاء التي هي البحر . ولما وصلنا إلى البر ، وجدت العتالين (الشيالين) مصطفِّين ؛ وعندما يأخذ أحدهم أمتعة أحد الركاب ، ينتقل الصف خطوة ، وهكذا حتى نزل الجميع . لا صوت ولا هرج ولا مرج ولا محاولة تمزيق السترة .

وسألني الشيال الذي حمل شَنْتَتَيَّ الخفيفَتين عن وجهتي ، ولما أجبته لندن قال لي ، وقد وصلنا مقهى مرتباً في محطة سكة الحديد وهي على البور : «تفضل اجلس هنا . أعطني ثمن التذكرة ، وأنا أبتاعها لك ، وسأعود بعد ساعة ونصف الساعة لأوصلك إلى القطار» .

صرفت لحظة لم أعرف فيها كيف أتصرَّف . ثم ناولته النقود ، وعاد بعد ساعة ونصف الساعة ، وسلَّمني التذكرة وأرشدني إلى مكاني في القطار .

لما وصل القطار محطة بادنغتون في ساعة مبكرة من المساء ، كان المطر ينهمر . كان عيسى نخله الذي أخبر بسفري من القدس ، والذي كتب إليَّ رسالة تسلمتها في

بليموث ينبئني فيها أنه سيكون في انتظاري على المحطة ، ينتظرني وكان العتالون مصطفّين أيضاً .

نزلت وسلّمنا واحدنا على الآخر وتقدمنا لنأخذ تكسيًا فقيل لنا إن الدور للصف التالي من التكسيات . العتالون بالدور والتكسيات بالدور . وذهبنا إلى 95 كلوسستر تراس Gloucester Terrace!

عندها -وفي اليوم الأول لي في إنكلترا- أدركت الفرق ، أي فرق!

رسالة من الباخرة إلى عيسى عطا الله

Balranald

1935/10/2

عزيزي عيسى ،

ما أحسب أنك كنت تنتظر هذه الرسالة الآن ؛ ذلك لأنك كنت تحسب ، فيما أعتقد ، أنني سأكتب إليك من مرسيليا . ولكن سفينتنا لن تمر بمرسيليا ، لأن طريقها بورسعيد مالطة (وقوف بضع ساعات) ثم رأساً إلى بليموث . وقد مرَّ عليها إلى الآن 32 يوماً من أستراليا إلى هنا؟ وأين هنا هذه؟ بين خطي عرض 33 و 34 شمالاً ، أمَّا خط الطول فلست أعرفه تماماً ، وقد يعرف عند الظهر ، إذ يعلن للركاب ، ولكن عند ذلك يكون هذا الكتاب في صندوق البريد .

باخرتنا صغيرة (13.000) طن فقط ، ولكنّها مريحة فعلاً . والقوم (الرئيس والخدم) طيبون . وكثير من حاجات الأكل محمول من أستراليا مثل اللحوم والبرتقال .

ليس في سفر البحر كثير يتحدث عنه ، لأنَّ المشاهد هي هي ؛ بحر أزرق ، يضطرب قليلاً ، كما حدث أمس الأول ، فيضطرب معه بعض الركاب ، ويأوون إلى مخادعهم ، يرغون ، ويتقيأون وهكذا ، ويصحو ويهدأ ، فيهدأون معه ، وتعود إلى وجوههم النضارة ، وإلى قنواتهم الهلالية الاتزان ، وإلى معدهم مقدرتها على حفظ الطعام .

على سفينتنا بعض هنود لم أتعد التحية معهم ، وإنجليز ، بعضهم لا يحيون بعض . ولكن هناك شابان مصريان ؛ نجلس إلى بعضنا كثيراً ، وقلّما نُرى متفرقين ، ونحن على الطاولة (الأكل معاً) ، وعند النوم أنام مع أحدهم في مخدع واحد .

غداً صباحاً نكون في مالطة ، حول الساعة السادسة ، إذا كان الطقس حسناً (هكذا يقول الإعلان الرسمي) . وسنرى إذا كان وقتنا يسمح لنا بالتجول في هذه المدينة الجزيرة ، أو الجزيرة المدينة . وسنرى عن بعد تحصينها العسكري .

سأكتب إليك بعد ذلك ، وسأودع الرسالة البريد في بليموث أو لندن .

لقيت في القنطرة السيد بدران ، وأخوه موجود في لندن ، فأعطاني عنوان بيت أخيه ، ولذلك فسأقصده .

الآن سأراجع بعض الخرائط التي عندي ، منك ومن عبد الحميد ، وسيساعدني أحد المصريين لأنه يعرف شيئاً عن لندن ، أما هو فطالب في أدنبره ، يتعلم الطب .

إليك والى أسرتك تحياتي الخالصة .

المخلص نقولا

في أوروبا

1939 - 1935

طالب في لندن

في غضون فترة لم تتجاوز الأسبوعين كنت قد انتقلت من عكا إلى لندن . من شقة في مبنى لآل الجراح في عكا الجديدة أي خارج السور ، إلى 95 غلوستر تراس (95 Gloucester Terrace) في حي بادنغتون بلندن .

وقد تبدل كل شيء بالنسبة لي .

وكان أول ما لاحظته من التبدل قضية الدور (الصف ، أو الطابور) . العتالون (الشيالون) في بليموث والتكسيات في محطة سكة الحديد بلندن ، بالدور ؛ ورأيت هذا بعد ذلك في كل شيء . ينتظر الناس بالدور للشراء ولدفع الفواتير وللحصول على مائدة في مطعم . وقد تذكرت في أيامي الأولى بلندن مقالاً قديماً لشبلي الشميل كتبه سنة 1907 (فيما أظن) يروي فيه أنه لما كان في باريس (وكان قد عاد منها قبل مدة قصيرة) كان يقف في الصف ينتظر دوره ليبتاع طابع البريد . فلما عاد إلى مصر ، وذهب إلى مكتب البريد في الإسكندرية ، رأى الناس يتدافعون ويتدافشون للحصول على الطابع ، فانزعج لذلك ، وعاب ذلك على العرب ، قومه . لست أذكر فيما إذا كان شبلي الشميل قد زهق وعدل عن إرسال الخطاب ، أو أنه دفش إلى حيث تباع الطوابع كما يحدث لنا حتى في هذه الأيام .

وتبدل علي الانتقال . فأنا في كل مكان زرته أو عشت فيه ، كان انتقالي دوماً على سطح الأرض . لكن في لندن أخذنا ننتقل في قطار تحت الأرض . أذكر أن عارف البديري بعد زيارة له للندن (1928) عاد إلى عكا وجرب أن يصف لنا قطار تحت الأرض ، لكن الذي أذكره أن ما قاله بدا لي ، لما ركبت ذلك القطار في لندن ،

شيئاً بعيداً عن الواقع . فهل إن وصف شيء من هذا النوع صعب على من يحاول ذلك ، أو أن الكلمات لا تواتي الوصاف أو أن السامع لا يستطيع تصوّر شيء بعيد إلى هذا الحد عن تجربته ، فلا يمكنه أن يدركه؟

وقد كانت هذه التجربة مدهشة حقاً . إنما الذي حدث أنه في اليوم الأول رافقني عيسى نخلة إلى الكلية . وكان عيسى قد وصل إلى لندن قبل ذلك ببعض الوقت ، ومن ثم فقد أصبح خبيراً . والخبير لا يفسر للمبتدئ . فقد كان عيسى يقودني - تنزل ، تبتاع التذكرة ، ندخل القطار ، نخرج منه نصعد إلى السطح . في اليوم التالي ذهبت وحدي وقرأت التعليمات المتعلقة بالأرصفة وأرقامها واتجاهاتها والخطوط المختلفة التي تمر بالمحطة . وعندها سرت على هدى .

وقد عرفت فلسطين باصات تنقل الركاب من مكان إلى آخر . لكن حتى باصات لندن كانت تختلف عن تلك التي عرفتها . فهي ذات طابقين . واكتشفت حالاً أن الركوب في الطابق الأعلى فيه متعة خاصّة للاكتشاف والمراقبة .

وتبدل طعام الفطور الذي كنت أعطاه في البانسيون ، (وهو نفسه الذي كان يُقدم لي فيما بعد لما سكنت عند أسرة أو في بانسيون أصغر) . ففي عكا والناصرة والقدس و . . و . . و . . كنا نجد على الطاولة لبنة أو جبنة ومع ذلك الزيتون أو الزعتر (الصعتر) والزيت . وقد يكون هناك مربى أو دبس (هذا بعد الحرب العالمية الأولى) . لكن في البانسيون الذي أقمت فيه يومها كان الطبق الأول إمّا فاكهة (وغالباً ما تكون موزة) أو نوعاً من الحبوب المطبوخة يتلوه بيض مقلوّ أو بيض مع النقانق أو البيكون أو نقانق وحدها أو من قطعة سمك مسلوقة مع صوص خاص بها . يرافق ذلك كله خبز وزبدة ومربى وشاي .

في بيت ماري نصار

كان لكارل نصار أخت (ماري) تقيم في إنكلترا . فكان من الطبيعي أن أزورها مع زوجها - فرانك أوستن . وبعد الاتفاق على الموعد ، أعددت شنطة صغيرة «الويك إند» . وقلت لنفسي العائلة تعيش في قرية صغيرة ، لذلك فمن الخير أن أحمل معي

كـتـاباً إذ لن يكون هناك لا صـحف ولا من يحـزنون . وصلت بكردج (Puckeridge) وقد أظلمت الدنيا ، نزلت من الباص وقصدت البيت . تعارفنا وتحدثنا .

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي سمعت حركة في البيت ، فنزلت إلى المطبخ فإذا بماري تعد فنجان الشاي المبكر - وهي عادة إنجليزية يحافظ عليها محافظة تامة - ثم تناولت الجريدة وقالت نقولا هذه جريدة اليوم اقرأها قبل أن ينهض فرانك ، إنه لا يحب أن يؤجل قراءتها .

بكردج قرية تتكون من شارع واحد هو جزء من الطريق الرئيسي بين لندن وكمبردج ؛ ومن الشارع تتفرع شوارع صغيرة إلى البيوت . عدد سكان القرية كان يومها نحو ثلاثمئة نسمة . ولما خرجت أتجول فيها ، وجدت أن القرية فيها مكتب للبريد (ومعناه خدمة التلغراف والحوالات المالية) ونحو خمسة أكشاك للتلفون ، ومكتبة لتأجير الكتب . تصلها صحف الصباح في الساعة السادسة . كان فيها دار سينما ومقهيان ومطعم يعلوه فندق فيه ثلاث غرف للنوم . هذا أيضاً شيء جديد بالنسبة لي -هذه القرية تتميز على عكا والناصرة وجنين ، لا على قرى في بلدي فقط .

وما دمت قد أشرت إلى الحوالات المالية البريدية ، فالترتيب المتبع يومها هو أن القرية التي ليس فيها مكتب للبريد كان موزع البريد يأتيها من أقرب مركز لذلك حاملاً معه لا الرسائل فحسب ، بل قيمة الحوالات البريدية (ضمن حدود معينة) فيسلم المبلغ لصاحبه ويأخذ توقيعه . كما أن الرزم البريدية كانت يومها تحمل إلى العنوان ، وإذا كانت الرزمة آتية من الخارج ومن الواجب دفع رسم جمركي عليها فإن موزع البريد يتقاضى الرسم ويعطي الإيصال ، إذ إنها تكون قد فتحت في مكتب الرزم البريدية الرئيسي وحسب المطلوب عليها . وكان على الشخص المعنونة رزمة باسمه الحق في أن يرفض تسلمها ، فيعيدها الموزع إلى مكتب البريد .

تلك الصدمة

لست أدري هل اعتبرت هذه الأمور «صدمات» يومها؟ أحسب أنه لو كان عندي من الوقت ما يكفي لتخطيط انتقالي إلى لندن وتحضير الثياب اللازمة والقراءة عن

المكان الذي أقصده ، لعلّي كنت أقف من الأمور موقفاً مختلفاً . لكنّي لم أعطَ الوقت الكافي لذلك كله . والواقع إذا كان ثمّة صدمة أصلاً فقد جاءت لما قيل لي أحمل شنطتك واذهب إلى لندن . وفي الطريق ، عندما كان يتاح لي أن أفكر في هذا الذي كنت أنا مقبلاً عليه ، كنت أنتظر فرقاً وفرقاً كبيراً . لكن انتظار الفرق شيء ، وعيش هذا الفرق شيء آخر . والذي أذكره عن الأسابيع الأولى في لندن أنني لم أكن «كالبدوي الداخل على مدينة» ، كما يُقال في مثل هذه الحالة . لا ، كنت أنظر حولي ، أسأل من يعرف ، وأتفحّص دليل لندن للباصات وقطار تحت الأرض ، وأتعلم وأتصرف . ولا شكّ أنني كنت أخطئ ، وقد أخطئ حتى هذه الأيام إذا أنا ذهبت إلى مكان جديد (أو حتى في لندن نفسها) . لكن المهم في مثل هذه الحالة أن لا يتكرر الخطأ بسبب الإصرار على ارتكابه .

وكان علي أن أبتاع بعض الثياب : بذلة وحذاء وجوارب صوف وقفازاً . وهنا فوجئت بشيء يختلف عمّا ألفت في أكثر الأماكن التي عرفتها . لم تكن ثمّة مساومة . فالسعر هو السعر ، وكل ما تحتاجه هو أن تختار ما تريد أو تطلب ذلك إذا لم يكن معروضاً ، وتجمع حاجاتك ، ويجمع صاحب المحل أو البائع فيه أرقامه ، وتتبادلان الحاجة بالنقود .

أنا أكتب هذه المذكرات ، مسوّداً عدداً كبيرا من الصفحات ، على دفعات ، أتوقف عن الكتاب عندما أحب ، وأعود إليها عندما أرغب . ومن عادتي أن أفتح التلفزيون (أو التلفاز إن كنت تصر على ذلك) لا لأشاهد برنامجاً معيناً ، ولكن لأستريح من عملي ، مهما كان نوع العمل . فإذا أعجبني البرنامج صرفت عليه بعض الوقت ، وإلا تركته . واليوم – قبل نحو الساعة – رغبت في مشاهدة التلفزيون للاستراحة ، فكان البرنامج مسابقة في كرة القدم بين شتوتغارت وكولون (وكان المعلق يلفظ اسمها كولونيا) . وأنا أحب مشاهدة لعبة كرم قدم جيدة . فتابعتها . وقد تغلبت كولون على شتوتغارت بثلاثة أشواط للاشيء .

ولكن ماهي العلاقة بين برنامج التلفزيون (صيف 1989) ومذكراتي؟ تذكرت وأنا أشاهد الفيلم أموراً قديمة ، ومرت أمامي صور تعود إلى عقود من السنين خلت . هذه الذكريات هي التي حملتني على تدوين هذه المقدمة القصيرة . أول ما تذكرت أنني

أنا ، وأنا لم أكن أجيد من لعبة كرة القدم سوى الركض وراء الطابة (الكرة) وقد ألحق بها وعندها أضربها ضربة كانت في أغلب الحالات تأتي عوجاء لوقاء ولكن ضعيفة أصلاً . ومع ذلك فقد مرّت عليّ مدة وأنا أدرب فرقة المدرسة الثانوية بعكا على لعب كرة القدم . ما في غيري ، أو ما في في الميدان غير حديدان ؛ والمدرسة يجب أن يكون لها فرقة ؛ والفرقة تتدرب باللعب أمام فرقة أخرى من المدرسة ، لكن بين حين وآخر نزار أو نزور ، وكانت كرة القدم إحدى مواد الضيافة الرئيسية في الحالتين . ومع كل هذا فقد نجحت في التدريب على الأقل من حيث النظام وتمرير الطابة (الكرة) . تذكرت هذه الفرقة (أو على الأصح الفرق) التي دربتها وأنا «أتفرج» على لعب بين فريقين ألمانيين مشهورين ، وعلى ملعب مدهش ؛ وكان ملعبنا تراباً وكانت أحذية التلاميذ على قد الحال!

من لندن إلى ميونيخ

والأمر الثاني الذي تذكرته كان مرتبطاً بكولون . في الأسبوع الأول من شهر نيسان/أبريل (1936) سافرت بالقطار من لندن إلى ميونيخ . وكان القطار قد نقلنا من أوستند (الميناء البلجيكي) إلى كولون ، وهناك بدلنا القطار إلى ميونخ . والمهم هنا هو كولون بالذات . في أعقاب الحرب العالمية الأولى فرضت معاهدة فرساي على ألمانية . ولست أريد التحدث عن الشروط التي فرضتها دول الحلفاء على ألمانية لمنع عودتها إلى إنشاء آلة حربية على غرار ما كان عندها سنة 1914 . ولكن واحداً من هذه الشروط كانت كولون مرتبطة به . فهذه المدنية تقع في وادي الراين ، ومن روافده نهر الرور (Ruhr) . وقد كانت فرنسة احتلت هذه المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى لخلاف وقع حول التعويضات . وأخيراً في سنة 1925 وقع اتفاق لوكارنو ، الذي حدد أموراً كثيرة ، كان منها تحييد «أرض الراين» بحيث لا يدخلها جيش ألماني قط . وقد قبلت الحكومات الألمانية المتعاقبة هذا الوضع .

لكن سنة 1933 عين هتلر مستشاراً للرايخ (الألماني) وفي السنة التالية أصبح زعيم الرايخ (أي رئيس الدولة) . ومن مركز القوة هذا بدأ هتلر يتحلل من قيود معاهدة

الصلح وملحقاتها . وفي شهر نيسان (سنة 1936) ألغى القيد الوارد في اتفاقية لوكارنو والذي يحيد أرض الراين وأمر الجيش الألماني بالدخول إلى المنطقة .

جنود هتلر

لما مررت أنا بكولون ، بعد ذلك بأيام فقط ، كانت أحذية الجنود تقرع في قاعات المحطة الكبيرة ، وكان القوم جذلين لذلك مسرورين به ، وقد أعجبهم الجنود المسلحون وهم يدخلون بلدهم ومنطقتهم بعد نحو ست عشرة سنة . بعد بضعة أسابيع قال لي ألماني ، كان صديقاً لعمي (شقيق أبي) الذي كان يقيم في ألمانية ، «الألماني يشعر بأنه عريان إذا لم يلبس ثوب الجندية» . - لما قال لي ذلك تذكرت الجنود في كولون ؛ لكنني رأيتهم كثيراً في ألمانية بعد ذلك .

أما شتوتغارت فقد تذكرتها لشيء آخر يعود إلى سنة 1937 . كنت أكثر التنقل على البسيكليت في ألمانية ؛ وأتنقل مسافات (بلغت في مجموعها نحو 3000 كيلومتر تقريباً) . وفي يوم خططت لزيارة تبدأ من ميونخ إلى شتوتغارت ثم إلى فريبورغ فالغابة السوداء فبحيرة كونستانس فميونخ . ونصحتني السيدة شريفر ، التي كنت أسكن في بيتها ، أن لا أطيل المسافات . ولكنني في اليوم الأول سافرت من ميونخ إلى شتوتغارت - مسافة 155 كيلومتراً ، دفعة واحدة . وقضيت يوماً فيها أزورها وأستمتع بمدينة كانت يومها (قبل ثلاث وخمسين سنة) مدينة امفتياترات طبيعية ، تغطي المساكن سفوحها وتفرق بين المنازل الحدائق الغناء ؛ حتى إذا وصلت إلى وسط الامفتياتر وجدت الصخب والضجيج اللذين كانت تتميز بهما كل مدينة كبيرة . وقد زاد هذا ولا شك هذه الأيام . وكانت آخر مرة أجزت على مقربة منها سنة 1971 - ولكن في القطار عبر محطتها فقط!

ذكريات عن كولونيا

ولما انتهت مباراة كرم القدم ، وتغلبت فيها كولون على شتوتغارت ، أقفلت التلفزيون ، وجلست أكتب هذه الكلمات . وقبل أن أنسى . إن ماء كولونيا المعروف إنما

يُسمّى بذلك لأن كولون تدعي أنها هي أول مدينة استخرجت هذا العطر - لعلّ المقصود شكلاً معيناً من الصناعة . وهناك صنف من عطور كولون اسمه (4711) والقصة المتعلقة باسم هذا العطر ، على ذمة حفيدة منتجه ، نقلاً عن غدرون شريفر ، هو أن هذا الرجل ، الذي أنتج أصنافاً متعددة ، كان هذا الصنف آخر ما أنتج . وكان عدد أبنائه قد أصبح أحد عشر - من هذا العدد أربع بنات وسبعة صبيان - فجمع وأطلق على هذا الصنف اسم (4711) ، أي أن رقمي الأربعة والسبعة عندما يجمعان يؤديان رقم أحد عشر .

أما غدرون شريفر فلها في هذه الصفحات موضع خاص بها .

خلال السنوات الأربع التي قضيتها في الغرب ، تعلمت أموراً كثيرة . وكان هذا التعلم ، في غالب الحالات ، أساسه الاكتشاف لا السماع والقول . ومّا لا أشك فيه أن اكتشافي لشؤون إنكلترا ، ممثلة بلندن خاصّة ، كان الأوسع والأعمق ؛ وكان يلي ذلك تعرفي ، مكتشفاً أيضاً ، على ألمانية ؛ ثم تأتي معرفتي لفرنسة ، خاصة عبر باريس وبيزانسون ، وهي الأقل عمقاً والأضيق أفقاً . ولم يعد ذلك إلى المدة التي قضيتها في كل من هذه البلاد فحسب ، فقد كان ذلك عاملاً مهماً ؛ ولكن أحد الأسباب الرئيسية كان معرفتي باللغة . فأنا أعرف الإنجليزية والألمانية ، فيما لا أعرف اللغة الفرنسية إلا قراءة .

خواطر عن باريس

أقول اكتشفت أموراً كثيرة عن كل من هذه المدن الكبيرة . وقد كان الانطباع الأول الذي وقر في نفسي بعد الزيارة الأولى لباريس (1937) هو أن هذه المدينة غانية تجيد تجميل نفسها وتحسن اختيار زيّها وثيابها ، وهي معروضة يمكن للمرء أن يراها ، ويرى جمالها ، أيات وانجازات ، دون جهد أو إرهاق . فأنت إذا انتقلت ، كما انتقلت ، ماشياً متمهلاً من قوس النصر عبر الشانزليزيه إلى الكونكورد والتويلري (اللوفر) ، رأيت من باريس جبينها المشرق ، وصدرها الناهد ، يتوسطه يومها ، مقهى هنغارياً ، وسرتها الخفية تحت ثوب من الحرير الصيني أو الليوني الشفاف . ومن الكونكورد تتجه نحو

ساكري كير (القلب الأقدس) أو نحو الحي اللاتيني، حي توفيق الحكيم وزكي مبارك وغيرهما. وكان البعض صادقاً والبعض مهوّشاً فيما كتب. فقد يسطو على حساء البصل الذي صنع لغيره، أو يفترض نفسه أنه يرافق حسناء كان صديقه قد اقتنصها (ولم يكن الاقتناص في باريس صعباً قط، ولا في يوم من الأيام). وأنت إذ تسير في أي من الاتجاهين تجاري فخذي باريس. لكن لأن باريس قد تعبت من هذا الاستلقاء فقد حنت ركبتها اليسرى كي يتم لساكري كير الارتفاع المناسب. أمّا الرجل اليمنى فتتجه نحو مطاعم اليونان حيث يقدم الأوزو (العرق) مع فجلة وحبة زيتون تقليداً للمازة الشرقية (يا عيب الشوم)، أو يوضع أمامك صحن فيه تِمّنٌ (أي أرز) ولحم، كي لا يحسب عبد الملك، صديقنا العراقي، أنه بعيد عن جو بلده.

فإذا تعبت من البصبصة أو الحسمسة أو المصمصة، أو أفلت الصيد منك إذ اكتشف أنك طفران تريد متعة مجانية أو شبه مجانية (أي على حساب الأخرى)، وأدركت أنك بحاجة إلى أن تطهر نفسك من الآثام، على تباين أنواعها؛ فأمامك الكنيسة الكبيرة المدهشة التي تقتعد ساكري كير، أو جامع باريس. والفرق بين الاثنين كبير، لا من حيث العبادة والتعبد، فالذي يريد الاتصال بالله لا يعجزه المكان.

عودة إلى لندن

كان العنصر الثاني الذي أثر في محاولاتي لاكتشاف المجتمع الجديد، وفي بريطانية خاصّة، هو أنني آت من فلسطين -من بلد كانت بريطانية تطبق فيه سياسة الانتداب التي كان وعد بلفور (أي إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين) الأساس فيها. وقد عرفت المواقف القمعية التي لجأت إليها حكومة الانتداب لتيسير نقل الأراضي إلى اليهود، والمحاباة التي كان اليهود يعاملون بها. كما شهدت (ولا زلت إلى اليوم أتذكر) يوم إعدام الزير وجمجوم وحجازي في عكا (1930).

وأنا الآن في العاصمة التي تطبق القرار السياسي الذي اتخذته أيام الحرب العالمية الأولى؛ وأنا وجهاً لوجه أمام أولئك الذين يفعلون ببلدي الكثير. وقد زاد الطين بلة

مع الوقت قيام الإضراب ثم الثورة الكبرى في فلسطين (1936-1939) وأنا في بلاد الإنجليز .

هل يمكنني أن أكتشف هؤلاء القوم وما عندهم من مناقب وأتعلم منهم؟ وقد سألت نفسي هذا السؤال مرات ومرات ؛ وأنا واثق من أن هذا السؤال مرَّ بخاطر كل منَّا مرة ومرة . ولكنَّني وجدتني راغباً في أن أتعرف إلى هؤلاء القوم وأكتشف شيئاً من أسرار الحياة عندهم ، مما قد يعينني في مستقبل حياتي . كنت قد قرأت كتاب سر تقدم الإنجليز السكسون ، الذي نقله فتحي زغلول إلى العربية . وجربت أول الأمر أن أرى الحد الذي أدركه مؤلف الكتاب (وهو فرنسي) عن سر هذه الجماعة . لكنَّني تخليت عن هذه الفكرة وقرَّرت أن أسبر غور الأمور بنفسي ، وعلى طريقتي . وكان من حسن حظّي أنني لم أمِل إلى علم الاجتماع أو ما يمت إليه بصلة . إذ إنني كنت لجأت إلى أساليبه ووسائله من استبانة ترسل إلى فئة من الناس ترى أنت أنها تمثل قطاعاً معيناً من المجتمع ، وتحصل على الأجوبة وتحسب الحسابات وتخرج بما يُسمَّى معدل . والمعدل تعتبره أساساً ومن يخالفه لا بدَّ أن يكون شاذاً . وقد نسيت أن المعدل ذاته الذي ترتكز إليه لم يزد عن كونه نقطة التقاء الشواذ من الجانبين .

صحيح أنني كنت أعنى بالتاريخ ، وبالتاريخ القديم بنوع خاص ، وقد يحملني هذا على الحكم على أساليب «الاكتشاف» وفق فلسفة تاريخية معيَّنة . إلا أن هذا لم يكن هو الذي حدث . فمن الجهة الواحدة لم أتخذ لي فلسفة تاريخية أيديولوجية المنحى بحيث تقيدني . أمَّا من الجهة الأخرى ، فإنني لم أنوِ الحكم على الناس حكماً زمنياً تاريخياً . كنت أريد أن أتعرَّف إليهم أفراداً ؛ فذلك أدعى إلى اكتشاف مشاربهم واتجاهاتهم .

وكان ثمَّة عامل آخر كان له بعض الأثر في تعيين سبل اتصالي بالناس – وفي الجامعة قبل كل شيء . فقد كانت سني تزيد نحو عشر سنوات عن معدل سن الطلاب والطالبات الذين يحضرون المحاضرات معي . وهذا يبعدني عنهم كما كان يبعدهم عني . فمن الطبيعي أن أكون أكثر احتراساً في حديثي معهم واختلاطي بهم . وقد شعرت بهذا خلال السنة الأولى خاصَّة . فالموضوعات متعدِّدة ، والتبديل في المساقات والأساتذة قد يحدث فصلاً بعد فصل ، والسنة الدراسية في إنكلترا هي

ثلاثة فصول لا فصلين اثنين (على الطريقة الأميركية) ؛ وكنت عضواً في أكثر من جمعية ، لذلك كانت الأمور على ما يرام من هذه الناحية . لكن الشيء الذي لاحظته في نفسي ، ولعلّ ذلك كان بسبب سنّي ، هو أنني كنت أحظى باحترام التلاميذ أولاً ، وثانياً إذا حاولت التقرُّبَ من أحدهم كان يعتبر ذلك اهتماماً به مني يستحق العناية من جهته .

لم يكن لون وجهي ما يحمل الآخرين ، أي الإنجليز ، على الحذر في تصرفهم نحوي . فقد كان هناك شعور خاص نحو الملونين . وكانت أسر كثيرة ترفض أن تؤجر غرفها للهنود مثلاً . أذكر وأنا أفتش عن غرفة في أول عهدي بلندن أن سألتني صاحبة البيت (بعد أن حصلت على المعلومات وقلت لها : إنني سأتصل بها تلفونياً لأخبرها عن قراري) قائلة : «هل ستقيم أنت بالذات في الغرفة؟» استغربت السؤال ، ولكنّني أجبتها بالإيجاب ، ثم استفسرت عن سبب سؤالها . فقالت : «نحن لا نؤجر هنوداً هنا ، لذلك خشيت أن تكون أنت وسيطاً لاستئجار الغرفة ثم يأتي هندي فيقيم فيها» .

ولم يكن في أسلوب استعمال السكين والشوكة ما قد يحول بيني وبين الناس . فالإنجليزي كان ، ولا يزال ، مثل بقية الأوروبيين ، حريصاً على أن تمسك السكين باليد اليمنى والشوكة باليسرى ، فيكون القطع (للحوم) والأكل عملين متلازمين (الأميركي يقطع اللحم بالسكينة بيده اليمنى ، ثم ينقل الشوكة إليها ويأكل) . أذكر هذا بمناسبة تعود إلى أيامي في لندن . فقد دخلت يوماً مطعم جمعية الشبان المسيحية لأتناول طعام الغداء . وبعد أن جلست إلى إحدى الموائد جاء شخص واستأذن في أن يجالسني ، ولم يكن سبيل لمنعه . قد تضايقت قليلاً سيّما وأن الموائد الخالية كانت كثيرة في قاعة الطعام . ولم يلبث أن بدأ الحديث معي وسألني من أين أنا وأضاف قبل أن أجيب أنه متأكد من أنني لست أميركياً ، لأنني آكل على الطريقة الأوروبية . ولم يظن أنني إنجليزي لأنني لم أكن بعد قد أتقنت «لفظ» الإنجليزية . ودار بيننا حديث ممتع عن الدنيا والناس . وقد أدركت يومها أنه ليس من الضروري أن يكون كل داخل عليك متطفلاً مضايقاً . الرجل أراد الحديث مع شخص آخر ، لا أكثر ولا أقل .

ولكن هل معنى هذا أنني قضيت هذه السنين الأربع وأنا أمتص ما عند القوم كالاسفنجة؟ وهل مرت أيامي جميعها هانئة وادعة؟ أحسب لو أن هذا الذي حدث لكان وضعي مثل بعض الأصدقاء الزملاء الذين قضوا سنوات يطلبون العلم في لندن وغيرها وباريس وسواها والمدن الأميركية ثم عندما يعودون لا يبدو لذلك أثر في حياتهم لا فكراً ولا اجتماعياً ولا لغة . وكل ما يحدث أنهم تعلموا التاريخ أو الأدب أو الهندسة على اختلاف أنواعها والكيمياء على تنوع تخصصاتها .

التفاعل مع الإنكليز

لا أنا تفاعلت مع الجو الجديد . تفاعلت مسالماً ، وتفاعلت مخاصماً ، وتفاعلت متأثراً . وقد تبدو هذه الأشياء متناقضة إلى درجة كبيرة ،لكن الحياة الجادة النافعة لا تسير على وتيرة واحدة . لا بدّ لها من ارتفاع وانخفاض ومن اتجاه نحو اليمين وسير نحو اليسار ، ونظرة فيها حب وأخرى فيها ازورار . والذين لا تمر بهم أمور من هذا النوع هم من عبيد الله البطالين (ولو أنهم بلغوا من العلم الكثير الكثير) بالنسبة لأنفسهم أولاً وللذين سيعنون بهم ثانياً .

والذي أراه أن بعض ما أصابنا - في بلاد العرب- من توقف عن السير أماماً في الميادين العقلية والفكرية يعود إلى عبيد الله البطالين هؤلاء . وهم الذين يجترون أقوالهم - وقد لا يكون فيها حتى آراء - يوما بعد يوم ، فتصبح حياتهم «الفكرية» مثل حياة الروبوت تتكرر عناصرها وتتجمّد مع الزمن . وعندها يدّعون أنهم يحافظون على التراث والتقاليد . وهم حافظوا على التقاليد ، لكنّهم لم يفهموا التراث لأنهم لم يخضعوا أنفسهم وآراءهم ولو لمبضع صغير من مباضع الجراحين .

ومثل هذه الأمور لا تقع دوماً وفق خطة مرسومة أو برنامج معد . إنها تأتي ، في أكثر الحالات ، ردات فعل لأمر يعرض لك ، أو استجابات لتحديات ، كبرت هذه التحديات أو صغرت . وحتى قوة هذه التحديات وضعفها لا يتقيد بقيود معينة أو معروفة أو مقبولة . فهناك الخلفيات السابقة التي قد تكون محبوسة في النفس فتنفجر بسبب تحدٍّ بسيط ، وعندها قد تكون الاستجابة غير مناسبة . ولكن متى

وقعت أصبحت جزءاً من تجربة المرء ، وليس له أو ليس باستطاعته أن يمحوها . وقد يأتي تحدٍّ عنيف قوي كان يجب أن تكون الاستجابة له سخطاً وغضباً ، لكن الجو النفسي الداخلي والخارجي لا يسمح لذلك ؛ ومع ذلك فهي تجربة تسجلها النفس أو العقل كما حدث في الحالة الأولى .

على أنني أقول هذا ، وأنا أشعر أن الكثيرين سيعتبرون هذا النوع من الكلام فارغاً ، إنني لم أثر ، إلا في النادر للأمر البسيط . فأنا لم أغضب ولم أرمِ الإنجليزي بالجهل لأنه لم يكن قد سمع باسم الموسيقار عبد الوهاب سنة 1935! نعم غضب صديقي وانفعل وقال إن مثل هذا الأمر يدل على الجهل الفاضح ، ولما روى لي القصة وحاولت أن أشرح له المشكلة كاد أن يتهمني بممالأة الإنجليز في تجاهلهم المقصود لموسيقار كبير مثل محمد عبد الوهاب .

فلما سألني أحدهم عن الوقت الذي اعتنقت فيه أسرتي المسيحية ، مضيفاً أن المسيحية نشرها في ربوع بلادي - وفلسطين بالذات - المبشرون الإنجيليون (ولم يعرف حتى بوجود مبشرين من الكاثوليك) ؛ لما سألني هذا السؤال أخذت من الوقت ما يكفي لأن أقول له إنني أنا متحدّر من القبائل التي اعتنقت المسيحية في القرن الرابع للميلاد ، أو حتى قبل ذلك . ولما سألني أول خياط أعد لي بذلة في لندن عما إذا كنت لبست بذلة قبل قدومي إلى بلده ، أوضحت له الأمر بالتي هي أنفع .

الصهيوني برودتسكي

ولكن لما حضرت مرة خطابا ألقاه الأستاذ برودتسكي الزعيم الصهيوني عن قضية فلسطين وقال والأمير فيصل وافق على مجيء اليهود إلى فلسطين وقفت وسألته - وقد وضع السؤال بشكل يوحي بالجواب - قائلاً : «ألا يعرف الأستاذ برودتسكي أن الأمير فيصل ، كما روى الدكتور قدري ، اشترط تحقيق الوعود الإنجليزية مقابل الموافقة؟» أجاب «أنا لا يهمني لا الدكتور قدري ولا غيره» . عندها شعرت بأمور ثلاثة : الدم يغلي في عروقي والغصّة تعتصر قلبي ومثل الدمع يتجمع في المآقي . ولعلّ هذه كانت جميعها ردّات فعل لوقاحة الرجل ولانعدام النصير وتعثر العرب -

في فلسطين وغيرها - في تنظيم الدعاية للقضية والعمل لها . كان هذا قبل قيام الثورة الكبرى في فلسطين (1936-1939) .

لندن بلا أجانب

لندن التي عرفتها في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية كانت إنجليزية في كل مظهر من مظاهر الحياة فيها ، سحنة ولغة ولوناً وأشكال نفوذ ومطاعم ومشارب وحانات . لم يكن هناك من الأجانب إلا القليل نسبياً ، ولم تكن ترى في الشوارع سوى الشعب الإنجليزي ولم تكن ترى في المطاعم سوى الإنجليز . صحيح أنه كان هناك عدد كبير من المطاعم الأجنبية ، لكن كان يترتب عليك أن تذهب إليها لا أن تأتي هي إليك كما هي الحال اليوم في سنة 1989 . فإذا أردت أن تذهب إلى مطعم إيطالي ، فهناك منطقة كانت تختص بهذا النوع من المطاعم مبدؤها «توتنهام كورت رود» و«شارلوت ستريت» . وإذا أردت وأنت شرقي أن تبتاع شيئاً من البامية أو الثوم أو البصل ، فكان عليك أن تذهب إلى «هيلينك ستورز» في «شارلوت ستريت» لتبتاع هذه الأشياء مع العدس والبرغل إذا لزم الأمر . وإذا رغبت في أن تأكل في مطعم أجنبي ، عليك إما أن تذهب إلى واحد من هذه المطاعم التي كانت مرتفعة أسعارها ومرتبة أمور الدخول إليها باللباس الرسمي ، أو أن تذهب إلى «سوهو» حيث تعثر على المطاعم التي تريد من صينية وهندية وإفريقية وأوروبة شرقية وأوروبة أوسطوية وما شابه ذلك . ولكن المهم أن الجو العام في لندن كان جواً إنجليزياً ، فيما تجد اليوم مثلاً أماكن تكاد لا تسمع فيها سوى اللغة العربية مثل «ادجوار رود» وأماكن تكاد لا تسمع فيها اللغة الإنجليزية البتة . هذه كلها لم تكن موجودة في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية التي قضيتها في لندن . ومع ذلك فقد كنت تسمع بين حين وآخر أحد الناس يتكلّم العربية أو شخصاً آخر يتكلم اللغة الأوردية أو شخصاً ثالثاً يتكلم اللغة الأمريكية بحيث يتضح الفرق بينها وبين اللغة الإنجليزية . صحيح أنه كانت ثمّة مواسم للزوار من الخارج ، وهذه المواسم كانت تكثر في لندن فيها جماعات المتكلمين باللغات الاسكندنافية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، لكن هذا

كله كان شيئاً خارجياً بالنسبة إلى جو المدينة اللندنية بالنسبة إلى الحياة في لندن .

هذا ما عرفته يومها . وهذه الأمور كلها تظل في نفسي وثيقة الصلة ، مرتبطة بالحياة ، واضحة الصورة ، مكتملة الأجزاء المختلفة من الحياة لأنني عشتها سنوات .

وعلى كل ، فما الذي تعلمته من هذه الإقامة الطويلة في لندن ، ولسنوات أربع؟

تعلمت أولاً وممارسةً معنى الحرية في الواقع . تعلمت ذلك لأنني رأيت الناس أحراراً ، يتصرَّفون أحراراً ، يعيشون أحراراً ، يتحدثون أحراراً ، يكتبون أحراراً ، ويسمعون ويناقشون أحراراً . لماذا؟ لأن هذه البلاد كانت قد عرفت معنى الحرية من حيث إنها تقييد للحاكم سنة 1215 للميلاد لما نشرت «الماغنا كارتا» التي نص فيها على حرية الشعب الإنجليزي . ومن ذلك الوقت إلى حين جئت أنا إلى إنكلترا ، كانت هذه الأمور تتطور يوماً بعد يوم ، سنة بعد سنة ، جيلاً بعد جيل . صحيح أن هناك رؤوساً سقطت . صحيح أن هناك ثورات قامت . لكن المهم في النهاية أن هذه القواعد ظلَّت مستمرةً ، وظلَّ الشعب الإنجليزي يفهم معنى الحرية ويمارسها . وأنا تعلمت هذا من وجودي هناك . تعلمت أن المرء يستطيع أن يقول ما يشاء ، وأن يكتب ما يشاء ، وأن يتحدث عما يشاء دون أن يرى خلفه البوليس أو الشرطي يقوده إلى المخفر دون أي أمر من مركز قضائي أو من هيئة لها الحق في أن تلقي الحكم النازي .

في ألمانيا النازية

هناك ، في المانيا النازية ، كان الناس يقرأون شيئاً واحداً ويسمعون شيئاً واحداً ، وينتظر منهم أن يفكروا بطريقة واحدة ، هي الطريقة التي كان يفرضها الحزب ، والحزب كان دائماً تابعاً لهتلر . فلم تكن القضية قضية حزب واحد يحكم وإنما كانت قضية شخص واحد يأمر فيطاع .

دخلت عليَّ يوماً السيدة «شريفر» وأنا في غرفة الجلوس في منزلها الذي كنت أحتل فيه غرفة ، وناولتني كتيباً صغيراً وضعه «غوبلز» ، وزير الإعلام (كما كنّا نسميهم في ذلك الوقت) ، عن الشيوعية . قلّبت صفحات من هذا الكتيّب ثم دفعت به جانباً . سألتني : لماذا؟ قلت : هذا شيء سمعته كثيراً في هذه البلاد عن

الشيوعية وفيه كثير من الكذب . قالت : هل تعني بذلك أننا نحن نكذب والإنجليز دائماً صادقون؟ قلت : لا ، الجميع يكذبون . كل ما هناك أنني لا أستطيع في ألمانية أن أبتاع كتاباً يدافع عن الشيوعية أو على الأقل يوضحها توضيحاً صحيحاً . أما في لندن فأنا أستطيع أن أمر «بتشارنغ كروس رود» حيث توجد المكتبات الكثيرة ، حوانيت بيع الكتب الجديدة والمستعملة والقديمة فأجد عشرات الكتب ، البعض يحمل على الشيوعية والبعض يؤيدها ، وهناك فريق يضعها في مكانها الصحيح ، فأقرأ وأحكم ، أما هنا فالحكم صادر وعليّ أن أتقبله . فالقضية ليست قضية كذب وصدق وإنما هي قضية وجود الأشياء التي نريد أن نقرأها بالطريقة الممكنة .

في ألمانية ، وفي ذلك الوقت (1936-1937) كان هناك استعداد للحرب . الاستعداد كان واضحاً في كل شيء . لا في كثرة الجنود الذين كانوا يظهرون في كل مكان في ألمانية ، ولكن في ما كان يعانيه السكان حتى في سنة 1936 قبل الحرب بثلاث سنوات تماماً من تقنين في كل شيء . والأمر بسيط . الاستعداد للحرب معناه الإنفاق على التسليح والتسلح . وإذن ، فهذه هي القضية ؛ هذا الأمر يستهلك قسماً كبيراً من موازنة الدولة وموارد البلاد . وعندئذ ، فإنّ الأشياء التي يجب أن تستورد من الخارج لا تستورد لأن الدولة لا تستطيع أن تدفع ثمنها . ومعنى هذا إذاً ، أن الناس يجب أن يكتفوا بالموجود ، والموجود قليل .

دخلت السيدة «شريفر» يوماً تحمل زجاجة عطر قديمة لا تزيد في سعتها على خمس ليتر ولم تكن مملوءة تماماً بالزيت ، زيت الزيتون ، وقالت : نحن في هذا البيت خمسة أشخاص بدون «إلزا» (إلزا كانت الخادمة) ، هذه حصتنا من الزيت لأسبوع كامل .

ألمانيا بلا ورق تواليت

في ألمانية ، في الفترة التي قضيتها والتي امتدت عبر سنتي 1936 و1937 لم يكن هناك ورق تواليت للبيع . وكان الناس يستعملون ورق الجرائد . ويمكن القياس من مثل هذا : الاستعداد للحرب وكبح الحريات ، أظهر لي ما كانت تتمتّع به بريطانية ، لندن

مثلاً ، وباريس ، من بحبوحة من جهة وحرية من جهة أخرى .

لما ذهب تشمبرلين ، رئيس وزراء بريطانية ، إلى ميونيخ لزيارة هتلر والتحدث معه عن شؤون السلم والحرب ، عاد إلى لندن يحمل ما سماه «اتفاق السلم» ، لم تُكِل كل الصحف المديح للرجل كما لو كان نيفيل تشمبرلين في ذلك الوقت زعيماً في ألمانية ، حتى صحافة حزب المحافظين (حزبه) ، لم تكن متّفقة تماماً على أن الخطوة التي اتّخذها كانت صحيحة . انتقد الرجل . انتقد في غير الصحف . وكانت شمسية تشمبرلين موضع تنكيت وتهزئة على اعتبار أنها تمثل سياسته لا أن سياسته تمثل الرأي العام البريطاني .

كان ونستون تشرشل يدعو بريطانية إلى التسلح لأن ألمانية تتسلح . وونستون تشرشل كان يدرك ، وكان كثيرون غيره يدركون ، أن المنافسة لم تعد في أوروبة بين فرنسة وإنكلترا ، وإنما أصبحت ، منذ أيام الحرب العالمية الأولى ، منذ أيام القيصر وليام (ولهلم) ، إمبراطور ألمانية قبيل الحرب العالمية الأولى ، بين ألمانية وبريطانية . ألمانية كانت في أيام وليم تريد أن يكون لها حصّة في الاستعمار العالمي ، وهتلر كان يريد أن يعيد لألمانية سمعتها ونفوذها ومستعمراتها .

وما دمنا قد أشرنا إلى المستعمرات ، فلنشر إلى هذه القضية كما كانت بريطانية تراها .

في ألمانيا

1936-1937

كان اليوم الأول من نيسان عيد ميلاد أدولف هتلر ، دكتاتور ألمانية للسنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية وللسنوات التي التهمتها تلك الحرب .

كنت في ربيع سنة 1936 في ألمانية ، وذهبت إليها بقصد تعلم اللغة الألمانية . وقد اختار هتلر يوم عيد ميلاده لإقامة أول عرض عسكري في ألمانية منذ أيام القيصر وليام ، قبيل الحرب العالمية الأولى .

كان هتلر قد أخذ بتسليح ألمانية على طريقته . وإذن فمن المنتظر أن يكون هذا العرض العسكري شيئاً خاصاً . لذلك حرصت على حضوره .

كنت أقيم مع عمي رشيد وزوجته وابنه هاينز ، في بلدة قريبة من برلين اسمها فرستن فلده ؛ تركت البيت مبكراً ، وقطعت المسافة في قطار أوصلني إلى شارع وارتنبرغ في نحو نصف ساعة .

كنّا قد سمعنا من قبل عن برلين بعض الشيء ، حتى في دار المعلمين في القدس . وكان الشارع الرئيسي في برلين ، على ما قيل لنا ، هو انتردن لندن . وقد زرت هذا الشارع الأنيق - الأنيق في مقاهيه ومطاعمه وفي حوانيته وفي أشجار الزيزفون التي كان تحنو على جانبيه . كان شارعاً يبهر الكل بما فيه من جمال - ليلاً ونهاراً . وقد زرته مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك في زياراتي لبرلين . ثم لم أزره إلا في سنة 1971 ، وكان نصفه في برلين الغربية ونصفه الآخر في برلين الشرقية . ويقسمه جدار برلين . لم أكن أتصور يومها أنني سأرى مثل جدار برلين في لبنان!

على كل شارع وارتنبرغ كان الأصلح لعرض عسكري . فهو عريض وطويل ، ولم تكن الأبنية على جانبيه ، على وجودها ، مكتظة . وهذا للمحافظة الأمنية أيسر .

وقفت مع الواقفين في الشارع . وصلت حول الثامنة والنصف . واتخذت لي مكاناً

يبعد بعض الشيء عن الرصيف . ذلك أن الجنود المكلفين بالحراسة أرشدونا إلى النقاط التي يجب أن نقف عندها . كان الذين جاءوا لمشاهدة العرض كثيرين ، كثيرين جداً . وقد ذكرت الصحف الألمانية ، في اليوم التالي ، أن العرض العسكري شاهده نحو مليون شخص! ولكن المهم هو أن الشارع طويل ، فانتشر الناس ولم يزدحموا كثيراً . فضلاً عن أن الحراسة العسكرية لم تكن تسمح بتجمعات . كانت تطلب من الحضور الانتشار على طول الشارع ، لأن هذا يمكنهم من المشاهدة والرؤية بطريقة أفضل . وأضيف أنا أن ذلك كان يجعل المراقبة والحراسة أدق وأمنع .

صف الجنود الحراس على جانبي الشارع ، وعلى مسافات لا تعدو بضعة من الأمتار بين الجندي والآخر . وكان الجنود قد وضعوا على طريقة لطيفة رأيتها لأول مرة في حياتي . واحد من الجنود كان يتجه نحو الشارع ، والجندي الذي يتلوه كان يتجه نحو المتفرجين . ولذلك كانت المراقبة فيها من الحذر والوعي الشيء الكثير .

وانتظرنا - انتظرنا ساعة وبعض الساعة . ثم بدأت الحركة . سيارات المقدمة والريادة ، سيارات التأكد من خلو الشارع من الأخطار . جميعها سيارات عسكرية ، آلات الرصد فيها مخفية ، ولكن أسلحتها مهيئة للانطلاق . ذلك بأن كل دكتاتور كان يعرف هو ، ويعرف المرافقون له في العمل ، أن حياة أي منهم معرضة للخطر . كما كانوا يعرفون أن الفدائيين لا يتوقفون عن مقصدهم لمجرد أن سيارة مسلّحة مرت أمامهم!

ثم بدأت طلائع القوات المختلفة . مرت فرق مختلفة من الجيش ، بأسلحتها الكاملة من حيث البنادق المتعددة الأنواع ، والمدافع المتنوع الصنع . وكل جزء معدني فيها يلمع ، وكل جندي ينقل الخطى على طريقة الأوزّة . وأحسب أنني شعرت وكأن كل جندي يتحدّى العالم بأسره في مشيته ورفع رأسه ونظرته الحادة .

والجيش تمثل بأكبر عدد من الأشخاص والمجموعات . فالواقع هو أن الجيش كان أفراده الأكبر عدداً بالنسبة للقوات العسكرية المختلفة . وقد رتب له أن تبدو قوته للمشاهدين ، لأن الجيش ، ظلّ في نفوس الناس ، أنه هو آلة الحرب الرئيسية .

وجاءت البحرية الألمانية . كانت معاهدة فرساي (1919) قد حرمت على ألمانية ، فيما حرمت من الناحية العسكرية ، أن تبني سفناً حربية . وكان أن احتال المهندسون

الألمان العسكريون على المعاهدة ، فبنوا ، مثلاً ، «غواصة الجيب» وهي غواصة قوية لكنّها لم تتعدَّ الحدود والخطوط التي رسمتها المعاهدة .

ومع أن هتلر لم يتقيد بمعاهدة فرساي ، بل إن قيام هتلر واستيلاءه على السلطة إنما كان احتجاجاً على معاهدة فرساي وتحدّياً لها ، فإن الوقت لم يكن قد اتسع لبناء أسطول قوي . على كلٍّ كان هناك فرق من البحارة ومعهم نماذج من المدافع التي تحملها البوارج وغيرها من السفن الحربية .

لكن هتلر كان مهتماً بالأسطول الجوي - بالطائرة . وكان يحسب أنه يعتمد عليها في كسب الحرب . فدفع بمهندسي الطيران إلى بذل الجهد الكبير للتفنن في صنع الطائرة العسكرية القوية . وكلنا يعرف أن هتلر ، لمّا أمر بالهجوم على بريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، إنما اعتمد على الغارات الجوية . صحيح أن محاولته لم تنجح كما ظن ، لكن الطائرة العسكرية الألمانية كانت طائرة متقنة الصنع محكمة التخطيط .

لذلك لمّا مرّت الوحدات الجوية ، وكان الإعلان عنها قد سبقها وتحدث عن الطائرة ، قابلها القوم بحماسة يصعب وصفها . وعندها سمعت ولدين ألمانيين ، في سن العاشرة أو نحوها ، يقول أحدهما «الآن ، ليأت الفرنسيون» ويقصد أننا نستطيع أن نتغلب علهيم . فرد عليه رفيقه «وليأت الإنجليز أيضاً» .

وصول سيارة الفوهرر

وتلا هذا الموكب العسكري ، الذي استغرق مروره ساعتين وبعض الساعة ، موكب الزعامة . جاءت سيارة الزعيم «الفوهرر» ، وهي سيارة مرسيديس بنز سوداء كان يستعملها دوماً . كان عنده عدد منها في كل مدينة . وبهذه المناسبة فقد قضيت ، قبل ذهابي إلى برلين ، ثلاثة أسابيع في ميونخ . وكان البيت الذي أقمت فيه على مقربة من منزل هتلر في ميدان برنس رغنتن . وقد رأيته مرتين أو ثلاثاً . ولما مرّت سيارته أمام المشاهدين (في برلين) ، كان الترحيب به يشق عنان السماء . وكانت أول مرة أشاهد فيها موكباً من هذا النوع . فموكب جمال باشا في طولكرم ، قبل ذلك

بنحو عشرين سنة ، كان لعب أطفال ، بالنسبة إلى ما شاهدته يومها .

وجاء خلف سيارة الزعيم السيارات التي كانت تقل بقية زعماء الرايخ يومها . وكان أضخمهم حجماً ، وأكثرهم حملاً للأوسمة ، المارشال غورنغ ، قائد القوات المسلحة . ولفت نظري غوبلز ، الذي كان يلبس بذلة مدنية . غوبلز كان معتدل القامة ، وكان في رجله عرج . إنما الذي حملني على «البحلقة» فيه هو ما كنت قد سمعته عنه من معلمي الألماني (اللغة الألمانية طبعاً) قبل أيام . فقد مدحه - مدح تفكيره ، وعمق نظرته للأمور . لكنّه في ساعة من ساعات التجلي قال لي : «صحيح أن غوبلز ذكي جداً ، وصحيح أن فكره نير وآراءه ثاقبة - لكن كل ذلك شيء عادي بالنسبة لهتلر ، فهذا كلامه يأتي من السماء» .

وغوبلز كان وزير الإعلام ، الذي كان يسمى يومها الدعاية . وكان هناك رودلف هسّ وغيره .

كل ذلك كان ، بالنسبة لي ، شيئاً جديداً . بل يمكنني القول ، بعد هذه السنين الطويلة ، إنه ظلّ شيئاً فريداً . فأنا لم أشهد عرضاً عسكرياً مباشراً لا قبل ولا بعد .

لما عدت إلى منزل عمّي في ذلك اليوم ، وجدت عندهم صديقاً لعمي . كانا يتحدثان عن شؤون مختلفة . ولما عرف الصديق أنني شاهدت العرض طلب مني وصفاً له . وكانت معرفتي باللغة الألمانية يومها في أولها ، فجربت القول بقدر الإمكان .

سر الرجل ، ثم قال لي ، وهو يهم بارتداء قبعته والاستئذان بمغادرة المنزل : «إن الألماني إذا لم يلبس الثوب العسكري يحس أنه عريان» .

المارك السياحي

في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية نَظَّمتْ ألمانية شؤون السياح إلى بلادها بطريقة تشجعهم على زيارة ألمانية . فقد أوْجَدَتْ شيئاً اسمه «الماركُ السياحي» . كنت أنا أقيم يومها في لندن ، طالب علم في جامعتها ، كان سعر الجنيه الاسترليني في الأسواق المالية العادية حول اثني عشر ماركاً ألمانياً . أما على أساس

المارك السياحي كنّا نبتاع ما يعادل اثنين وعشرين ماركاً مقابل الجنيه الاسترليني . وطريقة التعامل مع هذا السعر الخاص هي أن تدفع أنت مبلغاً بالجنيهات الاسترلينية في لندن ، وتحصل على رسالة تحويل عملة بالقيمة التي دفعتها . وعند الوصول إلى ألمانية يمكنك أن تسحب من الماركات ما تحتاج إليه ، طبعاً في حدود المبلغ المذكور في الرسالة . هذا كان يمكن أن يتم في أي محطة للسكة الحديدية أو أي مصرف . لم يكن هناك أية صعوبة .

وكان معنى هذا ، أي السعر السياحي للمارك هو أنني أستطيع أنا أن أقيم عند أسرة من الطبقة الوسطى العليا مقابل 120 ماركاً في الشهر ، أي ما يزيد قليلاً على الجنيهات الخمسة . وكان هذا المبلغ يشمل أجرة غرفة مع حمام وثمن ثلاث وجبات يومياً . يضاف إلى هذا تناول القهوة أو الشاي بعد الظهر إذا كنت موجوداً في البيت .

كنت قد زرت ألمانية في ربيع سنة 1936 ، لكنّني أردت أن أقضي الصيف هناك لحضور دروس في اللغة الألمانية أثناء الدراسة الصيفية في جامعة برلين أو ميونخ . وكان قد أعلن عن موعد الألعاب الأولمبية التي ستقام في برلين في ذلك الصيف . فابتعت التذاكر للألعاب التي أردت مشاهدتها قبل الموعد بشهور من لندن . كان ثمنها في لندن أكبر منه في ألمانية ، لكن شراء التذاكر مسبقاً مكنني من الاطمئنان إلى حضور ما أريد .

حضور حفلة من هذا النوع ، بالنسبة لي ، قد تكون فرصة العمر . وقد كانت في الواقع . ذلك بأن الحفلة التالية للأولمبياد كانت سنة 1948 وكانت في لندن . كنت يومها في العاصمة البريطانية لكنني ابتعت التذاكر لزوجتي كي تشاهد بعض الحفلات ، وبقيت أنا مع ابني رائد ، وكان طفلاً ، في البيت .

نعم كانت أولمبياد برلين بالنسبة لي فرصة العمر . أولاً لأن كل ما كنّا نعرفه عن الأولمبياد قصتها وبعض الصور التي شاهدناها في الصحف ، وخاصة مجلة «المضمار» المصرية التي كانت تصدر في العشرينات ، وتعنى بالرياضة أصلاً . ثانياً لأنّ هتلر ، الذي كان يريد أن يثبت للألمان قدرتهم على العمل ليعيد لهم ثقتهم بأنفسهم ، لم يبخل في الإنفاق على الأولمبياد . فقد بني «ستاد» خاص بها ، يتّسع لتسعين ألف متفرج ، غير اللاعبين والحكام والمراقبين . هذا فضلاً عن الأبنية التي شيدت لإقامة

المتبارين . وقد روعي في ذلك كلّه الإخراج الفني للمباني ، بحيث لا يتعارض هذا مع العامل النفعي لها .

كان عندي تذكرتان أساسيتان - واحدة لحفلة الافتتاح والثانية لحفلة الختام . فضلاً عن ذلك كنت قد ابتعت ثماني بطاقات أخرى لنماذج مختلفة من العروض الرياضية .

في افتتاح أولمبياد برلين

كنت أعرف الكثير عن الدقّة الألمانية حتى قبل زيارتي لألمانية . وزدت احتراماً لها بعد زيارتي لتلك البلاد . وقد كانت دقّة تدعمها التنظيمات العسكرية المنتشرة في كل مكان في ألمانية ، وتشرف على سيرها في المؤسّسات المدنية فرق الشرطة الظاهرة والخفية . وهذه هي التي كانت تُسمّى الغستابو ، والتي نسميها نحن المخابرات .

والدقّةُ والتنظيم كانا مظهرين طبيعيين للعمل في ألمانية . وقد شاهدت من ذلك الكثير في العرض العسكري الذي رويت حكايته قبل قليل . لكن عندما يكون لديك حفلة يحضرها ، داخل الاستاد فقط ، تسعون ألف نسمة ، يتفرجون على لاعبين وحكام ومراقبين يبلغون الآلاف ؛ هذا فضلاً عن الآلات التي كانت في الخارج لتشهد وصول المواكب الرسمية والخاصة ، و«لتشم» رائحة الأولمبياد من الخارج - عندما تكون حفلة في هذا الحجم ، ومع ذلك فهي تنظم بدقة متناهية ، يكون معنى ذلك إجماع الكل على إنجاح العمل .

كانت حفلة الافتتاح مسائية . لا بدّ أن إشارة أطلقت وسمعها اللاعبون ، ولكن لم أسمعها أنا ، وأحسب أن بقية المشاهدين لم يسمعوها . المهم أن هذه القطع البشرية ، التي تمثل كل قطعة منها بلداً بلاعبيه وحكامهم ومراقبيهم ، وللجميع ثيابهم الخاصّة بألوان معينة معروفة ، ولك قطعة علم البلد الذي تمثله . وكل هذا يسير مع موسيقى تكفي لتنقل عليها الأقدام دون أن تضايق الآذان . وكل قطعة تمر أمام المنصة التي كان يقف عليها أدولف هتلر وحوله رجال الرايخ الثالث . وختام حفلة الافتتاح ، التي دامت نحو الساعة ، كان رفع العلم الأولمبي ذي الحلقات الخمس

الملونة ، إعلاناً ببدء العمل الرياضي . ومع رفع العلم انطلقت الصواريخ المضيئة الملونة في سماء برلين من حول الاستاد .

وكما أضيئت شعلة الألعاب الأولمبية التي حملت من أثينا ، عند افتتاح الألعاب ، فقد أطفئت الشعلة عند الانتهاء ، على أن يحتفظ بالشعلة دائماً في أثينا . والمسافة بين أثينا وبرلين قصيرة إذا قوبلت بالمسافة التي قطعتها الشعلة من أثينا إلى كندا سنة 1988 .

في حفلة الافتتاح عرض اللاعبون أنفسهم ، وفي حفلة الختام كان للفائزين في الألعاب دور خاص ومقام ممتاز . فهم الذين حملوا إلى بلادهم شارات الظفر وامارات الفوز .

وفيما بين الحفلتين مارس اللاعبون هواياتهم وعرضوا مهاراتهم وتباروا في سبيل إظهار قدراتهم . وقاس المحكمون الوقت ، ودونوا ملاحظاتهم ، وقيدوا الأرقام ، وضبطوا الخطوات ، وجمعوا ما عندهم وحزموا أمرهم وأصدروا الأحكام . فعلقت الأنواط الذهبية والفضية والبرونزية على صدور الفائزين ، وأحيطت رقاب المبرزين بالقلائد المنتزعة من الذهب أو الفضة أو البرونز . فعاد الفائزن إلى بلادهم يستقبلون بالأهازيج ، لأنهم رمز البلد الذي نشأوا في حماه .

أمّا المتفرجون فقد استمتعوا وصفقوا وعادوا يحملون في نفوسهم ذكرى سعيدة . وها أنا أذكر تلك الأيام بعد ثلاثة وخمسين من الأعوام ، فتعاودني النشوة ، ويغشاني السرور .

ولن أنسى حادثة جرت لي وأنا في برلين . وصل إليها الصديق العزيز ، فرح رفيدي . كان يعرف عنواني فاتصل بي . وقال لي ونحن نتغدى إنه يريد أن يبتاع بضع تذاكر لحضور الألعاب . فدللته على المكتب ، وفي اليوم التالي أخبرني أن المكتب لا تذاكر فيه للبيع . وكل ما يفعله الموظفون هناك هو إرشاد الذين يحملون التذاكر إلى بوابات الدخول ، وهي كثيرة ، وما إلى ذلك . فقلت لفرح حظك جيد . لقد دعيت أنا إلى عشاء في الغد ، وسألبي الدعوة ، ولذلك فإنني أهديك التذكرة التي عندي لذلك المساء . ولما أخذها وجدها لحفلة مصارعة ، ولم يكن فرح يحب المصارعة ، ومع ذلك فقد أخذها ، فإن رؤية الأستاد ومن فيه يكفي . أعطيته إياها

ولسان حالي يقول شحاد ومتشرط .

زيارة مارتن لوثر كينغ

كلمة قلاية تعني الغرفة الخاصّة براهب يقيم في دير . لكنّها ، بالتجاوز ، تستعمل للغرفة التي يقيم بها أي راعٍ من رعاة الكنائس الأرثوذكسية ما دام راهباً ، أي أنه غير متزوج . كنت أعرف الكثيّر عن قلايات الرهبان اليونان الأرثوذكس في ديرنا في القدس . ومن ثم فلم تكن القلاية ، بالنسبة لي ، مكاناً يحملني على الاحترام والخشوع . لكن الأمر تبدل في نفسي لما زرت قلاية مارتن لوثر في أرفورت في صيف سنة 1936 .

كنت قد قدمت من لندن إلى كولون بالقطار . وصلت مساء وأويت إلى فندق متوسط الحال ، وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت ، بعد أن استرشدت برأي المسؤول عن الفندق ، إلى السوق لأبتاع «بسيكليت» . كنت قد اكتشفت في زيارة سابقة لألمانية أهمية هذه الأداة للتنقل والفرجة والتثقف ؛ إذ إنها كانت تتيح لي المجال لأرى الأماكن كما أريد فأتوقف حيث أشاء ، وأنام حيث أرغب ، خاصّة في الغرف الموجودة في المزارع . ومن هنا فقد ذهبت ، في صبيحة اليوم التالي لوصولي لشراء بسكليت . في الدكان الأول الذي وصلت إليه وجدت البائع غير منهمك بعدد كبير من الزبائن . حييته وقلت له إنني أريد بسكليتاً مستعملاً قوياً رخيصاً يصلح للمسافات البعيدة ، حيث تكثر الجبال والمرتفعات .

جاء الرجل ببسكليت ووضعه أمامي وقال هذا يلبي طلبك . فهو مستعمل لكنّه جيد ، وهو رخيص ، وفيه ضابط للسرعة ، يقويها عند الصعود ، ويضعفها عند الهبوط . وثمنه خمسة وثلاثون ماركاً . خذ جربه ، أضاف الرجل ، سر به ساعة في المدينة وأرباضها ، ثم قرر .

فعلت ذلك ولما رجعت نقدته المبلغ . وكان الرجل قد تنبه ، بطبيعة الحال ، إلى أنني أجنبي . وسألني عن بلدي ، ولما عرف أنني آت من فلسطين وأنني أعرف القدس والناصرة ، اهتم بي ؛ ثم سألني فيما إذا كنت على استعداد لقبول دعوته

للعشاء ، وأضاف عشاء بسيط ، فنحن عائلة عادية . سنأكل السلسيسو الألماني ونشرب معه كأساً من الجعة . قبلت الدعوة ، والتفت إلى رجل كان في الدكان وطلب منه أن ينضم إلينا مع زوجته .

جندي ألماني في فلسطين

ذهبت في الوقت المعين ، وكنت أعرف أنه لا بدّ من هدية ، ولو صغيرة ، فحملت معي باقة صغيرة من الزهور . كنا خمسة ، ودار الحديث حول القدس والمدن المقدسة . وقد اكتشفت أثناء الحديث أن الرجل كان جندياً في الجيش الألماني وخدم في فلسطين وجرح في أثناء الحملة العثمانية - الألمانية على السويس (في الحرب العالمية الأولى) ، وعولج في مستشفى أوغستا فكتوريا في القدس . وكأنه قصد أن يكافئ الذين عنوا به بدعوته إياي للعشاء .

قبل أن أغادر منزله قال : لي طلب واحد إليك ، متى عدت إلى القدس أن تبعث إلي ببطاقة عليها صورة مكان أثري من تلك المدينة ، وأرجو أن يكون ختم البريد واضح التاريخ . فوعدته خيراً ، لكنّني أخبرته أنني لن أعود قبل ثلاث سنوات ، فقبل .

ولما عدت في سنة 1939 ذهبت إلى البريد وأرسلت له البطاقة بعد أن تأكدت أن الختم والتاريخ واضحان .

اعتمدت على الدليل والبسكليت ، بعد الاعتماد على الله ، وبدأت سيري من كولون في اتجاه ليبتزيغ . وأنا أتحدث عن ألمانية لما كانت دولة واحدة . ولم تلبث الطريق أن بدأت تصعد ، وبعيد الظهر وصلت أرفورت المدينة الصغيرة الجميلة بناء وموقعاً وغابات . ولم أكن أبحث عن الجمال في أرفورت . هذه هي المدينة التي قضى فيها مارتن لوثر قسماً كبيراً من حياته . ولذلك ذهبت رأساً إلى المكان الذي كان يؤوي هذا المصلح الكبير . وأدخلت إلى قلايته ، إلى غرفته ، التي حوفظ عليها كما كانت في أيامه : السرير الحديدي البسيط وفراشه الذي لم يكن لا وثيراً ولا أنيقاً . لكنّه كان يكفي الرجل ؛ وهناك الطاولة الخشبية التي كان يكتب عليها ، والكرسي

الخشبي إلى جانبها . لكن ماذا كتب لوثر على هذه الطاولة؟ البيانات التي هاجم فيها من اعتبرهم بعيدين عن المسيحية ، والشروح التي وضعها لتوضيح أسرار الكنيسة . وقد يكون أهم من ذلك ترجمته الألمانية للكتاب المقدس . كان إلى يومها يقرأ الناس الكتاب باللاتينية . لكن الترجمة الألمانية وضعت هذا الكتاب في أيدي آلاف من الناس لم يكونوا يحلمون بتعلم اللاتينية .

ولد لوثر سنة 1483 ، وعاش أكبر جزء من حياته في القرن السادس عشر . وهو ، وإن لم يكن الأب الأول للإصلاح الديني ، إذ سبقه آخرون ، فهو المعلم الأصيل الأول بكتاباته وشروحاته وحملاته وترجمته للكتاب المقدس .

وقفت في قلاية لوثر . شعرت ، لأنني أردت أن أشعر ، كأنني في حضرته . والأمر الذي دار في رأسي يومها هو ماذا كان معنى الإصلاح الديني بالنسبة لأهل القرن السادس عشر؟ وتذكرت أن أهل أوروبة مرت بهم ، من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ، أشياء عرفناها نحن في درسنا للتاريخ هي : النهضة الفنية والأدبية في إيطالية والإصلاح الديني في ألمانية والاهتمام بالعلوم في إنكلترا وفرنسة والاكتشافات الجغرافية في إسبانيا والبرتغال . فهل ثمّة علاقة بين هذه جميعها؟

استعرضت هذه الأمور بسرعة وأنا في حضرة لوثر الروحية . وأدركت ، كما كنت قد فهمت من قبل ، أن هذه الأمور جميعها هي تعبير مختلف الأشكال عن أمر واحد . أوروبة تململت من حياتها المقولبة ، وثارت على ما كان يضغط عليها ويقيدها . وكانت ثورتها مختلفة المناحي متعددة المجالات ، لكن الروح واحدة . روح التقدم والحرية . وانطلاقة أوروبة هذه كانت انطلاقة للعالم الغربي .

وتذكرت يومها أستاذنا درويش المقدادي الذي كان يدرسنا التاريخ في دار المعلمين في سنتي 1923 و 1924, وكيف كان يثير في نفوسنا أموراً حَرية بالتفكير تتعلّق بالنهضة ونواحيها وانعكاساتها علينا ، ولو بعد هذه القرون .

طريق مارتن لوثر

وتذكرت وأنا في قلاية لوثر ما كان من أثر الحركة التي فجّرها في أوروبة يومها .

كانت حركة عظيمة ، لم تسمح للأمور أن تعود بعدها إلى ما كانت عليه . فمحازبوه ساروا في طريقهم الذي أصبح ، بعد حين تشعُّبَ طرق ، وأتاح ذلك لفئات مختلفة أن تعيد النظر في أشياء كانت من قبل قد وصلت الباب المسدود . أو هكذا ظن .

وأولئك الذين طرق لوثر بابهم المسدود وخلخل الكثير فيه ، لم يكن باستطاعتهم الاحتفاظ بالسدود والقيود ، فخرجوا يبحثون عن أراء جديدة وتفاسير مبتكرة لأقوالهم وأفعالهم . ومن ثم أدركت أهمية قلاية مارتن لوثر .

ألمانية الجنوبية هي أصلاً بافاريا ، وعاصمتها ميونخ . وقد كانت ميونخ مقري أثناء إقامتي في ألمانية ، فقد التحقت فيها بالجامعة في الفصل الثاني للسنة الدراسية 1936 - 1937 ، بعد أن كنت قد قضيت ربيع 1936 وصيفها في ميونخ وبرلين .

كان البسكليت رفيقي في إقامتي في ألمانية . وقد كان هذا طبيعياً . لم تكن السيارات يومها شائعة ، لأنها كانت باهظة الثمن ، ولم تكن وكالات السيارات قد توسعت في البيع بالتقسيط . ثم إن ألمانية كانت تُعِدُّ العدَّة للحرب . فكان كل شيء مقنَّناً . فضلاً عن ذلك فالبسكليت أرخص ثمناً واستعمالاً . (وبهذه المناسبة فقد اشتريت بسكليتاً مستعملاً في إنكلترا بمبلغ جنيهين ونصف الجنيه) . وقد كان من الأقوال الشائعة في ألمانية أن الولد - أو البنت - يولد ويولد بسكليته معه . وكراج المبنى الذي كان بيت السيدة شريفر يقوم فيه كان فيه بسكليتات . وحصة البيت الذي كنت فيه وسكانه ستة أشخاص (مع الخادمة) كانت تسعة بسكليتات .

البسكليت رفيق الجميع

واعتدت على ما درج عليه الألمان . البسكليت يستعمل للذهاب إلى الجامعة ، ولزيارة أطراف المدينة ، وللاستمتاع بالحديقة الإنجليزية في ميونخ ، وسميت كذلك لأنها نظمت على نسق الحدائق الإنجليزية من حيث الحواجز الخضراء لأحواض الزهور ، وتنويع الأشجار الصغيرة ، والاهتمام بترك مكان للناس يجلسون فيه ويستمتعون بالحديقة .

ولكن المهم أن البسكليت هو رفيق الرحلة يوم الأحد . وكان يعلن في بيت شريفر

عن رحلة الأحد قبل يومين أو ثلاثة . وكان من الطبيعي ، أول الأمر ، أن أرافق الأسرة ، فأنا لا أعرف المنطقة . وكان من أمتع الرحلات في ربيع 1936 ، أي في أول زيارة لي إلى المدينة ، رحلة إلى دير إندِكْس . المسافة نحو سبعين كيلومتراً . كانت إحدى سيدات المنزل تشرح الطريق ويركب الجمع البسكليت معاً . لكن قد يكون ثمّة من يريد السرعة أو العكس . لذلك مكان الالتقاء هو الدير . كنت بادئ الأمر أصل متأخراً ، لكن بعد أن مرنت على ركوب هذه الآلة اللطيفة أصبحت أصل أولاً أحياناً .

ثم أخذت أستقل قليلاً عن الأسرة . كان هذا خاصّة في الصيف وفي الربيع التالي . لم يكن سبب الاستقلال رغبة في الابتعاد عن الجماعة . على العكس من ذلك فقد كانت للفتاة الأصغر – غودرون – مكانة خاصّة في نفسي .

لم أكن يومها أستطيع بعد أن أسمي الأمر حُبّاً ، ولكن كان هناك رغبة في التحدث إليها (الحب جاء فيما بعد) . إنما أصبحت أنا أحب أن أقضي في رحلتي يومي السبت والأحد . هذا يكلف نفقات . لكن أنا سائح ، ومعي ما يمكنني من قضاء نهاية الأسبوع في الخارج .

وكانت واحدة من هذه الزيارات إلى جزيرة اسمها جزيرة النساء . وهي جزيرة صغيرة في بافاريا تقع وسط بحيرة . وتقول القصة إن الأصل في هذه الجزيرة أنها كانت مقراً للنساء ولا يجوز للرجال أن يدخلوها . ولكن لماذا لا يدخلها الرجال ، ومن فرض ذلك . هنا تشعبت القصة علي ، لأنني لما ذهبت لقضاء ليلة فيها ، وكنت قد حجزت الغرفة مسبقاً ، سمعت من القصص ما يدهش . سرت على بسكليتي إلى القرية التي تقوم فيها الميناء التي تذهب منها المراكب إلى الجزيرة . هناك تركت بسكليتي ، وفي القارب سمعت أول قصة عن سبب منع الرجال – من زمان بعيد – من الوصول إلى هذه الجزيرة . كانت لهذه الجزيرة أميرة . وأنت تعرف يا أخي أنه يجب أن يكون في القصة القديمة ملك أو ملكة أو أمير أو أميرة . هذه الأميرة أحبت رجلاً من مستواها . وإلا فالحب لم يكن يومها يجوز إلا في داخل طبقة واحدة من البشر . وفي الوقت نفسه كان هناك رجل من عامة الناس ، يعيش على مقربة من الشاطئ ، قد أحب الأميرة لما رآها للمرة الوحيدة في حياته . لكنّه تحدث عن حبه .

وبلغ الخبر النبيل فغضب على الأميرة لأنها - كما ظن- أحبت غيره في الوقت ذاته . لذلك غضب عليها ، ولأنه كان صاحب نفوذ أخرج جميع الرجال من الجزيرة الصغيرة ، ومنع أي رجل من الدخول إلى الجزيرة . وأصبح المنع عادة . وانتهى الأمر بأن قام في الجزيرة دير كبير للراهبات ، وأصبح دخول الرجال إلى الجزيرة / الدير محرماً .

لكن الزمن تغير ؛ وأهمل الدير ؛ وقلت الراهبات . والنزل الذي ستنزل فيه يا صاحبي ، قال محدثي ، هو هذا الدير الذي حدثتك عنه .

ومع أنني سمعت قصصاً مختلفة في تلك الليلة ، احتفظت لنفسي بهذه لأنها قريبة من التصرف البشري ، ولا أقول الإنساني .

المهم أنها كانت ليلة غاية في المتعة . فبعد عشاء بسيط مكون من شوربة العدس مع السجق الألماني والخبز الأسود المحمص ؛ أخذ الموجودون وهم نحو ثلاثين شخصاً ، يغنون ويرقصون . لكن هناك شرط أساسي لا يغنى هناك إلا الأغاني المحلّية ولا يرقص إلا الرقص الشعبي المحلّي . فجزيرة النساء تريد أن تحافظ على شيء خاص بها .

وكان من المنتظر أن يشترك الموجودون ، مع من يمكن أن يأتي في الصباح ، في قداس الأحد . فهذا كان أيضاً مظهراً اجتماعياً بالنسبة للمكان . وقد ازدحمت الكنيسة لأن كثيرين جاءوا من الخارج لقضاء يوم الأحد هناك .

رحلات نازية للطلاب

وكانت الجامعة ترتب للطلاب ، عبر المنظمات الطلابية فيها ، وهي منظمات منبثقة عن الحزب النازي ، رحلات بالباصات إلى مناطق مختلفة . فالألماني ، كما اكتشفت في الأشهر التسعة التي قضيتها في ألمانية متنقلاً فيها من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى أوسطها ، يحب أن يعرف الزائر - خصوصاً الزائر الذي يقيم مدة - لا الأماكن النزهة في المدن فحسب ، ولكن يريده أن يتعرّف إلى الريف . زيارة المدينة ممكنة في كل وقت . لكن زيارة القلاع القديمة والكنائس الغوطية الجميلة

الموجودة في أماكن نائية هذه أمور تنظم وبأسعار بسيطة ونفقات للإقامة - عند الحاجة - أبسط .

فقد رتبت لنا الجامعة رحلة للتدرب على التزلج في منطقة جميلة ، هي غارمش بارتن كرشن ، تقع إلى الجنوب من ميونخ . وكان معنا مدرب . ولم يكن عددنا كبيراً نحو خمسة عشر فرداً من الجنسين . وخرجت لأجرب الأمر ، فوقعت من الجولة الأولى . وهذا كان طبيعياً . لكن الذي لم يكن أمراً عادياً في نظر الجماعة هو أن لا أعود إلى مثلها . وقضيت بقية الوقت أتفرج على الثلج والمتزلجين من خلف زجاج الفرندا ، أو أخرج لأمشي قليلاً على الثلج . وكنت قد جربت التزلج على الخشب في لندن ووقعت وخشيت أن أكسر رجلي ، فعدلت عن التجربة .

ومن الرحلات التي رتبتها لنا الجامعة بالاشتراك مع شركة سفريات كانت رحلة إلى شمال إيطالية ، إلى بولزانو . هذه الرحلة نقلتنا من ميونخ عبر النمسا عن طريق انزبروك (Innsbruck) ، إحدى مدن الفن النمساوية . ومنها إلى بولزانو . كانت الرحلة في شهر نيسان/ أبريل ، وكانت الطريق ، عبر جبال الألب ، مكسوة بالثلج . فوضعت السلاسل الضخمة على دواليب الباصات . ومع ذلك فقد اضطررنا إلى التوقف نحو ساعتين عند ممر برنّر ، الذي يمر تحته نفق برنّر الذي يصل إيطالية بالنمسا . وكانت أوقات استمتعت فيها - في الأيام الأربعة - بعشرة جماعة من الألمان من غير محيط الطلبة .

زيارة الموسيقار واغنر

ومن أسفاري على بسكليتي سفرة من برلين إلى ميونخ عبر بيرويت . وبيرويت هذه موطن الموسيقي الألماني الكبير واغنر . وهو مؤلف السلسلة الموسيقية المشهورة ، والتي تتألف من خمس أوبرات تمثل الأسطورة الألمانية المتعلقة بخلق الإنسان وفجر البشرية ، ولكنّها تعبّر عن هذه الأسطورة موسيقى وغناء .

وقد احتطت للأمر فابتعت التذاكر اللازمة لثلاث ليال اعتزمت قضاءها هناك وأنا بعد في برلين . لكن لما نزلت في الفندق ، وكنت ألبس ثياباً صالحة للبسكليت وهي

بنطلون أو شورت وقميص ، لفت مديره نظري إلى أنه يترتب عليّ أن ألبس بذلة كاملة وربطة عنق ، وإلا فإنه لن يسمح لي بدخول دار الأوبرا . فأسرعت إلى دكان وابتعت البذة الكحلية وربطة العنق والقميص المناسب . وهكذا حضرت الحفلات .

موسم واغنر في بيرويت يقع في الصيف . وفيه تلبس المدينة حلة عجيبة . فكل شيء فيها واغنري - الزينة الخارجية والداخلية ، المآكل والشراب والرقص في الصالات - كل شيء على ما عرف أيام واغنر . وقد تغص الفنادق والغرف التي تؤجر في البيوت ، فيقيم الزوار في عدد من القرى الكبيرة المجاورة ويأتون لا لحضور الحفلات الرسمية فحسب ، بل لتناول عشاء واغنري أعد كما كان يعد أيام هذا الموسيقي ، بحيث ترافقه موسيقى من تأليف واغنر أيضاً ، لكنّها موسيقى خفيفة نسبياً .

لكن مالي أنساق مع الحديث عن الناس دون أن أضيف كلمات عن الرجل نفسه . فقد ولد ولهلهم ريتشارد واغنر سنة 1813 في بيرويت وتوفي سنة 1883 . وتعتمد شهرته الموسيقية في الدرجة الأولى على الأوبرات التي صنفها ، ولو أنه وضع أصنافاً أخرى من الموسيقى .

وأشهر أوبراته هي المجموعة / السلسلة المعروفة باسم نيبلونغزليد (Niebelungslied) . وتعالج هذه الأساطير والتاريخ الأسطوري كما يرويه التوتون . والواقع أن المرء لن يحب هذه الأوبرات إلا متى اعتاد عليها . وقد نجدها نحن ، عندما نسمعها لأول مرة ، وخاصّة إن لم يكن لدينا ثقافة موسيقية ، شيئاً مزعجاً . لكن بعد مدة يعود المستمع ، الذي لديه استعداد لذلك ، إلى الاستمتاع بموسيقى واغنر .

ولست أكتم أحداً أنني لما ذهبت إلى أوروبة (لندن أصلاً) في خريف سنة 1935 ، لم يكن عندي ما يمكن أن يُسمّى ثقافة موسيقية غربية . حتى ثقافتي الموسيقية العربية كانت ثقافة سماع للمغنين الذين كانوا معروفين يومها . وكنت أتلذذ بسماع العود ، غير المصحوب بالغناء ، بشكل خاص .

كنت أحضر ، بين حين وآخر ، حفلة موسيقية تلعب فيها قطع من الموسيقى الغربية ، ولكن هذا الحضور لا يكسب المرء ثقافة موسيقية ، على الأقل لم يكسبني أنا .

ولما أقمت في لندن بعض الوقت أخذت بحضور حفلات موسيقية غربية بشكل يكاد يكون منتظماً . وبدأت أتحسّس هذه الموسيقى . وفي يوم قررت أن أتعلم البيانو . وكان يقيم في مقابل الدار التي كنت أقيم فيها (78 فيفيان افنيو ، هندن سنترال 78 Vivian Ave. Hendon Central) معلم للبيانو . ذهبت إليه واتفقت معه على ما يعتبره الحد الأدنى للبدء وهو أربع وعشرون ساعة . وبدأت التعلم . ولكنّني اكتشفت بعد نحو ثماني ساعات أنني كي أتعلم البيانو ، تعلماً عادياً ، لا إتقان اللعب عليه ، يقتضي مني أن أتمرن ما يقارب الساعات الثلاث لكل ساعة تعلم (أو تعليم) . ولما حسبت حسابي على أساس الوقت المطلوب وجدت أنني أمام خيارين فقط : إمّا التاريخ القديم وشهادة جامعية من لندن أو البيانو . فاخترت الأول وتنازلت للرجل عما تبقى عنده من مبلغ دفعته له سلفاً .

لكن الثقافة الموسيقية السماعية ، بالنسبة للموسيقى الغربية الكلاسيكية ، نمت مع الوقت وأصبحت فعلاً أتلذّذ – ولا أزال – بسماعها . ومع ذلك فلمّا ذهبت إلى بيرويت ، وجدتني أمام عالم خاص هو عالم واغنر . ولما وصلت إلى ميونخ على بسكليتي ، سألتني السيدة شريفر كيف وجدت واغنر فذكرت لها موقفي . فقالت لي إن الأسرة تملك مجموعة كاملة من أوبرات واغنر وإن كارل ونغلر ، ابن عمهم ، وهو مدرس للموسيقى في ميونخ ، سيوضح لي الفكرة الواغنرية في هذه الموسيقى . وبعد أن سمعت الأوبرات أكثر من مرة أصبحت أتذوقها و«أستطعمها» – ولا أزال .

عبر الغابة السوداء

وكان أن قرّرت ، وأنا في ميونخ سنة 1937 ، أن أقوم بزيارة طويلة على البسكليت . فخرجت من ميونخ إلى شتوتغارت . قضيت نهاية الأسبوع هناك ، ثم ذهبت إلى فريبورغ (Freiburg) . وبعد تنقل هنا وهناك خرجت قاصداً بلدة صغيرة اسمها «تيتي زي» عبر الغابة السوداء . واجتزت هذه المسافة دون أن أفعل ما يفعله الناس عادة ، وهو أن يتخلوا عن ركب البسكليت عند ثلثي الطريق وعندها يركبون في الباص الذي ينقلهم إلى تيتي زي . نعم ركبت البسكليت الطريق كله . ومن هناك أتممت

السير في اليوم التالي إلى مدينة كونستانس على بحيرة كونستانس . وفي هذه المدينة صنع منطاد زبلن المشهور . وكم سررت لما دخلت المصنع ، وسرت مع فريق صغير من الزوار ، داخل هيكل المنطاد الذي كان يصنع يومها ، وأرشدنا إلى أجزائه المختلفة ، التي لم تكن تتجاوز وقتها الهيكل الخارجي وبعض التقسيمات الداخلية .

وعدت إلى ميونخ بعد غياب أسبوع كان من أمتع الأوقات التي قضيتها في جنوب ألمانية صحبة بسكليتي . فالمنطقة التي اجتزتها ، خاصّة عبر الغابة السوداء ، هي منطقة حرجية جميلة . وبالنسبة لي ، أنا القادم من منطقة أحراجها قليلة وغاباتها قصّة من قصص التاريخ ، كانت كل منطقة حرجية تكشف لي عن صور من صور الجمال العجيب . والغابة السوداء ، حتى بالنسبة للألمان أنفسهم ، صورة خاصة من صور جمال الغابات . شجرها من السرو والصنوبر ، وهي ، عندما تقترب ساعات المساء تبدو فعلاً كأنها سوداء . وقد زرت هذه المنطقة سنة 1971 . كنت في ضيافة سبع جامعات واحدة منها فريبورغ . وكان المضيف الرسمي لنا (كان الصديق إحسان عباس يومها هناك أيضاً) هو الأستاذ هانز رويمر . لكن رويمر كانت تربطني به صلة خاصّة منذ أن كان مدير المعهد الألماني للدراسات الشرقية في بيروت . وكان أن أعد لنا رحلة بسيارته إلى تيتي زي . وبعد أن سرنا بعض الوقت التفتُّ إليه وسألته فيما إذا كان الطريق الذي نسير فيه يختلف عن الطريق القديم ، فقال نعم هنا غُيِّر تغييراً كبيراً . ثم استفسر مني لماذا أسأل . فرويت له رحلتي عبر الغابة السوداء على البسكليت (سنة 1937) . فَسُرّ كثيراً إلى أنه سيأخذني إلى محل أعرف كيف كان - لكن كان تطور كثيراً منذ أن عرفته ، وأضاف لعلّه كان أجمل . وفعلاً وجدت أنه من قبل كان أجمل لأنه كان أبسط .

في بيزانسون / فرنسا

1938

كنت ، في سنة 1938 ، قد تمكنت من اللغة الإنجليزية وتعلمت من الألمانية ما يسر لي أن أتابع مساقات في دراسة التاريخ في جامعة ميونخ على يد ولتر أوتو (Walter Otto) وفرانز دولغر (Franz Dolger) . لذلك قررت أن أتعلم الفرنسية . كنت قد جربت ذلك مع مدرسة برلتز في لندن ، لكن دروسي الكثيرة واضطراري إلى تعلم اليونانية واللاتينية الكلاسيكيتين حالا دون ذلك . قررت أن صيفية في فرنسة أنفع من جميع المحاولات ، خاصة وأن تعلمي الألمانية جاء عن هذه الطريقة أصلاً . لكن في ألمانية أخذت دروساً خصوصية ساعتين كل يوم لمدة سبعة أسابيع .

لما قررتُ تعلمَ الفرنسية في فرنسة ، أخذت مناشير تتعلق بالجامعات التي تقدم مثل هذه المساقات . وكانت الجامعات كثيرة . فكل جامعة ، من باريس وفي اتجاه الجهات الأربع ، طالعتني ببرامج لتعليم الفرنسية في الصيف .

اخترت بيزانسون . أولاً لأنها في الجنوب الشرقي من فرنسة وفي منطقة جميلة . ثانياً لأن يوليوس قيصر كانت له معارك مع الغاليين هناك ، وعصر يوليوس قيصر كان فترة للتخصص في دراستي . ثالثاً ، وهو الأهم ، خطر لي أن المكان بعيد ، ولذلك فلن يكون فيه طلاب أجانب كثر .

ولما وصلت بيزانسون في مطلع تموز / يوليو سنة 1938 ، وكان رفيقي في الطموح إلى تعلم الفرنسية الصديق فرحات زيادة ابن رام الله البار . كان فرحات أيضاً طالباً في جامعة لندن ، لكنه كان يدرس القانون ، وفرحات ، بعد عودته من لندن عمل في القضاء في فلسطين إلى أن انتهى الانتداب ، وبعد مدة رحل إلى أميركا ، وأصبح أحد أساتذة القانون والشريعة في جامعة برنستون ، ثم انتقل إلى جامعة ولاية واشنطن ، حيث أنشأ قسم دراسات الشرق الأوسط .

المهم أن فرحات كان رفيقي ، ولو أنه وصل بعد بضعة أيام . والأهم من ذلك أنني وجدت نحو أربعمئة وخمسين طالباً وطالبة فكروا كما فكرت - بيزانسون بعيدة ، ولن يرغب فيها كثيرون . ومع ذلك سجلنا في الدروس الابتدائية جداً . ولكن لما بدأ التدريس وجدنا أن ما تسميه جامعة بيزانسون مبادئ الفرنسية هو مساق في مقدمة في الأدب الفرنسي . ولما ذهبت أنا وراجعت حول القضية قيل لي هذا هو معنى المبادئ عندنا ؛ فنحن لسنا مدرسة لنعلم مبادئ القراءة والكتابة .

اسقط في يدي وطبعاً في يد فرحات ، وفي يد عدد كبير من الطلاب . لذلك فتشت عمّن يعلمني دروساً خصوصية ابتدائية ، فلم أجد . المعلمون في العطلة الصيفية خارج بيزانسون ؛ والمدرسون الجامعيون لا يتنازلون إلى مثل هذا . وإذن فعلى تعلم الفرنسية السلام . وكان هناك عدد كبير من الطلاب من اسكندنافيا أصابهم ما أصابنا . وإذن فلنذهب إلى المقاهي ، ولنرتب رحلات محلية ولنأكل الطعام الفرنسي الشهي ، كما يقولون . وأهم من ذلك فلنتحدث في السياسة . والسياسة عند فرحات وعندي كانت قضية فلسطين . وقد صرفنا وقتاً لا بأس به في سبيل ذلك . فرحات كان يتكلم بالإنجليزية ، وأنا كنت أتكلم عنها بالإنجليزية وبالألمانية .

أوروباتغلي

لكن سنة 1938 ، بالنسبة لأوروبة ، كانت تعني شيئاً آخر في السياسة . كانت أوروبة تغلي لأن الحرب كان متوقعاً لها أنها قد تبدأ في ذلك الصيف . ومن هنا كان الحديث عن هذه الأمور هو الحديث المألوف . ذهبت إلى بيزانسون لأتعلم الفرنسية فتدربت على الألمانية . كثيرون من الطلاب الاسكندنافيين والسويسريين كانوا يجيدون الألمانية ويتناقشون بها سياسياً . وكنت أنضم إلى حلقاتهم . ولما عرف عني أنني كنت قد قضيت تسعة أشهر في ألمانية ، وأنني كنت طالباً في جامعة ميونخ ، وأنني كنت أتنقل في البلاد مع بسكليتي أصبحت مطلوباً للتحدث عن ألمانية . فأنا - قيل ، وكان صحيحاً- لقيت من السكان من لا يلقاه الرحالون والسواح الآخرون ، أصحاب السيارات والمسافرون في القطارات .

أصبحت بيزانسون ، وهي قريبة من ألمانية ، تغلي في صيف 1938 . هناك ، بين الطلاب الأجانب ، من كان من مؤيدي هتلر . أذكر من بين هؤلاء طالبة من جنوب إفريقية كانت تطلب العلم في لندن ، كان دفاعها عن هتلر يتّسم بالحماسة التي لا حدود لها . وكان هناك غيرها . لكن خصوم هتلر كانوا أكبر عدداً . كان المفروض أن يؤيد الفلسطينيون هتلر ، لأنه ضد بريطانية . لكن أنا شخصياً كان لي موقف آخر . وهو أن هتلر لن يكون أقل تأييداً لوعد بلفور وإنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين من بريطانية . هتلر كان يريد أن يتخلّص من اليهود في بلاده ، وضغطه عليهم في أوائل الثلاثينات ، أدّى إلى ازدياد عددهم زيادة كبيرة في فلسطين . وقد يرى ، فيما لو حارب وربح الحرب ، أن الأفضل له أن يرسل جميع هؤلاء إلى فلسطين ويخلص ألمانية منهم .

والذي أعرفه من موسى عبد الله الحسيني ، لما التقينا في القدس بعد انفصالنا سنوات الحرب - هو في ألمانية وأنا في القدس - أن هتلر رفض أن يتبنّى القضية الفلسطينية العربية لما عرض عليه الأمر أثناء الحرب على أيدي من كان يمكنه أن يفاوض الزعيم الكبير .

المهم هو أن بيزانسون كانت يومها تمثل أي مؤسسة أوروبية يمكن أن تقام لمناقشة السياسة العالمية في ضوء وجود هتلر وخصومه . وقد كانت فرصة لي أن أتعرف إلى هؤلاء القوم وأستمع إلى مناقشاتهم . والذي أود أن أؤكده هو أن هؤلاء ، فيما كانوا يمثلون من المجتمعات التي جاءوا منها ، كانوا معنيين بجزء واحد من العالم هو أوروبة .

في بيزانسون عوملنا ، بوصفنا من الطلاب الأجانب ، معاملة طيبة جداً . أعطي كل واحد منا بطاقة تشير إلى أنه طالب أجنبي . فكان الواحد منّا يعطى أوتوماتيكياً خصماً معدله 15٪ عن كل شيء يبتاعه . وكنّا عندما ندخل الكازينو ندفع فرنكين ثمن تذكرة الدخول بدل أربعة فرنكات يدفعها الفرنسي . وكنّا نعفى من دفع الخدمة (السرفيس) في المطاعم والمقاهي . ونحن عدد كبير من الطلاب ، لكن أصحاب هذه الأماكن كانوا يرون في إعفائنا من هذه الدفعات البسيطة ما يغرينا بزيارة محلات الأكل والمقاهي . وفعلاً هذا ما حدث .

فضلاً عن ذلك فقد كنّا ندعى مرة في الأسبوع ، وقد حدث هذا كل أسبوع ، في

يوم الأربعاء ، إلى حفلة تقام على شرفنا - رئيس بلدية المدينة ، محافظ المنطقة ، قائد الجيش في المنطقة ، مدير بوليس بيزانسون ، جامعة بيزانسون ، عميد كلية الآداب ، اتحاد الطلبة ، نقابة المعلمين ، الجمعية العلمية في المدينة . وقد نسيت مؤسسات أخرى دعتنا .

كانت هذه الحفلة تُسمَّى دعوة خمرية شرفية ويقدم فيها نوع من النبيذ المعروف باسم نبيذ موسز .

وهو خمر موقعه بين النبيذ العادي والشمبانيا . (لعل بعض من يقرأ هذا يتذكر النبيذ الذي كان يصنع في فلسطين باسم كارمل هوك Carmel Hock ، فهو مثله) . ويقدم معها من المآكل الخفيفة ما يغنيك عن العشاء . وكانت الحفلة كثيراً ما تمتد من حول الخامسة إلى العاشرة مساء . فليس هناك من يدعوك إلى الخروج .

وقد كانت الحفلة التي أقامها قائد الجيش في منطقة بيزانسون يوم 14 تموز / يوليو ، أي يوم العيد الوطني الفرنسي ، أفخم الحفلات وأكرمها - أليست هي ذكرى هدم الباستيل؟

بدأت الاحتفالات في المدينة في الصباح المبكر نسبياً بعرض عسكري فخم ضخم ؛ جابت فيه فرق تمثل القوات المختلفة شوارع المدينة مع موسيقاها العسكرية الحماسية . وخرج الناس -شيباً وشباناً صبايا وولداناً رجالاً ونساء - يحيون الجنود المتبخترين بثيابهم الأنيقة وأسلحتهم اللامعة .

وحوالي الظهر ، قبيل موعد الغداء ، لعبت موسيقى الجيش في الحديقة العامة ما يقرب من الساعة ولم تكن موسيقى عسكرية ، لكنّها كانت موسيقى كلاسيكية فرنسية .

والحفلة التي أقيمت يومها لم تكن على شرفنا وحدنا مثل الحفلات الأخرى ، كانت على شرف عدد لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص . أقيمت في حدائق الثكنات العسكرية وكان المشروب والأكل كثيراً . وقد بدا لي كأن الذين يدعون لمثل هذا اليوم من أهل بيزانسون يعدون أنفسهم لذلك قبل أيام - فيصومون عن الأكل والشراب . إذ إنني لاحظتهم يلتهمون ما يوضع على الموائد بسرعة - وشهية طبعاً - ويكادون لا يريحون الكؤوس من القرع والإفراغ .

وأودُّ أن أقول هنا إنني، في كثير من الحفلات، كنت أصاب بما يصاب به بعض المدعوين من أهل المدينة من حيث الاستمتاع بالشراب خاصّة، وبالطعام إلى درجة ثانية. ألا يقول المثل عندنا: من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم! ونحن قضينا هناك خمسة وسبعين يوماً. لكن أنا صرت منهم مسبقاً - أي قبل الأربعين يوماً - على الحساب.

بين الراين والرون

ومنطقة بيزانسون جميلة جمالاً عادياً، لكن فيها شيء خاص. ففي ظاهرها توجد قناة تصل نهر الراين بنهر الرون على مقربة من منبعيهما. ومن هنا فإن القوارب النهرية التي تنقل المنتوجات الفرنسية مثل الحبوب والخمور والزبدة وما إلى ذلك، يمكنها أن تنتقل في واقع الأمر من جنوب فرنسة إلى شمالها. وأنا لأنني طلعت (في سبيل المعرفة) فقد ركبت مرة في واحد من هذه القوارب من نهر الرون - القريب من بيزانسون - إلى نهر الراين. لم يقبل أحد الذهاب معي، فالسفرة تحتاج إلى نحو ثماني ساعات. وعدت في القطار.

وبعض هذه القوارب النهرية كبيرة. ومن هذه القوارب ما يوجد عليها مكان يصلح لإقامة ربان القارب وأسرته. وقد سررت لأول مرة رأيت أحد هذه القوارب وعليه الأسرة في مكان إقامتها وحولها حديقة صغيرة من أصص الزهور الجميلة. تذكرت يومها قول ايليا أبو ماضي: كن جميلاً ترى الوجود جميلاً.

وثمّة أمر آخر عنيت به. زيارات للمنطقة. بعضها قمت به منفرداً على البسكليت. لكن أكثر الزيارات كانت جماعية. فقد تألفت جماعة بين 8 و 12 شخصاً، كنا كثيراً ما نقوم بالزيارات أو الحفلات المسائية مجتمعين: والرحلة كانت في الأساس الانتقال بالباص أو بالقطار إلى مكان يبعد عن بيزانسون مسافة تضعنا في قلب منطقة جميلة. وبعد سير على الأقدام لساعتين (أو حتى أربع ساعات) نكون قد استحققنا جلسة وأكلة مناسبة وراحة قليلة نعود بعدها إلى المدينة بالباص أو القطار. والذي أذكره أن هؤلاء الأصحاب لم يندموا مرة واحدة على الاشتراك في

الرحلات التي كنت أنا الذي يقوم على تنظيمها .

وفي بيزانسون أكلت لحم الخيل . فقد كان في البانسيون الذي أقمنا فيه رجل هو المسيو جورج . كان مغرماً بأكل لحم الخيل . وكان يتحدث عنه كما لو أنه متعة من متع الحياة التي لا تفوت . وأخيراً قبلت رأيه - وحتى دعوته - وأكلت لحم فرس أو حصان ، لا أدري . ولم أتعشق ذلك النوع من اللحم . ولما دعوته - في البانسيون - لمثل دعوته ، طلبت من طاهي الفندق أن لا يعطيني لحم خيل . فأنا لم أعتد على ذلك ، ولم يكن في نيتي أن أبدأ الاعتياد .

شبح الحرب

وانتهت عطلتنا في بيزانسون - وهذا هو الذي حدث حقاً أي أنها كانت عطلة - وقصدنا باريس ، حيث قضينا بضعة أيام ، ثم اعتزمنا العودة إلى لندن . وقد كان منظر محطة الشمال في باريس ، وهي المحطة التي كنّا نأخذ منها القطار في اتجاه إنكلترا ، شيئاً مرعباً لنا . كانت أكياس الرمل في كل مكان - حول مكتب قطع التذاكر ، عند مكان بيع السندويتش ، على جدار المقهى ، على أبواب الحوانيت القليلة . والجنود منتشرون لا للتفتيش ولكن للمراقبة وكلُّهم مسلَّحون .

كان المنظر يومها غريباً علي ؛ أمّا الآن ، في صيف سنة 1989 ، فأنا أكتب هذا في بيروت ، وقد مرَّت علينا أربع عشرة سنة ونحن نرى هذه الأوضاع يومياً تقريباً ، وفي نحو نصف هذه السنوات كانت القنابل المختلفة الأنواع والأشكال والحجوم والقوة تتنقل بين أجزاء المدينة .

عندما أتذكر محطة الشمال (غار دونور) في باريس (سنة 1938) أحسبها لعب أطفال!

وهكذا فقد كان هذا الصيف الذي قضيناه هناك صيفاً حاراً من حيث الخوف والتفكير . الخوف من الحرب والتفكير في هذا الشبح الذي كان يُسمَّى شبح الحرب . فالذي حدث أن ندوات عدة كانت تعقد على غير ترتيب سابق في المقاهي وفي ساحات الجامعة وفي المطاعم أحياناً وتبحث فيها شؤون الحرب ويتحدث عنها ،

فالذي يؤيد هتلر ، كان يتكلّم عن ذلك ، والذي يقاوم موسوليني كان يبحث في ذلك . ولأنني أنا كنت أتكلم الإنجليزية والألمانية ، كان بإمكاني أن أشارك في الندوات التي يعقدها عدد كبير من الاسكندنافيين الذين لم يكونوا كلّهم يعرفون اللغة الإنجليزية .

صحيح أن الذين كانوا هناك كانوا طلاباً ، ولكن كما ذكرت من قبل فإن الطلاب كانوا ، وخاصّة عندما يكونون من المثقفين يثيرون قضايا قد يتجنبها حتى رجال السياسة عندنا .

نحن كنّا في فرنسة ، وفرنسة في ذلك الوقت كانت تغلب عليها نزعات يسارية قوية . لكن فرنسة بلد حر . ومن هنا فلم يكن ثمّة ما يمنع عند الحاجة من أن يدافع أحد المتحمسين عن موسوليني أو هتلر ؛ لم يلقَ تأييداً ، ولكنّه لم يقتل من أجل ذلك ، لم يشتم علانية ، لم يُهن إهانة كبيرة لأنه تفوه بأمر يخالف الأكثرية أو الأخرين على الأقل في الرأي .

ندوات بيزانسون غير الرسمية وغير المركّبة وغير المعتنى بها كانت بالنسبة لي درساً كبيراً في حرية الرأي وفي التكلّم عن الموضوعات المختلفة . والذي اغتنمته أنا في أحيان كثيرة كان أن أثير قضية فلسطين كواحدة من القضايا المتعلقة بشبح الحرب هذا . ولكن ، أين كان موقعها بالنسبة لشبح الحرب عندما كان ينظر الأخرون إليها؟ عند أطراف الأصابع ، على الكتف ، قريباً من الرأس؟ ولكن هو كلام يُقال في المناسبات المختلفة .

المهم أننا رأينا أمائر الحرب بأعيننا ، وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذا النوع من التحصن ، فأنا لما تركت فلسطين لم يكن هناك مجال لهذا التحصن . لما عدت إليها في عام 1939 وجدت شيئاً من ذلك ، لكن تجربتي القوية بالنسبة لأكياس الرمل والأعمدة والأتربة والدشوم ، كانت في لبنان بين سنوات 1976 و 1989 وأخشى أن يكون الحبل على الجرار ، فالأمر لم ينته بعد .

لما وصلنا إلى لندن ، لم نجد فيها شيئاً من الذي رأيناه في باريس ، فلا أكياس رمل ولا غيرها . لكن الصحف البريطانية كانت فعلاً تتحدث عن الحرب كما لو أنها واقعة أمس بدل الغد . وهنا اشتدّ النقد لحكومة المحافظين .

فرغنا من الامتحانات النهائية لجامعة لندن (كلية لندن / الجامعية) للحصول على درجة بكلوريوس في التاريخ (من درجة الشرف) . ولم أنتظر ظهور النتائج . وذلك لسببين الأول أنني كنت مطمئناً إلى النجاح والثاني أنني ، كما يقول التعبير العامي «برغتت» أي اشتقت إلى العودة بعد غياب أربع سنوات إلا شهرين ونصف الشهر . وحجزت على الباخرة ستراثنافار (Strathnavar) وهي من بواخر خط شبه الجزيرة والشرق البحري (Peninsular and Orient Line) الذي كان ينقل الركاب من بريطانية إلى إفريقية والشرق بأجزائه الثلاثة (الأدنى والأوسط والأقصى) وأستراليا . والبواخر التي كانت تذهب إلى هذه المناطق كانت تمر بقناة السويس . وكان من الطبيعي أن أنتقل أنا ذهاباً وإياباً على واحدة من هذه البواخر .

ففلسطين كانت واقعة تحت الانتداب البريطاني . وكان معي على الباخرة هيفاء بولس وبدر الفاهوم ، وكلاهما ، مثلي ، كانا قد حصلا على بعثة دراسية إلى لندن . نحن الثلاثة حجز لنا في درجة السواح (يعني ثانية أو ما يشبه ذلك) . أما سعيد الدجاني ، الذي كان يدرس في جامعة كمبردج على حسابه الخاص ، فقد حجز لنفسه مكاناً في الدرجة الأولى .

غادرت الباخرة لندن في طريقها إلى بورسعيد . ولست أذكر الآن فيما إذا وقفت في جبل طارق ، فقد وقفت فيه مرات كثيرة في أسفاري ، بحيث نسيت هذه السفرة . ولكن الذي لا يمكن نسيانه هو أنها وصلت مرسيليا مساء يوم 13 تموز/ يوليو ، وعرفنا ، من جدول أوقاتها ، أنها ستبحر من مرسيليا عند الفجر من صباح يوم 15 / 6 / 1939 . وإذن فنحن سنقضي يوم 14 تموز / يوليو ، يوم الباستيل ، في مرسيليا ، وسأرى احتفال الفرنسيين به مرة ثانية في مدى سنة واحدة .

أظن أن الذين سافروا بحراً من أبناء الجيل الحاضر هم قلّة . فالطائرة لم تترك مجالاً للتنقل البحري إلا للقلّة . والسفر البحري ، وقد جربته كثيراً ، فيه متعة كبيرة . فهو مريح ، ووقته يمكن للمسافر أن يقضيه بطرق متنوعة . فهناك القراءة – والبواخر جميعها فيها مكتبات لإعارة الكتب للمسافرين . وهناك الحفلات الموسيقية ،

والحفلات الاجتماعية الراقصة . وهناك الألعاب المتنوعة ممّا تجده على ظهر المركب .

إنما يُشترط في مسافر البحر أن لا يكون «نقاقاً» متذمراً لا يعجبه العجب . إذ عندها سيتضايق من لون البحر والسماء الصافي ، وسيتضايق من الطيور التي تمر فوق السفينة ، وسيتضايق من رؤيته سفينة أخرى في البحر .

ولعلَّ سبب التذمر عند البعض ممّن سافروا أو قد يسافرون بحراً ، هو أنهم يشعرون بالانقطاع عن العالم . هذا صحيح . ولكنّني كنت أحسّ دوماً أن هذا الانقطاع هو من دواعي سروري واستمتاعي بسفر البحر .

على كلٍّ جرّبنا أن نستمتع ، أقصد جرب الباقون ذلك أمّا أنا فلم تفتني متعة على السفينة . وكان بين المسافرين في الدرجة الأولى محمد زهدي بك الذي عرفت فيما بعد ، ونحن بعد على ظهر الباخرة ، أنه المدير العام لجمارك الوجه البحري (الشمالي) في مصر .

دعانا سعيد يوماً إلى الدرجة الأولى ، وعرفنا على زهدي بك . ويبدو أن الرجل الدمث النبيل أراد أن نكرر الزيارة ، لذلك تعدّدت المرّات التي ذهبت فيها إلى الدرجة الأولى ، حتى أحسست كأن صداقة قد توطدت بيننا .

وحدث أن أقيمت حفلة في الدرجة الأولى كان حضورها يقتضي لبس ثياب السهرة ، وقال سعيد لو كان لديكم ثياب سهرة دعوناكم (يعني هو وزهدي بك) . وعندها أخبرته أنني أملك ثياب سهرة من النوعين المألوفين في بريطانية . ولم يتراجع سعيد ، وحضرت الحفلة ، وإن كنت قد قضيت قسماً كبيراً منها أتحدث إلى زهدي بك ، باعتبار أنه هو الداعي فعلاً ، كما شعرت ساعتها وكما عرفت فيما بعد .

التوقف في مرسيليا

وألقت الباخرة مراسيها في مرسيليا . وهيأنا أنفسنا لندور في شوارعها متفرجين على كيفية احتفال مدينة كبيرة بالعيد الوطني . فالذي شاهدته في بيزانسون في السنة السابقة كان احتفالاً رسمياً أولاً إذ قام به الجيش . وكان المقصود أن يستعرض الجيش عضلاته في مكان قريب من ألمانية . ثم كانت هناك حفلات مدينة متوسطة الحجم .

أما مرسيليا فهي ميناء كبير ، وقد كان في الميناء عدد من السفن ، والميناء ، بطبيعة الحال فيه الكثيرون من الأجانب .

وصخبت المدينة . مع تقدم المساء نحو الليل لم يبقَ مقهى فيه مكان لشخص واحد يمكن أن يدخله خاصّة إذا كان يبغي كرسياً ؛ لم تبقَ ساحة لم تنتصب فيها حلقات الرقص . أمّا الموسيقى فكانت تصل الراقصين إمّا من فرقة صغيرة تتوسّط الحلقة ، أو من فرقة أكبر تعزف في مقهى ، أو من أبواق الإذاعة . وحتى عندما تنعدم الموسيقى يقوم الراقصون أنفسهم بالغناء والتصويت . ولم يكن الراقصات والراقصون الذين يتجمعون في حلقة من الحلقات بالضرورة قد جاءوا معاً ، أو أن البعض منهم يعرف البعض الآخر ؛ لا كانوا يلتقون ، يلتئمون صفوفاً أو دوائر ، يغنون ويرقصون ، ثم تنتقل الفئة الواحدة غرباً ، وتذهب الأخرى شرقاً ، فيما يصل إلى الساحة فئات من الشمال والجنوب تنضم إلى الموجودين ، ويبدأ الاحتفال من جديد . وهذا كان يحدث في كل ساحة . فقد تنقلت أنا ، لما تعب الآخرون وجلسوا في مقهى ، بين عدد لا يستهان به من الساحات .

ومثل هذا يقال عن أرصفة الشوارع . هذه كان التجمع فيها للغناء والموسيقى . فإن الأرصفة – على اتساعها – لا تصلح لحلقات الرقص .

والبارات وحوانيت بيع الشراب والساندويتش – وهو في فرنسة خبز كثير فيه جبن أو لحم قليل – مفتوحة وتعمل بكل نشاط .

لما عدت إلى أصحابي وجلست معهم ، نسترجع أنفاسنا ، قال لي بدر انظر توجد لائحة عليها أسعار المشروبات على أصنافها ، لكن الوسكي غير مسعر . وسألته فيما إذا كان الوسكي موجوداً في المقهى ، فكان جوابه إنه موجود ، ولكنّه مرتفع السعر جداً . هذا هو السبب . المشروبات الفرنسية يجب أن تسعر ، أما الوسكي فيباع تحت الطاولة ، كما يقول الإنجليز . وكل ما يباع تحت الطاولة يرتفع سعره ، بقدر ما ينخفض مكانه تحت الطاولة .

ومرسيليا التي صخبت ليلاً استقبالاً للرابع عشر من تموز/ يوليو ، يوم العيد الوطني ، تلقت اليوم نفسه هادئة ، محترمة الذكرى الكبيرة .

كان هناك عرض عسكري ضخم . لا أدري فيما إذا كان الخوف من الحرب (العالمية الثانية) أو توقعها كان السبب في ضخامة العرض ، أو أن الجوار الفرنسي الألماني كان مسؤولاً عن ذلك . وقد ذكرني العرض الذي شهدته يومها في مرسيليا ، بذلك العرض التي وقفت أراقبه ساعات طويلة في برلين في اليوم الأول من نيسان / أبريل 1936 . وهذه مشكلة العالم التي بدأت قبل آلاف السنين ولا تزال مستقرّة في نفوس الشعوب أو حكّام الشعوب . وها أنا أكتب هذه الكلمات في حزيران / يونيو 1989 ، وأتطلع إلى خارطة للعالم معلّقة على الجدار وأحاول التعرف فيها على الأماكن التي لا تقوم فيها معارك في هذه الساعة . وبعد قليل قد أتنصت إلى نشرة أخبار مفصّلة من إحدى الإذاعات المحلية فيكون أول ما يعطى سقطت القنابل على شاطئ جبيل وكسروان ، وبالمناسبة على المتن وبعبدا ؛ وتقول الإذاعة التالية أن القنابل سقطت على عين المريسة والحمام العسكري .

مسكينة هذه القنابل التي تسقط ، كأن ليس ثمّة من يطلقها .

نعود إلى مرسيليا . وبعد الظهر بدا شيء خاص ، أو هكذا قيل لي ، وهو أن مرسيليا تحتفل بالأعياد الوطنية والمحلية ، وهذا طبعاً أهمها وأكبرها ، بالخروج جماعات صغيرة إلى الضواحي فتقضي بعض الوقت في الغابات أو المقاهي الداخلية أو تلك التي تقع على الشواطئ .

ومع أن حلقات الرقص عادت إلى بعض الساحات في المساء ، فقد كانت أقل صخباً منها في المساء السابق . وتسكعنا إلى ساعة متأخرة من الليل . وعدنا إلى الباخرة ونحن جائعون . كنّا نأمل أن نجد مكاناً للأكل على مقربة من الميناء . لكن كل ما كان جاهزاً ليؤمن لنا شيئاً كان البارات التي لم يكن فيها حتى الترمس!

وكان المألوف في الباخرة أن توضع كميات كبيرة من الساندويتش في المساء (حوالي الساعة الحادية عشرة) . ولكن الصواني كانت فارغة عند الساعة الثانية (وزيادة) صباحاً .

اقترحت على سعيد أن نذهب إلى الدرجة الأولى فقد نجد هناك شيئاً . الدرجة

الأولى كان فيها المشرف على الصالة ، ولم يتأخر عن دفع صحن كبير من الساندويتش إلينا (مقابل كم قرش ، علم الله من دفعها منّا) ، على أن لا نأكلها هناك ، فنحن لسنا ركاب الدرجة الأولى . لكن صالتنا كانت مفتوحة ومنورة ونزل سعيد معنا إلى «درجتنا» حيث استمتع بساندويتش مطعمه .

الرسو في بورسعيد

وأقلعت الباخرة مع الفجر . ووقفت في بورسعيد ، حيث نزلنا برعاية محمد زهدي بك . رأينا حقائبنا وهي تخرج من السفينة ، ثم طلب منّا أن ننساها ونذهب إلى تناول الغداء صحبة زهدي بك . وفي الواقع رأيناها لما وصلنا محطة القطار في بورسعيد ، ثم لما بدلنا القطار في القنطرة . كل ذلك تم لنا بالواسطة لأن محمد زهدي بك أوصى بذلك من منزله في الإسكندرية (وكان قد غادر بورسعيد بالطائرة بعد ظهر اليوم نفسه) إلى مدير محطة القنطرة .

وفي غزة ، وقد وصلناها حول الساعة السادسة صباحاً ، كنّا قد أحسسنا بالجوع - لا بل أحسست أنا بالجوع الشديد بالرغم من الغداء الكبير والعشاء المعتدل في اليوم السابق . ولم أجد في محطة غزة سوى ساندويتش فلافل (طعمية) ومعها بندورة . أنا أكلت وسررت . هيفاء اعتذرت . لكن لا أذكر أن سعيد وبدر امتنعا عن الأكل .

كانت هذه أول لقمة أكلتها في فلسطين بعد غياب أربع سنوات إلا القليل . وقد كانت لذيذة جداً مع الجوع الشديد .

في اللد افترقنا ولو مؤقتاً - سعيد ذهب إلى يافا ، وبدر وهيفاء استمرا في القطار إلى حيفا ، وأنا نزلت في اللد حيث كانت أختي ماري وأخواي ألفرد وجورج بانتظاري مع سيارة كبيرة لأضع فيها 12 قطعة عفش . ومنها إلى القدس .

رحلتان إلى إمارة شرقي الأردن

1942

أنا محب الرحلة والتنقل . وكان من الطبيعي أن لا أتخلف عن زيارة ما كان يُسمّى يومها «إمارة شرقي الإردن» . وقد أتيح لي ذلك في سنتين متواليتين ، فكانت سنة 1942 حصة جنوب المنطقة ، وزرت في السنة التالية الجزء الشمالي من البلاد . وقد دوّنت شيئاً عن الرحلتين في سنة 1945 ، وها أنا أثبت ذلك هنا .

وقد تمّت الزيارة الأولى برعاية الصديق ناصر الدين الأسد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الأردنية والوزير فيما بعد ، الذي كان يومها طالباً في الكلية العربية ؛ وكانت ضيافتنا في الكرك عند آل المجالي . وكان عبد السلام المجالي (الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الأردنية والوزير فيما بعد) يومها طالب طب في الجامعة السورية بدمشق ، وهو وناصر الدين صديقان وأضفت أنا إلى قائمة الصداقة .

أمّا الزيارة الثانية فقد كانت برفقة أديب عتقي وأديب خوري (المهندس الصحفي) . وكانت في سيارته الصغيرة المسماة زنوبيا الثانية .

في ديار الأنباط (1942)

تحرك بنا القطار من محطة عمّان واتجه نحو الجنوب . وكان الركب مختلطاً ، ففيهم التجار الذين يحملون ما جمعوا من حوانيت دمشق وعمّان لينقلوه إلى من يحتاجه من أهل الكرك ومعان . وفيهم بدو عائدون إلى مضاربهم بعد أن قضوا لباناتهم من مباهج عاصمة الإمارة وغيرها . وفيهم جنود راجعون إلى العقبة . وفيهم قلّة من طلاب اللذة خارج المدينة حيث تكثر الآثار القديمة . وسار القطار يطوي البيد طياً رفيقاً ، إذ لم يكن باستطاعته أن ينهبها نهباً . وبدت على التجار الذين يجتازون هذا

الطريق مرّات في العام الواحد أمارات الملل ، أمّا أنا فكنت أتطلّع إلى كل جزء من الأرض أحاول التعرف إليه شبراً شبراً . هذا وأنا أعرف أنني لن أجد فيها تنوعاً . فنحن نسير على سيف البادية وليس هناك من مظاهر الحياة إلا هذه الخيام التي تبدو للعيان بين حين وآخر وإلا هذه الأرض القفراء ، فقد كان الوقت أواخر الصيف ولا سبيل لحياة نباتية تطالعنا في تلك الجهات . ولكن من اعتاد أن يحب بلاده وإن جارت عليه ، وأن يحب أهله وإن ضنوا عليه ، رأى بلاده عزيزة ورأى أهله كراماً . وهذا الركب لا تكاد تمر عليه ساعة وبعض الساعة حتى تربطهم اللغة بعضهم ببعض فيتحدثون حديث إخوان وخلان ، ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء ويروي الواحد قصّته فيضحكون حيناً ويألمون حيناً ، حتى إن الدخيل بينهم يحسب أنهم أفراد أسرة واحدة فرقت بينهم الأيام ثم جمعتهم ، فإذا المياه تعود إلى مجاريها . وكان أبو شام التاجر الدمشقي المقيم بالكرك ، سلوة الركاب فيما قصّ عليهم من طرف اختباراته في الاتجار والسفر ، حتى إنه لما تركهم في القطراني أسفوا لذلك ، وودّوا لو أنه يقصد معان ليتم سرورهم به .

ويمر القطار بهذه المحطّات القائمة في طريقه . وأكثرها يتكوّن من بيت لناظر المحطّة ومكتب له . وفي بعضها بنايتان أو أكثر لخزن غلات المنطقة المتجمعة فيها تمهيداً لشحنها . هذه زيزياء وبركتها التي بنيت لجمع الماء . فأكثر هذه الأماكن خالٍ من الينابيع . وسكان المحطات أنفسهم يحمل إليهم القطار الماء من عمّان فيودعونه في صهاريج بنيت لذلك ويستعملونه بقصد إلى أن يحين الموعد التالي لمجيء القطار فيأتي لهم بكمية جديدة من الماء .

ويحدثك أحد الركاب إذ تطل على زيزياء فيقول إلى يمينك ، إلى الغرب تقع مأدبا وإلى يسارك ، إلى الشرق ، يقع قصر المشتى . وأتذكر أنا زيارة سابقة لهذين المكانين ، فتعود إلى نفسي ذكرى هذه القطع الجميلة من الفسيفساء التي هي من مفاخر الفن السوري قبيل الفتح العربي لهذه البلاد . أذكر كيف دخلنا بيتاً أو أكثر في مأدبا فكان أهله يرفعون الحصير الذي يكسو الأرض فتظهر تحته هذه القطع الفنية ، بعضها يمثل أبراج الشمس الاثني عشر وبعضها يظهر الفصول والبعض الآخر فيه زهور وطيور واضحة التفاصيل ظاهرة الأجزاء . وأتذكر زيارة لقصر المشتى . وهو قصر يعود إلى

أوائل عصر الأمويين وهو واحد من هذه القصور الصحراوية التي بناها الخلفاء ليخلصوا من ضوضاء دمشق ، ويستمتعوا بهواء الصحراء النقي . وإنك لتدخل ما تبقى من المشتى ، فتقف فيه حائراً دهشاً : لأنَّ القومَ صنعوا شيئاً لم يعرفه الشرق منذ أيامهم . وكانت هذه الأماكن تحوي من لوازم الرفاهية ومقتضيات العيش الهنيء ما لم يكن الحصول عليه سهلاً في المدينة ، بله قصراً في الصحراء .

سكة السلطان عبد الحميد

تذكرت هذا ، وتذكرت غيره ، وأنا أقلب ناظري في هذه الأماكن . ألم يحمل مد سكة الحديد هنا بعض البدو على تغيير طراز معيشتهم والانتقال إلى حياة مستقرة حضرية؟ وانتقل تفكيري إلى عبد الحميد ، عبد الحميد الثاني سلطان تركيا . صاحب فكرة هذا الخط لقد أعيت السلطان هذه الثورات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب ، من الحجاز إلى اليمن . وعقد النية على التخفيف من حدّتها إن لم يكن على القضاء عليها . فرأى أن يصل اليمن ، بسوريا بخط حديدي يمكنه من السيطرة على الطريق وإرسال الجيوش متى احتاج إلى ذلك . لكن نفقات مثل هذا الأمر كبيرة . وخزانة السلطان لا تتحملها ، وإذن فلتتعاون قريحة السلطان الوقادة ، وذكاء وزيره الأول شوكت باشا على إيجاد حل لهذه المشكلة . وتوصل الرجلان إلى فكرة لم يلبثا أن أبرزاها إلى حيز العمل .

إن هذا الخط سيجعل أداء فريضة الحاج أسهل على المسلمين متناولاً ، وسيجعلهم هذا الخط بمن يقوم على حراسته من الجند ، في مأمن من اعتداء القبائل على قوافل التجار ، وسيقصر المدة اللازمة للقيام بالحج . وإذن فليشترك المسلمون في بناء الخط . ودعا عبد الحميد العالم الإسلامي إلى ذلك ، فلبيت الدعوة وتدفقت التبرعات ، ودفع موظفو الدولة العثمانية كلّهم مرتّباتهم لشهر واحد لمساعدة المشروع ، وأمر الجيش بالعمل فيه . فكان في ذلك كله ما أفسح للفكرة المجال فصارت عملاً . ودفعت العمل همة عبد الحميد التي لم تكن تعرف الملل أو التعب فسار سيراً سريعاً ، ولم يلبث أن وصل أول قطار إلى المدينة سنة 1908 آتياً من دمشق . وبذلك تمّ الجزء الأول من

خطّة السلطان الجريء . ووقف عند هذا الحد لأن السلطان انتهى أمره . ولأن خلفاءه في السلطة شغلتهم عن تتميم الخط شواغل أخرى .

والوقت الذي كان علينا أن نقضيه في القطار طويل نهار كامل من عمان إلى معان . والحديث ، مهما حلا وعذب ، قد يمله الناس إذا طال ، ولكن المسافر الحريص يصطحب رفقاء لا يملهم ولا يملونه . وكنت قد حملت معي كتاباً أو أكثر فعكفت على القراءة بعض الوقت . لكن هذه القراءة كانت تقطعها علي رغبتي في أن أراقب الأرض . وكان صاحبي يصرخ آناً بعد آخر لافتاً نظري إلى قطيع صغير من الغزلان ينفر إذ يسمع صفير القطار أو دويه فيذكرك ببيت شوقي .

تلفتت ظبية الوادي فقلت لها   لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد

وساءلت نفسي : أكانت هذه البلاد دائماً قاحلة على هذا النحو؟ لكن الجواب جاءني من مصادر مختلفة بأن ذلك لم يكن . فقد كانت ثمّة بقاع تكسوها الغابات ، لكن عدا عليها الزمن فاجتثت ولم يغرس مكانها غيرها . وأشار صاحبي إلى قرب وادي الحسا وقال : إن المنطقة الواقعة إلى الغرب كانت مكسوة بالأشجار في أوائل القرن الحالي حتى إن الحكومة التركية رأت أنها تستحق أن يمد فرع من سكة الحديد إليها لتنظيم شحن الأخشاب منها ، فقلت في نفسي أما الخط فمدّ ، وأما التنظيم فلم يكن ، لذلك اقتطعت الأخشاب وماتت الأشجار . فإنني لما مررت بتلك البقعة بعد أيام رأيت فيها بضع شجرات حيث كانت غابات واسعة قبلا .

وكنت وأنا في هذه الطريق أذكر الغساسنة . لقد عمر هؤلاء مشارف الشام وكانت لهم فيها دولة وكانوا عرباً خلصاً من الذين جذبتهم المدنية إليها فأحبوها وأعجبتهم الحضارة فاستمرأوها لكنهم ، مع ذلك ، لم يتركوا فضائل العروبة وإباءها وشممها ، وإليهم يرجع الفضل في إتمام تعريب شرقي سوريا قبل الفتح الإسلامي .

وهمّت الشمس بالغروب ، فأخذ الأفق الغربي يكتسي بأثواب مختلفة الوشي متباينة الألوان تتعاقب عليه دقيقة إثر الأخرى . وفي كل حالة كان يبعث في نفسي موجة من الإعجاب لا تكاد تهدأ حتى تعقبها أخرى ، وبينا نحن في هذا الطرب النفسي وقف القطار وصاح صاحبي «هذه معان» فنزلنا .

واستضافنا في المدينة صديق لصاحبي رافقنا كل الطريق وأقسم إلا نزلنا عنده .

وكان أول ما قدم من الطعام تمر مقلو بالسمن . فقد كنّا في رمضان ، وسنّةُ الإفطار أن يبدأ بالتمر . واتباع السنة عند أهل معان ميسور . وقضينا أمسية وليلة في ضيافة عربية بعيدة عن الكلفة . وكانت أولى عدد من الضيافات استمتعنا بها في تلك الربوع .

زيارة البتراء

واعتزمنا أمرنا على أن نزور البتراء ، والبتراء غاية الزائر في جنوب شرقي سوريا . وسرنا عصر يوم قاظ وسطه وطاب مساؤه ، وصلنا مقر بوليس وادي موسى قبيل المغرب . ووقفت على المكان الذي تتوسطه البتراء ، دون أن ترى . وكانت الألوان التي تنعكس من الجبال الرملية ، إذ تلقي عليها الشمس أشعتها الباهتة المريضة ، لا تعدّ ولا تحصى . فهي ورد أصناف ، ودماء مهراقة كأنها نزفت من صرعه بالكثيب البهر . وهي إلى ذلك كله قوة في رقة ، وصلابة في لين . تدعوك إليها دون أن تتزلّف ، وتفتح لك قلبها دون أن تتبذل ، وتحملك على تقبيلها دون أن ترمي بنفسها بين يديك .

كانت الشمس لم تظهر بعد على الأفق الشرقي لما وجدتني أسير وصاحبي في طريقنا إلى البتراء وكان السير الضيق منفذنا الوحيد إلى خزنة فرعون . فوقفنا أمامها وقد تدلّت من فوقنا بوادر أشعة الشمس فجعلت هذه الواجهة المنحوتة في الصخر الوردي المصفر من آيات الفن التي تتحد الطبيعة ويد الإنسان على إخراجها في تلك البقعة . وما أكثر الأماكن التي يتمثل فيها هذا التعاون بين القوتين . فإنك واجد في كل ناحية من نواحي البتراء عشرات من هذه الآيات .

ولست أريد أن أزعجك أيها القارئ الكريم فأنقل إليك هذه الصور مشوّهة . فالحق أن كل ما كنت قد قرأته عن البتراء تضاءل شأنه لما وصلت إلى هناك ورأيت هذا الشيء الغريب . ووجه الغرابة في الأمر ليس نحت بضعة بيوت أو معابد في الصخر الأصم ، ولكن وجه الغرابة هو أن يفرض الأنباط على الناس أن يأتوا لمدينتهم مرتين . المرة الأولى يوم جاءوها للإتجار ، وقد كان الأنباط العرب سادة التجار في جنوب سوريا . والمرة الثانية بعد ذلك بنحو عشرين قرناً إذ فرضوا عليهم أن يزوروها ليستمتعوا

بهـا آية فنيـة . ولن يمكنك ، يا أخي ، أن تلم بهـذين الأمـرين إلا إذا زرت البـتـراء ، فاذهب .

وما قولك بشعب يحتل هذه الأصقاع في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد كانت فيها حضارة تقوم حول الكرك وعمان ، وكانت فيها صناعة تتمركز في وادي العربة والعقبة ، فيتخير هذه البقعة الصخرية الجافة ليحفر فيها عاصمته ويجعلها مركزاً للاتجار ، ثم هو يحمل القوافل على أن تتجه إليها ويحمل التجار على الاجتماع ، فلا تلبث أن تصبح السوق الرئيسية لمتاجر بلاد العرب ومصر وسوريا الداخلية والساحلية . ولا تلبث أن تمتد أبنية العاصمة ومحفوراتها وتنتشر على الآكام التي تحيط بوادي البتراء الرئيسي ، فتبدو البقعة الجافة وقد أينعت لأن أهلها أرادوا لها ذلك ، وتظهر المدينة الصخرية وقد اكتست بالورد والخز والديباج لأن سكانها أرادوا لها ذلك .

ويسيطر الأنباط أو تسيطر البتراء على طرق التجارة كلها ، وتنشر ، مع تجارتها ، حضارتها ، فنرى الأسلحة تصنع في الشمال على شكل نبطي ، ونرى المعادن تستخرج على نحو ما يريد الأنباط ، ونرى آلهتهم تعبد على نحو ما يعبدونها .

ونقضي يوماً في البتراء . ويشتد الحر ، فنقيل عند نبع ماء يكاد ينبثق من الصخر ، لكن بعض الأتربة التي تتحرَّر من ربقة الصخور تتجمع حولها شجيرات الدفلة ، وهذه تحمل زهوراً جميلة ، فتقع العين على شيء يتم جمال هذه الصخور الملونة .

وعدنا من زيارة اليوم ، وكانت السيارة تنتظرنا ، فقطعنا فيها قرابة أربعين من الكيلومترات لنطل على الشوبك . وهي قلعة حصينة في جنوبي البلاد ، بناها الصليبيون لما استولوا على تلك الجهة ، فلما أُخرجوا استولى عليها الأيوبيون واستمرت بعدهم لأهل البلاد . وقد تخلّى عنها الفارس للفلاح والراعي ، لكن الفلاح والراعي متى خطر لهما أن يثوروا اتخذا من جدرانها وحصونها الكاملية ترساً يختبئون خلفه ، ويرمون الجند المهاجم بالسلاح والحجارة . فقلعتهم تقوم على قمة رابية تحيط بها ثلاثة أودية تتحد على درء الخطر عنها ، ولا يمكن الاقتراب منها إلا فوق جسر واحد إلى شمالها الغربي .

وعدنا من الشوبك إلى معان ، وأدركنا المغرب في الطريق . وأوقفت السيارة لإصلاح عطب طرأ عليها ، فاغتنم ركابها تلك الفرصة ، وأوقعوا ببعض التين الذي

كان عطا الله يحمله هدية إلى أهله . ولكن من حق الصائم أن يفضل على صاحب الهدية . وأتم عطا الله كرمه بأن أقسم إلا تناول الجميع عنده طعام الإفطار تلك الليلة . وكان له ذلك .

قطار إلى معان

وفي صباح اليوم التالي أقلنا القطار من معان إلى القطراني ، فقد كانت الكرك وجهتنا هذه المرة ، وكنت أحسب أنني رأيت كل شيء في الطريق ، فلا يكون ثمة من جديد . لكنني أخطأت الحساب . فما كدنا نقضي ساعة في الطريق حتى دعاني صاحبي إليه ، وأشار إلى شيء بعيد في الأفق . إنه السراب . نعم هذا الذي يحسبه الظمآن ماء . فيتجه نحوه ، ويشدد العزم ، ولكنه في واقع الأمر يسعى خلف انعكاس أشعة الشمس على حرات الأرض . نعم لقد كانت الأرض هناك بركانية ، وهذا شعاع الشمس ينعكس عليها ، فيخيل إليك أنك ترى الماء ، والماء عنك بعيد .

راقبت السراب هذا ، وجلست بعدها في القطار أحدث نفسي وأستمتع بتدخين غليوني ، وطال بي التحدث إلى نفسي ، وخرجت منه وأنا أردد :- الأنباط ، الغساسنة ، الفتح العربي ، اليرموك . نعم لقد كانت كل كلمة من هذه تمثل خطوة من تلك الخطوات المباركة التي انتهت بصيرورة هذه البلاد عربية . ولئن كانت البتراء وبصرى محطات للإتجار ، ولئن كان المشتى قصراً للنزهة ، فقد كانت كل هذه محطات انتشرت منها اللغة العربية ومراكز انتشر منها العنصر العربي ، واتحدت معها الحيرة وتدمر والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والرملة وحلب وكل مدينة أخرى . وجماع هذا الجهد الذي شمل هذه الرقعة الواسعة ، وامتد كل هذا الزمن هو أن أصبحت هذه البلاد عربية ، وبت أشعر أنني في وطني حيث نزلت وأنى ارتحلت .

إلى جرش (1943)

ألقى الرفاق نظرة أخيرة على المدرج الروماني الجميل الذي تزدان به عمان ،

واتخذوا مقاعدهم في السيارة الصغيرة التي كانت ترابط عند أقدام التمثال المحطم الرأس ، وقال قائلهم «إلى جرش» . وسارت السيارة الصغيرة تطوي الجزء من الطريق بعد الآخر ، والأصحاب الثلاثة صامتون إلا من ملاحظة عن مكان أو غير ذلك فلما اطمأنوا إلى أن الطريق خير مما وصف الواصفون ودون ما هول الناس انطلقت ألسنتهم من عقالها وتحدثوا بجمال هذا الوادي الذي بدأوا يقبلون عليه - وادي الزرقاء . ونشر أحدهم بين يديه كتباً وتناول الثاني خارطة أخذ يتقرى فيها أسماء الأماكن التي كانوا يجتازون ، بينما شغل الثالث نفسه بقيادة السيارة .

وتحدثوا ملياً وذكروا فيما ذكروه أن ذلك الجزء من سوريا المعروف اليوم باسم شرقي الأردن ، كان في القرن السابق للمسيح عرضة لنهب الناهب وسلب السالب . فقد كانت قبائل البدو تشن عليه الغارة تلو الغارة ، وتحمل ما حوته مدنه من كنوز إلى منازلها المتنقلة ، وكانت دولة الأنباط في البتراء تقود عليه الحملة إثر الحملة فتحتله أو بعض أجزائه ، فإذا انسحبت منه عادت قبائل البدو إلى أعمالها في أنحائه . وبذلك تخربت تلك المدن التي كان اليونان قد أنشأوها وتعهدوها في ربوعه والتي كانت مشرقة المباني ، جميلة الهياكل ، فأصبحت وكأنها أطلال تنعي بناتها .

وأشار الرفاق في حديثهم إلى أن هذه الحال دامت حتى جاء الرومان سوريا ، واحتلوها ، وامتد سلطانهم إلى سيف البادية ، فأعادوا إلى شرقي الأردن طمأنينتها ، وأمنها ، فعادت المدن إلى الازدهار ؛ وذكر أحدهم أن السر في أن الغالب على بناء هذه المدن نزعة الفن الرومانية ، مع أنها أنشئت لأول مرة في عهد اليونان ، يرجع إلى هذا الدور الذي مرت به البلاد قبل احتلال الرومان لها .

عني الرومان بتنظيم الإدارة في سوريا وبحماية البلاد من هجمات البادية ؛ وفي سبيل الوصول إلى هذين الغرضين أنشأ الرومان عدداً من القلاع والحصون تمتد من جنوب عمان إلى درعا فالفرات ؛ وأعادوا إلى كثير من المدن المهملة قيمتها وعمروا مبانيها ، فتقاطر الناس إليها واتخذوها مقراً لهم من جديد ، فكانت زيزياء وعمان (فيلادلفيا) وجرش وفحل وبيسان ودرعا مما عمروه . وأدرك الرومان أن الجيش في سوريا عدتهم في المحافظة على البلاد ، وأن سرعة انتقاله عامل مهم في ذلك ، فبنوا الطرق التي كانت تصل بين هذه المدن ، وبينها وبين مدن الساحل السوري . فكانت

عكا (بطلمايوس) وبيروت وما بينهما تتصل مع بيسان وفحل وجدارا وجرش ودمشق اتصالاً مباشراً على طرق مبنية من قطع كبيرة من الحجر كالتي كان يستعملها الناس في بعض مدن سوريا إلى عهد قريب لتبليط عرصات الدور الكبيرة . وكان ثمة طريق يمتد من دمشق إلى فحل أو درعا ، ثم يمر بجرش فعمان جنوباً . ولما احتل تراجان في أوائل القرن الثاني للميلاد ، البتراء ، وضمها إلى الإمبراطورية أتم الطريق بحيث أصبحت تصلها ، وبذلك ارتبطت كل أجزاء البلاد بشبكة من الطرق يسرت نقل الجنود من مكان إلى آخر .

لكن الطريق متى أنشئت لا يقتصر استعمالها على الجيوش ، سيما إذا كانت تجتاز بلاداً جعلتها الطبيعة طريقاً للتجارة . فإن موقع شرق الأردن بين الحجاز جنوباً وبقية سوريا غرباً وشمالاً ، والعراق شرقاً ، جعلها بحكم الطبيعة من أقدم الأزمنة طريقاً للقوافل التي كانت تحمل متاجر اليمن والحجاز ونجد إلى تيماء والبتراء وغزة ودمشق . فلما انتشر الأمن والنظام على أيدي الرومان لمدى ثلاثة قرون ، عاد إلى المدن نشاطها التجاري وأصبحت أسواقاً لكل أنواع المتاجر ومركزاً لكل القوافل . فازدهرت حياتها الاقتصادية ، ونمت ثروتها ، وزاد سكانها ، وعادت إليها المباني المشرقة ، والهياكل الجميلة ، ونشطت مجالسها المحلية لتجميلها ، وعني حكامها بتحسينها ، فبقيت لنا من جراء هذه العناية وذلك النشاط ، هذه الآثار الخالدة التي يشاهدها المرء في كل ناحية من نواحي البلاد .

فأنت واجد في كل مدينة من مدنها الكبيرة مدرجاً يتسع لأربعة آلاف أو أكثر من المتفرجين ، كانوا يجتمعون فيه ليشاهدوا تمثيل الروايات التي كتبها أبناء البلاد أو نقلوها عن اليونان ، وأنت ملاق في كل مدينة ساحة ندوة كان الرومان يسمونها «الفورم» حيث كان يلبي أحرار المدينة دعوة رئيسها لاجتماع عام يقرر فيه من الأمور هامها ، وأنت عاثر في كل منها على بقايا دار المشيخة حيث كان يجتمع مجلس المدينة لإدارتها .

ولما كانت هذه المدن أو أكثرها قد وجدت في زمن اليونان فقد تأثرت بالنزعة الهندسية التي عرفت بها المدن اليونانية الهلينية . ذلك أن شوارعها كانت تتقاطع على زوايا قوائم ، وتسير على خطوط مستقيمة . وكانت المياه العذبة الصالحة للشرب

تنقل إليها من مسافات بعيدة . فقد نقلت مياه الشرب إلى درعا من مسافة خمسة عشر كيلومترا ، كما عنى المهندسون بالمجاري للتخفيف عن المدينة .

وقد رافق هذا الاطمئنان والإثراء نهضة فنية قوامها أهل البلاد أنفسهم فبدت آثارها في تزيين أرض البيوت والهياكل بالفسيفساء الجميلة التي تحوي أشكالاً ورسوماً بديعة . ولما كانت النصرانية قد أخذت تنتشر في تلك البلاد في هذه الأثناء ، اهتم الناس ببناء الكنائس ، ورصعت أرضها بالفسيفساء التي شملت صور القديسين ومناظر من الكتاب المقدس وخارطة لفلسطين وبيت المقدس وفيها كنيسة القيامة ، يمكن مشاهدتها إلى الآن في مأدبا وغيرها من مدن شرق الأردن .

وكان الرفاق قد شاهدوا الكثير من هذه الآثار التي تحدثوا عنها في مأدبا وعمان ، وزاد شوقهم الآن إلى جرش . ولم يقطع حديثهم إلا إشرافهم على وادي الزرقاء العميق . فأخذ سائق السيارة ينحدر في الطريق المؤدي إلى الجسر بحذر ، حتى وصله . وهناك وقفوا وتأملوا المنظر الجميل ، ورأوا الوادي الذي يفصل البلقاء عن عجلون والذي يصب ماؤه في الأردن أخيراً .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لما بدأت السيارة تصعد في الجهة الأخرى من الوادي إلى سفوح جبال عجلون المكسوة بغابات الصنوبر والبلوط والسرو ، فكان هذا يزيد شعورهم بالغبطة والسرور . وغربت الشمس وهم في الطريق فازداد تأثرهم بمداعبة هواء الصيف للأشجار وبأصوات العصافير وهي تأوي إلى الأغصان ، وخرير مياه الينابيع التي كانت تباغتهم على جنبات الطريق .

وفجأة رأوا باباً كبيراً كل ما بقي منه ركاه وتاجه ، فعرفوا أنهم وصلوا إلى جرش . فمروا به محيين إلى البلدة الحديثة الصغيرة . ونعموا ليلة في جرش بضيافة أخ كريم ، أهّل بهم ورحّب ، وفتح لهم بيته وصدره ، فاستمتعوا بكرمه وحديثه ، ورافقهم في الصباح لزيارة جرش القديمة .

دخلوا من الباب ، واتجهوا فتسلقوا المسرح المدرج ، وأشرفوا منه على الآثار التي كشفت أيدي المنقبين والباحثين القناع الترابي عن أكثرها . فانبسطت أمامهم ساحة الندوة البيضاوية الشكل والتي لا تزال أرضها المبلطة كما كانت عليه قبل ألف وستمائة من السنين ، وحول هذه الندوة تقوم الآن نحو سبعين من الأعمدة الكورنثية

الجميلة ، غير الذي تهدم بفعل الزلازل على توالي القرون .

وإذ نزل القوم إلى الساحة ، واجتازوها انتقلوا إلى الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من جنوبها إلى شمالها ، وهو مكون من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار في الوسط ، يحيط به رصيفان مرتفعان للمارّة . وعلى جانبي هذا الشارع ، كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة . فضلاً عن ساحة الندوة التي كانت سوقاً للتجارة .

ويمر السائر في هذا الشارع بحوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل ، تعلوه مصاب للماء ، أغلب الظن أن آلهة الشعراء كانت تسبح فيه إذا ما جن الليل ، وهجع الناس إلا أهل الأحلام .

ورأى الرفاق بقايا هيكل أرطميس وهذا الهيكل كان فيه مئتان وستون من الأعمدة الكورنثية ، لا يزال قائماً منها ثلاثة عشر ، وقد كانت الشمس تعبد في هذا الهيكل ، كما كانت تعبد في طرابلس وبعلبك وغيرهما . ذلك أن الوثنية في القرن الثالث الميلادي كانت قد نظمت شؤونها على أيدي كهنتها الذين تأثروا بعلم الفلك والتنجيم البابليين ، ودخلتها أساطير النجوم ، فاتجهت نحو اعتبار الشمس قلب الكون النابض ، ومصدر النور الخالق للعالم ، وبذلك عبد أهل سوريا الشمس على أنها أكبر الآلهة . ومن هذه البلاد أخذت عبادة الشمس تنتشر في العالم الروماني ، بتأثير هؤلاء الكهنة الذين اهتموا بتفسيرها وشرحها للناس . حتى إن الإمبراطور أورليان رفع «الشمس التي لا تغلب» إلى مقام أسمى إله في الإمبراطورية .

وزار القوم ما تبقى من الكنائس التي تحوي صوراً من الفسيفساء تمثل استشهاد بعض القديسين في أيام الاضطهاد الديني القديم .

وبينما هم يهمون بالخروج من المدينة من الجهة الشمالية لفت أحدهم نظرهم إلى الحمام وإلى عين الماء الصافية التي تنبع بقربه ، وتنساب إلى وادي جرش المكسوة جنباته بالغياض الوارفة الظلال .

وركب الرفاق السيارة ، فانطلقت بهم تقطع ما تبقى من جبال عجلون ، تنحدر تدريجاً إلى اربد ، وإنهم يتحدثون ثانية عمّا رأوا في جرش ، بعد أن تحدثوا في اليوم السابق عمّا سيرون ، وإذا بخط أسود يظهر فجأة على الأفق البعيد فيتساءلون ماذا

عساه أن يكون؟

إنه خط يفصل جبال عجلون الكلسية عن هضاب حوران والجولان البركانية . إنه وادي اليرموك . ولكنهم إذ وصلوا اربد انحرفوا غرباً في وادي العرب ، ولم يلتقوا باليرموك إلا حيث يصب في الأردن وقد مروا على مقربة من فحل وبيسان . وهكذا قضوا يومين في الطريق إلى جرش ومنها .

من لندن إلى بيروت

عبر مرسيليا وأثينا والاسكندرية وقبرص

1947

في سنة 1947 عدت إلى لندن للعمل للدكتوراة . كانت تصحبني أسرتي الصغيرة : زوجتي مرغريت شهوان وابني رائد الذي لم يكن قد بلغ الثانية لما وصل لندن .

في نيسان (أبريل) 1949 غادرنا لندن إلى بيروت حيث حصلت على عمل لتدريس التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت .

الصفحات التالية فيها وصف لأثينا . وهي زيارة تأخرت ، بالنسبة لي عشر سنوات عن موعدها الذي خطط من قبل .

لما كنت أطلب العلم في جامعة لندن قبل الحرب العالمية الثانية ، كان اهتمامي منصرفاً إلى دراسة تاريخ اليونان والرومان ، ولعلي كنت ، ولا أزال ، إلى الموضوع الأول أميل . لذلك عزمت على زيارة بلاد اليونان زيارة طويلة ، بحيث أسمح لنفسي أن أتنقل في أنحائها من أولمبيا إلى أثينا إلى كورنث . ولعلي كنت أنوي أن أزور موحي دلفي وأستوحي آلهته فيما يجب أن أفعل في المستقبل . وأعددت العدة لذلك ، وخططت الزيارة .

كنت يومها ، في صيف سنة 1937 ، في ألمانية ، وابتعت تذكرة للسفر من لندن ، لأن المارك السياحي الرخيص لم يكن يصلح لشراء تذاكر للسفر خارج ألمانية في ألمانية .

ثم بدا لي فغيرت رأيي ، وقررت إلغاء الرحلة ، وقلت لنفسي ، الوقت طويل . ولكن الوقت كان أقصر مما حسبت ، فعدت إلى القدس في تموز/ يوليو سنة 1939 ، ووقعت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بأسابيع ، واكتفيت من الزيارات أثناء الحرب بالقريب . فزرت الأردن مرات ثلاثاً ، وذهبت إلى مصر مرتين .

وفي سنة 1947 عدت إلى لندن للعمل للدكتوراة . ولما فرغت من الشغل ، وكان علي أن أجد عملاً أتعيش منه مع زوجتي وابني ، فقد عدت في نيسان/أبريل سنة 1949 إلى بيروت . عدنا بحراً . ووقفت الباخرة في ميناء بيريا ، وكان لدينا نحو ست وثلاثين ساعة .

وهكذا تأخرت الزيارة سنوات طويلة ، وتقلصت بحيث شملت أثينا فقط .

كنا قد أخذنا الباخرة أيونيا من مرسيليا ، ومررنا بجنوا ، وهناك انضم إلى الباخرة الدكتور كامل حمارنة . ومن ثم فقد أصبحنا شلة تتكون من مرغريت وكامل وأن الذاهبة إلى قبرص للتتزوج وشاب استرالي ورائد طبعاً .

نزلنا من الباخرة وأردنا استئجار سيارة ننتقل فيها إلى أثينا - كان لا بدَّ من زيارة الأكروبوليس . طلب سائق السيارة مبلغاً ظننا أنه كبير ، وقلت ذلك بالعربية لمرغريت وكامل ، فإذا بالسائق يقول بالعربية «لا والله مش كثير يا بك» . وإذا به يوناني كان قد عاش في مصر مدة طويلة . وعاد إلى بلاده بعد الحرب العالمية الثانية .

ركبنا السيارة وأوصلنا السائق إلى أقرب نقطة إلى الأكروبوليس ، لنرى ما كان قد بقي هناك من هيكل البارثنون .

كنت أنا الوحيد الذي يعرف شيئاً عن المكان . حدثت الجماعة . لكن في واقع الأمر كنت أتحدث بصوتين : الواحد للفئة الصغيرة المحيطة بي ، والآخر لنفسي . قلت لهم إن الأكروبوليس تعني ، بشكل عام ، القلعة التي تعتمد عليها المدينة لحمايتها ، وهي تقوم عادة على مرتفع بحيث يمكن للحامية أن تشرف على المدينة وتراقب الطرق المؤدية إليها . وقد كان كل ذلك مهماً لأن بلاد اليونان ، في عصورها المزدهرة ، لم تكن دولة واحدة . كانت دول مدن ، كل منها مستقلة في شؤونها جميعها . وقد تكون الدولة الواحدة صديقة لجارتها ، لكن ذلك لا يمنع الدولة نفسها أن تصبح وقد بيتت لتلك الجارة حملة عسكرية قوية . فالمصلحة هي التي كانت تعين الأمور وسبلها .

وفي الوقت الذي كنت أقول هذا لجماعتي الصغيرة ، كنت أناجي نفسي ، داخلياً ، بأن هذا الوضع الذي كانت عليه بلاد اليونان كان الأصل فيه أن المدن المختلفة ، على العموم ، لم تكن مستقلة فقط ، ولكنها كانت تمارس الديمقراطية . كانت

نظمها وسبل إدارتها ووجهة السياسة فيها تقرها اجتماعات يحضرها المواطنون ، وهم الذين يختارون حكامهم وموظفيهم ، وهم الذين يقررون ما على الدولة أن تقبله - فالسلم إذا قال المواطنون السلم ؛ أما إذا قالوا الحرب ، قُرِعَت الطبول واستعدت الجيوش للهجوم .

وقلت لجماعتي إنه في القرن الخامس قبل الميلاد كان رجل اسمه بركليس . وهو أثيني ولد سنة 495ق .م . وتوفي سنة 429 . بركليس انتخب سنة بعد سنة لحكم أثينا ، واستمرت ولايته نحو ثلاثين سنة . وقالت الفتاة الإنجليزية لكن هذا حكم ملكي وليس جمهورياً . فقلت كان الأحرار من أثينا ينتخبونه لأنه كان يحكم البلد حكماً صالحاً .

ولكنّني قلت لنفسي أيام بركليس ، بالنسبة لأثينا ، كانت أيام عظمة وحرية . كان الرجل يقود أثينا التي كانت قد تخلصت من الفرس وهجومهم ، وقد أخذت نفسها بتزعم عدد كبير من المدن اليونانية ، فأنشأت حلف ديلوس ، الذي كان نوعاً من الإمبراطورية الأثينية . وقد قبلت المدن بتزعم أثينا لأن هذه كانت الأقوى . وكانت كذلك لأن نظامها الديمقراطي جعل لكل من مواطنيها دوره في العمل وحصته في الحكم . نعم تذكرت أن سكان أثينا كان فيهم ، وأقصد المواطنين الأحرار ، فئات مختلفة من حيث الوظيفة المدنية والاقتصادية والمنزلة الاجتماعية . وقد كان أهل الفكر مثلاً ينظرون بشيء من الازدراء إلى البناء أو الفنان الذي كان يقوم بعمل يدوي وهو في ثياب تبدو رثة قذرة . لكن عندما كان يدعى المواطنون لانتخاب أعضاء البوله ، أي المجلس المدني للحكم ، كان الفيلسوف يجلس إلى جانب البناء أو النجار ، ويتمتع الاثنان بالحقوق نفسها .

وقلت للجماعة إن أثينا كانت قد خسرت ما كان فيها من معالم للفن والحضارة إذ أحرق الفرس ، لما احتلوها ما يحرق وهدموا ما يهدم . لذلك كان لا بدّ لأثينا من أن تستعيد وجهها الحضاري . وهمست في أذن نفسي ، داخلياً ، إن الأمر كان أهم من ذلك وأعمق . إن أثينا كانت قد بلغت يومها الأوج في الفن بالنسبة لآلاف السنين التي سبقتها فيها دول وشعوب أخرى . تلك الشعوب كانت تقبل بالحاكم وريث إله أو نائب إله ، ومن ثم فلم يكن هناك سبيل لأن يتحرر المفكر أو الفنان أو الأديب .

كل شيء كان يتبع قالباً جاهزاً . والتطور كان يتم أصلاً على هذا النوع من القالب .

لكن اليونان تحرروا من ذلك . كانت آلهتهم التي أقامها هوميروس ، شاعرهم الأسطوري ، في جبل أولمبوس ، تعيش كما يعيش البشر : تحب وتكره ، تغضب وترضى ، تعشق وتغار ، تحارب وتصالح ، وتقاتل وتسالم ، وإذن فلم يكن لها هذا النفوذ القوي الذي يقولب الفكر والأدب والتاريخ والعبادة والفن . على العكس من ذلك ، فإن هذه كلها كانت تنمو وتتطور بحرية . لذلك بلغت هذا الذي بلغته في عصر بركليس هذا . هذا هو العصر الذي عاش فيه سقراط ، الذي اتخذ من الإنسان أساساً لتفكيره الفلسفي .

والتفتُّ إلى الجماعة ، وكأنني نسيتها ، وقلت أراد بركليس أن يجمل أثينا ، فاختار الأكروبوليس ليقيم هيكل البارثنون . وعين اكنتوس مهندساً لتخطيط البناء ، وعهد إلى فيدياس ، معاصره سناً تقريباً ، بالاهتمام بالشأن الفني الزخرفي . وكان فيدياس أكبر نحات في عصره ، إن لم يكن أكبر نحات عرفه العالم الإغريقي إلى أيامه . وقد سبقته شهرته العملية لما نحت تمثال زفس ، كبير الآلهة ، الذي كان يزين أولمبيا . وهو الذي اعتبر أحد عجائب الدنيا السبع .

فيدياس يبني هيكل البارثنون

احتاج المهندس والفنان نحو خمس عشرة سنة لإقامة هذا الهيكل العظيم ، الذي كان يمثل المهارة والدقة والهندسة والفن على أحسن ما وصل إليه الناس . وكانت حصة فيدياس من هذا الهيكل التمثال الكبير الذي كان يمثل الآلهة أثينا . وقد فقد بكامله ، وكل ما نعرفه عنه ، فضلاً عن الوصف الذي خلفه الكتاب ، نسخة تقليدية مصنوعة من الرخام تعود إلى أيام الرومان ، وموجودة في المتحف الوطني في أثينا . لم يتح لنا يومها زيارة المتحف ، لكنني شاهدتها فيما بعد في زيارات تالية .

فضلاً عن تمثال الآلهة أثينا نحت فيدياس الإفريز الذي كان يدور بالهيكل في أجزائه العليا . وإذا تذكرنا أن الهيكل كان ارتفاعه نحو عشرين متراً ، وطوله نحو سبعين متراً ، وعرضه ثلاثين متراً ، أدركنا أن فيدياس نحت إفريزاً طوله مئتا متر وعلى

ارتفاع كبير . والإفريز كان يمثل الاحتفاء السنوي بديونسيوس .

كنت أتحدث إلى أصحابي عن الهيكل ، معطياً معلومات وأرقاماً ، فيما كان الصوت الآخر الداخلي يملأ نفسي إذ يقول : إن هيكل البارثنون يمثل ثقة الإنسان بنفسه وبقدرته على التغلب على الصعاب . ألست ترى أن الإفريز تكاد أشكال الصور فيه تخاطبك كالأحياء؟ ثم انظر إلى ما تبقى من الإفريز ، تجد فيه شيئاً عجباً من عبقرية فيدياس . إن النحات أدرك أن الذي ينظر إلى أشكال الإفريز من أسفل الهيكل ، ستحجب عنه الظلال التي تلقيها الأجزاء السفلى رؤية الأجزاء العليا من الأشكال . لذلك جعل الأجزاء السفلى أقل نفوراً ، بحيث يستطيع الناظر أن يتمتع برؤية الأشكال جميعها على السواء .

وقلت للفئة المرافقة لي . كانت الآلهة أثينا هذه تسمى في المدينة اليونانية بارثينوس (Parthenos) ومعناها العذراء . وكانت هذه الآلهة حامية المدينة . والآن تدركون لماذا سمي الهيكل البارثنون – إنه منسوب إلى هذه الآلهة العذراء .

وأضفت أخيراً – وقد أشار الكتاب والشعراء إلى هذه الآلهة على أنها راعية الفنون اليونانية .

وقال الصوت الخاص بي : إنها هي راعية الفن في كل زمن من أيام بركليس إلى اليوم . إنها واحد من أسس الوحي في الفن والأدب والحياة الإنسانية .

عود على بدء: مغادرة لندن

وكانت زيارة أثينا هذه في طريق عودتنا من لندن إلى بيروت . فقد كان علينا أن نغادر لندن .

وحزمنا أمتعتنا في صناديق وأكياس من أكياس الجنود وشنط . وسلمناها إلى شركة الشحن في كمبردج ، حيث كنا نقيم منذ أن عملت في التدريس هناك ، وانتقلنا إلى لندن لقضاء بعض الوقت قبل مغادرة إنكلترا .

ابتعت التذاكر اللازمة للسفر بالقطار من لندن إلى مرسيليا ، وبالباخرة اليونانية أيونيا من مرسيليا إلى بيروت .

ركبنا القطار من محطة فكتوريا في لندن متجهين نحو دوفر، لنجتاز المانش إلى كاليه. وقد حافظنا على النظام تماماً. فقد كان يسمح لكل شخص يغادر بريطانية يومها بأن يحمل معه خمسة جنيهات إسترلينية فقط، مع شيء من القراطة. ونحن ثلاثة فالطفل رائد كان له الحق نفسه - لذلك كان في جيبي لما وصلنا البر الفرنسي ما يعادل سبعة عشر جنيها ونصف الجنيه. وما دامت التذكرة جاهزة، فهذا المبلغ سيكفينا ولا شك.

سار بنا القطار من كاليه إلى باريس، ومحلاتنا كانت محفوظة، ومع ذلك كان لابد لنا من أن نهدي المسؤول بضعة فرنكات قبل أن يهتدي إلى أماكننا المرقمة على تذاكر سفرنا.

أول ما صادفنا من الصعوبة كان انعدام العتالة في محطة القطار. لكن من حسن الحظ لم تكن المسافة بين القطارين بعيدة. عنيت مرغريت برائد - ولو أن رائد كان يصر أنه هو الذي يعنى بأمه - فيما عملت أنا على سحل الشنط من قطار إلى قطار.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً لما تحرك القطار. وسار بنا ينهب الأرض والوقت ينبهنا حتى الصباح المبكر، إذ وصلنا مرسيليا، حيث كان وكيل شركة كوك السياحية المشهورة ينتظرنا، فأخذ منا شنطنا لينقلها بدوره إلى الباخرة، وأخبرنا عن الموعد الذي يجب أن نصل فيه إلى المرفأ.

جولة في مرسيليا

درنا في مرسيليا قليلاً، فالزمن ربيع، وليس هو موعد الاحتفال بالعيد الوطني الذي هو عيد صيفي. ثم اخترنا مطعماً بقصد تناول طعام الغداء. وأذكر تماما أننا أكلنا سمكة مشوية - فالقاعدة أنك إذا هبطت مرسيليا يجب أن تأكل سمكاً. ونحن نحب السمك على كل حال. وانتقلنا بعدها إلى المرفأ فالسفينة.

وهنا وجدت نفسي في مأزق. الذي كنت أعرفه، من أسفاري البحرية السابقة مع شركة البواخر الشرقية البريطانية، هو أن المتاع الذي تحمله في مخزن الباخرة لا تدفع عنه أجرة إلا إذا تجاوز حجماً معيناً. وكنت مطمئناً إلى أن القطع العشرين،

المنقولة مع العفش على الباخرة ، هي دون الحجم الذي حسبته . لكن وكيل شركة كوك فاجأني بفاتورة قيمتها ثلاثة عشر جنيهاً استرلينياً هي أجرة شحن الأغراض . فالشركات التي تعمل في البحر المتوسط فقط لها حساب خاص بها .

لما دفعت المبلغ المطلوب بقي معي ثلاثة جنيهات وبعض الفراطة . ونظرت إلى المبلغ في يدي ، ونظرت إلى الرجل ، وقلت له لم أكن أحسب لهذا الأمر حساباً . وهذا المبلغ الذي بقي معي لن يكفيني مع أسرتي نفقات لمدة أسبوع على السفينة ، حتى ولو اقتصدت .

أدرك الرجل صعوبة موقفي فقال لي أنا لا أعرفك ولكنّني مستعد لأن أقرضك مبلغاً صغيراً يساعدك ، وسألني فيما إذا كانت أربعة جنيهات - وهو كل ما كان في جيبه - تكفي .

قبلت الجميل ، وعرضت عليه أن أعطيه شكاً بالمبلغ ، فكان أن رفض لأن صرف شك مسحوب على إنكلترا في فرنسة كان يومها أمراً صعباً . لكنّه أعطاني اسم صديق له يملك حانوتاً في ساحة البرج - ساحة الشهداء - في بيروت وطلب مني أن أدفع المبلغ له . فالرجل الفرنسي كان قد عمل في بيروت أيام الانتداب الفرنسي في الشرطة الفرنسية .

ولأتم هذه القصة . لما وصلت بيروت ، ذهبت إلى ساحة البرج أبحث عن هذا الصديق . فلم أجده ، وعرفت أنه عزّل من الساحة . وقررتُ أن أسأل عنه في دائرة الشرطة ، وكان مركزها بعد في الساحة ، فلما دخلت ووصلت إلى شخص شبه مسؤول ، لأنه كان يحمل على ذراعه شارة الشاويش ، وطرحت عليه السؤال أجابني ، وفي لهجته كل ما استطاع أن يجمعه من التهكم ، «ليش نحنا هنا مركز تأجير دكاكين؟» .

كتبت إلى الرجل الفرنسي رسالة إلى مكتب كوك إلى مرسيليا أخبره بالقضية وأطلب رأيه . وبعد مدة عادت إلي الرسالة من مكتب كوك في مرسيليا ، لكن كان في صحبتها كتاب من المكتب ، يقول : إن الرجل تُوفي قبل مدة قصيرة ، ولما سألنا زوجته أجابت بأنها لا تعرف شيئاً عن الرجل الأجنبي ، أي عني ولا عن الدين ، فتصرّف أنت كما تريد» . أسقط في يدي ، لكنني تبرعت بالمبلغ ، مع إضافة جزئية ، إلى مؤسسة خيرية عن روح الرجل الذي أحسن إلي .

في ميناء بيريا

في الطريق وقفت الباخرة بنا في بيريا ميناء أثينا ، ويومها حققت أملي في زيارة أثينا . وقد كانت الزيارة جماعية لفرقة تتكوّن مني ومن زوجتي مرغريت والدكتور كامل حمارنة ، وفتاة إنجليزية وشاب أسترالي ورائد . وبعد أن زرنا الأكروبوليس أراد الآخرون التجول في الأسواق وكان رائد قد تعب فأخذته إلى مقهى لأطعمه بوظة . وكانت ثمة طاولة «وحيدة» يمكن أن نجلس عليها ، لأن شخصاً واحداً فقط كان يحتلها ، فاستأذنّا وجلسنا . وأراد الرجل أن يتحدث ، وكان رائد قد بدأ التكلم وهو في إنكلترا ، لذلك كان يتكلم الإنجليزية ، وجرب الرجل الحديث بهذه اللغة بصعوبة . ثم تنبه إلى أنني استعملت كلمتين بالعربية فأخذ يحدثني بلغة عربية مصرية اللهجة . وعرفت منه أنها عاش في القاهرة نحو ثلاثين سنة يعمل في التجارة ، وأنه عاد إلى أثينا قبل مدة قصيرة ليقضي فيها بقية عمره . وكان سائق السيارة الذي نقلنا من الميناء إلى الأكروبوليس يونانياً قد عاش في مصر مدة ، وكان يجيد العربية حديثاً أيضاً .

في الإسكندرية

وكانت المحطة التالية للسفينة الإسكندرية ولم يسمح لنا ضابط الأمن بالنزول إلى البر لنقضي النهار مثل بقية الركاب لأن جواز سفرنا الفلسطيني كانت قد انتهت مدته . ولم يقبل رجاء ، وكنت حريصاً على أن ترى مرغريت مع رائد بعض معالم المدينة . ولكن صديقي علي شعث ، الذي كان يومها مدير البنك العربي في تلك المدينة وصل ساعتها ليستقبلنا ، وكنت قد أنبأته بقدومنا . ولما رفض الضابط طلبه تناول علي سماعة التلفون وطلب حكمدار الإسكندرية ، أي رئيس قسم البوليس في المدينة . فأعاد الضابط السماعة إلى مكانها وقال له : تفضل يا بك مع ضيوفك . وقضينا يوماً ممتعاً في صحبة علي تنقلاً في المدينة ثم في ضيافة أم نبيل في البيت .

وكانت الوقفة التالية – وقبل الأخيرة- في ليماسول في قبرص ، حيث ودعتنا آن

لأن خطيبها جاء إلى الميناء لاستقبالها - وقد دعوانا إلى العرس بعد أسبوع فتمنينا جميعنا لهما حياة سعيدة .

وكان معي ثلاثة أحاديث لإذاعة الشرق الأدنى التي كانت قد انتقلت بعد بدء الحرب من فلسطين إلى قبرص ، فأخذنا سيارة أجرة لبضع ساعات وذهبنا لزيارة الإذاعة وزيارة إخواننا وأصدقائنا هناك . ثم تنقلنا في الجزيرة قليلاً وعدنا إلى الباخرة كي نعد أنفسنا لقضاء آخر ليلة فيها .

كانت سفرتنا البحرية ممتعة جداً . وقد سر رائد بأنه سافر في باخرة ، وأحسَّ بذلك هذه المرة ، أما لما سافرت مرغريت معه في نهاية سنة 1947 . فإنه كان صغيراً ، ولم يكن يدرك الفرق بين الباخرة والبر .

وقضينا الليلة الأخيرة في جمع الأغراض تمهيداً لوضعها في الشنط . وقد كنّا على شيء كثير من التوتر الذي كان سببه الشوق إلى لقاء بعض الأهل وبعض الأصدقاء ، والاطمئنان على وجودهم أصحاء . ولست أحسب أن مرغريت نامت كثيراً ليلتها ولو أنها تظاهرت بذلك .

أما أنا فلم أنم ، ولو أنني أيضاً تظاهرت بذلك ؛ وعند إحساسي بأن الفجر انبثق ، خرجت من القمرة إلى السطح . وبعد نحو نصف ساعة لحقتني مرغريت . ولعلنا كنا الوحيدين على السطح ، باستثناء البحارة الذين كانوا يقومون بأعمالهم المختلفة .

وقفنا نحن الاثنين في معبد الكون الأكبر ، صامتين وفي نفس كل منّا صلاة ، ونحن ننتظر آلهة النور . اتجهنا نحو الشرق ، فبدا صنين يقتعد الجبال المحيطة به ، وكأنه كاهن «قديم» وقف ينتظر آلهة النور كي يقدم لها خضوعه ويشكرها على نعمائها .

وبرزت الشمس فوق الجبل . وشعرت كأن يدين اثنتين كبيرتين ارتفعتا من الجبل ، وتناولتا هذه الكرة النورانية ، ثم امتدتا بها وقد دار الجبل ودارتا معه وقدّمتاها هدية لنا . فتقبلناها نحن نيابة عن أهل الباخرة ، وعن المسافة الواسعة الممتدة إلى الغرب منا .

وخشعنا ، وقد ملأ جمال المنظر وروعة الشروق نفسينا ، وأنشدنا شاكرين لله نعمه .

وكانت الباخرة قد دخلت المرفأ . ونظرنا إلى الرصيف ، فلم نر أحداً من الأهل . وأخذ الخوف يتسرب إلى قلوبنا .

وأنزلت أغراضنا . وجاء مفتش الجمرك وقال اثنتان وعشرون قطعة عفش ، أين نبدأ في التفتيش؟ كنت قد سمعت أن هدية تنفع في مثل هذه الحال . وكان كل ما أملك ساعتها عشر ليرات لبنانية . فأمررتها بين الصناديق . فقال المفتش : لا شك أنكم متعبون من السفر ومعكم طفل «صغير» اذهبوا بسلام . وبدأ يضع الإشارات على العفش . ولكن من أين لي النقود لأنقل كل هذا العفش .

وكأن قمقماً فتح . فإذا بحنا صليب يقف أمامي . وبعد سلام مقتضب قال : خذ تكسي واذهب مع العائلة إلى أقاربكم ، واترك كل شيء عليّ .

في برقة / ليبيا

رسائل من بنغازي وطرابلس ومدن أخرى

1949

في 11 أيار/مايو 1949 غادرت بيروت إلى بنغازي لتولي عملي كمساعد لمدير المعارف في برقة. كان السفر بطريق القاهرة. وقد سافرت إليها بطائرة من طائرات الخطوط اللبنانية قبل أن تندمج هذه مع طيران الشرق الأوسط وتكونا شركة واحدة.

وقد كتبت إلى مرغريت رسالة من الطائرة جاء فيها: «ارتفعت الطائرة من مطار بيروت في تمام الساعة 9.45 (صباحاً). وأؤكد لك يا مرغريت أنني لم أشعر أنها سائرة، ولولا أنني رأيت الأرض تختفي تحتنا والبحر يظهر مكانها، لما صدقت أننا متنقلون... ولم أفكر بما قد يصيب الطائرة. فذلك أمر لا حيلة لي فيه، وقد أسلمت أمري إلى الله. لكن الذي فكرت فيه أمران الأول أنتما - أنت ورائد. والثاني هو هذا الانقطاع عن العالم. فالانقطاع عن اليابسة، ونحن في الباخرة، شيء يختلف كل الاختلاف عن الانقطاع عن العالم ونحن في الطائرة. هناك يرى الواحد نفسه جزءاً من كتلة بشرية يربط بينها كونها من بني الإنسان، ويشعر بأن السفينة لا تزال موطئ قدميه. ولكن أين موطئ القدمين في هذه الحالة. إن قدمي ترتفعان عن العالم نحو خمسة آلاف قدم، فأين موطئهما؟ هذا هو الانقطاع الذي يشعر به واحدنا. وفي حقيقة الأمر فقد كانت هذه أول سفرة لي في طائرة. كان ذلك يوم 11 أيار/ مايو 1949.

بعد يومين في القاهرة ويوم في الإسكندرية غادرت الإسكندرية بالطائرة إلى بنغازي. كان ذلك في يوم 14 من الشهر نفسه. وقد قضينا في الطريق قرابة ثلاث ساعات حتى هبطنا في مطار بنينا.

هذا مجمل ما كتبته عن برقة في رسائلي إلى زوجتي وأنا هناك، وما أضفته خلال الشهور الأولى بعد تركي برقة وإقامتي في بيروت:

والأمطار في برقة قليلة على العموم ، وتختلف اختلافاً كبيراً في هذا القطر الواسع ، الذي يمتد من خط عرض 27 إلى خط عرض 33 شمالاً تقريباً . وتسقط الأمطار بين 500 و600 مليمتر . لكن المنطقة التي تتمتع بهذا المطر الغزير - نسبياً ضيقة ولا تصلح إلا نادراً للاستغلال الزراعي . لكنّها تكون مناطق للرعي في الصيف . ومنطقة المرج ، والأجزاء الشرقية من الجبل الأخضر ، يسقط فيها من المطر بين 400 و500 مليمتر . وما تبقى من الجبل الأخضر يخصه بين 300 و400 مليمتر ، إلا السفوح الجنوبية التي يسقط فيها بين 200 و300 مليمتر . ومثل ذلك يقال عن السهل المحيط ببنغازي إلى الشمال ، وبدرنة وبطبرق . ثم تأخذ كمية المطر في التناقص كلما اتجهنا جنوباً ، حتى تصبح دون 100 مليمتر إلى الجنوب من خط منحن إلى الشمال يمتد من أجدابية غرباً إلى جنوب طبرق شرقاً . وهذه تقريباً حدود المنطقة الصحراوية - إذ كل ما جنوب هذا الخط داخل فيها .

أما الحرارة فمعتدلة عموماً على السواحل وفي الجبال ، إذ هي شبيهة بحرارة فلسطين . لكن في الصحاري تختلف الحرارة اختلافاً كبيراً بين الصيف والشتاء ، وبين النهار والليل . وقد سجلت في أوجيلة في كانون الأول - ديسمبر - عام 1921 ، حرارة النهار العليا 50 مئوية وحرارة الليل الدنيا 1 مئوية .

جولات في برقة

وقد تنقلت في برقة بقدر ما سمح به العمل والوقت ووسائل النقل . ذلك بأنني كنت أزور المدن للتفتيش عن المدارس في سيارة شحن يحفظ لي فيها المقعد المجاور لمقعد السائق . وقد يمكن أن يحجز لي مقعد في الدرجة الأولى في باص ما . والفرق بين مقعد الدرجة الأولى وغيره هو أن الصفوف الأمامية ، التي لا تختلف مقاعدها عن الباقي في شيء ، هي التي تسمى الدرجة الأولى . والمقاعد من الخشب ، وكذلك الظهر . وقد كانت أفخم زيارة لمدارس متعددة لما أتيح لي أن أحصل على سيارة جيب ، وهي التي كانت يومها تسمى ستاف كار (STAFF CAR) . وفي الليلة السابقة لبدء الرحلة من بنغازي إلى طبرق ، اتصل بي ثلاثة موظفين كبار بقصد

مرافقتي في الرحلة لأشغال رسمية : واحدهم من إدارة البريد وآخر من الأشغال العامة وثالث من إدارة الصحة . واقتضى الأمر التوقف في الطريق للقيام بأعمال رسمية ، لذلك لم أصل طبرق ، بعد أن تركت الجميع في درنة ، إلا في المساء . ولم نكد نوقف السيارة حتى تبين للسائق أن «إكس» السيارة انكسر فيما كان يديرها قبل التوقف الأخير . وكان معنى هذا الاستغناء عن السيارة مؤقتاً لأن «الإكس» يجب أن يؤتى به إما من إيطاليا أو ألمانية (وإلا فمن إنكلترا) . وترتب على هذا أنني بعد أن أنهيت مهمتي في طبرق والبردية ، انتظرت يومين حتى صادف أن كانت سيارة إسعاف (جاءت من درنة في الليلة السابقة) على استعداد لنقلي في اليوم الرابع إلى درنة ، وبعدها ربنا ييسر .

في الباص الخشبي إلى طرابلس

ولما استقلت من عملي في برقة ، لأقبل منصب أستاذ مساعد للتاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت ، وأردت أن أسافر من بنغازي إلى طرابلس براً لم يكن هناك سوى الباص الخشبي المقعد والمسند – والدرجة الأولى . فابتعت تذكرة لمقعد فيه . وكان أن غادرنا بنغازي الساعة الثامنة من صباح يوم – أظنه كان الجمعة – فوصلنا طرابلس الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي . المسافة هي 1050 كلم ، لكن كان لا بد من التوقف في الطريق . أولاً كي يأكل الركاب والسواق ومساعده لقمة للغداء . ثانياً كي يسخن الركاب ما يحملون من طعام مطبوخ ويتناولوا طعام العشاء . وكان هذا عند قوس النصر ، وهو قوس رخامي كان الإيطاليون قد بنوه لما استولوا على ليبيا ، احتفاء بانتصارهم . وثالثاً لما توقفنا في سرت حول الساعة الحادية عشرة مساءً كي نتناول طعام العشاء في مطعم يظل صاحبه ينتظر هذا الباص . فإن عدداً من الركاب ، مثلي ، لا يحملون معهم ما يكفي من الطعام للسفرة بأكملها .

ولما وصلنا إلى نقطة الحدود بين برقة وطرابلس لم يكن المكتب قد فتح ، فانتظرنا نحو ساعتين . وأخيراً وصلنا مدينة طرابلس ونزلنا أنا وراكب آخر ، في فندق فكتوريا . على هذه الطريقة كان تنقلي في برقة .

أثناء وجودي في برقة كنت أكتب إلى مرغريت التي كانت مع رائد وأمها وأبيها في سوق الغرب بلبنان لقضاء الصيف . وقد كان من الطبيعي أن أكتب يومياً فأنا أردت أن لا تنقطع الصلة أبداً . فضلاً عن ذلك فأنا عندي عرض من الجامعة الأميركية للعمل هناك . والأمر كان يقتضي اتخاذ قرار مشترك حول هذه القضية : البقاء في بنغازي مع انضمام الأسرة الصغيرة لي ، أم ترك العمل هناك والذهاب إلى بيروت . وكان ينبغي علي أن أحيط مرغريت علماً بأحوال البلد والمعيشة فيه . لذلك لم تك الرسائل إليها مجرد عواطف على أن العواطف كانت فعلاً مشبوبة ؛ لكنها كانت تحتوي معلومات وأخباراً وآراء تتعلق بما يجري فيها . لذلك فإن الذي أنوي أن أفعله هنا أن أنقل من الرسائل التي احتفظت بها مرغريت كاملة ما أرى أنه قد يفيد أو قد يكون فيه متعة للقارئ ، أو قد يوضح بعض مواقفي من الأمور التي مرت بي في هذه المدة القصيرة (من 14 أيار/ مايو إلى 4 أيلول/ سبتمبر 1949) .

بنغازي 20 أيار / مايو 1949

بنغازي قسمان الواحد غربي حول الشاطئ وهو حديث متسع الشوارع وقد غرست الأشجار على جانبيها ، وعلى الشاطئ نفسه كورنيش لا بأس به . هذا هو القسم الحديث الإيطالي من المدينة . وفي أيام الإيطاليين كان الوطنيون ممنوعين من الدخول إليه . والقسم الثاني بلدي وسخ . . . ويبدو الوسخ فيه كثيراً بسبب الغبار الكثير الذي تنقله الرياح إلى المدينة .

ولا شك في أن التخريب والتدمير كثيران فعلاً ببنغازي . فأنا أكتب إليك الآن من الغرفة (التي أقيم فيها في فندق الكسيور) وأطل من الشباك وأمامي خمس دور متحطمة مهدمة .

يوجد في المدينة سوقان : سوق بلدي وسخ نسبياً ، لا يعتمد عليه . وسوق متمدن نظيف ، ولكن الأشياء الموجودة فيه محدودة . فلم أرَ في البلدة أكثر من عشرين طنجرة ألومنيوم مثلاً ، ولكنني رأيت الكثير من أباريق التنك . الناس فقراء . . . ويوجد في المدينة صيدليتان حسنتان ولكن جميع الدكاكين النظيفة المرتبة ، يا

عزيزتي ، هي بيد اليهود .

لا يصنع في بنغازي شيء البتة . كل شيء يأتيها من الخارج . حرامات (زرابي) الصوف وأباريق الفخار من طرابلس (وتونس) والأحذية من مصر وإنكلترا .

في السوق المدني الغربي النظيف ثلاثة أمكنة لطيفة :- سوق اللحم وسوق السمك وسوق الخضار . إنها أنظف من السوق البلدية بكثير ، لكنها أغلى هنا منها هناك .

المطبخ هنا يعتمد على البريموس ، والكهرباء الموجودة لا يمكن أن يعتمد عليها كثيراً للطبخ ، فهي ضعيفة في النهار ، وتقطع أحياناً كثيرة . أما في الليل فتقطع ليلة واحدة عن كل جزء من أجزاء المدينة .

هذه لائحة بأسعار بعض الحاجيات - الثمن للكيلو : اللحم 25 قرشاً مصرياً ؛ البندورة 8 - 10 قروش ؛ الخيار 5 - 7 قروش ؛ الكوسا 4 - 6 قروش ؛ البطاطا 3 - 5 قروش ؛ البيض كل أربع بيضات ، ويسميها القوم هنا حارة ، بثلاثة قروش . (لكن في الشتاء تكون البيضة الواحدة بقرشين) .

في الصيف يكثر العنب ؛ والآن ثمن الموزة الواحدة ثلاثة قروش .

النقد المستعمل هنا هو النقد المصري . فالوحدة هي الجنيه ، وهو ، كما تعرفين ، مقسم إلى 100 مل . فالقرش هو استعمال سوقي .

21 أيار / مايو 1949

سياسة الإيطاليين

يخيل إلي يا عزيزتي أن سياسة الإيطاليين كانت ذات وجهين . فهم أجلوا بعض السكان عن أراضيهم بالمرة ، وهؤلاء ظلوا بدوا أيام وجود الإيطاليين ؛ فلما عادوا إلى أراضيهم ظلوا بدوا . . . أما من لم يرحل عن بلاده من السكان فقد عمل الإيطاليون على طلينته . وهذه الطلينة ، التي قامت على الحراب ، نجحت إلى درجة ما . فالسكان يتكلمون الإيطالية ، وإذا تكلموا العربية جعلوا فيها كلمات إيطالية . فقد قال أحد البرقاويين وهو يعلل انحراف سيارة الجيش إن السائق أغرق بها شمالاً من

أجل السلفاري للبوليس : وسلفاري هي الكلمة الإيطالية للنجاة . . .

وهناك مثلاً انتشار أكل المعكرونة في البلاد . . . حتى في الأماكن الصغيرة . . والبرقاوي يمسك الشوكة ويغرزها بالمعكرونة ويلفها حول الشوكة ويأكلها على الطريقة الإيطالية .

لكن هذه الفوائد القليلة ، إن كانت بالضرورة تعتبر فوائد ، جاءت قسراً ودفع الليبيون ثمنها غالياً . فأجلوا عن دورهم . . . وجهلهم الإيطاليون فمنعوا عنهم التعليم إلا أقله ، ولأقلية صغيرة . ومنعوا عنهم الكتب ، حتى إن اقتناء الكتب كان أمراً يعاقب عليه القانون . وحرموهم من العمل في الصناعات أياً كان نوعها . ومن هنا فإنك لا تجدين في هذه البلاد عمالاً أو صناعاً مهرة . فكل ما يحتاجه الناس يؤتى به من الخارج . وتجد دائرة الأشغال العامة صعوبة كبيرة في الحصول على نجارين أو حدادين أو دهانين يمكنهم القيام بالأعمال الفنية ، حتى البسيط منها .

23 ايار / مايو 1949 من مدينة المرج (BARCE)

زرت أمس في درنة مدرسة النور ، وهي مدرسة ابتدائية للصبيان ؛ فيها قرابة 500 تلميذ و15 مدرساً . مديرها برقاوي ، شأن جميع المدارس في هذه البلاد ؛ فليس هناك مدير أجنبي أبداً . . . والمنهج المتبع في التعليم مصري بالمرة . لذلك يتعلم التلاميذ هنا ، مثلا ، تاريخ مصر وجغرافيتها ، ولا يعرفون إلا القليل عن بلادهم . (يذكرني هذا بما مر بنا في جنين لما جاءتنا الكتب المدرسية المصرية 1919 – 1920) . وفي الحساب يتعلمون الأوزان المصرية كالرطل المصري (وهو 144 درهماً) والقنطار المصري (وهو مئة رطل) مع أنهم يستعملون الكيلو في الوزن وقنطارهم يساوي مئة كيلو . ويتعلمون عن الذراع المصري مع أن جميع المبيعات هنا بالمتر .

وقد وصلت المدرسة بعيد الساعة الثامنة ،لكن الناظر (أي المدير) لم يكن قد وصل . وعرفت أنه قلما يأتي قبل التاسعة . وله وكيل . ورافقني وكيله في زيارة ثلاثة صفوف قبل أن يأتي حضرته . ولما جاء قدمت نفسي له فكان أول ما قاله : «كان من واجب الإدارة أن تعمم خبر تشريفكم» . وسألته بعض الأسئلة عن المدرسة ، ثم

طلبت منه أن يرافقني إلى صف فيه درس حساب . فقال : «إذا كان ذلك للزيارة فأهلاً وسهلاً . أما إذا كان للتفتيش ، فالتفتيش من اختصاص حضرة مفتش المنطقة» . ولم تعجبني صفاقته ، فقلت له بلهجة بسيطة ولكن حازمة : «أنا مساعد مدير المعارف ، وأنا أعرف ما لي وما علي ، وأنا أقوم بما يقوم به مدير المعارف تماماً . ولنذهب إلى صف فيه درس حساب» . فبلع ريقه وسار معي .

زرت مدرسة البنات . الناظرة برقاوية أبوها من أسرة الديبان الكبيرة وأمها من الأسرة السنوسية اسمها فتحية . كانت تقيم في مصر مدة طويلة فتلقت تعليمها الثانوي هناك ، ثم التحقت بالجامعة المصرية ونالت شهادة الليسانس في الأدب الإنجليزي ؛ وجاءت في أول هذا العام ناظرة للمدرسة . وهي نشيطة مهتمة ببنات بلدها (درنة) ، وتصرف الكثير من وقتها في المدرسة . وبهذه المناسبة فبرقة كلها فيها ثلاث مدارس للبنات فقط اثنتان في بنغازي وواحدة في درنة . وقد استطاعت الناظرة أن تجعل من الفتيات شيئاً جديداً . فالكل يلبسن زياً واحداً . . . وقد منعتهن الناظرة من لبس الأساور والخلاخيل . والعادة في هذه البلاد أن الصغيرات يضعن في أيديهن أساور من الفضة يبلغ عرض الواحدة منها بضعة سنتيمترات ؛ أما الخلاخيل الفضية فتكون أعرض . كذلك منعتهن من لبس الخواتم والحلق وزينة الأنف ، وفي حلقة فضية أو ذهبية توضع في ثقب خاص بالأنف . وحرمت عليهن تحنية الأيدي . وفي الواقع فإنني لم أرَ في المدرسة سوى أربع بنات يلبسن الحلق وبنتاً واحدة قد خضبت يدها بالحناء . أما البنات فتتراوح أعمارهن بين الخامسة والثانية عشرة .

وقد لقيت مقاومة من الناس ، لكنها لأنها بنت بلد وتسير سافرة ولا تبالي ، نجحت فتحية في تحديها .

ومن أطرف ما جرى لي أمس أنني تغديت في مطعم «على كيفك» . أكلت أولاً معكرونة ثم طلبت بيضتين مقلوتين بدون أي شيء إلى جانبهما . أتصدقين يا مرغريت أن الجرسون جاء أولاً ثم جاء صاحب المطعم بنفسه ليتأكد كل بدوره أنني لم أطلب بطاطا مقلية مع البيض!

يوجد في برقة 53 مدرسة منها ثلاث فقط للبنات ، ولكن في كثير من القرى تتعلم البنات مع الصبيان . ويزيد عدد المعلمين عن المئتين ؛ أما عدد التلاميذ فهو نحو 8000 .

بعد ظهر اليوم ، حول الساعة السادسة ، تركت المستشفى ، حيث أصبحت أقيم في غرفة إلى جوار سكن الأطباء ، فمررت بالسوق فإذا به مقفل ، والذين تأخروا في إقفال محالهم كانوا يسرعون بذلك ، ولما وصلت إلى ميدان البلدية وجدته خالياً من الناس فسألت أحدهم فقال القوم مجتمعون حول القصر ، قصر الأمير إدريس السنوسي ، وقال آخر أعلن الاستقلال .

وقد حدث ذلك . ففي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، اليوم الأولى من شهر حزيران / يونيو سنة 1949 ، أعلن الأمير أن برقة استقلت ، وأن السلطات ستنتقل إلى يده . أعلن هذا في اجتماع للمؤتمر الوطني الذي انعقد لهذا الغرض . والمؤتمر الوطني هو جماعة من الوجهاء والأعيان اختارهم الأمير ممثلين لقبائلهم وعشائرهم وقراهم ومدنهم ، وعددهم نحو 150 شخصاً . ومنهم يختار مجلس أعلى فيه أربعون عضواً فقط . أعلن الأمير الاستقلال في القصر بحضور المؤتمر الوطني ثم قام الوالي (مستر دوكاندول) فخطب بالنيابة عن الحكومة البريطانية ، فاعترف بحكومة الأمير ، وهنأ البلاد والشعب . وكان الشعب يسمع ذلك بواسطة مكبرات الصوت المركزة خارج القصر ، ويهتف للأمير وبرقة ، لكن الهتافات شملت طرابلس أيضاً .

وها أنا أنهي هذه الرسالة إليك ، وأنا أفكر بهذا اليوم ، اليوم الأولى من حزيران 1949 ، وهذه دولة عربية جديدة على وشك الولادة فما الذي سيكون من أمرها؟ وأفكر بالنزاع بين سورية ولبنان ، وماذا يمكن أن يكون من أمره .

وأفكر بك ، وأفكر برائد ، وأفكر بنا نحن الثلاثة أين ينتهي الأمر بنا؟ أنسكن هنا؟ في بيروت؟ في لندن؟ في؟ في؟ في؟

4 حزيران/ يونيو

في الساعة الحادية عشرة ذهبت مع المستر غوردون ، مدير المعارف ، إلى قصر المنار ، الذي يسميه الناس هنا «الديوان» ، وهو قصر الأمير . وهناك قيدنا أسماءنا في سجل التشريفات الذي وضع خصيصاً لمناسبة عيد الاستقلال . وبعد توقيع الأسماء عاد غوردون إلى المكتب أما أنا فأرسلت بطاقتي إلى سكرتير الأمير الخاص الدكتور وهبة البوري ، وهو برقاوي ويحمل دكتوراه في الفلسفة ، ومن الشباب الممتاز . فجاء بنفسه يستقبلني . وبعد حديث مقتضب أدخلني على عمر منصور باشا الكيخيا ، رئيس الديوان العالي . فبقيت عنده ربع ساعة .

وعمر منصور باشا برقاوي أيضاً ، وقد ساح في أوروبة سنتي 1911 و 1912 ، وكان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني قبل الحرب العالمية الأولى ، وله تاريخ سياسي طويل في بلاده .

وعمر منصور باشا أنيق في مظهره ، لطيف في معشره ، شديد العناية بشؤون بلاده . كثير الاهتمام بالتعليم والمدارس .

أشرت من قبل ، في إحدى رسائلي ، إلى أن مجيئي هنا أحدث زوبعة . وقد بلغني مؤخراً أن أحد موظفي إدارة المعارف وهو السيد علي صفي الدين ، ووالده ابن عم ادريس ، من أفراد العائلة السنوسية ، رفع عريضة احتجاج إلى الوالي قبل وصولي بأيام يعترض فيها على تعيين فلسطيني غريب في منصب يجب أن يتولاه واحد من أهل البلد . لكنّني لم أعرف تماماً ما جاء في العريضة . واليوم وقعت العريضة في يدي مصادفة ، فقرأتها وهي في صفحتين كاملتين . وحقاً فإن المعترض ، علي ، يقول إن الفلسطيني الغريب لا يجوز له أن يتولى منصباً هاماً في المعارف . ولكن الأغرب من هذا يا مرغريت قوله : «لما كان مساعد مدير المعارف إنجليزياً كانت الأمور ماشية على خير ما يرام ، لكن لما يؤتى اليوم بفلسطيني غريب ليتولى هذا المنصب» .

6 حزيران/ يونيو

إن اليوم عطلة لمناسبة عيد العنصرة . لكنني ذهبت عملت في المكتب نحو

ساعتين ، بسبب كثرة الأعمال عندنا في هذه الأيام .

وبعد الغداء والراحة والقراءة ، خرجت فالتقيت بالدكتور أمين عودة واجتمعنا بالسيد محمود مخلوف ، وهو من الشباب «المليح» جداً ، وعضو في جمعية عمر المختار . وهذه الجمعية سياسية ، وغايتها توحيد ليبيا بكاملها ، بدل الولايات الثلاث كما هو الحال الآن : برقة وطرابلس تحت الإدارة البريطانية ، وفزان تحت الإدارة الفرنسية . تحدثنا في الشؤون العامة واقترحت على السيد مخلوف ، ووافق أمين على اقتراحي ، بأن تضع الجمعية نفسها تحت تصرف الأمير ، خشية أن يعمل الواشون على الوقيعة . واقتنع بوجهة النظر هذه . ووضعت له صيغة ما يجب أن يقال للأمير .

أحسب أنه من المناسب أن أتحدث هنا قليلاً عن جمعية عمر المختار ، وعن الدور الذي قامت به لما تصافت مع الأمير .

أنشئت جمعية عمر المختار في الإسكندرية سنة 1941 . كان أعضاؤها الأول جماعة من الشباب الليبي المعني بقضية بلاده . كان يومها الأمير إدريس (الملك فيما بعد) منفياً في مصر . ولعله كان يرعى الجمعية من بعد . وقد اضطرت الجمعية إلى الاقتصار على النشاط الرياضي والاجتماعي العادي . لكن الأعضاء كانوا ، في خفية وحيطة ، يعملون في المجال السياسي . ولما حررت برقة من الإيطاليين (1943) انتقل عدد من أعضاء الجمعية إلى بنغازي . وهم أصلاً برقاويون ، فكان من الطبيعي أن يستقروا هناك إلى أن يبت في أمر البلد الكبير - ليبيا .

عنيت الجمعية في بنغازي بالفقراء والمحتاجين فأستهم وساعدتهم ، واهتمت بالرياضة والكشافة وأنشأت صفوفاً لتعليم الأميين كما نظمت ، عن طريق جمع التبرعات ، إرسال بعض من الشباب لمتابعة دراستهم في الخارج .

ومع شدة عناية الجمعية بالنواحي الثقافية فقد اضطرت إلى التوقف عن إصدار مجلتها «عمر المختار» ، بسبب النفقات الباهظة .

في الناحية السياسية كانت الجمعية تسعى إلى أن تكون ليبيا وحدة سياسية كاملة . وكانت ، حتى سنة 1949 قضية ليبيا مكان أخذ ورد في أروقة الأمم المتحدة وفي أروقة أخرى . وكان الطليان لا يزالون يحلمون في أن يكون لهم موطئ قدم في ليبيا .

والذي عرفته أنا ، بعيد وصولي إلى بنغازي بأيام هو أن أعضاء مجلس الجمعية الخمسة لا غبار على إخلاصهم للبلاد وقضيتها . لكن الذي عرفته أيضا أن أولئك الذين يبحثون عن مصالحهم في كل مكان ، كانوا مستعدين أن يشوهوا سمعة الجمعية كي يفيدوا هم . وتشويه السمعة معناه الإيقاع بين الجمعية والأمير .

وقد تعرفت بعد وصولي بنغازي بأيام إلى محمود مخلوف والحاج مهدي المطردي ، وهما من أعضاء المجلس . وقد قامت بيننا صلة طيبة تحولت إلى صداقة متينة . فكانت أحاديثنا ، في أكثر الأوقات ، تتعلق بليبيا ومستقبلها . وأنا كامرئ كان قد فقد بلده ، كنت أخشى على كل قطر عربي أن يفلت من أيدي أصحابه .

7 حزيران / يونيو

مر بي اليوم الحاج عبد الهادي مرتضى ، وهو شاب من شباب جمعية عمر المختار . مر بي في المكتب وتحدثنا عما ذكرته أمس لمحمود ، عن وجوب مقابلة الأمير وأعدت عليه الصيغة التي اقترحتها أمس لزميله . وقد عرفت في المساء أن وفد الجمعية سيزور الأمير يوم الخميس (أي بعد غد) في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ليعرض عليه خدمات الجمعية بإرشاد سموه .

في الساعة 5.40 حضرنا حفلة شاي أقامها المؤتمر الوطني على شرف سمو الأمير في قصره . وقد حضرها رجال المؤتمر الوطني وكبار رجال الإدارة من بريطانيين وعرب . وتكلم فيها رئيس المؤتمر الوطني وهو أخو الأمير . ورد عليه الأمير شاكراً .

إعلان استقلال برقة (في بنغازي) كان مثاراً لكثير من الأسئلة والتساؤلات . أنا لم أسأل ولم أتساءل كثيراً أنا كنت أرى في البلد قوتين - الواحدة يمثلها الأمير الذي يحبه الأكثرية من سكان برقة بسبب ارتباط السكان هناك بالسنوسية ؛ والثانية تمثلها جمعية عمر المختار . الأولى ظاهرة بينة والثانية خفية . من الممكن أن تصطدم هاتان القوتان . وكان هناك من البرقاويين من يحب ذلك لعله يفيد من الأمر .

حسبت أنه علي أن أفعل شيئاً . في 6 حزيران / يونيو تحدثت إلى مخلوف حول الموضوع . والموضوع كان في رأيي هو ضرورة إقامة تعاون بين القوتين . مخلوف ، مثل

مطردي ، كان قد قبل رأيي . في هذا اللقاء الأخير قال مخلوف إن أحد أفراد العائلة السنوسية (أسرة الأمير) سيقوم بالوساطة .

بعد أن فكرت قليلاً قلت له : «رأيي حول هذه القضية هو أن تتجنب الجمعية الوساطة وأن يقوم مجلسها بالعمل مباشرة . ليطلب المجلس موعداً من الأمير . عندها تذهبون جميعاً (أي أعضاء المجلس وهم خمسة) فيكون أول ما تفعلون أن تباركوا للأمير بهذه الخطوة الهامة في حياة البلد . ثم قولوا له إنكم أنتم رجاله وإنكم تأملون أن يعتبر أن وحدة ليبيا هو الأمر الأول . سارعوا ولا تتأخروا ولا تنتظروا وساطة أحد .» ولما زارني مطردي في اليوم التالي قلت الشيء نفسه . وهكذا حصلت على الموافقة من اثنين .

في 8 حزيران/ يونيو

عرفت أن المجلس طلب المقابلة ، وأن الأمير عين الموعد لصباح يوم 9 حزيران/ يونيو ، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً .

وفي هذا اليوم لقيت مخلوف في العاشرة والنصف صباحاً . كان الموعد قد تم ، وقد ذهب المجلس بكامله : برئيس الجمعية مصطفى بن عامر وأمين سرها محمد بشير المغيربي ومحمد صبري ومخلوف ومطردي . واعتبروا أنفسهم وفداً يمثل الجمعية . قضى الجماعة أربعين دقيقة في حضرة الأمير ، وتبادل الفريقان الأحاديث المتعلقة بالبلاد . وقد كانت كلمات الأمير الوداعية لهم : «اعتبروا أنفسكم أبنائي . إن أبواب قصري وبيتي مفتوحة دائماً لكم . لا تصغوا لما يقوله الآخرون . ليس لي شيء ضدكم أو ضد الجمعية . إن أهدافنا واحدة . سيروا في عملكم والله يحفظكم ويباركم» .

وقد سلم الوفد مذكرة إلى سمو الأمير وقد جاء فيها ، بحسب رواية مخلوف لي ، أن هناك أموراً ثلاثة هي لباب القضية الليبية وهي (1) يجب أن يتجه تفكيرنا دوماً نحو وحدة ليبيا ؛ (2) أن المعاهدة التي ينوي الأمير عقدها مع بريطانيا يجب أن تقوم على أساس التساوي بين الفريقين وأن تؤكد على أن استقلال برقة يجب أن يكون

ناجزاً ؛ (3) أن يتم الاتصال بين برقة والدول العربية والإسلامية للاعتراف بالوضع الجديد في برقة .
وقبل أن يغادر الأمير برقة (إلى لندن) استدعى مجلس الجمعية وقال لهم إنه يعتبرهم وكلاءه أثناء غيابه ، وإنه يأمل منهم أن تظل عيونهم مفتحة (أي يقظين) .

16 حزيران / يونيو

لم أذهب إلى المكتب اليوم بعد الظهر لأنني أردت أن أصحح بعض الأوراق (أوراق الامتحان وعددها بالنسبة لي 166 ورقة للإنشاء العربي وما إليه) . فعملت من الخامسة إلى قبيل الثامنة ، ثم انقطعت لأن وقت العشاء حان . كان عندنا على العشاء الليلة اثنتان من الممرضات الإنجليزيات ، وهما تدعوان كثيراً لأن الطبيبين الإنجليزيين مهتمان بهما ، وهما مهتمتان بالطبيبين . بعد العشاء لعبنا الورق قليلاً . لعبنا البوكر ، بعد أن علموني اللعبة ، وقد خسرت أربعة عشر قرشاً ونصف القرش . لعبت لأنني أردت أن ألعب ، وخسرت وسرتني الخسارة ، سرتني لأنني اختبرت شيئاً لم أكن أعرفه . وإذا كتبت في يوم من الأيام قصة اجتماعية وأدخلت فيها عنصر القمار ، فإنني أستطيع أن أصفه عن تجربة . ولكن هذه لعبة البوكر الأولى والأخيرة في حياتي . (وهكذا كان ، بيروت 23 تموز / يوليو 1991م) .

طبرق 26 حزيران / يونيو 1949م

طبرق لها ميناء جميل أما المدينة فلا تزيد على أكوام من الحجارة من البيوت المتهدمة . فقد ضربت ضرباً عنيفاً في الحرب الماضية . . . . عدد سكان المدينة لا يتجاوز 2000 نسمة ، لكن عدد العمال فيها يبلغ 3000 عامل .
زرت في طبرق مع أمين عودة جماعة من الألمان عددهم 17 رجلاً . أصلهم أسرى حرب ، لكنهم الآن أحرار . يعملون هنا فنيين في دائرة الأشغال وعند الجيش . يسكنون معاً ويأكلون جماعة . يقيم كل اثنين في غرفة ؛ بعض الغرف من ألواح

الزنكو وبعضها من براكات صغيرة وبعضها الآخر مبني من الحجر . وكلها نظيفة ومرتبة . عندهم دجاجهم وحمامهم وكلابهم وقططهم . سقونا عصير البرتقال وأطعمونا أناناس (معلباً طبعاً) .

ذهبت بعد الغداء لزيارة جماعة من الموظفين الصغار الذين يتعلمون الإنجليزية . معلمهم هو باشكاتب المتصرف .

إنهم يتعلمون الإنجليزية كي يترقوا في وظائفهم .

طبرق ينقصها الماء . ماؤها ملح جداً لا يصلح للشرب أو للطبخ . لذلك ينقل إليها الماء بالسفن من الإسكندرية . ويكلف الطن الواحد من الماء نحو 8 جنيهات ، يعني أن التنكة الواحدة منه تكلف 13 قرشاً بتقسيط دقيق . والماء المالح لا يمكن الحصول عليه بسهولة ، لأن المضخات التي ترفعه إلى البيوت بعضها معطل . أمس مثلاً لم يكن في المدينة ماء حتى للتغسيل . لكن اليوم وصلنا ماء ملح ، لذلك استطعت أن آخذ حماماً بارداً ملحاً .

الحاجيات هنا أقل منها في بنغازي ، ودكاكينها على قد الحال . وتأتيها الخضار من درنة . لكن الدكتور أمين عودة مسرور فيها لأنه يستطيع أن يشتغل براني . فقد يحصل 40 – 50 جنيهاً في الشهر .

ظلت الوزراة وتأليفها الشغل الشاغل للناس بين إعلان الاستقلال وصدور المرسوم الأميري بتشكيلها في 6 تموز/ يوليو .

منذ إعلان استقلال برقة أخذ الناس ، أفراداً وجماعات ، يتحدثون عن الوزارة التي سيكون أول عمل لها تنفيذ برنامج الاستقلال . وفي بلد الأعمال فيه قليلة والزعماء والمتزعمون فيه كثر تصبح قضية مثل هذه الشغل الشاغل . وقد كنا نسمع أخبار الترشيحات في المقاهي والمطاعم ودور السينما (عندما أذهب على قلة) وفي الاجتماعات العامة .

وقد دارت الأحاديث حول أشخاص معينين لرئاسة الوزارة . ورد اسم السيد صفي الدين السنوسي ، وهو ابن عم الأمير . ذكرت صفاته وأشار الناس إلى مقدرته ، وأشادوا بأن الرجل ظل في برقة يقاتل الطليان في الوقت الذي كان الأمير لاجئاً في مصر – وقيل هرباً من المعركة ، والواقع غير ذلك . فقد قصد الطليان إيذاء الحركة

بأجمعها في شخص الأمير . لكن السيد صفي الدين ، على كل ما كان يقال عنه ، كان يزاحم الأمير على ترؤس الدولة . فلا يمكن للأمير أن يثق به في منصب رئيس للوزراء .

كان هناك السيد محمد الرضا أخو الأمير . لكن الذين يعرفون حصافة الأمير قالوا إن الأمير لن يجمع في بيت واحد السلطة فيثير سخط الناس عليه . ومن ثم انتقل التفكير إلى السيد صادق ، وهو ابن السيد محمد الرضا . لكن الأمر يشبه اختيار أبيه . فضلاً عن أن الناس كانوا يعتبرونه صغير السن (مولود سنة 1908 - فهو ليس صغيراً قط) . وهذا أمر مهم في رأي البعض . وذكر اسم السيد أبو القاسم وهو من أبناء العمومة .

وانتقل التفكير إلى أفراد من خارج الأسرة . خليل القلال محام ناجح وعامل قديم في السياسة فضلاً عن أنه كان عضواً في الوفد الليبي إلى الأمم المتحدة .

وتحدث الناس عن عمر باشا منصور (الكيخيا) الذي كان رئيس الديوان الأميري . لكن عمر كان يتمتع بشيء من العداء في البلد . ثم قيل إنه عجوز (كانت سنه 74 فقط) .

دامت المشاورات مدة طويلة . وهي مشاورات ثلاثية الرؤوس . فهناك الأمير ؛ وهناك الوالي (أي رئيس الإدارة) البريطاني مستر دوكاندول ؛ وهناك الزعماء المختلفو الرأي وأصحاب المطامع والذين قد لا يمحضون النصح .

وأخيراً أعلنت أسماء الوزراء في بيان أميري رقمه 1 مؤرخ 6 تموز / يوليو (1949) . ولم يكن بين الأسماء الستة واحد من الأسرة السنوسية (فيما بعد منع الأمير أن يعين أفراد الأسرة في مناصب حكومية كبيرة أو أن تكون لهم شركات كبيرة تفيد من أموال الدولة في مناقصات أو عطاءات) . والوزارة كانت مؤلفة على الشكل التالي .

الدكتور فتحي الكيخيا (ابن عمر منصور باشا) وقد كان يعمل محامياً في الإسكندرية فاستدعي للقيام بهذه المهمة . فالذي خسره الأب ناله الابن . رئيس وزارة ووزير للعدل والتربية والدفاع .

خليل القلال - للصحة ، حسين مازق (للزراعة والأحراج) ، محمد بو دجاجة (للمالية) ، علي الجربي (للمواصلات والأشغال) .

وفضلاً عن خلو الوزارة من أفراد الأسرة السنوسية فقد خلت من وزير للخارجية ، لأن هذه الأمور كانت بيد بريطانية . فاستقلال برقة كان داخلياً .

10 تموز / يوليو 1949م

. . . بنغازي اليوم مخبوطة ، وقد أتيح لها حديث شهي . ذلك أن ثلاثة مصريين ، من أعضاء جمعية الإخوان المسلمين المنحلة ، ومن الإرهابيين ، ومن المتهمين بإلقاء القنابل على رئيس مجلس النواب المصري ، ومن قتلة النقراشي باشا - هربوا من مصر قبل بضعة أيام ودخلوا برقة ، ولم يكن أحد يعرف مقرهم . لكنهم أول أمس صباحاً وصلوا بنغازي وألقوا بأنفسهم في رحاب الأمير إدريس ، وطلبوا حمايته . وكان البوليس المصري قد لحقهم بالطائرة فكان اليوم هنا نحو عشرة من ضباط البوليس والجيش المصري . أما الأمير فقد رفض تسليمهم ، وأما الوالي فقد أجاب بأن هؤلاء في عهدة الأمير . وبنغازي «مخبوطة» في الحديث عن هؤلاء الناس .

13 تموز / يوليو

. . . لا تزال بنغازي تتحدث بأمر الثلاثة من المصريين الذين لجأوا إلى حمى الأمير . والمهم أن هؤلاء ، في نظر الحكومة المصرية ، مجرمون عاديون . والقانون الدولي يقضي بتسليمهم إلى مصر . لكن ليس هناك اتفاق على تسليم المجرمين بين مصر وبرقة ، أي بين مصر والإدارة البريطانية . والحكومة المصرية لم تعترف بعد بالأمير وباستقلال برقة . لذلك فالإدارة البريطانية في حيص بيص . فلا هي تستطيع تسليم المجرمين لأنهم في حمى الأمير ، والأمير ، بحسب العرف العشائري المعمول به يستضيفهم . والأمير غائب عن بنغازي ، وليس من ينوب عنه أو يمكنه أن يفعل شيئاً أثناء غيابه ، وقد وعد بالنظر في القضية بعد عودته من لندن ، فقد غادرنا قبل فترة وجيزة إلى طرابلس فلندن لإجراء مفاوضات حول وضع برقة ووضعه . وقد نسي البنغازيون تأليف الوزارة وشؤون الدولة ، وأخذوا يتحدثون عن المصريين الثلاثة . ولأن

أهل برقة غاضبون على مصر والصحف المصرية لحملتها على الأمير واستقلال برقة . (هذا قبل لجوء المصريين إلى بنغازي) فهم مسرورون لأنهم يستطيعون الآن إغاظة مصر . لكن التجار وأصحاب الأعمال متضايقون لأن الحكومة المصرية تمنع البرقاويين من السفر إليها .

17 تموز / يوليو

كل شيء هادئ على هذه الفرندا . فأنا جالس وحدي ، لأن كل سكان المنزل خرجوا - متفرقين .

في هذا الهدوء ألقيت كتابي جانباً ، وأشعلت غليوني ، وسمحت لأفكاري بأن تشرد كما تشاء . إنني أشعر بشوق هادئ عنيف ، أشعر به كأنه يجتذبني إليك وإلى رائد . شوق قوي ما أكثر ما يراودني . لكن شيئاً آخر يمتزج بهذا الشوق هذه الليلة ؛ هو نوع من القلق . رباه أرجو أن لا يكون قد أصاب أحداً منكم مكروه . لا أدري لماذا أشعر بقلبي كأنه يعتصر ألماً . رباه احمِ أولئك الذين أحب من الشر .

20 تموز / يوليو

استدعاني اليوم السكرتير السياسي للإدارة البريطانية المستر ألكسندر . فقد ذكرت أخبار اليوم اسم أحد المدرسين المصريين العاملين في برقة ، وعندنا منهم عدد كبير ، على أنه عضو في جماعة الإخوان المسلمين ، ومتهم بالقيام بأعمال إرهابية في مصر . فدرست ملفه وأعطيته المعلومات ، المتوفرة عنه لدينا في إدارة المعارف ، وأنبأته بأن هذا المدرس موجود الآن في مصر ، فإذا اعتقل ، فلا يهم الإدارة من أمره شيء . فقال شكراً فنحن يكفينا ما عندنا .

وقد أضيف إلى قضية المصريين الثلاثة عنصر جديد ، فقد اتهم سكرتير القنصلية المصرية هنا بأنه من الإخوان المسلمين ، فاستدعته حكومته للتحقيق معه . ولما كان خارجاً من دار القنصلية لنقله بالسيارة إلى المطار ، هرب من حراسه ، ولجأ إلى دار

القيادة العسكرية البريطانية ، وهي على بعد نحو خمسين متراً من القنصلية . وبذلك نشأت مشكلة جديدة . فهذا متهم سياسي . هل يُسلم إلى الحكومة المصرية أم لا؟ وقد بدأت مفاوضات جديدة حول هذا الموضوع .

20 تموز / يوليو

ذهبت اليوم إلى مكتبة الأوقاف ، وهي المكتبة العامة الوحيدة في برقة كلها . فيها نحو ثلاثة آلاف كتاب ، أكثرها في الفقه ، وبعضها في التاريخ ، ولكن ليس فيها مجموعة كاملة من أي كتاب ذي أجزاء متعددة . هذه المكتبة كانت أصلاً في الجغبوب والكفرة مقري السنوسيين العلميين الرئيسيين ، والجغبوب كانت الأهم . فلما احتل الإيطاليون هاتين الواحتين (1931) خربوا فيها كثيراً ، وأحرقوا بعضاً من الكتب ، ثم نقلوا ما تبقى إلى بنغازي . كان العدد الأصلي بين 10.000 و 12.000 مجلد . فلما وصلت الكتب إلى بنغازي كان العدد قد أصبح نحو 700 مجلد ، وضعها الإيطاليون في مكان في المكتبة العامة الأوروبية ، التي كان فيها نحو 20.000 مجلد . وقبل الحرب الأخيرة بسنوات . لما رأى الإيطاليون أن يسترضوا البرقاويين ، سمحوا بنقل كتب الفقه والتاريخ إلى مكتبة الأوقاف ، حيث بقيت هذه المجلدات . لكنها غير كاملة . وما أقل الفائدة من مجلدات غير كاملة .

23 تموز / يوليو

أنا خارج الليلة مع جماعة من اليوغوسلافيين في مركب بخاري لصيد السمك . هؤلاء أصحاب شركة معها امتياز لصيد السمك . وعندهم مركب بخاري وعندهم نحو 15 بحاراً . هم أصدقاء الدكتور كريشل الألماني . وقد خرج معهم أولاً مكلنغن (الطبيب الاسكتلاندي) ثم سوبر (الطبيب الجراح الإنجليزي) قبل مدة . والليلة دوري . سنخرج حول الساعة الخامسة (بعد الظهر) وقد نرجع حول الثانية صباحاً . وكي لا أخسر البريد لهذا الأسبوع فإنني أكتب هذه الرسالة في المكتب لأضعها في البريد اليوم .

24 تموز / يوليو 1949م الساعة 3.30 صباحاً

عدت الساعة من رحلة الصيد ، ووضعت الإبريق على النار (لصنع الشاي) وجلست أكتب إليك (يا مرغريت) هذه الرسالة لتلحق البريد اليوم فتصلك مع رسالة الأمس ، وبذلك تطمئنين إلى أنني عدت سالماً .

تحرك القارب بنا من الميناء في تمام الساعة السابعة . واتجه غرباً . فلما كنا قد سرنا ساعة تقريباً ، ألقوا حبل القياس ، فوجدوا عمق الماء 37 قامة (القامة يردان) . وعندها ألقوا الشبكة الأولى ؛ واستمر القارب بعد ذلك في سيره ساعة أخرى ، كي تجمع الشبكة ما يمكنها من السمك . ثم أوقفوا القارب ولموا الشبكة . فخرجت كمية من السمك لا بأس بها . وبينها سمكة واحدة كبيرة من نوع يسمى (rhea) شكلها مثل الترس المثلث ولها ذنب طويل ، فقطعوه حالاً . أما وزنها فلا شك أنه يساوي وزن رائد وجوني معاً (جوني ابن خال رائد ، والاثنان كانا يومها في الرابعة من سنهما) .

بعد ذلك ألقوا الشبكة للمرة الثانية ، وتحرك القارب نحو ساعة في حركة دائرية . ولما سحبوا الشبكة انقطع الحبل الحديدي في إحدى جهتيه ، لذلك لم تجمع الشبكة سوى نصف الكمية . وألقيت للمرة الثالثة ، فكان ما جمعته قليلاً ، لأن انقطاع الحبل أخل بتوازنها . لذلك أمرهم القبطان بالعودة إلى الميناء . ولما وصلنا نقلني القبطان بسيارته إلى المستشفى مع حصتي من الصيد (ست سمكات لغداء اليوم) .

كان في المركب سواي ستة ضيوف . وأعطى القبطان بقية الضيوف هدية من السمك .

29 تموز / يوليو

يوم 25 تموز/ يوليو 1949م قدمت استقالتي رسمياً إلى السكرتير العام . ذكرت أنني سأعمل حتى 4/ 9 / 1949 ؛ واليوم ، بعد أن ذاع خبر استقالتي جاء لزيارتي حامد الشويهدي – المفتش بإدارة المعارف المسؤول عن منطقة بنغازي . حامد هو الذي قال «نحن غير مستعدين لأن نهان في عقر دارنا» . والذي استقال احتجاجاً على ما

سماه تصرفاتي الاستبدادية في الدائرة . وكنا قد تصافينا لما أدرك أنه كان مخطئاً فاعتذر وسحب استقالته . وقد دبرت أنا له بضعة أعمال إضافية أفاد قليلاً من المال .

اليوم جاء لزيارتي وقال لي : «نحن بعد أن اختلفنا في أول الأمر ، وتمكنا من معرفتك ، كنا نعتقد أنك أنت الرجل اللازم لنا في برقة ، ولكن يبدو أن برقة سيئة الحظ» .

وقد احتج على استقالتي احتجاجاً شديداً محمود مخلوف لما زارني أمس .

1آب / اغسطس

قضيت الصباح على شاطئ البحر مع إميل بستاني وعائلته . اليوم عطلة رسمية هي عطلة أول آب / أغسطس عند الإنجليز ونحن نعطل هنا أيضاً ، واصطدنا سمكاً . والظاهر أننا – إميل وأنا خاصة – لم ننتبه ، فبقينا في الشمس أكثر من اللازم . لذلك لما عدت إلى البيت مساءً وجدتني لست ملدوغاً فقط ، ولكنني تعب جداً . وجاء المستر بغس (BIGGS) ليأخذني إلى بيته للعشاء ، فقد كنت مدعواً عنده . فذهبت معه في سيارته . وفي بيته شعرت بحرارة ، فلم آكل ، وحول التاسعة أعادني إلى البيت . دعوت كريشل ففحصني وذهب وأحضر لي مرهماً ودهن به ظهري ودهنت أنا ما تبقى من جسمي . ثم أخذت حبتي أسبرو ، وذهبت إلى الفراش . لابد أنني نمت .

2آب / اغسطس

أفقت خالصاً من الحمى لكنني لم آكل شيئاً ، وشعرت بجسمي أنه محروق ، فلم أذهب إلى المكتب ، ولكنني طلبت الرسائل لتوقيعها في البيت . فالمدير غوردون غائب عن البلد .

5آب/ اغسطس

أكتب إليك من المكتب ، وأنا اليوم بخير . . . الجلد يقشر والألم يخف .

6آب/ اغسطس

وصل اليوم ألفرد من القاهرة لتولي عمله في إدارة الأشغال العامة .

9آب/ اغسطس

في الساعة السابعة صباحاً جاء رجب بن كاتو ، أحد أثرياء بنغازي ومعه ال «بك أب» وكان معه الياس البينا وانطوني كريديان وعمون (وبارودته) وكريد واثنان إنجليزيان واثنتان أوروبيتان وتوبار خشادوريان .

ذهبنا إلى سيدي خليفة (18 كلم شرقي بنغازي) ، المزرعة هناك تخص رجب قضينا يوماً لطيفاً .

19آب/ اغسطس

قضيت اليوم في زيارة للسلوق . كان القصد من الزيارة التأكد من صلاحية واحد من مبنيين ليكون مدرسة داخلية . فأهل المنطقة وفيهم الكثيرون من البدو المتنقلين طلبوا فتح مدرسة داخلية في السلوق أسوة بتلك التي في الأبيار . والطريف أنه لما عرض عليهم توسيع مدرسة الأبيار القائمة ، بحيث يمكن إدخال أبنائهم فيها ، رفضوا لأن هذا معناه إلحاقهم -كقبيلة- بالقبيلة المجاورة وهذا لا يجوز . فهم أيضاً لهم منزلتهم الاجتماعية .

لكنني بعد أن انتهيت من عملي الرسمي مع الموظفين المسؤولين ، ذهبت لزيارة آل الكزة في دارهم العامرة . وهناك أمام البيت جلسنا نحتسي كؤوس الشاي الليبي ،

ونتحدث عن أيام الإيطاليين . فقال كبير الأسرة : أمام هذا البيت ، الذي كان مقر المتصرف الإيطالي ، وقف ديبونو ، وزير المستعمرات الإيطالية ، وبادوليو حاكم ليبيا وغرازياني ، وكان قد وصل إلى برقة قبل أسابيع . وكان بادوليو قد استدعى مشايخ القبائل في تلك الجهات ، وأمرهم بأن يصطفوا ، وأنذرهم بأنه لا يريد أن يسمع منهم كلمة . . . وأخبرهم بادوليو أنه قد عين الجنرال غرازياني حاكماً وقائداً عسكرياً لبرقة . وهو من سمعوا أخباره في البلاد المجاورة ، وعنده الصلاحية اللازمة للقضاء على كل من تحدثه نفسه بمساعدة الثوار العصاة (يقصد المجاهدين) ولو اقتضى الأمر أن يتخذ من منطقة السلوق مقبرة لجميع العرب في برقة . . . . وانصرف الثلاثة بعد ذلك دون حديث أو تحدث .

ولم يقصر غرازياني في حكمه لبرقة في أي من أنواع الشدة والظلم والقسوة والبلاء منذ أن وصل برقة في آذار مارس 1930 . وكان من سوء حظ عمر المختار ، روح الثورة وقائدها ومنظمها ، أن وقع أسيراً في أيدي الطليان في 11 أيلول/ سبتمبر 1931 . وحمل مصفداً بالأغلال إلى بنغازي ، وحوكم أمام المحكمة الطيارة في دار البرلمان البرقاوي وذلك يوم 15 أيلول سبتمبر ، واستغرقت محاكمته ساعة وربع الساعة . وحكم عليه بالإعدام(1) .

عودة إلى الرسالة المؤرخة في 19 آب / أغسطس 1949

وبعد أن ألقي القبض على عمر المختار وحوكم وحكم عليه بالإعدام جيء به إلى هنا إلى السلوق لإعدامه . فقد كان هناك واحد من أكبر مراكز الاعتقالات والتهجير التي أقامها غرازياني . لذلك نفذ حكم الإعدام به هنا وحمل الناس من المعتقل وغيره على المجيء لمشاهدة ذلك . وقد كان هناك ما لا يقل عن عشرين ألفاً .

والمكان الذي أعدم فيه عمر المختار يبعد نحو كيلومترين عن السلوق . وقد زرت المكان فإذا به قفر بلقع . . . وحري بأن يقام هناك نصب تذكاري للرجل الذي قارع الإيطاليين قائداً وروحاً للثورة عشرين عاماً .

وتذكرت قصيدة شوقي الذي يقول في مطلعها :

ركـــزوا رفـــاتك في الرمـــال لواء
يســتنهض الوادي صــباح مـــســاء

19 آب/ اغسطس

حجزت اليوم تذكرة بالباص إلى طرابلس، وإن شاء الله سأغادر بنغازي يوم الأحد في 4 أيلول/ سبتمبر إلى طرابلس ومنها إلى مالطة فدمشق فبيروت.

طرابلس 5 أيلول/ سبتمبر 1949م

صباح أمس في الساعة الثامنة إلا ربعاً بدأ الباص سيره إلى طرابلس يوم الأحد.

المسافة بين بنغازي وطرابلس 1050 كلم... والباص مقاعده متعبة لأنها من الخشب وضيقة وظهرها قصير. لكنني حملت معي من المستشفى حراماً ومخدة، وبذلك جعلت المقعد مريحاً نسبياً.

وصلنا طرابلس الساعة 3.15 من بعد ظهر يوم الاثنين أي أننا قضينا في الطريق 31 ساعة. وفي هذه المدة كان الباص يسير، ولم نقف إلا للأكل أو للفحص الجمركي. والسائق لم يتغير، ولم ينم في هذه المدة كلها سوى ساعة ونصف الساعة.

من بنغازي إلى المقرون (80 كلم) كانت الطريق شبه صحراوية، تخفف من حدة الجفاف فيها بئر على جانب الطريق أو أغنام ترعى. ومع أن الغنم ترعى، وقد تبدو الآبار، فإن الطريق إلى أجدابية وهي 160 كلم من بنغازي تزداد جفافاً وتقل الآبار. وأجدابية بقية من البيوت الرسمية بنتها الحكومة الإيطالية، وبيوت طينية أو تنكية، يسكنها البدو، وبيوت من الشعر.

في أجدابية تم تفتيش الخروج على جوازات السفر والثياب. وبينما كان التفتيش يتم أكلنا، ونحن وقوف أو جلوس على الحجارة.

تركنا أجدابية الساعة 12.30، ووصلنا سرت في الساعة 11.15 مساءً، أي بعد

أكثر من 11 ساعة ، والمسافة 450 كلم بين المكانين . لكننا وقفنا عند قوس فيلونيوم القوس الرخامي أو ماربل ارتش ساعة ونصف الساعة من (4.30-6) . أكلنا فيها ، وأصلحت ماكنة الباص من عطل بسيط أصابها .

هذا الجزء من الطريق قاحل بالمرة . تصوري يا مرغريت أنه لا يوجد على جانبيه إلا بئران في كل هذه المسافة الطويلة ، وأحدهما ماؤه ملح . وقد ترين على جانب الطريق جملاً يرعى ، أو بيتاً متهدماً من بقايا الطليان ، أو بيتًا من الشعر يعتبر بيت الشعر الذي زرناه في بئر السبع (في فلسطين) منزلاً فخماً بالنسبة إليه .

في أيام الطليان أقيمت على جانب هذا الطريق بيوت كان يقطنها جماعة من الإيطاليين عملهم الإشراف على إصلاح الطريق ، وهذه البيوت - أو آثارها - يبعد الواحد عن الآخر بين 60 و 100 كيلومتر ؛ وهناك ثلاثة مراكز للبوليس كذلك . ولكن جميعها الآن متهدمة مهملة .

وما الذي يراه المسافر في هذه الجهات؟ طريق طريق طريق وعلى الجانبين رمال وصخور ، وقد يظهر البحر على مسافة قريبة من الطريق . إنه طريق لا نهاية له كأنه طريق الأبدية - لا تكاد تختفي قطعة منه حتى تبدو قطعة أخرى .

ورقات اخرى عن ليبيا

في الفترة التي قضيتها في بنغازي (برقة) سنة 1949 ، حيث كنت أعمل مساعداً لمدير المعارف (البريطاني) لأن بريطانيا عهد إليها بإدارة برقة ومنطقة طرابلس بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وخروج إيطاليا مغلوبة مع شريكتها الرئيسية ألمانية .

في هذه الفترة كتبت عدداً كبيراً من الرسائل إلى زوجتي مرغريت التي كانت تقيم مع رائد في ضيافة والديها في سوق الغرب (لبنان) . أحببت أن أقدم إلى القراء نموذجاً من هذه الرسائل وبعد تدبر الأمر اخترت هذه لأنها تحوي معلومات لم ترد في نص الرحلة .

كنت ، قبل مغادرتي بيروت إلى بنغازي 11 أيار (مايو) 1949 ، حصلت على عرض من الجامعة الأميركية في بيروت أعين بموجبه أستاذاً مساعداً في دائرة

التاريخ . لذلك كنت أكتب إلى مرغريت كي أعدّها للمشاركة في اتخاذ القرار - بيروت أم بنغازي .

النهاية كانت بيروت . الرسالة المرفقة صورتها نموذج من هذه الرسائل .

رسالة شخصية في وصف بنغازي

بنغازي 49/5/20

عزيزتي مرغريت

هذا ملحق بهذه الرسالة الطويلة التي كتبتها إليك والتي أبعث بها إليك الآن في ظرف آخر . هذا الملحق هو تقرير وافٍ عما استطعت أن أعرفه عن بنغازي إلى الآن .

الجو : على ما يبدو لي فجو هذه البلدة ، مثل جميع المدن الواقعة على الشاطئ السوري والمصري ، لطيف . تهب عليها رياح بحرية لطيفة في قسم كبير من النهار ، فتخفف من حدة حرارتها . ولم يحدث إلى الآن أن هبت على بنغازي ريح قبْلية (أي جنوبية) ، وهذه هي التي تحمل الغبار الفظيع ، وتجعل الجو جافاً جداً . لكن يقول الذين قضوا الصيف هنا قبلاً إن صيف بنغازي سيء جداً . حرُّهُ شديد . وأحسب أنه من هذه الناحية شبيه بحر بيروت على ما يقول البعض . أما الشتاء فمختلفون فيه . فهناك من يعتبره معتدلاً ، وهناك من يراه بارداً . وأحسب أن الفرق في التقديرين يرجع إلى المكان الذي جاء منه الناس . فالذين جاءوا من القدس يرونه معتدلاً ، أما أهل يافا وبيروت يرونه بارداً . ولكن الجميع متفقون على أن رطوبته فظيعة .

(الناموس كثير . ويقولون إن الذبان هنا كثير في الصيف) .

المدينة : المدينة قسمان الواحد غربي ، حول الشاطئ ، وهو حديث ، متسع الشوارع ، وفيها أشجار ، وعلى الشاطئ نفسه كورنيش لا بأس به . هذا هو القسم الإيطالي من المدينة ، وفي أيام الإيطاليين كان الوطنيون ممنوعين من الدخول إليه . والقسم الثاني بلدي وسخ ، ويبدو الوسخ فيه كثيراً لأن الغبار يأتي إلى المدينة كثيراً .

ولا شك أن التخريب والتدمير فعل كثيراً ببنغازي . فأنا أكتب إليك الآن من الغرفة ، وأطل من الشباك ، وأمامي خمس دور متحطمة مهدمة . والدور اللطيفة

الشرحة الواقعة على البحر هي مساكن للإنجليز . ولكن ثمة بيوت للعرب ، تعطى للموظفين أصحاب العائلات لا بأس بها ، وتحتاج إلى شيء من الإصلاح . وإذا قررنا أن نبقى هنا ، فهناك دار عليها العين لنا تكون فاضية بعد شهرين تقريباً . وأنا لا أعرفها ، ولكن مدير المعارف يقول إنه بيت جيد . على كل هذه مسألة ثانوية بالنسبة إلى بقية الأشياء .

السوق : يوجد للمدينة سوقان . سوق بلدي وسخ نسبياً ، لا يعتمد عليه . وسوق متمدن نظيف . ولكن الأشياء الموجودة فيه محدودة . فلم أرَ في البلدة أكثر من عشرين طنجرة ألومنيوم مثلاً ، ولكنني رأيت الكثير من أباريق التنك . الناس فقراء ، لذلك يشترون الأشياء الرخيصة . وهنا دكانة واحدة مثلاً لبيع الكتب فقط . والموجود فيها قليل . ويوجد في المدينة صيدليتان حسنتان . ولكن جميع الدكاكين النظيفة المرتبة يا عزيزتي بيد التجار اليهود .

لا يصنع في بنغازي شيء أبداً . كل شيء يأتيها من الخارج . حرامات الصوف والأباريق الفخار من طرابلس ، والأحذية من مصر وإنكلترا .

في السوق المدني الغربي النظيف ثلاثة أمكنة لطيفة - سوق الخضار ، وسوق اللحم ، وسوق السمك . إنها أنظف بكثير من السوق البلدية التي تباع فيها هذه الأشياء . لكنها أغلى من الحاجيات في السوق البلدية أيضاً .

الناس : انظر إلى الناس من وجهة نظرك أنت . أنا سأذهب إلى عملي ، وسيكون كثيراً ، ولكن أنت . ما الذي يعمل هنا؟

لا شيء . وهذه مشكلة كبيرة . توجد دار سينما واحدة صيفية ، ستفتح قريباً . لكن دار السينما الشتوية لا تنفع أبداً .

ويوجد هنا عائلات فلسطينية : سابا شماعة وزوجته ، ابنه أنطون وزوجته ، ميشيل طه وزوجته . يوجد عائلتان من أصل لبناني : نسيب بستاني (القاضي) وزوجته ، واميل بستاني (مترجم في المحاكم) وزوجته . يوجد عائلات ومدرسات من مصر ، لكنني لم أتعرف عليهم بعد . وليس بينهم وبين الفلسطينين اتصال على ما يظهر . وإذا كانت العائلات المصرية والمدرسات مثل بعض الموظفين الذين قابلتهم فلا خير فيهن .

أما العائلات البلدية فلا يمكن أن يعتمد الواحد على الاختلاط بهن اجتماعياً .

وقد تسألين كيف يفعل الإنجليز؟ الإنجليز وعائلاتهم كثيرة ، وهم ، كما تعرفين ، يختلطون ببعضهم كثيراً هنا ، على غير حالتهم في إنكلترا . فضلاً عن ذلك فلهم ناديان وسيتما خاصة بهم ، ودكانان تجاريان . وناد للتنس أو اثنان . ومن هنا ترين أن حالهم أحسن بكثير . ومع ذلك فالمسز غوردن (زوجة المدير) تشكو من الوحدة والزهق .

الحياة العامة : المطبخ هنا يعتمد على البريموس . والكهرباء الموجودة لا يمكن أن يعتمد عليها كثيراً للطبخ ، لأنها تكون ضعيفة في النهار ، وتقطع أحياناً كثيرة في النهار . أما في الليل فتقطع ليلة واحدة عن كل جزء من أجزاء المدينة .

الخدم يصعب الحصول عليهم ، ولا ينفعون كثيراً . كأن أكثر الخادمات إلى الآن من اليهوديات . لكن اليهوديات ينزحن إلى فلسطين الآن . والواحد مضطر إلى الاعتماد على البلديات أو البلديين . والأجرة قد لا تنقص عن 3 جنيهات في الشهر لنصف نهار فقط .

الأسعار : الأسعار أرخص من بيروت ، وأقصد أسعار الحاجيات ، لكنها ليست بالرخص الذي سمعناه . ذلك أن الرجِلَ الغريبة رفعت أسعار الحاجيات . والجدول التالي يعطيك فكرة عن بعض الأشياء .

	بالكيلو	
اللحم	25 قرش[1]	
البندورة	8 – 10 قرش	(قبل ثلاثة أسابيع 18 قرش)
الخيار	5 – 7 قرش	(أول نزوله كان 40 قرشا)
الكوسا	4 – 6 قرش	
البطاطا	3 – 5 قرش	

(1) العملة التي كانت مستعملة في برقة هي العملة المصرية – الجنيه يساوي الجنيه الإنكليزي وهو 100 قرش .

البيض كل 4 بثلاثة قروش (لكن في الشتاء بقرشين الواحدة)
الأشياء التي لا توجد هنا : البرغل ، العدس ، البرتقال .
الأشياء القليلة : الزيت (غير جيد)
الأشياء الجيدة : السمنة .
الفواكه قليلة إلى الآن ، ولكن في الصيف يكثر العنب .
(الموزة الواحدة تكلف ثلاثة قروش .)
ميزانية سنة في بنغازي (لنا) هذا بناء على حديث مع الكثيرين .

	جنيه	
للبيت	20	(إصلاح وتتمة الإيجار مثلاً)
أثاث	80	(لأن الحكومة لا تعطي أثاثاً أبداً)
مصروف البيت (30 جنيه للشهر)	360	
مصروف شخصي (5 جنيهات)	60	
المجموع	420	

وهذا لم يدخل فيه أمران : ما قد نحتاجه للطبيب (لا سمح الله) ، وما أحتاجه ثمن كتب لي ، لأنه لا يوجد هنا ولا مكتبة يستعير منها الواحد كتاباً يقرأه .

وبمناسبة الحديث عن الأطباء فإنهم أنتيكا هنا ، ونهابون . والطبيب الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه ، الدكتور أمين عوده ، (الناصري) ، يمكن أن ينقل إلى طبرق .

وهذه مسألة مهمة جداً بالنسبة إلى الأطفال .

المستقبل : يظهر أن جميع الأشخاص العرب الذين يمكن أن يحصلوا على عمل هنا درجاتهم محدودة بالدرجة التي أنا فيها ، أي 700 - 825 . أما الدرجة التي بعدها (900 - 1050) ، والتي ، كما تعلمين ، كنت أطمع فيها ، ستكون لإنجليزي إذا توسعت الإدارة عندنا . نعم من المنتظر أن يزيد المعاش قليلاً متى أدخل نظام علاوة غلاء المعيشة ، وقد يزيد بذلك 50 - 60 جنيهاً في السنة . والزيادة السنوية هنا ، كما تذكرين ، هي 25 جنيها في السنة (لدرجتي) ، أي أنني بحاجة إلى خمس سنوات

حتى يصبح معاشي 825 .

ولكن الشيء الذي يهم كثيراً هو أن العمل هنا مدة أمر محتمل ، وإن كانت تحول حوله صعوبات تتعلّق بالسكان . فهناك مثلاً امتعاض من مجيئي أنا ، باعتباري أخذت وظيفة واحد من أهل البلاد . وهو مسألة تزعجني قليلاً .

(أنت يمكنك أن تشتغلي معلمة هنا بنحو 15 جنيهاً فقط لكن هذا المبلغ يمكن أن تحصلي مثله في بيروت فيما أعتقد) .

فإذا قابلنا هنا بما يمكن أن يكون في الجامعة الأميركية بعد خمس سنوات مثلاً

هنا	بيروت
825 جنيه في السنة	800 جنيه في السنة
المصروف هنا أقل	قد يوجد وارد إضافي
الفرصة هنا 28 يوم في السنة	الفرصة 3.5 شهر (غير فرص الأعياد)
انقطاع عن العالم	متصل بالعالم .
ينفق الواحد على الكتب والمجلات	لا ينفق إلا القليل (حتى المجلات التي أنت تريدين قراءتها تجدينها في الـ British Council)

هذا تقرير وافٍ عما استطعت أن أعرفه وقد كتبته لك حتى يمكن أن نقرر متى جاءت الساعة .

وصلنا سرت الساعة 11.15 ليلاً ، فأكلنا معكرونة في مطعم إيطالي وشربت بعدها قهوة بالحليب ، واستمر الركب بعدها (خلص الحبر فلأتم الرسالة بقلم الرصاص) فوصلنا جادو في الساعة 6.15. هناك توجد نقطة بوليس ومركز مهاجرة وجمرك للذاهبين إلى طرابلس (فقد كانت طرابلس وبرقة ولايتين مختلفتين ولو أنهما كانتا تحت إشراف بريطانية) . وفي جادو مقهى ومطعم للإيطاليين . إن منطقة طرابلس لا يزال فيها نحو 45 - 50 ألف إيطالي ، وهم القائمون بشؤون المطاعم والمقاهي والفنادق . وهكذا انتظرنا في جادو إلى أن فتح المقهى فشربنا فنجاناً من القهوة مع الحليب . ولما انتهت معاملات الجمرك وجوازات السفر للركاب تابعنا السير من جديد إلى مسراتة .

والطريق من سرت تدب فيه الحياة . فالأرض خصبة وتبدو البيوت ذات المزارع

على النحو الذي عرفناه في الجبل الأخضر في برقة . ولكن البيوت والمزارع هنا عامرة . وتستمر الحال على ذلك إلى مسراته . وهذه مدينة صغيرة جميلة جداً جداً .

جلست فيها في مقهى وأكلت آخر ما كان معي من السندويش ، وشربت قهوة بالحليب . وصلنا مسراتة الساعة 9.40 وغادرناها الساعة 10.15 إلى طرابلس .

المسافة من سرت إلى مسراته نحو 250 كلم ، ومن مسراته إلى الخمس نحو 100 كلم . والجزء الأكبر من هذا الطريق يمر ببيارات برتقال ثم بكروم الزيتون .

والخمس هي لبدس ماغنا الرومانية ، وآثارها كثيرة ، لكن الشوفير لم يقف فيها أبداً . فألقينا عليها تحية ، وألقى الباقون عليها لعنة ، لأنها «بلدة خربت بسبب فجور أهلها» هكذا يعتقد القوم هنا .

وقف الركب في قرابلي (غرابلي) على بعد 52 كلم من الخمس ، حيث استراح الجميع وتغدوا . أما أنا فلم أكن جائعاً لأكل . وبين الخمس وطرابلس يجتاز الطريق مساحات واسعة من غابات النخيل . أما عندنا يقترب الواحد من طرابلس تبدو أمامه حدائق ومزارع جميلة جداً ؛ يتجلى فيها الذوق الإيطالي .

وفي الساعة الثالثة والربع دخلنا طرابلس (58 كلم عن قرابلي و 210 كلم عن مسراته) . وذهبت إلى فندق فكتوريا .

الأحد 4/ 9 مغادرة بنغازي

الاثنين 5/ 9 الوصول إلى طرابلس

الثلاثاء 6/ 9

الأربعاء 7/ 9

الخميس 8/ 9 في طرابلس

الجمعة 9/ 9 من طرابلس إلى مالطا

وجدت أن رحلة ذلك اليوم من لندن إلى دمشق ألغيت

السبت والأحد والاثنين والثلاثاء في مالطة .

الأربعاء من مالطا إلى دمشق . غداء عند إميل وماري ومتابعة بالسيارة إلى سوق الغرب .

رائد يحمل شنتتي وأنا أساعده من السيارة إلى البيت .

زيارة مالطة

سبتمبر 1949

لما انتهى عملي في برقة عدت إلى لبنان عن طريق طرابلس مالطة دمشق بيروت . لما وصلت مطار مالطة بعد ظهر يوم السبت في 9 أيلول (سبتمبر) 1941 ، وجدت أن الرحلة الجوية من لندن إلى دمشق عبر مالطة قد أُلغيت . وهنا حار المسؤول عن دخول المسافرين إلى مالطة في أمره . مركزه في الشرطة لا يؤهله لأن يمنحني إشارة دخول مؤقت . وقال لي إنه لا يمكنه أن يقوم بهذا العمل ، وعلي أن أتوجه إلى رومة ، المحطة الأخيرة في الرحلة .

حاولت جهدي . فلم يبدل موقفه . عندها سألته أليس هناك شخص مسؤول يمكن أن يتصل به للحصول على الإذن . أجاب إيجاباً لكنّه لا يمكنه أن يتصل به يوم السبت في مثل هذا الوقت . عندها قلت له أنا معتاد على النظام الإنجليزي في فلسطين وفي السنوات الأربع التي قضيتها في إنكلترا . ومالطة تتبع هذا النظام وأنا مطمئن إلى أن الشخص المسؤول لن يغضب عليك لأنك سألته حلاً لمشكلة . بدت عليه حالة لينة ، وتناول سماعة التلفون وعرض المسألة على الرئيس المسؤول فكان الجواب أن أعطه إشارة دخول ، ثم طلب أن يتكلم معي . بعد تحية مصحوبة باسمي اعتذر فيما إذا كان الشخص المقيم في المطار قد سبب لي ازعاجاً . ثم أضاف «أرجوك أن تعرّج على مكتبي غداً صباحاً في الوقت الذي يناسبك» ولما ذكرت له أن اليوم هو يوم الأحد قال «الشؤون الأمنية يجب أن يكون لها دوماً شخص مسؤول عنها ، فهي لا تعرف يوم أحد ولا يوم عيد .»

كنت قد احتفظت معي لما تركت طرابلس بجنيه إنجليزي واحد كي أستعمله في المطار . دفعت منه أجرة التكسي الذي نقلني إلى الفندق الذي اقترحه الضابط تلفونيا .

قضيت الأمسية في الفندق كتبت بعض الرسائل .

في صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى لقاء الضابط الذي استقبلني وقدم لي فنجاناً من الشاي وتحدثنا . يبدو أن الرجل أراد أن يفهم بضعة أمور عن فلسطين وليبيا ، حيث كنت أعيش وحيث كنت أعمل . وبعد حديث طويل قال لي الأسبوع الأول لإقامتك في مالطة أنت ضيفنا . إذا أقمت بعد ذلك يتعين عليك أن تدفع رسماً معيناً عن كل أسبوع .

مالطة جزيرة صغيرة وهناك قصة تروى عن أحد أمراء البحر العثمانيين أنه صدر له الأمر أن يتجه إلى مالطة لأن اضطراباً حدث فيها . فدار ودار ودار ثم أرسل برقية إلى إستانبول يقول فيها «مالطة يوق» (أي لا توجد مالطة) .

خرجت من مكتب الشرطة ابتعت جريدة ثم جلست في مقهى حاسباً أنني سأقرأ جريدة باللغة الإنجليزية ، خاصة وأنها مطبوعة بالحرف اللاتيني . لكن المفاجأة جاءت لما بدأت أقرأ .

كانت الانتخابات النيابية على الأبواب ، وكان الحزب المعارض قد أقام مهرجاناً سياسياً كبيراً في اليوم السابق . والصفحة الأولى كانت عنه .

الجريدة اسمها البرق (كتابة) Barq لكن حرف q يلفظ همزة فتصبح البرء (بمعنى البرق) .

كان الخبر عن اللقاء السياسي مكتوباً بحروف مرسومة لاتينياً ، لكن اللفظ يكاد يكون عربياً . أوردت الجريدة افتتاح خطاب رئيس الحزب السياسي المعارض . قرأت فيه :

«الباتريا (الوطن) هي لرض (الأرض) اللي فيها تولدنا وفيها إشنا (عِشنا) وهبينا (حبينا) واللي فيها غدوة (غدا) نموت ، وفيها نندفن . . .»

توقفت عن القراءة دقائق ثم أتممت خلاصة الخطاب ولم تتغير لا صورة الحروف ولا دلالتها . فهمت محتوياته كاملة عندها توقفت . استعنت بالتاريخ . العرب احتلوا مالطة مدة واللغة العربية انتشرت في بعض أنحائها . لكن مالطة خضعت لفرسان القديس يوحنا ، الذين يتفاهمون باللاتينية لفترة طويلة وليس في ما رأيت من الذي قرأته في الجريدة والكتابات والأوامر في المحلات العامة سوى كلمات لاتينية نادرة .

والجزيرة كانت تابعة لإيطاليا ردحاً من الزمن ثم يوم زرتها كانت تحت النفوذ البريطاني والكثيرون من أهل البلاد يعرفون الإنجليزية فهي اللغة الرسمية . وقد دخلت منها ألفاظ في لغة أهل مالطة مثل قولهم «توصية بوليسية» (بمعنى أمر بوليسي) .

وهنا أسعفني التاريخ الذي لا يسمح لي بأن أقول إن اللغة العربية لغة خلقت ليتعلمها الناس الخ الخ . تذكرت أنه لما أنشأ الفينيقيون مدينة قرطاجة قرب مدينة تونس الحالية احتلوا أماكن كثيرة كانت ملاذاً لسفنهم ومراكز لتجارتهم . وكانت مالطة واحدة من تلك الأماكن . وظلت هذه اللغة تستعمل في الجزيرة من حول القرن الثامن إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد . وسكن هناك الكثيرون ممن هم من أصل فينيقي . اللغة الفينيقية لغة سامية مثل اللغة العربية . لما سكن العرب في الجزيرة كان من اليسير أن تنتشر اللغة العربية وأن تتجذر إذ كان لها جذر قريب تقوم عليه . وظلت لغة أهل البلاد بعد أن طوعوها للفظهم ونحوهم وصرفهم (وكان من ذلك شيء كثير) فغابت الحاء والعين والظاء . وسُهّلت الكتابة صرفاً ونحواً ورسماً ، وتخلصت من ألفية ابن مالك .

ثم تنقلت في الجزيرة . زرت مرابعها ومتاحفها . والمتحف الفني فيها هو متحف الآثار الرومانية . وتحدثت إلى مديره . واستضافني في مكتبه ، ومع الضيافة كأس من الشاي . ثم دعاني لتناول العشاء في بيته . وكان هناك تلك الليلة جماعة من أهل الفكر نحو سبعة . ذهبت وكانت أمسية أفدت فيها عن تاريخ البلاد ووضعها الكثير .

في صبيحة يوم الاثنين ، وكنت قد أنفقت ما كان بقي معي من الجنية الكريم ، طلبت من المسؤول في الفندق أن يعطيني جنيهاً . أعطاني ولم يتردد .

ذهبت إلى البنك الوطني . طلبت أن أتحدث إلى المدير . قيل لي المدير مشغول ، فهل يكفي أن تتحدث إلى وكيله؟ طبعاً قبلت . دخلت عليه وأخبرته رأساً أن إلغاء الطائرة المسافرة من لندن إلى دمشق أحرجني . أضفت أنه لي حساب في بنك في لندن . وأريد أن أصرف شيكاً في مالطة . أرجوه أن يتصل بلندن تلفونياً على حسابي ليتأكد من ذلك . بعد ذلك نظر إلي وقال : مستر زيادة لن أتصل بلندن . ما هو المبلغ الذي تريده . سحبت شيكاً بستة جنيهات . جاء رجل استدعاه وطلب منه أن يسجل الشيك ويحضر المبلغ .

كان موعد الطائرة التي سأنتقل بها من مالطة إلى دمشق يوم الخميس . يوم الأربعاء بعد الظهر قيل لنا الطائرة غيرت موعدها وإنها قادمة الليلة . وعلينا أن نستعد ونذهب إلى المطار في المساء .

أسقط في يدي بالنسبة للفندق . كنت قد دفعت هناك جزءاً من الذي قبضته . وكان أن سألني وقتها مسؤول الفندق كيف قبل البنك الوطني أن يصرف لي شيكاً دون التأكد من لندن . أجبته لا أعرف . ولكن هذا الذي حصل .

لما تبدل موعد الطائرة ذهبت إلى المسؤول ، قال نعم موعد الطائرة تقدم . فقلت وأنا بعد مدين للفندق ، وأحتاج إلى مبلغ للتكسي ينقلني إلى المطار . فماذا يمكنني أن أفعل؟ حسب المطلوب مني للفندق وقال أجرة التكسي كذا ، رجوته أن يضيف البخشيش للسائق ، وأضاف مبلغاً قد أحتاجه في المطار فكان الكل نحو ستة جنيهات . سألته ما الذي أفعله الآن . قال اكتب لي شيكاً بالمبلغ المطلوب . حرت في تصرفه فقال لي مستر زيادة إذا كان المصرف الوطني يقبل منك شيكاً ، فكيف لا أقبله أنا .

كتبت الشيك وأعطيته إياه . ذهبت إلى الغرفة هيأت نفسي . جلست في البهو أنتظر . جاء المسؤول وقال لي هل تسمح لي بأن أقدم لك كأس شراب وداعاً . طلبت كأساً . جاء به بنفسه . تمنى لي رحلة سعيدة .

في رحلتي الأولى إلى لندن توقفت الباخرة نصف يوم في مالطة . نزلت مع زميليّ المصريَيْن . كانا بحاجة لشراء بضعة أشياء . دخلنا دكاناً لم يتمكن أحدهما من تذكر الكلمة الإنجليزية اللازمة لما يريد . استنجد بصديقه بالعربية . فإذا صاحب الحانوت يقول له إحكي بالأَرَبي أنا أفهم . وكان أن حصل على ما يريد .

وبعد الأيام التي رويت خبرها فوق ، وبعد سنوات زرت مالطة لأحضر مؤتمراً . أخذني أحد الحضور لزيارة عميد كلية الآداب وهو أستاذ اللغة العربية في جامعة مالطة .

وفي نهاية الزيارة أهداني كتابه «كيف تتعلم المالطية بنفسك» فيما بعد ، في بيروت ، قلبت صفحاته ، لكنني لم أقصد أن أتعلم لغة جديدة . فالإنجليزية والألمانية والفرنسية (بدون التكلم بها) تكفيني .

هذه قصة مالطة . إن الجزيرة كانت موجودة على عكس ما قال كبير أمراء البحر العثماني .

الزيارة الأولى لإستانبول

1951

على أنني أود أن أشير إلى زيارتي الأولى لإستانبول (1951) . في صيف تلك السنة انعقد مؤتمر المستشرقين في تلك المدينة ، وذهبت لحضوره . وفيه تحدثت عن إدارة بلاد الشام في أيام المماليك . وقد رتبت وقتي بحيث أنني وصلت قبل بدء المؤتمر بأسبوع كي أزور معالم هذه المدينة التي ربطتنا بها قرون من أيام البيزنطيين الأرثوذكس إلى نهاية الخلافة العثمانية .

وقد زرت معالمها : قصور سلاطين بني عثمان وجامع أيا صوفيا البيزنطي الأصل ، وعدداً من الجوامع التي بناها الأتراك مثل جامع محمد الفاتح وجامع السلطان أحمد وجامع السليمانية . هذه الجوامع كثيرة في عاصمة الخلافة السابقة بحيث أنك ترى مئذنة أنيقة رشيقة حيثما وجهت وجهك . وقد كانت السوق الكبيرة اللافت الثالث لي في هذه المدينة . إنها سوق لا تتناسب مع إستانبول إلا في سعتها وتنوع بضاعتها - أما اختلاط الحابل بالنابل بها ، وتجاور البضائع المختلفة النوع والرائحة ، والوسخ الذي يكاد يلحقك في تنقلك ، فأمر كنت أرباً به عن هذه المدينة .

وقد زرت إستانبول فيما بعد مع مرغريت وكان الصديق الكريم عبد الكريم غرايبة يومها يقيم في العاصمة القديمة دارساً منقباً ، وكانت زوجته وابنهما رائد معهما . وقد نعمنا يومها بضيافة الأسرة الصديقة ، وبمرافقة الأستاذ خليل ساحلي أوغلو الذي كان دليلنا العلمي . وأكرم به من خليل وصديق ودليل .

ولعل الشيء الخاص الذي حصلت عليه في زيارتي لإستانبول سنة 1951 ، والذي لست أحسب أن كثيرين أتيحت لهم مثل هذه الفرصة ، هو زيارة قصر يلدز - قصر السلطان عبد الحميد .

كان الموظف في الفندق قد أخبرني (خطأ على ما اتضح لي فيما بعد) أنني

أستطيع أن أنتقل إلى القصر في باص عادي ، وهناك أدخل وأزوره . وقد نقلني الباص إلى مكان قريب من القصر ، لكنني وجدت البوابة يحرسها جنديان . فلم أتقدم منهما ، إلا أنني رأيت ضابطاً يحدق بي فتقدمت نحوه (وكان يتكلم الإنجليزية) وأخبرته عن الخطأ الذي وقع فيه موظف الفندق . فقال لي إن القصر الآن هو الأكاديمية العسكرية ، وإن زيارته ممنوعة . شكرته وهممت بمغادرة المكان ، إلا أنه استدعاني وقال لي إن القومندان . . . مدير الأكاديمية يريد أن يسألني بضعة أسئلة .

وسألني -عن طريق الضابط- عن سبب وجودي في إستانبول وسبب اهتمامي بقصر يلدز . ولما أوضحت له الأمر وأضفت أنني أدرس في الجامعة الأميركية في بيروت ، وأن تاريخ الدولة العثمانية من نواحي اهتمامي ، لذلك نويت زيارة القصر . أما والأمر على ما هو عليه ، قد عدلت بطبيعة الحال .

وكانت المفاجأة . قال إنه يعتبرني ضيفاً عنده ، وسيرافقني في أرجاء القصر «النجم» الصغير نسبياً ، المحصن على البوسفور ، الواسع الأرض المحيطة به . وكان مما زرته غرف نوم السلطان . وكان كل شيء في الغرف الخاصة على ما كان عليه .

وجلسنا في مقصف الأكاديمية وتحدثنا عن تركية العثمانية وعن عبد الحميد وروى لي قصصاً نقلها عن أبيه وعمه ، اللذين كانا في خدمة السلطان ، على ما قال .

وهكذا ظفرت بهذه الزيارة التي جاءت منحة من مدير الأكاديمية .

زيارة تدمر

1952

سنة 1952م رتبت تعاونية الجامعة الأميركية في بيروت زيارة لتدمر . وطلب مني مدير التعاونية أن أرافق الجماعة ضيفاً كي أشرح بعض تاريخ تدمر .

قبلت . بدأنا الرحلة من بيروت إلى حمص . هناك أكلنا «اللي فيه النصيب» «وعلى بركة الله» . كانت القافلة فيها باصان كبيران . فالعدد كان نحو الخمسين شخصاً ، مدرسين وطلاباً .

الطريق يومها كان طريقاً «يلاّ» ينفع للسيارات . فهو الطريق الذي بنته شركة بترول العراق لما مدت أنابيبها من العراق إلى طرابلس في عشرينات القرن العشرين (وكان خط آخر يتجه من العراق إلى حيفا) . الطريق طويل . غابت الشمس وأظلمت الدنيا . وقد خشي البعض أن يكون السائقان تاها عن الطريق الأصلي . لكن حول التاسعة مساء بدت أنوار تدمر . فتنفسنا الصعداء .

قالت إحدى الطالبات الأميركيات في الباص الذي كنت فيه «أول ما سأفعله عند الوصول أن آخذ دوشاً ساخناً» قلت لها إذا لقيت من الماء البارد ما يغسل وجهك كوني سعيدة . فقالت والإعلان عن الفندق الفخم . قلت كان ، لكن لا أضمن لك أنه لا يزال .

وصلنا . وكان ما توقعت . الماء موجود في الغرف ، لكن الدوش معطل . ليس ثمة ما يكفي من الماء . والأكل الذي كان حاضراً كان من قريبه . على كل أكلنا . وذهبنا للنوم .

جولة في المدينة

في صبيحة اليوم الثاني بدأنا الزيارة للمدينة التي ارتبط اسمها باسم زنوبيا من

أهل القرن الثالث الميلادي التي حاربت رومة وانتصرت على جيوشها في الشرق . وكانت تدمر مدينة تجارية مهمة ، فازدادت أهمية في أيامها . وكان حكام تدمر قد بنوا هياكل وقصوراً وقبوراً لهم وكانت المدينة قد أصبحت منذ أواخر القرن الأول الميلادي مركزاً تجارياً كبيراً ، وجاءت زنوبيا بطموحها لتزين المدينة .

لكن زنوبيا ركبت رأسها أكثر من اللازم قليلاً ، فهاجم الإمبراطور الروماني أورليانوس تدمر واحتلها ودمّر الكثير منها وأسر زنوبيا (273م) .

لكن الآثار كثيرة وغنية ومتنوعة . وليست رومانية فحسب ، ذلك بأن كل من حكم تلك المدينة ترك له فيها أثراً ، وكل عابد بنى فيها هيكلاً . ومن ثم فإن الأمراء الذين استولوا عليها أو كانت لهم بها صلة أقاموا منها حصوناً وقلاعاً . ومنهم الأمير فخر الدين المعني اللبناني .

بعد زيارة الصباح وغداء على قد الحال ، توقف الركاب وقال متقدمهم . وُعِدْنا بفندق جيد ، ولم نجده ، وبطعام مليح فلم نحصل عليه . نحن لا نريد أن نقضي الليلة الثانية هنا نريد أن نذهب إلى حمص الآن . كان مخطط الرحلة أن نمر بحمص وحماة ونزورها في طريقنا إلى حلب .

لم يدرِ منظم الرحلة ما يفعل . وكأنه استنجد بي (وأنا كنت أعرف حمص) .

فقلت لهم الذين يريدون أن يذهبوا إلى حمص لقضاء الليلة هناك يمكنهم أن يذهبوا وستعوض التعاونية عليهم ما ينفقون هناك . حتى إذا احتجتم أن تأخذوا الباصين لا بأس . أنا باقٍ هنا إلى نهاية الرحلة .

لكن عندما نمر بكم في حمص سنجمعكم من الحديقة العامة أو المقاهي ، لأنه لا يوجد في حمص فندق يمكنه أن يستوعب أكثر من أربعة أشخاص . لكم الخيار .

لم يجبني أحد . ذهب الجميع ليستريحوا تمهيدًا لزيارة بعد الظهر . وفي تلك الليلة أحيت الجماعة سهرة لطيفة في الفندق .

أنا سبقت الجماعة في صباح أول يوم في تدمر وذهبت قبل شروق الشمس إلى الشارع الرئيسي في المدينة القديمة . وقفت في طرفه الغربي ، انتظرت قليلاً فإذا بذكاء تطل على البلد وتلقي بأشعتها على أول الشارع . وكلما ارتفعت كانت الأشعة تضيء الشارع ثم تنيره ثم تدفئه . هذا ما كنت قد قرأت عنه ، من قبل وتأكدت منه ساعتها .

زرنا مختلف الآثار في تدمر . هيكل الاله الشمس ، جدرانه قائمة ، لكن لم تعنَ به الإدارة يومها ما فيه الكفاية ليكون نظيفاً . والمقبرة التي كان يدفن فيها الوجهاء . وأجمل ما فيها النقوش التي كانت تزخرف القبور في الجوانب وفي الأعلى . وما تبقى مما كان السوق الرئيسية في المدينة . ونبع الماء المالح الذي أفاد منه البدو المجاورون على ما يبدو منذ الألف الأول ق .م . إذ كانوا ينضحون المياه ويصبونها في أحواض قليلة العمق بحيث يجف الماء وعندها يفيدون من الملح الذي يستخرجونه . ويبدو أن جماعات قطنت حول النبع لتجفف ماءه وتحضر الملح لمن يأتي لابتياعه من مختلف الجهات .

واحة حضارية

تدمر واحة تحيط بها صحراء واسعة . مثلاً إلى الغرب منها كانت حمص أقرب مدينة إليها . لكن امتداد الصحراء في الجهات الثلاث الباقية كان كبيراً . ومن هنا أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً تحمل إليه السلع من جهات مختلفة . فيه يربح التجار ويتبادلون السلع ، فيتخلصون من سلعهم ويبتاعون سلعاً أخرى بدلها يحملونها إلى بلادهم . إن الذي أدركه حكام تدمر في وقت مبكر هو أن يحفظوا الأمن في المنطقة المحيطة بالمدينة لمسافات شاسعة ، فمنعوا أهل الجوار من نهب التجار ، وأمنوا لهؤلاء محطة كانوا فيها آمنين على أنفسهم ومتاعهم .

وزنوبيا لم تكن أميرة فحسب ، ولا وريثة زوجها أُذَيْنو لما قتل فتولت الحكم نيابة عن ابنها الطفل اللات . لكنها كانت متضلعة من الثقافة اليونانية ، وكانت تحرص على صلة وثيقة بالمدارس الكبيرة في إنطاكية وتدعو أساتذتها للإقامة في ضيافتها .

وبهذه المناسبة هناك أميرة عربية أخرى اسمها الزبّاء . وقد كان الخلط بين الاثنتين سائداً ، حتى قيل إن الزباء هي زنوبيا .

هذا بيّنه بما لا يقبل الشك العالم الأثري الدمشقي الكبير عدنان البنّي في بحث قدمه إلى مؤتمر طريق الحرير عقد في تدمر سنة 1994 .

وبهذه المناسبة فإن تدمر لم تكن محطة على طريق الحرير . فطريق الحرير الذي

كان يأتي من الصين عبر أواسط آسيا كان يمر بإيران وشمال العراق (الموصل) ومنها إلى شمال سورية . كانت حلب «سوق» الحرير الرئيسية في المنطقة ومنها كان التجار ينقلونه جنوباً إلى حمص ودمشق وسواهما ، وشمالاً في غرب إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى ثم القسطنطينية . ومن حلب كان ينقل إلى ميناء إنطاكية (سلوقية) ومنها يوزع إلى أنحاء البحر المتوسط .

نحن نتحدث هنا عن الفترة السابقة لتهريب بيضة (شرنقة) الحرير من الصين إلى بلاد الشام وتوطّن في كثير من المناطق في حوض البحر المتوسط في القرن السادس م ، وبعد ذلك نقل العرب تربية الحرير إلى مناطق البحر المتوسط .

وازدهرت صناعة الأقمشة الحريرية المتنوعة من تلك التي تستعمل في صنع الثياب إلى الطنافس والجنابيات والستور التي كانت تزين قصور أهل السلطة وأصحاب الثراء ، خاصة في الأندلس .

رحلات إلى العراق

والخليج العربي

1956

في الوقت نفسه الذي كنت أقضم فيه المغرب العربي كان المشرق العربي يحملني على التعرف عليه حملاً . فبين سنتي 1956 و 1992 زرت ، وكانت بعض زياراتي تمتد إلى أسبوعين في المرة الواحدة ، العراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات العربية وأجزاء من المملكة العربية السعودية . واتسع نطاق تجولي شرقاً فزرت إيران ثلاث مرات وزرت الباكستان (الغربية) والهند (مرتين ، كانت إقامتي هناك في الزيارة الثانية نحو شهرين) وأواسط آسيا ، التي كانت يومها جزءاً من الإمبراطورية السوفياتية .

وقد تنوعت أسبابي وغاياتي في هذه الزيارات : السبب الأصلي والغاية الأولى كانت الرغبة في التعرف إلى البلاد وأهلها . لكن المناسبات هي التي تعددت : فمن دعوة لحضور مؤتمر أو ندوة ، ومن دعوة من جامعة للإسهام في التدريس فيها ، مثل بغداد والكويت وجامعة عليكرة الإسلامية في الهند ؛ ومن دعوة لإلقاء محاضرة . وهكذا فقد كانت تترتب على زياراتي شرقاً واجبات علمية أكاديمية ، لم يكن لها في المغرب مثيل سوى موسمين ، كنت فيهما (سنتين 1965 و 1966) عضواً في بعثة من الجامعة الأميركية في بيروت انتدبت ، وكنت على رأسها ، لإلقاء محاضرات في التاريخ والأدب والتربية والاجتماع على مجموعات من مدرسي المدارس الابتدائية في المملكة المغربية . وقد كانت تجربة ذات أثر خاص في نفوس الفريقين : المعلمين والمحاضرين الزائرين على السواء .

في سنة 1956م ذهبت إلى بغداد للمرة الأولى . أردت أن أحس بالطريق والانتقال لذلك سافرت مع شركة نيرن التي بدأها أخوان من أستراليا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والتي كان لها الفضل في شق الطريق وبأسلوب متقدم راق

(ومستمر على التقدم) إلى السبعينات من القرن العشرين .

وكان بانتظاري في بغداد ساعة وصول الباص الكبير الصديق الوفي المرحوم عبد الرحمن البزار . وحملني إلى منزله العامر ، حيث قضيت أياماً طيبة . وقد يسر لي الصديق زيارات للآثار وللناس ، وكان دوره في النوع الثاني أكبر وأهم . وقد طلب مني يومها أن أتحدث إلى القوم في واحد من أندية بغداد فكان أن اخترت الحديث عن الحركة القومية في شمال إفريقيا . ولم أكد أبدأ حتى دخل القاعة ثلاثة من العاملين في الحركة الوطنية في الجزائر . وكانت لي بأحدهم معرفة ؛ فقلت في انعطافة كلامية موفقة ، «أنا أتحدث إليكم مؤرخاً للحركة القومية في المغرب العربي ، لكن الآن أمامكم فئة من الذين يصنعون التاريخ في الجزائر ، فلنقف ترحيباً بهؤلاء القوم» .

جاء هؤلاء العراق كلهم أملاً في الحصول على عون مالي من القطر الشقيق . وكان العراق يومها ينعم بحكم ملكي أبيد بعد سنتين . ولكن زعماء العراق ، الذين كانوا من أبناء الثورة العربية الكبرى (1916م) ، لم يبخلوا يومها على الزوار . لست أدري كم كان المبلغ الذي قدم إلى هؤلاء الزعماء رمزاً للعون الأخوي ، ولكن مما سمعته يومئذ أن الثلاثة عادوا يحملون ما يعادل ربع مليون جنيه استرليني ، وأن وعداً بمبلغ مماثل سنوياً قد قُطع . ولعلّه أُرسل سنة واحدة : ثم جاءت ثورة عبد الكريم قاسم التي طهرت البلاد من الحكم الفاسد فيما زعمت وزعم مؤرخوها وزبانيتها .

أما قولي فإن المبلغ الموعود به قد يكون وصل مرة إلى الجزائر فمبني على تجربة تمت «هي . لمّا أنشئت دولة «إسرائيل» سنة 1948م ، وجد عدد من الطلاب الفلسطينيين أنفسهم وقد انقطع عنهم المال من ذويهم المقيمين في فلسطين . عندها ارتأى رئيس الجامعة الأميركية في بيروت ، ستيفن بنروز ، أن يُنشئ صندوقاً خاصّاً بهؤلاء الطلبة لمد يد العون لهم . واقتطع مبلغاً من موازنة الجامعة نفسها لهذا الغرض . وأخذ على عاتقه ، كما أخذ آخرون على عاتقهم ، جمع التبرعات لهذا الصندوق .

لما انضممت أنا إلى هيئة التدريس في الجامعة الأميركية كانت اللجنة الخاصّة بدعم الطلاب من هذا الصندوق قد ألفت ، وكان يرئسها جبرائيل كاتول . وعمل كل بما أوتي من جهد لجمع التبرعات . ولم يكن لي دور لا في اللجنة (وقد ضممت إلى أعضائها فيما بعد) ولا في جمع التبرعات . فأنا مجال اتصالاتي محدود ، ومعرفتي

بالناس قليلة بعد . لكن لما ذهبت إلى بغداد استأذنت اللجنة في أن أسعى هناك في سبيل الخير هذا . وقد وفقت بسبب صلة عبد الرحمن البزاز بأهل الحل والعقد في العراق ، في الحديث الطويل مع خليل كنه ، وكان وزيراً للتربية . وتولى أثناء وجودي القصير ببغداد وزارة المالية وكالة . لذلك فقد اقترح خليل وزير التربية على خليل وزير المالية بالوكالة ، أن يضع باباً ثابتاً في موازنة الدولة هو : ثلاثة آلاف دينار لمساعدة صندوق الطلبة الفلسطينيين بالجامعة الأميركية ، تدفع سنوياً . ويتم الدفع بواسطة نقولا زيادة .

وبعد أن عدت إلى بيروت بمدة قصيرة وصل الصك بالقيمة المذكورة فحولته لحساب الصندوق . وفي ربيع السنة التالية (1957م) كنت أستاذاً زائراً في جامعة هارفارد فوصلتني رسالة من وزارة المالية العراقية تستطلع رأيي في كيفية إيصال المبلغ (ثلاثة آلاف دينار) إلى الصندوق . أذكر أنني طلبت منهم يومها أن يرسل المبلغ باسم الدكتور قسطنطين زريق . وهذا ما حدث .

وجاءت سنة 1958 ، وقام عبد الكريم قاسم بالثورة ليصحح أوضاع العراق ، وليزيل الاعوجاج . وكان فيما أزيل من الاعوجاج الثلاثة آلاف دينار لصندوق الطلبة الفلسطينيين في الجامعة الأميركية في بيروت ؛ وأحسب أن ما وُعِدَ به الزعماء الجزائريون الثلاثة أزيل مع ما أزيل من الاعوجاج . قد أكون أنا محافظاً ، وقد أكون متأخراً ، وقد أكون كل شيء ؛ فليقل الناس عني ما شاءوا . فأنا أقول ليت الاعوجاج الذي كان العراق يشكو منه - على زعمهم - ظل ولم يزل بالأساليب التي عرفها القطر الشقيق سنة 1958 وما بعدها!

من بغداد إلى الكويت بالطائرة

انتقلت من بغداد إلى الكويت . كان ذلك بالطائرة . فلما حطت الطائرة لم تحط في مدرج واسع كبير كتلك المدارج التي يجدها المسافر هذه الأيام في كل من مطارات دول الخليج . كانت قطعة من الأرض قد مد عليها شبك من حديد ، يمكن للطائرة أن تستقر عليه . وبهذه المناسبة فقد هبطت الطائرة بي في مطارين من هذا

النوع فيما بعد - جربة (1961) وشيراز (1962) .

كان درويش المقدادي ، بقامته الفارعة ، يتقدم مجموعة من المستقبلين من تلامذتي وأصدقائي تلامذتي في الكلية الرشيدية والكلية العربية (في القدس) وفي الجامعة الأميركية في بيروت . لقيتهم بكل ما نفسي من الحبور ، ولقوني بكل ما في نفوسهم من طيبة وسرور . وفيما نحن سائرون اقترب مني محمود السمرة وقال لي نتعشى (أو نتغدى) غداً معاً . فاستجبت لدعوته . ولكن لما وصلنا نزل ضيوف حكومة الكويت وبدأنا نتحدث عن الدعوات ، قلت لهم أنا مقيم هنا خمسة أيام . اقتسموا وقتي كما تريدون ، على أن لا تشقفوني . وقد تمّ الاتفاق فيما بينهم على إقامة حفلة شاي تضم الجميع . وقد عثرت في أوراقي على بطاقة الدعوة .

أصدقاء وتلامذة
الدكتور نقولا زيادة

يتشرفون بدعوتكم إلى تناول الشاي معه في قاعة المدرسة الثانوية بالشويخ في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الأربعاء 22 / 2 1956م .

وكان عدد الذين اشتركوا في الدعوة إلى حفلة الشاي ستة وثلاثين . أما الذين حضروا فقد كان عددهم يفوق المئة . وقد حضر تلك الحفلة الشيخ عبد الله الجابر الصباح ، وكان يومها رئيساً للمعارف . وأذكر أنني ألقيت كلمة مناسبة تناسب المقام .

وهذه لائحة بأسماء المسهمين بالحفلة .

الترتيب الأبجدي للداعين إلى حفلة الشاي المقامة للدكتور نقولا زيادة بثانوية الشويخ الأربعاء 23/ 2 / 1956م .

الدكتور أكرم الدجاني ، أحمد أبو حاكمه ، الياس فرح ، أكرم الدقاق ، أحمد الصادق ، أديب ناصر الدين ، جميل الصالح ، حسن الدباغ ، خير الدين أبو الجبين ، الدكتور سليمان أبو ستة ، سعيد بريك ، حسين نجم ، سميح دروزه ، سمير العارف ، صبحي الخوري ، عصام الخماش ، عبدالله زيد ، عثمان صالح ، علي أبو ستة ، عبد المنعم الترتير ، عبد القادر محمد ، عبد المحسن قطان ، الدكتور فضل أبو لبن ، مصباح

الزحلان، محمد حمودة، محمد بشير، مفيد ملحس، معاوية القاضي، الدكتور محمود البزاري، محمود السمرة، نايف خرما، محمود سعد الدين، وصفي الخازن، يوسف البرغوثي.

تحدثت عن الرحلة الأولى بشيء من التفصيل لأن أموراً حدثت أثناءها اقتضت ذلك. ولكنني لن أشغل القارئ بأمور هي إلى الترهات، في رأيه، أقرب. وقد يكون هذا صحيحاً. فهناك أمور هامة نضرب صفحاً عن ذكرها مرات، ثم نتوقف عند حفلة شاي؟ وإذن فلأعد إلى هذه الأيام الأولى التي قضيتها في الكويت. نزلت في دار الضيافة الحكومية. كنت أخرج في الصباح المبكر أستمتع بالمشي على الشاطئ. وفي يوم وقفت فجأة وتصورت الأبنية الواقفة أمامي - ولم تكن يومها لا كثيرة ولا كبيرة على نحو ما آلت إليه الأمور فيما بعد - وقد خلت من ساكنيها وأصبحت قاعاً صفصفاً. وذكرتني الصورة التي استحضرتها من ضمير الزمان بتدمر ذات الأعمدة الضخمة التي تشهد بما كان، ولكنها لا تشهد على ما هو كائن. وعرفت من أين جاءت هذه الصورة للكويت: ماذا يحدث عندما يجف النفط في الكويت؟ وفي سنة 1956 كان النفط بعد في أول تدفق، وكانت الهيئات واللجان المختلفة تخطط وتعيد النظر في المخططات. ولم يكن ثمة حاجة لمثل هذه النظرة السوداء. لكن السؤال الذي يُسأل دوماً. وماذا بعد النفط؟ ولم أسمح لنفسي بتصور الجواب؛ إما خوفاً من المستقبل أو تجنباً للخطأ أو الزلل.

تأسيس مجلة العربي

كان أحمد السقاف المدير المساعد لدائرة الأنباء الكويتية، كما كانت إدارات الإعلام تسمى في تلك الأيام. جاء إلى بيروت في زيارة، وطلب مني أن أرتب له موعداً مع فؤاد صروف، نائب رئيس الجامعة الأميركية يومها. وقال لي: «إننا ننوي أن ننشئ مجلة شهرية في الكويت، وقد جئت لأطلب منه أن يتولى العمل - منشئاً لها ورئيساً لتحريرها». قلت له إن فؤاد صروف سيعتذر بسنه وصعوبة الانتقال مرة ثانية، بعد أن كان قد نقل بيته من القاهرة إلى بيروت.

على أنني رتبت له الموعد حالاً ، ورافقته إلى مكتب صروف ثم انسحبت على أن يعود هو إلي . ولما عاد بعد نحو نصف ساعة قال إن الرجل اعتذر ، وكانت أعذاره تلك التي ذكرتها . وسرت مع أحمد السقاف في حرم الجامعة إذ كان يريد الذهاب إلى المدرسة الثانوية (الاستعدادية) . ولما وصلنا أمام مبنى جسب وقف وسألني فيما إذا كنت أقبل أنا القيام بهذا العمل . لأن اسمي كان الثاني بعد صروف . فأجبته إنني لم أقم بعمل صحافي في حياتي ، لذلك فإنه يصعب عليّ إنشاء مجلة . وأضفت لو أن المجلة قائمة ، وأنتم تبحثون عن رئيس تحرير ، فلعلي كنت أقبل على أن أقضي ستة شهور متعلماً . أمّا البدء بمشروع مثل هذا فهو فوق طاقتي .

فسألني عندها ومن تقترح؟ قلت الدكتور أحمد زكي والذي أذكره هو أن أحمد السقاف لم يكن يعرف الكفاية عن هذا الرجل . فذكرت له مكانته العلمية والأدبية ، وأضفت أنه عمل رئيساً لتحرير المصور مدة طويلة . فهو يتمتع بخبرة الصحافي . أضفت : إن كنت يا أخي مفوضاً مطلقاً طر اليوم إلى القاهرة وفاتحه في الأمر ، أما إذا لم تكن مفوضاً مطلقاً طر الليلة إلى الكويت واحصل على موافقة المسؤولين ، واذهب غداً إلى القاهرة .

بعد نحو شهرين كان أحمد زكي في الكويت يعد العدة لإصدار «العربي»- وقد احتاج هذا الإعداد إلى سنة وبعض السنة . ثم صدرت العربي وكانت المجلة التي يعرفها القراء . وكان من الذين عملوا فيها من أصدقائي محمود السمرة ويوسف زعبلاوي . وكان أحمد زكي يقرأ كل ما ينشر في العربي . ولما ضعف بصره كانت المادة تقرأ له .

رحلة إلى البحرين

كانت زيارتي الأولى للبحرين في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1959 . وقد قابلني في المطار الشاعر البحريني إبراهيم العريض وألك غوردون والياس نجيب خوري .

ونحن في المطار رتبت لي زيارات ثلاث لبعيد الظهر وللمساء ، فأنا مغادر قطر في الغد . فغوردون قال إنه ينتظرني على الشاي . وغوردون كان مديراً للمعارف في برقة

لما عينت أنا مساعداً للمدير سنة 1949 . وظلت بيننا صلة ود . وكان قد ترك ليبيا وقبل عملاً مع شركة نفط البحرين . وقد زرته ، وتناولت الشاي معه ، ودرت برفقته في أنحاء مركز الشركة .

أما إبراهيم العريض فتعود صلتي به إلى سنة 1954 . في تلك السنة كنت مديراً لبرنامج الدراسات العربية بالنيابة (1954-1955) ، بسبب تغيب المدير نبيه أمين فارس في سباعيته . وكان علي أن أعد برنامج مؤتمر الدراسات العربية . فاخترت ، بالاتفاق مع زملائي طبعاً ، جبرائيل جبور (النقد الأدبي) وإبراهيم العريض (عالم الشعر الحديث) ومحمود تيمور (القصة) وميخائيل نعيمة (رسالة الأدب) .

فلما وصل إبراهيم العريض اهتممنا به ، وجمعت له ، في بيتي ، عدداً من الشعراء تسامر معهم وتحدثوا إليه . وامتدت الصلة فكان إذا جاء بيروت حسب حساب لقائنا . فلما لقيني في المطار قال لي إنه رتب لقاء مع فريق من أهل القلم في البحرين في نادٍ لهم . وكم سعدت بالفكرة وزادت سعادتي باللقاء . صرفنا ساعتين في نقاش هادئ حول القومية العربية والمستقبل المرجو للعرب ، فضلاً عن حديث دار حول الأدب والشعر والصحافة .

ولما أذن المجلس بالانفضاض جاء إلياس خوري ليصحبني إلى منزل حامد القصيبي لقضاء سهرة رأس السنة . وهكذا كانت نهاية العام وبداية العام مدعاة للسرور .

زيارات أخرى للبحرين

وقد زرت البحرين بعد ذلك عدداً من المرات . وكانت جميعها ، باستثناء زيارة واحدة ، لإلقاء محاضرات إما بدعوة من نادي المتخرجين الذي كان دناميكه الشيخ عبد العزيز آل خليفة ، الذي صار مديراً للمعارف (بعد عمران) ثم كان وزيراً بعد الاستقلال ؛ أو بدعوة من الجمعية البحرينية للآثار والتاريخ (إذ دعيت لأكون ضيف الشرف في لقائها السنوي الثاني في شهر نيسان/ أبريل 1972 ، وقد كان العشاء وإلقاء المحاضرة في 25 من ذلك الشهر) ؛ أو بدعوة من شركة نفط البحرين . وأذكر أنني كنت مرة في زيارة خاصة مع ابني رائد ، فألقى نادي المتخرجين القبض علي ،

فتحدثت إلى فئة من الأعضاء عن تاريخنا - ماله وما عنده وما عليه .

كنت أشعر دوماً بشيء كثير من الراحة النفسية أثناء زيارتي للبحرين . كان الأمير عيسى يستقبلني بكثير من الود والأنس . وقد اهتم بابتي رائد لما صحبني في إحدى زياراتي لها . وكان الشيخ عبد العزيز آل خليفة يلقاني بصدر مفتوح وقلب كبير . وكنت أنس إلى حديث إبراهيم العريض ، ثم جاء دور ابنه جليل ، الذي كنت أعرفه أثناء طلبه العلم في الجامعة الأميركية ، وكنت كل مرة أدخل نادي المتخرجين في المنامة ، أشعر كأن هبة من روح الأنس قد أظلتني . وكان مما يشعرني بشيء كثير من الراحة وجود محمد مصطفى الخالدي في البلاد .

هذا الشاب النبيل تعود معرفتي به إلى أيام كنا نطلب العلم في إنكلترا قبل الحرب العالمية الثانية . ولما عدنا إلى القدس كنا نجتمع كثيراً في القدس ، كما كنا نذهب مرتين في الشهر إلى يافا لحضور اجتماعات النادي العربي .

النادي العربي في يافا كان نشيطاً ثقافياً وسياسياً ، ولو أنه كان نخبوياً بعض الشيء . لم يكن يعنى بالمحاضرات العامة شأن النادي الأرثوذكسي أو جمعية الشبان المسلمين . كانت جلساته الثقافية صغيرة العدد نسبياً ، وكان المألوف أن يطرح موضوع ما على أنه أساس للمناقشة لا كونه محاضرة . كان أحمد عبد الرحيم وأخوه أكرم وبرهان الدجاني ومحمود الحوت ويوسف زعبلاوي قوة النادي الدافعة . وقد ارتأينا ، فئة منا كانت تقيم في القدس ، أن لا ننشئ لنا نادياً هناك ، بل أن ننضم إلى نادي يافا . ومن هنا كانت هذه الزيارات . ولست أذكر ، بعد هذه السنوات الطويلة ، بل العقود العديدة من السنين ، جميع الأعضاء المقادسة ، ولكن عبد الحميد ياسين ومحمد الخالدي وأنا كنا من الملازمين على هذا الأمر . فوجود محمد الخالدي في البحرين كان فيه إحياء لتلك الأيام عندما نجتمع ، ولما زرت البحرين مع زوجتي كان هو وزوجته ممن اهتم بنا وأكرمنا في منزله .

الآثار والتاريخ

أنا ، على ما قد يذكر القراء لكثرة ما كررت هذا الأمر وأعدته ، أعتبر الآثار مصدراً

مهماً من مصادر التاريخ ، لا من حيث درسه فحسب ، بل من حيث فهمه فهماً صحيحاً . لذلك فأنا حريص على زيارة الآثار وأماكن التنقيب عن الآثار . ففي الكويت ذهبت إلى جزيرة فيلكه . لكن التنقيب كان هناك في أوله لما زرتها . أما في البحرين فقد كانت البعثة الدانماركية قد وسعت مجال أعمالها وعمقت دراستها . هذه البعثة بدأت العمل سنة 1953 . ولم أزر أماكن التنقيب في زيارتي الأولى (1959م) بل تم لي ذلك سنة 1965م ، وما بعدها . كانت البعثة قد حفرت في بربر وفي قلعة البحرين ، وكانت قد اطمأنت ، ولو مبدئياً ، إلى أن البحرين الحالية ، واسمها عند جغرافيي العرب جزيرة أوال (لأن البحرين عندهم كان يقصد بها منطقة الإحساء البرية اليوم) هي دلمون ، وأن هذه الدولة - المملكة - الإمارة كانت بين سنتي 2000 و 1500ق .م . مركز الاتصال الرئيسي بين المدن السومرية الشمالية من جهة ، وماغان (عمان) وحوض السند الممثل بمدينتيه الرئيسيتين موهنجودارو وهرّبه (أو هربه) من جهة ثانية . ومن ثم فقد كان في المتحف المحلي أشياء تُشَاهَد ، وبقايا يُطَّلع عليها . وتقارير عن الحفر متيسرة لمن أراد . ومع أنني لم أقرأ يومها أيّاً من التقارير ، فقد قرأت الكتاب الذي وضعه جيوفري بيبي ، رئيس البعثة الدانماركية بعنوان «البحث عن دلمون» (لندن 1970م) . وقد زرت هذه الأماكن مرتين فيما بعد لأتأكد من أنني تعرفت إلى المكان والحضارة المنسية في دلمون .

وفي وقت لاحق دونت الملاحظات التالية حول هذا الموضوع . وها أنا أنقلها هنا ، ولو أنني أشعر أنني أكرر نفسي بعض الشيء .

دلمون جلجامش

تاريخ البحرين ، مثل تاريخ الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية ، مرتبط بتاريخ الخليج العربي . فالتجارة والتجار الذين كانوا ينقلون السلع بين الشمال والجنوب ، وبالعكس ، كانوا يجدون في البحرين المركز المناسب للراحة والتبادل التجاري . والفاتحون الأقدمون - على الأقل من الأشوريين إلى الفرس القدامى فالاسكندر فخلفائه - كان يهمهم الاستيلاء على البحرين (منطقة قديمة أو جزر) كما كانوا

يعنون بالاستيلاء على أي ميناء على سواحل الخليج العربي . بل لعلّ اهتمامهم بالبحرين كان أكبر ذلك لتوسط الجزر الطريق أولاً . ولأن البحرين كان فيها ماء عذب يمكن أن يفيد منه البحارة والمسافرون .

على أن هناك أمرين آخرين هامين يتعلّقان بالبحرين القديمة وهما : أن البحرين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأسطورة جلجامش ؛ وكثرة القبور التي عثر عليها في جزيرة البحرين ، والتي تعود إلى الأزمنة القديمة .

أما فيما يتعلق بالأسطورة ، فإن بطلها جلجامش ، بقطع النظر عن هويته التاريخية ، يمثل الرغبة في الخلود والسعي له . وينصح له أن يذهب إلى الفردوس ليحصل على زهرة الخلود . وتنمو الأسطورة مع الزمن فتصبح فيها إشارة ، ولو بعيدة ، للخليقة ، وإشارة أقرب إلى الطوفان ورحلة إلى المكان المقصود . ونحن إذا تذكرنا أن القصة سومرية الأصل ، وأن المكان الذي ذهب إليه البطل هو الخليج العربي ، فالبحرين تصبح المكان المقصود ، إذ فيها توجد المياه العذبة في قاع البحر ، تحت الماء المالح . ويرد في الأسطورة اسم دلمون .

أما القبور الكثيرة الموجودة في البحرين فلم يكشف عنها النقاب إلا قبيل مدة يسيرة . فقد كان الناس يرون هذه القباب الكثيرة في جزيرة البحرين ، في وسطها وشمالها الغربي . ويتمركز أكثرها حول قرية عالي . ومع أن بعض التنقيب السطحي قد تم هناك ، ومع أنه عثر على بعض القبور . فلم يعرف العالم أن المكان كان فيه آلاف من هذه القبور إلا لما أخذ الرفش والمعول طريقه الجدي إلى هذه المقابر . وقد بلغ من كثرتها أن ظن بعض الباحثين أولاً أن الجزيرة كانت مقبرة فقط لسكان المناطق الساحلية المجاورة : وأن السكان كانوا ينقلون موتاهم لدفنهم هناك لأن أرض الجزيرة -أوال- هي أرض مقدّسة ، بحكم تكريس الإله- الصنم أوال فيها .

وإذا كان لا يزال من يقبل مثل هذا الرأي من الباحثين ، فيجب أن يعدله (أو يعدل عنه) بحيث يكون السكان الذين كانوا يفدون على المنطقة والجزر ويقيمون في المكانين يدفنون موتاهم في تلك الجزيرة .

والثابت تاريخياً هو أن هذه المقابر تعود إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، وهي الفترة التي كانت فيها التجارة عبر الخليج آخذة في الازدياد ، بسبب حاجة المدن

السومرية إلى المواد الخام : المعدنية والخشبية بشكل خاص ، لتنمية صناعتها . وهنا يرد عند المؤرخين اسمان هامان . بالنسبة إلى الألف الثالث والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وهما : ماغان ودلمون ولسنا هنا في معرض سرد الآراء المختلفة حول الاسمين ، ولا في سبيل مناقشة هذه الآراء . فهذان أمران ليس هنا موضعهما . ولكن الذي نريد أن نضعه بين أيدي القراء ، وهو ترجيح لا قطع فيه هو أن ماغان هي عمان ومنها كان يحمل النحاس إلى السومريين عن طريق مراكز مختلفة منها ، إن لم يكن أهمها ، البحرين . وكانت بعض الأخشاب تحمل من ماغان (عمان) أيضاً ، لكن الكثير من الأخشاب كان يحمل من الهند (حوض السند) أيضاً .

ويبقى عندنا دلمون . وهذا الاسم مثل مغان (عمان) تدور حوله آراء كثيرة . لعلّ المرء يمكن أن يلخصها بقوله إن دلمون لم تكن تعني بقعة معينة صغيرة ، بل كانت تعني ، في قيود أهل المدن السومرية ، منطقة واسعة إلى الجنوب من بلادهم . وإن مركز هذه المنطقة كانت مدينة في البحرين اسمها دلمون أيضاً . وليس مثل هذه التسميات غريبة على الإنسان - أي أن تكون اسم العاصمة والدولة (أو المنطقة شيئاً واحداً) بل ولقب الملك أيضاً . (عندنا عن الأولى الجزائر - المدينة - والجزائر القطر . وعن الثانية غانة القديمة في السودان الغربي . فغانة كان أصلاً اسما للملك ، ثم أطلقت الكلمة على الدولة وثم على عاصمة الدولة . فكانت غانة ثلاثة في واحد) .

تجارة الخليج العربي

نعرف أن تجارة الخليج العربي تراجع نشاطها بين 1600 و 700 ق .م . وأنها عادت إلى النشاط والحركة أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس القدامى والسلوقيين . ونعرف أن الاسكندر حاول التعرف على أجزاء الخليج العربي وسواحله - الفارسي منها مع بعثة نيارخوس والعربي منها في بعثاته الثلاث التالية- وأن واحدة من هذه البعثات وصلت البحرين ولما عادت رفعت إلى الاسكندر تقريراً عن مهمتها . لكن مما يُؤسَف له أن أحداً من الكتاب التالين لم ينقل شيئاً عن هذه التقارير عن السواحل العربية للخليج . فضاعت وضاعت أخبارها معها .

والمهم هو أنه بين 300 ق.م وأيام السيد المسيح كانت ثمة فرضة ومدينة اسمها الجرها ارتبطت تجارتها بتجارة البحرين. والجرها مكانها لم يتفق عليه تماماً، وإن كان ثمة شبه قبول مؤقت للنظرية القائلة بأن الجرهاء هي العقير الحالية، في شرق المملكة العربية السعودية. ولعل معنى هذا أن تجارة الخليج العربي - أو أكثرها على الأقل - كانت تنتقل من البحرين (أو عن طريقها) إلى الجرهاء، ومن هناك تنقل إلى دومة الجندل (الجوف) فديار الأنباط -البتراء، لتوزع منها على مصر وجنوب فلسطين. وقد يعود اتباع هذا الطريق، بدل طريق العراق - الشام الطبيعي، إلى حالة حرب كانت تقوم بين السلوقيين (أو خلفائهم) في العراق وبين الجماعات الفرثية التي كانت تناصبهم العداء.

وفي البحرين، في بعض زياراتي تعرفت إلى عبد الله كانو مدير الإذاعة ومساعده محمد سلمان. وقد دعاني كانو للتحدث من الإذاعة ففعلت ذلك أكثر من مرة.

زيارة قطر

في اليوم الأول من عام 1960، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر هبطت الطائرة التي حملتني من البحرين في مطار الدوحة، في قطر. كان جون لاتورل، مدير العلاقات العامة في شركة نفط قطر ونزيه زيدان ينتظرانني. كنت قد تعرفت إلى جون في بيروت قبل نحو شهر من هذه الزيارة. وكان صلة التعارف فرانك ستوكس، مدير العلاقات العامة لشركة نفط العراق في بيروت. في ذلك الاجتماع سألني جون فيما إذا كنت مستعداً للمساهمة في الموسم الثقافي؛ ولما أظهرت القبول سألني فيما إذا كان باستطاعتي أن أتحدث عن ناحية من نواحي النفط. ولما كانت إجابتي نفياً، شعر كأنه أسقط في يده. لكنني فاجأته بقولي: ومن قال إن الرجال الذين يعملون في النفط أربعاً وعشرين ساعة، وزوجاتهم اللواتي يسمعن الحديث عن النفط سبعة أيام في الأسبوع، يحبون أن يسمعوا محاضرة عن النفط. أنا مستعد لإعطائهم محاضرة عن «شمال إفريقيا اليوم». وكان لا بدّ أن يحصل جون على موافقة أولي الأمر في الدوحة، فهذا خروج تام عن البرنامج المرسوم. وكان أن أعجب أولو الأمر

بالاقتراح لذلك وصلت إلى الدوحة وأنا أحمل في رأسي حديثاً عن شمال إفريقيا اليوم (أي يومها) .

أما نزيه زيدان فهو من خريجي الجامعة الأميركية ؛ كان قد حصل على الشهادة قبل سنتين . وكان يومها يعمل مع آل الدرويش من كبار تجار المنطقة .

بعد أن أخذني جون إلى دار الضيافة وتأكد من أن كل شيء على ما يجب ، تركني في عهدة نزيه ، الذي أخذني ليلتها إلى المطعم الوحيد الشرقي في الدوحة . كان بيننا حديث طويل . فنزيه كان من صحبي الذين أعزهم . وكان الأمر الذي يشغله هو موضوع لرسالة الماجستير (في الإدارة العامة) . كان مدرسوه قد اقترحوا عليه موضوعات كلاسيكية ، شأن عدد كبير من أساتذة الجامعات ، لكنه لم يتحمس لأي منها . كان نزيه قد حدثني عن أعمال آل الدرويش في المنطقة . فاقترحت عليه أن يدرس أساليب آل الدرويش في إدارة أعمالهم الواسعة . تحدثنا عن الموضوع طويلاً . وقد عاد نزيه إلى الجامعة ، ووضع رسالة جيدة عن آل الدرويش وأعمالهم التجارية وأساليبهم الإدارية (وكان ذلك بعد أن تردد مدرسوه في القسم في قبول الموضوع) .

في اليوم التالي والذي عقبه نقلت إلى أنحاء من قطر لزيارة القصور الأميرية (بعد زيارة الأمير بالوكالة) والبساتين الداخلية والآثار في دخان وزبارة وأم باب . وكان كل ما قد تم يومها هو «خدوش» في التنقيب ، ولم تكن البعثة الدانماركية قد حطت رحالها في قطر . لكنني في الزيارات التالية نعمت بالاطلاع على آثار اتضح من دراستها أن حضارة البحرين وقطر فرعان لأصل واحد .

مصطفى مراد الدباغ

كان مصطفى مراد الدباغ المفتش في إدارة معارف فلسطين سابقاً ووكيل وزارة التربية والتعليم في المملكة الأردنية الهاشمية بعدها ، قد تولى منصب مدير للمعارف في قطر . وأنا تربطني بالرجل زمالة وصداقة (كما تربطني الصداقة حالياً بابنه صلاح الدين) ، فكان من الطبيعي أن أزوره . وزيارة مؤلف كتاب «بلادنا فلسطين» فيها دوماً متعة وفائدة . وفي الساعتين اللتين قضيتهما في مكتبه حصلت على معلومات عن

قطر ما كان لي أن أزود بمثلها على يد شخص آخر .

وكان في قطر ، وخاصة في زياراتي التالية ، أحمد عناني من طلاب الكلية العربية (القدس) الذي كان قد نال ، بجده واجتهاده واهتمامه بتاريخ قطر ، حظوة في القصر . وكم تحدثنا معاً حول عمل مشترك يتعلق بتاريخ البلاد ، لكن شيئاً من ذلك لم يتبلور .

في اليوم التالي لزيارتي حملت بالسيارة إلى أم سعيد . الدوحة كانت - ولا تزال- عاصمة قطر ، لكن أم سعيد كانت يومها ، وأحسب أنها لم تزل ، العاصمة التجارية . منها كان النفط ينقل في حاملاته ، وفيها كانت تقوم صناعات متنوعة . لكن الدوحة ، التي عرفتها فيما بعد (1977) كانت شيئاً يختلف تماماً عما كانت عليه سنة 1960 .

ألقيت المحاضرة في أم سعيد - في نادي شركة النفط القطرية- وكان موظفو الشركة قد حملوا بالطائرات الصغيرة من دوخان ومن الدوحة إلى النادي . وكان ثمة عشاء قبل المحاضرة . ونجحت المحاضرة- ومحاضراتي تنجح عادة لأنني أعدها وأرتبها وأنظمها . وأنا في الغالب أرتجل هذه المحاضرات ، وقد مرنت نفسي على ذلك من قبل .

رحلة خليجية 1969

في سنة 1969م دعيت مع زوجتي مرغريت لزيارة الكويت والبحرين وقطر وأبوظبي . جاءت الدعوة من شركات النفط . وقد أكرمنا كثيراً . وألقيت يومها خمس محاضرات لأن الموظفين والعمال في دوخان- وهم يعدون بالعشرات- أرادوا أن تكون لهم حصة خاصة بهم . ولست أنسى لما صعدنا إلى الطائرة الصغيرة لتنقلنا من الدوحة إلى دوخان ، فأمسكت مرغريت بيدي وقالت ألا يمكن أن نذهب بالسيارة؟ فهل هذه الطائرة أمان؟ وكنا ركاباً أربعة ، وهي تتسع لعشرة فقط . وفي هذه المرة انتقل من يريد من أم سعيد إلى الدوحة لسماع المحاضرة فقد آن للعاصمة أن تثبت مكانتها . لكن النادي الفخم ظل في أم سعيد .

وغبت عن قطر إلى سنة 1977 ، حيث أسهمت في مؤتمر تاريخ عن شرق الجزيرة العربية . وقد قدمت بحثاً عن شرقي الجزيرة العربية في مؤلفات جغرافيي العرب من أهل القرن الرابع/ العاشر . يومها اجتمعت بزملاء وأصدقاء بعد انقطاعنا عن بعضنا البعض سنوات . هذه المؤتمرات تحمل من يحضرها على قدح زناد فكره لكتابة موضوع يليق به وبزملائه ، كما أنها تعيد إلى الأصدقاء المتباعدين مكاناً الصلة التي ينعمون بها الأسبوع أو ما يقرب من ذلك .

إمارة أبو ظبي

لما زرت أبوظبي لأول مرة كانت بعد إمارة منفردة ، ولم تكن حتى المحادثات حول إنشاء دولة الإمارات العربية المتحدة قد بدأت ، ولو أن الآمال كانت قد أخذت تتحرك داخل النفوس ، وتثير الرغبات حول احتمال الاتحاد . وقد تحدثت إلى فئة من مثقفي البلد يومها ، وكان السيد مرسي هو دليلي . وزرت أبوظبي ثانية وكان معي ابني رائد . وكانت أحاديث الاتحاد بين المحميات السبع قد بدأت . ولما زرت أبوظبي للمرة الثالثة مع زوجتي 1969م كان قد أصبحت دولة الإمارات العربية المتحدة حقيقة .

لما زرت أبوظبي مع ابني سنة 1968م زرنا العين ، حيث تقوم جامعة دولة الإمارات اليوم . وكانت قد أخذت تتجه نحو صيرورتها مدينة . ذلك أن الشيخ زايد كان يحب العين ويعنى بها .

كانت مشكلة واحة البريمي يومها موضع تبادل ادعاءات حول ملكيتها بين المملكة العربية السعودية وإمارة أبوظبي . وكان الدخول إلى البريمي ممنوعاً ، للحيلولة دون حدوث مشاكل . ولكن السائق الذي نقلنا إلى العين كان خبيراً بالأمور . فبعد أن تناولنا طعام الغداء قادنا ، عبر مدخل سري ، من العين إلى الواحة فزرناها . وأذكر أننا لما دخلناها ملأت أنوفنا رائحة السمك شبه العفنة ؛ إلا أننا عرفنا يومها أن هذه هي رائحة السمك المجفف بالشمس . وهذا السمك المجفف يستعمل الكبير منه غذاء -عند الحاجة- أما الصغير فهو طعام أساسي للماشية على اختلاف أنواعها . ولما عدنا إلى بيروت أخرجت رحلة ابن بطوطة وقرأت لابني الوصف الذي خلفه هذا الرحالة

لتجفيف السمك واستعماله على ما خبره في تلك المنطقة .

عدنا في المساء إلى أبوظبي لنتناول طعام العشاء عند أحمد صوان ، أحد المسؤولين في الإذاعة هناك . لكن المهم هو أن أحمد هو ابن عبد القادر صوان الذي كان زميلاً لي في الصف نفسه في دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد) بالقدس 1921 – 1924 . فالدعوة كانت لهذه المناسبة ، لا لمناسبة إذاعية . ومع ذلك فقد رتبنا شيئاً للإذاعة في المستقبل . ولكنني لم أكد أعود إلى بيروت حتى عرفت أن إذاعة أبوظبي استغنت عن خدماته .

مؤتمر شرق الجزيرة

لما انعقد مؤتمر شرق الجزيرة العربية في الدوحة (1977م) كان مما فوجئنا به ، بعد وصولنا ، أن أمير رأس الخيمة (وكانت دولة الإمارات قد أنشئت 1969م) دعا أعضاء المؤتمر لزيارة إمارته . وقد أرسل فعلاً طائرة حملتنا في الصباح إلى رأس الخيمة ، وبعد زيارة للمنطقة الصغيرة ، وتفقد لآثارها وما نقب عنه منها ، وغداء كريم ، واستقبال بالنيابة عن الشيخ ، عدنا إلى الدوحة في المساء .

صفحات قديمة

عثرت ، قبل أيام ، على أوراق كنت قد حررتها بعيد زيارتي لأبوظبي سنة 1968 ، وفيها انطباعات عن إمارات ثلاث (كانت الكويت وحدها قد استقلت سنة 1961م) أما البحرين وأبوظبي فلم تكونا بعد قد اتجهتا نحو ذلك اتجاها جدياً . إذ إن عمل المشيخات المتصالحة وقطر والبحرين جاء نتيجة لإعلان بريطانيا (1968م) أنها ستنسحب نهائياً من الخليج في زمن لا يتجاوز سنة 1971م .

هذه هي الصفحات التي دونتها سنة 1968 :

في ربيع سنة 1968م زرت مع ابني رائد بعض إمارات الخليج العربي . وقد اقتصرت الزيارة على الكويت والبحرين وأبوظبي . قضينا في الكويت ثلاثة أيام ، وفي

البحرين نحو خمسة أيام وفي أبوظبي ثلاثة أيام أيضاً . فما الذي يمكن أن يقوله الواحد منا عن هذه الزيارة . أريد قبل كل شيء أن أقول بأن هذه ليست الزيارة الأولى بالنسبة إلي ، ولكنها الزيارة الأولى لابني . أما أنا فقد زرت الكويت قبل ذلك خمس مرات والبحرين ثلاث مرات وأبوظبي مرة واحدة . لذلك فالانطباعات التي عندي هي انطباعات متراكمة . وليست انطباعات زيارة واحدة فقط .

أريد أن أقول إنه من الضروري أن نذكر الفرق بين الواردات التي تأتي من النفط بالنسبة لهذه المشيخات الثلاث . فالكويت يأتيها في السنة ما يزيد على خمس مئة مليون دولار ، وأبوظبي تنال نحو ثمانين مليون جنيه إسترليني ، أما البحرين فكل ما تحصل عليه من النفط لا يتجاوز عشرة ملايين جنيه إسترليني . فهي من هذه الناحية أفقر جميع إمارات النفط في الخليج كله .

من جهة أخرى هناك فرق في الوقت الذي بدأت فيه كل من هذه الإمارات الثلاث العمل في سبيل التعليم والبناء والإنشاء . فأقدمها البحرين . وقد احتفلت البحرين مؤخراً بمرور خمسين سنة على افتتاح أول مدرسة للحكومة في تلك البلاد . وفي هذه السنة احتفلت البحرين أيضاً بمرور خمسين سنة على إنشاء أول بلدية للمنامة ، عاصمة البحرين .

أما الكويت فقد بدأ العمل فيها بعد الحرب العالمية الثانية . ومعنى هذا أنه مر عليها نحو عشرين أو خمس وعشرين سنة وهي تعمل في سبيل التعليم والمجتمع والصحة وما شابه ذلك .

شارعان طويلان ومطار

لكن أبوظبي حديثه العهد جداً . فعمر أكثر الإنشاءات فيها نحو سنتين ونصف السنة فقط ، لأن النفط لم يظهر فيها إلا قبل نحو ثلاثة أعوام ، من هنا يجب أن يفرق الواحد بين الانطباعات . فأبوظبي عندما ينظر إليها الواحد من الطائرة مثلاً ، يرى شارعين طويلين يصلان بين المطار من جهة والمدينة من جهة ، وبين وسط المدينة والأجزاء الأخرى منها من جهة ثانية . أما عدا ذلك فكل ما يراه الواحد في المنطقة بعض الأبنية التي تمت ،

وهي المتاجر ومكاتب شركة النفط وشركات أخرى تجارية ونفطية . ويرى بالإضافة إلى ذلك عدداً كبيراً جداً من الآلات الرافعة التي تستعمل للبناء . فمعنى هذا أن البلد هو بعد في الدرجة الأولى . إنها لا تزال في بدء دور الإنشاء .

مغادرة الصحراء

في الكويت انتقلت المدينة من دور الإنشاء والبناء والتعليم والصحة والمستشفيات إلى دور بناء المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة لأصحاب الدخل المحدود .

وهناك مئات ومئات من هذه البيوت تبنى كل شهر ، لكن الحكومة تبني وعدد طلاب البيوت يزداد . والسبب الرئيسي في ذلك أن جماعات كبيرة من البدو الرحل الذين كانوا يعيشون في أطراف الكويت ، أو حتى في أجزاء من المملكة العربية السعودية ، وهي جارة الكويت ، ينتقلون بين الحين والآخر من مضاربهم (من خيامهم) إلى الكويت ليستقروا في المدينة . فالطلب على البيوت ، بيوت أصحاب الدخل المحدود إذن في ازدياد . والدخل المحدود في الكويت يقدر على النحو التالي : الشخص الذي يحصل على أقل من مئة وخمسين ديناراً كويتياً شهرياً يعتبر أنه من أصحاب الدخل المحدود أو القليل . والدينار الكويتي الآن يساوي على وجه التقريب ثلاثة دولارات . فمعنى هذا أن الشخص الذي يحصل على أقل من أربعمئة وخمسين دولاراً يعتبر من أصحاب الدخل المحدود .

في البحرين تنشأ البيوت أيضاً لأصحاب الدخل المحدود . وهناك مدينة كاملة اسمها مدينة عيسى (والذي اعتقده أنها سميت مدينة عيسى باسم جد الشيخ الحالي ، لا باسمه هو) . هي مدينة كاملة فيها سوق ومدرسة وثلاثة جوامع وطرق وكهرباء وماء . وقد سكن بعض أصحاب الدخل المحدود ما انتهى من بيوتها . ولا تزال عشرات منها تحت الإنشاء . لكن الدخل المحدود في البحرين هو مئة دينار بحريني والدينار البحريني يساوي دولارين فقط فمعنى هذا أن أصحاب الدخل المحدود في البحرين هم الذين يحصلون ، دون المئتي دولار في الشهر ، مقابل أربع مئة وخمسين دولاراً في الكويت .

أبوظبي فيها أيضاً بيوت لأصحاب الدخل المحدود . لكن هناك لم يعين الدخل تماماً . إن الذين يأتون ويمكن تأمين بيوت لسكنهم لهم أن يستوطنوا هذه البيوت بترتيب مع الحكومة . وفي جميع الحالات لا تعطى هذه البيوت مجاناً رأساً ، وإنما يدفع الذين يأخذونها للحكومة مبالغ شهرية ضئيلة بحيث تصبح البيوت ملكاً لهم على مدة خمس عشرة أو عشرين سنة . والمهم أيضاً أنه لا يجوز للكويتي أو البحريني أو ساكن أبوظبي الذي يحصل على بيت من هذه البيوت أن يؤجره أو يبيعه ، وخاصة لغير المواطنين ، أي لأجنبي . لأن البيوت مفروض فيها أنها لابناء البلاد لتحسين أحوالهم المعاشية .

في الكويت بطبيعة الحال ، بحكم الثروة الكبيرة والمدة الطويلة ، نجد أن هناك مستشفيات كثيرة للحكومة . وليست هذه مستشفيات عامة فحسب بل هناك مستشفيات تخصصية . فمستشفى للجراحة ومستشفى للعظام ومستشفى للأمراض العصبية ومستشفى للأمراض الصدرية وما شاء ذلك .

في البحرين عدد من المستشفيات أقل منه في الكويت . أولاً عدد السكان أقل ؛ ثانياً الثروة التي تأتي أقل . لكن لأنها أقدم فهي أكثر انتظاماً من مستشفيات الكويت .

في أبوظبي مستشفى واحد لا يزال في حالة بسيطة لكنه يستقبل المرضى . والتطبيب في كل هذه الأماكن بالمجان لجميع المواطنين ولجميع الموظفين سواء كانوا من أبناء البلاد أو من الخارج ، وحتى لأقربائهم الذين يكونون في زيارة لهم . ولذلك يمكن الواحد أن يقول إن هذه الإمارات فيها في الواقع ما يمكن أن يسمى بالدولة أو الحكومة التي تعنى برفاهية الشعب أو حياته أو ما يقرب من ذلك على الأقل .

لوحظ مؤخراً في البحرين أن الإدراة تحتاج إلى تنظيم . فالإدارة في البحرين قائمة الآن أو التي كانت موجودة إلى قبل بضعة شهور فقط وضع أساسها بلغراف لما كان مقيماً عاماً هناك . وقد بدأ في العمل سنة 1926م . وقد استمرت هذه الإدارة في التوسع والتعميق والتنويع . ولكن رؤي مؤخراً أنه إذا كان سيظل كل رئيس أو كل مدير لهذه الإدارات يتصل بالشيخ اتصالاً مباشراً فالأمور قد تتسع أكثر من اللازم . ولذلك في شهر كانون الثاني (يناير) من العام الحالي (1969) أنشئ في البحرين ما

يُسمّى مجلس الدولة . أعضاء هذا المجلس اثنا عشر شخصاً هم رؤساء الدوائر المختلفة في البحرين أي رؤساء المعارف والمالية والتنمية والصحية وما شابه ذلك . ولهذا المجلس سكرتير عام . ويرأس هذا المجلس الشيخ خليفة الذي هو أخو الشيخ عيسى حاكم البحرين . والمقصود من هذا كله إجراء شيء من التنظيم الإداري . وهذا المجلس هو مجلس تنفيذي وليس مجلساً تشريعياً . لحد الآن التشريع أو وضع القوانين يتم عن طريق الحاكم . لكن الحاكم لما افتتح هذا المجلس التنفيذي ، مجلس الدولة ، أعلن للشعب أنه يأمل أن ينتقل إلى الخطوة التالية ، فينشئ في البلاد مجلساً تشريعياً في فترة قريبة بحيث تصبح حتى القوانين التي تسن هناك يشارك فيها أبناء البحرين .

والبحرين الآن مهتمة بالتنمية الصناعية وغير الصناعية كاهتمام الكويت . أبوظبي لم تصل إلى هذه المرحلة بعد .

الكويت فيها صناعات كثيرة قطعت شوطاً في أعمالها . منها الصناعات البتروكيميائية .

في البحرين وجد أن الصناعات البتروكيميائية لا يمكن أن تطور بالأسلوب نفسيهما والطريقة كما هي في الكويت لأنها تكلف كثيراً . لكن الصناعة التي لها مستقبل كبير في البحرين هي صناعة الألومنيوم . فالآن يبنون في البحرين مصاهر للألومنيوم . الألومنيوم سيؤتى به من أستراليا مادة خام . والوقود متوفر هناك لأن الغاز الذي ينشأ عن وجود النفط يحرق . فيستعمل هذا الغاز الطبيعي المباشر لإدارة هذه المعامل . ومعنى هذا أن الألومنيوم المصنوع في البحرين سيكلف نفقات أقل بكثير من صنعه في أوروبة . هذا المشروع هو بحريني أجنبي . من الدول المشتركة فيه أو الشركات هناك على الأقل شركة ألمانية وشركة بريطانية . والأسواق لما يمكن أن ينتج في المستقبل من مصنع الألومنيوم جاهزة لتقديم الطلبات من الآن . هذا يعتبر شيئاً هاماً في تاريخ البحرين الصناعي الحديث .

يتضح من هذا أن هذه الجماعة تفيد بقدر الإمكان من الثروات التي تأتيها من الأرض ، أي من النفط . طبعاً كلما زادت الثروة يمكن أن يزيد العمل . لكن يجب أن نذكر من جهة أخرى مشكلة كبيرة هي مشكلة الأيدي العاملة . فعدد السكان قليل من جهة ومن جهة أخرى الكويتي ، ابن البلد ، المواطن ، لا يشتغل في الصناعة . فهو

يريد أن يكون إما تاجراً أو موظفاً أو طبيباً وما يشبه ذلك . لكن العمل في الصناعة ، العمل اليدوي لا يقبل عليه . فالمشكلة إذن عندما تؤسس هذه الصناعات البتروكيميائية هي من يقوم بالعمل في المصانع المختلفة .

في البحرين الوضع أقل خطورة . يبدو أن أهل البحرين اعتادوا منذ مدة على الثقافة والمعرفة وما شابه ذلك . فليس هناك ما يمنعهم من القيام بالأعمال الصناعية . فمثلاً شركة نفط البحرين ومصفاة النفط في البحرين فيها عدد كبير من العمال البحرينيين . ولكن في الكويت عدد قليل من العمال هم من أهل الكويت الأصليين ، أما الباقون فيأتون من الخارج .

وبهذه المناسبة وهي ملاحظة أخيرة . إذا أردت في البحرين أن تقول هذا رجل من البحرين أو هذه امرأة من البحرين تقول بحريني أو بحرينية . أما إذا قلت بحراني فمعنى هذا أنه شيعي . بحريني مواطن من البحرين ولكن بحراني معناه أنه شيعي أي ليس سنياً . ولا ينطبق هذا الكلام على الإيرانيين المقيمين في البحرين ولو أنهم شيعة ، فهم إيرانيون .

الناس والثقافة في الخليج

يبدو من هذا الذي دونته أنني كنت معنياً بالمدن والأسواق والبيوت والآثار . هذا صحيح . لكنني كنت شديد الاهتمام بالناس - مواقفهم واهتمامهم بالمدارس ونظرتهم إلى المستقبل . وأنا ، باعتباري قومياً عربياً في الصميم ، كنت حريصاً على أن أسبر أغوار هذه القضية كل مرة زرت فيها إمارات الخليج .

وما الذي خرجت به يومها؟ لم يكن كثيراً . في الكويت مثلاً كان أحمد الخطيب ، المتخرج من كلية الطب في الجامعة الأميركية ، والذي ظلت تربطني به صداقة ، لا يزال على ما كان عليه من إيمانه بالقومية العربية . لكن القومية العربية ، في أواسط الخمسينات ، كانت تعاني الكثير من الخلخلة في الحديث عنها ، وأهم من ذلك في الإفادة منها . ومن هنا حار أتباعها في أمورهم . ولهذا حديث له موضعه في هذه المذكرات فلأتركه إلى حيث يمكن أن يفصل ويوضح .

لكن أحمد الخطيب لم يتبدل ، ولو أنه قيل عنه إنه مال إلى اليسار (بمعنى الشمال لا الثروة) .

على أن الأمر الذي يجب أن يدون هنا هو الاهتمام بالبعثات العلمية للتخصص . فقد كان 85٪ من أساتذة جامعة الكويت في أواخر الستينات من الزملاء المصريين . وكان الكويتيون يريدون القيام على التعليم الجامعي . وحتى سنة 1977 كان القائمون على الشؤون العلمية ، تعليماً وإدارة ، في جامعة قطر من الزملاء المصريين .

وكانت الكويت - حتى آخر زيارة لي - تتحفز لرفع مستوى أدائها نحو خدمة الفكر العربي . وقد نجحت فالدوريات وعالم المعرفة والكتب المحققة التي وصلتنا منها كان فيها ما يدعو إلى الابتهاج والسرور ، ففيها منفعة وفائدة .

من الظهران إلى الرياض

في ربيع سنة 1970 رتبت كلية المعادن والبترول (ولم تكن قد أصبحت جامعة بعد) في الظهران ، في المملكة العربية السعودية ، برنامج زيارات علمية لفريق من أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت . كان القصد من هذا البرنامج أن نقوم نحن بإلقاء محاضرات على طلاب الكلية ، وهي أصلاً معهد علمي تكنولوجي ، في نواح من الدراسات الإنسانية وكانت حصتي أنا تدور حول الجغرافيا عند العرب . لما قبلتُ الدعوة لزيارة هذه الكلية ، ورأيت أن البرنامج فيه فراغ ، كتبت إلى جونز ، الذي كان زميلاً لنا في الجامعة وتركنا ليعلم في الظهران ، طالباً منه أن يرتب لي رحلة إما إلى القطيف (شمالا) أو إلى الهفوف (جنوباً) . وفعلاً رتب الأمر وقضينا يوماً ممتعاً في زيارة الجبيل والقطيف وتاروت والآثار هناك ، وهي ليست قديمة إذ إنها تعود إلى العصور الحديثة . ذلك بأن أعمال التنقيب الأثري كانت بعد في المهد في المملكة .

وفي يوم آخر زرت الهفوف والإحساء .

عرفت أن عبد الحافظ كمال ، زميلي في الكلية الرشيدية في القدس ، يعمل في قافلة الزيت (القافلة فيما بعد) في قسم الأبحاث . عبد الحافظ لم يكن من الأشخاص الذين يجتذبون الناس إليهم . بل كان الناس يشعرون بالنفور منه . فوجهه

يبدو دوماً فيه كشرة طبيعية ، لكنها كانت تؤدي إلى أن يحسبه الناظر كأنه يشكو من إمساك مزمن حاد . على كلٍّ ذهبت لزيارته . وهناك تعرفت مصادفة برئيس المجلة التي تصدرها شركة أرامكو . ودعاني لأن أكتب في المجلة . وهكذا بدأت يومها صلة لم تنقطع تماماً بعد (أذار/ مارس 1992) .

وكان ممن زرت في الظهران سامي قبيسي وزوجته سلام . وكان في القسم الإعلامي في الشركة .

ولما بلغ الدكتور عبد العزيز خويطر ، وكيل جامعة الرياض يومها ، أنني سأزور المملكة طلب مني أن أعرج على الرياض زائراً ومتحدثاً للطلاب وغيرهم . لم تكن القضية هل أقبل الدعوة أم أعتذر . كانت قضيتي كيف أشكر للصديق الكريم هذه الدعوة . ولما كنت في الرياض اقترح علي أن أعود إلى بيروت بطريق جدة لأزور جامعة الملك عبد العزيز (وكانت يومها جامعة خاصة) . فكررت الشكر .

المحاضرة العامة -الرئيسية- التي ألقيتها في الرياض (إلى جانب ندوتين تخصصيتين للطلاب) كانت منعطفات في تاريخ العرب . وقد أكرمني كثيرون بحضورها يتقدمهم خويطر والدكتور عزت النص وكان قد اعتزل عمادة كلية الآداب واكتفى برئاسة قسم الجغرافيا وآخرون . لكن الرجل الذي تعرفت إليه يومها كان مصطفى عامر ، أحد رواد الدراسات الجغرافية في مصر . كان يومها يشغل منصب مستشار لجامعة الرياض . وقد كانت لي معه أحاديث طيبة طويلة ، أفدت منها فضلاً عن أنني استمتعت بها .

ورتب لي خويطر ، عن طريق عبد الله النعيمي ، أمين عام الجامعة ، زيارة للدرعية ، العاصمة (الأولى) للدولة السعودية (الأولى) . وقد عرفت يومها أن برنامجاً قد أعد لتأهيل المدينة . وقد زرتها ثانية سنة 1978 وكان العمل في هذا البرنامج قد بدأ .

قضيت ثلاثة أيام في جدة في فندق البحر الأحمر . تحدثت إلى الطلاب وإلى المدرسين . فالجامعة يومها كانت شيئاً متواضعاً في أول السلم وكانت تقتصر على بضعة أقسام .

وزرت الرياض ثانية سنة 1978 إذ أسهمت في الندوة (الأولى) العالمية لدراسات

تاريخ الجزيرة العربية . وكان موضوعها : مصادر تاريخ الجزيرة العربية . وقد تحدثت يومها عن كتاب وضعه مؤلف صيني اسمه تشاو جو - كوا عن العلاقات التجارية بين الصين وبلاد العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد .

زيارة عراق السبعينات

في سنتي 1973 و 1975 زرت العراق . في الأولى للمساهمة في المؤتمر الدولي للتاريخ الذي انعقد في بغداد ، وفي الثانية كانت لي مساهمة في مهرجان الفارابي ، وأثناءها تمكنت من زيارة البصرة في الجنوب والموصل والحضر في الشمال . وكانت لي زيارة إلى بغداد سنة 1988 لمناسبة مهرجان المربد .

والشيء بالشيء يذكر . فقد زرت الخرطوم سنة 1959 وحملني أصدقائي إلى واد مدني في الجزيرة ، وفي سنة 1978 زرت الخرطوم ثانية (وكان ابني رائد قد عُين مديراً لمكتب طيران الشرق الأوسط هناك) وكان ذلك في طريقي إلى كانو وزاريا في شمال نيجيريا .

وهكذا وجدتني ، نتيجة لهذه الزيارات المتعددة الأسباب والعلات ، قد وقفت ، بالنسبة إلى الخليج العربي ، في البصرة (وريثة الأبلة منذ العهود الإسلامية الأولى) والكويت والجبيل والقطيف وتاروت والدمام والهفوف والبحرين وسواحل قطر وأبوظبي ورأس الخيمة . فتمت لدي الصورة الجغرافية/ التاريخية لمراكز الحركة التجارية (من جهة الخليج العربي) وصلة بعضها بمدن أرض الرافدين وبلاد الشام وموانئ هذه . إن الذي كنت قد عرفته من كتاب أو أطلس ، انطبع في ذهني الآن صورة حية .

أما الأماكن التي تتوسط الخليج العربي ، ومنها الجرهاء ، فأمرها مختلف . فهي متصلة في تجارتها مع الحجاز غرباً (إلى جدة وينبع والجار والعلا والحجر (مداين صالح) وجدة ؛ ومع دومة الجندل (الجوف اليوم) وتيماء في اتجاه شمالي غربي .

والوقفة في جدة على البحر الأحمر تضعك في موقع يمكنك من تصور سفن البطالمة والسفن المصرية فيما بعد تحمل المتاجر (ثم الحجاج) من برنتشي وعيذاب وغيرهما إلى موانئ البحر الأحمر .

على أنني وقد وقفت في تلك الأماكن وتنقلت في تلك المناطق كنت أقدر على فهم التطور التاريخي للحضارات التي قامت في هذه البلاد وتطورها وتنقلها إلى هذه المنطقة ومنها . نعم تصورت هذه الأشياء - الأسطورة والقصة والنقوش والقوانين وأساليب البناء والأدب والعبادات والآراء والعلوم - وهي تنبت أشجاراً صغيرة في مكان ، ثم تنمو وتقف على جذوعها وتنتشر في الأنحاء القريبة والأجزاء البعيدة . وتقوم دول صغيرة (مدينية) أو كبيرة (ممالك وإمبراطوريات) فتحتضن هذه الحضارات وتيسر لها سبل التطور . وتعطي ثمرها خدمة للبشر .

في بلاد السند والهند

1959-1958

وأتيح لي أن أخرج عن نطاق العالم العربي شرقاً . فأنا متى سلكت رجلي طريقاً لا أتخلى عنه بسهولة ، بل أتبعه بأماكن أخرى .

في صيف سنة 1957 كنت على وشك العودة ، مع أسرتي ، من الولايات المتحدة إلى بيروت . كنت سنتها أستاذاً زائراً (للمرة الأولى) في جامعة هارفارد . وكان من زملائنا في دائرة العلوم السياسية (وفي هارفارد كان اسمها دائرة الحكم) شاب اسمه هنري كيسنجر . كنا نعرف أنه كانت له علاقات بالمؤسسات السياسية في البلد . لكن اجتماعاتي به ، وكانت ثلاثة أو أربعة ، كانت تتعلق بالندوة العالمية لجامعة هافارد ، التي كان هو المشرف عليها . وكنّا قد اجتمعنا حول هذا الموضوع لأنه أراد أن أزوده بأسماء أشخاص يمكن أن يدعوا للمساهمة في الندوة . وفي آخر مرة لقيته ، قبيل مغادرتنا مدينة كامبردج الأميركية سألني فيما إذا كنت مستعداً للذهاب إلى هارفارد في صيف 1958 لحضور الندوة . فاعتذرت لأنني يجب أن أظل في البلاد للقيام بأمور كانت مطلوبة مني .

لما وصلنا بيروت جمعت البريد -وكانت الكتابة أحب إلى الناس منها الآن- وحملته إلى البيت . وجدت دعوة من جامعة عليكرة الإسلامية بالهند لحضور ألفية المسعودي . ولما أخبرت زوجتي مرغريت بالأمر سألتني فيما إذا كنت سأقبل الدعوة فأجبت بالإيجاب . فقالت تعتذر عن هارفارد وتقبل هذه؟ قلت يا مرغريت هذا شيء جديد- إلى الهند .

الطريق إلى دلهي

وهكذا وجدتني في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1958 في طريقي إلى دلهي .

وقد توقفت في طهران يومين . ولكن سنترك قصة طهران إلى وقت آخر .

المؤتمر كان في عليكرة ، على أنني كنت قد قبلت دعوت للتحدث عن لبنان في دلهي بالذات ، وفي ناد ثقافي . وكان من الحضور الدكتور حليم أبو عز الدين ، سفير لبنان في الهند ، الذي أحاطني برعايته خلال إقامتي في دلهي . وقد كانت لي به معرفة ، لكنَّها منذ ذلك اليوم تحولت إلى صداقة ، لا تزال قائمة إلى يوم الناس هذا (1992) ونحن الآن جيران حي واحد في بيروت .

حملني الملحق الثقافي في السفارة السورية بسيارته إلى عليكرة . وهناك كان عدد كبير من المشتغلين بالتاريخ والأدب والحضارة العربية الإسلامية من الولايات المتحدة وأوروبة وآسيا . وكان المسهمون الهنود كثراً أيضاً .

شغلنا بالمسعودي يومين كاملين . قدمت الأبحاث ، التي كانت قد وزعت علينا حين وصولنا ، ونوقشت . وطعمنا طيبات ما طهاه الهنود مع التوابل ، وما أعده الآخرون من الطعام الإنجليزي . فحاكم المنطقة وزعيمها والجامعة - كل هؤلاء أرادوا تكريمنا ؛ والتكريم صورته وواقعه سماط طعام يمد للناس . أما أنا فقد جنبت نفسي الموائد كلها . كنت مصاباً بالقرحة المعوية . وكان يتحتم علي تجنب هذه المطهيات والمقلوات . وكنت قد حملت معي من بيروت جبنة سويسرية فكنت أحمل قطعة معي وأرجو مرافقي السيد الأنصاري ، وكنت أعرفه إذ قضى سنة دراسية عندنا في الجامعة الأميركية ، أن يطلب لي بيضة أو اثنتين مسلوقتين . وفي ضجة الحفل الكبير «وعجقته» كان يتم الأمر دون أن ينتبه إلي أحد .

وكان اليوم الثالث ندوة خاصة بتدريس التاريخ الإسلامي وكتابته في جهات مختلفة . تكلم المستشرقون ، وتكلم الهنود وغيرهم من مسلمي آسيا - أندونيسيا .

ودعيت أنا للكلام . فكان خلاصة ما قلته ، على ما أذكر ، هي : تكلم المستشرقون والمستعربون عن دراسة الإسلام وتاريخه وحضارته على أنهم خارجه . يريدون أن يفهموه وأن يفسروه . لهم أسبابهم في الاهتمام بذلك . ولهم مواقفهم التي قد تكون نتيجة لدرس جدي متحرر عن الهوى ، وقد تكون ملونة بالكثير من النوايا المتنوعة . وعلى كل فهم يدرسون الموضوع من الخارج .

أما الباحثون الهنود ، وهم مسلمون ، فقد تكلموا من موقف خاص . إنهم ، على

كثرة عددهم، أقلية تعيش في جو غريب. صحيح أن الجميع مواطنون هنود، وصحيح أن الدولة لا تفرق بين هذا وذاك من المواطنين، لكن الذي بدا لي من حديث الزملاء الكرام هو أن درس الإسلام وحضارته هو واحد من الدروع التي تلجأ إليها الأقلية للدفاع عن نفسها، سواء أكان لهذا الوضع مبرر أم لم يكن.

أنا مسيحي، لكنني عربي، وأعيش بين المسلمين. أشعر أن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارتي وهي تراثي الثقافي والفكري. لذلك فأنا أنظر إلى هذا التاريخ والحضارة نظرة داخلية أي من داخل تراثي. وهذا ينطبق على الآخرين الذين يعملون في الحقل ذاته. وهم قد يكونون مثلي مسيحيين أو قد يكونون مسلمين. فضلاً عن ذلك فنحن، أبناء منطقتنا، عندما ندرس التاريخ الإسلامي فإننا ندرس تاريخنا. لا يمكننا أن ننظر إليه نظرة من الخارج؛ زاويتنا داخلية. ومن هنا فإن بعض الأمور التي تعالجونها أنتم وأنت متوترون، وخاصة هنا في الهند، تكون معالجتنا لها معالجة مختلفة. وقد يكون ثمة وجهات نظر متباينة بين الدارسين العرب، ولكن هذا التباين يظل أساسه داخلياً.

زيارة تاج محل

كان أعضاء المؤتمر قد وصلوا قبلي بيوم، وهو اليوم الذي خصص لزيارة تاج محل في أغرا. لذلك وضعت الجامعة تحت تصرفي سيارة وانتدبت الأنصاري لمرافقتي لزيارة هذا المكان الجميل جداً. حجز لنا مكان في فندق فخم هناك. وصلنا بعيد العصر. وضعنا أغراضنا في الفندق. كنت قد تنبهت إلى أن القمر ليلتها كان بدراً. وكانت السماء صافية لذلك اقترحت على الأنصاري أن نذهب لزيارة تاج محل عند الغروب. وقضينا هنا نحو الساعة.

تاج محل مبنى ضخم فخم بناه شاه جهان (إمبراطور من عصر المغول في الهند حكم من 1627 إلى 1658) قبراً لزوجته المحبوبة ممتاز محل. وهو مبنى في غاية الأناقة، أساسه الرخام الأبيض، الذي لم يبخل صاحبه في زخرفته وتزيينه. ويعتبر القمة في فن البناء الهندي الفارسي، الذي غلب على أيام المغول. وقد احتاج إتمام بنائه إلى نيف

وعشرين سنة (1632-1653) ، ولو أنه كان جاهزاً للاستعمال سنة 1643 .

عدت من الزيارة وأنا أكاد أرقص حبوراً . ما كان أكثر ما سمعنا عن تاج محل ، وما أكثر ما رأيناه من صوره . وها أنا قد ملأت ناظري منه ومن الحديقة التي يتوسطها والبركة التي تعكس ظله في مياهها الصافية .

في الصباح وجدت الأنصاري منزعجاً . مرَّ بغرفتي ليتأكد من أن فنجان الشاي المبكر (على الطريقة الإنجليزية) قد وصلني فلم يجدني . ولم يجدني في حديقة الفندق . وأخيراً عثر علي وأنا أدخل الفندق . «ومن أين يا سيدي» سألني مستغرباً . قلت كنت في زيارة تاج محل لأراه مع شروق الشمس . المبنى الرخامي كان قصيدة حب في نور البدر ، وكان سمفونية عشق مع أشعة الشمس الأولى .

زرنا جامع موتي أو جامع الجوهرة وقلعة أغرا وجميعها آيات من الفن المعماري لتلك الأيام . ثم حملنا معنا زوادتنا من الفندق وسرنا إلى دلهي . ولما سألت رفيقي لماذا نحمل معنا حتى الشاي ، قال هذا أضمن لنا . فصالات الأكل في طريقنا ليست على ما يرام . وقد تأكدت من صحة قوله أكثر من مرة خلال الساعات الخمس التي قضيناها في الطريق .

زرت قطب منار في دلهي زيارة سريعة . وقطب منار مئذنة (صومعة) لمسجد يعود بناؤه إلى أيام دولة دلهي الإسلامية (1206-1526) وذلك في سنة 1232 في عهد الطوتميش (1211-1236) .

كان بين من تعرفت إليهم من أساتذة جامعة عليكرة الإسلامية سيد مقبول أحمد ونور الحسن وقد تولى وزارة التربية وخليق أحمد نظامي الذي سفر لبلاده في سورية فيما بعد وزاكر حسين الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد ، وم .س . أغواني . وهذا سنلقاه فيما بعد في دلهي وفي بيروت وفي عمان .

عدت إلى بيروت وفي نفسي رغبة قوية في زيارة ثانية للهند . ولكن . . .

لقد انتظرت طويلاً قبل أن تحقق هذا الأمل . ولما تحقق كانت الإقامة أطول بكثير ، كما كان المجال الذي تنقلت فيه أوسع من ذي قبل . كان الفضل في تحقيق الدعوة لسيد مقبول أحمد ، الذي أصبح ، في سنة 1970 ، رئيساً لقسم غرب آسيا وشمال إفريقيا في جامعة عليكرة الإسلامية .

قضيت قرابة الشهرين في هذه الرحلة إلى الهند . كنت ضيف جامعة عليكرة ، ومع أن الجامعة أخبرتني مسبقاً أنها لن تدفع لي مرتباً ، بل إنها مضطرة للاكتفاء بما يسمى «مصروف جيب» ، فقد عرفت ، لما دفع المبلغ لي ، أنه كان أكبر من مرتب أستاذ في الجامعة . هذا فضلاً عن الضيافة هناك . وفي هذه الرحلة قضيت أياماً في دلهي ، فزرتها زيارة أدق وأوعى ، وجُيِّرت إلى الجامعة العثمانية في حيدر أباد الدكن ، وإلى جامعة جايبور في راجستان . أما زيارتي لبومباي فكانت برعاية الجامعة دون أن أقدم لها شيئاً . كان الجميع في كلية الآداب مشغولين بالانتقال إلى مبانٍ جديدة بغية التوسع .

في الفترة التي قضيتها في رحاب جامعة عليكرة الإسلامية رتبت ندوات تناولت واحدة منها العالم الإسلامي من سنة 1100-1500م . وقد تناولت التطور الداخلي والأخطار الخارجية . ثانياً كانت هناك ندوتان عن التطور السياسي للمغرب العربي منذ سنة 1830 . وألقيت محاضرة حول الرحالة العرب في إفريقيا . وكانت لي جلسات مع أساتذة الأدب العربي في الجامعة . وأهم من هذه كانت أحاديث طويلة مع طلاب الدراسات العليا . ليس من شك ، بناء على تجربتي ، أن زملائي في قسم التاريخ كانوا من الأعلام . لكنهم ، كما ذكرت أثناء زيارتي الأولى (1958) ، فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي ، ينظرون إليه من زاوية الدفاع عن النفس . ولست أنكر أن الكثيرين من زملائي العرب ينظرون إلى التاريخ الإسلامي على أنه سلاح ضد هجمات الغرب . لكن أولئك بعيدون جغرافياً عن الغرب . وهذه قضية مهمة جداً .

وكانت لي جلسات مع عبد العليم ، رئيس الجامعة . وقد اقترحت ، بعد أن تحدثت حول هذا الأمر مع سيد مقبول أحمد وخليق نظامي وغيرهما ، منهاجاً جديداً للدراسات ، خاصة الإقليمية منها ، بحيث إن الطالب لا يقتصر على نظام واحد من الدراسة - الجغرافيا أو التاريخ أو الاقتصاد ؛ بل يجدر به أن يلم بهذه الأمور بحيث تصبح آفاقه أوسع . وقد طلب مني أن أعد مذكرة بذلك ، ووعد بأن يدعو أعضاء من اللجنة العلمية للجامعة والأساتذة المعنيين لبحث الأمر . أعددت المذكرة وبعثت بها

إليه . لكن لا دعوة ولا اجتماع تبع ذلك . وقد عرفت فيما بعد ، من الزملاء ، أن هذا هو أسلوب عبد العليم في الإدارة . لذلك كانت الجامعة كالجندي الذي يعد مكانه في أيامه . لم تتقدم ، ولم تتأخر ، لكن الوقوف في المكان الواحد هو أقرب إلى التأخر عادة .

على خطى ابن بطوطة في دلهي

قضيت نحو عشرة أيام في دلهي . هذه المرة تمتعت بالزيارة . زرت المدينة القديمة والقلعة الحمراء . وقضيت بعض الوقت في قطب منار وما حوله . هذه جميعها من مخلفات الفترة المبكرة لأيام سلطنة دلهي الإسلامية (1206-1525) تذكرت وأنا أتنقل بين الجامع والقلعة وأدور بالأسوار ، أن ابن بطوطة زار دلهي وتحدث عنها في رحلته . فرجعت إليه فوجدته يقول : «دلهي - ومدينة دهلي كبيرة الساحة ، كثيرة العمارة ، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات . إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي ، وهي القديمة من بناء الكفار . وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة (1188) . والثانية تسمى سيري وتسمى أيضا دار الخلافة ، وهي التي أعطاها السلطان غياث الدين (664 - 686هـ/ 1266-1287م) إلى حفيد المستنصر العباسي (623-640/1226-1242) لما قدم عليه . وبها كان سكنى السلطان علاء الدين (695-715هـ/ 1296-1316) وابنه قطب الدين (716-720/1316-1320) . والثالثة تسمى تغلق آباد باسم بانيها السلطان تغلق (ومنشئ دولة طغلق وقد حكم 720-725/1320-1325) والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه . وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين فقال له : «يا خوند عالم ، كان ينبغي أن تبني هنا مدينة» . فقال له السلطان متهكماً «إذا كنت سلطاناً فابنها» . فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبناها وسمّاها باسمه . والرابعة تسمى (جهان بناه) ، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن (725-752/1325-1351) ، الذي قدمنا عليه . وهو الذي بناها وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد ، فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم في بنائه .

«والسور المحيط بمدينة دلهي ليس له نظير . وعرض حائطه إحدى عشرة ذراعاً . وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب ، وفيه مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات . ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة . ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه أسود ، ولكن طعمه طيب . ورأيت أيضاً الكذرو يخرج منها . وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن (غياث الدين المذكور قبلا) منذ تسعين سنة . ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى أخرها . وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر . وأبراجه كثيرة متقاربة . ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً .

«وجامع دهلي كبير الساحة ، حيطانه وسقفه وفرشه ، كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ، ملصق أتقن إلصاق ، ولا خشبة به أصلاً . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضاً من الحجر . وله أربعة من الصحون . وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعدن هو . ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمى (هفت جوش) ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف منها . وقد جلي من هذا مقدار السبابة ، ولذلك المجلو منه بريق عظيم . ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعاً (نحو 730 سم) . وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثماني أذرع (نحو 195 سم) . وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس ، مطروحان بالأرض قد ألصقا الحجارة . ويطؤها كل داخل المسجد أو خارج منه . وكان موضع هذا المسجد بدخانة ، وهو بيت الأصنام . فلما افتتحت جعل مسجداً . وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام . وهي مبنية بالحجارة الحمر ، خلافاً لحجارة سائر المسجد فإنها بيض . وحجارة الصومعة منقوشة . وهي سامية الارتفاع .

الضيافة في دلهي – ولما وصلت إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمل السرير منها الرجل الواحد . ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه . وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليها أربعة

أعواد . وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن . فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطّبه به ، لأنه يعطي الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوهاً تغشيها من كتان أو قطن بيضا ، فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقي ما في داخلها مصوناً . وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ، والآخر الجزار ، ويسمونه القصاب ، فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم ، الأوزان لا أذكرها الآن . . . وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق . وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان .

وابن بطوطة قضى في الهند فترة طويلة خدم فيها سلطانها محمد شاه ثماني سنوات في القضاء (734-742/1333-1341) . ثم اختاره محمد شاه رئيساً لبعثته إلى ملك الصين . فقبل لكنه لم يعد إلى الهند .

قطب منار

وعدت إلى قطب منار ؛ وحقيقة الأمر أن الذي يشاهده المرء هنا هو مجموعة من الأبنية بدأ بها في عهد إلْتُمِش (ألتامش) ، ولكن أبنية أخرى كثيرة ، دينية ومدنية وقبوراً ، أضيفت إليها فيما بعد وخاصة أيام علاء الدين كلج (695-715/1296-1316) . والذي ، على ما يعرف عنه من شرة وقسوة ، كان حريصاً على إقامة الأبنية الجميلة . ومما رأيناه في قطب منار من آثار محاولاته قاعدة كان المقصود منها أصلاً أن تكون قاعدة لمنار يفوق البناء القائم ضخامة وأناقة وزخرفاً لكن ذلك لم يتم للرجل .

وقفت يوماً أمام قطب منار وتأملته وتأملت ما يمثل في هذه البقعة النائية (بالنسبة لنا) والبعيدة العهد (بالنسبة للجميع) .

أواخر سنة 1958 زرت دلهي وقطب منار . تركت الزيارة في نفسي شيئاً - صورة للمنار ، فكرة تتعلق بضخامته ، أمر يرتبط بمكانه . لكنّها كلها كان ينقصها الربط والاستقرار .

في صيف 1959 زرت المغرب . وصلت مراكش وقفت أمام جامع الكتبية . بناء ضخم ، تحوم حوله فكرة وتهوم في أنحائه أشياء . لكن ما هي؟

وفي يوم ، بعد الزيارتين ، تذكرت . دلهي بنيت في أواخر القرن العاشر (م) ، ولكنها اتخذت شكلها (أي المدينة القديمة) الحالي الإسلامي - ممثلاً بقطب منار - بعيد سنة 1200 . مدينة مراكش بناها المرابطون (المسلمون) أواسط القرن الحادي عشر . وجامع الكتبية يعود إلى مطلع القرن الثالث عشر . ولمعت الفكرة التي ربطت بين المكانين (المدينتين) والرمزين (الكتبية وقطب منار) في ذهني . في المغرب القاصي وفي الهند البعيدة تقوم مدينتان لتقولا للعالم هنا تقوم دولة الإسلام اليوم . لم يكن ذلك الحد ، ولكنه كان رمز القوة . المدينتان حصنان للإسلام في بعض من حدوده القصوى . والمدينتان ترتفع في كل منهما مئذنة -صومعة- منارة لتقول للجوار شيئين : الأول نحن هنا للدفاع (ففي كل من المدينتين أبراج وأسوار) ؛ أما الثاني فهو نحن عندنا نور وإيمان صالحان لإرشاد العالم . فلينتفع من ذلك القوم العاقلون .

ولما زرت دلهي وقطب منار سنة 1971 ، وكنت قد زرت مراكش والكتبية مرات عديدة ، رأيت الفكرة متجسمة أمامي . وتذكرت من التاريخ أن قطب منار أصبحت ، في مطلع القرن السادس عشر رديفاً للتقدم الإسلامي في الهند ، لكنها ظلت تشع . والكتبية لم تعد حداً ، فالإسلام انتشر إلى الجنوب منها : لكنها ظلت تلقي بشعاعها على ما يتلوها من بلاد .

هذه هي الصورة ؛ هذه هي الفكرة ، التي حومت وهومت في نفسي حتى تمثلت في المئذنتين رمزاً سوياً .

تجربة حكيم عبد الحميد

وفي هذه الزيارة لدلهي تعرفت إلى حكيم عبد الحميد : وهو رجل متقدم في السن ، صغير الحجم ، لكنه كتلة من النشاط والإيمان . عبد الحميد درس الطب على الطريقة العربية اليونانية في الكليات المسماة في الهند وباكستان كلية طب يوناني . وفي جامعة عليكرة الإسلامية كلية منها ؛ كما توجد في جامعات هندية كثيرة وكان

أبوه من قبله كذلك طبيباً ، وأخوه حكيم محمد سعيد (في الباكستان) مثله . والأب أنشأ مصنعاً لإنتاج العقارات النباتية اسمه هَمْدرْد . وبعد تقسيم المنطقة إلى الهند وباكستان انقسمت الشركة قسمين . تولى حكيم عبد الحميد شؤون القسم الهندي وترك القسم الآخر للأخ حكيم محمد سعيد في الباكستان .

لما تعرفت إلى حكيم عبد الحميد كان قد ترك الطب وممارسته وانصرف إلى إنشاء مؤسسة علمية لدراسة تاريخ الطب ، والعلوم القريبة منه ، عند المسلمين . كان قد أقام مبنى ضخماً ، وجمع مكتبة كبيرة ، وأثث في المبنى غرفاً للضيوف ، للذين يريدون أن يقضوا بعض الوقت لدرس ناحية من نواحي التاريخ لهذه العلوم . والمؤسسة كانت تستضيف هؤلاء استضافة كاملة .

زرت المبنى ، ورأيت النماذج التي صنعت لآلات الفحص الطبي والجراحة على نحو ما عرفها العرب في تاريخهم . وتحدثت إلى حكيم عبد الحميد طويلاً . وطلب مني أن أتحدث إلى فئة من العاملين في المؤسسة ، وهم علماء شباب ، عن منطقتنا . وقد فعلت ذلك بكثير من السرور ، وكثير من الشكر لأنني كلفت بذلك .

وتعرفت ، عن طريق الحكيم ، إلى مجموعة من العاملين في الحياة الفكرية الإسلامية : أفراد وجماعات متكاتفة في سبيل هذه الغاية . وكان في مقدمتهم حسين عابد .

كانت ثمة جامعة جديدة قد أنشئت في دلهي (1969) جامعة جواهر لال نهرو . جامعة الأصل في اتجاهها وعملها البحوث العلمية والدراسات العليا . كان م .س . أغواني أحد الأساتذة فيها ، وكان له نفوذ خاص . فهو عالم ، نشيط ، منفتح ، يعرف المشرق العربي معرفة جيدة دراسة وزيارة (وقد زارني في الجامعة الأميركية مرتين) واطلاعاً . في حديث معه حول ما يمكن أن تقدمه جامعة من هذا النوع للمجتمع وكيف يمكن أن يقدم ، قال هذه الآراء يجب أن يطلع عليها أعضاء مجلس الجامعة ، وخاصة الأكاديميين منه وتمّ ذلك . وقضينا نحو الساعتين في بحث الغايات والسبل والوسائل والحاجة إلى العنصر الخارجي باستمرار ، كي لا تأسن الجامعة أو تتقوقع . وبعد يومين طلب البعض ممّن حضر أن نجتمع في أمسية في بيت أحدهم لنتم الحديث . ومثل هذا الحديث لا يمكن أن ينتهي . فكل مؤسسة تريد أن تنمو وتتطور

بحاجة إلى التحدث حول مشكلاتها مع آخرين ، ومن خارج أطرها .

لما عدت إلى بيروت ، بعد أن زرت أجزاء أخرى من الهند ، وجدت رسالة من رئيس تلك الجامعة ، فيها شكر لي ، وفيها ، ما حسبته أهم من الشكر ، خلاصة للأحاديث والمناقشات وقد سماها منهج عمل نأمل أن نحققه .

كانت تلك اللحظة ثمينة عندي ؛ وكان وقعها في نفسي كبيراً . (عرفت هذه الأيام ، ربيع سنة 1992 ، أن أغواني هو رئيس الجامعة) .

زيارة حيدر آباد

كانت نقلتي التالية في الهند إلى حيدر أباد الدكن ، التي تتوسط شبه الجزيرة الهندية . كانت هذه المدينة عاصمة لإمارة (1724-1949) إسلامية كبيرة . كان حاكمها يسمى نظام (حيدر أباد) . وكان في أواسط العشرينات من أغنى أغنياء العالم . لذلك لما ألغى مصطفى كمال (كمال أتاتورك 1880-1938) الخلافة سنة 1924 ، سعى نظام حيدر أباد ليكون خليفة المسلمين .

كان الملك فؤاد سلطان مصر (1917 وملكها 1922-1936) أحد الطامحين إلى المنصب الكبير . إلا أن الذي بويع بالخلافة يومها (1924) كان الحسين بن علي (شريف مكة 1908 وملك العرب - أو ملك الحجاز فقط - 1916-1924)- وقد تُوفي الحسين سنة 1931 .

وقد أُلغيت هذه الإمارة فيما أُلغي من إمارات في الهند (1956) . وهي الآن عاصمة ولاية اندرا برادش . ويجد الزائر قصوراً جميلة تحوي الأثاث والفراش والتحف التي كان الأمراء يستعملونها ، وقد أصبحت هذه المباني متاحف يتمتع الزوار بمحتوياتها وفنها المعماري وزخرفها الجميل .

وقد كانت حيدر أباد الدكن من المراكز الإسلامية الكبرى . لذلك فكر جماعة من أهل الفكر بوجوب إنشاء جامعة هناك على نحو ما كانت لعليكرة كلية مشهورة جداً . ولما نضجت الفكرة أراد هؤلاء أن يشترك في إنشاء الجامعة مسلمو الهند لا مسلمو الإمارة فحسب ، لذلك عهد إلى لجنة القيام بجمع التبرعات فوجهت هذه

رسائل إلى أهل الثراء من مسلمي الهند، وكانوا كثراً تنبئهم فيها بالمشروع وتعين لهم مواعيد قدومها وأضافت إلى الرسائل أن اللجنة لا تريد مهرجانات ولا حفلات ولا مآدب ينفق عليها المال جزافاً. ليكن استقبال اللجنة عادياً، وفي البيوت، وليتبرع كل واحد حتى بما كان يمكن أن ينفق على حفلة للمشروع. وقد نزل القوم عند رأي اللجنة وتبرعوا بسخاء. لكن فئة قليلة من سكان عليكرة وما إليها أبت إلا أن تعد مأدبة فخمة لأعضاء اللجنة وضيوف آخرين. والقوم هناك كرماء في إعداد المآدب، على ما عرفت منذ الزيارة الأولى. لكن اللجنة رفضت حضور المأدبة لأنها طلبت من الأصل تجنب المآدب.

وجمع المال وتقدم نظام حيدر أباد بتبرع قيل لي إنه لم يكن يتناسب مع ثروته، وباعتبار المشروع لمدينته وعاصمته، وأنشئت الجامعة سنة 1918. وقد اعتمدت الإنجليزية ولغات أخرى، منها الأوردية والهندية، للتعليم في الجامعة الجديدة؛ واسمها الجامعة العثمانية.

على أن المهم، بالنسبة للتاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية ليس ما تتبعه الجامعة من مناهج، وهي في الكثير منها تقليدية، بل في نشر المخطوطات العربية القديمة. كنا نعرف عن الذي يحققه قسم النشر في الجامعة العثمانية في حيدر أباد الدكن. لكن لما دخلت القاعة الواسعة ورأيت هؤلاء العاملين، شيباً وشباناً، هنوداً ويمنيين وحضارمة ومصريين وسوريين، مكبين على المخطوطات يحاولون حل رموزها، ويجربون تخريج الكلمات وتفسير العبارات وشرح الأفكار -لما رأيت هذا كبر العمل في نفسي وتضخم. زرت القاعة مرتين، وكانت كل زيارة تزيد على الساعتين. وتحدثت إلى الباحثين والمشرفين. وتذكرت أن الكتب التي نشرت في العقود السابقة لزيارتي كان العمل فيها قد تدنّى عمّا سبق وظهر هناك من قبل. ولماذا؟ أن المحققين الذين يقومون بالعمل أيام زرت الدار ناقصو التدريب قليلو الخبرة. ولا يمكن للدار أن تتقدم وتنتج العمل الجيد إلا بدعم مالي ضخم وإقدام القادرين على العلم بالذهاب إلى الجامعة العثمانية للعمل والإرشاد والتدريب.

لكنني، مع ذلك كله، أكبرت هذا العمل وحييته يومها، وأنا أكبره الآن وأحييه وأنا أدون هذه الكلمات.

نعمت في حيدر أباد بصحبة حسن العسكري وخوند ميري من أقطاب التدريس في الإسلاميات هناك . وقد مرَّ بي العسكري في بيروت مرتين فيما بعد . وانتهى الأمر به بالتدريس في إحدى جامعات ألمانية .

من جايبور إلى بومباي

أسبوع في حيدر أباد ، وكانت بومباي وجهتي التالية . لكن حسن العسكري وصديقه أستاذ الفلسفة في الجامعة ، خوند ميري ، كانا قد وعدا أستاذة علم السياسة في جامعة جايبور بمحاضرة مني عن الشرق الأوسط . ولا سبيل للرفض . وكان أن نقلتني سيارة إلى جايبور عاصمة سلطنة راجستان سابقاً . وراجستان بلد فيه أجمل ما أنتج الفن الهندي ، قصور أنيقة وحدائق رشيقة ومنتزهات بديعة وملاعب فسيحة ؛ تزينها جميعها ، وهي مبنية أصلاً بذوق ، زخارف جمعت دقة الفن الهندي والفارسي . ففي كل زاوية مفاجأة فنية ، وفي كل جدار صورة ، وفي كل قصر رسم تكاد تتقراه يداك بلمس ، هذا عندما تعجز العين عن تبين خطوطه الأساسية وألوانه المعبرة وصناعته المتقنة . وقد تفضل علي زملاء قسم العلوم السياسية في الجامعة ، فضلاً عن الضيافة الكريمة البسيطة ، فرافقوني في زيارة لأكثر من قصر وأثر ، ويسروا لي أن أتناول الطعام في واحد من هذه القصور على مقربة من جايبور ، حُوِّل إلى فندق فخم يأسر القلب زخرفه ويثير الشجن فنه ويحملك إلى آفاق بعيدة جمال حدائقه الغناء .

وبعد ليلتين في جايبور قصدت بومباي بالقطار . كانت كلية الآداب وكليات أخرى تنقل إلى مبانٍ إضافية بقصد التوسُّع ، فلم أنعم برفقة زملاء . زارني مساعد المسجل ، وهو ، بالمعنى البريطاني - الهندي ، مساعد المدير الإداري للجامعة ، محيياً ومعتذراً (وكان الأمر قد عرفته وأنا بعد في حيدر أباد) . على أنني قضيت بضعة أيام في بومباي التي كانت تسمى ، أيام شركة الهند الشرقية ، بوابة الهند . تجولت في أسواقها وسرت في شوارعها ووقفت على مقربة من مرفئها الذي كان فعلاً مدخل بريطانيا إلى الهند .

قال صديق لي في بيروت ، وقد عرف أنني قد أصل بومباي ، التقِ هناك السيد العجل ، قنصل سوريا في المدينة . وأظن أنه حتى تفضل فأعطاني رسالة إلى صديقه . وفعلت ذلك . وأود أن أسجل هنا ، بعد عشرين سنة ونيف ، أن الساعات - وكانت طويلة- التي قضيتها في صحبة الأخوين- القنصل التاجر والتاجر فقط- كانت من أمتع الساعات التي قضيتها في زيارتي .

وبعد ذلك؟ عودة إلى بيروت

في سنوات 1957 - 1959 كنت مستشاراً لمؤتمر حرية الثقافة لشؤون الندوات التي تعقد في الشرق الأوسط . ونتيجة لذلك نظمت وأسهمت في ندوات عقدت في رودس وبيروت والخرطوم وكراتشي وشيراز . بهذه المناسبة صدرت مجلة حوار عن هذا المؤتمر وتولى تحريرها المرحوم الأديب توفيق صايغ ولما اكتشفنا أن المؤتمر له ارتباط مشبوه مع مؤسسات خارجية منها الـ س . أي . اي الأميركية ومنظمات فيها رائحة الصهيونية أقفل توفيق صايغ المجلة ، وتخليت أنا عن عملي وأقفل مكتب المؤتمر في بيروت .

أذكر هذه الأمور لأنني عن طريق هذا المؤتمر تعرفت إلى علي أحسن أحد مدرسي جامعة كراتشي في باكستان ، والذي كان المسؤول عن مكتب المؤتمر في العاصمة الباكستانية . وفي واحدة من زيارته ، في ربيع سنة 1958 حدثني عن فكرة عقد ندوة في كراتشي بعنوان «سلام في العالم الحديث» . وبعد أن عرضنا القضية على مختلف نواحيها ، ورأينا أهمية الموضوع والتنظيم له ، عرض عليّ أن أكون عضواً في اللجنة التحضيرية ، على أن يكون ثلاثة أو أربعة آخرون من باكستان . وبذلك يكون تكليف عضو أو أكثر من المنطقة العربية ، وإجراء الاتصال اللازم ، منوطاً بي بدل أن يتم ذلك من كراتشي . قبلت ، وبعد مدة اقترحت عليه /الدكتور مكي شبيكة (من السودان) مع تقديم بحث والدكتور ملحم قربان (من لبنان) على أن يقدم هو الآخر بحثاً (وأنا أقدم بحثاً) ، واقترحت على اللجنة دعوة الدكتور قسطنطين زريق (دون إرهاقه بإعداد بحث) وتبادلنا رسائل عدة حول الموضوع . وأخيراً عقدت الندوة في كانون الثاني/ يناير / فبراير 1959 ، في فندق المتروبول في كراتشي .

استطاع علي أحسن أن يجند فئة نافذة في باكستان للعمل في الندوة . كان هناك حبيب الرحمن وزير التربية والإعلام والإذاعة ، و ا . ك . بروهي ، أحد كبار رجال

القانون في باكستان وأحد الذين عملوا بصبر وأناة وعلم في سبيل إعداد دستور الباكستان . ثم وضع كتاباً ضخماً فيه تاريخ هذا الدستور . ولكن هذا الدستور كان ، يوم زرنا الباكستان ، قد أخفاه أيوب خان لما قام بانقلابه في خريف سنة 1958 ، وتعرفت إلى محمود حسين ، رئيس قسم التاريخ في جامعة كراتشي . وكان علي أحسن موتور الندوة - قبلها وأثناءها وبعدها .

وكان ممن أسهم في هذه الندوة . فضلاً عمن ذكرنا ، فون غرونيباوم وأحمد همايون (إيران) ولورا فيشيا فالكيري (إيطالية) ومقطي علي (أندونيسيا) وأن لامبتون (بريطانية) وكيت كالارد (كندا) وا . م .ل . عزيز (سيلان/ سيرالانكا) .

في هذه الزيارة تعرفت إلى حكيم محمد سعيد ، وهو أخو حكيم عبد الحميد الذي عرفته في الهند فيما بعد . ومحمد سعيد يرأس مؤسسة همدرد في الباكستان ويعمل جاهداً لرفع شأن الحضارة الإسلامية بكل نواحيها . وقد التقيت حكيم محمد سعيد مرات بعد ذلك : في بيروت وفي عمان . ولا أزال آمل أن أزور الباكستان مرة ثانية لأرى بشكل خاص الذي تم في مؤسسته .

وكان علي أصغر ، شقيق علي أحسن ، أستاذاً للغة الإنجليزية في جامعة كراتشي . وقد ارتبطنا بصداقة متينة خلال أسبوعي الزيارة . ذلك أنني اقمت هناك بعد المؤتمر وطلب مني أن أتحدث إلى طلابة عن الأدب العربي الحديث ؛ وفعلت ذلك ، وتحدثت حديث متأدب كثير القراءة ؛ لهذا الأدب ، لا حديث متخصص فيه .

والذي فوجئت به ، لما دخلت غرفة الأساتذة قبل الحديث ، وجه كنت تعرفت إليه في القاهرة ، قبل قيام الدولة في الباكستان . هو الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي العالم بالعربية . وكنت قد لقيته في مكتب مجلة الزهراء لصاحبها محب الدين الخطيب . وكم سررت بلقائه ثانية . وكان يومها يشغل منصب أستاذ اللغة العربية في جامعة كراتشي .

زيارة تل الموتى

كانت اللجنة الموكلة بأمورنا قد رتبت لنا زيارات محلية . لكن الزيارة المهمة كانت

إلى تل الموتى في موهنجودارو . وقد كتبت بعد عودتي إلى بيروت وصفاً لهذه الرحلة . قلت :

نحن في القطار ، وفي عربة مكيفة الهواء . لقد غادرنا كراتشي قبل ساعات في منتصف ليل السادس من شباط 1959 ، وها نحن نسرح الطرف فيما حولنا . ليس ثمة الكثير ؛ شجرة هنا وشجرة هناك ، وقد يحيط بالشجرة نبات ، لكن ليس ثمة أشجار تتعانق ولا نبات يكثف ، فنحن في جزء صحراوي أو ما يشبه ذلك من السند .

والقطار الذي أتيح لنا أن نأخذه قطار بطيء ، يأبى إلا أن ينال كرمه جميع المحطات . ولكن هذه الساعات الطويلة في القطار كانت كسباً بسبب هذه الصحبة التي متعت بها خلال 425 كيلومتراً بين كراتشي ودكرى . ومع نسمات السَّحَر الباردة وصلنا إلى المحطة . وكنّا قد استبقنا وقوف القطار فغسلنا وجوهنا وحلقنا ولبسنا . فلمّا قيل لنا هنا المكان ، فطالعنا عن بعد بناء مستدير يتوسَّط الأفق ، وبدا لنا كأنه يتوسط السماء . وقيل لنا هذا هو المعبد البوذي الذي هدانا إلى هذا الكشف الأثري العظيم .

ذلك بأن المسؤولين كانوا سنة 1921 يدورون بالمعبد البوذي المهجور ليطلعوا عليه وينظفوا البناء وما حوله ، لما تبدت لهم آثار لا تمت إلى المعبد بصلة . فأخذوا يخدشون الأرض ثم أخذوا يعمقون الجراح . وتولى أمر الحفر السير جون مارشال ، فكان أن اتضح لأهل الآثار ، في غضون سنين قصيرة ، أن المنطقة التي يسميها الناس تل الموتى (موهنجودارو) كانت قبل أربعة آلاف عام أو يزيد مدينة الحياة بكل ما في الكلمة من معنى . وتتابع التنقيب الأثري ، وكان كل كشف يزيح نقاباً عما خفي من قبل حتى كان كشف عام 1950 . وكان المشرف عليه السير مورتيمون هويلر ، الذي أوضح معالم موهنجودار وبشكل عام .

فما الذي اتضح للناس من ذلك؟

وصلنا إلى المكان في الصباح المبكر ، وقضينا فيه ساعات نرقى مكاناً ونهبط إلى آخر ، ونستجلي أشياء تبدو ولا شك غريبة عندما تطرق مسامعنا أول مرة . لكن ليست القضية سماع قصة نقلها راوٍ عن ثانٍ عن ثالث . ولكن هنا الأثر ، وهنا البناء ، فلا بدّ من التصديق .

تقع أنقاض موهنجودارو -تل الموتى- على مقربة من نهر السند ، في منبسط من الأرض يتعرض لأن يغرقه النهر إذا خطر له أن يغير مجراه ، وما أكثر ما كان يفعل ذلك . ومن أجل ذلك رفع أهل المدينة المصاطب ليبنوا مدينتهم في أمان من النهر وفيضانه وتغيير مجراه . وكانت الأرض المحيطة بتل الموتى أرضاً تخترقها قنوات الري فتجعل منها ، بدل التربة المهملة اليوم ، أرضاً تنتج الخير الكثير لسكانها . فكان القمح والشعير والسمسم والقطاني والشوفان وبعض القطن مما تجود به الأرض . والأرض تعطي متى اعتني بها ، وتقفر متى أُهملت . أما المدينة التي كانت تقوم هناك حول سنة 2000 قبل الميلاد فقد كانت مدينة كبيرة ، وكانت حضارتها من النوع الذي عرفه العالم القديم في أحواض الأنهار الكبرى في العراق ووادي النيل وما إليهما . وكانت أنواع الخزف تعرض في أسواقها للبيع ، كما يبدو أن سكانها أتقنوا صناعة الآجر المشوي الذي استعملوه للبناء الرسمي والعادي .

كانت المدينة تتألف من قسمين . الأعلى والأدنى ، والأول كان يقع في الجهة الغربية من المدينة ، وينتشر في مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو 360 متراً ، أما عرضه فنحو نصف ذلك . والجدير بالذكر أن هذا القسم كان في غاية التحصين ، إذ إنه فضلاً عن المصطبة الضخمة التي أقيمت لإرساء الأسس عليها ، نجد بقايا سور يبلغ سمكه في أسفله نحو 12 متراً ويدق قليلاً كلما ارتفع ، ويتراوح ارتفاعه بين 10 و 12 من الأمتار . ومع أن السور مبني من الآجر المجفف بالشمس أو التراب ، فإن جداره الخارجي كان من الآجر المشوي بالنار . وهذا كان يحميه من الأمطار الموسمية الغزيرة . وكانت تقوم على مسافات متساوية فيه حصون مستطيلة بنيت بناء قوياً .

يدور هذا السور بأرض رفعت نحو عشرة أمتار عن المستوى الأصلي ، بحيث تكون الأبنية المقامة عليها في مأمن من الفيضان . وقد أقيمت على هذه المصاطب البنايات العامة ، سواء في ذلك الأبنية المدنية والدينية . ومن هذه خزان كبير للماء ، وبيت لعله كان مقر حاكم المدينة ، وبناء آخر لعله كان الديوان العام الذي يجتمع فيه أهل الشورى والإدارة .

أما القسم الثاني -الأدنى- من المدينة فتتضح لنا معالمه إذا ارتقينا مكاناً عالياً في

القسم الأول يشرف عليه : إنه الجزء الشرقي من «موهنجودارو» . إن آثاره ، من البيوت والحوانيت ، تمتد كيلومتراً ونصف الكيلومتر في اتجاه نهر السند ، حيث تقوم في آخر هذه المسافة ، مصطبة ضخمة توضح للنهر المدى الذي يستطيع أن يصل إليه دون أن يؤذي المدينة أو سكانها . ولم يكن نهر السند ليرضى بهذه الحدود دوماً ، فما أكثر ما بلغت به سورة الغضب أن يتجاوز هذه المصطبة فيخرب ويحطم . لكنه لا يلبث أن يعود إلى مجراه هادئاً باسماً مسالماً ، وعندئذٍ ينشط القوم إلى البناء ثانية والاستمتاع بنعمة هذا النهر الكبيرة .

لقد رأينا ، ونحن واقفون على أطراف تحصينات القلعة وهي القسم الغربي من المدينة ، بقية شوارع متوازية ومتعامدة في عرض نحو عشرة أمتار ، تمتد أمامنا ، وتقسم المدينة أقساماً متسعة متساوية تقريباً ، كل منها نحو 60 في 150 من الأمتار المربعة . وهذا الأمر يدل دلالة قاطعة على أن المدينة لم تنمُ نمواً عادياً على مرِّ السنين ، ولكنها كانت نتيجة تخطيط من صنع مهندس عليم بأمر تخطيط المدن . ولكل شارع مجاريه التي تمتد تحته وفق خطة هندسية وفن رائع بديع .

وفي لمحة عين عاثت اليد الشريرة في الأرض فساداً ، فأزالت مدينة عظيمة من الوجود .

فهذه هياكل عظمية لرجال ونساء وأطفال ما زال بعضها يحتفظ بآثار سيوف وفؤوس ، بعد أن صرعتها بها أيدي حشود بربرية غاشمة وتركتها على ما هي عليه الآن .

ندوة عن الإسلام والقومية

أما الندوة الأساسية عن الإسلام في العصر الحديث التي عقدت في كراتشي فقد كانت ناجحة جداً . وقد عثرت بين أوراقي على قصاصة جريدة فيها رسالة بعث بها ، من كراتشي ، مراسل جريدة «أنباء ثقافية من آسيا» التي كانت تصدر في دلهي يقول فيها إن الندوة كانت جيدة إن من حيث المواضيع التي أثيرت أو الأبحاث التي قدمت أو المناقشات العقلانية التي سادت الجلسات التي انعقدت . وقد كان للرؤساء

الثمانية الذين تولوا جلسات الندوة الثماني دور كبير في المحافظة على مستوى رفيع . إلى هذا كله يجب القول بأن الموضوع العام للندوة «الإسلام في العالم الحديث» كان بحد ذاته أمراً يهم الكثيرين .

كان البحث الذي قدمته للندوة يدور حول الإسلام والقومية . وقد قالت صحيفة الأنباء الثقافية (الهندية) بلسان مراسلها في كراتشي ما خلاصته : لعل البحث الذي قدمه نقولا زيادة نال أكبر حظ من المناقشة الدقيقة من أي بحث آخر . وأحسب أن ذلك يعود إلى طبيعته فضلاً عن القضايا التي أثارها . فقد كان النقطة التي دار حولها النقاش ، وهي التي قصدتها من بحثي ، هي : ما دام الإسلام يعتبره المسلمون قومية ، أي أن هناك أمة إسلامية ، فكيف يمكنهم أن يقبلوا بوجود قومية أخرى ، هي القومية العربية . ولا يمكن للقومية العربية أن تقف على رجلها وأن تصبح نقطة انطلاق إلا متى تخلّص المسلمون العرب من تفكيرهم الخاطئ بأن القومية العربية والإسلام شيء واحد . وهما شيئان . فالإسلام ، إذا اعتبر مظلة قومية فإنه يظلل جميع المؤمنين به بقطع النظر عن لغاتهم وثقافاتهم الأصلية (ولنترك جانباً الأصول الأثنية أو العرقية) ، وهذا معناه أن يكون العربي والأندونيسي مثلاً أعضاء في نادٍ واحد . وأين يقف العربي المسيحي (وأين يقع بالمثل الإفريقي الوثني الذي يعيش في دولة أكثر سكانها مسلمون) .

والأمور التي أثيرت حول هذا الموضوع ، وقد ورد بعضها في البحث أصلاً ، هي : الليبرالية في التصرف والتفكير ، والعلمانية وملابساتها ووضع الباكستان . فالباكستان قامت على أساس أن المسلمين أرادوا أن تكون لهم دولة خاصة بهم . فلما قامت هذه الدولة كان فيها أقلية كبيرة العدد من غير المسلمين كما أن عدداً من المسلمين ظل يقيم في الهند . فرداء القومية الغربي الذي سحبته الباكستان عليها لما استقلّت ، وكان السحب قد بدأ من قبل ، ظلّت فيه ثغرات وثقوب . فلا هو أرضى جميع المسلمين ولا هو غطى غير المسلمين .

ومن هنا فإن العلمانية ، بما فيها من تحرر وتحرير ، هي السبيل الوحيد لاعتماد القومية العربية مثالاً أساساً لحياة سياسية اجتماعية متحددة تجمع بين المسلمين والمسيحيين من العرب . وهكذا دواليك فيما يتعلق بالقوميات الأخرى التي اعتنق

أفرادها وشعوبها الإسلام .

أثار الموضوع الذي طرحته عاصفة من النقد والمناقشة . لكن جوهر الردود علي كان يدور حول رفض فكرتي أي أن القومية - والقومية العربية كانت الموضوع الأساسي - تتعارض مع الإسلام . إن ما جاء به أكثر المتكلمين هو أن الإسلام يحتضن القوميات الأصغر . ونحن لم نختلف حول الاحتضان . لكنني أردت أن يبين القوم لي نوع هذا الاحتضان ومعناه . ولكنهم لم يستطيعوا لأن الفكرة أصلاً خاطئة . القومية هي أصلاً علمانية . فهل يمكن للإسلام أن يَتَعَلْمَنْ؟

زيارة طهران وشيراز وأصفهان

1958

لما كنت في طريقي إلى الهند للمرة الأولى (1958) توقفت يومين في طهران . زرت المدينة التي عمل الشاه رضا بلهوي وابنه (1924-1979) على تجميلها وتوسيعها . وكان لي اجتماع مع فارمانيان المسؤول عن مؤتمر حرية الثقافة هناك لنرى ما الذي يمكن عمله في سبيل ندوة أو مؤتمر يمكن عقده في إيران .

وفي طريق عودتي من الباكستان في شباط / فبراير 1959 توقفت في طهران ثلاثة أيام حيث انتهى بنا الأمر إلى اتخاذ قرار لعقد ندوة في شيراز تدور حول «دور النخبة في تطوير الحياة الفكرية في البلاد» . وعلى غرار ما حدث بالنسبة للندوة التي كنا قد انتهينا منها في كراتشي ، كلفت أن أكون عضواً في اللجنة التحضيرية لإعداد المفكرة اللازمة . لكن الذي حدث كان أن رتبت أنا تقريباً كل شيء يتعلّق بالندوة ، وعقدت الندوة في سنة 1960 وفي الربيع .

كان جميع المساهمين في الندوة من إيران ، وقد قدمت جميع الأوراق باللغة الفارسية . ألقيت أنا ، بوصفي ممثلاً لمؤتمر حرية الثقافة ، كلمة الافتتاح . وكنت قد طلبت من وكيل كلية الآداب في جامعة شيراز أن يزودني بديوان سعدي الشيرازي . وليس المكان هنا للتحدث عن شعر سعدي ، بل عن شيراز . لكن لا بدّ لنا من أن ننقل هذه المقطوعة (عن الإنجليزية ، ولذلك فإن الدوار سيصيبها مرتين . إلى ذلك فإنها قطعة شعرية ينقلها نثراً شخص لا هنا ولا هناك) . والمقطوعة عن شيراز . قال :

قلت لنفسي «الآن سأجوب العالم حراً
وقد قطعت سلاسل استعبادي وانطلقت حراً .
ألا يوجد هناك ، خارج فارس ، بيت آوي إليه؟
ولا في بلاد الروم أو الشام أو البصرة أو بغداد؟

لكنني اكتشفت أن شيئين (اثنين) يتمسكان بأهداب ثوبي
تربة شيراز وفضة رُكنا المترقرقة
(ورُكنا هو نهر شيراز) .

الشاعر حافظ مفلساً

وحافظ من أهل القرن الثامن عشر (الرابع عشر) ، وهو شيرازي النشأة والتربية والتعليم والعمل والإقامة . وهو إلى كونه أحد كبار الشعراء ، فإنه صوفي النزعة . وقد وصفه ميرزا محمد قزويني ، أحد كبار النقاد الأدبيين في الأدب الفارسي ، في القمة من شعراء العصر الحديث (بالنسبة إلى العصور الكلاسيكية) .

ولد حافظ في شيراز حوالي السنة 1324 وتوفي فيها سنة 1389 . وكانت شيراز وأصفهان ويزد وبقية مدن فارس (فَرس) وأرجائها تنتقل من يد إلى يد مجرد أن يتمكن سيف الواحد من المطالبين من رقبة خصمه . لكن الشخص الذي عاش حافظ في كنفه بعض الوقت هو شاه شجاع الذي توفي سنة 1384 بعد أن حكم نيفاً وربع قرن . وعلى كل لم تكن كلها مريحة . وكان آخر من ظهر على المسرح تيمور ، لكن شاه شجاع استرضاه بهدايا ثمينة وواحدة من بناته . ثم أنقذه الموت مما هو ألعن .

يمكن القول بأن حافظ كان الشاعر الخاص بالبلاط . لكن بعد وفاة شاه شجاع وجد نفسه وهو في نحو الستين من عمره يبحث عن ركن يأوي إليه . لكن كل ما استطاع أن يصل إليه هو أن ينسخ للآخرين قصائدهم . إلا أن أيامه لم تكن هينة عليه ، ولم يكن بين أهل الثراء من تنبه إلى مكانة الشاعر أو حالته .

وقبل أن يموت حافظ لقي تيمور ، الذي كان يعرف شعره وقدره . ويروى أن تيمور منح أهل شيراز الأمان على أنفسهم . ثم صدرت اللوائح التي تحمل أسماء الملاكين للعقارات في شيراز ، كي يدفع كل منهم ما ينبغي عليه . ولأن حافظ كان يملك بيتاً في حي من أحياء المدينة ، فقد وجب عليه بموجب هذا الحق أن يقوم بدفع ما عليه من الغرامة التيمورية ولو أنها سميت التعويض (عن الأمان) .

رفع حافظ الأمر إلى تيمور راجياً إعفاءه لأنه مفلس : لكن الأمير ذكره بأبيات من

شعره جاء فيها أنه إذا قبلت هذه التركية من شيراز أن تحتضن قلبي بيديها فإنني أدفع ثمن شامتها بخارى وطشقند وحتى سمرقند ؛ فالرجل الذي يستطيع أن يقدم بخارى وسمرقند ثمناً لشامة واحدة لا يمكن أن يكون مفلساً فأجاب حافظ حالاً «إنه بسبب هذا البذخ والإسراف أصبحت مفلساً» . وبسبب هذا الجواب الحسن أعفاه تيمور من دفع ما عليه ، وأطلق سراحه .

كنت قد سمعت عن شيراز أنها مدينة الورود والرياحين . ولما نشر أرثر ج . اربري كتابه عن شيراز (أوكلاهوما ، 1960) سماها مدينة الأولياء والشعراء . ولما زرتها (مع أصفهان) سنة 1960 لم أدرِ ما هو الاسم الذي يمكن أن أطلقه على الواحدة أو الأخرى . ولأنني تحيرت لم أقرر ، ولم أقرر بعد . لكن الزيارة لهاتين المدينتين أعتبرها أنا أمراً ضرورياً لمن يريد أن يرى للفن آثاراً . في شيراز أشياء كثيرة لكن قبر حافظ في المدينة وقبر سعدي خارجها يذكران الزائر بأنه يزور قبرين لشاعرين - بناء وأزهاراً .

أصفهان نصف الدنيا

ثم إنني هبطت أصفهان فهبطت رياضاً غناء وحدائق فيحاء ، ونزلت بين ورد ورياحين . ذلك أو ما يطالعُك من هذه المدينة التي قست الطبيعة على ما يحيط بها على بُعد فجففته ، وحَنَتْ على أصفهان وأرباضها فأغدقت عليها الماء نهراً كبيراً ، فرويت الزروع وأينعت الزهور وراق المنظر .

لكنني لم أكد أدخل المدينة حتى وجدت عجباً . ذلك بأن أصفهان إنما هي متحف حي للفن . فهذه المساجد والقباب والمدارس والأقواس تتحدث عن مهارة وإتقان اقتربا من الكمال إن لم يكونا قد بلغاه .

ووقفت في ميدان شاه ، في وسط المدينة ، وكانت الشمس تهم بالمغيب فرأيت أشعتها الأخيرة تجر ذيولها على قبة مسجدي شاه ولطف الله فتتعلق ألوان هذه بتلك الأشعة ، فيبدو للناظر منظر من أروع ما يمكن أن يعثر عليه . ووقفت في المكان ذاته صباحاً ، وكانت الشمس قد اختلست غفلة الناس أو التهاءهم بأعمالهم فسرقت من القبتين قبلة احمرتا لها سروراً وبهجة ، فاختلطت ألوان الحب بألوان الأمل بألوان

الغضب بألوان الحقد ، فكوّنت قوس قزح ، لكنه كان على الأرض لا في السماء .

ولعلنا نحسن صنعاً ، أيها القارئ الكريم ، إن نحن رجعنا بعض الوقت في التاريخ ، لنتحدث عن هذه التحف الفنية في أصفهان كما كانت أيام عني بها بُناتها ومهندسوها والمتعبدون والمتعلمون . ولنقف في هذا الميدان في أوائل القرن السابع عشر للميلاد ، أي قبل نحو ثلاثة قرون . ويومها صاحب الأمر في إيران الشاه عباس الصفوي (1587–1659) وعاصمة ملكه هي أصفهان . هذا ميدان طوله خمسمئة متر في مئة وخمسين ، وفي طرفيه الشمالي والجنوبي ركازات يستعملها لاعبو الكرة والصولجان . وتدور بالجهات الأربع من هذا الميدان هذه الأبنية الأنيقة الجميلة .

هذا الشاه عباس يحاول أن يجعل من عاصمته درة فنية . فها هو يقيم في الجهة الشمالية من الميدان القيصرية ، حيث كان يتبادل التجار أحمالهم وأثقالهم . لكن البوابة التي تنقلك من الميدان إلى القيصرية تحمل أفاريز تؤرخ بالصور لحروب الشاه عباس ضد الأزبك . ومع أنها قد خبا بعض لونها بسبب الشمس والهواء ، فإنها لا تزال تبْهرُ الأبصار . وتعلو البوابة نفسها فسيفساء متقنة الصنع تمثل الصياد الرامح الذي تقع أصفهان ، فيما يرى المشارقة ، في برجه . وهكذا جمعت بوابة القيصرية بين الفن والأسطورة ، فالصياد الرامح كان رمزه مخلوقاً نصفه إنسان ونصفه نمر ذنبه أفعى كبيرة ، وتبدو عمل يد صناع أفرغت فيها المهارة كلها .

فإذا وجّهْنا وجْهَنا نحو الشرق ، ونحن وقوف في الميدان ، وجدنا أمامنا مسجد الشيخ لطف الله! وقد استغرق بناؤه قرابة العشرين عاماً . وأنت إذ تلتفت إليه تحار أين تركز نظرك للاستمتاع بالجمال . فالمدخل جذاب بألوان الطلاء ، والقبة التي تقتعد الجزء المتوسط من المسجد تخطف الأبصار بالخط والرسوم الأنيقة ، فضلاً عن أنها تكسب الناظر إليها راحة وهدوءاً ، بسبب ما فيها من اتساق وانسجام ، لوناً وشكلاً وهندسة . ولست أبالغ إذا قلت إن هذه الجوهرة الفنية لا يمكن أن تدرك قيمتها إلا بالوقوف أمامها والتملي من رؤيتها شخصياً .

أما في الجنوب فترى ، ونحن بعد في الميدان ، مسجد الشاه . والبوابة الموصلة من الميدان إليه مرتفعة جميلة ، مقرنصاتها تكسبها ظلالاً تزيد في رقتها رقة ، وفي حسنها حسناً . وقد استغرق بناؤها وزخرفتها أربع سنوات ، إذ إنها كلها من

الفسيفساء . أما ما تبقى من أبنية المسجد فقد زخرف بالآجر المطلي المعروف بالقاشاني أو القيشاني والمسمى في إيران هنترنغ أي ذي الألوان السبعة .

وهذا المسجد فيه من ثمار هذا الفن الجميل : البوابة والقبة الجميلة التي تنافس قبة جامع الشيخ لطف الله أناقة ورزانة ، وقطع الرخام الضخمة التي استعملت للركائز في فناء المسجد ، وفسيفساء باب المسجد التي تمثل طاووسين يبدوان كأنهما طبيعيان ، وأوعية الماء الضخمة المحفورة في قطع ضخمة من الرخام ، والمنارة التي تنهد نحو السماء ، وكأنها مثل حي على جهاد الفن وأهله في سبيل الوصول إلى الله .

ولعلّ من أطرف ما يجب أن يذكر عن مسجد شاه هو أنك عندما تقف تحت منتصف القبة تماماً تستطيع أن تسمع صدى كل كلمة تتلفظ بها أو حركة تأتيها مهما كان الصوت خفيضاً .

وكان الشاه يطل من قصره المسمى «عالي قبو» فيشرف على هذه الأبنية الفخمة الجميلة ، ويراقب ما يجري في الميدان لعباً كان ذلك أو استعراضاً أو فروسية . والقصر فيه سبعة طوابق أو أدوار ، يختلف زخرف الواحد منها عن زخرف الآخر ، والغرف والقاعات تختلف سعة وزخرفة ، بين الزهور والأوراق والأشجار وبين الخطوط التقليدية . ولعلّ أجمل قاعاته هي قاعة الاستقبال الكبرى في الطابق الثالث . فسقفها مزين برسوم الطير بألوانها الطبيعية .

وليس هذا كل ما في أصفهان . فثمة مسجدها الجامع الذي يشغل تاريخاً معمارياً يمتد من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع عشر . وفيه من القاشاني ما يذهب بالأبصار رونقاً وبهاء . وثمة قصور وقصور وقصور . ولعلّه مما يروق القراء الكرام أن يعرفوا أن الشاه عباس أنشأ في أصفهان شارعاً طويلاً يمتد من شمال المدينة إلى جنوبها وأقام عليه أربع حدائق غاية في التنظيم والجمال . ولا يزال الشارع قائماً إلى يوم الناس هذا . واسمه لا يزال على ما كان عليه يومها جهار باغ .

وبعد أيها القارئ الكريم فأصفهان متحف . لكنها متحف حي للفن . إنها متحف يقوم وسط حدائق غنّاء . فما أجمل الزيارة والمزار .

وهكذا فقد أتيح لي في فترات متلاحقة ومتقاربة أن أرى معالم إسلامية وغير إسلامية في إيران والهند وباكستان .

الرحلة إلى أواسط آسيا

طشقند، سمرقند، بخارى، وخيوه

1975

أردت أن يتم لي التعرف على معالم الحضارة الإسلامية ، ولو من حيث ما تبقى من الآثار ، في آسيا الوسطى . لذلك شددت الرحال 1975 إلى طشقند وسمرقند وبخارى وخيوه (خوارزم) .

هناك يستطيع المرء أن يرى المنطقة التي تعرضت فيها الآثار الإسلامية للتأثير الصيني من حيث الألوان ومن حيث الخطوط . ولذلك فإن ما تبقى من الآثار في بخارى وبقية الأماكن لا يريح العين فقط ، ولكنّه يملأ النفس خيلاء بسبب الإتقان والدقة ، فضلاً عن بقايا تدلّ على الضخامة مثل أسوار بخارى وخيوه . وميادين طشقند وسمرقند ومدارسهما أشياء توضح لك معنى ما نقصده من قولنا حضارة عربية إسلامية . ففي بخارى مثلاً ، حتى في الزمن الذي كان الفردوسي يحيي فيه اللغة الفارسية (البلهوية الحديثة) كان ابن سينا وخلفاؤه يدونون العلوم وأخبار الفنون باللغة العربية .

وفي سمرقند ، فضلاً عن المساجد والقباب التي لا تزال تعمر المدينة ، فهناك بقايا المرصد الذي بناه أولغ بك (850-853هـ/ 1447 - 1449م) كي يرصد منه الكواكب ويصحّح بعض الجداول الفلكية . إلى هذا كله فقد كنت ، لما زرت طشقند ، على مقربة من نهر طلس (طرس) حيث وقعت معركة ، هي الوحيدة في تاريخ العرب ، بين جيش عربي وجيش صيني (132هـ/ 751م) . وقد انتصر العرب لكنّهم لم يتابعوا انتصارهم . ولم يحاول الصينيون الانتقام . وقفت الحرب هناك ، وحلّ محلّ القتال ، شيءٌ كان له أثر كبير في تطور الفكر في العالم . فقد كان بين الصينيين الذين أُسروا في المعركة جماعة من الصنّاع بينهم صنّاع الكاغد (الورق) . كان الكاغد الصيني معروفاً في المدن الإسلامية في تلك الجهات . لكن صناعته كانت سرّاً صينياً . أمّا

الأسرى من صنّاعه فقد أخذوا بصناعته وعلّموا أهلَ سمرقند سرَّ هذه الصناعة . وبذلك عرف الكاغد هناك في القرن الثاني (الثامن) ووصلت صناعته خلال قرن ونصف القرن إلى بلاد الشام . فقد روى المقدسي أن دمشق وطبرية كانت بين المدن التي يصنع فيها الكاغد .

حضارة متصلة

على أن الذي أود أن أقوله إنني في زياراتي جميعها لم أكن أنظر إلى هذه الأماكن - مدناً قديمة أم حديثة كانت أو مناطق- بالمفرّق بل بالجملة : بالجملة من حيث ارتباط كل من هذه بالطرق الرئيسية ومن ثم بالتجارة والهجرات وتنقّل الجيوش وسير الرحالين والحجاج وسواهم . والتعرُّف إلى طبيعة المناطق وما تُنتج ، أو ما كانت تنتج ، وما تبيع أو ما كانت تبيع ، وما تشتري أو ما كانت تشتري ، وتطور الحضارة في أجزائها - كل ذلك كانت أموراً تعين على تفهم التاريخ وتطوره .

إلى هذا كله كنت حريصاً على التعرف إلى دور التاجر في نقل الأفكار على تنوعها إلى جانب سلعته على تباينها .

ذلك بأن الكثيرين يغفلون عن الوقت الذي كان التاجر - مهما كانت بلاده أو متاجره - يقضيه في الطريق : مع الجماعة الكبيرة في السفر ، وفي الخانات إقامة وفي الأسواق تعاملاً مع غيره من التجار . وكل من هؤلاء ، مهما كانت درجته من المعرفة ، كان لديه ما يرويه قتلا للوقت ، ومبادلة حديث ، وتسلية جماعة . هي أساطير وقصص وروايات وأخبار وأغانٍ يتبادلها القوم في مجالسهم مقيمين أو متاجرين ، ومع الزمن تكبر هذه وتترسخ وتدوَّن وتصبح جزءاً من ثقافة السامعين والمشتركين وأبنائهم وأحفادهم . وتتبدل القصّة والأسطورة والخبر روحاً وجسماً وشكلاً كي تتناسب مع الأجواء الجديدة . والمهم أنها تترك أثراً في الناقل والسامع والوارث والناشئ .

فالتاجر القديم البطيء في تنقله ، المتأني في تعامله ، المتأني في حديثه ، كان عاملاً أساسياً من العوامل المؤثرة في التطور الثقافي عبر العصور السابقة .

رحلاتي في الشمال الإفريقي

1979-1949

بيني وبين المغرب العربي صلة قوية ، هي بصلة الرحم أشبه . وتعود هذه الصلة إلى سنة 1949 ، إذ قضيت بعضها في برقة حيث كنت أعمل ، كما أسلفتُ ، مساعداً لمدير المعارف (في زمن الإدارة البريطانية) . وقد أتاح لي ذلك التعرف إلى البلاد وأهلها ، فشعرت نحوهم بحب عميق . ولا غرابة في ذلك ، فأنا عربي كنت بين أهلي وعشيرتي ؛ فلكل ربع من ربوع العرب حرمة وهوى تغلغل مني في صميم الفؤاد .

الوصول إلى بنغازي

كان وصولي إلى بنغازي ، عاصمة برقة ، في فصل الربيع من تلك السنة . وكانت أول نظرة ألقيتها على برقة من الطائرة . فيسر لي ذلك أن أتعرف إلى معالم سطحها ، أو على الأقل الجزء الشمالي منها ، بشيء من الوضوح . فرأيت هذا الشاطئ المنحني كأنه قوس يمتد من البردية إلى خليج سرت ، والذي هو خلو من التعاريج الكبيرة النافعة ، باستثناء تعريجه واحدة حرية بالذكر عند طبرق . وهذا الشاطئ يتلوه سهل ساحلي هو ، في الجزء الأوسط من البلاد ، ضيق جداً ، بحيث يتكون في الواقع من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل إلى الشاطئ . وتعانق البحر . لكن على جناحي برقة : في البطنان (أو مرمريقة) شرقاً – وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً – يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء .

ومرت بنا الطائرة فوق البُطنان ، أو جبل عقبة ، الذي بدا لنا منبسطاً ، ولا غرابة في ذلك ، فإن ارتفاعه لا يتجاوز المائتين من الأمتار إلا في ما ندر . واتضح لنا ،

وكانت الطائرة على ارتفاع يمكننا من تبين معالم الأشياء ، أن هذا الجناح من برقة إنما هو جزء محدود الموارد ، تغلب عليه الصحراوية أو ما يشبه ذلك . فنحن نطير في فصل الربيع ، وليس فيه ما يدل على الربيع!

وحلقنا فوق الجبل الأخضر ، وهي الهضبة التي تستأثر في برقة بالأجزاء المرتفعة ، والأمطار الغزيرة (نسبياً) ، والأرض الخصبة . وقد ظهر هذا بادياً للعيان . فهذه الغابات تكسو الأجزاء الجنوبية المرتفعة من الجبل الأخضر ، وهذه الكروم تغطي السفوح الشمالية منه . وهذا جزؤه الغربي يبدو وقد آتى أكله لأولئك الذين أحسنوا خدمته .

بنغازي من الجو

فإذا تم لنا اجتياز الجبل الأخضر ، واستشرفنا بنغازي من الجو ، عاد إلى الأرض عريها ، وبدا ما يشبه الصحراء ، إن لم تكن الصحراء بعينها ، يمتد أمامنا مئات الكيلومترات غرباً وجنوباً .

وثمة أمر آخر رأيناه من الطائرة ، وهو أن الجبل الأخضر يرتفع من الشاطئ ارتفاعاً مباشراً في الشمال ، وكأنه يرتقي في ثلاث درجات (تبلغ أعلاها 875 متراً) ، ارتقاء مصعداً صعباً ، لكنه ينحدر نحو الجنوب ، إلى الصحراء ، انحداراً تدريجياً فيه هون ولين . وكأني بالطبيعة كانت رئيفة بالمصعد من الصحراء ، فلم توصله إلى ما يشبه الجنان بسرعة ، وكانت رفيقة بالمنحدر إلى الصحراء ، فلم تلقه في أحضانها دفعة واحدة .

ومع ذلك فما أحسب أن الذي ألقينا عليه هذه النظرة السريعة من الطائرة يتجاوز سبعين أو ثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة ، وهو لا يكاد يزيد على عشر ماسحة برقة البالغة نحو 800.000 كيلو متر مربع .

فشاطئها ، من الحدود المصرية شرقاً ، إلى الحدود الفاصلة بينها وبين طرابلس الغرب غرباً ، يبلغ طوله نحواً من 1.500 كيلو متر . أما عرض البلاد ، إلى الجنوب ، فيمتد إلى السودان وإفريقيا الوسطى .

إن التصعيد من السهل أو الساحل إلى الجبل الأخضر صعب ، سواء أكان ارتقاؤك

من بنغازي إلى الأبيار ، أم من توكره أو طلميثة إلى المرج ، أم من سوسة إلى شحات والقيقب ، أم من دَرْنَة إلى عين مارة والقبة . ولكن هذا الجهد الذي تبذله في التصعيد تكافأ عليه : وقد كان أول ما لفت نظري ، لما تركنا توكره ، واتجهنا جنوباً نحو الجبل الأخضر ، هو أن السيارة خففت سيرها . ثم فاجأتنا في أول الطريق لوحة كبيرة كتب عليها -ممر توكره- طريق شديدة الارتفاع ، والتوت الطريق ، وتبعتها السيارة متعبة . وأخذت أطراف الأودية تبدو على اليمين والشمال ؛ وبدت بعض الأشجار والأنجم ، مثل البطم والخروب القزم ، على الجانبين ، ولم تلبث أن ظهرت بعض صنوبرات من الصنوبر الإفريقي . لكن هذه الأودية تبدو طفلة إذا قوبلت بأودية لبنان ، وهذه الجبال تبدو قزمة إذا قورنت بجباله .

وانتهينا من ممر توكره فإذا بنا في الجبل الأخضر ، في أجزائه الغربية المسماة المرج ، وهي هضبة متسعة . وكأنها سهل مرتفع ، تتوسطه مدينة المرج نفسها ؛ وقد كان الإيطاليون يطلقون عليه سهل بارتشي .

ها أنا في شحات (قيريني) ، وقد ذهبت اليوم إلى سوسة (ابولونية) في زيارة قصيرة . لقد شعرت وأنا في السيارة ، وهي تهبط هذه الطريق الملتوية المعوجة ، كأنني أنحدر من جبال كسروان نحو جونية ، أو كأنني أنحدر من رام إلى الرملة . فلا تختلف الطريق ولا ما حولها عن تينك الطريقين أو ما حولهما .

وحول شحات هنا تقع منطقة من أجمل المناطق التي يمكن أن ترى في برقة . فالأرض ، إلى مسافة بعيدة ، تكسوها الأشجار الجميلة ، بعضها طبيعي كالزيتون البري والصنوبر والسرو ، وبعضها غرسته الأيدي العاملة ، على عدوات الأودية ، وجوانب الطرق ، وأكثره من شجر اليوكالبتوس .

وأقبلنا على درنة . وتبدت لنا ، ونحن في طرف الجبل الأخضر ، مدينة صغيرة بيضاء تكتنفها أشجار النخيل ، وتجملها زهور الياسمين وغيرها . وهي في جيب من هذه الجيوب الساحلية التي يمتاز بها الشاطئ البرقاوي المصاقب للجبل الأخضر . وقد انحدرنا نحو أربعمائة متر في نحو أربعة كيلو مترات أو أقل ، في طريق يتلوى كأنه قد لدغته حية ، فسرى الألم في جسمه» .

«غادرنا درنة إلى طبرق . فلما أخذت السيارة تصعد في هذا الطريق الشديد

الارتفاع ، نظرت خلفي ، لألقي نظرة على درنة من جهة الجنوب الشرقي ، فوجدتها كالصغير يحاول أن يلعب لعبة الاختباء . إن اعوجاج الطريق يظهر المدينة حيناً ؛ ويخفيها حيناً آخر ، وهي فرحة بهذا ، فلا يبدو منها إلا وجه ضاحك فرح ، كأنها لم تعرف الألم .

فإذا صعدت من الساحل إلى الجبل الأخضر ، وتنفست هواء الجبل المنعش ، وجدت في هذا السفح الذي يسميه البرقاويون الوسيطة ، أرض المرج الخصبة ، التي تنتج القمح والفواكه والخضار والكروم والتين ، وتصلح للزيتون ، وإن كانت لا تنتجه اليوم . ووجدت إلى الشرق منها أرض العرقوب ، وهي الأرض المخددة الكثيرة الأودية ، المكسوة بالأحراج الكثيفة ، ولو أن الكثير من أشجارها صغير .

أما بين دانْزِينُو والزاوية البيضاء (سيدي رافع) فثمة مجموعة من الأودية الصغيرة ، تأتي من الهضبة ، وتلتقي أكثرها معاً في وادي الكوف (الكهوف) ، الذي هو أشبه ما يكون بوادي الزرقا في شرق الأردن ، بين عمان وجرش ، لكنه خال من الماء ، ولا يمتلئ إلا في فصل الشتاء ، فصل الأمطار . على أنه ، وهو عميق وجميل وخطر ، لا يبلغ في هذه كلها ما تبلغه الزرقا أو أودية لبنان . ولعل مطلع باب الواد ، بين القدس والرملة ، أقرب الأماكن شبهاً به . وهنا يبدو شجر السرو ، ويكثر الصنوبر .

الجبل الأخضر

وإلى الجنوب من المرج والعرقوب تمتد الأجزاء المرتفعة من الجبل الأخضر ، وهي التي تسمى الظاهر ، وأعلى أجزائها هو 875 متراً . وهذه الأجزاء هي التي يصح أن يطلق عليها اسم الغابة فعلاً ، لأن الغابات تكسوها بأكملها .

وينحدر الجبل الأخضر تدريجاً نحو الصحراء جنوباً . وتكثر في هذه الانحدارات الأودية . لكن المنظر هنا ، كما يبدو من الطائرة ، وكما هو في الواقع ، مختلف . فالغابة وأشجارها تنعدم ، وترى الأنجم الصغيرة القزمة والأعشاب التي تظهر بعد سقوط المطر . وحيث تتكون وهدات متسعة يكثف الكلأ ، إذ تتجمع فيها المياه ، وتظل مدة أطول تغذي هذه الأعشاب بعد انقطاع الأمطار . لكن كلما اتجهنا جنوباً قل العشب ،

وبدت طلائع الصحراء القاحلة ، ثم تمعن الأرض في القحولة بحيث لا تعود تصلح لشيء ، ولا تعرف للنبات معنى .

وبين درنة والبردية ، على الشاطئ البرقاوي ، نحو ثلاثمائة كيلومتر ، وبينهما تقع طبرق وهي أقرب إلى الأخيرة قليلاً منها إلى الأولى . وأنت إذ تجتاز هذه الطريق ، تشعر ، بعد أن تخلف درنة وراءك ، أنك في أرض قاحلة .

نحو طبرق

إن الطريق من درنة إلى طبرق فيها قريتان فقط ، وقد رأينا مزرعتين تقومان حول نبعين من الماء ، أما بين طبرق والبردية فلم نجز إلا في قرية واحدة ، هي قرية كمبوت .

وهذه الطريق القفر لا يقطع عليك تفكيرك فيها إلا أكداس العتاد الحربي المهشم ، من أيام الحرب العالمية الثانية ، وإلا صف من الإبل تراه على الأفق بين آن وآخر .

ولا شك أن هذه الحالة تتغير في الشتاء . فنحن الآن في الصيف (فأنا أكتب في أواخر حزيران/ يونيو) . ولكن متى هطلت الأمطار القليلة ، ونبتت الأعشاب ، كثرت هنا الأغنام والماعز والأبقار ، التي تكون في هذه الأيام في الجبل الأخضر ، تفتش عن غذائها .

هذا هو ساحل البُطنان أو جبل عقبة أو مرمريقة . وعلى كل ، فإن هذه الأجزاء الصالحة للرعي لا تعدو ثمانين كيلو متراً إلى الجنوب من الساحل ، أما بعد ذلك فهي أرض صحراوية ، غاية في القحولة ، ولا تصلح لشيء .

وبرقة البيضاء والحمراء ، وهي المنطقة التي تمتد إلى الجنوب من بنغازي ، والتي تتوسطها السلوق وأجدابية ، فيها مناطق تصلح للشعير والرعي ، وبعضها ينبت فيه القمح .

«فإذا انتهى المرء إلى أجدابية ، على الشاطئ أو السلوق في الداخل ، واجتازهما ، ودع الأرض الصالحة للاستغلال ، ودخل في قلب الأرض الصحراوية . وهذه الطريق التي اجتزتها أمس من بنغازي إلى طرابلس الغرب ، هي ، بين أجدابية ومدينة سرت ، لا تقع العين فيها إلا على ما يذكرك بالجفاف . وقد مرت بنا ساعات ، اجتزنا

فيها نحو 600 كيلومتر ، ولم تقع العين على ما يذكرنا بالحياة ، إلا هذه الأشواك التي تتغلب على الجفاف ، وإلا هذه الطريق التي كانت تمتد أمامنا كأنها طريق الأبدية» .

طريق الأبدية

ومن برقة سرت غرباً . أخذت أقضم المغرب العربي على مهل وفي زيارات كثيرة جداً . وقد انتقلت في الطريق الساحلي ، من البردية على الحدود الليبية - المصرية ، إلى وهران . هذا الطريق الذي قلت عنه إنه يشبه طريق الأبدية ، قطعته في أنواع مختلفة من وسائل النقل : فمن سيارة شحن إلى سيارة إسعاف إلى باص مقاعده وظهورها من الخشب إلى سيارات عادية إلى سكة الحديد . وفيما بعد تنقلت براً من طنجة إلى أغادير في المغرب . توغلت في داخل البلاد أحياناً ، واجتزت جبال الأطلس في سلاسلها الثلاث . تعرفت إلى البلاد ، وعرفت أهلها صغاراً وكباراً .

أردت أن أتعرف إلى الأجزاء الداخلية من ليبيا . فزرت فزان حيث قضيت بضعة أيام .

أقلعت الطائرة بنا من مطار طرابلس الغرب وفي برديها عزم وهمة وفي جوفها ركاب أسلموا أنفسهم لله بعد أن ارتفعت هذه الآلة الضخمة عن الأرض . وقد كان في الطائرة من عرف الطريق غيباً ومن كان تعباً منهكاً فلم يهتم بما تحته أو بما فوقه . أما أنا فقد سمرت عيني على ما هو خارج الطائرة . الجو صاف والسماء زرقاء . وتحتنا مزارع خضراء وزيتون يغطي الأرض مسافات واسعة . ولكن ما الذي حدث؟ إنها خمس وعشرون من الدقائق أو نحو ذلك وإذا بالمزارع تختفي والزيتون يغيب . ولم كل هذا؟ إن الصحراء بدأت . وأكدت النظر إلى ما تحتنا ، فاتضح لي أننا نطير فوق رمال ورمال ورمال . لكنها ليست كلها رمالاً ناعمة تنقلها نسمة الهواء أو تسفيها الرياح . إن بعض هذه الرمال صلبة قاسية ، بل ثمة منها ما يتحد ويتجمد ويرتفع بحيث يكون تلالاً وجبالاً تلقي على ما أمامها أو خلفها ظلالاً . وأنت تطير على ارتفاع ثلاثة آلاف من الأمتار . ومع ذلك يملأ الفرح نفسك إذا لمحت في هذه الرقعة الشاسعة الممتدة تحتك شجرة أو ظل شجرة . أما إذا وقعت عينك على واحدة - وقد تقع -

فأنت ترقص من الفرح مشاركة لمن يمكن أن يكون سائراً فوق تلك الرمال . وظل الشجرة نادر وأندر منه ، في الطريق الذي طرناه ، مجتمع الأشجار في واحة .

في قلب الصحراء

وظلت الطائرة مستقيمة هادئة ، إلا من جيب هوائي هنا أو هناك ، حتى وصلنا فوق الزلاق ، وهو جزء من الصحراء فيه كثبان من الرمل الناعم ، يقع بين سبها وبراك في منطقة الشاطئ . كان النهار قد تجاوز منتصفه ، وكانت الرمال قد امتصت من الحرارة ما زاد على حاجتها ، فنقلته إلى الهواء فوقها ، وهذا كثرت الثقوب في جيوبه وهو صاعد ، فأخذت الطائرة تنفذ إلى هذه الجيوب فتتهادى وتتمايل بل وترقص . وقال قائل القوم إنه الزلاف ، وقلت : «إذن فهذه رقصة الزلاف» . وزاد في رقصتها أنها اضطرت إلى الانحدار التدريجي لأنها قاربت الوصول إلى هدفها . ولم نلبث أن رأينا واحة ، فقال جاري : سبها وبعد ساعتين ونصف الساعة على خروجنا من طرابلس هبطت الطائرة على مدرج رملي طبيعي في مطار سبها .

وسبها بلدة صغيرة بعد ، لا يتجاوز عمرها بضع سنوات . فهي بنت من بنات استقلال ليبيا بني أول ما بني فيها دار لواليها الأول هي التي يقطنها الوالي الحالي . ثم أضيفت ، تدريجاً ، بيوت وأبنية لدوائر الحكومة والمدارس والموظفين . لكنها بلدة تنمو وتتطور . تقف في أعلى نقطة من قلعتها ، فتشرف على شوارع لطيفة وبيوت أنيقة وحوانيت مرتبة . وترى طرقاً رملية مخططة ، وإن لم تكن مزفتة ، تخرج منها متفرعة إلى غات ومرزق وبراك وهون وغيرها . وعند أول كل طريق إشارة تبين لك المسافة إلى المكان الذي تقصده .

وخرجنا من سبها إلى البحيرة . والبحيرة مجتمع ماء تحيط به أجمة من النخيل . وفي الشتاء يتسع بحيث يكون بحيرة لطيفة ، لكن ماءها ملح وإن لم يكن أجاجاً . أما في أواخر الصيف ، وهو الوقت الذي وقفت فيه على ضفتها ، فقد كان فيها بعض الماء الآسن . ولكن نحن في صحراء ، في جوف الصحراء ، وكل ماء مهما قل وملح ، فإنه مدعاة للسرور والطرب . ونحن في بلادنا نقطف بعض الثمار عن الشجر باليد

ونأكلها : وهناك ، على شاطئ البحيرة ، قطفت التمر عن شجر النخيل دون تسلق أو اعتلاء .

ولم أكتف بالوصول إلى قلب الصحراء في سبها . ذلك أنني أردت أن أتوغل فيها قليلاً . وتلطف رئيس الحكومة فوضع تحت تصرفنا - أنا وصديق لي عزيز عليّ - سيارة قوية نقلتنا إلى مرزق . فكنا على بعد 900 كيلو متر عن الشاطئ .

مرزق كانت عاصمة الولاية في أيام العثمانيين . كان فيها قائمقام تركي وقاض تركي ورئيس جند تركي . وكانت القلعة التي بناها الأتراك ، ولا تزال جدرانها قائمة ، مركز الحكم ومستودع الهيبة ومهبط آمال العدل ، ولم تحقق دوماً كل ذلك . لكن مرزق كانت ، إضافة إلى ذلك ، منفى تبعث إليه الحكومة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ببعض أولئك الذين يغضب السلطان عليهم ، فيقضون أياماً وشهوراً وسنوات ، وقد ينسون هناك ، وقد ينتقلون إلى العالم الآخر رأساً من مرزق .

القلعة التركية في مرزق مكان للزيارة لا للإقامة ، والجامع التركي المبني من اللبن المجفف أثر لا مصلي فيه . والوقفة على القلعة تكشف أمامك منبسطاً لا حد له ، ومتسعاً ينتهي عند الأفق . ولا شك أنه مكان يعشق ، إن لم يرغم المرء على الإقامة فيه .

مرزق تمثل ، في تاريخ ليبيا الحديث ، حكم الأتراك وحكم الإيطاليين وحكم الفرنسيين ، لكنها تحكي أيضاً حكايات بطولات انتهت بالاستقلال . وهذه الحكايات حرية بأن تسمع وحرية بأن تدوّن .

ومع أن قصص التاريخ وقصص البطولات محبب إلى النفس أخاذ جذاب ، فإن قصص الواقع والإنشاء قد يفوقه . ولعل ما تم في فزان في السنوات العشر الأخيرة مما يستحق عناية خاصة . الواقع إن كل ما تم في ليبيا يستحق ذلك ، لكن فزان حالة خاصة . بلد بعيد عن البحر ، كان يعيش على القوافل وما تحمله إلى واحاته ، ولا تزال الواحات مراكز العيش والتجمع . لكن سبها ، قلب فزان الإداري ، ترتبط اليوم بالعالم بغير القوافل . فالطائرة تنقل الركاب المدنيين منها إلى طرابلس وبالعكس . ومعنى هذا أنها أصبحت مرتبطة بالعالم كله . وهذا البريد يصل إليك مرتين في الأسبوع وأنت هناك . وخط التلغراف أو خطوطه تربط أنحاء المملكة الليبية بعضها

بعض ، ولذلك فإنها تيسر العمل . وثمة طريق ، على وشك أن ينتهي ، يصل طرابلس بسببها عن طريق هون . وهون منطقة غنية بالتمر الجيد ، لذلك أنشئ فيها مصنع للتمر المحشو باللوز وغيره ، ينتج إنتاجاً جيداً . وقد حملت منه هدية صغيرة أعجب بها كل من ذاقها .

السفر إلى جربة

وجد بي السير إلى تونس . فزرت منها مدنها الرئيسية ، وتنقلت في ربوعها . ودخلت جزيرة جربة . وهي رقعة من الأرض يدور بها البحر من جميع جهاتها ، فيسرع إليها عرغاً وجهه على جسمها الناعم ، فإذا أحس ارتواء انحسر عنها ، ولا يلبث أن يعاوده الشوق إليها فيعود لينعم بها . وهكذا يقضي أيامه ولياليه وهو بين شعور بالارتواء وإحساس بالشوق . ويطل القمر بدراً من خلال هذه الغيوم المتناثرة في رقعة السماء ، ليتأكد من هذه الأشباح الواقفة على الجزيرة هل هي عذارى نثر الريح شعورها يمنة ويسرة ، أم هي أشجار نخيل تطعم الناس لذيذ ثمرها ، وتسكرهم بخمرها؟ ومع أنه ينزوي لف غيمة خجلاً دون أن ينال بغيته ، فإنه يبدو ثانية وكأنه يسترق النظر إلى هذه الأشياء المتكورة البيضاء ليرى أهي صدور العذارى شرعتها للهوى أم هي قباب هذه البيوت التي أوى إليها أهل العمل والأحلام؟ ويظل القمر يحار في الأمر فلا هو قادر على إدراك الحقيقة ولا هو قادر على طرد الأحلام .

وهذه الشمس تلفحها عند الشروق فتثير ما فيها من شوق إلى الحياة ، وتحرقها عند الظهيرة فتسترخي كسلاً ، وتودعها عند الغروب تاركة لها شفقاً وردياً يحبب إليها اللذائذ والملاذ .

وهذه الجزيرة تختبر الحياة ، فتحب وتكره ، وتسر وتألم ، وتحيي وتميت . وهي في كل هذا تتململ راضية حيناً ، غاضبة حيناً . فإذا كان في تململها غضب أو ألم ظهرت آثار ذلك على جسمها أرضاً قاحلة أو صبراً شائكاً . ولكنها يغلب عليها تقبل الرضى ، وعندها تنفجر ينابيع صغيرة تروي الزرع والضرع ، أو تنبت نخيلاً ينعم الناس به غذاء ووعاء وكساء ، أو تغذي شجر الزيتون الذي يتبارك الناس به ثمراً

وبلسماً وحطباً .

وتحركت جربة ، وقد أحسست بخفيف الوطء على أديمها ، وابتسمت وتكلمت قائلة :

«أنا قديمة قدم الأسطورة . الأسطورة التي ترتبط بزهرة اللوتس اللطيفة . ألم يسمني الناس جزيرة أكلة اللوتس؟ لقد أدركوا ما في جسمي من نعومة ، وما في نفسي من طهارة ، وما في قلبي من شوق ، وما في دمي من نشاط ، فربطوني بزهرة اللوتس الجميلة الأنيقة . إن الأقدمين كانوا كثيري الاحترام للمثل العاليا التي أدين بها ، فاحترموني من أجلها» .

فقلت لها ، وقد أثارت كلماتها بعض ما سمعت عن هذه الجزيرة : «ولكنك لم تحافظي دوماً على مثلك . ألست أنت التي أسرت يوليسس ، وقد كان في طريقه إلى زوجته؟» .

فتحركت الجزيرة ، وبدت على وجهها أمارات الغضب الهادئ وقالت : «لم آسر أحداً في حياتي . كل ما هناك أن الناس ، قبل يوليسس وبعده ، يقعون في التجربة ، ويفتنون . ويبدو أن بي فتنة وإغراء ، لذلك وقع يوليسس كما وقع غيره ، وفتن كما فتن غيره ، ومع ذلك فما الذي حدث له؟ لقد كان خصومه يقتفون أثره ، ويحاولون القضاء عليه ، فخبأته هنا ، وأنقذته . لقد كان مشرفاً على الموت فعادت له الحياة ، وكان يائساً فأعدت له الأمل ، وكان تعباً فعاد إليه النشاط . أمن أجل ذلك ألام»؟ .

وصمتت قليلاً ثم أضافت : «وهذا شأن كل من يسكن هنا . سيغرب ويشرق ، ويغيب أياماً وشهوراً وسنين ، ويعود بعد ذلك إليّ . هؤلاء هم أبنائي ينشؤون أعمالهم في جهات الأرض ، ثم هم لا يهدأون ولا يقر لهم قرار حتى يعودوا هنا ليتمتعوا بالطمأنينة والهدوء . وها أنت قد زرتني هذه المرة . ولكنني واثقة من أنك ستعود في المستقبل» .

وهكذا أصغيت لصوت جربة - جربة الأسطورة والواقع - وبينهما ، بين الأسطورة والواقع ، تاريخ طويل عريض ، وحياة مديدة ، وجهاد كبير . جهاد لدفع الأذى ورد العدى ، وجهاد لإخراج الحب ، وجهاد في سبيل العيش .

وتذكرت الكثير من هذا التاريخ الذي يحدثنا أن أول من استوطن الجزيرة البربر

الليبيون ، وكانوا قوماً أصحاب زراعة وبعض صناعة محلية . ولأنهم لم يبنوا البيوت الحجرية ، فهم لم يخلفوا آثاراً عمرانية . ذلك أنهم اصطنعوا بيوتهم ، أو أخصاصهم على الأصح ، من الجريد . ويبدو أن هذا الطابع ظل الغالب على بيوت الجزيرة حتى اليوم . ولا يزال الزائر لجربة يعثر على بعض الأخصاص .

وما كانت جربة ، بموقعها القريب من البر التونسي ، والمحمي من هجمات سكانه بالبحر المحيط بها ، لتغيب أهميتها عن الشعوب التي وصلت تونس وليبيا نازحة أو فاتحة . لذلك هبطها الفينيقيون واليونان تجاراً وصيارفة ، وأقاموا في شواطئها الشمالية يشرفون على أعمالهم . وقد خلف الفينيقيون صناعة الفخار في الجزيرة . ولا تزال هذه الصناعة قائمة إلى اليوم وخاصة في القلالة .

وقد كانت إقامة الرومان أطول وأمتن أصولاً وأعرق جذوراً . فنحن إذا تذكرنا أنهم ذهبوا إلى إفريقيا فاتحين ، وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق . م . أصبحوا حكام المنطقة بأسرها ، وإذا اعتبرنا أن الفترة الرومانية - البيزنطية هي فترة واحدة ، كان لنا من ذلك نحو ثمانية قرون خضعت فيها الجزيرة لهذا النوع من الحضارة التي يرجع إليها على ما يبدو ، فضل كبير في ترسيخ الأسس العامة للمدن التي قامت في الجزيرة . ذلك أن أكثر المؤرخين اتفقوا على أن الرومان أنشأوا في الجزيرة ما لا يقل عن ست مدن لا تزال هي أو آثارها قائمة إلى الآن . وقد قال الأستاذ محمد المرزوقي في مقدمته لكتاب «مؤنس الأحبة» : «وتنبه الرومان إلى أهمية هذه الجزيرة مدة احتلالهم لإفريقيا وقضائهم على دولة قرطاجنة سنة 146 ق . م ، فنزلت بها أساطيلهم ، وشرعوا حال نزولهم في إدخال حضارتهم وأسباب عمرانهم إليها ، فأسسوا بها الضيعات الزراعية والمراسي التجارية والمدن ، وربطوا بينها وبين البر بجسر بني بالحجارة في مكان (القنطرة) ، فكان المسافر يستطيع أن يسلكه على الرجلين . وفي وسط هذا الطريق بنوا حصناً للحراسة ، وصلوه بالطريق بواسطة جسر متحرك يرفع بالسلاسل عند الحاجة فيقطع الطريق ، وينزلونه حين يريدون المرور . ونحن لا نعرف كثيراً عما أحدث الرومان بجربة من الحصون والمدن ما دامت مصلحة الحفريات لم تتجه بعنايتها إلى التنقيب عن هذه الآثار» .

وقضينا ليلة في صفاقس ، وكنا قد أتيناها من طرابلس (ليبيا) . وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق الشرقي ، وانعكست أشعتها على مياه المتوسط التي تغسل شاطئ مدينة صفاقس ، لما تركنا هذه المدينة ميممين شطر عاصمة الديار التونسية . وصفاقس ، التي كنا قد قضينا فيها ليلتنا ، تنظر إلى الماضي فتجد له في نفسها ذكرى متمثلة في سور يحيط بالبلد يرد عنها عادية الأيام ، وفي جامع أنيق البناء والزخرف يرجع إلى أيام الحفصيين . فإذا عمقت الذكرى وجدت في ضميرها البعيد صدى حضارة أقدم من ذلك ، تعود إلى يوم كانت تقوم في أرجائها مسارح للتمثيل ومسابق للفرسان . على أرضها تحارب القرطاجيون والرومان . وفي رياضها تبارت الفتيات والغزلان ، وفي أجوائها علق الشعراء بالحسان . وما ذلك بغريب على بلد انطوى على البحر فطوق البحر خاصريه ، وقبل النيرين فصب النيران ضوءهما في ناظريه ، وأحاطت به الغابة والزياتين ، وزينته أشجار النخيل والباستين .

تركنا صفاقس واتجهنا شمالاً محاذين للشاطئ في سيرنا ، معتمدين البطء في تنقلنا ، راغبين في أن نرى القسم الكبير ، طامعين في أن نذكر مما نرى الكثير .

وتهادت السيارة بنا ، وإن كان سائقها تضايق ، فقد كان يحب السرعة . والسرعة في رأيي عدوة المتعة ، وخاصة في تنقيل العيون بين مغاني الجمال التي تعرضها عليك تلك المنطقة الشرقية من الساحل التونسي . وكان البحر كمن أفاق من حلم لذيذ ، يتمطى متثائباً ويغمض عينيه رغبة في استعادة الرؤى . فإذا لمح أننا أدركنا مابه غمزنا إغراء ، مطالباً إيانا بأن نعدل عن السير لنرتمي في أحضانه . وما أكثر ما يغري البحر! ولكن كان علينا أن نسير .

وسرنا حتى وصلنا المهدية ، فوقعنا على مدينة جليل قدرها شهير ذكرها ، تحمل في قلبها ذكرى جماعة من السادة النجب الذين كان لهم على حضارة العرب والإسلام فضل أي فضل! إن المهدية من بناء عبيد الله المهدي أول الفاطميين وإليه تنسب . وقد روى المؤرخون قصة بنائها قالوا : «خرج عبيد الله المهدي بنفسه سنة ثلاثمائة إلى تونس فاجتاز قرطاجنة وغيرها ومرّ على جميع السواحل يرتاد موضعاً

على ساحل البحر يتخذ فيه ميدنة تحصنه وتحصن بنيه من بعده . . . فأقام يلتمس ذلك مدة فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهدية فبناها هنالك وجعلها دار مملكته . وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربي . . . وعندما وضع أول حجر منه أمر ناشباً كان بين يديه أن يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه . ففعل الرامي ذلك ، فانتهى السهم إلى المصلى ووقع قائماً على نصله . وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين ذراعاً . وكان المهدي يقف على فرسه فيأمر الصناع بما يصنعون . وأمر بعمل باب الحديد للمدينة» .

وقد حرص المهدي ، فيما حرص عليه من بناء المهدية ، على أن يحفر لها مرسى في الحجر الصلد ليكون ثمة حصناً لمراكبه الحربية ، وأقام على فم المرسى سلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت . وأنشأ فيها دار صناعة كانت من عجائب الدنيا . وكانت المدينة كثيرة الجباب التي ملئت ماء وكانت أهراؤها مختزنة طعاماً .

وما أكثر ما وهبتنا المهدية من تاريخ وأدب وشعر ، وليس المجال مجال عرض هذا كله ، ولكن بضعة أبيات للقيسي اللياني قد تلذّ للقراء . قال متشوقاً لبلده وهو بعيد :

سرح دموع العين مبتدراً
ويذكر ماضي عهدهم فاشدُ
والثم على شغف مواطئهم
إن عاق عن مقصودك البعد
لم أنس يوم وداعهم سحراً
والدمع أسلم دره العقد
هز الصبا أغصان بانهم
فتعانقت وتواجد الرند

تونس الساحرة

وتونس الحاضرة تسحر وتأسر ، وقد وقعت في سحرها وأسرها وأوقعت معي غيري ممن

زارها برفقتي، من أولئك زوجي، رحمها الله، وأصدقاء رافقوني في أنحائها في آخر زيارة لي للمدينة: سنة 1984. زرت تونس من قبل، وزرتها ثانية مؤخراً (بعيد الاستقلال).

كان أول ما فعلته في تونس، بعد وصولي إليها بقليل، أن خرجت إلى الشوارع أستجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. ودرت في المدينة أتزود منها فراعني وراقني أمر هام. أن السور الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لأنني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث أن راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته، في أجزاء منه. ذلك أن هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد أصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً إلى المدى الذي تطيقه أجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم أصبحوا أحراراً. وهذا هو الذي راقني، حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة، وحدقت أمامي، وتلفت خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. وأهم من رفرفة العلم تعلق أرواح الناس به. حتى لكأنك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

ودخلت المكتبات أفتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل المدينة من أنحاء العالم العربي. ولم يكن ليسمح لها قبلاً (أي في عهد الحماية) بدخول البلد.

غرباً نحو الجزائر

والمسافر من تونس إلى مدينة الجزائر إلى تلمسان، إذا استقل السكة الحديد، استطاع أن يتعرّف إلى الجزائر، على الأقل في قلبها، وقد قمنا بهذه الرحلة فبدأنا السفرة في سهول تونس التي كان بعضها أجرد بحكم العادة، والبعض الآخر أجرد هذه السنة (صيف 1951) بسبب قلة الأمطار. وهي شبيهة بالسهل الساحلي في جنوب فلسطين، أي بين اللّد وغزة، بعد أن يجرد من البيارات، على أن يحتفظ بأشجار الزيتون وبعض النخيل وكروم العنب. ويرى الواحد على الجانبين، عن بعد،

جبالاً يرتفع بعضها إلى نحو 500 متر . . . وفي محطة غرديمو على الحدود التونسية - الجزائرية ، وفي بناء واحد ، مكتبان : الواحد كتب عليه الدوانة التونسية أي مكتب الجمرك التونسي (ودوانة هي تعريب لكلمة Douane الفرنسية المأخوذة أصلاً من كلمة ديوان العربية) ، وعلى المكتب الثاني وضعت كلمتا الدوانة الفرنسية . والسبب في تسمية الجمرك الجزائري فرنسياً يرجع إلى أن الفرنسيين يعتبرون القطر الجزائري جزءاً من فرنسا ، لا كما هي الحال في تونس ومراكش المعتبرتين محميتين . . . وبعد غرديمو أخذ القطار يسير في أودية متعرجة ، حتى وصل سوق الخميس ، فارتفعت الجبال على جانبي الطريق ، واكتست بالأحراج الجميلة ، وصارت أقرب شبهاً بجنوب لبنان وأواسطه . وأخذ القطار يصعد وظل على ذلك فترة من الوقت لا بأس بطولها حتى انتهى التصعيد في دوفيفيه ، لكن الطريق استمر مجتازاً منطقة جبلية ، وقبل أن يصل إلى قسنطينة عاد فصعد ، لأن هذه المدينة تقع على مجموعة من القمم يتراوح ارتفاعها بين 680 و 760 متراً .

والطريق من قسنطينة إلى الجزائر أكثر إمتاعاً . حقاً إن الجزء الأول منها كان عادياً ، يجتاز أرضاً سهلية تخترقها أودية أكثرها جاف ، لكن بعضها فيه من الماء ما يكفي لأن ينمو البعوض فيه . إلا أن الطريق أخذ يظهر بعض محاسنه تدريجاً ، وخاصة بعد أن اجتزنا محطة برج بوعريريج . فقد تنوعت الألوان في الجبال ، حتى لحسبت أن الحديد لا بد أن يكون داخلاً في تركيبها . وقد صدق حدسي ، إذ لم نلبث أن مررنا بمحطة اسمها ، بورت دي فر ، أي باب الحديد .

وهذه الأشجار ، التي بدأت زيتوناً وصنوبراً إفريقياً متفرقاً ، لم تلبث أن تزاحمت في بقع كثيرة ، ثم تناكبت في غيرها ، وأخيراً تعانقت صفصافاً وحوراً جميلاً على عدوات الأودية . وقد بدا عناقها رائعاً لأنه جاء مع غروب الشمس ، التي كانت تختفي ثم تبدو ، بسبب دوران الطريق ولفها في هذه الأودية المحاطة بجبال ترتفع أحياناً حتى تحسب أنك تسير بين قمم لبنان الشمالي ، وخاصة المجموعة التي تقع على يميننا (أي شمال الطريق) والمعروفة باسم القبايل الكبرى .

وأخيراً خيم الظلام ، فلم أعد أتبين سوى أنوار المزارع والقرى عن بعد ، وأنوار المحطات إذ نجتازها سراعاً أو نقف فيها لحظات» .

طريق البليدة

وفي زيارتنا للبليدة ، على نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من الجزائر ، اجتزنا وسط كروم هي غاية في الإتقان والترتيب والعناية ، تتخللها أشجار من الزيتون ، ويزين التلال الملاصقة لها شجر الصنوبر وبعض الأرز . والقرى التي في الطريق تمثل عمل الفرنسيين أي اغتصابهم للأرض . والبليدة تقع في منطقة التل ، أخصب القطر الجزائري . وعلى مقربة من البليدة ، على نحو خمسة عشر كيلومتراً منها ، زرنا وادي السعادين . وهو من حيث جماله وماؤه وهواؤه لا يقل عن أودية قاديشا والباروك والقرين . تحف به الجبال إلى ارتفاع شاهق وتكسو سفوحها أشجار الأرز ، ويخترق الوادي نهير ينبع في أعاليه ، ثم يتدحرج إلى البليدة وما إليها وهو يروي الأرض وينعش السكان .

من الجزائر إلى تلمسان

والطريق من مدينة الجزائر إلى تلمسان يجاري أطراف منطقة التل والسفوح الجنوبية للأطلس الشمالية ، ولا تقل هذه الطريق التي اجتزناها في الساعات العشر الماضية جمالاً عن تلك التي وصفتها لك من قبل بين قسنطينة والجزائر . وقبل أن نصل تلمسان أخذت الطريق تدور بنا وتلف ، متجنبة هذه الأودية السحيقة ، مجارية لهذه الجبال السامقة ، مستظلة بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة ، مشرفة ، بين الحين والحين ، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى لكأنه غير الماء . ولم نلبث أن أشرفنا على تلمسان ، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب ، فأينع الثمر ، وانتظم الشجر ، وفاح من الزهور أريج ، وكسا الجبال غاب ، فنقلنا ذلك كله إلى عالم فيه من الجمال ما يُعْجز الوصف . لولا أن كثيراً من هذا ، مثل ذلك الذي رأيته في طريقي إلى البليدة ، يمثل انتزاع الفرنسيين للأرض من أبنائها ، وإقامتهم ملكهم على أشلاء المجتمع العربي في البلاد .

ومثل ذلك يقال عن الطريق من تلمسان إلى وهران ، ومنها إلى مستغانم فإنا نسير

في كل هذه المناطق في أراض جميلة خصبة ، وإن كان يعطل هذا الخصب ، في سنوات كثيرة ، جفاف يحيق بالأجزاء الجنوبية من التل وبالسهوب ، فيأتي على الحرث والسعي (الماشية) ويزيد في فقر القوم .

زيارة المغرب

وأتيح لي أن أصل المغرب . وكانت الزيارة الأولى سنة 1959 ، إذ لم أمنح تأشيرة لدخول المغرب أيام الحماية الفرنسية ، ولم أدرِ لماذا!

وكان من أول الأماكن التي استمتعت بزيارتها زرهون حيث شاركت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف . وقد كتبت عن ذلك يومها ما يلي :

نحن في المغرب ، في قلبه الخفاق ، إننا نقف على ارتفاع يقرب من 750 متراً ، في مدينة صغيرة لعل عدد سكانها لا يتجاوز العشرة آلاف . إن بيوتها تتوج هامة هذا الجبل الأشم ، وتنحدر على جوانبه بحيث تلفه كأنها تحاول أن تقيه من عوامل الطبيعة . فإذا وقفت البيوت عند هذا الحد قامت أشجار الزيتون القوية بالمهمة نيابة عنها ، حتى تبلغ الوادي الذي يدور بالقرية وجبلها من جهات ثلاث . ومهمته أن يدرأ عنها عوادي الزمن ، لكن الوادي نفسه تحميه من مثل هذه العوادي جبال تحيط به وترتفع في أجواز الفضاء . والمدينة نفسها يتوسطها جامع وضريح . وليست العبرة في أن يكون في المدينة جامع وضريح ، ولكن أن يكون هذين بالذات .

ضريح مولاي إدريس

إنه ضريح مولاي إدريس الأكبر (172-177هـ/ 789-793م) وجامعه . وأنت إذ تلقي نظرة إلى الجهة التي تخلى عنها الوادي ، وقع طرفك على سهل جليل عامر ؛ فيه خصب وفيه ماء وفيه تاريخ . أما الماء والخصب فهما اللذان صنعا التاريخ إلى حدٍّ ما . فقد تحلّق الناس حول الماء ، فلما كثر عددهم حفروا للماء سبلاً وصل بها إلى رقعة أوسع ، أوى إليها من الناس عدد كبير . وكان أن تعددت ألوان السهل والجبال

المحيطة به : فاخضرار الشجر والزرع تجاوره التربة الحمراء حتى لكأنها قلب تفتح الحب فيه فجرى أثره في الوجنات . وإلى جانب هذين تقف الصخور الدكناء والمغبرة والبيضاء ، وهي صخور ما كانت لتقول الكثير لو أنها بقيت في أمكنتها . أما وقد عملت بها أيدي الناس فاقتلعتها من مكانها ، وسوت أطرافها وهذبت حواشيها ورفعتها حجراً جنب حجر ، وصفاً فوق صف ، فبدت بنياناً مرصوفاً ، فكانت معبداً وسوقاً وحماماً وقصراً وقوس نصر وشارعاً تحيط به الأورقة وسوراً . هذه هي وليلي وتسمى وليبولس . وهي فينيقية الأصل ، ولكنها من الناحية التاريخية أهم مدينة أنشأها الرومان في المغرب ، فقد نالت مدينة الزيت والزيتون عناية أباطرة روما في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد ، فأغدق عليها أنطونيوس بيوس وسفيروس ومرقص أوريلوس وكركلا المال الكثير لإقامة مبانٍ أنيقة جميلة فخمة . وقد استمرَّت المدينة مركزاً للحياة الرومانية الوثنية والمسيحية . لكن الزمن عفى عليها ، فاختفت معالمها تحت التراب وسمَّاها الناس قصر فرعون . ولم يتعرف العالم الحديث إليها ثانية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي ، إذ عملت فيها المعاول بانتظام ، ونظفت شوارعها أيد مدربة ، فخرجت تعلن للعالم أن الحضارة وصلت تلك الجهات في ما غبر من القرون وفات .

وليلي حاضرة الباكات

وقد انطلق التاريخ من وليلي . فإن هذه كانت موطن المولى إدريس الأكبر الذي وصل هناك في أواخر القرن الثامن للميلاد واستقر به المقام بين أهلها ، وكان بينهم أتباع الأديان على اختلافها ، لكنه علمهم الإسلام فقبلوا ذلك منه وملكوه عليهم .

وهكذا فنحن نطل على وليلي فنشرف على تاريخ طويل ينتهي منه فصل ليبدأ فصل . في هذه الرقعة انتهت حضارة الرومان ، لتبدأ حضارة العرب . وانتهت الوثنية والنصرانية ، ليبدأ الإسلام . ولكن ظل من كل ذلك الماضي شيء في الذي تلاه ، لا في الآثار فحسب ، ولكن في الحياة . فالتاريخ لا يقف فجأة ليبدأ فجأة . والحضارات أمور تتلو فيها الأجزاء بعضها البعض ليتم منها كل أو ما يشبه الكل . ومن هنا كان

هذا الإعجاب الذي شاهدناه بأنفسنا ونحن نرقب إخواننا المغاربة وهم يتجولون بين أنقاض وليبولس ، ويدركون أن شيئاً من أولئك الذين رفعوا تلك العمد وأقاموا تلك الأسوار وبنوا تلك القاعات وشيّدوا تلك الهياكل لا يزال يسري في دمائهم ويقيم في نفوسهم .

أشرف ابن زاكور على مقام مولانا إدريس بن عبد الله بزرهون ، وهو على مقربة من وليلي ، فقال فيه :

«هذا هلال المغرب
هذا مجلي الغيهب
هذا الذي أنواره
تفوق كل كوكب
هذا الذي مَنْ أمَّهُ
لا يختشي من نوب
هذا الذي من زاره
ليس يرى من تعب
هذا رفيع الرتب
هذا عظيم المنصب»

رهبة الفراغ!

وأنت إذ تهبط مدينة ما أو تزور بلداً ما ، لا بد أن تطالعك هناك أمور وأشياء . فهناك موقع المدينة وهناك طبيعة البلد وهناك الناس . فموقع المدينة قد يثير في نفسك شفقة عليها أو حيالها ، وفي الحالين تحب أن تعبر عن هذا ساعتها وأن تتذكر الشيء نفسه فيما بعد . وطبيعة البلد لا بد أن تترك في نفسك أثراً من الآثار . فأنت في الصحراء ، سواء أكنت تنتقل على دابة أم تحملك سيارة شحن أم ترفعك طيارة إلى الجو لتلقي بك في الطرف الآخر ، تمتلئ نفسك رهبة وخوفاً . هذا ما أحسست به مثلاً وأنا أجتاز الصحراء الكبرى من بنغازي في برقة إلى كانو في شمال نيجيريا .

هي الرهبة من الفراغ، ولو أنه دونك، أو لأنه دونك، بآلاف الأمتار، والخوف من الخواء الذي تشعر أنه يلف كل شيء. وكل شيء هذا هو امتداد رملي، ناعم حيناً وصلد حيناً آخر، تزوقه الألوان من الأبيض إلى الأصفر الفاتح إلى البني الخفيف، وليس هناك ما يخفف من رهبته وفراغه وخوائه من الشجر أو النبات.

وكم يختلف شعورك إذا كنت تنتقل عبر أرض مكسوة بالشجر أو الزرع يجول في أنحائها الضرع، أو كنت ترى هنا زهرة يفوح منها الأريج وهناك طائراً يغرد على فنن. فأنت في الصحراء، أو حتى فوقها، لا تنفك تنتظر الخروج منها، فيما أنت، في الثانية، لا ترغب في الانفصال عنها.

وكل مدينة زرتها في المغرب العربي، من تارودانت في السوس إلى درنة في شرق ليبيا، جذبتني إليها ثم أسرتني؛ فلما أطلقت سراحي كان سحرها قد تغلغل في نفسي، فإذا عدت إلى بيروت لحقت بين أصوات حورياتها البحريات وجنياتها الجبليات، فلا ألبث حتى أعود إليها فرحاً مسروراً كمن يعود إلى حبيبته بعد طول هجر، ودون كلمة عتاب!

أصدقاء الشيخ نقولا زيادة

أما الناس هناك فقد ربطتني بعشرات منهم صلات ود عميق، فهم لا يفتأون يسألون عني سواء في ذلك الهادي المطردي الليبي والفقيه التطواني الذي يستفسر عبر الدكتور إحسان عباس عن الشيخ نقولا زيادة.

ليس من اليسير أن يتذكر الواحد منّا عشرات الأصدقاء الذين ارتبط بهم خلال الزيارات القصيرة والطويلة، ولست أنوي أن أفعل شيئاً من هذا. لكنني أذكر أنني كنت في سنة 1951 في بنغازي (وكانت هذه زيارة بعد إقامة بضعة شهور من قبل سنة 1949). فلقيت المرحوم المحامي الأستاذ عامر عامر (وكانت تربطني به رابطة صداقة). فلما عرف أنني ميمم شطر تونس والجزائر زودني برسالتين: الواحدة إلى (المرحوم) السيد محمد الحبيب في الأولى، والأخرى إلى (المرحوم) الشيخ محمد بن زكري في الثانية. واكتشفت إذ وصلت تونس أن السيد الحبيب هو أديب ممثل،

ولكنه لم يكن يحصل على عمل في المسرح كما إنه لم يكن يشجع على الكتابة المسرحية . فالرجل كان من المشتغلين بالحركة الوطنية . وهؤلاء كانوا يحرمون من العمل الرسمي أو شبه الرسمي ، إذ كان كل ذلك في يد الإقامة العامة (الفرنسية) .

أما الشيخ محمد بن زكري فقد كان مديراً للمدرسة الإسلامية في العاصمة . وهذه واحدة من ثلاث مدارس فتحتها الإدارة الفرنسية في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان . في هذه المدارس كان الطلاب يعلمون اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي ، وكانوا يعلمون اللغة العربية وآدابها والشريعة . وكان خريجو هذه المدارس يوظفون في المحاكم الشرعية في الجزائر ، إذ كان يوكل إليهم أمر ترجمة الأحكام (أو تلخيصها في بعض الأحيان) التي تصدرها المحاكم الشرعية إلى الفرنسية كي يطلع عليها الموظف الفرنسي المسؤول عن التصديق على هذه الأحكام .

وقد لازمني الرجلان الحبيب وابن زكري - فعرّفاني إلى كثير من نواحي المدينة وأحيائها ، ويسرا لي الاتصال بجماعة من أهل الفكر . وكانت ملازمتهما تتسم بالصداقة والإلفة مع كرم النفس والخلق .

وليس هنا مجال التحدث عن آخرين لا يزالون ، ولله الحمد ، على قيد الحياة . وقد نعمت بزيارات لهم في آخر مرة زرت تلك الربوع قبل سنوات . ولست أكتم الناس أنني في شوق شديد إلى زيارة للمنطقة في اليقظة ، فزيارة الكرى لا تشبع رغبة طالب السرى .

وأنا طالب علم ؛ فالزيارة هي ناحية واحدة من نواحي التعرف على البلاد وأهلها ، ولكن ثمة قراءة في النصوص وفي الآثار ؛ وقد فعلت ذلك فغصت في التاريخ ، وهو صناعتي ، أستجلي صحفه ، وأتبين قصصه ، وأكشف عن أساطيره ، وأتملى من رواياته ، فتم لي من المعرفة الكثير إذا قيس بجهدي ولكنه قليل إذا قيس بالموجود . وعلى كلٍّ ، فقد خرجت بثروة أخضعتها لمقاييس من البحث والأسلوب قبستها طالباً وقارئاً وأقررتها لنفسي باحثاً وكاتباً . ودونت بعض ما اهتديت إليه عن المغرب العربي في كتب عدة كان أولها «برقة» (بيروت ، 1950) ، ثم «ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال» (القاهرة ، 1958) ، و«تونس في عهد الحماية» (القاهرة ، 1963) ، وصفحات مغربية (بيروت ، 1966) . وترجمت عن الإنكليزية «تاريخ المغرب في

القرن العشرين» لروم لاندو (بيروت ، 1963) و«ليبيا الحديثة» لمجيد خدوري (بيروت ، 1966) ، و«فاس» لتورنو (بيروت ، 1967) . ووضعت بالإنكليزية الكتب التالية :

Whither North Africa (Aligarh, India, 1957)

Sanusiya (Leiden, 1958, 1968 and 2nd ed. 1983)

Origins of Nationalism in Tunisia (Beirut, 1962).

وإذا كان كتاب «برقة» ، على ما جاء في الكلمة التي قدمت بها للكتاب : «هو وفاء لبعض الدَّين الذي طوقت به تلك البلاد وأهلها الغر الميامين عنقي» ، فإن كل كتاب وضعته عن المغرب العربي ، كلاً أو جزءاً ، كان فعل إيمان بالقضية التي تحدثت عنها ؛ ولكنه فعل إيمان ركيزته البحث عن الحقيقة في مظانها الأصلية ، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة ، قبل تدوين النتائج .

العرب والشمال الإفريقي

كان لا بدّ من الدخول مع العرب إلى شمال إفريقيا فاتحين وحاكمين ومدبرين قبل القيام باكتناه الدور الحضاري الذي تمّ على أيديهم . ومن هنا فقد أطلقنا على الفصول الأولى من كتابنا إفريقيات ، «المدخل» . والفصل الأول من المدخل ، والأولى بهذا الفصل أن يُسمى البوابة ، لخصنا ما تمّ على أيدي العرب من فتح أولاً واستيطان ثانياً (خصوصاً على أيدي بني هلال وبني سليم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) . وثورات متنوعة ضد الحكم الأموي ثم قيام دويلات ودول ظل بعضها يعترف بالخلافة بعض الوقت . واستقل بعضها الآخر استقلالاً تاماً ، بل بلغ البعض حد التلقب بالخلافة . حاولنا ، في هذا الفصل ، أن نجمل ما يحتاج إلى مساحة كبيرة لتفصيله . فالبوابة هي نقطة للدخول ، لكن كان يغلب على البوابات ، في المغرب العربي وفي سواه ، أن يكون تخطيط البوابة معقداً ، كي لا يسهل الدخول منها إلى المدينة . أما نحن فحاولنا أن نخطط بيسر ونوضح بسهولة . وكل ما يحتاجه القارئ - لهذا الفصل وسواه - أطلس يقلب صفحاته ليحصل على الخارطة المناسبة .

وسيرى القارئ أننا ألمحنا إلى الإنجازات الحضارية التي تمّت على أيدي العرب في

الفترة الممتدة منذ بدء الفتوح 22هـ/ 640م ، حتى الفتح العثماني للبلاد -إلا المغرب- في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي .

إن أخصَّ ما يلفت في دراسة هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي . هو أن الدويلات التي تفرعت عن دولة الخلافة جاءت نتيجة قوة الدفع عن المركز ، ولكن كانت ثمة مبررات لجأ إليها القوم لما انكمشوا على أنفسهم ، البعض في ظل الخلافة ، والبعض مستقلاً على ما ذكر ، كانت لهم مقولات يرتكزون إليها منها الديني ومنها الإتني ومنها الإداري ومنها التجاري . لكن هذه القوة الدافعة إلى الخارج كان يقابلها قوة اللم الداخلي ، إذا صح التعبير . وهذه تمثلت بالإسلام الذي انتشر تدريجاً ثم تجذر وأصبح العروة الوثقى ، وباللغة العربية التي كانت وسيلته إلى القوم كما كانت تتقوى بوجوده .

ولما وصل العثمانيون إلى المغرب العربي حازوا ليبيا وتونس والجزائر ، وامتنع المغرب (الأقصى) عليهم . وتجربة المغرب مستقلاً ، وما تبقى من المغرب العربي ولايات عثمانية لكل كيانها الخاص وخصوماتها وحروبها فيما بينها ، هذه التجربة وما عرفته المنطقة من تحرك اقتصادي كان يتناسب مع ما يتطلبه العالم يومها - وكان قد اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح والعالم الجديد - هي موضوع الفصلين الثاني والثالث .

المغرب والغرب الاستعماري

ولم يسمح الغرب الأوروبي للمغرب العربي أن يتم تجربته أو أن يظل مكانه على الأقل . فقد خرجت أوروبا في القرن التاسع عشر إلى العالم الواسع تقضم منه أجزاء هنا وأجزاء هناك ، وتحتل منطقة هنا وأخرى هناك ، لتقيم لمتاجرها أسواقاً ، وتلتهم المواد الخام اللازمة لصناعتها . وهي تدعي ، عهراً وبطلاناً ، أنها إنما تحمل على عاتقها واجب الرجل الأبيض لنشر الحضارة عموماً ، والحرية والفكر خصوصاً ، بين الشعوب التي فرضت نفسها عليها . وكان الاستعمار الذي عرفه المغرب العربي من أسوأ ما خبره الناس في العصور الحديثة .

فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 ، وتونس 1881 ، والمغرب 1912 ، كما

هاجمت إيطاليا ليبيا سنة 1911 . وفرضت فرنسا على القطر الجزائري نفسها ، فضمته إلى أرضها واعتبرته جزءاً منها . وانتزعت من السكان الأراضي الخصبة وقسمتها بين رعاياها الذين أرسلتهم إلى تلك البلاد . أما تونس فقد فرضت عليها نظام الحماية ، وهذا هو الذي فرضته على المغرب لما وصل دوره . لكن إذا جردنا القضية من الاسم ، فإن ما فعلته فرنسا في المحميّتين كان من نوعٍ ما فعلته في الجزائر . ولم تقصر إيطاليا ، إن لم تكن أشرس في معاركها خصوصاً . وقد تناولنا عمل إيطاليا في ليبيا في كتابينا : ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال (القاهرة ، 1958 – ط2b) ؛ ليبيا في العصور الحديثة (القاهرة 1963) .

أما في هذا المجلد ، فقد رأينا أن نضع في المدخل فصلين : الواحد عن «الجزائر ومشكلاتها» ، والثاني عن «تونس وقضيتها» . وهما الفصلان الثاني والثالث .

رحاب المغرب العربي

أما وقد اجتزنا المدخل ، فإننا نجد أنفسنا في رحاب المغرب العربي ، وأمامنا أحاديث ومقالات عن مدن زرتها ، وطرق جزتها ومؤسسات عرفت عنها أو عرفتها . وسيرافقني القارئ مستمتعاً بما استمتعت ، مستلهماً ما استلهمت ، مكتشفاً معي ما اكتشفت . وقد يجنح به الخيال ، كما جنح بي أحياناً ، فيرى أكثر مما رأيت .

ومع ذلك ، فهذه الفصول التي أضعها بين يديه قد تظل منفصلة متفرقة إن لم أربط بينها بما جرى لي هنا وهناك وبأحاديث عمن عرفت ولو لماماً . ولأن زياراتي كانت تتنوع أسبابها وتتعدد مسبباتها فقد يبدو حديثي وكأنه مكوكي . وأنا أرى أن هذا التعبير مناسب لما أريد قوله على اعتبار أن المكوك هو أداة الحياكة والنسيج ، وأنا أحاول أن أحيك هنا وأنسج ، لا شبكة أصطاد بها القارئ ، ولكن قطعة من القماش الناعم لعلني أستطيع أن أرسم عليها صوراً فيها متعة تنضاف إلى متعة القراءة .

أول زيارة إلى ليبيا

في أول زيارة لليبيا سنة 1951 (بعد فترة العمل السابقة) ، كان بين من استقبلني

رئيس وزراء ليبيا في الحكومة الانتقالية ، المنتصر ، الذي وضع سيارة حكومية تحت تصرفي وكلف الأستاذ برهان ، من أعضاء مجلس النواب ، أن يرافقني . وهذا الرجل كان ذا معرفة وافية بتاريخ ليبيا ، ومن رجال السياسة والجهاد فيها ، فكان أن زودني بالكثير مما يشار إليه على أنه «معلومات داخلية» . وكنت أنا مغرماً بزيارة الآثار الليبية ، وهي كثيرة ، وكان ثمة بدء عمليات التنقيب عن الآثار . كنت قد زرت قيريني (الشحات) في الجبل الأخضر في برقة ، وكان مدير الآثار في برقة المستر جونز الذي كان أحد موظفي إدارة الآثار العامة بفلسطين ، والذي كانت تربطني به صلة من تلك الأيام . وذهبت مع برهان في يوم قاظ وسطه ، وكان أن وصلنا الخمس (لبدة) في تلك الساعة . فرجوت برهان ، وكان فيه سمن وله تقدم في السن ، أن يقيل في ظل شجرات لطيفات ، وذهبت أنا أدور بين الآثار ، وإذا بي أمام مدير الحفريات ولما أظهرت رغبتي في الزيارة ترك عمله ورافقني وحدثني عن تاريخ هذه المدينة الرومانية أصلاً كما تحدث عن مدينة صبراتة . (التي زرتها في اليوم التالي) . وفي سنة 1968 أقامت الجامعة الليبية - وكانت بعد جامعة واحدة بفرعين : واحد في بنغازي (الآداب والتربية والتجارة) ، والآخر في طرابلس (العلوم والهندسة) في فرعها في بنغازي - مؤتمراً تاريخياً عن ليبيا عبر التاريخ . وكنت بين المدعوين ، وفي يوم الافتتاح وجدتني وجهاً لوجه أمام الأستاذ نفسه الذي كان مدعواً للتحدث عن الآثار الرومانية المعمارية في ليبيا!

ولما زرت ليبيا مع زوجتي مرغريت في السنة ذاتها كان من اليسير علي ، وقد وضع الحاج أحمد الهوني وزير الثقافة والإعلام يومها (ونزيل لندن اليوم ورئيس تحرير جريدة العرب التي تصدر هناك) سيارة تحت تصرفنا ، أن أكون دليلاً للبلاد والآثار لها ولصديقتها السيدة رائدة جار الله الحسيني التي كانت تعمل هناك في دار المعلمات!

وفي تونس تزور الجامع الأعظم ، وهو جامع الزيتونة ، وترافقني في الزيارة ، ولو أتيح لك أن ترافقني في السير من باب البحر إلى الجامع لأتيح لك أن ترى الكثير من آثار الصناعة المحلية ، حلياً من الفضة وزرابيات (بُسُط) وشاشيات (طرابيش تونسية) وغيرها . ولكنت تتنشق رائحة التاريخ الطويل تملأ رئتيك ، دون أن تصدعك ، ولكنت استمتعت بما كنت أستمتع أنا به إذ أدخل حوانيت الورّاقين - باعة الكتب القديمة

الطبع ، وبعضها مطبوع على الحجر - حيث نتحدث حول الكتب ، وأبتاع منها ما يقدر عليه جيبي ، وأترك لصديقي المزابي (الجزائري الأصل) إرسال الكتب بالبريد وكان هذا يتكرر كلّما زرت تونس!

كان رفيقي في تونس الحاضرة في أول زيارة (1951) السيد محمد الحبيب ، على ما ذكرت . وكان ممن تعرفت إليهم في تلك الزيارة الشيخ الفاضل بن عاشور ، أحد كبار شيوخ الزيتونة يومها . زرته في مكتبه في الجامع ، ورافقني متفضلاً لزيارة المكتبة . ثم رتب لي زيارة لحضرة والده الشيخ الطاهر بن عاشور وكان أحد كبار رجال الإصلاح في تلك الحقبة . وكان من غرائب المصادفات أنني بعد زيارتي لتونس والجزائر في ذلك الصيف (1951) أن عرجت على استانبول لحضور مؤتمر المستشرقين .

ووصلت عاصمة الإمبراطورية العثمانية قبل الموعد بأسبوع لأمتع نفسي بالتعرف على معالم المدينة الكبيرة . وفيما أنا خارج في أحد الأيام من زيارة جامعة السلطان أحمد ، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الشيخين الأب والابن اللذين كانا داخلين لأداء صلاة العصر ، فكان لقاء وتحية ودعاء بأن يتقبل الله منهما وأن يذكراني بالخير .

وكان أن لقيت الشيخ الشاذلي النيفر العالم الفقيه والأديب . وأسرة النيفر في تونس أسرة عرفت العلم والأدب جيلاً عن جيل ، وقد كان منهم صاحب عنوان الأديب الذي يؤرخ لأهل الأدب والشعر في تونس . الشيخ الشاذلي استقبلني في بيته أكثر من مرة ، يومها وفي الزيارات التالية ، ضيفاً إلى مائدته ، وطالب علم في مكتبته .

في القيروان 1951

أردت أن أزور القيروان (1951) ، وكنت قد تعرفت إلى الأستاذ مصطفى (سليمان) زبيس ، أحد كبار العاملين في الآثار الإسلامية في تونس ، فأصر على مرافقتي . ومن هنا جاءت معرفتي الأولى ، ثم أتبعتها بما قرأت . وتعرفت في تونس في تلك الزيارة إلى خزانة المعرفة التاريخية في البلد وهو عثمان الكعاك ، كان موظفاً

كبيراً في المكتبة الوطنية يومها ، وأصبح فيما بعد مديراً لها . زرته في تلك السنة في مكتبه . لكن في سنة 1959 حملني إلى منزله في سيدي بوسعيد . ولهذا المنزل حكاية ، كان مثلها في تونس مئات . بعد الاستقلال (1956) خرج كثيرون من الفرنسيين من البلاد عائدين إلى فرنسا . وكان هؤلاء قد بنوا البيوت الجميلة في ضواحي الحاضرة وفي مصايف الشاطئ التونسي الجميل . فرغت المباني من أصحابها وعرضت للبيع بأسعار متهاودة . لذلك تمكن عثمان الكعاك وأمثاله من شراء بيوت جميلة أنيقة ، وإلا فمن أين للموظف أن يملك «فيّلا» في مصيف بوسعيد!

والمكتبة الوطنية كانت غنية بالكتب التي تعنى بالبلد . وقد كانت تحوي نحو ثلاثمائة مجلد عن جغرافيّة القطر التونسي الطبيعية والجيولوجية . كانت الكتب الفرنسية كثيرة ، ولم تكن الكتب العربية موضع عناية كافية . لكن لما تولى عثمان الكعاك الأمر وجه العناية إلى هذه الأخيرة فأصبح الوصول إليها متيسّراً ، وكثر زوار المكتبة من أبناء البلد .

كان عثمان الكعاك خزانة علم ومعرفة ، لكنها خزانة كان ينقصها التنظيم . فأنت إذ تفتحها لتأخذ منها ما تريد ، هرت منها محتوياتها لأنها لم تكن مرتبة . لكنها كانت غنية . وكان الشاطر يستطيع أن يفيد منها .

وهناك لقيت بعضاً من الصحفيين ، وكان في مقدمتهم الصحفي الشاب نور الدين صمود ، وهو الآن في مقدمة العاملين في حقلي الشعر والأدب في البلاد . وقد اتصلت بعدد من الشباب المنضمين إلى الحزب الدستوري الحر وتنظيماته . ورافقتهم في رحلات طويلة إلى صفاقس وقابس وطبرقة وبنزرت وجربة . وحضرت ، بدعوة من القيادات المحلية ، اجتماعات اللجان التي كانت تدرس مقترحات أتتها إما من أهل المنطقة أو من القيادة لإبداء الرأي والملاحظات . وكان أكثر ما حضرت منها في حومة السوق (جربة) وقابس وسوق الأربعاء . وكانت هذه الاجتماعات في الزيارات التالية : (1959 و 1961 و 1968 و 1970) . وطلب مني أن ألقي محاضرات ففعلت في تونس وصفاقس . وألحّ علي مدير قسم الأحاديث الأدبية في الإذاعة التونسية (السيد حسين العكروت) فلبيت طلبه أو على الأصح بعض ما طلب!

هذه الاتصالات والتنقلات والرحلات والزيارات أتاحت لي فرصاً للتعرف على

الحياة في تونس أوفى مما تحمله الكتب والوثائق إلى القارئ . فكانت الواحدة دعماً للأخرى .

أما الحبيب بورقيبة فقد لقيته لا في تونس ولكن في بيروت في خريف سنة 1951 ، وفي بيت الزميل الصديق سيسل حوراني . ولهذا اللقاء قصة ليس هنا موضعها .

مدينة الجزائر المحتلة

لعلّ تعرفي إلى الجزائر والجزائريين لم يختلف عما لقيت في تونس إلا من حيث المساحة . فالجزء الذي زرته من هذا القطر كان صغيراً ، لكنّه كان كافياً لأتعرف منه مشكلات البلاد (أما تاريخهم فحصلت عليه من الكتب من قبل ومن بعد) . كان دليلي في الجزائر (المدينة) ، كما مرّ بنا ، الشيخ محمد بن زكري . واقترح علي يوماً أن أزور حاكم الجزائر العام ، فقبلت على أن يرافقني ليترجم لي . وتمّ الترتيب وذهبنا إلى مكتبه ، وكان الحاكم نفسه في إجازة ، ولكن السكرتير العام للحكومة كان ينوب عنه دائماً . كان الموعد في الثانية عشرة زوالية . ولما دخلنا مكتبه شكرته على استقبالي فقال لي : نحن لا يزورنا كل يوم أستاذ جامعي . وقد خصصت لك ساعة كاملة للحديث ، فاسأل ما تشاء . سرني ذلك ، وبعد أن شكرته وجه لي سؤالاً فيما إذا كنت قد زرت مدناً أخرى قبل العاصمة . فقلت له إنني زرت قسنطينة ، فأضاف نحن احتفظنا بقسنطينة متحفاً اجتماعياً . فقلت له : كان من الممكن الاحتفاظ بها متحفاً نظيفاً (سيرى القارئ في الفصل الخاص بالاستعمار الفرنسي في الجزائر معنى هذا) . عندها نظر إلى ساعته وقال إنه تذكر أن لديه موعداً آخر . وهكذا مُسخت الساعة إلى خمس دقائق .

والشخص الآخر الفرنسي الإداري الذي لقيته كان الكابتان سوليير ، وهو المنسق للعلاقات بين المغرب والجزائر وتونس . ذلك أنني لما تركت بيروت كنت قد حصلت على تأشيرة لزيارة الجزائر وتونس ، أما تأشيرة المغرب فلم تكن قد وصلت . في بيروت كان يقيم واحد من أصدقائي هو المرحوم عز الدين الشوا ، الذي كان يعرف الكابتان

سوليير . فنصحني أن أحاول الاتصال به لعله يسهل المهمة ؛ ولكن لا رسالة عز الدين ولا شفاعة ابن زكري نفعت ، ولم يسمح لي بزيارة المغترب يومها .

لقائي مع البشير الإبراهيمي

كان في جعبتي رسالة إلى أحمد توفيق المدني ، وهو من المناضلين الجزائريين ، فضلاً عن كونه من أهل الفكر هناك . تواعدنا ، لما اتصلت به الساعة الرابعة بعد ظهر يوم من أيام آب/ أغسطس ، فذهبت في الموعد ، وقال لي إن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة السادسة ، لذلك فنحن لدينا ساعتان . أحمد توفيق المدني شرح لي القضية الجزائرية شرحاً وافياً . بعد نحو ساعة ونصف الساعة من وصولي بدأ المجتمعون بالوصول ، فاتفقنا على أنني أستطيع أن أبقى وأتحدث إلى القادمين إلى أن يكتمل النصاب ، فأنسحب . لكن الذي حدث أنه لما اكتمل النصاب قال أحدهم : لماذا لا يبقى الضيف؟ نحن لا نعمل في الخفاء . بقيت وكان المجتمعون يمثلون المجتمع الجزائري السياسي من أقصى اليمين إلى أحد اليسار . من جمعية العلماء المسلمين في الجزائر إلى الحزب الشيوعي . وكان القصد من الاجتماع «إنشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الديمقراطية في الجزائر» . أكان من الممكن أن تتاح لي فرصة أفضل من هذه للتعرّف إلى الناس والاطلاع على ما يريدون؟

وعن طريق أحمد توفيق المدني أرشدت إلى الشيخ البشير الإبراهيمي ، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر والتي كنت أول من كتب عنها من المشارقة . ونشأت بيني وبين الشيخ البشير صداقة في الزيارات التي قمت بها لمركز الجمعية . وفي سنة 1970 كنت في تونس . وعرفت أن الشيخ البشير هناك ، وكان مريضاً ، فزرته وطلب مني أن أنحني ليغمرني بقبلة . وفي سنة 1978 كنت في الجزائر لحضور مؤتمر عن ابن خلدون ، ولقيت أحمد الإبراهيمي وكان وزيراً فقال لي إن والده كان يحدثه عني . وكم سررت أن هذا الشيخ الجليل تذكر هذا الزائر العربي من المشرق .

كان في نيتي زيارة تلمسان ووهران . ولما عرف الشيخ البشير بذلك أنبأني أنني سأكون ضيف الجمعية هناك . وأخذت القطار من العاصمة إلى تلمسان . سار القطار

من العصر، عبر الليل، ولما قارب الوصول إلى تلمسان بدأت حواراً مع نفسي: هل أحلق وأغير القميص في القطار، أم أترك ذلك حتى الوصول إلى الفندق؟ وأخيراً تغلبت عادتي عليّ فحلقت وغيرت القميص. وكم سررت بذلك إذ وجدت عشرة من الشباب ينتظرونني على المحطة!

سيعثر قارئ هذا الكتاب على وصف وتاريخ لتلمسان في مكانه من الكتاب، لكن الذي لن يجده هناك، والذي أرويه هنا هو الأمسية التي قضيناها في منزل التاجر الكبير الكريم الحاج بن يونس. دعينا للعشاء، وكان هناك هو وأنا وفئة من أعضاء الجمعية؛ لعلنا كنّا جميعاً نحو الدزينة. بدأ الاجتماع حوالي الثامنة مساء، وطُعِمْنا خير زاد. ودار الحديث حول القومية العربية.

اتفقنا من أول الأمر أننا لن نحاول الإقناع بصحة القضية القومية ولا بعقمها. كانت الفكرة توضيح هذا الذي ندعو إليه في المشرق ومعناه وغايته. تناقشنا إلى بعيد منتصف الليل. وكان آخر ما قاله الحاج بن يونس: هل تنتظر مني إذا كانت هناك مشكلة وقعت لك، وأخرى مماثلة وقعت لباكستاني، أن أهرع إلى مساعدتك قبل الباكستاني لأنك عربي مع أنه مسلم؟ قلت: لا أمنعك طبعاً من مساعدة الباكستاني، لكنني أود أن تشعر أنني أقرب إليك بسبب العروبة من الباكستاني المسلم، الذي ليس عربياً. فقال - وكان قوله فصل الخطاب في حديث تلك الأمسية الطويلة المفيدة: «لا، الباكستاني المسلم أقرب إليّ منك».

أود أن أسرع إلى القول إن الحاج بن يونس ليس الجزائر بأكملها. إنه واحد، ولعله كان له مشايعون وأنصار ومؤيدون لكن رجلاً مثل أحمد توفيق المدني والشيخ البشير الإبراهيمي مثلاً كانا مسلمين عربيين. وشعار جمعية العلماء المسلمين في الجزائر كان:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتمي

وحتى الشباب الذين لقيتهم في تلمسان ووهران، وهم من جماعة المدرسين في المدارس الرسمية ومدارس الجمعية كانت لهم ميول عربية قوية. لكن مشكلتهم كانت، في الدرجة الأولى، عجزهم عن التعبير عن آرائهم باللغة العربية، كانوا يتحدثون عن الأمور العادية بالعربية، فإذا انتقلوا إلى شيء من شؤون الفكر اضطروا

إلى اللجوء للفرنسية .

في زيارات لاحقة أتيح لي أن أتعرف إلى آخرين من أهل الفكر في الجزائر مثل أبو القاسم سعد الله المؤرخ للحياة الثقافية في البلاد ، ورشيد بورويبة وزملائهما في معهد الدراسات التاريخية .

طنجة المدينة الأولى

لم أتمكن من زيارة المغرب للمرة الأولى في سنة 1959 . وكانت طنجة المدينة الأولى التي عرفتها ، وكان العلامة عبد الله كنون أول من لقيت من علماء المغرب . زرته في بيته مرتين ، ولقيته بعد ذلك مرات ، كانت إحداها في القاهرة . عبد الله كنون عالم جمع معرفة السلف ورؤيته إلى محاولة لدرس الأدب دراسة فيها محاولة النظرة الحديثة ؛ ولكنني واثق من أنه لم ينل رضى أهل الحداثة ولا ثقتهم . وأنا ، لأنني طالب علم ، كان من حسن حظي أن أجتمع إلى هذا الرجل .

لما وصلت الرباط - بعد زيارة لطنجة وتطوان - نصحني سفير لبنان في المغرب يومها أن أذهب لزيارة مرّاكش ، لأن عيد المولد النبوي اقترب . والمألوف منذ عقود طويلة من السنين هو أن يحتفل بالعيد في زرهون . ويكون ملك المغرب (محمد الخامس يومها) على رأس المحتفلين ، ويرافق الملك جميع الموظفين الكبار ورجال السلك الدبلوماسي . ومعنى هذا أن الرباط تفرغ ممن يستحق أن يزار أو يقابل . وقبلت النصيحة .

أسماء مغربية

إلا أنني عرفت ، مصادفة ، أن مرغريت بوب تعمل في القسم الإنكليزي من الإذاعة المغربية . ومرغريت هذه عرفتها في فلسطين (في الأربعينات) إذ كانت تعمل في الصحافة ، وكانت قد خُطبت لأحد أصدقائي ؛ ثم اختلفا ففسخت الخطبة . كلمتها تلفونياً ودعوتها للعشاء . ولما جاءت سألتني عما أنوي فعله ، ولما أنبأتها عن

نصيحة السفير اللبناني لم توافق عليها . وقالت إن هذه فرصة العمر لأن أحضر احتفالات المولد النبوي في زرهون . وذكرت لي أن السيد مراد ، القائم بالأعمال الهندي في الرباط (وهو حديث عهد بعمله) لا يعرف العربية ، ولعله يسر إذا أنا رافقته . وكلمته تلفونيا ، فكان عند حسن ظنها ، وهكذا مر بي في اليوم التالي ، ووفقت في الحصول على غرفة في فندق مكناس في مدينة مكناس (مكناسة الزيتون) وهي المدينة التي بناها المولى إسماعيل (1082هـ/ 1139هـ - 1672م / 1727م) لتكون عاصمته ، ولم تكمل في أيامه وأهملت بعده . وقضيت خمسة أيام في المنطقة زرت خلالها وليلي وزرهون ومكناس وأفران وكنت في صحبة جماعة من الدبلوماسيين وذلك بسبب السيد مراد . ولقيت في زرهون وفي مكناس سفير لبنان في المغرب لكنه لم يعن بي . ذلك شأنه ، رحمه الله .

لعلّ زيارتي للمغرب كانت ، من حيث العدد ، أكثر من زيارتي لأي من أقطار المغرب العربي . تعددت وكان بعضها بمهمات رسمية ، فضلاً عن الدعوات لحضور مؤتمرات وزيارات خاصة . وتنقلت في أنحاء المغرب وزرت مدنه العديدة . جميع زوار المغرب يعرفون الدار البيضاء وفاس والرباط ومراكش . لكنني أضفت إلى ذلك تطوان وطنجة وشفشاون في الشمال ، ووادي زم في أواسط البلاد ، وتارودانت وأغادير وآسفي في الجنوب .

وأتيح لي أن أتعرف إلى عدد من الزملاء في الجامعة (جامعة محمد الخامس) مثل : محمد زنيبر ومحمد الحجي وإبراهيم حركات ومحمد بن شريفة ، وآخرين من أهل العلم والبحث مثل : الفقيه التطواني والفاسي والكتاني وابن داود ومحمد القباج ، ومن رجال السياسة : علاّل الفاسي وألقيت عشرات من المحاضرات على معلمي المدارس الابتدائية (1965 و 1966) ، وأخرى عامة بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (1979) .

علاقتي بالمغرب

لن يستغرب القارئ ، بعد أن يقرأ هذه الصفحات التي دونت فيها . وبكثير من

الاختصار ، بحيث إنها كانت إشارات ، مدى اتصالي بالمغرب العربي أرضاً ومدناً وقرى وناساً وأشرت إلى القدر الذي أتيح لي للتعرف على جغرافية البلاد لا من حيث تضاريسها فحسب ، ولكن من حيث إنها الرقعة التي حدث التاريخ فوقها ، والتي أثّرت في توجيهه . والدرجة التي استمتعت فيها بوجودي هناك وتذوقي الطعام الذي يطبخ من الكسكس إلى الطجين إلى السمكة الحارة . إذا عرف القارئ هذا ، وهو قليل مما دخل في تكويني النفسي ، استطاع أن يدرك الحب الذي عبرت عنه في وصفي للمدن والمجتمع والطرق ، والشوق الذي أكنه لكل شخص لقيت ، وكل مكان زرت ، وكل طريق قطعت ، وكل رفيق درب عاشرت ، وكل جهد بذلت ، وكل تعب لقيت ، وكل مشقة عانيت . وهذا كله ، وكثير غيره ، هو الآن ليس شيئاً أتذكره فأنشد ذكره فحسب ، بل كل حادث من هذه له في قلبي مقر وفي نفسي مستقر وفي عقلي موضع وفي أذني مسمع . وأنا إذ أجلس أحياناً إلى نفسي ، وأستعيد مراحل حياتي ، التي طالت (ولله الحمد) لكنني لم أملها ولم تملني (أقول هذا تحدثاً بنعمة الله) وأستذكر الأحداث ، أرى لعلاقتي بالمغرب العربي بقعاً صافية ونقاطاً واضحة ، تدور الذكريات حولها ، فتتخذ شكل الفتاة الجميلة اللعوب حيناً ، والعجوز الحكيم حيناً آخر . ولعلها تبدو جنية ساعة وحورية ساعة أخرى . وكم وجدتني وقد انجذبت نحو الواحدة أو الأخرى فنسيت وجودي وجريت نحوها محاولاً الإمساك بها ، فيوقظني من حالتي صوت العجوز الحكيم . ثم أكتشف أن هذا الصوت هو حلم في حلم . أنا في تذكري أسفاري يصيبني مثل هذا ، لكن أحلام المغرب العربي أقوى أثراً في نفسي ، لأن تلك الزيارات أعمق مكانة في قلبي .

السودان الغربي

لم يتح لي أن أزور السودان الغربي ، وأقرب مكان إليه وصلته هو شمال نيجيريا . ومع أن أكثر الوقت قضيته في كانو ثم في زاريا – وكنت في الحالين ضيف الجامعة هناك – فقد أتيح لي التنقل في تلك المنطقة .

هناك اتصلت بعالم يختلف كلياً عن العالم الذي عرفته . هذا العالم يشبه ، من

حيث بعده عن عالمي الخاص، عالم الهند وباكستان. لكن ذلك لم يقلل من محاولتي التعرف على خصائصه. وأدركت أن هذه المنطقة هي المحطة الأولى، جنوب الصحراء الكبرى، على الطريق الموصل من ليبيا وتونس إلى السودان الغربي.

وتابعت تطور بضعة أمور في السودان الغربي منها انتشار الإسلام في تلك المناطق، والمجتمعات الإسلامية التي نشأت عن ذلك هناك، ومعاهد العلم الإسلامية في السودان الغربي. ورافقت ابن حوقل وابن بطوطة في انتقالهما في تلك الربوع، وحاولت أن أرى التطور الذي أصاب السكان بين القرنين الثالث والثامن الهجري / والتاسع والرابع عشر الميلادي. وأخيراً رافقت جيش المنصور الذهبي (986 هـ / 1012هـ - 1578م / 1603م) الذي سيره من مراكش إلى تمبكتو وجوارها.

هنا وقف الكلام المباح عن السودان الغربي.

وبعد فهذه الفصول، التي أضعها أيها القارئ بين يديك، فيها معرفة هي نتيجة البحث والقراءة العميقة والتفكير والتنظيم الدقيقين والخبرة الطويلة في التعامل مع التاريخ والحضارة.

وفي هذه الفصول انطباعات هي ما تركه تنقلي الواسع في أنحاء البلاد. وقد سجلت العين هذه الانطباعات، ثم جاء القلم يعبر عنها تعبيراً صادقاً.

وفيها عواطف جاشت بها النفس من حيث إنها نتيجة ما مرّ بين الناس هناك وبيني في بيوتهم وأنديتهم ومقاهيهم ومضاربهم وقاعات المحاضرات ومسارح التمثيل واجتماعات الأحزاب السياسية؛ وما كان أكثر هذه كلها عبر نحو أربعة عقود من السنين بدءاً من سنة 1949، وما أكثر ما كان فيها من أحاديث خاصة، وصلات حميمة ونقاش حادّ. لكن ذلك كله كان في إطار من الود والحب. ومن هنا كانت هذه العواطف التي يشعر بها القارئ لهذه الفصول.

وفي هذه الفصول أثر من البيئة الطبيعية التي خبرتها في رحلاتي هناك: صحراء قاحلة حارة، وواحات فيها الخير كل الخير، وجبال تريك نفسك شيئاً ضئيلاً.

هذه الفصول تمثل، من وجهة نظري، احتضان المغرب العربي لي واختزاني المغرب العربي في أعماق قلبي.

زرت مدينة مراكش مرات عديدة ، ودخلتها من جهاتها الأربع . أطللت عليها أول مرة من الشمال وكانت الشمس قد توارت خلف الأفق ، لكن نور القمر ، وكان يومها بدراً ، خلع على المدينة ، وعلى غابات النخيل التي تحيط بها ، روعة لا تنسى . وجئتها من الشرق في يوم قائظ وسطه حتى لقد خُيّل إلي أن الحر فيها لن يطاق ، ولكن ما إن دخلنا غابتها ووصلناها حتى طابت لنا فيها الساعات . وألقيت عليها نظرة من الجنوب ، من جبال الأطلس الجنوبية ، فكان منظرها ساحراً . وجلست يوماً على سطح مقهى النهضة ، وكانت الشمس تجمع آخر خيوطها الذهبية ، فتجلت لي مراكش - تربة حمراء ، تغطيها مئات الآلاف من أشجار النخيل الخضراء ، وأبنية حديثة لجدرانها لون مثل لون التربة - ويتلو ذلك المدينة القديمة يدور بها السور الذي لا يفارقها . فكان أن مددت إقامتي بها يومين إضافيين .

وركبت عربة دارت بي حول سور المدينة ، من باب الراحة في الغرب مروراً بباب دكالة ثم بموضع باب فاس في الشمال ثم باب الخميس وباب الدباغ ، وهو من آثار الموحدين ، وباب أَغْمات (وهذه جميعها في الشرق) ، ثم دخل بي الحوذي عبر أزقة ضيقة نظيفة ، حتى عاد بي ، عن طريق باب الرُّب وباب أَغْنَوْ الغني بزخرفه ونقوشه ، وباب المخزن إلى باب الراحة . وقد كانت هذه الدورة من أمتع الزيارات التي عرفتها في زيارة مدينة من مدن المغرب العربي . والسور الذي درت حوله مزيج ، تاريخياً ، من عهود مختلفة تمتد من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي .

والأثر الذي تتركه مراكش في نفس الزائر الذي يحاول أن يفهم روح المدينة عبر تاريخها هو أنها قامت عاصمة لدولة إسلامية أرادت ، قبل كل شيء ، أن تعلي كلمة الإسلام في تلك البقاع - في جنوب المغرب الأقصى - هي دولة المرابطين . وجاءت بعدها دول الموحدين لتزيد في قيمة المدينة رفعة ، فجعلت منها لا عاصمة لدولة شملت المغربين الأقصى والأوسط وافريقيا (تونس) وطرابلس فحسب ، بل جزءاً كبيراً من إسبانيا أيضاً . وكانت مراكش تدل على ذلك بشكل لا يقبل الشك أبداً .

فكل ما بني يومها كان ضخماً قوياً عظيماً واسعاً فخماً جميلاً أنيقاً بسيطاً ، يتفق مع الروح التي كانت وراء قيام هاتين الدولتين .

جامع الكتبية

والأثر المعماري الذي يدل على روح مراكش وتمثل الفكرة الإسلامية التي كان الموحدون يطوون أضلاعهم عليها ، هو جامع الكتبية ومنارته أو صومعته . ولست أبالغ إذا قلت إن رؤية هذه المنارة وحدها تستحق أن يشد المرء من أجلها الرحال - جواً أو براً أو بحراً- إلى مراكش . وأؤكد للقارئ أنني لست مبالغاً في قولي هذا . لكنني أرجوه أن لا يكلفني مشقة رسم صورة قلمية حية لهذا الأثر النفيس .

وكيف تنتظر مني أن أنقل إليك بالقلم انطباعات عن زيارات سبع لمراكش ، وفي كل مرة كنت أزور فيها الكتبية أكثر من مرة! فمنارة الكتبية سامقة في الارتفاع إذ تصل قرابة ثمانين متراً . وهي آية في الاتساق إذ إن ضلع الجهة الواحدة منها 12.80 متراً (إلى ارتفاع 69 متراً) ، ثم تضيق هذه التربيعة بحيث يسمح للمؤذن أن يدور على رفراف ليدعو الناس إلى الصلاة . ويتم للمنارة الاتساق لأنها ليست مزخرفة من الخارج بحجارة ملونة ؛ بل لأن الحجر المستعمل في بنائها فيه احمرار خفيف من الصخر المراكشي ، وهذا يضفي على تناسقها المعماري جمالاً طبيعياً في ألوانه ، وهذا اللون يتبدل بتبدل النور الطبيعي الذي يقع عليه في مختلف أوقات النهار .

على أن الفنان الذي بنى المنارة جعل في واجهاتها الأربع مناور يستضيء بنورها أولئك الذين يصعدون درجها الداخلي . وهذه المناور حدّد مكانها تلوّي الدرج ومنعطفاته من الداخل . لذلك فهي ليست على ارتفاعات متساوية في الواجهات الأربع . كما أن الفنان راعى أن لا تكون المناور جميعها على شكل واحد . وبذلك استطاع أن يحفظ للمنارة بساطتها ويبين شموخها كما احتفظ للفن بحرمته وللروح الإسلامي الموحدي بطابعه إذ لم يكثر الحفر والزخرف .

جامع القرويين في فاس

أسست فاس في أيام إدريس الأكبر سنة 172هـ / 789م ، وذلك بعد أن ضاقت

وليلي به وبجماعته وبمن وفد عليه من أهل المنطقة . ويبدو أن النقود ضربت في فاس هذه منذ سنة 189هـ . وبعد ذلك بمدة ذهب إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر إلى فاس ليستوطنها . ولما كان مولعاً بالبناء والتجديد ، على غرار ما عرف عن كبار أهل الحكم في العالم الإسلامي ، فقد بنى هو الآخر مدينة جديدة على الطراز الشرقي الإفريقي وذلك في سنة 193هـ/ 809م ، . وقد سميت أولاً العالية . ولكن بسبب كثرة من رحل إليها من القيروان وما إليها فقد عرفت فيما بعد باسم مدينة القرويين .

وفي سنة 202هـ/ 817م ، قدم إلى إدريس الأزهر القرطبيون المعروفون باسم «ثوار الربض» . ذلك أن ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم أميرها ، فقام الحكم بإخمادها وفرق الثوار ثم أمر من بقي منهم ، وهم كثرة ، بالخروج من الأندلس . فانصرف بعضهم إلى فاس . فتلقاهم إدريس هناك ، واستقروا على الضفة الشرقية من النهر ، وأنشأوا تدريجاً مدينة أندلسية الشكل والنمط ، وهي التي سميت فيما بعد مدينة الأندلسيين أو عدوة الأندلس .

ولما تم للإمام الأكبر إدريس بناء المدينة ، وحضرت الجمعة الأولى ، صعد المنبر وخطب في الناس ، ثم رفع يديه في آخر الخطبة وقال : «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة . وإنما أردت أن تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلّى الله عليه وسلّم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة أعدائهم وأدر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير» .

ومما يتصل بفاس ، وإن كان تأخر عن بناء المدينة قليلاً ، إنشاء جامع القرويين . وقد روى خبر بنائه ابن القاضي في جذوة الاقتباس قال :

«ذكر أبو القاسم بن جنون وغيره في تأريخ فاس أنه لما كثر الواردون عليها في أيام يحيى بن محمد بن إدريس ، كان ممّن قدم عليها ووفد إليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري ، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه . فمات وترك ابنتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم وتحصل لهما بالإرث مال كثير طيب من والدهما . ورغبتا أن تصرفاه في وجوه من أعمال البر . فأعلمتا باحتياج الناس إلى

جامع كبير في كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس . فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين ، ومريم في بناء جامع الأندلس . أما جامع القرويين فكان الشروع في حفر أساسه ، والأخذ في أمر بنائه ، يوم السبت مهل شهر رمضان المعظم من عام خمسة وأربعين ومائتين . وكان بموضعه الذي بني فيه أرض لمعمر الخضر ، وفيها أشجار لرجل من هوارة ، كان قد حاز ذلك أبوه بوجه جائز صحيح حين أسست المدينة حرسها الله بمنه ، فاشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها بالميراث من أبيها ، وتطوعت ببناء الجامع المذكور . فحفر في أرضه وأخذ منها التراب والكذان لبنيانه ، وحفرت فيها بئر لأخذ الماء لبنيانها ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء ، الذي أسسه إدريس بن إدريس بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك . وبني من أربع بلاطات من قبلة إلى جوف ، في كل بلاط اثنا عشر قوساً من شرق إلى غرب . وجعل محرابه بمقدم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى اليوم . وجعل بمؤخره صحن صغير وصومعة حيث العنزة اليوم ، وتم على نحو ما أرادته ، وذلك بمطالعة الأمير يحيى . ولم تزل صائمة من يوم أسس إلى أن كمل وصلّت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لذلك . ولم يزل على نحو ما ذكر في أيام الأدارسة إلى أن اتصلت العمارة واتصل البناء في أرض المدينة من سائر الجهات . وجرى أمر زناتة في أرض المغرب في سنة سبع وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره . فصنع له منبر من خشب الصنوبر وكان أول خطيب خطب عليه بها الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن علي الفارسي . وإن الذي أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن حمدان الهمداني عامل عبد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب ، بعد أن كان تغلب عليها مصالة بن حبوس . ولم يزل كذلك إلى أن تقوى ظهور زناتة بالمغرب فاستدعاه الناصر لدين الله عبد الرحمن المرواني ملك الأندلس . ثم لما ولى عليها عاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر الزناتي ، وكان من أهل الفضل والدين ، كتب إلى الناصر يستأذنه في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه ، لحاجة الناس إلى ذلك . فأذن له وبعث إليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم ، وأمره أن يصرفه فيه . فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه . وجعل بمؤخر الصحن

الذي به الآن وفي غرب هذا الصحن بلاطين وفي شرقه كذلك وفي جوفه بلاطاً واحداً بعد أن هدم الصومعة التي كانت به ، وبنى به الصومعة التي به الآن . ولما شرع في بنائها جعل سعة كل وجه منها أحد وعشرين شبراً ، ويصعد لها مائة درجة ودرجة ، وجعل بابها من جهة القبلة . وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر . وتم العلم في بنائها في شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن . وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في ذروتها تفافيح مموّهة من ذهب في زج من حديد ، وركّب في الزج المذكور سيف الإمام إدريس الذي أسس المدينة» .

في بلاط ابي عنان

ومع أن عصر فاس الذهبي هو عصر بني مرين ، فإن المدينة كانت ، حتى قبل ذلك ، مهبط أهل العلم ، لأنها جمعت علم المشرق والمغرب ، أي علم القيروان وقرطبة ، وأضافت إلى ذلك الكثير من تفكير أبنائها بالذات .

وفي بلاط أبي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن أسفاره ، قص أخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء . فأعجب السلطان بها ، ولذلك صدرت إرادته إلى الرحالة بأن : «يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوكها وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار» . ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة . فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنز من المعرفة ، فنذكر بالخير الرحالة والسلطان وابن جزي .

عاصمة بني مرين

إلا أن مدينة فاس تقدمت واتسعت في أيام بني مرين إذ اتخذوها عاصمة لملكهم لما استقر أمرهم في البلاد . والذي يعود إليه الفضل في إنشاء الدولة والعاصمة الجديدة لها هو أبو يوسف . فإنه : «لما عزم أمير المسلمين أبو يوسف على بناء مدينة

يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وحاضرته وحشمه ، ركب يوم الأحد الثالث لشوال من سنة أربع وسبعين وستمائة وخرج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع . فتخيروا موضعها على وادي فاس ، وشرع في حفر أساسها . وأخذ طالع ذلك الفقيه المعدل أبو الربيع سليمان الغياش وأبو عبد الله محمد بن الحباك . وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة رمزية دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجيء إليها من الأموال . فكانت والحمد لله مدينة مباركة . فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده ، يجيء إليها جميع خراج المغرب ، ومن بركتها وسعادتها ويمن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة ، وأنها لم يخرج منها قط جيش إلا ظفر ، ولم يعقد قط بها لواء إلا نصر . ومصداق ذلك أن أمير المسلمين أبا يوسف ، الذي اختطها وبناها وشيدها وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ، تُوفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس . ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين أبو يعقوب تُوفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان ، وهو محاصر لها ، فاستوطنها ومتنها واتخذها حاضرته إلى أن تُوفي بها . كذلك . حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبد الله بن أبي يعقوب المذكور تُوفي بقصره بقصبة طنجة . وكذلك أخوه الوالي بعده أبو الربيع سليمان فإنه تُوفي أيضاً بقصبة رباط تازا . ولما تمّ سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديدة بالبناء ، أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد أبي عبد الله بن عبد الكريم الجدودي وأبي علي بن الأزرق والي مكناسة والنفقة فيه مال معصرة مكناسة . ولم يخدم في بناء هذا الجامع الكبير مع المعلمين إلا أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس . وفي شهر رمضان سنة سبع وسبعين وستمائة تم الجامع المذكور بالبناء وصلى فيه . وفيها ابتدئ بعمل منبره الذي به الآن على يد المعلم الغرناطي الرصّاع . وأول خطيب خطب به الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن أبي زرع . وفي أول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمائة تم المنبر بالعمل . وخطب عليه . وفي يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمائة علّقت الثريا الكبرى بالجامع المذكور . وزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً ، وعدد كؤوسها مائة كأس وسبعة وثمانون كأساً . وكان الصانع

لها المعلم الحجازي ، والإنفاق فيها من جزية اليهود وفي شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور . وفيها بنى في المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنى بها حماماً عظيماً : «وأمر رحمه الله عماله ووزراءه ببناء الديار بها فبنى كل واحد منهم داراً» .

ولبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز المدينة علمياً . فقد وسع أبو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة البوعنانية . وقد جاء في جنى زهرة الآس : «وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بها فإنه لما كان من رأي أبي عنان ، رحمه الله تعالى ، حب العلم وإيثاره والاهتمام به والرغبة في انتشاره ، والاعتناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرّائه ومتحليه ، انتدب لصنع هذه الخزانة وأوسع على طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى . وعين لها قيماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة . وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة . وأما خزانة المصاحف التي أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبو عنان ، رحمه الله تعالى ، في قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع أنشأ على حسنها ما لم يسبقه إليها أحد من أيمة هذه الأصقاع . فإنه رحمه الله تعالى صورها في ذهنه الثاقب المبين ثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين . فأبدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهل بها على الناس تلاوة القرآن ، في كل وقت من الأزمان . وأعدّ فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية ، وأباحها لمن أراد التلاوة فيها ، بعد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مرّ الأعوام والليالي والأيام ، ونجز لها من قيّد لإخراجها من هذه الخزانة وأبرزها وردّها لصيانها في موضعها وإحرازها ، وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها . فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه : «الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره . وأعز نصره بتأريخ شهر شوال سنة سبعين وسبعمائة ، رزقنا الله خيرها .

وأما زاوية القراء البهية التي أمر بها مولانا المستعين ، رحمه الله ، في شرق هذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك ، وجعل لقبليها وجوفها من صناعة الخرط والتزيين بالأصبغة ما يهيم به المار والسالك ، ورتب فيها قرّائين يتلون القرآن ، ويجتهدون بطول السبعة أيام وعلى مر الأزمان» .

ولعلّ خير ما وصفت به فاس في أيام بني مرين هو ما جاء في روض القرطاس . لابن أبي زرع ، من مؤرخي عهدهم وأعلامه : «ومدينة فاس لم تزل أم بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين أطال الله أيامهم وأعلى أمرهم وخلد سلطانهم فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع . وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجره . وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة وأسواق مرتبة منتشقة وعيون منهمرة وأنهار متدفقة منحدرة وأشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة . وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمحرث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان ، إذ به صلاح حالها وأمر سبلها وكف جبابرتها . وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة . فلها المحرث المعظم سقياً وبعلاً على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها ، يصبح كل يوم على أبوابها أحمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة . ونهرها يشقها بنصفين وينشعب في داخلها أنهاراً وجداول وخلجاناً فتتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها وحماماتها ، وتطحن به أرحاؤها ، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورمادتها . ومن فضائل هذا النهر ما ذكره ابن جنون المتطبب أنه ينبه شهوة الجماع إذا شرب على الريق ، ويغسل به الثياب من غير صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة ، كما يفعل الصابون ، ويخرج منه الصدف الحسن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس ، تباع الحبة منه بمثقال ذهب وأقل وأكثر ، وذلك لحسنه وصفائه وعظم جرمه ويخرج فيه أيضاً أنواع من الحوت . . . وهو حوت لذيذ الطعم كثير المنفعة . وعلى الجملة إن نهر مدينة فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة والخفة وكثرة المنفعة» .

إذا أتيح لك أن تتنقل في المغرب العربي ، وخصوصاً في الأجزاء الساحلية منه ، وقعت عينك على عدد من المدن الكبيرة والصغيرة ، الممتدة من درنة في ليبيا شرقاً ، إلى تطوان غرباً ، التي يبدو فيها أثر الأندلسيين واضحاً . ولسنا نقصد بذلك الآثار المعمارية والفنية والحضارية التي جاءت نتيجة التبادل الطويل الأمد بين شمال إفريقيا والأندلس منذ القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد ، أي منذ أن أخذ هؤلاء بالنزوح عن بلادهم إلى المغرب العربي ، أو أنهم على الأقل أصلحوه وطبعوه بطابعهم الخاص . فالذي يعرفه التاريخ هو أن هؤلاء الأندلسيين ، منذ أن بدأ الإسبان باحتلال المدن الأندلسية ، الواحدة بعد الأخرى ، أخذوا هم أنفسهم بالانتقال إلى المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، هرباً من الضغط الذي قد يتعرضون له ، وبحثاً عن دار هجرة يتفق مع مزاجهم . وهذه زادت بعد سقوط غرناطة ، وبلغت ذروتها لما أخرج العرب من الأندلس .

تطوان البيضاء

وتطوان واحدة من هذه المدن ، بل لعلها أكثر مدن المغرب تمثيلاً للأثر الأندلسي الذي أشرنا إليه . وتقع تطوان في الشمال الغربي من المغرب على نحو عشرة كيلومترات من البحر الأبيض المتوسط ، وتبعد أربعين كيلومتراً عن مدينة سبتة الواقعة شمالها ، كما أن طنجة تقع إلى الجهة الشمالية الغربية على بعد ستين كيلومتراً عن تطوان .

وترتكز تطوان على جبل درسة الأمر الذي يكسبها مناعة وجمالاً ، لأن الأشجار تكسو الجبل وما حوله وأما جهاتها الثلاث الأخرى فتنتهي بسهول .

وأنت عندما تصل إلى تطوان ، سواء من طنجة كان مجيئك أو من شفشاون ، تطل على مدينة مكتنزة بيض بيوتها ، وتبدو لك واضحة المعالم ، فيخيل إليك أنك عرفت كل شيء عن تلك المدينة . لكنك لا تكاد تدخلها حتى تجد نفسك أمام

مدينة ذات أسرار . وكل مدينة ، تقريباً ، لها أسرارها ، لكن تطوان فيها سرها الخاص . فشوارعها الضيقة المتعرجة المبلطة ، والأبواب الصغيرة التي تؤدي إلى منازل واسعة الصحن ، تذكرك بمدن الأندلس . وفي هذه الشوارع - الأزقة والمنازل- تقيم أسرار تطوان الأندلسية . وقد تضيق ذرعاً بهذه الشوارع ، إذا كنت قد ألفت مدناً متسعة الشوارع ، ولكنك متى انتهيت إلى الأسواق ، وانتقلت فيها من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، ودخلت الحوانيت لا لتبتاع منها ولكن لترى أقواس أبوابها وعقود داخلها ، والحنيات التي توضع فيها المتاجر ، عاد إليك شوقك إلى استكناه الأسرار . ولكن المدن كالنساء ، لا تكاد تدرك بعض السر منها حتى تجد نفسك في أول الطريق . والوصول إلى نهاية الطريق أمر صعب!

أسماء تطوان

ولا بد لنا ، في سبيل التعرف إلى تطوان ، من استطلاع التاريخ . والتاريخ هو الآخر سر ، لكنه أيسر منالاً من بقية الأسرار .

ولسنا نريد أن نوغل في التاريخ فنرجع إلى ما كانت عليه تطوان في العصور الغابرة ، ولكن لا بد من الإشارة إلى ما مر عليها منذ أن صارت ، مع المغرب العربي كله ، جزءاً من دار الإسلام ، وكان ذلك في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد . ولكنها لم تبلغ شأو المدن الأخرى إلا في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد ، إذ أصبحت مركزاً للمنطقة المجاورة ، وقد روى البكري (في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد) أن تطوان كانت «على أسفل وادي راس . . . وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر حتى تصل إلى تطاوان . . . بها منار ، وبها مياه كثيرة سائحة عليها الأرحاء» . وبهذه المناسبة فإن تطوان يكتب اسمها بصيغ مختلفة ضبطها مؤرخ تطوان الشيخ محمد داود على الصيغ التالية : تطوان - تطاون - تطاوين - تيطاوين - تطاوان - تيطاوان - تيطاون . وقد ذكر في القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي ، أن «مدينة تيطاوان . . . مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع طيبة الهواء والماء» . وقد صحَّ عندي هذا في

زيارات أربع قمت بها لهذه المدينة .

أشرنا إلى أن تطوان لا تزال تحتفظ بالطابع الأندلسي الظاهر أثره فيها كلها . وقد حفظ لنا التاريخ أن الشيخ عبد القادر التبين انتقل من بلدته غرناطة سنة 540هـ / 1145م ، مهاجراً إلى تطوان التي أعجبته فاستقر بها ، واشترى من أهلها أرضاً أقام فيها مسجداً وداراً وأقبل الناس عليه ثم بنوا حوله . فكأن الشيخ عبد القادر عبَّد الطريق نحو تطوان لأهل مدينته .

قصة بناء المدينة

وهذ المدينة استمرت عامرة حتى أواخر القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد ، إذ أصابها الخراب نتيجة للحروب والإغارات الكثيرة . ولكن بناءها جدد في العقدين الأخيرين من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . وهذا البناء الجديد للمدينة أندلسي بكل معنى الكلمة ، وتطوان الداخلية اليوم تكاد تكون تطوان التي بنيت في ذلك الوقت وفي القرن الذي تلاه .

وقصة بناء تطوان في ذلك الوقت طريفة . فالفئة الأولى التي وردت على المكان كانت نحو ثمانين شخصاً ، وقد بنوا أربعين داراً أو نحو ذلك ، وكانوا بقيادة القائد المجاهد أبي الحسن علي المنظري الغرناطي . هذه الفئة الأولى جاءت سنة 888هـ / 1483م ، وبعد نحو عشر سنوات تدفقت الجماعات الأندلسية على تطوان ، وذلك بعد سقوط غرناطة (897هـ/ 1492م) .

والمدينة التي تم بناؤها يومئذ وصفها لنا العربي الفاسي (توفي 1052هـ / 1642م) في كتابه مرآة المحاسن ، بأنها : «بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة من الأبواب وسورها في عرضه سبعة أذرع ، ودار بالسور الأولى سور ثان وبعده دارت به الحفائر [الساحات المتروكة] وأعظمها حفير القصبة» . وقد طرأ على المدينة الأندلسية تبديل وتغيير وتوسيع وما إلى ذلك . لكن الصورة العامة هي هي . وأنت إذ تدخل المدينة وتدور بها تحس بذلك إحساساً واضحاً .

ولعل خير ما يمثل تطوان القديمة أبوابها وأسوارها . فباب العقلة بسيط في زخرفه ، ينتهي بقوس كأنه حذوة مخففة ويعلوه جص مسطح الشكل ، لكن القوس نفسه يحيط به زخرف بسيط من الجص وفي القسم الأعلى جزء مسنن .

وباب العقلة هو الواقع في الربض الأسفل الشرقي في اتجاه البحر الأبيض المتوسط (ويسمى الآن بوابة الملك الحسن الثاني) .

ونحن إذا وقفنا خارج الباب مقابلين له ونظرنا إلى جهة اليسار رأينا جزءاً من السور القديم المسنن أعلاه ، وهو الشكل نفسه الذي يُرى في أعلى أسوار تطوان جميعها تقريباً .

وثمة الباب الغربي الواقع في الجهة الغربية والذي كان المخرج إلى طنجة والقصر الكبير وفاس . وهو أكثر زخرفة من باب العقلة من حيث إن الزخرفة المحيطة بالقوس هي على صفين ، ومن حيث إن نوعاً من الغطاء يعلو القوس وفيه زخرف إفريزي من الجص .

والأسوار القديمة في تطوان مسننة في أعلاها في الغالب . وفي أحيان كثيرة أضيفت إلى الأجزاء العليا من الأسوار العريضة فتحات تمكن للمدافع أن توضع فيها . ومن تحصينات تطوان المهمة أبراجها ، وهي حصينة مزخرفة مسننة الأجزاء العليا .

كان لتطوان جامع أعظم قديم ، وقد أصبح مع الوقت صغيراً ضيقاً بالمصلين ، كما أصاب المدرسة القريبة منه بعض الخراب . لذلك فقد استبدل هذا بجامع كبير جديد يليق بالمدينة التي اتسعت مع الزمن . والجامع الأعظم بتطوان بني سنة 1223هـ / 1808م ، ولباب الجامع الكبير – أو الجامع الأعظم – بتطوان قوس على شكل حذوة الفرس ، يعلوه زخرف شبيه بالزخرف الجصي الذي وجدناه في الباب الغربي . وصحن الجامع متسع مبلط له أبواب تصله بالأروقة وفيه فسقية لطيفة . وإيوان الصلاة يتكون من عدد متواز من الأروقة ، وفي وسط الجدار القبلي يقع المحراب .

أما صومعة الجامع الكبير أي مئذنته فإنها مربعة وتنتهي بتسنين يشبه التسنين الذي نشاهده على الأسوار ، ويتوسط سطحها برج صغير تحيط به رقعة السطح حيث

يُدعى إلى الصلاة .

وأنت عندما تلقي نظرة عامة على مدينة تطوان تجد الصومعة تتوسطها .

في المغرب اهتمام خاص بإحياء التراث الفني القديم (العربي الإسلامي) . وهذا يراه الزائر في الكثير من الأبنية التي شيدت في العقود الماضية أو التي تشيد الآن . ومن الأمثلة على ذلك دار الخليفة (أي وكيل السلطان) في تطوان . فتخطيطها وزخرفتها الجصية والخشبية وأروقتها وزخارفها - كل ذلك- إحياء للماضي ، وهو إحياء بطريقة تدعو إلى السرور ، وأسلوب يملأ النفس بهجة وارتياحاً . وثمة باب منزل في تطوان وقد نقشت عليه عبارة : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

ومع أن في تطوان شوارع قديمة جميلة بأبوابها وواجهاتها الجذابة ، فإننا إذ نغادر المدينة نودعها من شارع جديد تحيط به أشجار النخيل .

من طنجة إلى الرباط

عندما ينتقل المرء من طنجة إلى الرباط أو من مراكش إلى الرباط ، عبر الدار البيضاء ، أو عندما يهبط الرباط من مرتفعات فاس ومكناس ، كما تنقلنا أكثر من مرة ؛ يدرك أهمية هذا المركز الذي تقتعده الرباط من الناحية الجغرافية والتجارية والاستراتيجية .

أولاً : إنها تكوّن مع سلا ، التي يفصلها عنها وادي بورقراق موقعاً بحرياً مهماً .

ثانياً : إنها تتوسط منطقة الغرب الغنية التي لا يصلح الملك في المغرب دونها .

ثالثاً : هي نقطة الاتصال الطبيعية بين مراكش وفاس .

ذلك أن جبال الأطلس المرتفعة تقع بين المدينتين ؛ واجتياز هذه الجبال ليس بالأمر اليسير على التاجر والمحارب . لذلك فقد كان التجار وقادة الجيوش ينتقلون من مراكش إلى فاس ومن فاس إلى مراكش عن طريق الرباط . فاجتماع الطريق اليسير والسهل الخصيب والميناء الصالح هو الذي حدد الدور الذي قامت به هذه النقطة من التراب المغربي .

وقد عرف القدامى للمنطقة أهميتها ، وإن كانت سلا لا الرباط المركز الأول . ذلك

بأنه قد ورد ذكر تلك في القرن الثالث قبل الميلاد ، واستمر لها ذكر بعد ذلك . أما في العصر الإسلامي فيبدو أن إقامة بناء مع شيء من التحصين في سلا يرجع الفضل فيه إلى إدريس الذي قام بذلك في أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي . ولما أنشأ بنو افرن دولة لهم هناك في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ، كانت سلا عاصمة ملكهم . ومع ذلك فقد كان للرباط موضع مهم في هذا كله . فليس يعقل أن يترك ولي أمر نقطة مهمة تقع على العدوة المقابلة لوادي بورقراق لغيره .

وفي أيام الموحدين تمركزت قبيلة برغواطة في سلا وقام الموحدون بقتالها حتى انتهى الأمر بعبد المؤمن الموحدي أن هدم تحصينات المدينة لما استولى عليها في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . ولما عاد حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور من غزوة الأرك (592هـ / 1195م) أمر ببناء رباط الفتح ، وهو الاسم التاريخي الكامل لمدينة الرباط . وقبل أن يموت كانت أسوار المدينة قد ارتفعت وجامعها الكبير قد بانت معالمه وشيدت منارته .

في سنة 647هـ / 1249م استولى بنو مرين على سلا ، واستمر القتال بينهم وبين الموحدين على رباط الفتح ، إلى أن انتصر المرينيون أخيراً . وقد ظلت سلا (مع الرباط ولا شك) الميناء المغربي الأول على المحيط الأطلسي طيلة العصور الوسطى . فقد كان سكانها مشهورين بدعتهم ومهارتهم التجارية ، بحيث كانت السفن التجارية تقصد مدينتهم من موانئ البحر المتوسط الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية وكتلانية ومن فلاندرز (الأراضي المنخفضة) وإنكلترا . وكانت أسواق سلا تمتلئ بالأقمشة والبسط والعاج والمسك والزجاج . وقد عرفت المدينة ازدهاراً وثروة في تلك الحقبة .

ليس هذا تاريخاً للبقعة ، ولم نرم نحن إلى ذلك . ولكننا أردنا أن نؤكد للقارئ أن مركزاً مثل هذا المركز كان لا بد أن ينال من أهل السلطان العناية اللازمة ، وقد نال . ولولا ما كان يصل إلى بعض هذه الأبنية من عبث أولئك الذين ينقلون الحجارة والأعمدة لإقامة الأبنية الخاصة بهم ، لكان الذي نشاهده اليوم أكثر وأوفى بناء ، وأجمل رونقاً ، وأبهى صنعة .

تقف على طرف الرباط (رباط الفتح) المشرف على بورقراق فترى سلا على العدوة

المقابلة ، وتنتقل إلى سلا فتطل منها على الرباط . وتحار في أي التوأمين أحب إلى أهله . وإن كان ثمة تفضيل في وقت من الأوقات ، فإنما مرجع ذلك ، في غالب الحالات ، إلى ظروف وأحوال ومزاج شخصي . وإن كان الواحد يسمع شيئاً عن تنافس بين أهل المدينة الواحدة والأخرى ، فهذا مما يحدث بين الأشقاء .

رباط الفتح

رباط الفتح مدينة موحدية في أصلها وفي أكثر ما نشاهده فيها . وقد عملت الدول التي قامت في المغرب بدورها زيادة فيها وتوسيعاً . لكننا نود أن نكتفي بآثار العصر الموحدي لأنها الأوضح دلالة والأكثر أصالة . ولما اتسعت رباط الفتح في عصر الموحدين كان لها سور يبلغ طوله خمسة كيلومترات وربع الكيلومتر ، يمتد من نقطة في الشمال على المحيط الأطلسي ويتجه جنوباً في خط يكاد يكون مستقيماً ، ثم ينحرف شرقاً في مكان القصر الملكي الآن ، حتى ينتهي بوادي بورقراق . والتحصينات والأبراج الكثيرة ، والتي كانت تحيط بالأبواب بشكل خاص ، كانت تجعل من الرباط مدينة حصينة .

ولم يغفل بناة هذا السور أن يجعلوا من الأبواب التي كانت تؤدي إلى داخل المدينة وخارجها قطعاً فنية . فباب العلو وباب الحد وباب الرواح أمثلة حية على ذلك . ولا شك في أن الذي يقف أمام هذه الأبواب اليوم تدهشه روعة الزخرف القائم على التناسب في الأقواس التي يغلب عليها أن تكون بشكل حذاء الفرس ، والصخر المحفور حفراً دقيقاً أو الجبس المقولب بشكل لا يترك زيادة لمستزيد . فباب الرواح مثلاً مبني من الحجر ، وقطع الحجارة متوسطة الحجم ، لكن أهم من حجم القطع هو هذا التناسب والانتظام في أشكالها ومواضعها . وقد كانت أبواب المدن تبنى قبلاً على غرار الأبواب الرومانية أو البيزنطية فتتكون من عقدين متقابلين . لكن المرابطين بدأوا ببناء أبواب تنحرف في الداخل على زاوية . وقد أصبح بناء الأبواب أكثر تعقيداً في أيام الموحدين . فباب الرواح يكتنفه برجان يحرسانه . ويدخله المرء فيصل إلى القاعة الأولى المربعة التي تعلوها قبة مضلعة . ثم يتجه يساراً إلى قاعة ثانية مربعة أيضاً

مغطاة بقبة شبه كروية . ومن هذه القاعة ينتقل إلى قاعة ثالثة ، هي الأخرى مربعة لكنها مكشوفة ، بحيث إذا تمكن العدو من اجتياز القاعتين الأوليين أمطره الحراس بوابل من السهام من البرج المتصل بالباب . وثمة قاعة رابعة مسقوفة كالثانية ، ومنها ينفذ الداخل إلى المدينة . هذه الزوايا ذات الأربع قوائم بين المدخل والقاعات والمخرج هي التي كانت تجعل الباب شديد التحصين . وباب الحد كان البرجان المحيطان به مخمسين شكلاً حتى يمكن تنويع البناء وبذلك تصبح التحصينات أجمل شكلاً .

وفي الجهة الشمالية الشرقية من رباط الفتح تقوم قصبة الوداية وهي الحصن الموحدي الأصلي . لها سورها المستقل المحصن من الخارج والجميل من الداخل . كما أن قصبة الوداية لها بابها الضخم المنيع والمزخرف بالحفر والنقش . وباب الوداية ، وهو أقدم عهداً من باب الرواح ، أقل تعقيداً من هذا ، لكنه يخضع للمخطط الموحدي من حيث بناء الأبواب بحيث يحال دون اجتيازها بسهولة . فهو مكون من ثلاث قاعات ، يربط بين الأولى والثانية منها درج ، كما يقوم درج يصل بين الثانية والثالثة . ويتم الدخول إلى القصبة عبر دهليز . إلا أنه يمكن ، عند الحاجة الدخول من القاعة رأساً .

سور الموحدين

درنا بسور الموحدين في الرباط ووقفنا عند أبواب ومتعنا الطرف بالتحصين والجمال ، وملأت قصبة الوداية ، وخصوصاً حديقتها الداخلية ، نفوسنا حبوراً وسروراً . لكن لما وصلنا جامع حسان عقدت الدهشة لساننا . وكان ذلك لسببين : أولهما هذه الرقعة الواسعة التي يشغلها الجامع (180 140 متراً) ، وهذه المنارة الرابضة في منتصف جداره الشمالي . والثاني هو أن هذا الجامع لم يتم بناؤه ، فالذي أقيم منه هو جزء فقط . وتذكرنا ما ذكره المراكشي في ذلك : وهو أن المنصور شرع في بنيان مسجد عظيم في رباط الفتح كبير المساحة واسع الفناء جداً ليس في مساجد المغرب أكبر منه . وعمل له مئذنة في نهاية العلو يصعد فيه بغير درج . تصعد (على المنحدر الداخلي) الدواب بالطين والآجر والجص وما يحتاج إليه إلى أعلاها . ولم يتم هذا المسجد لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف المنصور .

وما كان أشد أسفنا لأن المنصور تُوفي قبل أن يتمه . وقد عادت بنا الذاكرة إلى جامع الكتبية في مراكش وهو أيضاً من إنشاء الموحدين . جامع ضخم جميل بسيط متسق متناسق المنارة والبناء . وحملتنا الذكرى إلى جامع أشبيليا الذي يشبه جامع الكتبية وجامع حسان من حيث الضخامة والإتقان . وربطنا بين هذه كلها ، وأضفنا إليها أبنية موحدية أخرى . فكان لدينا من ذلك ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الموحدين كانوا يدركون عظمة الإسلام ويشعرون بالمسؤولية التي ندبوا لها من حيث الحفاظ على الإيمان والنجاح الذي أصابوه في إفريقيا والأندلس . فاتجهوا إلى التعبير عن ذلك بهذه الأبنية الضخمة التي كانت جماع الشعور بالواجب والنجاح المؤثل والشكر لله على أن تم ذلك على أيديهم .

هذه ناحية من نواحي حياة الموحدين وتاريخهم لا بد أن يتفهمها الواحد منا كي يزداد سروره بالآثار التي لا تزال قائمة ، ويدرك دور الموحدين ومكانتهم في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .

خطرت لنا هذه الأمور ونحن ندور في أفناء هذا الجامع الذي لم يتم بناءً ، وإن كان قيامه هناك يشعر بالروح التي أملت على المنصور هذا العمل .

والخطة التي يبدو أنها كانت في نفس المنصور هي أن يكون للمسجد صحن أمام المنارة وصحنان أصغر في كل من جهتيه الشرقية والغربية . وصفوف الأعمدة التي لا يزال أكثرها قائماً توضح لنا ، بقدر ما أمكن ، أن بيت الصلاة كان سيشغل القسم الأكبر من الجامع . ففيه أولاً ثلاثة أروقة موازية لجدار القبلة وبطوله تماماً . ثم تبدأ عند نهاية الرواق الثالث الأروقة المتعامدة عليه وهي واحد وعشرون عدداً ، والأوسط منها والرواقان المصاقبان للجدارين الشرقي والغربي أوسع من البقية . ويقوم ستة عشر صفاً من الأعمدة على طول هذه الأروقة الواحد والعشرين إلى الصحن . تُضاف إلى ذلك ركيزتان في نهاية كل من هذه الصفوف .

أي ضخامة وأي جمال كان من الممكن أن نحصل عليه لو أن الجامع أُتِم بناء وسُقِف؟ .

والمنارة لم تتم بناء ، إذ إن ارتفاع الجزء القائم منها هو أربعة وأربعون متراً . وهي مبنية بالحجر المصقول . ومركز المنارة من الداخل يدور به طريق منحدر عرضه متران .

والمركز موزع على ستّة طوابق في كل طابق غرفة ، وسقوفها مختلفة . كما أن الزخارف والطاقات من الخارج مختلفة .

نحو سلا

ولنجتز وادي بورقراق على الجسر الطويل الذي يصل الرباط بسلا ، لنتم زيارتنا لعدوتي الوادي . وأول ما يطالعنا عند وصولنا سور سلا الذي يرجع إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في غالبه وهو مريني . وأسوار المدينة ، محصنة ، لكنها أقل تحصيناً من أسوار الرباط ، إذ إن هذه أصبحت تدريجاً موضع عناية الدول التي قامت في المغرب . إلا أن الجزء الموحدي من أسوار سلا احتفظ مع الزمن بتحصيناته وأبراجه . وفي سلا باب من أواسط القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بناه المرينيون للدفاع عن الميناء الداخلي للمدينة واسمه باب المريسي .

ومن آثار الموحدين المهمة في سلا الجامع الكبير الذي أسسه أبو يعقوب يوسف (558 – 580هـ/ 1163 – 1184م) ، ولكن يد الإصلاح والتوسيع عملت فيه . وبابه الرئيسي يمثل الزخرف المألوف في ذلك العصر ، وإن كان أحد أبوابه المغلقة أوضح في التعبير عن ذلك . والمنارة المربعة فيها شبه بمنارة الكتبية وجامع حسان من حيث الشكل والزخرف ، لكنها أصغر وأقصر وأروقة الجامع بسيطة .

إلا أن الأثر الجميل في سلا هو مدرسة أبي الحسن . وأبو الحسن علي (732 – 749هـ / 1331 – 1348م) يعتبر من كبار البنائين بين المرينيين ، وآثاره كثيرة ، وأكثر أبنيته مدارس . ومن أجمل هذه المدارس بناء وزخرفاً مدرسة سلا ، وهي صغيرة نسبياً . وأنت إذ تهم بالدخول إلى المدرسة من بابها تلفت نظرك الدقة المتناهية في الحفر سواء في الحجر أم الجص أم الخشب ، بحيث تكاد تنسى أنك تود الانتقال إلى الداخل . فإذا اجتزت هذا الجمال وجدت نفسك في مدخل صغير وعلى يمينك درج ينقلك إلى الطابق العلوي من المدرسة . فإذا اجتزت المدخل وقع نظرك على صحن يتوسطه مدخل بيت الصلاة . والصحن والجدران والأعمدة مغطاة كلها بالزليج (القيشاني) الملون الجميل ، وتتضح تفاصيل ذلك من الانتباه إلى الأعمدة .

وحيث تنقلت في هذه المدرسة وقعت عينك على نماذج جميلة جداً من الحفر والكتابة إما في الجص (الجبس) أو في الخشب . ويكفيك أن تقف بعض الوقت أمام أحد الجدران هناك لترى بنفسك مبلغ ما وصل إليه الإتقان .

إن عناية المرينيين بالعلم والأدب معروفة ، واهتمامهم ببناء المدارس في أنحاء المغرب جمعاء مشهور ، وقد رغبوا في أن تكون العناية والاهتمام معبراً عنهما تعبيراً فنياً قوياً . وقد تم لهم ذلك في هذه المدرسة وغيرها .

الرباط وسلا تقعان في نقطة مهمة بالنسبة إلى المغرب : مهمة جغرافياً واستراتيجياً واقتصادياً . والعناية بالأسوار وأبراجها والموانئ وأبوابها إنما هو للإفادة من الموقع . ولأن الموحدين والمرينيين كانوا يحكمون في فترة من الفترات المهمة في تاريخ المغرب ، ولأنهم كانوا يشعرون بما يلقى على أكتافهم من مسؤولية وواجب ، فقد قاموا بذلك خير قيام . وأجمل ما في ذلك هذا التعبير الفني عن كل ما اختطوه وعملوه وبنوه واحتضنوه وأحاطوه برعايتهم . وزيارة واحدة إلى المغرب تضعنا وجهاً لوجه أمام هذه الحقيقة التاريخية المهمة .

دولتان

في أواسط القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد ، قامت في المغرب العربي دولتان متفقتان أصلاً مختلفتان فرعاً ، وكان لكل منهما منفردة ، ولهما معاً ، دور كبير في تاريخ شمال إفريقيا الغربي . أما الأولى فهي الدولة الرستمية (160 – 296هـ / 777 – 909م) التي أنشئت في المغرب الأوسط على ثلاث مراحل من البحر المتوسط ، والثانية قامت في جنوب المغرب الأقصى وهي دولة بني مدرار (140 – 296هـ / 757 – 909م) . والدولتان تمثلان حركة الخوارج في الديار المغربية ، إنما الفرق بينهما أن الدولة الرستمية كانت إباضية ، فيما كانت الدولة المدرارية صُفْرية .

المعروف أنه في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أصبح مذهب الخوارج هو الغالب على البربر في الديار الإفريقية الشمالية . وكان للإباضية دور كبير في إفريقيا (المغرب الأدنى أو تونس) وطرابلس ، حتى إنهم احتلوا القيروان بالذات . لكن الولاة

العباسيين أخرجوهم وحملوهم على الانتقال إلى المغرب الأوسط (الجزائر) حوالي سنة 144هـ / 761م ، وبعد فترة من التنقل وصلوا ، بقيادة عبد الرحمن بن رستم ، الذي كانوا قد اختاروه مقدماً عليهم ، إلى منطقة تاهرت (تيهَيرت اليوم) . وفي السنة 160 هـ / 777م اختير عبد الرحمن إماماً للظهور (أي إمام تكوين دولة) وبدأت به الأسرة الرستمية . وعبد الرحمن فارسي الأصل ، وصل إلى المغرب شاباً في مطلع القرن الثاني الهجري ، وكان أحد الخمسة الذين أرسلوا إلى البصرة ليتلقوا التعاليم الإباضية الأصيلة . فقضى هناك ، مع رفاقه ، خمس سنوات ، عادوا بعدها (140هـ / 757م) إلى المغرب وعرفوا باسم «حَمَلَة العلم» .

تقع تاهرت على ارتفاع نحو ألف متر عن السهوب الواقعة إلى جنوبها ، وعلى كتف منطقة التل الخصبة . وكانت مصيفاً لرعاة السهوب الذين كانوا يقصدون المنطقة إلى المراعي الخصبة . فإذا انتهى الصيف ، كانوا يعودون إلى سهوبهم وقد باعوا منتوج أنعامهم - من الحليب والصوف والجلود - إلى أهل تاهرت ، وابتاعوا منهم الحبوب زاداً للشتاء والأقمشة اتقاء لبرده .

وكان ثمة حصن هو بقية لمدينة قديمة ، لعلها تعود إلى أيام البيزنطيين إن لم تعد إلى العصر الروماني ، وكان اختيار المكان نتيجة بحثٍ وتقصٍ إلى أن اتفق عليه . وهو أرض مسطحة فيها غيضة بين ثلاثة أنهار . وهي على الطريق الواصل بين البحر شمالاً والمناطق الداخلية جنوباً . وهي كما وصفت توجه أنظارها نحو الداخل وتولي ظهرها للبحر! وابتعد القوم عن تاهرت القديمة (العليا) وخططوا مدينتهم الجديدة (السفلى) على بعد خمسة كيلومترات من الحصن القديم .

وتخطيط المدينة وبناؤها ، في مكان جديد ، كان يقتضي إزالة الآجام وحرق الأشجار قبل أي شيء آخر . ثم جاء العمل الأول وهو بناء المسجد الجامع حيث كانوا يصلون وهم يهيئون الأرض . ووصلت عبد الرحمن هبات مالية من إباضية طرابلس ثم من المركز المشرقي الرئيسي في البصرة . فأعانه ذلك على إقامة الأبنية اللازمة أولاً ، ثم تلا ذلك ، مع الوقت ، بناء القصور والبيوت والحمامات والفنادق . ويبدو أنه كان للأندلسيين دور في هذا .

على أن الأهم من إقامة المباني ، في رأينا ، هو الإفادة من العناصر الطبيعية في

المنطقة وتنظيم ذلك . فماء النهرين اللذين كانا يحيطان بها ، وماء المطر الذي كان غزيراً نسبياً ، شقت له القنوات بحيث يمكن للأرض أن تفيد منه . وأقيمت الطواحين على الأنهار ، وزُرع الكتان والسمسم وسائر الحبوب على اختلافها ، وغرست الأشجار وأقيمت البساتين . وزاد من أهميتها كونها منتجعاً لرعاة القبائل المجاورة للاتجار بمواشيهم ، بحيث إن تاهرت وُصفت بأنها أحد مصادر الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين .

ومع أن الأمراء (أو الأئمة) الرستميين خرجوا فيما بعد عن القواعد الأصلية والأسس التي استنها عبد الرحمن بن رستم للحكم ، فاختلفوا فيما بينهم وتحاربوا ، فقد ظلت الدولة قائمة إلى أن قضى عليها الفاطميون (296هـ / 909م) .

هرقل وصحبه والجزائر

مدينة تعتمد على تلال تكلؤها ، وتلقي غاباتها عليها ظلالها ، وتطل عليها حنواً وعطفاً ، فإذا اطمأنت المدينة إلى المتعة والحنو والعطف اتخذت من البحر لها قبلة ووجهة ، فاتسعت آفاقها باتساعه ، وعمق شعورها بعمقه ، وامتدت آمالها بامتداده ، وهدأت أحلامها بهدوئه ، وثارت ثائرتها بضعفه ، وجاشت خواطرها بثورته . ذلك كان شأنها يوم وضع الإنسان الحجر الأول في مدينة الجزائر ، ولا يزال شأنها كذلك إلى يوم الناس هذا . عرفناها كذلك ووسط يومها يقيظ ، وعرفناها وأمسيتها تنعش ، وعرفناها وليلها يقلقك برده .

على أن هذه الحماية من البر ، وصعوبة الوصول إليها من البحر أعاق الاعتراف بقيمتها . وكان الفينيقيون أول من أدرك الفائدة من اعتمادها مرفأ صغيراً تلجأ إليه سفنهم . ذلك بأنهم لما خاضوا عباب البحر المتوسط ، وتعرفوا تدريجاً على ثروات الأقطار المختلفة منه ، وتقدم تجارهم غرباً للشراء والبيع وتبادل السلع ، كانوا بحاجة إلى محطات على شاطئ البحر الجنوبي ، يربح فيها البحارة ، وتلجأ إليها السفن ، على أن لا تكون هذه المحطات متباعدة الواحدة عن الأخرى . والباحثون في تاريخ الانتشار الفينيقي التجاري في تلك الأصقاع ، لاحظوا أن هؤلاء البحارة كانوا

يختارون ملاجئهم البحرية ، بحيث لا يبعد الواحد عن الآخر أكثر من إبحار يوم واحد . فكانت البقعة التي تقوم عليها الجزائر اليوم محطة لهم .

ويبدو أن الاسم الذي أطلق عليها هو ايكوسين . وهذا هو الاسم الذي عرفت به في الأساطير اليونانية ، ومن هنا نسبتها هذه الأسطورة لنفسها ، ولو أن الأسطورة دونها صولين الروماني . وتتلخص الحكاية في أن هرقل الإله اليوناني الجبار صحبه في إحدى سفراته بقصد الوصول إلى الغرب ليفصل بين شبه جزيرة أيبيريا والمغرب ، وكان القسمان متصلين . ولما وصل هرقل إلى مكان الجزائر للإراحة مع صحبه «العشرين» ، أعجب الصحب بالمكان ، فانفصلوا عن هرقل وظلوا هناك . أما هو فقد سار غرباً حتى فصل البر عن البر (ومن هنا تسمية مضيق جبل طارق قديماً بأعمدة هرقل) . والنفر العشرون الذين انفصلوا عنه أسسوا على البر بلدة سميت مدينة العشرين كي لا يستأثر واحد منهم بإطلاق اسمه على المدينة . وقد كان تعليل صولين لهذه الأسطورة هو أن اسمها القديم «ايكوسين» يعني الجزء الأول منه (ايكوسي) العشرين باليونانية .

ولا شك في أن الأسطورة جميلة ، لكنها لا تثبت أمام الحقيقة التاريخية التي أثبتتها الأدلة الأثرية ، من تماثيل لبعل حمون وملكارت وضريح فينيقي الأصل ونقود فينيقية رصاصية وبرونزية (عثر على 158 قطعة نقدية) ، والدراسة التاريخية . وقد يكون لليونان فيما بعد في المكان نصيب ، لكنه لم يبلغ حد التأسيس . ولعل تأسيس «محطة» دائمة فينيقية يعود إلى القرن السابع ق .م . إن لم يسبق ذلك بقليل . وهكذا جمعت ايكوسين بين نشاط الفينيقي التاجر وسكان البلاد ، فكان تعامل وتزاوج وامتزاج . ونقل الفينيقيون معهم ما كان عندهم من عادات وتقاليد ومتاجر ودين ، فقبل السكان الأصليون من ذلك الكثير . وجمع التاجر الفينيقي في ايكوسين وفي غيرها ما استطاع من البضائع المحلية كالصوف والجلود أو المستوردة (ولعلّ الذهب الإفريقي كان أحدها) . والماء في ايكوسين غزير ، والسهل المحيط بها يوفر المواد الغذائية اللازمة ، والعنصر البشري الأصلي يبتاع من الفينيقيين بعض ما يحملونه معهم من أمشاط وآنية زجاجية للزخرفة كالمكاحل وقماش جميل متين . وظل هؤلاء على الساحل الضيق ؛ ذلك بأن العدد لم يزدد بحيث يتسلقون الهضبة إلى الداخل ،

كما حدث فيما بعد .

ونعم الفينيقيون ، كما نعم خلفاؤهم فيما بعد بمناخ الجزائر اللطيف ، الذي وصفه الدكتور حليمي عبد القادر علي بقوله :

«إن مناخ مدينة الجزائر وضواحيها بحري بالدرجة الأولى ومعتدل للغاية وأقرب إلى الدفء منه إلى البرودة في فصل الشتاء حيث إن مقياس الحرارة في هذا الفصل لا ينزل إلى ما دون الصفر إلا نادراً بل لا ينزل بالمرة على الشاطئ . وفصل الصيف تغلب عليه الحرارة التي يمكن تحملها بارتياح نظراً للرطوبة الجوية المنخفضة وهبوب نسيم البحر الذي يلطف الطقس» .

«والرياحُ تهبُّ في فصل الشتاء في الغالب من الشمال أو الغرب أو الشمال الغربي تجلب السحب والأمطار الغزيرة على عكس الرياح التي تهب في فصل الصيف وتكون في الغالب من الشرق أو الجنوب أو الجنوب الشرقي ، وهي رياح جافة تحمل السحب في بعض الأحيان لكنها لا تسبب الأمطار . والضغط معتدل في المدينة ضواحيها إذ يقرب من الضغط العادي في كل فصول السنة» .

«والأمطار متوافرة ، يَبْلُغُ متوسطُها السنوي 718 م وهي كمية يمكن أن يتجاوزها المعدل إلى 1342 م أو يقل عنها ولكن دائماً في حدود أكثر من 400 م . ويبدأ فصل المطر عادة في أواخر [أيلول] سبتمبر لينتهي في أواخر [أيار] مايو ويشتد في شهر [كانون الأول] ديسمبر ، وقليلاً ما كانت الأمطار مصحوبة بالرعود كما تقل الأمطار السيلية التي تحفر الأخاديد وتجرف التربة وتعوق المرور» .

«وعدد الأيام الممطرة قليلة بالنسبة لكمية الأمطار التي تتصف بنوع قليل من الشدة ولا تحجب الغيوم إلا جزءاً من سماء المدينة ، وإن الغمام يندر فيما بين شهري [أيار] مايو و[تشرين الأول] أكتوبر ، وهي فترة الجو النقي الصافي اللمّاع الذي تكون شفافيته شديدة ومتجانسة ليلاً نهاراً ، ويشتد في هذا الفصل السطوع ولا تظهر الأبخرة البيضاء إلا صباحاً فوق البحر بالخصوص لكنها أبخرة زائلة ، إذ سرعان ما تبددها الأشعة الشمسية ونسيم البحر ، ثم تعود للجو صفاوته ونقاوته ويحسُّ الإنسان وكأنه في فصل الربيع .

«والفصول تتوالى من غير أن يشعر بها الإنسان لكن الطبيعة لا تغفل عن الإخبار

بتناوب الفصول وذلك باخضرار الحشائش ، وسرور الأطيار كعلامة لدخول فصل الربيع ، وعلى العكس فصل الصيف الذي تنام فيه الطبيعة ثم تزيل رداءها في فصل الخريف لتستيقظ في فصل الشتاء مستعدة لاستقبال فصل الربيع بأزهاره الباسمة ، ما أجمل طبيعة الجزائر وما أطيب مناخها» .

وحري بالذكر هو أنه لما قامت إمبراطورية قرطاجة وتوسعت شرقاً وغرباً ، حافظت على المحطات هذه ، التي كان يفصل بين الواحدة منها والأخرى إبحار يوم . فكانت منها الجزائر وتيباسا وشرشل (يول القديمة) وغيرها .

وجاء يوم فقدت فيه قرطاجة إمبراطوريتها سنة 146 ق .م . وحلّت روما مكانها . وبدل الرومان اسم المكان من ايكوسين إلى ايكوسيوم ، أي رَوْمَنوه بعد أن كان يونانياً . لكنهم لم تلفتهم المدينة أو البلدة بشكل خاص .

إنما احتفظوا بها «محطة» عسكرية على ما يبدو . وإذا صحَّ هذا ، فإن هذا يوضح لنا تسلقهم أطراف التل . ولا تزال آثار التخطيط المتعامد للمدينة الرومانية ماثلة في الأجزاء الشاطئية من المدينة .

وقد اقتضى ازدياد عدد السكان توسع رقعة المدينة ، فأتمت الأبنية تسلق مرتفعات التل ، وانتشرت فوقه . وقد أدرك عروج أن المدينة أصبحت بحاجة إلى حصون مشرفة ، فاتخذ من قمة التل موقعاً لقصبته ، ذلك بأن قصبة بُلُقين لم تعد صالحة . وفيما كانت المنازل الجديدة تتمتع بالشمس والهواء ، ولو نسبياً ، فإن الشوارع والطرق الأصلية تحولت إلى ممرات ضيقة .

على أنه مع الزمن ، وازدياد التوسع في الجزء الساحلي وفي السفوح ، اختلطت الأمور إلى درجة كبيرة . فكان الزائر يجد ، داخل أسوار المدينة حمامات جميلة وأبنية متسعة . وقد أجمل الدكتور حليمي عبد القادر علي (مدينة الجزائر ص 222 - 225) وصف العمران داخل أسوار المدينة في العهد التركي إلى أواسط القرن الثامن عشر بما يلي :

«كانت المباني المتنوعة تزدحم داخل أسوار مدينة الجزائر منها الحمامات الجميلة المبنية بالرخام الأبيض ، والمزدانة بالفسيفساء . ومنها الديار المكعبة الشكل الهندسي ، أغلبها كانت تتألف من طابقين وسطح أفقي ، والطابق الأول يسمى بالسفلي تكثر بداخله السواري الأسطوانية الشكل ، والمنحوتة من الرخام أو الحجر

الجيري ، ويدخل الساكن إلى داره من باب متين مقوس الجزء العلوي ومستطيل الجزء السفلي ، ومثبت في رف من رخام بالجدار يعلوه إفريز أو طنف من القرميد وبالباب فتحة مسيجة بالحديد تساعد على الرؤية نحو الخارج ، ومصرع الباب مرصع بالمسامير ليزيدها متانة ، وحلقة حديدية لدق الباب ، وداخل الباب أقفال ومغاليق ومصدم لتوفيق حركة الباب السريعة ، والطابق الأول لاستقبال الضيوف : توجد به السقيفة ، وغرف عديدة ، تفتح كلها نحو وسط الدار أو ساحة المنزل ، تعلو أبوابها الأقواس ، وتكثر بها الأروقة . وفي هذه الساحة المفروشة بالبلاط بئر لسقي أصحاب الدار بالمياه اللازمة للشراب والغسل ، وفوارة تنبجس منها المياه العذبة لتلطيف حرارة جو الدار في فصل الصيف ، وتجميل الساحة في فصل الشتاء وأغلب الديار خالية من الشبابيك الواسعة ، وإن وجدت فهي ضيقة للغاية ونادراً ما تعطي للأنهج ، وغالباً ما تفتح نحو الساحة . والطابق الثاني مخصص للنوم ، فيه تستتر النسوة داخل غرف جدرانها مرصعة بالفسيفساء ؛ وتوجد بهذه الغرف الخزائن المملوءة بالألبسة والستائر وغرف تعرف بالمقصورة مفروشة بالزرابي وبها الأرائك والأسرة ولوازم غرف المبيت . ومن الطابق الثاني تتصاعد أدراج سلم من الرخام الأبيض أو من البلاط أو من الحجر الجيري على سطح الدار المخصص للمسامرة في ليالي الصيف ، ومنه تتصل الجارة بالجارة لمبادلة الحديث والاستماع إلى أخبار بعضهن البعض أو لنشر الألبسة المغسولة . والطابق الثاني أوسع من الطابق الأسفل ويتركز جزء منه على أخشاب من السرو . ونظراً لازدحام الديار ببعضها فكانت سطوحها مماسة إلى درجة أنها تمثل من بعيد سطحاً واحداً ، ويمكن التنقل عن طريق هذه السطوح من دار إلى أخرى بدون مشقة بدلاً من النهج التي أصبحت بعد ازدحام المباني عبارة عن أنفاق مظلمة وملتوية تحت السطوح أطلق عليها في بعض الأحيان السباط . وجدران الديار مبنية بالآجر أو الحجارة المنحوتة . وكان عدد الديار داخل أسوار المدينة نحو الخمسة آلاف دار سنة 1789 كما قدرها فانتيردي برادي . وقدرت قبل الحملة الفرنسية (1829) بحوالي 8000 دار . وهي ديار متشابهة مطلية كلها بالجير الأبيض أو الجبس . ولقد اعتنى سكان مدينة الجزائر بتجميل منازلهم داخلياً بالخصوص ، أما خارج المنزل فقد اكتفوا بتبييضها في أغلب الأحيان . ولم تكن هناك علاقة بين النهج والمنزل ، حيث

ترك الأتراك للباني حرية البناء كيف شاء ، دون أن تضبط الإدارة الحد بين اتساع وارتفاع المنزل ، واتساع النهج ، ولذلك طغت الديار على الأنهج ، فكانت بذلك الأنهج ضيقة خالية من الأرصفة والنور ، والديار متشابهة بحيث إن الواحدة منها تعطي صورة صادقة وعينة مألوفة لغيرها من حيث تركزت به الطبقة الأرستقراطية من الأتراك بالخصوص والمصالح التجارية البحرية ، وحي باب الوادي تركز به اليهود التجار ، وحي باب عزون للأجانب وأصحاب التجارة من الأهالي ، ثم حي القصبة القديمة للعرب ، أما حي القصبة الجديدة أو العليا فللإنكشارية والدايات وأصحاب المناصب العالية في الدولة . وتتخلل معظم هذه الأحياء أسواق متنوعة من أهمها سوق باب عَزُّون وسوق باب الوادي ورحبة السمن بالقرب من جامع سيدي رمضان ، وسوق السردين بالقرب من باب عزون ، وبجانبه سوق القمح . ثم الفنادق لإيواء المسافرين منها خمسة فنادق كانت توجد في حي باب عزون» .

تطوير ميناء الجزائر

قررت فرنسا ، بعد تردد ، أن تحتل الجزائر بأجمعها ، وأن تبقى فيها ، فأخذت تعمل كأنها باقية هناك إلى الأبد .

وكان الميناء أول ما اهتمت به أولاً من حيث تحصينه ، وهو الأمر الذي كان الفرنسيون يطورونه حسب تقدم وسائل الهجوم والدفاع من البحر والجو . والأمر الآخر هو جعل الميناء صالحاً لاستقبال السفن التجارية الكبرى . وقد قاموا ، أول الأمر ، بتوسيعه في الجهة الجنوبية الشرقية . إلا أن التفكير بتوسيعه جذرياً بدأ سنة 1840 ، لكن البرنامج لم يوضع موضع التنفيذ إلا سنة 1848. أما «شخصية» ميناء الجزائر كما هي عليه الآن فتعود إلى سنة 1860 . ولسنا نريد أن نتتبع التطورات بالتفصيل ، ولكن ميناء الجزائر وصل سنة 1913 ، أي في السنة السابقة لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، إلى حد أنه استقبل في تلك السنة 13.000 سفينة . وكانت المتاجر التي مرت به في تلك السنة تقدر بنحو 20.000.000 طن وكان ثاني ميناء تحت الراية الفرنسية بعد مرسيليا (22 مليون طن) ، أما الميناء الذي كان يليه في تبادل السلع

(من الموانئ الواقعة تحت الراية الفرنسية) فهو ميناء الهافر (11 مليون طن) . وبالنسبة إلى الموانئ العالمية (سنة 1913) فقد جاء ترتيبه الثامن (بعد نيويورك وهامبورغ وانتورب ولندن وليفربول ومرسيليا وهونغ كونغ) .

أما ما كان يصدر من ميناء الجزائر فيدخل في عداده : الخمور والكحول والحبوب والخضار والفواكه والأغنام والصوف والجلود والفلين والزيتون والمعادن . أما ما كان يُسْتَوْرَد عن طريق هذا الميناء فالمواد اللازمة للبناء والآلات والحديد والمستحضرات الكيميائية والمواد الغذائية والأقمشة .

على أن أهمية الميناء كانت ، كما ذكرنا قبلاً ، حربية أيضاً . فقد كانت تقيم فيه ، بصورة دائمة (سنة 1913) ستون قطعة حربية ، من جميع الأشكال والأصناف . كما إن الميناء ، وما حوله ، كان مصدراً كبيراً لصيد الأسماك .

وقد تأخرت تجارة ميناء الجزائر أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذت تعود إلى نشاطها بدءاً من سنة 1920 . واستمر الميناء للتجارة والحرب أثناء وجود الفرنسيين .

ويعتبر ميناء الجزائر الآن أكبر ميناء في المغرب العربي على البحر المتوسط .

في الجزائر سنة 1951

قصة مدينة الجزائر قصة طويلة ، حتى لو اقتصرنا على المائة سنة الأخيرة . ولكن لن أطيل على القراء في ذلك .

زرت الجزائر للمرة الأولى سنة 1951 وقضيت فيها نحو ثلاثة أسابيع . ولأنني أعتقد دوماً أن المشي السبيل الوحيدة للتعرف على المكان فقد سرت فيها كثيراً .

وصلتها مساء وكنت قادماً في القطار من قسنطينة . وخرجت بعد راحة قصيرة أسير في أقرب شارع إلى الفندق . وكان ، مثل غيره من شوارع المدينة ، عريضاً منظماً (كان اسمه يومها شارع دسلي) .

حملت معي إلى المدينة رسالة من المرحوم الأستاذ عامر بن عامر المحامي في بنغازي بليبيا إلى رجلين في مدينة الجزائر الشيخ محمد بن زكري ، مدير المدرسة الثعالبية (تغمده الله برحمته) والأستاذ أحمد توفيق المدني (أطال الله عمره) .

وقد رافقني الأول بضعة أيام ودلّني على الكثير من معالم المدينة (ثم غادر المدينة إلى المصايف) . كان مديراً للمدرسة الثعالبية ، وهذه المدرسة ، كان الفرنسيون يطلقون عليها هذا الاسم تمييزاً لها عن المدرسة الفرنسية المعروفة بالليسه ، هي مدرسة رسمية كان الطلاب يتعلمون فيها ، إضافة إلى الفرنسية وآدابها وتاريخ فرنسا وجغرافيتها ، اللغة العربية وآدابها والدين الإسلامي مع اهتمام بالشريعة . ذلك أن خريجيها كانوا يوظفون في دوائر القضاء الفرنسي ليقوموا بترجمة الأحكام التي تصدر عن القضاة إلى الفرنسية ، لأن أحكام القضاة كان يجب أن يوافق عليها الموظف الفرنسي المسؤول قبل تنفيذها . (كان في القطر الجزائري ثلاث من هذه المدارس ، الثعالبية في مدينة الجزائر وأخرى في قسنطينة وثالثة في تلمسان ؛ وكان عدد الطلاب فيها كلها سنة 1950 نحو 350 طالباً) .

وسألني الشيخ محمد بن زكري يوماً فيما إذا كنت أرغب في زيارة الحاكم العام ، فأجبت بالإيجاب ، واشترطت عليه أن يرافقني ليكون واسطة الترجمة . ورأيت في الأمر مناسبة أن ألتقي الشخص المسؤول عن القطر بكامله .

كان الحاكم العام غائباً في إجازة ، فتم الموعد مع نائبه . وذهبنا إلى مكتبه وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً . وشكرته لإتاحة هذه الفرصة لي ، فكان جوابه أنه قلما يزوره أستاذ جامعي ، ولذلك فقد خصص لي ساعة كاملة . وسألني فيما كنت قد زرت مدينة أخرى في القطر الجزائري قبل العاصمة ، فذكرت أنني كنت في قسنطينة . فقال : «لقد احتفظنا بالطابع الوطني لمدينة قسنطينة ، لتكون نوعاً من متحف فني معماري فولكلوري!» . وكنت قد رأيت في تلك المدينة من انعدام النظافة ما تقززت له نفسي ، فأجبته : «كان من الممكن أن تحتفظوا بها متحفاً نظيفاً» .

انتفض الرجل كمن لدغ . ونظر إلى ساعته ، وقال إنه تذكر أن لديه موعداً آخر ، وكان هذا إيذاناً بانتهاء المقابلة . فمن الساعة الكاملة التي كان قد خصصها لي حصلت على ست دقائق بالضبط .

للفرنسيين فقط

رأيت في الجزائر يومها ما يسمى بالمدينة الجديدة (وبهذه المناسبة فقد كان مقابل

كل مدينة مهمة في المغرب العربي أيام الفرنسيين حي أو ضاحية تسمى المدينة الجديدة) . والمدينة الجديدة هذه كانت للفرنسيين فقط . حتى الدخول إليها ، بالنسبة إلى السكان الوطنيين ، لم يكن مستحباً . أما السكنى فكانت ممنوعة إلا لمن رضي عنه المستعمر . وكم شعرت بشيء من السرور لما زرت الجزائر لأول مرة بعد الاستقلال ، ورأيت أن المدينة الجديدة عادت جزائرية وزالت عنها فرنسيتها!

ورأيت في وسط الجزائر ، في الميدان الرئيسي ، الجامع الكبير وقد أصبح كاتدرائية . (ولم يكن هذا الوحيد ، ولكن هذا كان أكثر إيلاماً للجزائري . فهو الجامع الكبير لعاصمته) وقد عاد هذا جامعاً بعد الاستقلال .

ورأيت على أعلى بقعة في التل الذي تسلقته مدينة الجزائر في تاريخها الطويل ، كنيسة كبيرة للسيدة العذراء سميت نوتردام إفريقيا (Noter Dame d'Afrique) . إشارة إلى ما كان الكاردينال لافيجري وجماعته يرون في وجودهم في إفريقيا الشمالية . وقد أهمل هذا البناء مؤخراً إهمالاً تاماً .

وسألت عن جامعة الجزائر ، فقيل لي إنها أنشئت سنة 1879 ، وأعيد تنظيمها سنة 1909 . وقد كان فيها في تلك السنة 282 طالباً وطالبة (251 طالباً 31 طالبة) من الجزائريين ، أما البقية الباقية التي تبلغ نحو خمسة أضعاف هذا العدد فقد كانوا فرنسيين .

وحملت رسالة التعريف الثانية إلى الأستاذ أحمد توفيق المدني على مكتبه . كانت الساعة الرابعة زوالية (وهذا وقت مبكر في الجزائر بالنسبة إلى شهر آب/ أغسطس) لما دخلت المكتب ، واعتذر أنه عين موعداً مبكراً ، إذ إن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة الخامسة لفئة من العاملين في حقل السياسة الجزائرية . وحدثني الأستاذ بما عرف عنه من علم ومعرفة وإخلاص وأوضح لي حقيقة الاستعمار الفرنسي للجزائر . وأخذ الرجال يتوافدون ، وهممت بالخروج إلا أنه قيل لي أن أبقى إلى أن يكتمل الجمع . فبقيت ، ولما اكتمل الجمع قيل لي إنه ليس في الذي يفعلونه شيئاً سرياً ، فلماذا لا أشاركهم . وهكذا بقيت معهم إلى منتصف الساعة الثامنة . ذكرت هذا لأقول إن هذا الاجتماع كان للبحث في إنشاء الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات الديمقراطية ، وهي جبهة ضمت ممثلين عن جميع

المنظمات الجزائرية السياسية من أقصى اليمين إلى أبعد اليسار! وكان هذا الاجتماع ، وما قيل فيه ، من توافق وتناقض وتبادل في الرأي أمراً لم أكن أطمع في أكثر منه في مثل تلك الظروف .

على أن الأمر الآخر الذي تمّ لي - عن طريق الأستاذ المدني - هو التعرف إلى المرحوم الشيخ الطيب العقبي ، أحد رجال الإصلاح الكبار في المغرب العربي ، وإلى نادي الترقي في العاصمة . زرته في النادي وزرته في بيته . وكان النادي أصلاً يعنى بالأمور السياسية إضافة إلى الشؤون الثقافية . لكن لما زرت الجزائر (1951) كانت الحكومة الفرنسية قد حرمت على الأندية والجمعيات العمل السياسي ، فاقتصر نادي الترقي على نشاط ثقافي محدود .

الجزائر بعد الاستقلال

زرت الجزائر بعد الاستقلال أكثر من مرة كانت آخرها في شهر تموز / يوليو 1978 .

المدينة التي زرتها لأول مرة سنة 1951 قد اتسعت كثيراً ، لكن اتساعها لم يتناسب مع ازدياد عدد السكان فيها . فالمدينة تضم اليوم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، جاءوا ، في الغالب ، من الريف سعياً وراء الرزق في العاصمة . لذلك فهي مزدحمة ازدحاماً كبيراً قد لا يعدله في هذه الأيام ، بين المدن العربية التي أعرفها سوى القاهرة وبيروت (على اختلاف في عدد السكان بين المدن الثلاث) . وهذا الازدحام طبع المدينة بطابع خاص من حيث العنصر السكاني .

والمدينة التي كانت تصدر فيها صحف محدودة ، بسبب المضايقة الفرنسية ، أصبحت الآن تصدر فيها صحف بالعربية والفرنسية . والمدينة التي لم تعرف يومها مجلة عربية (سوى البصائر) فيها الآن «الأصالة» و«الثقافة» وغيرهما . والمدينة التي لم تطبع كتباً بالعربية تستحق العناية أصبحت الآن تنشر العشرات من الكتب العربية في الشهر الواحد . والمدينة التي كان في جامعتها سنة 1950 أقل من 300 طالب وطالبة جزائريين ، أصبحت جامعة الجزائر الآن تضم 18.000 طالب وطالبة جزائريين . هذا إضافة إلى جامعة «أبو مدين العلمية والتكنولوجية» التي تضم نحو

9,000 طالب وطالبة . ويعمل في الجامعتين نحو 2500 أستاذ ومدرس جامعيين . هذا إلى معاهد للدراسة والبحث العلمي مستقلة عن الجامعتين ، وفي مقدمتها المعهد الوطني للدراسات التاريخية . والمدينة التي كانت عاصمة لقطر فقير أو على الأصح فقر سكانه لينعم الأجنبي بثروته ، أصبحت الآن عاصمة لقطر غني بسبب النفط والغاز الطبيعي .

كانت مدينة الجزائر سنة 1951 تقارع الاستعمار الفرنسي ، ثم قاتلته البلاد بأجمعها (1954-1962) ، وهي اليوم عاصمة القطر المستقل الذي يقارع مشكلات السكان والعمل والإصلاح الاجتماعي والتعريب والتعليم العالي .

وهكذا فالجزائر ، كما قلت في مفتتح هذا الحديث ، «عرفت الرفعة والثراء ، وخبرت الضعة والفقر ، لكنها ، في كل حال ، ظلت مرفوعة الرأس منتصبة القامة تؤثر الشرف على الاستكانة» .

وستظل على ذلك دوماً!

الهضبة الصخرية

وقفت على قمة الهضبة الصخرية التي تحيط بتلمسان من الجنوب ، ورأيت شعاب هذه الهضبة الوردية تنحدر نحو المدينة . ومن هناك أشرفت ، نحو الشمال ، على سهل واسع خصب ، يمتد عند قدمي المدينة ، يبدو كأنه بساط موشى ، تناثرت فيه القرى والقباب . ولاح لي من بعيد خط المرتفعات . وقد تمت النعمة علي ، فكان اليوم صحواً صافياً ، فرأيت البحر بوضوح عند الأفق . وكنت ، في واقع الأمر ، قد أحسست بالكثير من هذا الذي رأيته وأنا في طريقي من الجزائر (العاصمة) على تلمسان . فقد جئتها يومها - في زيارتي الأولى- بالقطار . وأطل الفجر والقطار يتحرك نحوها ، وأشرقت الشمس ونحن نقترب منها . وكان الطريق يحاذي أطراف منطقة التل . وقبل أن نصل تلمسان : «أخذ الطريق يدور بنا ويلف ، متجنباً الأودية السحيقة ، مجارياً لهذه الجبال السامقة ، مستظلاً بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة ، مشرفاً ، بين الحين والحين ، على نهيرات عَذُبَ ماؤها وصَفَا لونه حتى كأنه

غير الماء . ولم نلبث أن أشرفنا على تلمسان ، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب ، فأينع الثمر وانتظم الشجر ، وفاح من الزهور أريج ، وكسا الجبال غاب فنقلني ذلك كله إلى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف . والماء كثير في ربوع المنطقة حتى يرى البعض إلى أن كلمة تلمسان معناها الماء الغزير . ولما وقفت على الهضبة ورأيت ما رأيت ، تذكرت قول شاعرها في وصفها :

في رياض مُنَضَّدات الجـــــــاني
بـين تـلـك الـرُّبـى وتـلـك الـوهـادِ
رقَّ فـيـهـا النسيمُ مـثل نسيبي
وصـفـا النهـر مـثل صـفـو ودادي
وزها الزهر ، والغـصـون تثنَّت
وتغنَّت عليـهـا ورق شـوادِ

ومن الهضبة رأيت بقايا مدينة أغادير القديمة (وكلمة أغادير بربرية معناها القلعة) ، وآثار تاغرارات المدينة التي أنشأها المرابطون (448 - 541هـ / 1056 - 1147م) لما وصل ملكهم إلى المغرب الأوسط . وتلمسان بني عبد الواد (الزيانيين) التي أسسها منشئ الدولة يَغْمُراسن (633-682هـ/ 1235-1283م) . والمنصورة التي بناها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف وهو على حصار تلمسان ثماني سنوات بدأت سنة 698هـ/1299م ، هذا إلى قرية العباد الزاهية . تاريخ يشغل سبعة قرون أو يزيد ، يمتد أمام ناظريك ، بعض أبنيته لا يزال قائماً ، والبعض الآخر آثار» .

وليسمح لنا القارئ بأن نضع بين يديه خلاصة مقتضبة لتاريخ تلمسان ، وذلك تسهيلاً لمتابعة الحديث عنها ووصف آثارها .

1- الفصل التاريخي الأول لهذه الرقعة كانت تقوم فيه مدينتان هما «أغادير» و«بوماريا» . وقد كانتا ، في أيام الرومان ، معسكرين ، لحق ثانيهما بالأول زمنياً ، لجنود الرومان والبيزنطين (وحتى الفندال بينهما) . ويبدو من الآثار القليلة التي لا تزال قائمة أن بوماريا كانت ذات حدائق غناء .

2- في بدء العصر الإسلامي ارتبط اسم تلمسان بأبي المهاجر ، أحد أصحاب النبي (ص) الذي يروى عنه أنه أول من نشر الإسلام في تلك البقعة النائية ، كما

ارتبط باسم عقبة بن نافع فاتح المغرب . وكانت المدينة منذ وصلوا المنطقة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وانتشروا في ربوعها) ، تعرّبت . وبذلك أصبح المؤرخون يتحدثون عن العرب ويعنون ، طبعاً ، زناته المتعربة والهلاليين العرب أصلاً .

تلمسان متعة للعين

تلمسان متعة للعين ، طبيعة وتخطيطاً وآثاراً . فقد حرص كل من كان له يد في البلد أو وجود فيها أن يبني بها ما يخلد ذكره وما يحبب إلى السكان أمره . ومع أن الكثير من الأبنية ، الدينية والمدنية ، قد عفى عليه الدهر ، فإن ما بقي كاف لأن يسر الناظر ويشغل الخاطر . وشغل الخاطر هذا يتلخص في أنك وأنت في تلمسان تشعر بنفحة أندلسية خاصة . لا أقول إن هذه النفحة الأندلسية لا تجدها في مكان آخر في المغرب العربي ، فهي موجودة في تطوان وطنجة وتونس ودرنة وغيرها . لكن النفحة التلمسانية أقوى وأعمق ، وذلك لكثرة ما بني فيها من المساجد والمدارس ، وكل من هذه تقريباً زُخْرِفَ أندلسياً وإن كان التخطيط يختلف عن ذلك .

فالمرابطون بنوا الجامع الكبير في تاغرارات (تلمسانهم) الذي يشبه ، في بنائه وزخرفته ، إلى حد كبير ، مسجد قرطبة . ومن أجمل زخارفه الداخلية قبة المحراب فيه المعروفة باسم «القبة المعرقة» . وقد عمل يَغْمُراسن ، مؤسس الدولة الزيانية ، على بناء منارتين (صومعتين) واحدة لكل من جامعي أغادير وتاغرارات . وجامع أغادير إدريسي الأصل وكانت صومعته ترتفع نحو أربعين متراً . فيما كانت منارة جامع تاغرارات (صومعة) تبلغ نحو أربعة وثلاثين من الأمتار . وقد كانتا (ولا تزالان قائمتين) مربعتي الواجهات . والفن فيهما ينعم بالانسجام والتناسق . والبرج المربع هذا تحيط جدران فيه بالسطح الذي يقف عليه المؤذن ، وهذه الجدران تعلوها شرفات مسننة الحواشي ، وقد أقيم في وسط ذلك السطح برج مربع كانت تعلوه قبة صغيرة . وكانت جدران المنارتين مزينتين مطلية بالجص ومزينة بقطع من الفسيفساء . لكن هذا جميعه مفقود .

ولم يطل يَغْمُراسن الإقامة في المدينة المرابطية وأبنيتها ، بل إنه أنشأ «المشور» الذي أصبح المقر الرسمي للزيانيين ، بقلعته وقصره وجامعه ودور الحاشية والمخازن الرسمية ، وقد كان للزيانيين ، على غرار ما نعرفه عن كثيرين من حكام المغرب العربي ، تقليد الاحتفال بالمولد النبوي الكريم . وقد كانت القاعة الكبرى في القصر المكان الذي يحتفل فيه بذلك ، فيتصدر الأمير الحفل ، يحيط به رجال الدولة .

وكانت الثياب الأنيقة والأنماط الحريرية المعلقة على الجدران والطنافس الجميلة تلمع تحت شعاع الثريا الضخمة المعلقة في القاعة (هذه موجودة في متحف تلمسان) . وفي هذه المناسبات كانت تلقى القصائد والمدائح النبوية وتنصب السماطات . ثم ينتقل القوم إلى الجامع لأداء الصلاة .

جامع سيدي بلحسن

ومما خلفه بنو عبد الواد (الزيانيون) . ولا يزال قائماً ، هو جامع سيدي بلحسن (أبي الحسن) . ومئذنته أيضاً مربعة الشكل . أما سقف المسجد فمصنوع من خشب الأرز على شكل بديع . وأعمدة الجامع وتيجانها من الرخام المجزع ومحرابه رائع الزخرفة .

وعلى مقربة من تلمسان ، إلى الجنوب الشرقي منها ، تقع قرية «العباد» . وهي تقوم على منحدر هضبة عالية . وقرية العباد تحوي قبور عدد كبير من الأولياء والصالحين ، من الزهاد والمتصوفة وغيرهم . وللعظماء منهم مساجد ومدارس بنيت لتخليد ذكرهم . وأما مجموعة الآثار التاريخية المشيدة بقرية العباد فهي «جامع أبي مدين» وفيه قبته والمسجد وبقايا قصر ومدرسة . وهناك جامع سيدي الحلوي ؛ ونكتفي بذلك على سبيل المثال .

وقد بنيت مجموعة أبي مدين أيام الحكم المريني لتلمسان (738 – 759هـ / 1337 – 1359م) . ويعد مدخل المسجد من أجمل المداخل في الفن المعماري الإسلامي ، ببابه البرونزي المتوج بإفريز كُسيَ بالقرميد الأخضر ؛ والمدرسة التي قضى عليها التنظيم الجديد لتلمسان (في العهد الفرنسي) بعد أن أضر بها إهمال الأتراك .

ومسجد سيدي الحلوي هو أيضاً بناء مريني من الفترة نفسها . وهو ، مثل جامع أبي مدين مزخرف من الداخل ومن الخارج مدخلاً ومئذنة ، ولو أنه أصغر من جامع أبي مدين .

هذا الذي أشرنا إليه من أبنية وما اقتضبناه من وصفها ، لا يشفي الغليل . ولو أن المجال اتسع لنا وفصلنا الأمور لما روينا عطش القارئ . ذلك بأن الأمر بالنسبة إلى تلمسان ، على ما هو الأمر في بعض المدن ، أنها لا توصف بالقلم : وقد توصف بالصورة واللوحة ، إذ إن المهم في هذه المدينة أنها توحي! فأنت إذ تتنقل بين آثارها وخرائبها ، تسمع وترى وتحس وتمس تاريخ قرون ثمانية كانت فيها المدينة تنبض بالحياة تجارة وبناء وعلماً وشعراً وتصوفاً . ليست تلمسان وحيدة بين المدن العربية الإسلامية في احتوائها هذا التاريخ ، بل ثمة من المدن ما هو أغنى منها عطاء . لكن تلمسان تأسر اللب . وعندما يُؤْسَر اللب ، يصعب التعبير عن ذلك ، ومن هنا فأنا أدعوكم إلى زيارة تلمسان .

يزدهر العلم بفروعه والأدب بأنواعه إذا كانت الدولة تحتضنه ، وإذا كانت ثمة مؤسسات تترعرع بين جدرانه . وقد قيض لتلمسان ، على نحو ما قيض لعدد كبير من المدن العربية الإسلامية ، حكام يرعون العلماء والأدباء ، ويبنون المؤسسات -المساجد والمدارس- حيث يتصل أهل المعرفة بالناس يعلمونهم ويثقفونهم . وإذا عرفنا أن مجتمع تلمسان كان ، عبر الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، مجتمعاً يتصف بالإيمان وتعنيه الثقافة ، أدركنا مدى ما يمكن أن يتاح لأهل العلم من طلاب وأتباع .

فالأدارسة والمرابطون والموحدون كانوا حريصين على أن تكون تلمسان مركزاً لنشر آرائهم ووجهات نظرهم في المغرب الأوسط . وفي الجوامع التي بنوها والمؤسسات التي أنشأوها كان العلماء يوضحون الإسلام للناس . وبنو مرين ، محاصرين ومحتلين ، كانوا يشجعون العلماء والشعراء ويبنون المساجد والمدارس للتعليم والوعظ والإرشاد . وفي هذه جميعها كانت علوم التفسير والحديث والقراءات والفقه والتوحيد تدرس بعناية واهتمام .

إلا أن تلمسان ، بالنسبة إلى هذه الدول جميعها ، كانت «إحدى مدن الدولة» . فلما قامت الدولة الزيانية ، دولة بني عبد الواد ، أصبحت تلمسان العاصمة . والعاصمة تنال دوماً حصة أكبر . وكان يَغْمُراسن ، مؤسس الدولة الزيانية ، حريصاً على اجتذاب العلماء إلى تلمسان عاصمة ملكه . وعلى سبيل المثال فإنه اجتذب أبا إسحق إبراهيم التِّنِسي ، الذي كان الناس يتزاحمون لحضور الدروس التي كان يلقيها في الجامع الأكبر ، وفي مقدمتهم السلطان يَغْمُراسن نفسه . وبعد الحصار المريني الطويل استقبل أبو حمو عالمين جليلين (هما ابنا الإمام الرجال) فمارسا التعليم في مدرسة بناها السلطان من أجلهما .

وقد جاء وقت على تلمسان كانت فيها خمس مدارس تلقى فيها الدروس ويقيم فيها الطلاب . وتسهل لهم سبل المعيشة . هذا إلى الجوامع والمساجد . وكانت المواضيع التي تدرس ، إضافة إلى ما ذكرنا من العلوم الإسلامية ، المنطق اليوناني والطب والفلك والحساب والهندسة والموسيقى والزراعة . على أننا يجب أن نذكر أن تلمسان لم تعرف مؤسسة خاصة بالطب أو الهندسة أو مرصداً لمراقبة الأفلاك . لذلك ، فإن الذي عرف في هذه النواحي لم يكن فيه اكتشاف جديد ، ولكن الموضوعات كان يتناولها من يعرف عنها شيئاً ، على نحو ما نعرفه عن إبراهيم بن أحمد التغري ومحمد بن يوسف السنوسي . فالأول ، الذي كان عالماً وشاعراً ، وضع معجماً طبياً صغيراً تناول فيه الأدوية ومنافعها والمواد التي تصنع منها . ومحمد بن يوسف السنوسي ، المتخصص بالقصائد ، أسهم في الطب أيضاً . والمشدالي ، الأزهري الدراسة ، فعل مثل ذلك .

في أواخر عهد الدولة الزيانية ، لما اشتد الضغط الإسباني على تلمسان ، أخذت بعض العائلات العلمية والغنية تهاجر من تلمسان . وقد ازداد ذلك بعد الاحتلال التركي للبلاد ، إذ إن الدولة الجديدة لم تكن تعنى بالعلم والتعليم وما إلى ذلك . إلا أن ذلك لا يعني أن المعرفة عفيت آثارها في تلمسان . فعندنا على الأقل أسرتان نعرف عنهما أنهما حافظتا على العناية بالعلم وهما أسرة المقري وقدورة . فسعيد

قدورة وسعيد المقري كانا من أهل العلم والقضاء والفتيا (وقد أصبح منصب المفتي بعد الفتح العثماني مهماً في الجزائر) ، وظل هذان ، ومن كان في اتجاههما ، يقومان بالتدريس والقضاء والوعظ وما إلى ذلك .

صاحب نفح الطيب

يضاف إلى هذا أن أسرة المقري أنتجت أحد كبار مؤرخي العصر العثماني المبكر وهو أحمد المقري صاحب «نفح الطيب» و «أزهار الرياض» وغيرهما . وكان أحمد المقري ممن انتقل من تلمسان إلى فاس متعلماً ومعلماً ، ثم رحل إلى المشرق وأقام في مصر وحج وزار القدس ودمشق ، ولقي حفاوة كبيرة . وكتابه نفح الطيب وضعه في القاهرة تلبية لطلب الشاميين منه أن يدلهم على تاريخ الأندلس . وتُوفي في القاهرة سنة 1041هـ/ 1621م .

ومن أبرز الأمور التي ظلت تلمسان تعنى بها هي التصوف والموسيقى والشعر (الفصيح على التصنع فيه ، والعامي على ما فيه من حيوية) . ونحن نجد أن التصوف انتشر في غرب القطر الجزائري بشكل واسع ، وكان للشاذلية والقادرية ، وما تفرع عنهما أو انضم إليهما ، المكان الأول . والقادرية كانت تنال تأييد العثمانيين لأنها هي التي كانت تؤيد الدولة الجديدة .

هذه تلمسان ، مدينة التجارة والفن والعلم والتصوف التي ازدهرت ، وبشكل عام صعوداً ، من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، فكونت لها شخصية تميزها عن كثير من المدن العربية الإسلامية . فهي على تجاور السكان فيها من عرب وبربر (وترك فيما بعد) فقد انتهى الأمر إلى نوع من التمازج . أما ما كان يقوم من القتال داخلياً فكان كثيراً ما يؤتى بالعناصر اللازمة لذلك من الخارج . وهي على غلبة التصوف على مظهرها الخارجي وعلى قلبها ، فإنها لم تهمل العلم والأدب بالأنواع المختلفة .

وظلت تلمسان مدينة مكشوفة للزائر والرائي ، فقد كانت دوماً أوسع من مدى أسوارها .

العبدري يصف تونس

هبطت تونس (الحاضرة) من الطائرة مرات ، وجئتها من البر مرات ، وفي كل مرة كنت أشعر بارتياح عندما أدخلها . فهي مدينة واسعة الضواحي والأرباض ، مفتوحة للرائي والزائر . وإن كانت المدينة (وهي القسم القديم منها) صغيرة المساحة ضيقة الشوارع ، فإنها تشرح الصدر وتثير في النفس الإعجاب .

وما قاله عنها العبدري (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) الرحالة المغربي ينطبق عليها اليوم : «ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق ، ومحط الرحال من الغرب والشرق . وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك . فإن شئت أصحرت في موكب وإن شئت أبحرت في مركب» (واليوم نضيف الطائرة على ذلك كله) .

والجزء الأقدم ، وهو المعروف هناك باسم المدينة ، يمكن اجتيازه من الشرق (باب البحر) إلى الغرب (باب المنارة) في نصف ساعة ، ويحتاج المرء للانتقال من شماله (باب سويقة) إلى جنوبه (باب الجزيرة) إلى ساعة واحدة ، هذا على أن يسير الواحد منا الهوينا . على أنني لا أعرف في دنيا العرب ، باستثناء مدينة القدس ، مدينة تضم في مثل هذه الرقعة الصغيرة من تاريخ العرب والإسلام عمارة وحضارة وثقافة وصناعة ما تضمه تونس . إن التاريخ العربي الإسلامي يتمثل فيها بشكل عمودي من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى القرن الماضي . فجوامعها ومساجدها ومدارسها وقبابها ودورها وسُبُلها وحوانيتها تضع أمام ناظريك صورة واضحة المعالم بيّنة الخطوط للمنتاج الحضاري العربي الإسلامي .

نهج جامع الزيتونة

ولندخل المدينة من باب البحر ، الواقع في شرق المدينة (وحري بالذكر أن أسوار تونس القديمة قد هدمت بعد الاستقلال ، ولم يبقَ قائماً منها سوى الأبواب . وقد كان من حسن حظي أن رأيت هذه الأسوار قائمة في زيارتي الأوليين لها) . وباب

البحر هذا يعود في أصله إلى أيام دولة الأغالبة ، في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي . وقد أُدْخلت عليه تحسينات كثيرة وإصلاحات متعددة جعلته على شكله الجميل الحالي . ونجوز بعد الباب ساحة صغيرة ثم ندخل نَهْج (شارع) جامع الزيتونة . وبهذه المناسبة فشوارع «المدينة» جمعاء ضيقة ، ولا تدخل فيها السيارات (إلا في الجزء الغربي الأعلى منها) . وهذا الشارع يكتظ بالحوانيت التي تعرض فيها منتوجات الصناعة اليدوية التونسية ، من صياغة الحلي الفضية ، وفخار نابل وزرابي صفاقس . وهذا الشارع ، مثل غيره في داخل المدينة ، ينتهي إلى جامع الزيتونة وحول الجامع تقوم سوق العطارين (شمال الجامع) وسوق الكتبية أو الوراقين وسوق الشاشية (الطربوش) وسوق الأقمشة وسوق الشماعين وسوق الصاغة (وكانت سوق الرقيق تقوم في مكان قريب من جامع الزيتونة في الزمن الخالي) . وبعض هذه الأسواق تعود إلى أيام الحفصيين .

ويكون دخولنا إلى جامع الزيتونة من الباب الشرقي ، متسلقين بذلك بضع درجات ، فإذا اجتزنا الباب والرواق الذي يليه اتجهنا نحو الصحن .

وقفنا في الصحن مواجهين بيت الصلاة أو المسجد الذي يقع جداره القبلي في اتجاه جنوبي شرقي . ويتكوّن هذا القسم من خمسة عشر رواقاً يفصل بينها أربعة عشر عقداً . وطول بيت الصلاة أربعة وخمسون متراً وعرضه ستة وعشرون متراً . والعقود فيه متعامدة على جدار القبلة ، إلا أنها لا تتصل به ، إذ تظل فسحة عرضها أربعة أمتار قائمة بينها وبين الجدار .

وإذا توسطت الصحن وكان موقفك مقابلاً للمحراب وللرواق الأوسط في بيت الصلاة لاحظت أشياء ثلاثة : أولها أن هذا الرواق بالذات أعلى وأوسع من الأروقة الأخرى ، الواقعة عن يمينه وشماله . وثانيها أن المحراب تقوم قبله قبة لطيفة . وثالثها أن قبة أخرى تكون مقابلة لك وهي قبة البهو .

والعقود القائمة في المسجد ترتكز على أعمدة هي في غالبيتها أعمدة من الرخام الأبيض . أما صفا الأعمدة القائمان في الرواق الأوسط فهما من الرخام الأحمر . وثمة مجموعتان من الأعمدة ترتكز على إحداهما القبة القائمة أمام المحراب ، وترتكز العقود الأمامية من الرواق الأوسط على الأخرى . هذه الأعمدة رخامية ، لكنها

مختلفة الألوان . والناظر إلى الأعمدة عامة يسحره زخرفها الأنيق . فتيجانها من الأكانتوس اللطيف ، وزخرفة الجبس فيها خالية من التعقيد الزخرفي ، وقد قام المرحوم أحمد فكري بدراسة هذه الأعمدة وزخارفها فقال عنها : «لقد أتيحت لي أخيراً فرصة دراسة تيجان السواري [الأعمدة] عن كثب ، فتبينت سرعة تطورها ، إذ إن جميع السواري التي توجد في مسجد الزيتونة إسلامية نحتاً وشكلاً ، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه . جميع هذه التيجان تعبر عن زهرة الأكانتوس . ولكن النحات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث تقف عن النقط الأساسية من جسد التاج في وسطه وأطرافه . ومع هذا فقد تنوعت أشكال هذه الزهرة الواحدة ، فتارة يكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين ، وعلى الرغم من تقارب أشكال الورقات واقتصارها على ثلاثة ، فإن التنوع ظاهر في امتدادها أو التفافها ، وفي انتعاشها وشموخها . هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ، ونما في الزيتونة ، تطور تطوراً شمل بلاد المغرب والأندلس» .

والقبتان فيهما من الزخرف الكثير . والمحراب قوسه مثل حذاء الفرس الدائري ، وهو شكل جميع الأقواس في جامع الزيتونة . والزخرف الجبسي ظاهر في القبتين ، كما إن الكتابة الكوفية واضحة كل الوضوح . والمنبر خشبي يحتفظ به في غرفة خاصة ، وينقل على عجلات للاستعمال . والمنبر أغلبي الصنع كما يتضح من النظر إلى نقش أخشابه بدقة .

وللجامع ثلاثة عشر باباً : اثنان منها في الجدار القبلي ، فالواقع منهما إلى يمين المحراب يقود إلى غرفة المنبر ، والآخر هو باب الخطيب . وبقية الأبواب موزعة الجدران كما يلي : ثلاثة في الغرب وثلاثة في الشمال وخمسة في الشرق (أحدها مسدود) . وهذه الأبواب تؤدي إلى الأسواق المختلفة المحيطة بالجامع .

ولنعد إلى الصحن . وهناك نجد أن في كل من الجهات الشمالية والشرقية والغربية رواقاً واحداً فقط . وهي زيادات متأخرة .

وفي الزاوية الجنوبية الغربية من الجامع ترتفع مئذنته (صومعته) المربعة الجميلة ، وحري بالذكر أن هذه المئذنة لم تضف إلا في سنة 1312هـ / 1894م على طراز مئذنة جامع القصبة . ولنتذكر أن الجوامع الأولى التي بنيت في المغرب كانت دون مآذن

-باستثناء جامع القيروان- وذلك اتباعاً للسنة النبوية ، إذ إن مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة لم يكن له مئذنة .

جامع الزيتونة بصحنه ومصلاه وأروقته وعقوده وأقواسه ومحرابه ومنبره وقبتيه وأبوابه وأعمدته يمثل عمل ستة قرون على الأقل . فقد بناه ، أول ما بناه ، حسان بن النعمان إثر توليه تونس سنة 80هـ / 699م . وكان البناء بسيطاً القصد منه أن تيسر للناس إقامة الصلاة فيه . ولكن عبد الله بن الحجاب ، القائد الأموي ، أعاد بناءه سنة 116هـ / 734م . ولما جاء الأغالبة إلى الحكم في ولاية إفريقيا (تونس) وانصرفوا إلى البناء والعمران والفن ، كان للزيتونة من جهدهم نصيب . وقد بُدِئ بهذا البناء زمن أحمد وتم العمل في عهد أخيه زيادة الله ، وكان ذلك سنة 250هـ/ 864م ، والخليفة العباسي المستعين . والنقش الكوفي يشير إلى ذلك وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ومرضاته على يد نصير مولاه سنة خمسين ومئتين - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله- صنعه فتح البنا» .

وكان أن عُمِّر الجامع وزخرف على يد أبي زكريا الواثق الحفصي ، وقد انتهى العمل في شعبان 676 /كانون الثاني / يناير 1278 .

ولعل من أفضل ما في جامع الزيتونة ، بالنسبة إلى الباحثين في تاريخه ، هو كثرة النقوش على الحجارة التي تشير إلى بناء أو تجديد أو توسيع أو زخرفة . فهناك خمسة عشر نقشاً ، منها هذا الذي نقلناه عن بناء المئذنة .

وثمة أمر آخر حري بالتذكر وهو أن جامع الزيتونة ، يعاصر جامع القيروان في العصور الأولى خطوة خطوة وخصوصاً في العصر الأغلبي . إلا أن جامع القيروان أوسع .

وقد بني جامع الزيتونة أصلاً بيت صلاة وصحناً دون أروقة جانبية (أو مُجنبات كما تسمى في تونس) . والواقع هو أن الجوامع الثلاثة الكبيرة الأولى في المغرب الإسلامي بنيت على هذا النحو ، وظلت على هذا في أول أمرها : جامع قرطبة (170هـ/786م) والقيروان (221هـ/836م) والزيتونة (250هـ/864م)

والمدينة (التونسية) غنية بالآثار الإسلامية . وسنكتفي هنا بالإشارة إلى الأهم منها . وفي مقدمة هذه الآثار جامع القصبة . والقصبة هي القلعة الرئيسية ودار الحكم ومقام الأمير . وجامعها كان موضع عناية الذين أسسوا القصبة والذين استقروا فيها على توالي السنين . والقصبة التونسية حفصية المنشأ (وفكرة القصبة كجزء مستقل عن المدينة بأسواره مع أنه يدور حوله سور المدينة الأصلي فكرة جاءت تونس من المغرب الأقصى) . وقد كان في موضع جامع القصبة جامع بناه الموحدون لما حكموا إفريقيا (أو المغرب الأدنى) ، وهو الذي عرف بجامع الموحدين ومن بناء عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة الموحدية (حكم 524-558هـ/ 1130-1163م) . وبهذه المناسبة ، فإن اتخاذ تونس حاضرة للقطر يعود إلى أيام الموحدين ، وإلى عبد المؤمن بالذات . إلا أن عمل أبي زكريا (الأمير) الحفصي يمكن اعتباره بناء جديداً للجامع ، مع ما تبقى من القصبة . وقد تمّ ذلك سنة 633هـ/ 1236م . والأعمدة التي استعملت في بنائه حملت إليه من أبنية قديمة .

وهندسة المئذنة في جامع القصبة هي موحدية في أسلوبها ، فالحفصيون هم ورثة الموحدين في تونس . وهي أولى المآذن ذات الأسلوب الموحدي في تونس ، وقد اتبعت طريقتها في بناء المآذن فيما بعد . (ومن هنا يتضح لنا الشبه بين المئذنة الموحدية - الحفصية في جامع القصبة ومئذنة جامع الكتبية في مراكش) .

وفي داخل المدينة مسجد جميل هو جامع يوسف داي (مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) ومئذنته المزركشة زليجاً (قيشانياً) وجبساً غاية في الأناقة ، وجامع حمودة باشا المرادي (المعاصر لجامع يوسف داي) ، ويكمن جمال هذا الجامع ، بشكل خاص ، بالمحراب والزخرف القائم فوقه والأعمدة المحيطة بالمحراب . وفي القصبة أيضاً دار الباي (بناها المراديون في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) وهي أندلسية التخطيط . وقد حلت هذه محل دار الإمارة الحفصية القديمة . (ودار الباي هي اليوم قصر الحكومة) .

دخلنا من باب البحر ، المواجه لبحيرة تونس المتّصلة بالبحر المتوسط ، وخرجنا من

باب المنارة . والأسواق التي زرناها ، والجوامع التي أدهشنا بناؤها وزخرفتها ، يجب أن يضاف إليها ، المدارس التي بناها الحفصيون . والمدرسة في تونس مؤسسة حفصية : فهي من حيث إنها مكان للدرس ومأوى للطلاب تدر عليها أوقاف كثيرة وللدولة عليها إشراف يقوى ويضعف مع رغبة الحاكم . من حيث هذا كله تشبه إلى حدٍّ كبير المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك الوزير السلجوقي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في بغداد ونيسابور وغيرهما ، والتي انتقلت غرباً ، عن طريق بلاد الشام ومصر ، حتى وصلت تونس وبعدها غرباً أيضاً . وفي داخل المدينة أنشأ الحفصيون مدارس خمساً هي : الشماعين (قرب جامع الزيتونة) والعنقية والمنتصرية وسيدي محرز وابن تفراجين . وهذه المدارس يمكن التعرف على ما تبقى منها ، باستثناء مدرسة الشماعين القائمة حتى الآن .

مدينة حسان بن النعمان

هذه هي المدينة (القديمة) ، بناها حسان بن النعمان بسيطة ودفع بها عبد الله بن الحجاب قليلاً ، وعني بها الأغالبة عناية كبيرة ، وشغل بها الصنهاجيون فانتعشت انتعاشاً كبيراً ، اقتصادياً وعمرانياً ، واتخذها الموحدون عاصمة للقطر وسار على ذلك الحفصيون . وفي أيام الحفصيين (625-982هـ/ 1228-1574م) أصبحت تونس لأول مرة في تاريخها العربي الإسلامي عاصمة دولة وحاضرة ملك . ومن ثم فقد كانت العناية بها أكبر ، والاهتمام بها أشد .

ومن الواضح أن المدينة ضاقت بسكانها الذين ازداد عددهم وتنوعت أعمالهم واتسعت تجارتهم ، بحراً وبراً ، لذلك خرجوا من النواة الأولى إلى الضواحي الحفصية ، وأهمها ضاحية باب سويقة وضاحية باب الجزيرة ، في الشمال والجنوب على التوالي .

ولعله من المناسب أن نلقي هنا بعض الضوء على الدولة الحفصية لأنها هي التي تم في أيامها لتونس تطور سياسي واقتصادي وعلمي على درجة كبيرة من الأهمية .

كان أول حفصي تولى شؤون تونس والياً للموحدين . إلا أن هذا الوالي (أبو زكريا)

لم يلبث أن خلع طاعة الموحدين ولقب بالإمارة ودعا لنفسه على المنابر . وفي أيامه (625-647هـ/ 1228- 1249م) عقدت الإمارة الحفصية معاهدات تجارية مع كل من البندقية وبيزا وجنوا ، كما تمت في أيامه مراسلات دبلوماسية مع فردرك الثاني ملك صقلية ومع ملك أراغون . وفي أيام خليفته أبي عبد الله (647-675هـ/1249-1277م) كانت بينه وبين النروج وكانم وبورنو ، في أواسط الصحراء الإفريقية ، سفارات . وقد أعلن أبو عبد الله نفسه خليفة وتسمى بأمير المؤمنين (650هـ/ 1253م) ، وتلقب بالمنتصر . وبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد (656هـ/ 1258م) اعترف به شريف مكة خليفة ووريثاً للعباسيين (656هـ/ 1260م) (وذلك قبل إقامة المماليك الخلافة العباسية في القاهرة بسنة واحدة) . ومع أن الملك لويس التاسع الفرنسي قاد حملة ضد تونس (668هـ/ 1270م) وهدد المدينة ، فإن الحملة باءت بالفشل ، إذ إن لويس تُوفي وهو على الحصار . وبذلك عادت العلاقات التجارية ، في عهد خليفة لويس ، مع أراغون وبيزا والبندقية وجنوا .

مرَّ على الحفصيين بعد وفاة المنتصر (675هـ/ 1277م) فترة امتدت قرناً وبعض القرن كانت شؤونها فيها مضطربة ، ولو أنها عرفت نوعاً من الوحدة والهدوء في أيام أبي بكر المتوكل (718- 747هـ/ 1318- 1346م) . إلا أن الدولة الحفصية لم تعد لها قوتها وتنظيمها ثانية إلا في أيام ثلاثة من كبار حكامها وهم : أبو العباس المستنصر وأبو فارس المتوكل وأبو عمر عثمان (الذين حكموا من 772 إلى 893هـ/ 1370 إلى 1488م) . وقد كان للدولة ، وفي أيام الأخيرين بشكل خاص ، دور كبير في شؤون المغرب العربي .

إلا أن السنوات الأخيرة ، التي امتدت من 893 إلى 982هـ/ 1488- 1574م ، كانت سنوات اضطراب داخلي وخارجي . وقد تعاقب على تونس حكام استنجدوا بالخارج ودفعوا ثمن ذلك من البلاد . وأخيراً سقطت الدولة الحفصية نهائياً على أيدي الأتراك (982هـ / 1574م) الذين ضموا القطر إلى دولتهم الواسعة .

تونس ملتقى الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب ، وميناء ترابط بها السفن لتحمل إليها ما معها وتنقل منها ما عندها وما تحمله القوافل من الجنوب مما وراء الصحراء . ومما هو جدير بالذكر أن ظهور الأتراك في حوض المتوسط الشرقي ،

وخصوصاً بعد استيلائهم على القسطنطينية (1453) ، دفع بالمدن التجارية الإيطالية وغيرها إلى تركيز اهتمامهم التجاري في شمال إفريقيا . وكان لتونس حظ من ذلك كبير ، وقد تم عقد معاهدات تجارية بين الحفصيين وبين تلك المدن كما رأينا .

وفي عهد الحفصيين ضاقت المدينة بالسكان فخرجوا إلى الضاحيتين (باب الجزيرة وباب سويقة) حيث قامت أسواق جديدة . وكان ثمة ضاحية إلى الشرق ، بين «المدينة» ، والبحيرة ، أي خارج باب البحر . هذه الضاحية كان فيها مركزان مهمان : دار الصناعة أي مرسى الأسطول الحفصي ، و«الفنادق» التي كانت مخصصة للتجار الأوروبيين .

كانت تونس ، في العهد الحفصي عموماً ، تصدر الحبوب (عندما يجود الموسم) والتمر وزيت الزيتون والشمع والسمك المملح والقماش والمرجان وبعض الأسلحة ، وأهم من ذلك كله الصوف والجلود . كما أنها كانت نقطة يجتمع فيها الرقيق الإفريقي لإرساله إلى المشرق وإلى تركيا . أما ما كانت تستورده فيشمل الحبوب (إذا ساء الموسم واحتاجت ذلك) والخمور وطيور الصيد والأواني الزجاجية والأثاث والمعادن والأسلحة والتوابل والعطور والنباتات الطبية والقنب والكتان والحرير والقطن والأقمشة المتعددة الأنواع والمصنوعات المعدنية والمجوهرات . وقد كانت تونس تسك الدينار الذهبي والدرهم الفضي ، وكان نقدها أكثر رواجاً من النقود الأوروبية .

تجارة المرور

والمهم هو أن تونس ، كمركز تجاري ، كانت نقطة من نقاط تجارة المرور (الترانزيت) المهمة . ففي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، كانت تجارة الصحراء بين المغرب الأقصى والسودان الغربي قد ضعف أمرها بعض الشيء بسبب وصول الأوروبيين إلى الموانئ الأطلسية هناك وتحويلهم التجارة إلى موانئهم . أما تونس (ومعها طرابلس) فقد كانت تجارتها مع كانم وبورنو (حول بحيرة تشاد) وقد ظلت الطرق سائرة حتى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . ومن كانم وبورنو كان يحمل إلى تونس (وطرابلس) من المناطق الإفريقية الجنوبية الرقيق والعاج

والذهب والصمغ . وهذه المتاجر كانت مصدر أرباح للذين ينقلونها إلى الموانئ الشمالية والذين يعملون على حملها إلى الأسواق الأخرى .

كانت تونس تتاجر بحراً وبراً مع المشرق ، وكان التجار الأوروبيون كثيرين في الميناء - ومنهم الجنويون والبيزيون والبنادقة والأراغونيون والفلورنسيون . وقد كان لمؤسستي اشيولي وبيروزي (من فلورنسا) وكالات ثابتة . وقد كان لإدخال فكرة الضمان البحري ولتنظيم المعاملات التجارية أثر في توسيع نطاق العمال التجارية . وكان لكل مدينة (أمة) فندق خاص بها تخزن فيه بضائعها وتلجأ إليه عند الحاجة . وكان لكل أمة (مدينة أو دولة) قنصل تعتمده الدولة الحفصية للاهتمام بمصالح جماعته . والمعاهدات كانت تشمل مثل هذه الشؤون .

إلا أن الأمر اختلف بعد أن قام القرصان ، على جانبي المتوسط ، الشمالي والجنوبي ، فاختلت التجارة . وقد أصاب تونس ، في أواخر القرن التاسع وفي القرن العاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ضرٌّ كبير بسبب ذلك .

لئن كان جامع الزيتونة يضم بين جدرانه تاريخ ستّة قرون من فن المعمار والزخرف ، فإن هذا الصرح يمثل تاريخاً أطول من ذلك بكثير للحياة العلمية في تونس . فقد أخرج حسن حسني عبد الوهاب أن تداول التعليم بالزيتونة يرجع على أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وإن أول من سمع منه هناك هو زيد بن بشر الأزدي . على أننا لا نستطيع أن نتصور تونس وجامع الزيتونة فيها دون قراء ومحدثين وعلماء حتى قبل ذلك . صحيح أن القيروان نالها من شرف خدمة العلم الشيء الكثير في القرون الإسلامية الأربعة الأولى ، لكن لا بد أنه كان في الزيتونة من يُقرئ الناس ويفسّر لهم ويحدثهم ويروي لهم الأدب والتاريخ ويشرح لهم شؤون اللغة وأساليب البلاغة .

بيت الحكمة

ويجب أن نذكر أن الأغالبة أنشأوا معهداً للترجمة سموه بيت الحكمة على نحو ما كان للعباسيين في بغداد . ولعل معنى هذا أن الجوامع ، في أيامهم ، كانت تقتصر

على العلوم الدينية ، بينما كان الطب والفلك والحكمة والجغرافيا والرياضيات مما يعنى بها بيت الحكمة وما إليه . إلا أن الأمر اختلف مع مرور الزمن ، وخصوصاً في عهد الحفصيين ، أي بدءاً من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي . ففي هذا الوقت رحل عدد كبير من أهل العلم في الأندلس إلى تونس ، واستقر التعليم العالي في الزيتونة . ولعل أهم من ذلك كله هو أن مواد التعليم ضمت إلى بعضها البعض ، وأصبح جامع الزيتونة مقرّها ومستقرّها ، فكان يدرس فيه الدين والآداب والطب والحساب . وقد نقل المؤرخون أن أبا العباس أحمد بن شعيب الفاسي الجزنائي الذي بعد أن قرأ على كثيرين من شيوخ فاس ، انتقل إلى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن أحمد راس . وجدير بالذكر أن أبا زكريا يحيى ، أول الحفصيين ، ابتنى جامع القصبة في تونس (630هـ/ 1233م) وشاد غيره من المساجد والمدارس . وأنشأ في قصره بالقصبة داراً للكتب جمع فيها ستّة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات (وقد تلاشت هذه في أواخر عهد الدولة الحفصية) .

وإذا كانت مكتبة القصر مقصورة على فئة معينة من القرّاء والدارسين ، فإن العصر الحفصي شهد تقدماً في التعليم . فقد انتشر التعليم بواسطة الكتاتيب والزوايا ، وتطور جامع الزيتونة بحيث أصبح أكبر مؤسسة تعليمية إسلامية عرفها المغرب الأدنى والأوسط ، وأنبتت علماء أفذاذاً . وأسس الحفصيون ، نساء ورجالاً ، مدارس كثيرة ذكرنا أسماء بعضها من قبل ، وجلبوا لها الأساتذة من الأندلس والمهدية ، وأسكنوا بها الطلبة . وتقوّت مكتبة الزيتونة ، التي عرفت باسم المكتبة العبدلية ، ووضعت فيها الكتب النفيسة .

وإذا نحن أردنا التخصيص قلنا إن المذهب المالكي عادت إليه مكانته ، وخصوصاً على يد ابن عرفة (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) ، وارتقى الطب وحمل لواءه في ذلك الوقت خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الأندلسية ولم يكن من قبيل المصادفة أن قسطنطين الإفريقي نقل كتباً طبية حصل عليها من تونس (وصقلية) من العربية إلى اللاتينية (القرن الحادي عشر الميلادي) .

وكان للتصوف في تونس الحفصية مجال واسع . وقد تأثر المتصوفة هناك بتعاليم الشاذلية وعائشة المنوبية (لا لا المنوبية) وأبي مدين . وكان ابن عروس (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) من كبار المتصوفة التونسيين . ومن هنا نجد زوايا متعددة في تونس تعود إلى تلك الفترة ، لعل أهمها زاوية سيدي قاسم الجليزي .

وها نحن نسمح لأنفسنا بأن نتحدث عن التعليم في تونس في القرن الأول من الحكم التركي ، المعروف بزمن الولاة العثمانيين والمراديين ، باعتباره استمراراً لما كان من قبل . ثمة ثلاثة أمور مهمة أثرت في تطور الحياة العلمية في تونس ، وكان لجامع الزيتونة نصيب مهم فيها . وأول هذه الأمور هو ازدياد الهجرة الأندلسية إلى تونس ، فقد قدر عدد الذين هبطوا البلاد يومها بنحو ستين ألفاً . والثاني هو رحلة عدد كبير من الطلاب التونسيين إلى المشرق ؛ والأمر الثالث هو ازدياد النتاج الفقهي والعناية بالطب والميقات . وهما الموضوعان الوحيدان اللذان ظلا موضع عناية ، أما الفلسفة (الحكمة) والعلوم العقلية الأخرى فقد افتقدت أو كادت .

ولنشر ، أخيراً إلى نوع التأليف الذي عرفه العصر الحفصي في تونس . فنحن إذا استثنينا ابن خلدون ، باعتباره نوعاً من أهل الفكر لا يجود الزمن بمثله كل يوم ، وجدنا أن الأعمال التي تمت هي من النوع الموسوعي مثل لسان العرب لابن منظور ، وسرور النفس للتيفاستي وهو موسوعة كاملة في ممالك الطبيعة الثلاث (الجماد والنبات والحيوان) . وقد ألف حازم القرطاجني كتاب المناهج الأدبية . وكانت ثمة مؤلفات في التاريخ والتراجم مثل رحلة التيجاني (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) وفارسية ابن قنفذ وأدلة الهنتاتي وتاريخ الدولتين المنسوب للزركشي .

رباطا المنستير وسوسة

كانت الفتوح العربية من عمل الجيوش العربية الإسلامية ، وكان الدفاع عن الحدود البرية المترامية عبر العصور من عمل الجيوش الإسلامية الضخمة الأعداد ،

كما أن هذه الجيوش كانت تقوم بحفظ الأمن في البلاد . ولما اتسعت الفتوح العربية غرباً في البحر المتوسط ، أصبح من الضروري أن يكون للدولة العربية الإسلامية أسطول يوسع رقعة الفتح ويرد الهجوم عند الحاجة . وكان من الضروري أن تقام للجيوش مراكز كثيرة فمصرت الأمصار لتكون للجنود منتجعاً ومراحاً ولعتادهم مخزناً ولزادهم ومؤنهم سوقاً . كما أن الأسطول احتاج إلى دور الصناعة والموانئ والمراسي .

ولكن إلى هذه الجيوش الكثيرة بقواها النظامية وأحلافها ومرتزقتها ، وإلى هذه السفن التي كانت تمخر عباب اليمن كان ثمة نفر من المسلمين ، وهم فئة قليلة ، عمر الإيمان قلوبهم وتشبعت بالإسلام نفوسهم ، نذروا نفوسهم لله وتطوعوا في سبيل حماية الدين والوطن . هؤلاء لم يكونوا جزءاً من الجيش ولا فرقة من رجال البحر ، بل كانوا أفراداً يقيمون في حصن منيع في الأماكن التي يشتد فيها الخطر . فكانوا يقاتلون إذا دوهموا ، ويشعلون النيران في الأبراج لفتاً للنظر ، ويطلقون الحمام الزاجل إخباراً بقدوم عدو . فإذا ضويق أهل الجهة الواقع حصنهم فيها بسبب الهجوم المفاجئ ، لجأوا إلى سكان الحصن للحصول على الحماية والقوت إلى أن تنجلي الغمة .

هذا الحصن الذي كان هؤلاء المتطوعة يقيمون فيه هو الرباط وأهل الحصن هم المرابطون . والباحثون يرون أن الرباط والمرابطة ذات صلة قوية بالآية الكريمة : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ فالرباط هو مؤسسة إسلامية قلباً وقالباً ، أصلاً وتطوراً .

والمرابطون الذين يقيمون في الرباط كانوا قلة . وكثيراً ما كان رباط الرجال يردف برباط للنساء اللواتي كن يقدمن العون للمرضى ويرتلن القرآن الكريم ويتلون ما يثير حماسة الرجال عند اشتداد القتال . أما المتطوعة أنفسهم فقد كان بعضهم ينذر إقامة قصيرة والبعض ينذر إقامة طويلة ، وثمة من كان يقضي حياته كلها في الرباط . وقد روى ابن حوقل أن رباط أصيلا في المغرب الأقصى على شاطئ المحيط الأطلسي كان يتم فيه التبديل ثلاث مرات في السنة (في المحرم وفي رمضان وفي ذي الحجة) . وقد يتنقل المتطوعة من رباط إلى رباط رغبة منهم في أن يسهموا في العمل في مراكز

متعددة . ويحدثنا ابن حوقل أن رباط طرسوس في البحر المتوسط كان فيه متطوعة يأتون من مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها ، ليكون لهم في الدفاع عن بيضة الإسلام نصيب .

ليس غريباً أن يعرف العالم الإسلامي مئات من هذه الرباطات البرية والبحرية ، في الشرق والغرب . ولكن السواحل كانت إليها أحوج بسبب وجود الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط . وكانت المناطق الإفريقية أكثر اهتماماً بالرباطات والمحارس ، وهذه كانت أبراجاً للنيران أي للإخبار ، ويبدو أن الساحل الإفريقي كان منقطعاً بها من ليبيا إلى طنجة ثم على ساحل الأطلسي .

وقد عفا الزمن على الكثير من هذه الرباطات . فاندثر منها ما اندثر ، وتهدم منها ما تهدم ، وقد نعثر هنا وهناك على بقايا تذكر بما قد كان . ولكن من حسن حظنا أن رباطين صمدا على عوادي الدهر بشكل خاص وهما : رباط المنستير ورباط سوسة الواقعان على الساحل الشرقي لتونس . وهما اللذان نريد أن نجعلهما موضوع حديثنا الآن .

ورباط المنستير بناه هرثمة بن أعين حاكم إفريقيا (وهي تونس اليوم) من قبل الرشيد . وكانت ولاية إفريقيا قد تعرضت لغزوات الأسطول البيزنطي ، بحيث إن الأمر اقتضى عملاً حاسماً . وهرثمة كانت له خبرة إدارية عسكرية في المشرق . فاختاره الخليفة والياً ليتدبر الأمر بحكمته وينشئ رباطاً يكون نقطة دفاع رئيسية لتلك الجهة . واستشار هرثمة فقهاء القيروان فزكوا العمل .

أنشئ الرباط سنة 179هـ/ 795م ، وهو أول رباط بني في ولاية إفريقيا . ويبدو أن الإقبال عليه كان شديداً فضاق عن الحاجة ، فوسع في السنوات الأولى من تأسيسه . وعمل الولاة والأمراء على توسيعه وتجهيزه . ومن أشهر الأعمال التي أجريت فيه ما قام به الأمير أبو فارس عبد العزيز الحفصي في القرن التاسع للهجرة/ القرن الخامس عشر للميلاد . وحتى العثمانيون أعدوا قلعته وجهزوها بالمدافع ، حتى أصبح على ما هو عليه اليوم من اتساع وعظمة .

أما رباط سوسة فقد بناه زيادة الله الأغلبي والي إفريقيا سنة 206هـ/ 821م ، أي بعد نحو عشرين سنة من تأسيس رباط المنستير . ولم يتغير فيه شيء . ولذلك فإننا

نريد أن نتحدث عنه أولاً ، ثم نعود إلى المنستير .

ولنقترب من الرباط أو قصر الرباط كما يسمى محلياً ، لنرى بأنفسنا هذا البناء الشامخ برأسه إلى السماء . وهو بناء مربع طول ضلعه 39 متراً تقريباً دون أخذ أبراجه في القياس . وهذه الأبراج ثمانية : واحد في وسط كل من جوانبه الأربعة وواحد في كل من الزوايا الأربع . وستة من هذه الأبراج نصف دائرية ، أما برج الباب والبرج الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية فهما مربعان . وترتفع أسوار الرباط حالياً ثمانية أمتار ونصف المتر عن مستوى الأرض المحيطة بها .

ولندخل القصر من بوابته الوحيدة في البرج الواقع في منتصف جداره الجنوبي ، فننحدر قرابة ثلاثة أمتار على درج يؤدي بنا إلى الرباط نفسه عبر باب داخلي ذي قوس نصف دائري . وعندها نجد على اليمين واليسار غرفتين معقودتين مفتوحتين لعلهما كانتا غرفتي الحرس . ونجتاز بعد ذلك صفين من الأروقة المعمدة فنصل إلى الساحة الكبرى ، حيث نرى درجين يصعدان بنا إلى الطابق الأعلى ، الواحد على اليمين والآخر على اليسار .

والساحة التي نقف فيها الآن عرضها ، من الشمال إلى الجنوب ، تسعة عشر متراً (دون أجزاء المتر) ، وطولها ، من الشرق إلى الغرب ، نحو واحد وعشرين متراً ونصف المتر .

وقد وقفنا في منتصف الساحة ودرنا حولنا فوجدنا في كل جهة رواقاً معقوداً ترتكز أقواسه على أكتاف (ركائز) لا على أعمدة ، إذ إن ذلك أمتن للبناء وأقوى على تحمل عوادي الزمن ويلي الأروقة ، إلى جهة الأسوار ، صفوف من الغرف منها عشر في الجهة الشمالية وسبع في الجهة الجنوبية وثمان في كل من الجهتين الشرقية والغربية ، ولكل منها باب يفتح إلى الرواق ، باستثناء تلك التي في الزوايا ، فإن أبوابها تصلها بالغرف المجاورة لها . وهذه الغرف لا نوافذ لها قط .

فإذا ارتقينا إلى الطابق العلوي من البناء وجدنا صفوفاً من الغرف أيضاً في الجهات الشرقية والشمالية والغربية ، لكن لا أروقة أمامها . أما في الجهة الشرقية من الطابق العلوي فإننا نجد المسجد ، وهو أول مسجد بني في سوسة ، بحيث إن من كان يسكنها كان يذهب إليه للصلاة أيام الجمع والأعياد . وسطح الجامع وسطوح الغرف

المذكورة آنفاً تقع على ارتفاع واحد ، تدور به من الناحية الداخلية أنصاف أقواس للزخرف ، ويوجد مثلها في الناحية الخارجية . وفي الزاوية الجنوبية - الغربية من البناء درج يؤدي إلى سطح الطابق العلوي .

والذي يلفت النظر في بناء رباط سوسة ، وهو أمر تشترك فيه الرباطات على الغالب ، هو قلة الزخرف في البناء . فالأصل في الرباط أنه بناء عسكري ديني يرابط فيه أولئك المتطوعة الشديدو الإيمان . فالقوة والمنعة والبساطة صفاته الأساسية . ومع ذلك فلم نتمالك أنفسنا ، ونحن ندور بالرباط في زياراتنا له ، من الإعجاب بمناره العالي المستدير الأنيق اللطيف . وأدركنا السر في حماسة حسن حسني عبد الوهاب إذ قال فيه : «وأبدع بنية في الرباط هو ذلك المنار العالي الذي أمر زيادة الله برفعه . وهو مستدير الشكل ، يقع في الركن القبلي من الطابق العلوي ، ويلاصق بيت الصلاة . ويصعد إلى أعلاه بدرج من داخل بنائه . وهذا المرصد هو مفخرة من مفاخر الفن المعماري الأغلبي . . . . ويعود جماله إلى دقة بنائه وخلوه من الدوائر البارزة» .

وفي مدخل المنار نقش بالخط الكوفي يدل على تاريخ الفراغ من بناء هذا المنار ونصه (عن سليمان مصطفى زبيس) : «بسم الله بركة من الله مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاه على يد مسرور الخادم مولاه في سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين» .

ولم يكن مألوفاً أن تبنى منارات أو صوامع للجوامع في تلك الأيام . فالمسجد الكبير في سوسة لا منارة له . لكن منار الرباط كان للرصد والترقب وإشعال النيران وإطلاق الحمام الزاجل .

ولنعد أدراجنا هبوطاً - درجاً فدرجاً- حتى نعود إلى الساحة ثم نخرج من بوابة الرباط . ولنلقِ عندها نظرة خلفنا لنتأمل هذه البوابة والجدار الذي تتوسطه والمنار المقتعد الركن الجنوبي الشرقي من الرباط ، كما متعنا أنفسنا برؤية المنار من الداخل .

أما من حيث استعمال هذا الرباط فإنه لم يكن يقيم فيه ، في أي وقت من الأوقات ، أكثر من مائة مرابط يحتلون الغرف الواقعة في الطابق العلوي . أما غرف الطابق السفلي فكانت مخازن وأهراء .

ولنعد الآن إلى رباط المنستير . والواقع أننا لما زرنا هذا الرباط ، الذي هو أوسع

وأعلى من رباط سوسة ، وجدنا أن الأشغال المختلفة التي أدخلت عليه عبر القرون أفقدته شيئاً من شخصيته الأصلية ، وهو الأمر الذي حافظ عليه رباط سوسة . فالسور الذي وسع على الأقل مرتين ، تزينه أبراج شبه دائرية لعلّ من أتمها شكلاً حتى الآن البرج الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية . ونحن ندخل الرباط من بوابته الجنوبية إذ إن ذلك متيسر اليوم . وللرباط مدخل آخر في الجهة الغربية ، لكن هذا قلّما يستعمل إذ إن أعمال الحفر والتنقيب الجارية هناك تحول دون ذلك .

ونصل رأساً إلى الساحة الكبيرة الواسعة التي تحيط بها في جهاتها الشرقية والشمالية والغربية غرف على طابقين أو ثلاث طوابق ، لكن هذه تفتح رأساً على الساحة وليس أمامها أروقة . أما الغرف فتتكون من عقود قوية البناء .

والجهة الجنوبية فيها مسجدان ، واحد في كل من الطابقين . وقد صعدنا أدراجاً نقلتنا من طابق على آخر وكما صعدنا منار رباط سوسة في درج داخلي ، فقد وجدنا درجاً داخلياً في منار رباط المنستير .

ويقع المنار هنا ، مثل موقعه في سوسة ، في الزاوية الجنوبية الشرقية . وهو مستدير وارتفاعه مثل ارتفاع منار سوسة . إلا أنه يحيط به زناران من الحجارة . ويشرف ، من الداخل ، على الرباط بأجمعه . كما أن منظر المنار من الجهة المقابلة له والبعيدة عنه ، وخصوصاً من أعلى البناء ، يبدو جميلاً . ولكن بعض الإضافات التي ترجع إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، تحجب بعض الأجزاء من المنار الذي يعود بناؤه ، أو على الأقل تجديد بنائه ، إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي .

وعندما نخرج من الرباط يجدر بنا أن نلتفت إلى برج مضلع يختلف عن أكثر الأبراج وهي نصف دائرية .

أما من حيث الوظيفة التي كان يقوم بها رباط المنستير ، والدور الذي مثله في تاريخ تلك الديار فلا يختلف فيهما عن دور رباط سوسة .

على أننا نود أن ننقل في ختام هذا الحديث ما ذكره البكري في مسالكه ، وهو من أهل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد ، عن رباط المسنتير ، مما يدل على أنه ، وغيره من الرباطات ، كان لا يزال يسكنه المرابطون المتطوعة ممن نذر نفسه لله . قال البكري : «وبالمنستير [أي رباط المنستير] البيوت والحجر والطواحين الفارسية

ومواجل الماء . وهو حصن عالي البناء متقن العمل . وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه . وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشاير» . وقال محمد بن يوسف . . . «وفي القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة ينزل حولها النساء المرابطات . . . وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة» .

ولنعد إلى حيث بدأنا . هذا حديث عن أثرين إسلاميين من نوع خاص . فالرباط كان يمثل في التاريخ الإسلامي الذراع الثالثة لأساليب الجهاد والدفاع والتيقظ والحذر . أما الذراعان الأخريات فهما الجيش والأسطول .

ملحق (1)

الحياة الفكرية والأدبية الحديثة
في المغرب العربي

يسعدني أن تتاح لي الفرصة لأن أتحدث إليكم والموضوع الذي اخترته موضوع شائك شائق، ولن أتحدث عن الشوك فيه، ولكنني إن وفقت إلى أن أشوقكم إلى الاستزادة منه فقد بلغت أمنيتي.

أقطار المغرب العربي، التي أود أن أتناول الحديث عنها هي ليبيا والجزائر والمغرب. واسمحوا لي، قبل كل شيء، أن أذكركم ببعض أحداث التاريخ الذي مر على تلك الأقطار في الحقبة الخيرة، لأن ذلك يضع حديثي في الإطار الصحيح. فالمغرب العربي المستقل الآن كان، إلى أمد قصير، يرزح تحت نير أجنبي. فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 واحتلت تونس سنة 1881 ودخلت المغرب، مع إسبانيا، سنة 1912، ووقعت ليبيا فريسة الاحتلال الإيطالي سنة 1911.

وثمة معنى خاص للاحتلال الفرنسي للجزائر في ذلك الوقت المبكر، أي قبل أن يتعرف العالم العربي، إلا في جزء صغير منه، إلى الحضارة الغربية، ويأخذ بأسباب التقدم، وتقوم النهضة الحديثة في أجزائه. لم تكن الجزائر تخلو من دور للعلم وبيوت للمعرفة، لكن المعرفة الجديدة والعلم الحديث لم يكونا قد وصلاها يوم جاءت فرنسا وأطبقت عليها، فحالت دونها والتجربة الفكرية والأدبية والسياسية التي مرّت بها شقيقاتها من الأقطار العربية. وعزلت الجزائر، فما عرفت بعد ذلك، وإلى عقود طويلة من السنين، إلا ما سمحت فرنسا بالتعرف إليه، ولا وصل الجزائر من نتاج الفكر إلا ما أقرته فرنسا، ولا امتصت الجزائر من الأدب إلا ما أرادته فرنسا. وتم كل ذلك بلغتها وأسلوبها، وعلى حساب اللغة العربية. وهذه الجزائر لم تعرف في العهد الفرنسي مدرسة رسمية أو معهداً حكومياً يدرس اللغة العربية على أنها لغة البلد! عفواً، أيها القوم، كان في الجزائر ثلاث مدارس في تلمسان ومدينة الجزائر وقسنطينة تدرس العربية والإسلام. هذه المدارس كانت تعد تراجمة للإدارة، وكان فيها كلها،

سنة زرتها في 1951 ، مائتان وستون من الطلاب ، لبلاد فيها نحو عشرة ملايين من السكان!

ومرَّ على تونس نصف قرن قبل أن التهمتها فرنسا . وهذه الفترة كانت خيراً وبركة على البلاد وأهلها . فقد أخذت تونس فيها تتعرف إلى أوروبا -زيارة وقراءة ومدارس- وهبت على تونس بعض الرياح الآتية من الشرق- من مصر ولبنان والقسطنطينية- ويكفي أن أشير إلى أربعة أمور كان لها في التجربة الحضارية في تلك البلاد أثر لا ينكر . والأمور الأربعة هي : المكتب العسكري وعهد الأمان والرائد التونسي والمدرسة الصادقية .

ففي سنة 1840 افتتح أحمد باي مكتباً عسكرياً في تونس لإعداد الضباط المتعلمين للجيش التونسي . ذلك بأن تلك الفترة فرضت على المصلحين في دنيا الإمبراطورية العثمانية أن يقووا جيوشهم . هذه هي الفترة التي قام بها السلطان العثماني محمود الثاني بإصلاح الجيش ، واهتم محمد علي باشا بتقوية الجيش في مصر ، وفكر أحمد باي بتنظيم الجيش في تونس . وانتهى أحمد باي إلى ما انتهى إليه معاصروه : يجب أن يعد الضابط المتعلم للقيام بتنظيم الجيش وتدريب الجنود . وكان أساتذة المكتب العسكري أجانب من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا . كانوا يحاضرون للطلاب التونسيين ، الذين لا يعرفون إلا اللغة العربية ، في التاريخ والجغرافيا والرياضيات والحركات العسكرية والتعبئة . وكان لكل أستاذ ترجمان ينقل محاضراته إلى الطلاب . وفي هذا المكتب العسكري كان الشيخ محمد قبادو يعنى بشؤون الطلاب الخلقية ويعلمهم أصول الدين والأدب العربي . لكن قبادو ومعاونيه قاموا بعمل آخر . جمعوا المحاضرات وتأكدوا من صحة ترجمتها وترتيبها ووضعوها بين أيدي الطلاب كتباً يقرأونها بلغ عددها الأربعين كتاباً ، لكنها لم تطبع .

وفي أثناء هذا الإعداد ، كان قبادو وصحبه يتعرفون شخصياً على هؤلاء المدرسين الأجانب ويتبادلون وإياهم الآراء . وهكذا ففي هذا المعهد ، الذي دام بضع سنوات ، وضعت اللبنات الأولى للاتصال التونسي بالحضارة الغربية الحديثة . والذين قرأوا مقدمة ديوان قبادو ، التي كتبها هو بنفسه ، يرون مدى تأثر هذا الرجل العالم بهذه الاتصالات الأولى بالفكر الغربي ، هذا التأثر الذي نجده ينمو ويتسع ويعمق فيما بعد

على يد محمد بيرم وخير الدين باشا والشيخ الطاهر بن عاشور ، الذين يمثلون أجيالاً من المفكرين المصلحين .

والتجربة الثانية هي تجربة عهد الأمان ، الذي نشر سنة 1857 . وعهد الأمان هو ، باختصار ، شرعة دستورية تبين حقوق المواطنين وواجبات الحكام ، وضعتها تونس قبل أي قطر آخر في الإمبراطورية العثمانية . بما في ذلك عاصمة الدولة . وقد ختم عهد الأمان بأن الشعب له الحق أن يخلع الحاكم إن هو تنكب عن الطريق المرسوم له في هذا العهد . وعهد الأمان يمثل مزجاً موفقاً لفضائل الشرع الإسلامي والتجارب السياسية الأوروبية ، ويمكن اعتبار مثل هذا الأمر غاية من غايات المصلحين المسلمين في القرن الماضي .

والرائد التونسي ، التي أنشئت سنة 1861 ، كانت جريدة الدولة الرسمية ، وكانت ، بادئ ذي بدء ، تقتصر على نشر بيانات الحكومة وأوامرها وتشريعاتها وتعليماتها ، لكنها لم تلبث أن أصبحت مدرسة متنقلة تنشر فيها المقالات الأدبية والتاريخية والعلمية وحتى السياسية العامة . وليس بالقليل مثل هذا الأمر ، في وقت عزت فيه المطابع في أكثر ديار العرب بله الصحف والمجلات والكتب .

وأخيراً فثمة المدرسة الصادقية التي أنشئت سنة 1876 ، وكانت تُعلِّم فيها العلوم العصرية واللغات الأوروبية . وكان الغرض من إنشائها إعداد طلاب أخذوا بالحديث من مجالي الفكر ، واطلعوا على غير ما تيسره لهم المدرسة الدينية فقط ، فإذا انضموا إلى الزيتونة يتفقهون أو يتأدبون أو يدرسون التاريخ وما إليه ، جمعوا بين الحسنيين ، وضموا إلى الخير خيراً .

هذه الأمور الأربعة ترينا مدى ما أفادته تونس ، لأن احتلال فرنسا لها تأخر هذه المدة . وقد ترتب على ذلك أمران : أولهما أن اللغة العربية أتيح لها أن تمتص أشياء جديدة وتعبر عنها ، وبذلك تجدد ثوبها وترسخ أمرها ، والثاني أن الصلة مع ديار المشرق التي بدأت في هذه الفترة لم يكن من السهل أن تقطع ، فاستمرت بعد الاحتلالين الفرنسي لتونس والبريطاني لمصر ، على ما نعرف من علاقة الشيخ محمد عبده وصحبه برجال الإصلاح في تونس فيما بعد .

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن هو : ماذا أفاد كل من ليبيا والمغرب بتأخر

احتلال الأجنبي لهما؟ أما فيما يتعلق بالاتصال بالحضارة الأوروبية الحديثة فإن الذي تم كان قليلاً للغاية . ذلك بأن الأحوال السياسية في البلدين كانت تحول دون ذلك . فالمغرب شهد نوعاً من التفكك السياسي والثورات المتعددة التي شغلت الحكم عن الإصلاح ، على الرغم من الرغبة التي كانت عند الكثيرين من رجال البلاد . وكانت ليبيا قد أهملتها الدولة العثمانية إلا من حيث الاهتمام بإدارة المدن ، كما أن طرق القوافل التجارية كانت قد أخذت بالتحول عنها بعض الشيء ، فضعفت مواردها الاقتصادية .

إن المغرب تأخر نصف قرن أو يزيد عن المشرق في أخذه بمقومات الحضارة الحديثة ، ولذلك لا نجد تفاعلاً بين ذلك القطر الشقيق وبين أقطارنا هنا ، أو بينه وبين أوروبا إلا في مطلع القرن الحالي . ويُعزى هذا إلى العزلة التي وقع فيها المغرب في القرن التاسع عشر . فقد كان بعيداً عما يجري في الدولة العثمانية ، وجاء احتلال فرنسا للجزائر (1830) ثم لتونس (1881) يلقي حجاباً كثيفاً بين أقصى المغرب وبلاد المشرق . كما أن السياسة الاستعمارية التي اتبعها الغرب في الجزائر وفي تونس «جعلت المغرب يقدم الحذر في علاقاته به ويبتعد عن طريق اللقاء معه ما أمكن» .

وهكذا فقد كان المغرب منعزلاً عن جيرانه في الغرب وأصدقائه في الشرق . وصحيح أن الأحابيل الاستعمارية أخذت تحاك له ، مما أضعف همته عن السير ، ولكن نود أن نضيف أن المغرب كان يعاني في القرن التاسع عشر فترة من فترات الفوضى والتحارب ، التي كان من شأنها أن تمتص عصارته وتقعد به عن اللحاق في مضمار العلم الحديث .

على أنه من الواجب أن نذكر أن المغرب تعرف ، مع ذلك ، إلى بصيص من هذا النور ، إذ وفد طلاب مغاربة إلى مصر في أيام الخديوي إسماعيل (منهم عبد السلام العليم وأحمد شهبون) ، كما اجتاز البعض الآخر البحر إلى أوروبا ، مثل محمد الجياص . ومما يجب أن يذكر حقاً أن أول مطبعة عربية دخلت المغرب في أيام السلطان محمد الرابع ، وعليها طبعت مجموعة من الكتب القديمة في فاس . وحري بالذكر أنه في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ظهرت الصحف الأولى في المغرب . وفي هذا يقول الأستاذ عبد الله كنون : «وأهم ما يلفت الأنظار في نتاجها هو

ظهور أول جريدة عربية تحمل اسم المغرب ، وكان ذلك في طنجة سنة 1889 ، وهي جريدة أسبوعية حرة أصدرها بعض اللبنانيين ولم تعمر طويلاً ، ثم صدرت بعدها في طنجة أيضاً جريدة المغرب الأقصى سنة 1900 ، فجريدة السعادة سنة 1905 ، فمجلة الصباح سنة 1906 ، فجريدة لسان المغرب سنة 1907 ، وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا إلى المغرب في هذا العهد ولم يبقَ منها إلا السعادة التي أصبحت فيما بعد لسان الحكومة المحلية» .

وقد بقيت «الحياة الفكرية والأدبية على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه سواء في المادة أو القالب ، في المعنى أو الأسلوب ، المؤلفون يضعون تآليفهم على غرار الذين من قبلهم ، والأدباء يصوغون أدبهم الصياغة نفسها التي توارثوها عمن تقدمهم ، والإنتاج في الواقع كثير ، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة في العلم والأدب ما يدل على نفاق سوق المعرفة ، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الأعمال ، فميزانها بالنسبة إلى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف وإن كانت في حد ذاتها ذات قيمة لا تنكر . . . نعم كان هناك مؤلفون وأدباء ولكن صلتهم بأهل العصور الخالية أقوى من صلتهم بأهل العصر الذي يعيشون فيه ، فنتاجهم يعد من صميم النتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون ، وإن كان منه ما وضع في أواخر العهد الذي نحن بصدده ، ولا نقول إنه لا يمثل عهده هذا ، فالواقع أنه أصدق ممثل له ، لأنه يوقفنا على مناحي التفكير ومناهج التثقيف التي كانت سائدة إذ ذاك ، وهي كما نعلم منحصرة في ضروب المعارف الإسلامية وعلوم العربية وآثاره من فلسفة وحساب وفلك ، أي ما كان يدرس في جامعة القرويين بفاس وفروعها المنتشرة في أنحاء المغرب ، ولا زائدة ، من غير أن تمسه يد إصلاح أو تدخل عليه مادة تلقيح» .

لكن ما خسره البلدان من الاتصال بالغرب والحضارة الحديثة عوضا عنه في الحركات الإصلاحية الدينية الداخلية . ويكفي أن يقال هنا إن ليبيا منَّ الله عليها بالسنوسي وابنيه وحفيده ليرشدوا الناس إلى سواء السبيل ويعودوا بهم وحدة بعد فرقة ، وسلماً بعد حرب ، واتفاقاً بعد اختلاف . هذا إلى اهتمام بنشر العلم الديني وما يحتاجه ذلك من عناية باللغة على أيدي أولئك الذين دربوا في الجغبوب وفي

غير الجغبوب . أما المغرب فقد وصلت إليه دعوة السلفية من المشرق في أواخر القرن الماضي ، ومن ثم شهد حركة إصلاح في الدين وتفقه فيه واهتمام بالأدب وعناية بالكتابة بالعربية . فالدعوة السلفية تركزت حول أبي شعيب الدكالي : «ذلك العالم المصلح الذي قيضه الله للمغرب في هذه الفترة ، فجدد سنة العلم ، وأقام للسلفية مناراً عاليا بما أوتي من التبحر في علوم الكتاب والسنة ، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الإقناع ، فضلاً عن خبرته بأحوال العالم الإسلامي التي اكتسبها في جولاته بالمشرق ، وكان يلي وزارة العدل فزاده الجاه هيبة في النفوس ، وتأثيراً على الخاص والعام . ووجدت هذه الدعوة قبولاً لدى الشباب المتعلم ، فناصرها ، وتطور أمرها عنده إلى الوقوف في وجه أصحاب الطرق الصوفية ولا سيما المزيفون منهم . ونشأت معركة عنيفة بين الطرفين كانت تجد لها متنفساً في صحافة تونس والجزائر ، إذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكفولة الحرية» .

هذه الأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها ، والاتصالات والحركات الإصلاحية التي ألمحنا إليها ، وما نجم عنها من اختبارات واسعة أو ضيقة عميقة أو سطحية ، جاءت في مطلع القرن العشرين لتمتزج بآثار الاستعمار والاحتلال وسياساتهما التعليمية والأدبية والفكرية والسياسية والاقتصادية .

والحياة الفكرية والأدبية ، وهي التي تعنينا الآن ، يمكن أن ينظر إليها من زوايا متعددة ، ويمكن أن تبحث من اتجاهات متباينة . ونود قبل كل شيء أن نعرض إلى المؤثرات والسبل ، أو إلى الروافد والطرق .

وحري بالذكر أن وجود الأوروبيين -فرنسيين وإيطاليين- في شمال إفريقيا مكن لهم من أن ينشروا ثقافتهم بالقوة وبحكم القانون . فهم الذين خططوا مناهج التعليم ، وهم الذين عينوا المدرسين ، وهم الذين اختاروا الكتب ، وهم الذين طبقوا كل هذه الأمور . فالمنهج والكتاب فرنسيان والمعلم كذلك . ومن ثم فتعلم الأدب الفرنسي وقبول الثقافة الفرنسية (أو الإيطالية) لم يكن أمراً مستغرباً .

هذه الحضارة دخلت البلاد المغربية بكل ما فيها من زخم وقوة . دخلت بعلمها البحث والتطبيقي ودخلت بلغتها الحية المنعشة ودخلت بأدبها النابض بخلجات القلوب ونتاج العقول ودخلت باقتصادها المنظم المنتج . ولكن هذا الدخول كان أكثره

في مصلحة المستعمر الأوروبي وأقله لمنفعة المواطن الأصلي . يضاف إلى ذلك أنها بسبب هذه القوة والزخم اللذين كانا لها أحدثت في النفوس ردة فعل ضدها ، على ما سنرى بعد حين .

إلى جانب هذا الرفد الغربي الأوروبي كان ثمة رفد قوامه فكر أوروبي غربي معرب ، استقي من المصدر وصيغ بقالب عربي . فيه العلم وفيه الأدب البحت وفيه الفلسفة ، تحملها كتب ومجلات من مشرق العالم العربي إلى مغربه من مصر ولبنان .

على أن الرافد الشرقي لم يقتصر على هذا العلم الغربي المعرب ، والنظريات الأوروبية وقد صاغها كتاب ناطقون بالضاد ، بل كان ثمة فكر إسلامي بحت . إسلامي من حيث إنه كان يعالج القضايا الإسلامية من حيث تجديد نظرتها وتطوير أسلوبها وتفحص موقفها من التطورات الأخيرة والتعرف إلى ماذا يجب أن يكون أثرها في حياة المسلمين . وأهم هذه القضايا هي قضية إصلاح المجتمع الإسلامي وتطويره في إطار الدين الإسلامي الروحي والفكري دون تجاهل ما كان العالم الآخر قد توصل إليه . هذه الاتجاهات المشرقية الإسلامية كانت قد وصلت من قبل سلفية بحتة ، ثم وصلت المغرب العربي ، وتونس على الخصوص ، على النحو الذي اختطه محمد عبده من وجوب التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث الصحيح .

وفي العقد الثالث من القرن الحالي تسرب إلى بعض أنحاء المغرب أثر الأدباء المهجريين . أولئك الذين حملوا معهم إلى ديار الهجرة قلوباً عربية وعتها تجارب عقول غربية ، فجاء أدبهم وفيه من الجديد كثير ، وإن ازورّ لذلك كثيرون . هذا الأدب المهجري كان باعثاً على التجديد على ما يبدو لنا ، التجديد في المحتوى والتجديد في الصورة والتجديد في الأسلوب .

على أنه ثمة أمر آخر كان له أثر كبير في رفد الحياة الفكرية الحديثة في المغرب العربي . ولست أدري ماذا أسميه ، عامل أو باعث أو حافز . ولكن الذي يهمني منه وجوده وأثره . أما وجوده فكان طبيعياً ، وهل من الغريب أن يكون في المغرب العربي في القرن العشرين توتر داخلي (إضافة إلى التوتر السياسي) الناشئ عن هبوب هذه التيارات كلها؟ تيار غربي وتيار عربي وتيار إسلامي وكل هذه التيارات تجري في ظل قوة أجنبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأول منها ولعلها لم تكن راضية تمام الرضى عن

التيارين الآخرين وغيرهما؟ ألم يكن كافياً أن يثير أحد الناس مشكلة تتعلق بالأخلاق أو العقائد أو التصرف حتى يشعر المسؤولون عن ضمير الأمة الواعي أنهم في دوامة؟ وإن هذه الدولة تحدث في نفوسهم توتراً يريدون التعبير عنه فلا تسعفهم الأحوال أو الأقلام أو مجرد القدرة على التعبير .

هذه بعض المؤثرات أو الروافد التي سالت في مجالات الحياة الفكرية في المغرب العربي خلال العقود الأخيرة . فأي سبل اتبعت هذه الروافد في مسيرها؟

أما الرفد العربي الحضاري الحديث ، وهو الذي أخذه أهل المشرق عن أوروبا ثم صفوه باللغة العربية وعبروا عنه في الكتب والصحف والمجلات ، فقد انتقل إلى المغرب العربي في هذا المجلات التي وصلت مدن تلك الرقعة من طرابلس الغرب إلى مراكش . فأنت واجد عدداً كبيراً من القراء هناك ممن كانت تصلهم أعداد الهلال والمقتطف بانتظام ، فكانوا يطالعون عن طريقهما وطريق غيرهما نتاج الأفكار وجميل المقالات ومختار الشعر والأبحاث التاريخية والعلمية . ويضاف إلى ذلك فئة من شباب المغرب العربي شردوا عن بلادهم على أيدي المغتصبين ، واتخذوا من ديار المشرق ؛ مصر وفلسطين ولبنان وسوريا مواطن هجرة ، وهناك اتصلوا بالحركة العلمية فيها ، ودرسوا في جامعاتها ، فلما عادوا إلى الوطن حملوا معهم علماً ومعرفة .

وأما الرافد الإسلامي الإصلاحي فقد انتقل إلى تلك الديار عبر العروة الوثقى التي كان يحررها الأفغاني ومحمد عبده في باريس ، ومع مجلة المنار ، التي كان يصدرها السيد رشيد رضا في القاهرة . على أن وسائل أخرى كان لها من التأثير قدر هذا وأكثر . فمنها أولئك الذين طلبوا العلم في القرويين والزيتونة والأزهر ، وخصوصاً المعهدين الأخيرين ، إذ كان طلبة العلم فيهما يعرفون المحاولات التي كانت تقوم لإصلاح الأمور شكلاً وجوهراً . فكانوا إذا عادوا إلى بلادهم حملوا معهم هذه البذور ، فإما أن تنمو وإما أن تقع على الصخور فتجف . ولكن الغالب أنها كانت تقع في أرض خصبة فتنمو وتؤتي أكلها . والسلفية المغربية ، مع تأثرها بحركات أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فقد وصلت طلائعها الأولى في واقع الأمر في أوائل القرن الماضي ، إذ نقلها الحجاج والرسل والعلماء من الحجاز إلى المغرب ، إثر ظهور الدعوة الوهابية وامتدادها إلى الحجاز .

وليس من شك في أنه من الصعب أن يفرق الباحث بين الرافدين العربي والإسلامي ، فكلاهما استعمل اللغة العربية ، وكلاهما قام في ديار العرب المشارقة ، وكلاهما يمثل ناحية من نواحي اليقظة الحديثة في العالم العربي . وإنما تحدثنا عنهما منفردين لأننا أردنا أن نمهد بذلك للإشارة إلى رد الفعل فيما بعد .

يبقى الرافد الغربي . وهذا كانت الأبواب مفتحة له على مصراعيها ، فضلاً عن أن السلطات الحاكمة كانت تدعمه في بعض الأحيان وتفرضه في غالب الأحوال . هذا الرافد جاء المغرب العربي عن طريق المدرسة الفرنسية والإيطالية ، والكتاب الفرنسي والإيطالي والمجلة والإذاعة الفرنسية والإيطالية والمعلم الفرنسي والإيطالي والجامعة الفرنسية والإيطالية .

ويجب أن نذكر الفرق بين العمل الفرنسي والعمل الإيطالي . فالمدرسة الفرنسية كانت ، من وجهة النظر الفرنسية ، إيجابية : فقد علمت أبناء المغرب والجزائر وتونس اللغة الفرنسية ، وحببت إليهم الأدب الفرنسي ، وأدخلت عقولهم إلى حرم الثقافة الفرنسية . فصاروا يفكرون فرنسياً ويعبرون عن آرائهم وشعورهم وعواطفهم فرنسياً . وبطبيعة الحال كان لها أثر سلبي لأنها لم تعلم العربية ولم تعنَ بالثقافة العربية أو الفكر الإسلامي . وكان الأثران ، الإيجابي والسلبي ، أقوى في الجزائر منه في القطرين الآخرين .

على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن المدرسة الفرنسية في تلك الأقطار ، الابتدائية منها والثانوية ، لم تشمل جميع الجهات على التساوي ، ولم تفتح أبوابها للأولاد جميعاً دون تمييز . لقد عملت الحكومة الفرنسية بمبدأين كان لهما أثر كبير في نشر التعليم في دوائر ضيقة . وأول المبدأين هو أن تكون المدارس أكبر عدداً وأوسع انتشاراً حيث يكثر الفرنسيون خصوصاً والأوروبيون عموماً . والمبدأ الثاني هو أن تكون المدارس لأبناء الفرنسيين والأوروبيين وبناتهم أولاً ، ثم لأبناء البلاد وبناتها ثانياً . وإذا نحن مزجنا المبدأين أدركنا لماذا كان معدل من تتسع لهم المدارس الرسمية من أبناء البلاد -المغرب والجزائر وتونس- لا يتجاوز 12٪ ، وإن كان يبلغ نحو 3٪ في بعض الحالات .

فالمدرسة الفرنسية لم تصل إلى الجميع ، ولذلك فالأمية ظلّت واسعة الانتشار بين فئات كبيرة من السكان بعد سنوات طويلة من الحكم الأجنبي .

أما المدرسة الإيطالية فقد كانت أقل أثراً من شقيقتها الفرنسية . لقد عملت من الإيطالية لغة تصلح للتخاطب ، ولكن لم تفعل المدرسة أكثر من ذلك . فلا هي حببت الناس إلى الأدب الإيطالي ، ولا هي فتحت أمام القوم آفاق الفكر الغربي ، ولا هي أوجدت طبقة مثقفة ثقافة إيطالية رفيعة . وقد يكون ذلك راجعاً إلى الفترة التي سيطرت فيها إيطاليا على ليبيا وهي العهد الفاشي ، فلم تكن إيطاليا نفسها تنعم بأدبها وثقافتها كما تحب . لكن هذا لا يعنينا ، فنحن لا نحاول أن نتعرف إلى أسباب ما تم من الجهة الأوروبية وإنما يعنينا أن نتقصى الآثار بالنسبة إلى المغرب العربي .

والمنتهي من المدرسة الثانوية كان أمامه ، في بعض الأحيان ، وعلى شيء من التضييق ، مجال الذهاب إلى جامعة - والجامعة كانت إما فرنسية (في فرنسا أو في الجزائر) أو إيطالية . ومما هو جدير بالذكر أن فرنسا أتاحت لعدد لا يُستهان به من أبناء البلاد التي وقعت تحت نفوذها المجال لأن يتابعوا دراستهم العالية في جامعاتها . ومع أن بعض هؤلاء انتقلوا إلى الجو الفرنسي بالكلية ، فإن أكثرهم أفاد من هذه التجارب الواسعة النطاق وجو الحرية العملي الذي عاش فيه ، فعاد إلى بلاده يحاول أن يحررها لتنعم جماعة بما نعم هو به فرداً . ونحن إذا استعرضنا أسماء المجاهدين في سبيل الاستقلال ، الأحياء منهم والأموات ، لوجدنا الكثيرين منهم ممن تعلموا في فرنسا .

أما إيطاليا فلم تتح هذه الفرص للشعب الليبي . إن الذين تابعوا دراستهم العالية في جامعات إيطاليا يعدون على الأصابع .

وقد أشرنا من قبل إلى أولئك الذين تلقوا العلم في الجامعات المشرقية ، في مصر وغيرها ، فلا حاجة بنا إلى التكرار .

جمعية العلماء المسلمين

ما دمنا في سبيل التحدث عن السبل التي انتقلت فيها الآراء الجديدة ، بقطع النظر عن مصدرها ، إلى المغرب العربي ، فحري بنا أن نشير إلى ثلاثة أمور محلية كان لها في العقد الأخير أهمية كبيرة ، وهي جمعية العلماء المسلمين بالجزائر والصحافة والتطور التعليمي الجامعي هناك .

وقد كان لجمعية العلماء المسلمين أثر كبير في الحركة التعليمية والسياسية وغيرهما . لذلك نسمح لأنفسنا أن نتحدث عنها هنا .

في سنة 1929 أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس ، بالمشاركة مع إخوانه وأبنائه من المشتغلين بالحركة العلمية في القطر الجزائري «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر» . والشيخ ابن باديس عربي الأصل صميمه ، جزائري النبت كريمه ، زيتوني النهج قويمه ، كان رحمه الله ثابت الجنان ، ناصع البيان ، قوي الإيمان . اجتمع له من هذا كله ، ومن نظره الثاقب ، ورأيه الصائب ، ما جعله رجل الجزائر تدفع به المصائب ، وتجتلي في طلعته جميل المناقب . ما كان أول جزائري فكر بأمر بلاده ، ولا كان أول من لبى داعي جهاده ، ولكنه يمثل في حياته وعمله ، وعلمه مثله ، خلاصة أماني الأمة الجزائرية وصفوة القائلين بالدعوة الإسلامية ، دعا الناس إلى العودة إلى صحيح الإسلام ، وحملهم على «سلفية» تلك الأيام . أسر الناس بفضله ، وكسبهم برحابة عقله . عمل لأمته ، فوحد جهود العاملين معه ، وكان لهم نبراساً .

دعا إلى نبذ الخرافات والعودة بالدين إلى جوهره ، وأهاب بالناس أن يذكروا اللغة العربية بالخير ، وكان في صميم هاتين الدعوتين تقوية للشعور بالشخصية الجزائرية . وهذه الدعوة روحية اجتماعية في وسائلها ، لكنها في صميم الحياة السياسية هناك . ذلك أنها تتعارض تماماً مع وجهة النظر الرسمية للسياسة الفرنسية . ومن هنا جاءت نقمة السلطات على جمعية العلماء المسلمين . ولكن ابن باديس وصحبه وحملة لوائه من بعده يحاولون أن يكون اتصالهم بالشؤون السياسية اتصالاً فردياً شخصياً ، فيصيبهم الأذى في نفوسهم ، وتظل المؤسسة قائمة . ومع ذلك فلم تفت القضية السلطات . فما أكثر ما حاولت أن تضع للجمعية حداً . لكن هذه الجمعية التي فرضت نفسها بادئ الأمر على الناس فرضاً لم تلبث أن أصبحت لحركتهم رمزاً ، ولحياتهم ركزاً ، ولذلك فإنهم لا يسمحون لها أن يقضى عليها . وكانت «الشهاب» الأسبوعية جريدة ابن باديس والجمعية ، تنطق بلسانهم .

وقد مرت الجمعية في الجزائر بثلاثة أدوار ، الأول قارعت فيه ضعف المسلمين وأتباع الخرافات بالحجة ، فبينت خطأهم . وجاء الدور الثاني دور بناء وتشييد فبدأ سنة 1939 ، لكن نكسة الحرب أوقفته حتى جاء الدور الثالث وهو الذي بدأ بعيد

الحرب والذي لا تزال الجمعية تسير فيه وتقوم فيه بخدمة جلى ، هو دور العودة إلى إنشاء المدارس والعناية بالتعليم . ومع ذلك فليس هذا وحده هو الذي توليه الجمعية اهتمامها ، ولكن هذا أبرز نواحي جهادها .

وقد أتيحت لنا فرصة الاجتماع برئيس الجمعية الفاضل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، الذي خلف المغفور له ابن باديس سنة 1941 ، لما لبى الأخير نداء ربه ، والتقينا بعدد من رجالها الأبرار في مدينة الجزائر وتلمسان ووهران ، فوجدنا فيهم ، كبيرهم وصغيرهم ، شيخهم وشابهم ، غنيهم وفقيرهم ، عالمهم وطالبهم ، تفانياً في العمل ، وإخلاصاً للمبدأ ، وثقة في النفس ، ورغبة في الخدمة ، وفوق هذا كله تعطشاً للإفادة ، وتطلعاً إلى النمو . وهذه خصال ما اجتمعت لمؤسسة إلا ضمنت لها النجاح .

ويمكن إجمال ما قامت به الجمعية في الفترة التي سبقت الثورة الجزائرية فيما يلي :

(1) كان للجمعية من المدارس الابتدائية 125 مدرسة فيها من الطلاب 16,286 طالباً نهارياً و 20,000 طالب مسائي . فالأولون يلازمون المدارس بانتظام ويتعلمون فيها اللغة العربية والإسلام ومبادئ الحساب والعلوم . أما الفريق الثاني فهم ممن يذهبون إلى المدارس الرسمية بانتظام لكنهم يأتون مدارس الجمعية مساء لتعلم العربية والدين . وهذه المدارس يعمل فيها 275 معلماً . وتبلغ ميزانيتها نحو 40,000 جنيه إسترليني .

(2) هذه المدارس ابتدائية . وقد أنشأت الجمعية معهد ابن باديس في قسنطينة ، وهو معهد تجهيزي يتناول الطلاب من الخامسة الابتدائية فيعدهم إعداداً ثانوياً تمهيداً للحاقهم بجامع الزيتونة ، واعتبره فرعاً من فروع المؤسسة الكبرى .

(3) هذه المؤسسات كلها تقوم على هبات كان يقدمها مؤازرو الجمعية .

(4) كانت الجمعية تصدر جريدة «البصائر» الأسبوعية ، وهي في ثماني صفحات تعنى بالتوجيه الفكري والأدبي ، وشرح حقوق الجزائريين وتوضيح العقيدة الإسلامية ، وتعنى بالسياسة العالمية والوطنية . ولا بدّ لنا من الإشارة إلى هذه الديباجة المشرقة والأسلوب الحي الرصين الذي كان ينمق به الشيخ محمد

البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية مقالاته ، وإلى العمق والمعرفة اللذين كان يعالج بهما الأستاذ أحمد توفيق المدني القضايا السياسية العالمية . ومما كانت توجه الجمعية اهتمامها نحوه ، وخصوصاً عن طريق «البصائر» ، الجزائريون المقيمون في فرنسا .

(5) كانت مالية الجمعية (سنة 1951) نحو 75,000 جنيه إسترليني .

(6) كان للجمعية فروع في أكثر مدن القطر الجزائري ، وإن كانت أكثر فروعها في عمالة قسنطينة . والفروع تشرف على المدارس ، وتقيم حلقات الوعظ والإرشاد ، وتعقد الجلسات الأدبية ، ويتطارح الحضور فيها الأدب والشعر .

كانت البصائر هي الجريدة العربية الوحيدة في الجزائر ، وهي أسبوعية تصدر في صفحات ثمان . وثمة جريدة أخرى ، نصف أسبوعية ، تصدر في قسنطينة في وجهين ، اسمها «النجاح» . وعدا هذا ، فالقارئ إذا أراد الاطلاع على الشؤون السياسية والقضايا العالمية والأمور العلمية ، اضطر للرجوع إلى الصحافة الفرنسية . وبعض هذه تصدرها الأحزاب السياسية العربية ، لكن القضية هي قضية لغة وواسطة عقلية .

المجلات الأدبية

ونحن عندما نُدير وجوهنا باحثين عن مظان النشاط الفكري والأدبي في المغرب العربي في السنوات الأخيرة ، لا بد لنا من أن نذكر مجلات أدبية كان يجد فيها الواحد منا مقالات ودراسات وشعراً يصلنا بأهل القلم في تلك الديار ، ثم لم نلبث أن افتقدناها فلم نجدها . وفي مقدمة هذه «البصائر» التي كانت لسان حال جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، ومجلة عمر المختار ، وليبيا المصورة ، والمجلة الزيتونية . إن غروب هذه الكواكب كان خسارة كبرى لنا نحن المعنيين بتتبع ما تجود به الأقلام المغربية .

على أن هذا يعوض عنه ظهور مجلات لا تزال مستمرة ، ونأمل لها أن تستمر في العمل . من هذه ، على سبيل المثال لا الحصر ، الفكر والثقافة (تونس) وتطوان وآفاق

(المغرب) التي تصدر باللغة العربية ، ونشرات تونس وتمودا اللتان تصدران باللغات الإفرنجية (في تونس والمغرب) .

ولسنا ننكر على الصحف اليومية أو الأسبوعية العربية والإفرنسية ، اهتمامها بالأدب والفكر ، لكن ما يخصص لهذه الأمور فيها قليل ، حتى ليخيل إلينا أنه من الأفضل أن نتركها وشأنها لأمور السياسة والأخبار ، فهي تكاد لا تفي بمثل هذه الحاجة .

النشاط التعليمي

على أن المجال الذي كان فيه نشاط الفكر والأدب في المغرب العربي كبيراً هو المجال التعليمي . والظاهرة الأولى لهذا النشاط هو التوسع في التعليم في مرحلتيه الابتدائية والثانوية ، خصوصاً في ليبيا أول أقطار المغرب العربي نيلاً للاستقلال . فالذي يتابع هذا التطور العددي يتمكن من إدراك مدى اهتمام الدولة ، من جهة ، وتحسس الشعب الليبي ، من جهة أخرى ، لأهمية هذه القضية . والأمر واضح أيضاً بالنسبة إلى المغرب وتونس . أما الجزائر فهي على عتبة النهوض بأعباء هذه المهمة .

ومع أن نشر التعليم وانتشاره في المرحلتين الابتدائية والثانوية ضروري ومهم فإن الحياة الفكرية ، لبلد ما ، لا تنضجها المدرسة الثانوية ، بل هي بحاجة إلى المعاهد العليا . هناك يقدح زناد الفكر ، ويتحاك أهل النتاج الأدبي ، ويتناقش الطالب وأستاذه ، ويبحث المدرس وينقب . فما الذي تم في المغرب العربي في هذه الناحية؟

الجامعة الليبية

أنشأت ليبيا الجامعة الليبية المكونة من كلية الآداب والتربية وكلية التجارة في بنغازي وكلية العلوم والكلية التطبيقية في طرابلس الغرب (وقد أصبحتا جامعتين لاحقاً) ورفعت مستوى دور المعلمين والمعلمات بحيث أصبحت هذه على مستوى عال يعد اللازم من المعلمين للمدارس الليبية العلمية والمهنية والزراعية . ولم تبخل

الحكومة الليبية على هذه المعاهد العليا قط ، فجاءت بخيرة الأساتذة من البلاد العربية وغيرها ، وأغرتهم بالمعاملة الطيبة والمرتب الوفير . وقد أعطت الجامعة ثمارها فإذا بخريجيها يشغلون المناصب الكبيرة في التعليم وغيره من نواحي الحياة وإذا بهم يكونون خميرة الفكر في تلك الديار التي حرمت الكثير من الخير قبل الحرب العالمية الثانية .

ولا يغيبن عن البال أن ليبيا قامت بعمل جليل آخر في ميدان التعليم العالي هو إنشاء «جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية في «البيضاء» . وهذا المعهد ، الذي هو تتويج لسلسلة من العمل العلمي الإسلامي عبر العصور في ليبيا ، هو الذي كان سيرقى بالدراسات الإسلامية إلى المستوى الحري به ببلد له في الحركات الإسلامية الإصلاحية في القرن الماضي يد طولى (أقفل هذا المعهد لاحقاً) .

جامع الزيتونة

وفي تونس قامت الجامعة التونسية بهمة البلاد وبعناية الحكومة وبذلك أن صرحاً من صروح الفكر آخذ في النمو في تلك الأصقاع . ولعلك تسأل أيها القارئ عن الزيتونة أين انتهى أمره؟ لم ينته أمره ، ولكنّه أصبح كلية الشريعة في الجامعة التونسية . وهذا هو المكان اللائق به . فهذا المعهد مرجو في أن يقوم في الأيام هذه بتطوير التراث الإسلامي الشرعي ، بحيث يؤدي للمجتمع الخدمة التي قام بها جامع الزيتونة خلال العصور .

والمغرب آخذ في تنظيم جامعاته بحيث تقوم بسد النقص الذي عانته تلك البلاد أثناء انتصاب الحماية عليها . وهذه جامعة محمد الخامس في الرباط - وهي أولى جامعات المغرب التي تم لها حظ العمل المنظم - تسير في الطليعة . وقد لحقت بها جامعة فاس وجامعة ابن يوسف في مراكش وجامعة أوجدة وغيرها في مدن المغرب الكبرى . والقرويين يحتل في هذا الركب الجامعي مكانته ، بحيث يقوم ، كالزيتونة ، بواجبه في تمكين المغرب من اللحاق السريع بالركب العالمي الحضاري .

كان للجزائر جامعة من قبل ، ولكنها تعطلت أيام الثورة ، ثم أشعلت النار بمكتبتها في تلك الأثناء تعطيلاً لعملها ونكاية بأهل البلاد . وها هي الآن - الجامعة ومكتبتها - موضع اهتمام رجال التربية ، وقد عادت الجامعة سيرتها الأولى ، ولكن في خدمة الجزائريين ولمصلحتهم لا لمصلحة الأقلية الفرنسية التي كانت هناك . كما قامت في القطر الجزائري جامعات في وهران وعنابة وتيزي أوزو وقسنطينة وغيرها .

بعد أن تناولنا الأحداث التاريخية من حيث اتصالها بتطور الحياة الفكرية والأدبية في المغرب العربي ، وعرضنا للروافد ومجاريها والينابيع ومسايلها ، يجدر بنا أن نتعرف إلى ما كان من استجابة أو رد فعل لهذا التحدي الذي جاء المغرب العربي من الشمال والشرق . ويمكن تحسس رد الفعل وتلمس وجوده في أقطار المغرب العربي في أمور عامة ، يمكن إجمالها فيما يلي :

(1) يمكن القول إجمالاً بأن تونس والجزائر تأثرتا بالرافد الغربي تأثراً أكثر من كل من المغرب وليبيا . فالثقافة الغربية نقلت معها إلى تلك الديار العلم والتزود منه ، وقبول الآراء والتفاسير العلمية لأحداث الكون وأمور الحياة ، وطرحت التفسير الأسطوري جانباً ، وكانت نظرتها إلى المجتمع نظرة مدنية بدل النظرة الدينية التي كانت تسيطر على مجتمعات العصور الوسطى . يضاف إلى ذلك ، أن المجتمع الغربي يقوم على احترام الحرية الفردية وكرامة الإنسان . هذه كلها أمور حملتها الحضارة الغربية إلى المغرب العربي كما حملتها من قبل إلى الشرق العربي . وكان تقبل تونس والجزائر لها أكثر من تقبل المغرب وليبيا . وقد كتبنا قبل سنوات في هذا الموضوع فقلنا عن الجزائر :

«جاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب تواكب الاستعمار وتجاريه ، ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية . فكان من ذلك نفور من كل ما هو غربي - حتى ولو جاء معه الخير - وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة ، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس كثيراً . ولما آذن الوقت بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر ، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية ،

ومحافظة على كل شيء في الإسلام وإحيائه . فإذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والإسلام ، فمقاومتها تقضي بالتشدد في الحفاظ على العروبة والإسلام . ولعل هذا ما يوضح المحافظة القوية التي تتسم بها الحركة في الجزائر . ولعلّ خير ما يوضح هذه المسألة ، عبارة قالها لنا رئيس جمعية العلماء المفضال الشيخ الإبراهيمي وهي : «القد نجحت الجمعية في أمرين : توجيه الأمة نحو العروبة ونحو الشرق» . والتوجيه نحو الشرق قصد به الشيخ استمداد نور الإصلاح الديني والتوجيه الإسلامي من الحركة السلفية التي بدأت من قبل في القاهرة .

ونشرت المدارس الفرنسية والمعاهد الأخرى العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية ، وحرمت العرب من أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم ، على نحو ما أتيح لنا في المشرق العربي . فنشأ الناس على أنه ثمة عالمين منفصلين : الواحد عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية ، والثاني عالم الفكر الإسلامي العربي ، وهذا تقتصر العربية عليه . وقد التقينا بجماعة من الجزائريين تخرجوا في الجامعة ، يقومون بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحدثوا باللغة العربية في خارج حدود الأمور اليومية العادية ، من مأكل ومشرب . وهذا الفصل الفكري زاد في النقمة على الغرب وفكره . وقد اتضح لنا أن هذا الفصل الفكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم الثقافتين العربية والفرنسية ، وحتى في الذين يعلمون في تلك المعاهد . فقد وقر في نفوسهم أن الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان ، وأنهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما» .

(2) ومع أن ليبيا والمغرب كان تقبلهما للثقافة الغربية أقل نسبياً ، بسبب قصر المدة ، فإن التفاعل الداخلي فيهما كان أقوى . فالسنوسية في الأولى والحركة السلفية في الثانية ، حملتا الناس على التفكير في أمور دينهم ودنياهم ، وإعداد أنفسهم لنواح في الإصلاح الإسلامي فيها الكثير من المحافظة والإحياء . وليس المقصود من هذا أن تونس والجزائر لم تعرفا حركات إصلاحية إسلامية ، أو أن القطرين الآخرين لم يهتما بالعلم والتطور الفكري العلمي ، ولكن القضية ، إلى قبل نحو عقدين من السنين أو أكثر قليلاً ، كانت قضية ترجيح الناحية الواحدة دون الأخرى . وحري بنا أن نضيف هنا إلى أن الفكر العلمي ارتبط ، رضي الناس أو كرهوا ، باللغة الأجنبية – الفرنسية

في هذه الحال - حتى لكأن الحياة الفكرية -كما ألمعنا قبلاً- انقسمت قسمين: غربية وعربية. فتباعد ما بينهما بدل أن يكون الاقتباس عاملاً من عوامل التقريب.

(3) ونحن إذا نظرنا إلى الأدب من حيث هو سبيل للتعبير عن التفاعل الذاتي والقومي وثوران العاطفة وخفقات النفس وخلجات الضمير، لوجدنا أن الصفة الغالبة، إلى وقت قريب، هي صفة التقليد والمحافظة. فالشعر ظل محتفظاً بعموده، والنثر، على إشراق ديباجته في كثير من الأحيان، ظل يرسف في شيء من قيد السجع.

وقبل أن نختم هذه الملاحظات نود أن نشير إلى أمرين كانا بعيدي الأثر في التطور الأدبي الذي عرفه المغرب العربي حديثاً: وأولهما أن اللغة العربية، رغم المحاولات لعرقلة نموها، ظلت حية، وكانت في المغرب وتونس أنشط منها في الجزائر، بفضل القرويين والزيتونة. وفي ليبيا ظلَّ منها قبس في هذه الزوايا التي أقامتها السنوسية في نواح مختلفة من البلاد، فكانت معاقل للتعليم واللغة. ولذلك لما أتيح للقلم أن ينطلق من عقاله، مهما كانت الأحوال التي تحكمت في الانطلاق، وجد لغة حية، تستطيع أن تحمل المعنى وتتضمن الفكرة وتعبر عن الخلجة؛ وثاني هذين الأمرين هو أن الأدباء في المغرب العربي أفادوا من تجربة المشارقة، فاتبعوا خطواتهم في سيرهم؛ وقرأوا ما كتبوا وما نظموا وما ترجموا، ونقلوا عنهم تعابير جديدة واقتبسوا عنهم أساليب فيها من التحرر الكثير. ولذلك فقد وفروا بعض الوقت والجهد.

وهذا الأدب الذي دفع به أدباء المغرب العربي في القرن العشرين، وفي الفترة الأخيرة بشكل خاص، ما هي موضوعاته وما هي خصائصه؟

في هذا الأدب عناية بالماضي ورغبة في إحيائه. وليس هذا غريباً على بلاد كانت تخشى أن تطغى الآراء الغربية على حياتها وتفكيرها وطرق تعبيرها. فكان من الطبيعي أن يكون تمسكها بالماضي والحفاظ عليه في عقلها الواعي واللاواعي، فيصبح أملاً وحلماً وحقيقة. ترى هذا في الشعر الذي نظمه العربي الكبادي وأحمد المهدوي وسليمان الباروني وعلال الفاسي ومحمد العيد، كما تجده في كتابات الطيب الأشهب والشاذلي النيفر والإبراهيمي البشير والكتاني وعبد الله كنون والفاضل بن عاشور وغيرهم. دأبهم الغوص في أعماق الماضي، بحثاً عن خيره، إحياء

لقيمه، وإظهاراً لآثاره. يكتبون وينظمون ليبصروا الخلف بآثر السلف، وليحيوا التراث العربي الإسلامي، وليثيروا حمية الناس في الدفاع عنه، والتمثل بما فيه من قوة وقيـم.

بين الحواضر والأرياف

والحياة الفكرية والأدبية في المغرب العربي، مثلها في المشرق، مستقرة في الحواضر، لم تنتشر بعد في الريف والبوادي (أو لعلها، بالنسبة إلى بعض أنحاء المغرب، انحسرت عن البوادي والريف). وقد لا يبدو في الأمر غرابة أن تقتصر الحركة الأدبية على مدينة أو اثنتين في قطر صغير، ولكن عندما يحدث هذا في بلاد كالمغرب أو الجزائر، يكون في الأمر مدعاة للقلق، أو على الأقل للاهتمام.

والأدب الحديث في المغرب العربي أدب ثورة وجهاد. لقد تفاعل الأدب مع الجهاد في سبيل الاستقلال، وهيأ للثورة وعبر عن أهدافها ومفاهيمها العامة. لكن الأدب في تلك الأصقاع لم يصنع الثورة. فقد كانت الثورة، على اختلاف ظروفها وتباين حركاتها، رد فعل للضغط الأجنبي والسلب الاستعماري. وكانت الثورة وعياً لما يراد بالشعوب هناك. فلما جاءت عبر الأدب عنها. ولسنا نقصد ثورة معينة، فالمغرب العربي في ثورات مستمرة منذ أن احتلت أول أجزائه.

الأدب هناك فيه طعم الجهاد في سبيل الاستقلال، ورائحة النقمة على الأوضاع التي كانت سائدة هناك والتي خلفها الاستعمار. لكن الأدب الأحدث عهداً هو أدب فترة الاستقلال: فيه محاولة الأدباء للتعرف إلى الذات المستقلة الحرة. وهذا التعرف إلى الذات المستقلة أو المنتفضة والتعبير عنها أمعن في الصعوبة، بحثاً وأداء. وهذا ما يحاوله الكتاب اليوم.

التراث والمعاصرة

فالذات المغربية - من المغرب إلى ليبيا- مقسمة بين القيم العربية الإسلامية

ومعطيات الحضارة الأجنبية الأوروبية ، فيما يتعلق بالإيمان والإنسان على سبيل المثال ، ولم تتضح لها بعد الخطوط الرئيسية التي يجب أن تتبعها . وهي في تفكيرها السياسي تتجه إلى اختبارات التاريخ السابق حيناً ، وتتجه نحو الغرب حيناً آخر . ومثل ذلك يقال في تفكيرها الاجتماعي وتخطيطها الاقتصادي . وهي لا يتاح لها اليوم الحرية الكافية للقول والبحث . ولذلك فستظل في وضع رجراج بعض الوقت .

وتعاني الشخصية الأدبية والفكرية ازدواجية التعبير ، بالعربية والفرنسية . ولكن المهم هو أن المحتوى والهدف بعد غير واضحين . فالثورة والجهاد في سبيل الاستقلال كانا قد ملكا على الناس كل شيء ، وشغلا الناس عن كل شيء ، فلما استقلت تلك الأقطار وجدت نفسها أمام مشاكل كثيرة ، منها تعيين الأهداف وتعبيد الطرق لتحقيقها ، وتقسّمتها ، في بعض الأحيان ، أهواء فردية ونزوات شخصية لم تمكن للفكر أن يتقصى بحرية ، ففرضت على الشعوب شعارات وخططاً فيها الكثير من الغرابة والغربة .

ديوان العرب

والشعر ديوان العرب ، هكذا كان الناس ، وهكذا هم اليوم ، وأحسب أنهم سيظلون على هذا . والشعر في المغرب العربي يدور حول أمرين : أولهما في الثورة والرغبة في الحرية والتغني بالاستقلال . وأما الثاني فهو قضية عرفها المشرق من قبل ، وعرفتها آداب الأمم الأخرى ، وهي قضية القديم والجديد أو المحافظة والتجديد . ولذلك فبينما نجد الشعراء ينشدون قصائدهم دفاعاً عن الوطن وتمجيداً للثورة والاستقلال ، نجدهم يقومون بمعارك جانبية مخاصمين بعضهم بعضاً ، متهمين بعضهم بعضاً بالجمود أو بالجحود . فالشاعر أو الأديب المحافظ يرى في الصورة الجديدة ، التي بعدت عن عمود الشعر ، خرقاً لحركة التراث القديم المجيد ، كما يرى الشاعر المحدث في القصيدة المحافظة على قوانين الشعر ، حتى ولو كانت القصيدة سائغة ، ردّة فكرية عاطفية لا يغتفرها التقدم الحديث والتطور المعاصر .

والشعر في المغرب وفي الجزائر ألصق بالصيغة القديمة وأبعد عن أساليب التجديد

العنيفة منه في تونس . ولعلّ المغرب والجزائر كانا أعلق بذلك بسبب حركات الإحياء التي قامت في القطر الأول ، والخشية على النفس التي أثرت في أهل القطر الثاني .

محاولات التجديد

على أننا نتلمس هنا وهناك محاولات للتجديد . فهناك تجديد من حيث المحتوى أي المعنى ، ولعلّ أبو القاسم الشابي ومحمد العيد وأحمد رفيق المهدوي في طليعة هؤلاء الذين غنوا على أوتار الماضي أنغاماً جديدة وألحاناً حديثة ، وظهر من محاولاتهم أن تلك الأوتار القديمة قادرة على تقبل الألحان الجديدة . أما من حيث تجديد المبنى ، أي التلاعب بالأوزان وتبديل القوافي أو حتى التهرب من التفاعيل ، فعندنا محسن بن حميدة ومصطفى الحبيب بحري والشاذلي زوكار ومحمد الغربي صمادح ومصطفى بن زكري . على أن التجربة الشعرية ، عند هذا النفر ، لا تزال ، كما يقول محدثو نعمة الشعر من المشارقة ، فجة ينقصها العمق والاتساع . وقد يكون في بعض هذا الذي يقولونه صحة ، ولكن عندما نفتش يمنة ويسرة في شعر المحدثين في المشرق نستطيع أن ننكر عليهم ما أنكروه على أندادهم هناك . ذلك بأن الشعر الحديث كله لا يعدو أن يكون تجربة من حق أصحابها أن يقوموا بها .

والمقالة تعبر عن العمل الذي انصرف إليه الكثيرون ، لكنها لم تتخذ بعد شكل العلم الفني ، بحيث تنقد أو تقيم كذلك . ومن هنا كانت المقالة السياسية أقوى وأنفذ من غيرها ، لأنها عولجت مدة أطول ، وعبرت عن مجالات أوسع وألصق بالناس . وثمة فئة من كتاب المغرب العربي حذقوا كتابة المقال السياسي نذكر منهم على سبيل المثال : علال الفاسي والشيخ الإبراهيمي البشير وأحمد توفيق المدني . وبين كتاب المقالات من ينتقلون من نوع إلى نوع آخر فيجيدون في الاثنين . فأحمد توفيق المدني كان يجيد كتابة المقال التاريخي ، كما يجيد كتابة المقال السياسي . ومنهم من لا يلتفت إلى المقال السياسي ، فيقصر همه على ناحية أخرى . فمحجوب بن ميلاد يكتب المقالة العلمية الجيدة ، وكان المرحوم محمد فريد غازي يعنى بالمقالة

التاريخية ، وعبد الله كنون يكتب مقالاته الأدبية محتفلاً . وليس المقصود أن نعد الكتاب كلهم ، ولكن قدمنا نماذج فقط .

ولا تزال القصة والأقصوصة في أول السلم في ديار المغرب العربي ، ولم يبلغ كتابهما هناك ما بلغه كتابهما هنا عداً أو كماً أو كيفاً . ومع ذلك فنحن بعد على مفترق الطرق . ولمحمود المسعدي قصة كتبت قبل سنوات اسمها السد ، هي واحدة من هذه القصص الرمزية القوية ، التي تعبر عن شخصية موغلة في التعمق ، مالكة لناصية اللغة ، مغرمة بتقصي خلجات النفس البشرية ، قادرة على رسم الصورة القلمية الجيدة ، ماهرة في التلاعب بالأسلوب ليتفق مع الفكرة ، فيغمض أما غمضت ، ويتضح حينما تتضح . وأمامنا ثلاث قصص أخرى ، نذكرها على سبيل المثال وهي : برق الليل للبشير خريف ، ووزير غرناطة للهادي أبو طالب ، وغومة بطل الصحراء لعلي مصطفى المصراتي . وهذه قصص تنتزع موضوعها من تاريخ البلاد نفسها ، وفيها تشوق إلى التعرف إلى هذا التاريخ وتشويق للتمثل بالذين صنعوه .

والأقصوصة آخذة في احتلال المكان اللائق بها على ما نجد فيما تنشره مجلة الفكر التونسية ، وفي المجموعة التي ألحقها الصادق عفيفي بدراسته عن تطور القصة القصيرة في الأدب المغربي ، وفي أقاصيص أحمد رضا حوحو في مجموعته المسماة نماذج بشرية .

أدباء جزائريون بالفرنسية

لا يمكن للباحث في تطور الأدب الحديث في المغرب العربي أن يتجاوز عن النتاج الأدبي باللغة الفرنسية . فقد ظهر في الفترة المتأخرة عدد من الأدباء وخصوصاً في الجزائر ، كتبوا باللغة الفرنسية ، وقبلتهم المحافل الأدبية الفرنسية لإجادتهم التعبير وتفوقهم في عرض الموضوع ، ورحب بهم النقاد ، ونالوا جوائز أدبية متعددة . وهذا ولا شك أثر من آثار نشر اللغة الفرنسية في تلك البلاد ثلاثة أجيال كاملة .

ولسنا نريد أن نفصل دور هؤلاء الكتاب ، فذلك أمر لا تتسع له هذه العجالة ، لكن لا بدّ لنا من الإشارة إلى بعض آثارهم ، والإلماع إلى ما تحتويه من فكر أو صور أو

معالجات أو دراسات منتزعة من صميم الحياة التي عاشوها ، أو معبرة عن مثل إنسانية وقيم رفيعة .

فإدريس الشرايبي أحزنه ما كان عليه الجزائريون الذين هجروا بلادهم إلى فرنسا . فقد أغروا بكل وسائل الإغراء ، حتى إذا وصلوا وجدوا العمل يدوياً والأجر محدوداً ومكان العيش مزعجاً قذراً . عاشوا جماعات يخشى الواحد منهم أن يسرق متاعه القليل أو أن يدوسه أحد الجيران إذا جاء المكان للنوم والمكان في ظلام . أكلوا القليل ليوفروا بعض الشيء للأهل الذين خلفوا وراءهم . هذه الأمور كلها ، وما يرافقها من مرارة وألم وحرقة وتشوق وحقد ومرض وفترات من الابتسامة أو حتى السرور ، عالجها إدريس الشرايبي في قصته «التيوس» ، وقد عاش الكثير منها ولذلك فهو يكتب عن تجربة واختبار .

محمد ديب

ويعتبر محمد ديب في طليعة الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية . وأذيع مؤلفاته صيتاً ثلاثية البيت الكبير والحريق والنول (أو الغزالة كما يسميها أصدقاؤنا في المغرب العربي) . في هذه القصص الثلاث يعرض محمد ديب للحياة الجزائرية كما عرفها وخبرها . يصف بؤس الفقراء ، وقد كانوا أكثرية السكان في تلك البلاد ، ويصف آلامهم وشقاءهم . محمد ديب لا يترك صغيرة ولا كبيرة مما يجول بخاطر الفقير المحروم إلا ويسجلها . يتغلغل في نفوس هؤلاء الناس ويطل على أحاسيسهم فيصفها بواقعية صريحة لا تترك زيادة لمستزيد . ومن كتبه الصيف الإفريقي الذي تنبأ فيه بوقوع الثورة الجزائرية ، إذ إن القارئ لهذا الكتاب يشعر كأن المؤلف يصرح بأن قد بلغ السيل الزبى .

وعمد مولود فرعون إلى قصة عامر الفتى الجزائري الذي تزوج فتاة فرنسية النشأة وإن كان أبوها جزائرياً (أمها كانت فرنسية) ثم حملها لتعيش في بلده بين نساء قريته . وهذه القصة اسمها الأرض والدماء . وله قصة أخرى هي ابن الفقير . مولود فرعون رمى إلى دراسة اجتماعية لفئة من الشعب الجزائري ، وأراد من كتابته إيقاظ

الوعي ، على الأقل عند الذين يقرأون كتبه ، آملاً في أن يحس الناس بوجوب القيام بعمل حاسم .

كاتب ياسين

وثمة كاتب رمزي وضع الجثة المطوقة ونجمة وهو كاتب ياسين . والجثة المطوقة بأوزار حملتها هي الجزائر . أما نجمة فأنت تقرأها وتحاول أن تفهم ما يريد أن يقوله المؤلف ، فتلتوي بك الدروب ، ويتعذر عليك الفهم حتى لتكاد تحس بالدوار ، ثم يطل عليك النور ، فتنكشف الغمة عن عينيك ، وترى السبيل واضحة . إن نجمة هي الجزائر ، بتعقيد نفسيتها ومشاكلها التي خلفتها السنون الطوال في شخصية مزدوجة أو من شخصيتين : واحدة أصيلة من حيث عناصرها ، والثانية مجلوبة مستوردة . وكأن كاتب ياسين رمى من وراء ذلك كله أن يعبر عن حبه لوطنه ، هذا الحب الذي أراد أن يكنه كل مواطن جزائري لبلاده . فتمثلت له بلاده ، أو أرادها أن تتمثل له ، بشراً سوياً اسمه نجمة .

والتل المنسي ونوم الرجل العادل من وضع مولود معمري قصتان ترميان إلى تحليل الشخصية الجزائرية لتوضيحها إلى غير أبناء البلاد بشكل خاص . الأصول التي تقوم عليها ، العناصر التي تكونها ، ارتباطها بالماضي الإسلامي العربي ، وحتى ما قبل ذلك ، وجذورها المتصلة بتربة البلاد واستقلال هذه الشخصية عن العناصر الطارئة عليها وامتناعها عن الاندماج بها ، ولو أنها لا تمانع في الإفادة من اختبارات الغير وتجاربه . وأخيراً فإن مولود معمري يلمح إلى القلق الذي يشعر به الجزائري .

رصيف الزهور

لكن القلق هذا يظهر بشكل أوضح في قصة رصيف الزهور التي وضعها مالك حداد . إن أبطال هذه القصة -الجزائريون منهم- تتمزقهم نزعات مختلفة وتتقاسمهم أهواء متباينة تأتت بسبب تعرضهم -جهلة ومتعلمون- إلى تيارات متناقضة فيها

القديم المتشرد في المحافظة أو حتى المتزمت ، وفيها الحديث المغرق في التجدد . والشاب والشابة يحار في الاتجاه الذي يجب أن يلحق به . وتأتي الثورة لتزيد قلقهم قلقاً واضطرابهم اضطراباً . ومالك حداد تعنو له اللغة فيعبر عن كل هذا بيسر وبساطة . إلى هذا فمالك شاعر له غير ديوان مطبوع .

قبيل قيام الثورة الجزائرية الكبرى نشر هنري كريا مسرحية الزلزال . وهي قصة مدينة من الأصنام كانت قائمة بحيث لا يشك أحد في أنها ستظل كذلك . ولكن زلزالاً يثور بها فيدكها دكاً جاعلاً عاليها سافلها . فما هي مدينة الأصنام هذه؟ يرى الكثيرون أن هذه المدينة هي رمز للحكم الفرنسي في الجزائر ، وأن الزلزال الذي يدمرها هو ما كانت تعتمل به نفوس الجزائريين من حنق على أولئك الذين استبدوا بهم . فلئذا ، كانت قصة الصيف الإفريقي (لمحمد ديب) تنبؤ بوقوع الثورة ، فإن الزلزال شعور بأن الثورة آتية ، وإحساس بما سيترتب على مجيئها من أثر في هدم الكيان السياسي .

آسيا جبار وصوت المرأة

ونود أخيراً أن نشير ، بالنسبة إلى أهل القلم في الجزائر ، إلى آسيا جبار صاحبة قصة العالم الجديد التي صورت فيها دخول المرأة عالم العمل الجدي إلى جانب الرجل .

إلى جانب كتاب القصة والشعراء أنتجت الجزائر كتاباً باللغة الفرنسية عالجوا قضايا الفلسفة وبحثوا شؤون الاجتماع . ومن الفريق الأول مالك بن نبي صاحب كتاب مستقبل الإسلام ، الذي نعتقد أنه من خير ما وضع في سبيل توضيح الدور الذي يجب أن يقوم به المسلمون لفهم الإسلام .

ولم تقتصر الكتابة بالفرنسية على أهل الجزائر ، ففي تونس نجد البرمي وعبد المجيد الثلاثلي ، كما نجد في المغرب محمد الحبابي ، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الذي كتب بالفرنسية ، من ذلك ديوان بؤس وضياء الذي وضعه بالفرنسية ونقل إلى العربية .

ومن حسن حظ القارئ العربي أن الكتب التي وضعت باللغة الفرنسية أخذت تجد طريقها إليه في ترجمات جميلة صحيحة .

ها نحن قد عرضنا بقدر ما يسمح به المجال ، الحركة الأدبية والفكرية المعاصرة في المغرب العربي ، ونود الآن أن نخلص إلى تركيز الكلام على بعض سمات هذه الحركة ، وإن كنا نشعر أننا قد نكرر بعض ما قلناه قبلاً .

وأول ما يمكن أن نشير إليه هو أن الأدب المعاصر ، في تلك الرقعة من العالم العربي ، فيه الكثير من الواقعية ، وخصوصاً الفرنسي (لغة) منه . إن هؤلاء الكتاب تناولوا الحياة كما هي فوصفوها سابرين أغوارها . مشرفين على تفاصيلها ، غائصين على دقائقها ، مشاركين أهلها سراءهم وضراءهم ، مبيّنين عللهم ، مفصّلين مشاكلهم . وإلى جانب واقعيتهم فكثير منهم آمنوا بالأدب الملتزم ، لذلك حاولوا إصلاح الفساد ، وجربوا توجيه القوم ، ونذروا أنفسهم للخدمة العامة .

والسمة الثانية التي نلحظها في كتابات أهل المغرب العربي ، وخصوصاً عند الذين يكتبون بالعربية ، هي دعوتهم إلى المثالية والحفاظ على الأخلاق الإسلامية الفاضلة والاهتمام بالتراث العربي الإسلامي وإحياء هذا التراث على ما يبدو من الكتب التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة .

وثمة أمر ثالث يتخلل الحياة الأدبية في تلك الديار وهو الازدواجية . إن الازدواجية قائمة هناك في الشخصية والتعبير . هذه الازدواجية سببها وجود فئتين من السكان -خصوصاً في الجزائر والمغرب- هما عرب وبربر وقيام حضارة غربية إلى جانب ثقافة إسلامية عربية كانت ، إلى قبل نصف قرن أو يزيد ، فيها حفاظ أكثر من اللازم ، وإن كنّا لا نستطيع أن ننعته بالرجعية . وهذه الازدواجية توجد ، في بعض الأحيان ، في الأفراد لا في المجتمعات فحسب ، وإلى جانب ذلك ثمة ازدواجية في التعبير ، أي استعمال اللغة العربية واللغة الفرنسية لغة للكتابة والبحث والنقاش . وثمة من يجيد اللغتين ، لكن الغالب أن يلجأ الواحد من الكتاب إلى لغة دون الأخرى .

إلا أن هذه الازدواجية مرحلة عابرة ، وإن كانت ستظل وقتاً أطول مما يجب . فليس من السهل القضاء على هذا الذي بني في أجيال بين عشية وضحاها .

وآخر ما نود أن نذكر أن المرأة كانت بعيدة عن ميادين الأدب إلى نحو ثلاثين سنة . وقد تحسن الوضع كثيراً خلال العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من القرن الحالي . لكن منذ الحرب العالمية الثانية ومنذ أن اشتركت المرأة في الثورات ، خرجت إلى سوق الأدب ، كما خرجت إلى سوق العمل في النواحي ، الأخرى ، بزخم قوي .

ملحق (2)

الحياة الفكرية في الجزائر كما عرفتها

في موضوع كالذي ننوي معالجته لا سبيل إلى الدخول في تفاصيل ما مر بالجزائر خلال الفترة التي سيطرت فيها فرنسا على مقدرات القطر الشقيق . ولكن لا بدّ من الإشارة إلى الناحية الثقافية من سياسة فرنسا في تلك الديار ، وذلك لارتباط هذا الأمر بالموضوع الحالي .

وقد سمحت لنفسي أن أنقل ، عن مقال لي نشر في مجلة «الأبحاث» (الجامعة الأميركية في بيروت) في السنة الخامسة العدد الأول (آذار/ مارس 1952) ، ما ورد فيه عن التعليم والثقافة .

(1) التعليم:

وما دمنا بصدد المجتمع الجزائري فلنتحدث عن التعليم ، وفي الجزائر منه نوعان : الرسمي والحر . ولنتناول الرسمي أولاً . وتاريخه يعود إلى بُعيد الاحتلال بسنوات ، إذ قرّرت الحكومة فتح مدارس في الجزائر وقسنطينة ووهران وعنابة والبليدة ومستغانم (سنة 1850) . لكن هذا القرار ظلّ يعرج العمل فيه حتى إن القطر لم يكن فيه في سنة 1870 سوى 36 مدرسة فيها 000,13 طالب . لكن الحرب البروسية-الفرنسية والثورة التي اندلع لهيبها آنذاك في الجزائر أخرت البرنامج ، وأدت إلى إقفال بعض المدارس . بحيث إنه في عام 1880 لم يكن في القطر سوى 16 مدرسة فيها 172,3 تلميذ . وقد وضعت سياسة التعليم في عام 1883 ، ولنضع الأرقام التالية أمام القارئ :

السنة	عدد المدارس	الطلاب الجزائريون
1891	124	11,246
1898	199	23,823

وفي عام 1898 كان عدد الأطفال في سن التعليم 680,000 في القطر كله ، كما أن التعليم كان مقصوراً على البنين . والأرقام التالية ، المأخوذة عن الإحصاءات الرسمية التي نشرتها الولاية العامة مؤخراً ، توضح أمر التعليم في الخمسين سنة الأخيرة :

السنة	الطلاب						المجموع
	الجزائريون		الفرنسيون		الأجانب		
	البنون	البنات	البنون	البنات	البنون	البنات	
1901-1900	23,196	1,779	37,666	37,442	20,506	19,962	140,551
1911-1910	37,251	3,527	46,450	45,841	23,089	21,599	177,757
1921-1920	38,773	4,131	44,223	42,806	12,513	12,781	155,227
1931-1930	59,328	8,410	51,376	53,326	9,582	9,731	191,753
1941-1940	94,179	22,976	70,122	67,165	5,834	5,924	266,190
1950	159,469	53,103	69,036	69,346	1,861	1,741	354,556

ونود قبل تحليل هذه الأرقام ، أن ندون الملاحظات التالية :

هذه الأرقام تشمل التعليم الابتدائي وما يسبقه من بساتين الأطفال ودور الحضانة .

نقص الأرقام في عامي 1920 – 1921 يرجع إلى النكسة التي أصابت التعليم في الجزائر بعيد الحرب العالمية الأولى .

هذه الأرقام يدخل في عدادها طلاب يتلقون علومهم في مدارس حرة ، عربية وأوروبية .

والآن نتناول الأرقام نفسها بالتحليل مقتصرين على آخر سنة .

إن الطلاب الجزائريين ، بنين وبنات ، يبلغ عددهم 572,212 والفرنسيين 382,138 ومعنى هذا أن كل ثلاثة طلاب جزائريين في المدارس يقابلهم طالبان فرنسيان . مع أن

عدد السكان هو بنسبة 8 إلى 1.

إن نسبة البنات الجزائريات في المدارس إلى البنيين هي 1 إلى 3. أما في حالة الفرنسيين هي 1 إلى 1.

قدر عدد البنين والبنات (من الجزائريين) في سن التعليم الابتدائي لسنة 1950 بنحو مليون .

ومعنى هذا أن واحداً من كل خمسة يجدون مكاناً للتعليم . بينما الفرنسيون جميعهم يجدون في المدارس متسعاً لأولادهم .

يمكن أن يضاف إلى هذا كله أن المدارس نفسها ليست موزعة في أنحاء القطر الجزائري توزيعاً عادلاً . فهي تكثر حيث يزداد الفرنسيون ، وتقل حيث يتغلب الجزائريون ، فضلاً عن ذلك فهي في بلاد زواوة أكثر منها في جهات أخرى .

فإذا انتقلنا من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي والمهني والعالي ، وجدنا أن للحكومة 44 مدرسة ثانوية (ليسيه) كان فيها في عام 1949– 1950 المدرسي :

طالب	طالبة	المجموع	
من الجزائريين	2,433	301	2,743
من الفرنسيين وغيرهم	12,467	8,191	20,658
المجموع	14,900	8,492	23,392

ويتضح من هذا (1) أن الجزائريين كان لهم نحو 9٪ من مجموع الطلاب في المدارس الثانوية . (2) أن نسبة البنين من الجزائريين إلى مجموع البنين هي نحو السبع (3) وأن نسبة البنات الجزائريات إلى مجموع البنات هي 1 إلى 28 .

ويجب أن نضيف إلى التعليم الثانوي 266 طالباً جزائرياً موجودين في ثلاث مدارس جزائرية خاصة بالطلاب المسلمين موجودة في مدينة الجزائر وقسنطينة ووهران .

وقد كان في المدارس المهنية 145,8 تلميذاً منهم 816,1 جزائريون أي بنسبة 1 إلى 5,4 .

أما جامعة الجزائر فقد أمّها في عام 1948 - 1949 من الطلاب 639,4 منهم 282 جزائرياً (251 طالباً و31 طالبة)، أي أن الجزائريين حصلوا على 1 من 5,16 من الأماكن في الجامعة .

على أن الغبن اللاحق بالجزائريين لا يقتصر على هذه المسائل العددية فقط . لكنه يشمل البرامج المبنية على سياسة خاصة يمكن إجمال خطوطها الرئيسية في الأمور التالية :

المدارس تسير على النهج الفرنسي ، ومعنى هذا أن اللغة العربية إما أن يحرم منها الطلاب بالمرة ، وإذا أعطيت لهم فهي عربية عامية في الثانويات . «وماذا يهمّهم [القائمين على شؤون الجزائر] من لغة لم يعترف بها كلغة رسمية بجنب اللغة الفرنسية ، ولم يخصص لها معها إلا نحو ثلاث ساعات في الأسبوع ، تزاحمها اللغة العامية التي اشتقت منها ثم اعتبرت لغة مستقلة عنها . . . وقد عهد بالتأليف في اللغتين إلى طائفة من الأساتذة فألفوا في اللغة العامية كتباً مختلفة ملئت بالحكايات المكذوبة تقرأ للتسلية . . . كما ألقوا في هذه اللغة الأخيرة [الفصحى] كتباً أخرى على طريقتهم المعروفة من مزج الشرح والبيان باللغة الفرنسية ، فابتكروا لكل منهما أساليب خاصة ، وأحدثوا لهما نحواً خاصاً لا يعتمد في التطبيق إلا على جمل ركبت تركيباً ليس من العربية في شيء» . وهذا الذي ذكر لا ينطبق على المدارس الرسمية الإسلامية الثلاث .

ليس في هذه المدارس دروس تتناول التاريخ العربي والإسلام . بينما يحمل الطلاب على تعلم التاريخ الفرنسي بدقة وتفصيل . ومثل ذلك يقال عن الجغرافية .

الأصل في هذه المدارس عامة هو أنها للافرنسيين ، فإذا ظل فيها متسع دخلها الجزائريون .

قلما يشجع الجزائريون على دخول الجامعة مع أنه ينفق عليها من أموال الحكومة ، وهذا هو توزيع الطلاب الجزائريين على فروع الجامعة المختلفة :

	القانون	العلوم	الآداب	الطب	الصيدلة	المجموع
طلاب	102	33	57	43	16	251
طالبات	-	1	5	21	4	31
المجموع	102	34	62	64	20	282

- توجد في الجزائر مدارس حرة ، ويعنينا منها المدارس العربية . وهي على نوعين الواحد يتلقى إعانات مالية من الحكومة ، وفي هذه الحالة يطلب من هذه المدارس أن تخصص ثلث ساعات التدريس فيها للغة الفرنسية . أما النوع الثاني فهو الحر الذي يعتمد على نفسه وتأييد القوم له في حياته وعمله ، وهذا هو الذي ينصرف لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية . وإذا استثنينا بضع مدارس (كتاتيب) هنا وهناك ، فإن المدارس الحرية بالاهتمام من هذا النوع هي مدارس «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر» .

سياسة فرنسا الثقافية

جاء احتلال فرنسا للجزائر مبكراً في القرن التاسع عشر ، قبل أن تلفح البلاد نيران النهضة الحديثة التي أتيح لها أن تصيب ديار الشام ومصر وتونس والمغرب الأقصى حتى قبل أن تحتل الدول الأوروبية هذه البلاد . وجاء الاحتلال للجزائر بعد فترة جهل وخمول شملت العالم العربي من شرقه إلى غربه . وجاء الاحتلال قوياً ، فأعمل السيف ، ولجأ إلى الضغط والخنق . فلما أفاقت الأمة هناك على نفسها وجدت القيود تحيط بها من كل جانب ، والسلاسل ترهقها من كل صوب . وفضلاً عن ذلك فقد كان الاحتلال في شكله وروحه انتقاماً من الجزائريين لمضايقتهم للدول الأوروبية في غربي البحر المتوسط ومن ثم كان رد الفعل الجزائري أيضاً عنيفاً قوياً فيه روح الانتقام . ولذلك تأصلت في نفوس الفريقين روح الكراهية التي تستطيع أن تلمسها في المدن الجزائرية في كل ناحية من نواحي الحياة في الترام وفي المقهى وفي الشارع ، دع عنك المحافل السياسية والمعترك الاقتصادي .

جاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب تواكب الاستعمار وتجاريه، ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية. فكان من ذلك نفور من كل ما هو غربي - حتى ولو جاء معه الخير - وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس كثيراً. ولما آذن الوقت بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية، ومحافظة على كل شيء في الإسلام وإحيائه. فإذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والإسلام، فمقاومتها تقضي بالتشدد في الحفاظ على العروبة والإسلام. ولعل هذا ما يوضح المحافظة القوية التي تتسم بها الحركة في الجزائر. ولعلّ خير ما يوضح هذه المسألة، عبارة قالها لنا رئيس جمعية العلماء المفضال الشيخ الإبراهيمي وهي: «لقد نجحت الجمعية في أمرين: توجيه الأمة نحو العروبة ونحو الشرق». والتوجيه نحو الشرق قصد به الشيخ استمداد نور الإصلاح الديني والتوجيه الإسلامي من الحركة السلفية التي بدأت من قبل في القاهرة.

ونشرت المدارس الفرنسية والمعاهد الأخرى العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية، وحرمت العرب من أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم، على نحو ما أتيح لنا في المشرق العربي. فنشأ الناس على أنه ثمة عالمان منفصلان: الواحد عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية، والثاني عالم الفكر الإسلامي العربي، وهذا تقتصر العربية عليه. وقد التقينا بجماعة من الجزائريين تخرجوا في الجامعة، يقومون بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحدثوا باللغة العربية في خارج حدود الأمور اليومية العادية، من مأكل ومشرب. وهذا الفصل الفكري زاد في النقمة على الغرب وفكره. وقد اتضح لنا أن هذا الفصل الفكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم الثقافتين العربية والفرنسية، وحتى في الذين يعلمون في تلك المعاهد. فقد وقر في نفوسهم أن الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان، وأنهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما.

يضاف إلى هذا أن السياسة الفرنسية تصر على اعتبار الجزائريين مكونين من جماعتين مختلفتين أصلاً وتاريخاً وعاطفة وفكراً: الواحدة عربية والثانية بربرية. ويقول الباحثون الفرنسيون بأن الفروق كبيرة بين الجماعتين لأن البربر لم يتعربوا وإن

إسلامهم كان سطحياً ، ولذلك عمل الحكام الفرنسيون على تدوين القانون الخاص بالبربر باللغة الفرنسية ، واعتبروه أصلاً لحياتهم . وهذا الذي دون هو مجموعة من العرف والعادة بعضه حري بأن يتلف ، لولا أن السياسة أرادت استغلاله . وقد قامت محطة الإذاعة الجزائرية مؤخراً بوضع برنامج خاص باللغة «القبايلية» (لغة البربر) فيه أخبار وأحاديث أدبية وعلمية وسياسية . وهذه التفرقة لقيت بعض النجاح في أماكن محدودة ، وكان من نتيجتها زيادة البلبلة في صفوف المفكرين الجزائريين الذين كان يكفيهم أن يكون ثمة عربية وفرنسية ، فيقاومون الثانية بإحياء الأولى . أما الآن فعليهم أن يبعثوا الأولى في نفوس إخوانهم ، ومن ثم يتم لهم مقاومة الثانية .

والذي يتضح من هذا أن سياسة فرنسا كانت ترمي إلى القضاء على الشخصية الجزائرية ، وذلك في سبيل فَرْنَسة البلاد وشعبها . ومن هنا فقد عمدت فرنسا إلى إهمال تدريس التاريخ الجزائري ، وبخاصة منذ الفتح العربي ، واللغة العربية ، وهما عنصران أساسيان في تنمية شخصية أي شعب أو قطر . كما أن الكتَّاب الفرنسيين روجوا لأمر آخر ، وهو قولهم بأن الجزائر ، شأنها في ذلك شأن تونس والمغرب ، مرتبطة بأوروبا ارتباطاً عضوياً -تاريخياً وحضارياً واقتصادياً وثقافياً- وإن هذا الارتباط هو الأمر المهم في فهم تاريخ تلك الأقطار . ومعنى هذا عزل الجزائر ، وبقية أقطار المغرب العربي ، عن الشرق العربي والعالم الإسلامي .

ومن هنا كان تمسك الجزائريين «بشخصيتهم» من أبرز نواحي المقاومة والجهاد والنضال ضد الحكم الفرنسي .

ملحق (3)

سكة حديد الحجاز

سَيَّرت إدارة سكك الحديد في المملكة الأردنية الهاشمية ، بالتعاون مع إدارة سكك الحديد في الجمهورية العربية السورية قطاراً بين دمشق وعمان في شهر تموز (يوليو) 1955. فأثار هذا الأمر أشواقاً عارمة في صدور الكثيرين نحو إعادة السكّة إلى عملها .

ورافق ذلك كتابات ، عن سكة حديد الحجاز ، كان بعضها فيه خطأ من حيث الخلط بين هذه السكة وسواها من السكك الحديدية في بلاد الشام . ونحن تأمل أن نوضح للقرّاء «قصة» سكة حديد الحجاز الصحيحة ، فلنا في هذه المسألة مشاركات سابقة .

الحديث عن هذه السكة ينقلنا إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) . إذ أصبحت الإمبراطورية العثمانية في أيامه فريسة للأطماع الأجنبية على نحو كبير ، فقد كانت كل من تلك الدول تحاول أن تنتزع جزءاً من الإمبراطورية لتأمين مصالحها . فضلاً عن ذلك فإن نزعات قومية ، تركية وعربية وأرمنية ، كانت تتقوى تدريجاً في أنحاء الدولة محاولة إثبات كيانها وتحقيق آمالها . وكان عبد الحميد قد اتبع سياسة إسلامية لتقوية مركزه . إذ كان يدعو زعماء المسلمين إلى الإقامة حوله ، ظاهراً للاسترشاد بآرائهم ، وباطناً لاحتوائهم والتفاخر بذلك أمام مسلمي العالم . ومن هؤلاء جمال الدين الأفغاني .

كانت الحجاز واليمن وما إليهما مصدر إزعاج للسلطان ، بسبب ما كان يقوم فيهما من قتال بين القبائل وعصيان على الدولة . وكان إرسال الجنود من دمشق إلى الحجاز يحتاج إلى ثلاثة أسابيع على أقل تقدير وهذا لا يتيح لهم القيام بردع المقاتلين في الوقت المناسب . لذلك فكر عبد الحميد ، مع مستشاريه ، بأن بناء سكة حديدية تصل دمشق بالحجاز (واليمن ، إذ كانت هذه في المخطط الأصلي) يخدم أمن السلطنة في تلك الأصقاع النائية . أراد أن يخفي هذه الناحية السياسية فأعلن أن القصد من

المشروع أساساً هو تيسير الحج على المسلمين . وأعلن عنه سنة 1900 .

كانت بلاد الشام قد عرفت سكّتي حديد بُنيتا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر : الواحدة سكّة حديد بيروت - دمشق (وتفرعاتها فيما بعد) والثانية سكّة حديد يافا - القدس . وجدير بالذكر أنه في أواخر ذلك القرن ، وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين كانت حمّى بناء السكك الحديدية قد وصلت إلى المنطقة الشرقية على شكل واسع في مصر وتركية . هذا فضلاً عن المشاريع التي كانت موضع درس بحيث رسمت لها الخرط ، مثل خط حديدي بيروت - بغداد . لكن جميع هذه المشاريع كانت كلها أجنبية في رأس المال والإدارة والبناء ، وقد كان المقصود منها الاستثمار . لكن عبد الحميد أراد أن يكون مشروع سكة حديد الحجاز أمراً فريداً .

***

أعلن عبد الحميد مشروعه في مطلع 1900 ، وأعلنه مشروعاً إسلامياً يموله المسلمون حكومات وأفراداً ، وتصبح السكة بعد ذلك «وقفاً إسلامياً» . وفي ربيع تلك السنة نشرت «إرادة» (سلطانية) بوجوب البدء بالعمل في أيلول (سبتمبر) 1901 . وفي أيلول (سبتمبر) 1908 وصل أول قطار من دمشق إلى المدينة . وطول المسافة 1350 كيلومتراً وكان القطار يقطعها في فترة ثلاثة إلى أربعة أيام (وأطول مدة قضاها قطار لقطع هذه المسافة كانت أسبوعاً) .

لُبيت دعوة السلطان بحماسة منقطعة النظير وانهالت التبرعات من أنحاء العالم الإسلامي - تبرع الأفراد وتبرعت الهيئات والسلطات . وقد رأيت عند سعادة محمد الغربي (سفير المغرب في الأردن سابقا) إيصالاً من الهيئة المالية الرئيسية لإدارة المشروع باسم سلطان المغرب وفيه شكر على تبرعه . وكان الراجات المسلمون في الهند كريمين في تبرعاتهم وفي مقدمتهم نظام حيدر أباد . وفي زيارة لتلك المنطقة سنة 1971 رأيت في متحف في المدينة صورة للنظام إلى جانب قاطرة وعربات لسكة الحجاز وصورة وصل يذكر التبرع السخي الذي تقدم به للمشروع .

فضلاً عن ذلك فقد لجأ السلطان عبد الحميد إلى توزيع الألقاب والأوسمة على

المتبرعين من أبناء الإمبراطورية . وكان لكل وسام ثمنه . فالبك (وكانت هناك ثلاث درجات للبكوية) له مبلغ يدفع للحصول عليه ومثل ذلك الباشا . وقد كان إلى وقت قريب باشاوات في بلاد الشام تعود أوسمتهم إلى ذلك الوقت (وبهذه المناسبة هذا الوسام لم يكن يُوَرَّث) . وطلب من موظفي الدولة في جميع أنحائها أن يتبرعوا بمعاش شهر للمشروع (وإن لم تخنِّي الذاكرة حدث هذا لمدة سنتين فحسب) . أعرف هذا من والدي الذي كان يعمل في شركة هندسية ألمانية لتخطيط المشروع وبنائه ، فلم يكن في الواقع موظفاً عند الدولة ، لكنّه اعتبر كذلك .

كانت الإدارة الفنية تقدمها شركة ألمانية ، لكن كان من المعروف أن المهندسين الألمان سيتخلون عن العمل عندما تصل الأشغال إلى الحجاز ؛ لذلك فقد اختير عدد من الشبان العرب والأتراك للتخصص في موضوع إنشاء سكك الحديد في فرنسة وألمانية ليتولوا الأمر عند الحاجة . وكان بين أولئك الشباب نظيف (بك) الخالدي (المقدسي الأصل) ، الذي لا يزال اسمه يطلق على جبل النظيف بعمان .

كان نظيف بك لما بدأ العمل يجمع عمالاً من منطقة عمان وسواها بالأردن . وقد أقيمت لهؤلاء مخيمات مرتبة للإقامة فيها إلى أن يحين موعد توليهم الأعمال ، خاصة وأنهم كانوا بحاجة إلى تدريب . فسمي الجبل جبل نظيف بك ، ثم تبدل الاسم إلى الجبل النظيف . وظلَّ على ذلك أثناء العمل في بناء السكة . لما زرت الجبل ، في إحدى زياراتي لعمّان ، كان لا يزال يُسمَّى الجبل النظيف ، مع أنه يومها لم يكن نظيفاً قط .

على أنه يجب الاعتراف بأن بناء سكة حديد الحجاز كان إنجازاً من الدرجة الأولى هندسياً : فالأرض التي مرّت بها السكة صعبة ، والجبال كثيرة ، الأمر الذي اقتضى أن يكون هناك أنفاق كثيرة . كانت جميع المواد الأساسية تستورد من الخارج ويجب أن تنقل مسافات شاسعة (مع بناء السكة فعلاً) ، والنفقات كبيرة . ومع ذلك فقد بنيت السكة وقد اعتبرت من الإنجازات الهندسية الرائعة في أوائل القرن العشرين . ومما أفادت منه المؤسسة أنَّ الجنودَ استُخدموا في البناء . وقد أخرج ج . لانداو أنه في سنة 1900-1901 استُخدم 2.600 جندي ، وارتفع العدد في السنة التالية إلى 5.650 ووصل 7.500 سنة 1907 . على أنه من الممكن أن عدداً من

الجنود ، خاصّة في السنوات المتأخّرة ، كان يقوم بالدفاع عن الخط والعمال لأبنائه . إذ إن هذا كان ضرورياً بسبب المقاومة التي لقيها المشروع من البدو ومحاولاتهم لوقفه .

وقد تمّ بناء الخط على النحو التالي (إلى المدينة ثم رابغ - فالخط لم يصل اليمن قط)

1- دمشق إلى درعا - تمّ بين سنتي 1900 و 1903

2- الوصول إلى عمان 1903

3- وصل الخط معان (في جنوب الأردن) 1904

4- 1906 وصل المدوّرة .

5- في سنة 1907 وصل مدائن صالح (الآن في المملكة العربية السعودية)

6- في 1908 تمّ الوصول إلى المدينة المنورة .

وانتقل أول قطار من دمشق إلى المدينة في أيلول (سبتمبر) 1908 .

وقد تمّ إنشاء خط فرعي بين درعا وحيفا (1903-1906) وذلك لتيسير نقل المواد الثقيلة اللازمة للبناء عن طريق حيفا . ذلك بأن المؤسّسات القنصلية الفرنسية في بيروت وسواها من الموانئ التي تقع في نطاق عملها كانت تعمل على تأخير وصول الحديد والأخشاب وسواهما ، لعرقلة بناء سكة حديدية لا حصّةَ فيها لفرنسة ولمّا تمّ بناء هذا الجزء من السكة أصبحت المواد تنقل عن طريق حيفا . وكانت أيضا أقرب .

كان التخطيط الأولي أن يتمّ إيصال الخط إلى عكا بحيث تعتبر محطة النهاية . لكن لأن هذه المدينة كانت لا تزال تحيط بها الأسوار القوية من أيام الجزار ، ومن ثم كانت تعتبر قلعة حصينة ومن ثم نقلت المحطة النهائية إلى حيفا وكان هذا بدء تقدم حيفا السريع يومها . (نقبت أسوار عكا لأول مرة سنة 1910 ، على ما يقول العكّيون .)

***

أفاد الحجّاج من السكة الجديدة بشكل كبير والأرقام التالية ، التي استخرجها ج . لانداو توضح هذا الأمر .

	السنة	المدنيون	العسكريون	المجموع
	1909-1908	168,448	77,661	246,109
	1910-1909	171,101	27,390	198-491
	1911-1910	182,662	47,941	230,603
	1912-1911	232,563	43,484	276,047
	1913-1912	213,071	147,586	360,657
المجموع لـ	1913-1908	967,845	344,062	1,311,907

لما قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي في الحجاز (1916) بُدِئ بتخريب أجزاء من سكة حديد الحجاز لمنع الإمدادات من الوصول إلى الحامية التركية في الحجاز، وحتى للحيلولة دونها والخروج إذا اقتضى الأمر ذلك . أما تخريب السكة تخريباً تاماً في تلك المناطق النائية فإنه تمّ على أيدي الناس العاديين بعد الحرب العالمية الأولى وهم الذين أخذوا الحديد والخشب وسواها لاستعمالهم إياها .

كان لسكة حديد الحجاز تمديدات في فلسطين تمّت أثناء الحرب العالمية الأولى (لعلّ البعض منها بُدِئ به حتى قبلها) وهي (1) تمديد من العفولة (في وسط مرج ابن عامر في شمال فلسطين، وهي محطة على التمديد الدرعاوي - الحيفاوي) إلى جنين والمسعودية ؛ (2) من المسعودية إلى نابلس ؛ (3) من المسعودية إلى طولكرم ثم إلى وادي الصّرار . وتمّ تمديد هذه الوصلة إلى بئر السبع في جنوب فلسطين كجزء من الإعداد للحملة على الترعة (قناة السويس) التي خُطِّطَ أيام تولي جمال باشا الحكم العسكري في بلاد الشام في أوائل الحرب العالمية الأولى، وقد ضمت إليه أيضاً قيادة الفيلق الرابع في المنطقة .

***

بعد زوال الإمبراطورية العثمانية كانت قضية سكة حديد الحجاز من القضايا التي طرحت على بساط البحث في اجتماعات مؤتمرات السلام الأصلية والجانبية . والذي تمّ الاتفاق عليه يومها هو أن تقوم الحكومات التي تقع أجزاء من السكة في بلادها بإدارتها على أنها وقف إسلامي، ولا يعتبر ملكاً للحكومة القائمة هناك . وهكذا

أدارت حكومة فلسطين الأجزاء الواقعة داخل الرقعة المعنية ، وأدارت إمارة شرقي الأردن الجزء الذي كان يمرُّ بها ، وكانت الإدارة الانتدابية الفرنسية تدير الجزء الممتد من دمشق حتى درعا . أمّا القسم الواقع جنوبي الأردن فقد أصبح غير صالح للاستعمال .

وحريٌّ بالذكر أنّه أُنشئ خط حديدي آخر في فلسطين منذ بدء احتلالها على أيدي الجيش البريطاني ، إذ كان هذا يقوم ببنائه من القنطرة (الشرقية) بمصر شمالاً حتى حيفا متلازماً مع احتلال البلاد . لكن هذا لا علاقة له بالسكّة الحجازية ، كما أنه ليس لأيّ خط حديدي آخر بُني في المنطقة قبل أو بعد السكّة الحجازية أيّة علاقة بها .

***

نودُّ أن نشير هنا إلى أن مشروع سكة حديد الحجاز لم يمر بدون صعوبات ومقاومة . وقد جاءت المقاومة والاعتراضات من الفئات التالية :

(1) القبائل البدوية التي كانت تقطن المناطق الصحراوية بين درعا والمدينة المنوَّرة ومكّة المكرّمة ، كانت تفيد من الحجاج وقافلتهم . إذ أصبح المألوف ، منذ الاحتلال العثماني لبلاد الشام ، أن يدفع «أمير الحاج» بـ«الصرة» لزعماء القبائل كي ييسروا أمر القافلة (والصرة إشارة إلى الكيس الذي توضع فيه الأموال التي توزع على زعماء القبائل .) وخشي هؤلاء الزعماء القبليون أن تنقطع «الصرة» .

(2) إن عدداً من المراكز على طريق الحاج كانت تفيد من تجهيز دواب النقل والمواد الغذائية وسواها ممّا يحتاجه الحجاج . إنّ هذا كان قائماً لمّا كانت السفرة تحتاج إلى أسابيع . أمّا القطار فسيقطع هذه المسافة في أيام ، ومن ثمّ فإنّ هذا يؤدّي إلى قطع أرزاق هؤلاء الناس ، الذين يقومون بذلك في المراكز البرية للحج .

(3) وكانت ثمة مقاومة (صامتة) وخلاف (مستور) بسبب ما كان يعنيه بناء سكة الحديد من نقل الجنود ، ومن ثم «ضبط» الأمور في الحجاز ؛ وهذا لا يتفق مع أوضاع الحكام هناك (وإن كان يوافق هوى خصومهم في الداخل) .

(4) وكان ثمّة موقف لبعض رجال الدين الذين قالوا إن أجر الحج يتفق مع الجهد

الذي يبذل في سبيل أدائه . وبناء السكّة الحديدية سيخفّف متاعب الحج ومن ثمّ فإنّ ذلك يقلّل الأجر والثواب .

لكن هذه الدعاية لها خصومها ودعاية أخرى مقابلها . فقد كان الواقع هو :

1- أن عدداً كبيراً من الحجاج أخذ ينتقل من موانئ تركية وسورية إلى جدة بحراً عن طريق قناة السويس (1859) ، وبذلك خسرت المدن السورية الداخلية مورداً كبيراً للرزق ، فبناء سكة الحديد سيعيد الكثيرين منهم إلى طريق الشام متى أصبحت أقصر وأربح وأرخص (كما هو الحال) . وهذا مفيد للبلد ، وقد كان لسكّة حديد الحجاز هذا الأثر .

2- أنّ عددَ الحجاج من المرجَّح أن يزداد ، بسبب سكّة الحديد ، وقد ازداد ، لكن الحرب غيّرت كل شيء .

هذان الأمران كانا مفيدين للتجار المقيمين . لكن البدو وتجار الداخل لم يقتنعوا بالأمر ، وقد حاول الأولون الاعتداء على القطار ، لكن ذلك لم يؤثر في سير القطارات ، فالحماية العسكرية كانت شديدة .

إن الذي أثّر في مستقبل السكّة الحديدية الحجازية هو الحرب العالمية الأولى والأحداث المرتبطة بها في المنطقة .

***

كان من حظي أن تنقلت في بلاد الشام على كل خطوط الحديد القديمة (أي قبل التي بنيت في سورية مؤخراً) . فنقلت طفلاً من دمشق إلى العفولة وأُعدت كذلك . وركبت القطار من دمشق إلى العفولة صبياً - سفرة أذكرها . أمّا بقية تفرعات السكّة الحديدية الحجازية في فلسطين والأردن فقد عرفتها جميعها (باستثناء تمديد بئر السبع الذي اقتلع بعد نهاية الحرب) . وآخر مرتين أخذت قطار «سكة حديد الحجاز» في الأردن وسورية كانتا سنة 1942 من عمان إلى معان (ذهاباً ونصف إياب) وسنة 1955 إذ سافرت مع أسرتي من دمشق إلى عمان .

علاقتي بسكّة حديد الحجاز شخصية . فوالدي كان يعمل في الإدارة العامة بدمشق بصفة رسّام هندسي (ولذلك فأنا ، وأنا الناصري الأصل ، مولود في دمشق)

وكثيراً ما شاهدت القطارات تصل دمشق من المدينة المنوّرة . وقد شاهدت في صغري موكب عودة الحجّاج بالقطار .

***

كانت دمشق التي عرفتها طفلاً تنتهي عند باب الله أو بوابة الله التي تقع في آخر الميدان التحتاني وهناك كان ينتهي خط الترام . ومحطة القدم حيث كانت تقوم منشآت سكّة حديد الحجاز على اختلاف أنواعها تبعد عن بوابة الله مسافة طويلة كنّا نحتاج إلى أكثر من ساعة لقطعها . وما أكثر ما اجتزتها لما بنت إدارة السكّة منازل (هي براكات خشبية مرتبة ومريحة) لجميع موظفيها الوطنيين والأجانب على السواء . كنت أيامها أجتاز هذه الرقعة الواسعة ، واتجاهها عرضاً لم يكن أقل من الاتجاه الأول .

في أيام توديع الحجاج كانت هذه الساحة الواسعة تمتلىء بالخيام المختلفة الحجم واللون والدكاكين المؤقتة . الأولى تقيم فيها العائلات التي جاءت لتوديع أفراد العائلة أو الأصدقاء الذين ينوون الحج إلى بيت الله الحرام . أمّا الحوانيت فقد كانت تبيع ما قد يكون الحاج قد نسي ابتياعه من قبل من مآكل يمكن أن تحمل أو ثياب غَفِل الحاج عنها . والذي أذكره خاصّة هو البَقسُماط . والبَقسُماط خبز جُفِّف على نار خفيفة مدة طويلة ، لذلك فإنه لا يتلف . لكن أكله يحتاج إلى نقعه بالماء مدة كي يصبح مضغه ممكناً . وكان الأصل في البَقسُماط أنه هُيِّء للجنود في الجيش العثماني ، ثم أُفيد منه في قضية «زوادة الحج» . وبهذه المناسبة فإنني بعد أن رأيت البقسماط مرات في فلسطين ، غاب عنّا بعد الحرب العالمية الأولى . لكن لمّا كنت في الجزائر سنة 1951 أردت أن آخذ معي إلى الفندق شيئاً من الخبز الذي قد احتاجه . والمخزن الوحيد الذي كان مفتوحاً لم يكن عنده خبز لكنّه عرض علي ما سمّاه الكعك الناشف ؛ ابتعت منه قطعتين حملتهما إلى الفندق وعادت إلي ذكرى سنوات 1914-1918 ، أي الحرب العالمية الأولى كانتا قطعتي بَقْسُماط .

ويجدر بنا أن نتذكر بأن سكّة حديد الحجاز كان لها الفضل في قيام قرى وبلدات عند بعض المحطات . وسأكتفي بمثل واحد . كان ثمّة سوق للحجاج في بقعة تقع على طرف مجمع للمياه في شمال الأردن اسمه زيزياء . هذه كانت سوقاً كبيرة

للحاج في موسمه . لكن سكة الحديد حملت البائعين على التقليل من حمل السلع للحجاج . إلا أن المنطقة وهي غنية بالقمح والشعير بدأت تشحن الحبوب بالقطار . وكانت ثمّة محطة للسكة هناك . فأخذ منتجو الحبوب ينقلون هذه السلعة إلى المحطة وينقلونها بالسكة . ومع الوقت قامت حول المحطة قرية زيزياء ، والتي أصبحت لمّا عرفتها (1941) بلدة كبيرة . ولعلّها الآن أصبحت مدينة صغيرة .

***

كانت ثمّة محاولات كثيرة لإحياء سكّة حديد الحجاز أولاً قبل الحرب العالمية الثانية ثم بعدها . كان مندوبو المملكة العربية السعودية وسورية والأردن يجتمعون ويدعون خبراء بناء السكك الحديدية . وقد اتخذت قرارات لإعادة السكّة الحجازية ، لكنّها كانت دوما تنتهي إلى الأدراج . إلى أن عُقِدَ اجتماعٌ سنة 1956 هامٌ جداً . اتخذ قراراً نهائياً بإعادة السكّة وتخصيص المبالغ اللازمة ، وطلب من الفنيين وضع الخرط النهائية . وقد أخذت أنا هذا على محمل الجد ؛ لذلك لما وضعت كتابي عن سورية ولبنان (Syria and Lebanon) من منشورات شركة بِنْ Benn في لندن سنة 1957) ، ذكرت الأمر على أنه سيوضع تحت التنفيذ . لكن تبين فيما بعد أنه كان مثل القرارات السابقة «حبراً على ورق»!

كشاف حضاري

آيات قرآنية

- ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم . . .﴾ ، الأنفال (60) 407
- ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض من الجاهلين﴾ 129

أجناس وقبائل وطوائف

(أ)

آل الدرويش 325
آل سكران 87 ، 260
آل الكزة 285
آل المجالي 239
الإباضية 427-428
أتراك 53 ، 118 ، 382 ، 434 ، 442 ، 452
الأدارسة 412 ، 423
الأرثوذكس 34 ، 87 ، 212 ، 303
الأزبك 366
الاسكندنافيون 231
الأشوريون 321 ، 323
الأغالبة 447
الإفرنج 80 ، 102
الألمان 23-24 ، 28 ، 39 ، 48 ، 53 ، 207 ، 209 ، 215 ، 218 ، 221 ، 277
الأمويون 73 ، 241
الأنباط 243-244 ، 324 ، 245
الإنكليز 106 ، 181 ، 183 ، 199-195 ، 201 ، 207 ، 230 ، 284 ، 290-291
الأوروبيون 101 ، 196 ، 454 ، 468 ، 471
الإيطاليون 267-268 ، 270 ، 274 ، 278 ، 282 ، 286 ، 288 ، 289 ، 293
الأيوبيون 139

(ب)

البربر 384 ، 427 ، 445 ، 488 ، 495-496
برغواطة (قبيلة) 422
البروتستانت 62
البريطانيون 206 ، 120 ، 275
بنادقة 454
بنو افرن 422
بنو أيوب 133
بنو سليم 396
بنو قدامة 45

بنو مدرار 427
بنو مرين (المرينيون) 413، 416، 422، -427، 426، 443
بنو هلال 396
البيزنطيون 104، 303، 428، 440
(ح)
الحفصيون 447، 450-455
(خ)
الخوارج 427
(ر)
الرستميون 429
(نسبة للدولة الرستمية)
الروم، الرومان 34، 85، 117، 124، (رومانيون) 138، 167، 246-247، 253، 256، 363، 385-، 386، 388، 412، 414، 432، 440
الرياحنة (عشيرة) 24
(ز)
زناتة (قبائل) 412، 441
الزيانيون 242
(س)
الساميّون 144
السلوقيون 323-324
(ش)
الشاذلية 445
(ص)
الصليبيون 45، 70-72، 96، 108، 212، 124
(ع)
العباسيون 428، 452، 454
العثمانيون 97، 140، 298، 382، 397، 441، 445، 456، 458
العرب 34، 39، 68، 74، 81، 101، 119-120، 134، 144، 156-167، 187، 197، 275، 290، 292، 319، 335، 345، 359، 371، 386، 392، 396، 441، 445، 488
(غ)
الغساسنة 242، 245
(ف)
الفاطميون 45، 386، 429
الفرس 61، 255، 321، 323، 423، 448
الفرنسيون 106، 120، 207، 232، 382، 389-390، 436-، 437، 468، 471، 491-، 492، 495-496

الفلسطينيون 106 ، 227 ، 290 ، 314 ، 315
الفندال 440
الفينيقيون 85 ، 299 ، 385 ، 429-431

(ق)
القادرية 445
القرطاجيون 386

(ك)
الكاثوليك 198
الكرادشة (عشيرة) 24
الكلدانيون 323

(م)
المرابطون 409 ، 423 ، 440-441 ، 443 ، 457
المراديون 450 ، 456
المسلمون 112 ، 351-352 ، 359 ، 457 ، 487 ، 492 ، 495 ، 498
المسيحيون 39 ، 95 ، 119 ، 359
المصريون 85 ، 95 ، 163 ، 167 ، 183 ، 280-281 ، 352 ، 334
المغول 82
المماليك 45 ، 96-97 ، 109 ، 139-140 ، 303 ، 452
الموحدون 409 ، 423 ، 425 ، 427 ، 443 ، 450 ، 452

(هـ)
الهلاليون 441
الهنود 183 ، 196
هوارة (قبيلة) 412

(ي)
اليهود 76 ، 194 ، 198 ، 227 ، 269 ، 290 ، 415 ، 434
اليوغسلافيون 282
اليونان ، اليونانيون 33 ، 68 ، 85 ، 144 ، 167 ، 212 ، 246-247 ، 253-256 ، 385 ، 430

أحداث هامة

(أ)
اتفاق لوكارنو 191-192

(ث)
الثورة الكبرى في فلسطين 195

(ح)
الحرب البروسية-الفرنسية 490
حرب البلقان 98

الحرب العالمية الأولى 23 ، 31-32 ، 41 ، 46 ،
50 ، 56 ، 98 ، 118 ،
191 ، 194 ، 202 ، 273 ،
313 ، 434-435 ، 491 ،
501 ، 503

الحرب العالمية الثانية
27 ، 199 ، 205-208 ،
253-254 ، 320-329 ،
489 ، 505

(غ)

غزوة الأرك (592هـ) 422

(م)

معاهدة فرساي 191
معركة حطين 270
معركة عين جالوت 472
معركة القدموس 120

(و)

وعد بلفور 194

أسلحة

(ب)

بنادق 206

(ر)

الرعادات 347
رماح 139

(س)

سهام 424
السيوف (السيف) 99 ، 101 ، 123 ، 137 ،
139 ، 246 ، 494

(ق)

القنابل 230
القوس 102 ، 129 ، 137

(م)

مجانيق 347
مدافع 206-207

أسواق

(أ)

سوق الأقمشة 447

(ب)

سوق باب عَزُّون 434
سوق باب الوادي 434
سوق البزورية 44

(ج)

سوق الجوخ 25-27

(ح)

سوق الحميدية 35 ، 42-44

(خ)

سوق الخضار 269 ، 290
سوق الخيل 140

(ر)

رحبة السمن 434

(س)

سوق ساروجا 44

سوق السردين 434

سوق السروجيين 140

سوق السمك 290

(ش)

سوق الشاشية 447

وسوق الشماعين 447

(ص)

سوق الصاغة 122

(ع)

سوق العطارين 44 ، 122 ، 447

(ق)

سوق القباقبية 44

سوق القمح 434

(ك)

سوق الكتبية 447

(ل)

سوق اللحم 269 ، 290

(ن)

سوق النحاسين 35 ، 42

أعلام

(أ)

أسيا جبار 487
آن لامبتون 254، 355
إبراهيم (عليه السلام) 63
إبراهيم باشا 24
إبراهيم بن أحمد الثغري 444
إبراهيم التنسي (أبو إسحق) 444
إبراهيم حركات 406
إبراهيم العريض 318
إبراهيم مطر 70، 161
إبراهيم هنانو 119–120
ابن باديس (عبد الحميد) 473–474
ابن بطوطة 327، 346، 348، 408، 413
ابن جبير 123، 139، 144، 149
ابن الجرّاح 72، 74
ابن جزي 413
ابن حوقل 408، 457
ابن خلدون 456
ابن داود 406
ابن زاكور 393
ابن سينا 371
ابن عرفة 455
ابن عروس 456
ابن فضل الله العمري 159
ابن القاضي 411
ابن قنفذ 456
ابن منظور 456
ابنستاس ماري الكرملي 52
أبو بكر المتوكل 452
أبو الحسن علي 419
أبو حمو 444
أبو زكريا (يحيى، الأمير الحفصي) 449–450
أبو شام (تاجر دمشقي) 240
أبو شعيب الدكالي 468
أبو العباس المستنصر 452
أبو عبد الله بن عبد الكريم الجدودي 414
أبو عبيدة بن الجرّاح 74
أبو العلاء المعري 124–126، 128–130، 171
أبو علي بن الأزرق 414
أبو عمر عثمان 452
أبو عنان المريني 413، 415
أبو فارس المتوكل 452
أبو الفداء الحموي 130، 141
أبو القاسم بن جنون 411، 416
أبو القاسم سعد الله 405
أبو القاسم الشابي 483

أبو المهاجر (صحابي) 440
أبو يعقوب يوسف 426، 440
أبو يوسف 413
إحسان عباس 221، 394
أحمد أبو حاكمه 316
أحمد أمين 158
أحمد باي 464
أحمد بن أبي بكر الزناتي 412
أحمد بن شعيب الفاسي الجزنائي 455
أحمد توفيق المدني 403-404، 435، 437، 475، 483
أحمد حسن الزيات 158
أحمد الخطيب 333-334
أحمد رضا حوحو 484
أحمد زكي (باشا) 158-160، 318
أحمد السقاف 317-318
أحمد شاكر الكرمي 136
أحمد شهبون 466
أحمد الصادق 316
أحمد صوان 328
أحمد عبد الرحيم 320
أحمد عناني 326
أحمد فكري 448
أحمد المقري 445
أحمد المهدوي 480، 483
أحمد همايون 355
إدريس الأزهر 410
إدريس الأكبر 391-393، 410، 412-413، 422
إدريس السنوسي 272، 274، 280
إدريس الشرايبي 485
أدونيس 92
أديب خوري 239
أديب الشيشكلي 132
أديب عتقي 177، 239
أديب ناصر الدين 316
أذْيمو 309
أرثر ج. اربري 365
أسامة بن منقذ 130
إسعاف 172
أسعد صيقلي 25-26، 35-37، 48
الاسكندر الكبير 80، 138
إسماعيل (الخديوي) 466
أغسطوس قيصر 117-118
افروديت 92
ا.ك. بروهي 354
أكرم الخالدي 154، 158، 173
أكرم الدجاني 316، 320
أكرم الدقاق 316
اكنتوس 256
إلْتُتمِش (التامش) 348
إلزا 201

ألقرد 29 ، 36 ، 38–40 ،
49 ، 64 ، 236 ، 285
الياس البينا 285
إلياس خوري 76–87 ، 318 ، 319
الياس فرح 316
إلياس يارد 25 ، 48
ا .م .ل . عزيز 355
إميل بستاني 284 ، 290 ، 294
اميل عصفور 153
إميل نعمار 168
أمين زريق 110–111
أمين عودة 274 ، 277–278 ، 292
أنطوني كربديان 285
انطيوخس الكبير 117–118
أورليان 249
أورليانوس 308
أولغ بك 371
إيليا أبو ماضي 229
إيليا ديب 31 ، 33 ، 46–47
أيما 28
الدكتور أيوب 104

(ب)

بادوليو 286
بارثينوس (الألهة أثينا) 257
بارون 121
بان (إله يوناني) 92 ، 144
بدر الفاهوم 232
بدران 183
بركليس 255–257
البرعي 487
برهان الدجاني 399
برودنسكي 198
البشير خريف 484
بشير الشهابي (الأمير) 82
بغس 284
بكت (ضابط بريطاني) 69
البكري 418
بلومر 106
بنلوب 33
بنيامين الإسباني 139
بهيرة حبيشي 172

(ت)

تراجان 247
تشاو جو 336
تموز 92 ، 225 ، 228 ، 234
توفيق الحكيم 194
توفيق صايغ 354
التيفاستي 456
تيمور (تيمورلنك التتاري) 140 ، 364

(ث)

ثلجة 36–37

(ج)

ج . لانداو 499–500

جامع (اسم امرأة) 128

جبرائيل جبور 319

جبرائيل خوري 29

جبرائيل كاتول 314

جبران بدرا 31

جبران خليل جبران 94

جرجس همام 40

جرمانوس 68

جلال زريق 110، 112، 114

جلجامش 321–322

جمال الدين الأفغاني 470، 497

جمال باشا 42–43، 51، 53، 121 –122، 207، 501

جمجوم (محمد جمجوم) 194

جميل الصالح 316

جوبتر 117

جورج حداد 120

جورج خميس 61، 65

جورج زيادة 29، 39، 40، 49، 64، 236

جورج سلهوب الطرابلسي 93

جورج صيقلي (ابن أسعد) 36

جون لاتورل 324–325

جون مارشال 356

جونز 399

جيوفري بيبي 321

(ح)

الحاج بن يونس 404

حافظ (الشيرازي) 364

حافظ بك رمضان 162

حامد بن حمدان الهمداني 412

حامد الشويهدي 283

حامد القصيبي 319

الحبيب بورقيبة 402

حبيب الرحمن 354

حجازي (فؤاد حجازي) 183

حسان بن النعمان 449، 451

الحسن الثاني (الملك)420

حسن حسني عبد الوهاب 454، 460

حسن الدباغ 316

حسن الساعاتي 142

حسن العسكري 353

حسين بن علي 351، 501

حسين عابد 350

حسين العكروت 401

حسين الكرمي 136

حسين مازق 279

حسين نجم 316

حكيم عبد الحميد 349، 350، 355

حكيم محمد سعيد 355

حليم أبو عز الدين 342

حليمي عبد القادر علي 432

حنا إبراهيم 70

حنا صليب 262

(خ)

خالد بن الوليد 132-133

خليفة (أخو أمير البحرين) 332

خليق أحمد نظامي 345

خليل ساحلي أوغلو 303

خليل صيقلي 35

خليل طوطح 61، 177

خليل القلال 279

خليل كنه 315

خوند ميري 353

خير الدين أبو الجبين 316

وخير الدين باشا 465

(د)

درويش المقدادي 75-79، 81-86، 105-108، 110-116، 122، 131-132، 136، 143، 214-215، 315

دوكاندول 282

ديبونو 286

ديونسيوس 117

(ر)

رائد غرايبة 303

رائد (زيادة) 209، 253، 268، 281، 283، 294، 303، 319-320، 327-328

رائدة جار الله الحسيني 399

رجب بن كاتو 285

رشيد بورويبة 405

رشيد رضا 470

رشيد زيادة 26-27، 205

رضا بلهوي 363

رودلف هس 208

الريحاني 161

رينان 80

(ز)

زاكر حسين 344

الزبّاء 309

الزركشي 456

زكي قدري بك 149

زكي مبارك 194

زنوبيا 307-309

زيادة الله الأغلبي 449، 458، 460

زيد بن بشر الأزدي 454

(س)
سابا شماعة 290
سامي شوش 33
سامي عيد 142، 173
سامي قبيسي 335
ستيفن بنروز 314
سعد زغلول 106
سعدي 363
سعيد بريك 316
سعيد الدجاني 232
سعيد قدورة 444-445
سعيد الكرمي 136
سعيد مرعي 38
سعيد المقري 444-445
سفيروس 392
سقراط 256
سليم شموط 29، 39-41
سليمان أبو ستة 316
سليمان الباروني 480
سليمان الغياش (أبو الربيع) 414
سليمان مصطفى زبيس 460
سميح دروزه 316
سمير العارف 316
سوبر 282
سوليير 402-403
سيبل 33
سيد مقبول أحمد 344
سيسل حوراني 402
سيف الدولة 123، 130

(ش)
الشاذلي زوكار 483
الشاذلي النيفر 400، 480
الشافعي (الإمام) 171
شاه جهان 343
شاه شجاع 364
شبلي الشميل 187
شريف القبج 161
شعيب (عليه السلام) 73
شفيق دوريش 173
شكيب أرسلان 115
شوقي (أحمد شوقي) 44، 142، 286
شوكت باشا 241

(ص)
الصادق عفيفي 484
صادق محمد الرضا 279
صالح بن مرداس 129
صالح العلي 120
صبحي الخوري 316
صفي الدين السنوسي 278-279
صلاح الدين (الأيوبي) 43، 70، 72، 124، 141

صوفيا شرش 25، 31، 33-34،
37، 41
صولين 430

(ط)

الطاهر بن عاشور 400، 465
طيباريوس 117
الطيب الأشهب 480
الطيب العقبي 438

(ظ)

الظاهر عمر 72

(ع)

عارف البديري 187
عامر عامر 394، 435
عائشة المنوبية 456
الشاه عباس الصفوي 366- 367
عبد الحافظ كمال 334
عبد الحميد الثاني 28، 304، 497-498
عبد الحميد العبادي 158
عبد الحميد ياسين 177، 320
عبد الرحمن بن رستم 429
عبد الرحمن البزار 314، 315
عبد الرحمن المرواني 412
عبد السلام العليم 466
عبد السلام المجالي 239
عبد الصمد 82
عبد العزيز آل خليفة 319-320
عبد العزيز الحفصي (أبو فارس) 458
عبد العزيز خويطر 335
عبد العزيز الدوري 142
عبد العزيز الميمني الراجكوتي 355
عبد العليم (رئيس جامعة عليكرة) 345-346
عبد القادر التبين 419
عبد القادر صوان 328
عبد القادر محمد 316
عبد الكريم غرايبة 303
عبد الكريم قاسم 314-315
عبد الكريم الكرمي 136
عبد الله بن الحجاب 449، 451
عبد الله بن علي الفارسي 428
عبد الله الجابر الصباح 316
عبد الله زيادة 29
عبد الله زيد 316
عبد الله شُرُش 24، 26-27، 29،
33، 87
عبد الله الشيعي 412
عبد الله كانو 324
عبد الله كنون 405، 466، 480،
484
عبد الله مخلص 159-160، 167
عبد الله المشنوق 131-132
عبد الله النعيمي 335

عبد المجيد الشلاثلي 487
عبد المحسن قطان 316
عبد الملك بن مروان 194
عبد المنعم التوتير 316
عبد المؤمن بن علي الموحدي 422، 450، 451
عبد الهادي مرتضى 275
العبدري 446
عبده عبد الله زيادة 29، 36، 51، 56
عبيد الله المهدي 386
عثمان (ر) 106
عثمان صالح 316
عثمان الكعاك 400، 410
عدنان البني 309
العذراء (أم المسيح) 24، 34
العربي الفاسي 419
العربي الكبادي 480
عروج 432
عز الدين الشوا 402-403
عزت النص 335
عشتاروت 91-92
عصام الخماش 316
عطا الزير 194
عطرة شرش 33
عقيفة زيادة 26
عقبة بن نافع 441
علاء الدين كلج 346، 348
علاّل الفاسي 406، 480، 383
الشيخ علي 112-113
علي أبو ستة 316
علي أحسن 354-355
علي الجربي 279
علي السرطاوي 161
علي شعث 260
علي صفي الدين 273
علي مصطفى المصراتي 484
عمر بن الخطاب (ر) 132-133
عمر الصالح البرغوثي 75
عمر فروخ 142
عمر المختار 286
عمر منصور باشا 273، 279
عمون 285
الشيخ عيسى (أمير البحرين) 320، 332
عيسى عطا الله 182، 245
عيسى نخلة 181، 188

(غ)

غاز ستانغ 65
السيدة غدرون شريفو 192-193، 200-201، 215، 220
غرازياني 286
غريغوريوس حداد 46-47، 104
غلانفيل داوني 118
غليوم الثاني 43، 134

غوبلز 200، 208

غوردون 273، 284، 291، 318

غورنغ (المارشال) 208

(ف)

فارمانيان 263

الفاضل بن عاشور 400، 480

فانتيردي برادي 433

فتحي زغلول 195

فتحي الكيخيا 279

فتحية الديبان 127

فخر الدين المعني 79، 83، 308

فرانزدو لغر 225

فرانك أوستن 188

فرانك ستوكس 324

فرجيل 33

فرح رفيذي 211

فرحات زيادة 225–226

فردرك الثاني 452

فرعون 243

فرويد 31

فريد أسعد صيقلي 25، 36، 37، 48

فريد العماد 135

الدكتور فضل أبو لبن 316

فلاديير 38

فهيم خوري 70

الملك فؤاد 163، 166، 351

فؤاد صرّوف 157، 317–318

فون غرونيباوم 355

فيدياس 256–257

فيردي (جوزيبي) 155

فيصل (الأمير، الملك) 120، 134، 145، 198

(ق)

الدكتور قدري 198

قسطنطين الإفريقي 455

قسطنطين (زيادة) 25، 29–30، 34

قسطنطين زريق 141، 315، 354

القلقشندي 74

(ك)

كاتب ياسين 486

كاثلين كنيون 65

كاربيه 116

كارل نصار 188

كارل ونغلر 220

كامل حمارنة 254، 260

كاملة شرش 33

كربيد 285

كركلا 392

كروفورد 84

كريشل 282، 284

كيت كالارد 355

(ل)
لافيجري (الكاردينال) 437
لطيفة زيادة 26
لورا فيشيا فالكيري 355
لوط (عليه السلام) 63-64
لويس التاسع 452
ليًا شرش 24 ، 29 ، 33
(م)
م .س . أغواني 350-351
مارتن لوثر 212-214
ماري زيادة 25 ، 29 ، 33-34
ماري نصار 88
ماك إنو 32
مالك بن نبي 487
مالك حداد 486 ، 487
ماهر 180-181
المتنبي 123-124 ، 126 ، 130
محب الدين الخطيب 355
محجوب بن ميلاد 483
محسن بن حميدة 483
محمد البشير الإبراهيمي 403-404 ، 474 ، 479 ، 480 ، 483 ، 495
محمد بشير المغيربي 317 ، 276
محمد بن أبي زرع 414
محمد بن الحباك (أبو عبد الله) 414
محمد بن زكري 394-395 ، 402 ، 435 ، 436
محمد بن شريفة 406
محمد بن عبد الله الفهري 411
محمد بن يوسف 462
محمد بن يوسف السنوسي 444
محمد بودجاجة 279
محمد بيرم 465
محمد الجياص 466
محمد الحبابي 487
محمد الحبيب 394-395 ، 400
محمد الحجي 406
محمد حمودة 316
محمد الخالدي 320
محمد الخامس (ملك المغرب) 405 ، 477
محمد داود 418
محمد ديب 485 ، 487
محمد ديب علي التهتموتي 172
محمد الرابع (السلطان) 466
محمد الرضا (السنوسي) 279
محمد رفيق اللبابيدي 154 ، 158
محمد زنيبر 406
محمد زهدي بك 233 ، 235
محمد سلمان 324
محمد شاه 346 ، 348
محمد صبري 276

محمد عبد الوهاب (الموسيقار) 198
محمد عبده 465، 469-470
محمد علي باشا 24، 157، 171، 464
محمد علي الخياط 154
محمد عوض محمد 158
محمد العيد 480، 483
محمد الغربي 498
محمد فريد غازي 483
محمد القباج 406
محمد قبادو 464
محمد المرزوقي 385
محمد تمر (الهواري) 170
الدكتور محمود البزاري 317
محمود تيمور 319
محمود الثاني (السلطان العثماني) 464
محمود حسين 335
محمود الحوت 320
محمود سعد الدين 317
محمود السمرة 316-318
محمود الكرمي 136
محمود المسعدي 484
مخلوف 274-276، 284
مراد (القائم بالأعمال- الهندي) 406
مرسي 327
مرشد العلي 116
مرغريت بوب 36، 405
مرغريت (زوجة نقولا زيادة)
253-254، 260-261، 265، 268، 273، 283، 288-289، 303، 326، 341، 399
مرقص أوريلوس 392
مريم 71
المزابي 400
المسيح (عليه السلام) 24، 62، 66، 68، 324
مصالة بن حبوس 412
مصباح الزحلان 316
مصطفى بن عامر 276، 335
مصطفى (سليمان) زبيس 400
مصطفى زيادة 158
مصطفى عبد الرازق 158
مصطفى كمال 351
مصطفى مراد الدباغ 325
معاوية بن أبي سفيان106، 138
معاوية القاضي 317
معمر الخضر 412
مفيد ملحس 317
مقطي علي 355
مكانفن 282
مكرم عبيد 158

مكي شبيكة 354
الدكتور ملحم 30
ملحم قربان 354
الملك الظاهر 102، 122
المنتصر 399، 452
المنصور الذهبي 408
منيرفا (فرحة) 31، 33
مهدي المطردي 275-276
مورتيمون هويلر 356
موسى (عليه السلام) 71-72، 156، 169، 170
موسى عبد الله الحسيني 227
موسوليني 231
المولى إسماعيل 406
مولود فرعون 458
مولود معمري 486
مونته 85
ميخائيل نعيمة 319
ميرزا محمد قزويني 364
ميشيل خمار 153
ميشيل طه 290

(ن)

ناصر مرواني 412
ناصر خسرو 74
ناصر الدين الأسد 239
الناصر قلاوون 108
نايف خرما 317
نبيه أمين فارس 319
النجاشي 169
نخلة متي 33
نزيه زيدان 325
نسيب بستاني 290
نسيب الشهابي 78-79
نظام حيدر أباد 498
نظيف بك الخالدي 499
النقراشي باشا 280
نقولا الشاوي 24، 29-30، 32، 47
نمر حبيب (العُليمي) 70
نوبار خشادوريان 285
نوح (عليه السلام) 63
نوخة بنت حسين 93
نور الحسن 344
نور الدين الشهيد 124
نور الدين صمود 401
نور الدين زنكي 124
نيارخوس 323
نيفيل تشمبرلين 202
نيقولاس الدمشقي 118
نيكولي 84
نيوكمب 118

(هـ)
الهادي أبو طالب 484
الهادي المطردي 394
هانز رويمر 221
هاينز (زيادة) 28، 205
هتلر 158، 191-192، 200، 202، 205، 207-208، 210، 227
هرثمة بن أعين 458
هرقل 72، 429
هند اللحام 36
الهنتاتي 456
هنري كريا 487
هنري كيسنجر 341
هومير 33
هوميروس 256
هيفاء بولس 232
(و)
واغنر (ولهلم ريتشارد) 218-219
وردة الحداد 33
وردة الكردوش 24، 26، 87
وصفي الخازن 317
ولتر أوتو 225
الوليد بن عبد الملك 138
وليم (ولهلم) القيصر - إمبراطور) 202، 205
ونستون تشرشل 202
وهبة البوري 273
(ي)
ياقوت (الحموي) 130
يحيى بن محمد بن إدريس 412
يعقوب بن أحمد راس 455
يعقوب المنصور (أبو يوسف) 422
يَغْمُراسن 440-442، 444
يوحنا المعمدان 66-67، 298
يوسف البرغوثي 317
يوسف زريق 110، 112
يوسف زعبلاوي 318، 320
يوسف وهبي 161
يوليسس 384
يوليوس قيصر 225
يونس (عليه السلام) 112

أماكن

(أ)

أبوظبي 26-331، 336
الأبيار 285، 377
أثينا 211، 251، 253، 255، 257
أجدابية 287، 379
الإحساء 334
إدلب 120
أدنبره 183
أراغون 452
إربد 249
الأرجنتين 46
الأردن 24، 35، 74، 76، 120، 130، 136، 143، 158، 237، 239، 246-248، 253، 325، 387
الأرز 76، 87، 93-94
أرفورت 212-213
أريحا 61-69
إسبانيا 214، 409، 463
إستانبول 39، 105، 298، 301-304، 400
أستراليا 179، 182، 232، 313
اسكتلاندا 181
إسكندرون (الاسكندرونة) (ولاية هليتاي) 76، 114، 116-119
الإسكندرية 31، 33، 53، 187، 251، 260، 265، 274، 278-279
اسكندنافية 226
أصفهان 361، 364-367
أغادير 406، 440
أغرا 344
أفران 406
إفريقية 232، 324-325، 344-345، 376، 409، 417، 425، 427، 449، 453، 458، 468
الأقصر 155-159، 163، 166
ألمانية 26، 41، 43، 50، 191-193، 200، 212، 215-217، 225، 227، 233، 253، 267
الإمارات 313، 321، 327، 328
أم سعيد 326
أميركا 33، 225
أميركا الجنوبية 46
انتورب 435
اندرا براداش 351

الأندلس 310، 411، 414، 417، 445، 448، 455
أندونيسيا 342، 355
إنزبروك 218
إنطاكية 76-77، 97، 114-121، 309-310
أنطونيوس بيوس 392
إنكلترا 119، 180، 182، 188، 193، 195، 200، 202، 214-215، 257، 260، 267، 290-291، 297، 320، 422
أوروبة 51، 139، 185، 199، 202، 214، 226، 273، 332، 342، 397، 464، 466
أوستند 191
أولمبيا 256
أيبيريا 430
إيران 267، 288، 299، 310، 313، 355، 363، 366، 367
إيطالية (إيطاليا) 98، 214، 218، 355، 398
ايكوسين (الجزائر) 430، 432

(ب)

باتر 76
بادنغتون 187
الباروحة 99
باريس 187، 193-194، 197، 202، 225، 230، 258، 470
الباروك 390
بافريا 214
باكستان 313، 349-350، 354، 355، 359، 363، 367، 408
بانياس 74، 76، 92، 107-109، 143-144
البتراء 243، 324
بتّير 82
البحرين (أوال، دلمون) 313-318، 329، 331-336
بحمدون 76، 86
بخارى 365، 369، 371
البرازيل 46
براك 381
البرتغال 214
برج بوعريريج 389
البردية 267، 378، 380

برقة 263، 265-267، 272، 274-287، 293-294، 297، 318، 375، 379، 380
برلين 27، 205، 207، 209-211، 214، 218، 235
برنتشي 336
بريطانية 111، 201-202، 207، 227-232، 276، 288، 328
البريمي 327
بزبدين 76، 86
بزعون 94
البسطة 83
بصرى 245
البصرة 336، 363، 428
البُطنان 375، 379
بعبدا 235
بعقلين 80-81، 142
بعلبك 77، 95، 132-135
بعل شمي (بعلشمس) 95
بغداد 45، 86، 126-128، 313-315، 336، 363، 451، 498، 452
البقاع 135، 148
بكردج 189
بكركي 85
بلاد الشام 105، 108، 142، 158، 303، 310، 324، 336، 372، 451، 494، 501، 502
البلقاء 68، 248
البلقان 98
بُلْقين 432
البليدة 390، 490
بليموث 180-183
البندقية 422، 452
بنزرت 401
بنغازي 263-275، 278-294، 375، 379، 393-394، 399
بتينا 265
بور سعيد 177-182، 232، 236
بورت دي فر 389
بورنو 452-453
بولزانو 218
بوماريا 440
بومباي 345، 353-354
بيت إيل 95
بيت جالا 183
بيت حسدا 71

بئر السبع 57، 288، 501، 503
بيروت 31، 45، 76، 79، 81، 83-85، 98، 120، 132، 138، 155، 164، 166، 221، 230، 251-254، 257، 262، 265، 267، 272، 287-293، 297، 300، 304، 307، 313-319، 327-328، 335، 341-342، 344، 351-356، 394-396، 402، 438، 498
بيرويت 218-220
بيريا 254
بيزا 422، 452
بيزانسون 193، 223-233
بيسان 56، 74، 246، 250
البيضاء 378، 477

(ت)

تاروت 334، 336
تارودانت 394، 406
تازا 414
تاغرارات 441
تاهرت (تيهيرت) 428، 429
تدمر 245، 305، 307-309
ترشيحا 77
تركية 28، 41، 50، 117-118، 241، 304، 453، 498، 503-504
تشيلي 46-47
تطوان 405-406، 417، 421، 441، 475
التل 390-391
تلكلخ 76، 97، 99
تلمسان 388، 390، 395، 403-404، 414، 436، 439
تمبكتو 408
توكرة 377
تونس 299، 383، 387-388، 394، 402، 408-409، 417، 446، 456-459، 463-496، 471، 475-481، 487، 494، 496
تيباسا 432
تيزي 478
تيتي زي 220-221

(ج)

الجار 336
جايبور 353

جباتا الزيت 76، 143-144
جبلة 76، 107، 109
جبيل 76، 85، 235، 334،
336
جدارا (أو جدرو) 74
جدة 335-336
جربة 315، 383-384
جرش 249-250، 245، 248
الجرها 324، 336
الجزائر 314، 323، 388، 390،
394-395، 397-398
جزيرة أرواد 105-106
جزيرة النساء 216
جزيرة فيلكه 321
جزين 76، 80، 81
الجغبوب 282، 467-468
الجميزة 83
جنوب إفريقية 140، 227
جنوا 254، 422، 452
جنين 23، 38، 56، 61-62،
121، 189، 501
الجولان 73، 146، 250
جونية 76، 85

(ح)

حاصبيا 77، 148
الحجر (مدائن صالح) 500
حصرون 33، 81، 94، 336
الحصن 24
حطين (قرية) 73
حلب 45، 49، 77، 97، 108
119-123، 132-133،
155، 164، 245، 310
حماة 97، 108، 125،
130-132، 138، 141،
308
حمص 77، 97، 99، 108،
132، 138، 307-315
الحمة 72، 74
حوران 32، 35، 79، 146،
250
حيدر أباد 435، 351-353
الحيرة 245
حيفا 28، 48، 56، 73،
142، 153، 164، 236،
307، 500

(خ)

الخالصة (قرية) 153، 164
الخرطوم 336، 354
خوارزم (خيوه) 369، 371

(د)

الدار البيضاء 406، 421

درعا 28، 48، 246، 248

الدرعية 335

درنة 266-267، 271، 278، 377، 379، 394، 394، 441

دفنة (الحربية) 117

دُمّر 45-46

دكرى 356

دلهي 341، 344-350، 358

دمشق 23، 43، 45-55، 69، 73-74، 77، 83، 97، 132، 136-144، 147، 155، 164، 239، 241، 247، 287، 294، 297، 300، 372، 445، 497، 500، 503

دوخان 325-326، 347

دوفر 258

دومة الجندل (الجوف) 324

دير القمر 76، 80، 82-83

(ر)

رابغ 500

راجستان 345

رأس بيروت 83

رأس الخيمة 328، 336

راشيا 148

رام الله 173، 177، 225

الرباط 405-406، 421-427، 457، 477، 459، 460

الرملة 245، 378

رودس 354

روم 76، 80، 396

رومة 118، 297، 308، 392، 432

الرياض 334-335

رياق 132

(ز)

زاريا 407

زحلة 130، 134-136

زرهون 391، 393، 404، 406

زيزياء 240، 246، 504-505

(س)

سبتة 417

سبها 381-383

سدوم 63

سرت (مدينة) 375، 379

السعودية 313، 324، 330، 334،

335، 500، 502
سلا 421-422، 426-427
السلط (الصلت) 24
سلفيت 45
السلوق 286
سلوقية (السويدية) 117-118، 310
سمخ (محطة) 28، 56، 74
سمرقند 365، 369، 371-372
سنتياغو 47
السند 339، 358
السنديانة الغربية 99
سهل البقيعة 97، 99
السودا 142
السودان 131، 376، 407-408، 453
السودان الغربي 323
سورية 51، 59، 72، 75، 78-79، 98، 98، 109، 111، 115، 118-119، 131، 137-140، 145، 158، 241-242، 246، 247، 272، 310، 354، 470، 497، 503، 505
السوس 394
سوسة 377، 456، 458-459
سوق الغرب 84، 268، 288، 294
السويس 51، 153-155، 213، 232
سيدي بوسعيد 401
سيزر 130
سيشل (جزر) 106
سيلان (سيرالانكا) 355
سيناء 51، 153

(ش)

شبعا 76-77، 148
شتوتغارت 190-192، 220
شتورا 134
شحات (قيريني) 377، 399
شرشل (يول القديمة) 432
شفشاون 406، 417
الشوبك 44، 249
شيراز 315، 354

(ص)

صافيتا 76، 103-104، 109
صبراتة 399
صحراء سيناء 51
صفاقس 386، 401، 447
صفد 73، 75-76، 114
صقلية 425
صليبية 85

صنين 76، 79-87، 93، 109، 135

صور 46-47، 146

صوفر 46-47، 76، 86

صيدا 76، 78-79، 81، 97، 109

(ض)

ضبيّة 76، 85

ضهور الشوير 76، 86-87

(ط)

الطابغة 72

طبرق 266-267، 277-278، 292، 375، 377، 379

طبرقة 401

طبرية 70-75

طرابلس 76، 81، 94-99، 126

طرسوس 263، 267، 272، 274، 280، 287، 290، 293، 294، 297، 307، 458

طرطوس 105، 107-109

طشقند 365، 369، 371

طلميثة 377

طنجة 405-406، 412، 417، 420-421، 441، 458، 467

طهران 342، 361، 363

طولكرم 56-57، 77، 111-207

(ظ)

الظهران 334، 335

(ع)

العاقورة 76، 93، 135

العالية (مدينة القرويين) 411

عاليه 84

العبّاد (قرية) 44، 442

عجلون 248-249

العراق 86، 127، 131، 138، 247، 307، 310-315، 324، 336، 357

العريش (مصر) 153

العفولة 34، 56-57، 503

العقبة 239، 244

العقير 324

عكا 97، 131، 142، 144، 154-162، 165-170، 173، 177-178، 180، 187-189، 191، 194، 247، 500

العلا 336

عماطور 76، 81-82

عمّان 48، 66، 68، 239،
242، 244-245، 248،
344، 355، 378، 497،
499، 500، 503-404
عمورة 63
عنابة 490
عيذاب 336
عين السلطان 65
عين مارة 377
عين المريسة 235
عيناب 84

(غ)

الغابة السوداء 192، 220-221
غات 381
غارمش بارتن كرشن
218
غانة 323
غرديو 389
غرناطة 417، 419
غزة 236، 247، 388
غور الأردن 28، 70، 97، 143
غوطة دمشق 45، 148

(ف)

فاس 406، 409-411، 413،
414، 416، 420-421،
445، 466

فحل 246، 250
فرستن فلده 27، 205
فرن الشباك 83
فرنسا 111-117، 119، 191،
193، 202، 214، 223،
225، 229، 231،
397-398، 401، 434،
463، 466، 272، 490،
494-496
فريبورغ 192، 220
فزان 380-381
الفسطاط 156، 166
فكتوريا (محطة) 258
فلاندرز 422
فلسطين 23، 59، 61، 65،
70-78، 82، 95-96،
106، 109، 111-114،
119، 131، 138،
145-146، 158-160،
163، 188، 194-195،
198-199، 212-213،
225-228، 231-232،
236، 248، 261، 291،
288، 297-298، 324،
388، 399، 405، 470،
501-502

(ق)

فابس 401
قاديشا 94، 96، 98، 390، 438، 445
القاهرة 145، 142، 151، 154-170، 260، 265، 285، 317-318، 355، 395، 398
قبرص 96، 106، 251، 254، 260-261
القبة 377
القدس 27، 44، 47، 61-66، 77، 79، 82-84، 101، 110، 116، 120، 132، 136، 155، 158، 164، 177، 181، 188، 205، 227، 236، 253، 289، 316، 320، 326، 328، 378، 445-446، 498
القدموس 108، 120
قرابلي (غرابلي) 294
القرداحة 111-112
قرطاجة 432
قرطاجنة 99، 385
قرطبة 411، 449
قرنايل 76، 86
القرين 390
القسطنطينية 310، 453، 464
قسنطينة 389-390، 395، 402، 435-436، 474، 478، 490، 492
قطر 313، 318، 321، 325-327، 336
القطراني 240
القطيف 334، 336
قمبوت 389
القنطرة 153-154، 177، 183، 236-385، 415، 502
القنيطرة 141
القيروان 400، 462
القيقب 377

(ك)

كاليه 258
كامبردج 341
كانم 452-453
كانو 393، 407
كتلانية 422
كراتشي 354، 356-359، 363
الكرك 239-240، 244-445
كسروان 235، 377
كفر ناحوم 70، 72

كفر ياسيف 41
الكفرة 282
كمبردج 189، 257
كندا 211، 355
كورنث 253
كولون (كولونيا) 190–193، 212–213
كونستانس 192، 221
الكويت 313–318، 321، 326، 336

(ل)

اللاذقية 76، 97، 104، 108، 116، 126
لبتزيغ 213
لبنان 27، 59، 75–90، 94، 96–99، 111، 115، 119، 131، 134، 144، 145–147، 158، 205، 231، 268، 288، 297، 342، 354، 377، 378
اللّد 177، 236، 388
لندن 175–183، 187–205، 209، 212، 218–220، 225، 227، 230–232، 251–254، 257–258، 272، 277، 280، 299–300، 435، 505
ليبيا 98، 263، 267، 274–275، 288، 298، 319، 386، 394، 399
ليفربول 435
ليماسول 260

(م)

مأدبا 240، 248
مالطة 106، 180–183، 287، 294–295، 297–300
المتن 235
المجدل 71، 72
المدوّرة 500
المدينة المنورة 28، 47–49، 241، 494، 502، 504
مراكش 349، 389، 405–409، 477، 470، 450، 421
المرج 270، 377–378
مرج ابن عامر 74، 97، 501
مرج عيون 76، 77، 105
مرزق 382
مرسيليا 182، 232–235، 254، 257–258، 434، 435
مريسين 76، 115
مستغانم 390، 490
مسراتة 293
المسعودية 501

مصر 51، 124، 139-140، 153-160، 165، 172، 178، 181، 187، 233، 244، 253، 260، 271، 274، 278، 280-281، 290، 324، 335
مصياف 180
مضيق جبل طارق 180، 232، 430
معان 239، 245، 500، 503
المعرة 77، 120، 124، 128-129
المغرب 313، 349، 375، 391-399، 402-407، 412، 416، 421، 424، 426-430، 435، 441-442، 448، 450، 452، 463، 465، 471، 476-481، 487-488، 494، 496، 498
مكة المكرمة 28، 351، 452، 502
مكناس 406، 421، 414
المنامة 320، 329
المنستير 456، 458، 461
المنيترة 135
المهدية 386-387، 455
مؤاب 68
الموصل 310، 336
موهنجودارو 356-358
ميناء الجزائر 434-435
ميناء الهافر 435
ميونخ 191-192، 202، 207، 214، 218، 220-221

(ن)

نابل 447
نابلس 45، 57، 97، 501
الناصرة 23-26، 28-29، 31، 33-34، 41، 54، 56، 62، 70، 75، 77، 87، 94، 121، 188، 189، 212
النبطية 69، 76-78
نجد 138، 247
النروج 452
النمسا 50، 218
نوى 74
نيجيريا 336، 393، 407
نيسابور 451
نيويورك 435

(هـ)
هامبورغ 435
الهبّارية 148
هرّبه (أو هربه) 321
الهفوف 334، 336
الهند 118، 139، 313، 323، 239–349، 351–355، 359، 367، 408، 498
هون 383
(و)
وادي بسكنتا (وادي الجماجم) 88
وادي بورقراق 421–423، 426
وادي التيم 148
وادي جنعم 148
وادي الحسا 242
وادي الحمام 73
وادي الدوير 93
وادي الزرقاء 246، 248
وادي زم 406
وادي الصّرار 501
وادي العربة 244
وادي العريش (البردوني) 135–136
وادي قاديشا 94، 96، 98، 390
وادي الكوف 378
وادي موسى 243
وادي اليرموك 272، 250
واشنطن 225
وليلي (وليبولس) 392–393، 406، 411
وهران 390، 403–404، 474، 478، 490، 492
(ي)
يافا 131، 236، 320، 468
اليمن 28، 241، 247، 457، 497، 500
ينبع 336
اليونان 194، 253–254

أمراض وكوارث

(ب)

البراكين 63

(ج)

الجَرَب 35

(ح)

الحمى 53

(ص)

الصواعق 63

(ط)

الطوفان 63-64

(ق)

القرحة 342

(ك)

الكوليرا 31

تسالي وألعاب

(أ)

أولمبياد (الألعاب الأولمبية) 209، 211، 253، 256

(ب)

البردج 179

البوكر 179، 277

(ش)

الشطرنج 179

(ص)

الصوالج والأكر 103

(ك)

كرة القدم 190-191

(ل)

لعبة الطاولة (النرد) 42، 67

لعب الورق (الشدة) 67، 154

تضاريس

(ب)

البحر الأحمر 336

بحر المانش 258

البحر المتوسط 69، 77، 99، 137، 180، 259، 310، 386، 417، 427، 450، 457-458

البحر الميت 61-64، 66، 69

بحيرة الحولة 76

بحيرة طبرية 70 -74

بحيرة كونستانس 192

(ج)

جبال الأطلس 380، 409، 421، 435، 494

جبال أمانوس 97، 115

جبال الجليل 97

جبال الجولان 73

جبال الدروز (أو جبل الدروز) 82، 115

جبال عجلون 249

جبال العلويين (النصيرية) 112، 114، 120
الجبل الأخضر 266، 294، 376-379، 399
جبل الأربعين 67-68
جبل أولمبوس 256
جبل البركة 71
جبل بريصات 93
جبل بني بهلول 416
جبل الزاوية 120
جبل الزيتون 69
جبل الشعرا 112
جبل الشيخ 44-45، 68، 71، 75-77، 83، 89، 109، 134، 142، 149
جبل صنين 109
جبل طابور 95
جبل طارق 180، 232، 430
جبل الطور 57
جبل عقبة 375
جبل قاسيون 45
جبل الكرمل 147
جبل لبنان 45
جبل المقطم 156-166، 170-171
جبل نبو 68
الجبل النظيف 499

(خ)
خليج بسكاي 180
خليج سرت 375، 379

(ق)
قناة السويس 501، 503

(م)
المحيط الأطلسي 68، 179، 422-423، 457

(ن)
نهر إبراهيم 90-93
نهر (أبو علي) 98
نهر الأردن 28، 62، 66-68، 148، 170، 250
نهر بردى 31، 47
نهر الحاصباني 148
نهر دجلة 124، 126، 128
نهر الراين 191-192، 229
نهر الرور 191
نهر الرون 229
نهر السند 357، 358
نهر طلس (طرس) 371
نهر العاصي 117، 130، 132
نهر العوجا 131
نهر القاسمية 77
نهر الليطاني 77
نهر النعامين 131

نهر اليرموك 74، 250
نهر يزيد 138

حلي ومجوهرات

(أ)
أساور 271
(ح)
الحلق 271
(خ)
خلاخيل 271
الخواتم 271
(م)
مرجان 453

حيوانات

(أ)
أبقار 100، 379
الإبل 35، 40، 379
الأرانب 102
أغنام (الغنم) 38، 100، 387، 379، 429، 535
إوز 206
(ب)
البراذين 429
البعوض 389
البغل (البغال) 46، 429
(ث)
الثعالب 102
(ج)
الجمال (الجمل) 35، 288
(ح)
حمامة (حمام) 67، 140، 278، 457
الحمير (الحمار) 35، 46، 66
الحوت 416
(خ)
الخيول 35، 64، 99، 102-103، 109، 112، 140، 143
(د)
الدراج 102
(س)
السمك (أسماك) 105، 188، 258، 282-284، 328، 435
(ص)
صقور 102
(ط)
طير الماء 102
(ع)
عصافير 248
(غ)
الغزلان 102، 242

(ك)
كلاب 89 ، 102 ، 106 ، 278
(م)
الماعز 67 ، 100 ، 389

طعام وشراب

(أ)
أرز 42
(ب)
بامية 199
البرغل 199
البزورات 43
البسكوت 93
بصل 199
البَقْسُماط 504
البن 35 ، 78
البندق 36
بندورة 119 ، 236 ، 269 ، 291
البهارات 43-44
بيض 103 ، 105 ، 188 ، 269 ، 271 ، 292 ، 342
(ت)
الترمس 235
تمر 243 ، 382-383
(ث)
الثمار المجففة 44
ثوم 199
(ج)
جبن (جبنة) 105 ، 188 ، 432
الجعة 213
(ح)
الحبوب 107 ، 113 ، 119 ، 188 ، 229 ، 435 ، 453
الحليب 428
(خ)
الخبز 57 ، 103 ، 105 ، 135 ، 88 ، 217
الخضار 107 ، 113 ، 121 ، 132 ، 269 ، 435
الخمور 223 ، 435 ، 453
(د)
دبس 188
(ر)
راحة الحلقوم 93
(ز)
زبدة 188 ، 229
زعتر (صعتر ، سعتر) 103
زيت 35 ، 69 ، 188 ، 201 ، 292 ، 392 ، 453
زيتون 380 ، 383

(س)
السجق 217
السفن أب 78
السكر 35، 42
سلطة 105
سمك 258، 269، 453
السمكة الحارة 407
السمن 32، 35، 243
سيجارة (السجاير) 78
(ش)
الشاي 43، 181، 188، 199، 209، 275، 283، 285، 298، 316-319
شراب الرمان 78
شراب الورد 78
الشمبانيا 228
الشنكليش 103
شوكولاته 31، 162
(ط)
الطجين 407
(ع)
العرق 135، 194
العرقسوس (شراب) 44، 121
(غ)
غزل البنات 40
(ف)
فجل 194
الفروج المشوي 135
فلافل 236
الفواكه 107، 121، 418، 435
(ق)
القرفة 43
قرمش 40
قضامة 40
قمر الدين 44
القهوة 93، 111، 118، 209، 293-294
القيمق (البوظة) 43، 260
(ك)
الكازوزة 78
الكبّة 135
الكسكس 407
الكولا 78
(ل)
لبن 103
لبنة 188
لحم الخيل 230
اللحوم (لحم) 31، 122، 124، 135، 184، 194، 196، 269، 291، 348
لوز 383

ليموناضة 43

(م)

المربيات (مربى) 44، 188

مرتدلا 31

معكرونة 31، 271

الملبّس 36، 40

موز 269، 292

(ن)

النبيذ 228

النقانق 188

(و)

الوسكي 234

عقاقير وعطور

(أ)

أسبرو 248

(ق)

القطران 35

(م)

المسك 422

فنون

(ز)

الزليج (القيشاني) 367، 426

(ف)

الفسيفساء 366-367، 432، 433، 441، 450

قوافي

(أ)

مساء 287

(ث)

النبيث 126

(د)

ببغدادا 127

الجسد 129

الجيد 242

عاد 130

فاشدُ 387

(ع)

اللذع 127

(غ)

الغيهب 393

(ف)

النطف 105

(ق)

خفق 50، 137

(ك)

ذكراك 136

(ل)

الحال 127

بعقال 126

معضل 129

(م)
عظاما 44
(ن)
بغداد 138
السنون 159
(هـ)
أمرها 129

كتب ومطبوعات

(أ)
الأجنحة المتكسرة 94
أزهار الرياض 445
أنباء ثقافية من آسيا (جريدة) 359
الإنجيل 68، 101
(ب)
البحث عن دلون 321
برقة (كتاب) 395- 396
بلادنا فلسطين 325
(ت)
تاريخ الدولتين 456
تاريخ المغرب في القرن العشرين 395
التعريف (كتاب) 159
تونس في عهد الحماية 395
(ج)
جذوة الاقتباس 411
جريدة البصائر 438، 474-475
جريدة الرائد التونسي 465
جريدة السعادة 467
جريدة الشهاب 473
جريدة العرب 399
جريدة لسان المغرب 467
جريدة المغرب الأقصى 467
جريدة النجاح 475
(خ)
خليل الكافر 94
(ر)
رحلة التيجاني 456
الرسالة 157
روض القرطاس 416
(س)
السواعي (كتاب) 62
(ع)
العربي 317
العواصف 94
(ف)
فاس (كتاب) 396
(ق)
قاموس المغني 137
قاموس المنار 137
القرآن الكريم 102-103، 170-171، 416، 457

(ك)

الكتاب المقدس 29، 63، 214

(ل)

ليبيا الحديثة 396

ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال 395

(ل)

لسان العرب (معجم) 456

(م)

مجلة أفاق 475

مجلة «الأصالة» 438

مجلة تطوان 475

مجلة «الثقافة» 438

مجلة الجامعة الأميركية في بيروت 490

مجلة الزهراء 355

المجلة الزيتونية 475

مجلة الصباح 467

مجلة الفكر 475، 484

مجلة عمر المختار 274، 475

مجلة ليبيا المصورة 475

مجلة المنار 470

«مدارج القراءة» 40

المصور 318

المقتطف 157، 470

مؤنس الأحبة 385

(ن)

نفح الطيب 445

(هـ)

الهلال 470

كنائس وأديرة

(أ)

أيا صوفيا 105

الأرثوذكسية الروسية 38

الأقباط (دير) 62، 65

إندكس (دير) 216

(ر)

الروم الأرثوذكس (دير) 62، 65

(ص)

الصليبية 105

(ق)

القديس جريس (دير) 104

قرنطل (كارانتل) (دير) 67-68

القيامة 248

(م)

مار الياس (دير) 76، 86

مار سابا دير 61، 68

ماري جرجس 56، 156

(ن)

نوتردام إفريقيا 437

لباس

(أ)

أحذية 83، 153، 190، 290

(ب)

البدلة 28، 190، 198، 219

بنطلون 116

(ث)

الثياب الشعبية 22

(ج)

جوارب 190

(ر)

ربطة عنق 219

(س)

السراويل (السروال) 116، 148

(ش)

شاشيات (طرابيش تونسية) 399

شورت 116

(ص)

صايات 42

(ط)

طاقية 168

الطرابيش 83، 399

(ق)

القبقاب 44، 79

قفاز 190

قميص 153، 219

القنباز (قنابيز) 28، 42

(و)

الوزرة الحريرية 42

مساجد

(أ)

جامع آيا صوفيا 303

جامع أبي مدين 442-443

جامع أشبيليا 425

جامع أغادير 441

الجامع الأموي (جامع بني أمية) 43، 45، 138

جامع الأندلس 412

(ب)

جامع باريس 149

(ح)

جامع حسان 424-426

جامع حمودة باشا المرادي 450

(خ)

جامع خالد بن الوليد 132

(ز)

جامع الزيتونة 399-400، 446-449، 451، 454-456، 470، 474، 477

(س)

جامع السلطان أحمد 303

جامع السلطان حسن 156

جامع السليمانية 303
جامع سيدي بلحسن 442
مسجد سيدي الحلوي 443
جامع سيدي رمضان 434

(ش)

جامع الشرفاء 412

(ع)

جامع عمر بن العاص 156

(ق)

جامع القرويين 411-412، 470
جامع القصبة 448، 450
جامع القيروان 449
جامع قرطبة 449

(ك)

الجامع الكبير 62، 437، 441
جامع الكتبية 349، 410، 425، 450

(ل)

مسجد لطف الله 366

(م)

جامع محمد الفاتح 303
جامع المعلقة 51-52
جامع موتي (أو جامع الجوهرة) 344
جامع الموحدين 450

(ن)

مسجد النبي ﷺ 449

(ي)

جامع يوسف داي 450

مصطلحات

(ر)

رطل 270، 414

(ق)

القشلة (الحامية العسكرية) 78
قناطير (قنطار) 270، 414

معالم وآثار

(أ)

الأكروبوليس 254، 256، 260
الأهرام 156، 164، 166، 172

(ب)

برج صافيتا 103-104

(ت)

تاج محل 343-344
تمثال بعل حمون 145-146، 430
تمثال زفس 256
تمثال ملكارت 430
التويلري (اللوفر) 193

(ج)

جدار برلين 74
جسر الحجر 90

(ح)

حصن الأكراد 76، 98-99، 109

(خ)

خزنة فرعون 243، 392

(د)

الدير البحري 159

(ز)

زاوية سيدي قاسم الجليزي 456

(س)

ساحة البرج (الشهداء) 31، 56، 83-84

ساحة المرجة (التحرير) 31، 35، 41، 44-45، 47

(ض)

ضريح ابن العربي 45

ضريح إدريس الاكبر 391

(ق)

قبر صلاح الدين الأيوبي 43

قبر أبي عبيدة بن الجراح 74

قبر توت عنخ آمون 158-159

قبر سعد 365

قبر نور الدين الشهيد 124

قصر عنتر (أوشيبوب) 134، 145-146

قصر المشتى 240-245

قصر المنار 273

قصر يلدز (قصر السلطان عبد الحميد) 303-304

قلعة ابن معن 73

قلعة أغرا 344

قلعة بانياس 144

قلعة البحرين 321

قلعة بعلبك 134

قلعة الحصن 76-77، 98، 103-104

قلعة حلب 123

قلعة دمشق 144

قلعة الشقيف 76-77، 144

قلعة الشوبك 244

قلعة الصبيبة 144

قلعة صلاح الدين (قلعة صهيون) 113

قلعة المرقب 108-109

قوس فيلونيوم 288

قوس النصر 193، 392

(ك)

الكرنك 158-159، 166

(م)

مئذنة قطب منار 344، 348-349

مدرسة أبي العلاء 124

المعبد البوذي 356

مقبرة مار جريس 26

(ن)

نواعير حماة 130-131

(هـ)

هيكل أرطميس 249

هيكل باخوس 133-134

هيكل البارثنون 256-257

هيكل بعل حرمون 145-146، 430

هيكل جوبتر 117، 133-134

منشآت عامة

(ج)

جامعة ابن يوسف 477
جامعة أبو مدين 438
الجامعة الأردنية 239
الجامعة الأميركية 81، 84-85، 93، 121، 131، 172، 253، 268، 288، 304، 307، 313، 317، 320، 325، 333-334، 342-350
جامعة أوحدة 293
جامعة برلين 209
جامعة برنستون 225
جامعة بيزانسون 226-228
جامعة جايبور 345، 353
جامعة الجزائر 437، 493
جامعة جواهر لال نهرو 350
جامعة السلطان أحمد 400
الجامعة السورية 239
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية 477
الجامعة العثمانية 345، 352
جامعة عليكرة الإسلامية 341-345، 349
جامعة فاس 477
جامعة القاهرة 158
جامعة كراتشي 355
جامعة لندن 27، 177، 208، 243
الجامعة الليبية 399، 476
جامعة محمد الخامس 406
جامعة الملك عبد العزيز 335
جامعة هارفارد 315، 341
الجامعة اليسوعية 131
جسر اللنبي 66-67

(ح)

الحوانيت 201، 205، 358، 399، 418، 447، 504

(خ)

الخان الأحمر 65

(د)

دار الآثار الإسلامية 155
دار الأوبرا 155، 219
دار الأيتام السورية (مدرسة شنلر) 27
دار المعلمات 168، 172، 399، 476
دار المعلمين 44، 61، 64، 71، 75، 110، 161، 205، 214، 328
الدكاكين 35، 42، 106

(س)

سكة حديد الحجاز 24، 28، 34، 39، 45، 47، 50-51، 73، 497، 499، 501-504

سكة حديد دمشق 54

(ش)

شركة أرامكو 335

شركة بِنْ 505

شركة نفط البحرين 319

شركة نفط العراق (أو بترول العراق) 132

شركة نفط قطر 326، 330

شركة تيرن 86، 313

(ف)

فندق أريحا 65

فندق استقلال هاوس 163

فندق أورينت بالاس 47

فندق بارون 121

فندق بلميرا 133

الفندق العربي 76، 83

فندق فكتوريا 267، 294

فندق فينيقيا 79

فندق الكسيور 270

فندق المتروبول 354

فندق مكناس 406

فندق مون ريو 96

فندق النعمانية 80

فندق ونتر بالاس 159

(ق)

قصر الأمير إدريس السنوسي 272

قصر الحكومة (دار الباي) 450

قصر عالي قبو 367

القصر الملكي 423

(ك)

كازخانة (محطة بنزين) 49

الكلية الرشيدية في القدس 316

(م)

المتحف القبطي 150

المتحف المصري 155، 166

مدرسة أبي الحسن 426

مدرسة ابن تفراجين 451

مدرسة الأميركان 79

مدرسة بولتز 225

المدرسة الثعالبية 435-436

مدرسة سلا 426

مدرسة سيدي محرز 451

مدرسة الشماعين 451

المدرسة الصادقية 464

مدرسة عكا الثانوية 29، 142

المدرسة العنقية 451

مدرسة الفرير 36

مدرسة الفرندز 173

المدرسة الفرنسية 436

المدرسة المنتصرية 451

مدرسة النور (ابتدائية) 270

المستشفى الإنكليزي 25، 28-29، 32، 34، 38، 46، 53
مستشفى أوغستافكتوريا 213
مستشفى بائغيت 28
المستشفى الفرنسي 53-54
مسرح رمسيس 161
مصفاة النفط في البحرين 319
المطعم الوطني 98
المعهد الألماني للدراسات الشرقية 221
المعهد الباديسي 474
معهد الدراسات التاريخية 405
المعهد الوطني للدراسات التاريخية 439
مقهى القزاز 84
مقهى كوكب الشرق 84
مقهى النهضة 409
مكتب البريد 189
المكتبة العبدلية 455
المكتبة الوطنية 401
مؤسسة همدرد 355
مؤسسة اشبيلي 454
مؤسسة بيروزي 454

مواد ومعادن

(أ)
الآجر 24، 357، 433
ألومنيوم 42، 268، 332

(ب)
بروكارد 42، 122
البرونز 211، 430
البلاط 134
البنزين 121

(ج)
الجص (الجبس) 420، 424، 426، 441، 433، 448
الجلود 428، 430، 435، 453

(ح)
الحجر الجيري 432، 433
حديد 132، 179، 181، 315، 347، 387، 389، 433، 435، 500-503
الحرير (حرائر) 83، 139، 193، 309، 348، 453

(خ)
الخشب 24، 41، 79، 117، 179، 218، 323، 380، 413، 426، 433، 442، 500-501
الخيش 44

(ذ)
ذهب 32، 46، 50-51، 69، 146، 211، 430، 453

(ر)

الرخام 134، 145، 256، 343، 367، 432-433، 442، 447

(ز)

الزجاج 121، 218، 422

الزنكو 278

(ص)

الصمغ 121، 453

الصوف 62، 190، 290، 428، 430، 435، 453

(ط)

الطوب 24

الطين 424

(ع)

العاج 422، 453

(غ)

الغاز 422، 453

(ف)

فحم 416

الفخار 290

الفضة 146، 211، 399

الفلين 435

(ق)

القرميد 85، 433، 442

القطن 74، 348، 357، 453

القنب 453

قماش 42

(ك)

الكتان 429، 453

(م)

المطاط 121

الملح 63-64، 66، 93، 309

(ن)

نايلون 42

النحاس 42، 323، 347، 413

النفط 132، 317، 319-324، 326، 329، 330، 448

مواسم وأعياد

(ت)

عيد التجلي 95، 96

(ف)

عيد الفصح 69

(م)

عيد مار نقولا 33

عيد المولد النبوي 391، 405-406، 442

عيد الميلاد (ميلاد المسيح) 61، 64، 153

(و)

العيد الوطني الفرنسي 228

نباتات

(أ)

الأرز 74، 95، 194، 374، 390، 442

الأكانتوس 448

(ب)

البرتقال 66-67، 181-182، 278، 292، 294

البطم 377

البطيخ 77، 188-119

البلوط 248، 416

(ت)

التبغ 114

التين 81، 125، 244

(ج)

الجوز 90، 135

(ح)

الحمص 145

(خ)

الخروب 377

الخيار 77، 119، 279، 291

(د)

الدفلة 90، 244

(ز)

الزيتون 188، 194، 201، 377، 383، 388، 390، 435، 453

الزيزفون 205

(س)

السرو 221، 248، 377، 378

السمسم 387، 429

(ش)

الشعير 357، 505

الشوفان 357

(ص)

الصنوبر 231، 248، 377-378، 390، 412

(ع)

عدس 125، 155، 199، 217، 292

العرقسوس 121

العنب 77، 145، 269، 292، 386

(غ)

الغار 114

(ف)

الفستق الحلبي 121

(ق)

القثاء 77

القمح 357، 505

(ك)

كروم العنب 77، 145، 388

الكوسا 54، 269، 291

(ل)

اللوتس 384

(م)

المستكا 43

(ن)

نخيل 153، 170، 294، 377، 388، 409، 421

(ي)

اليوكالبتوس 377

نقود

(ب)

بارة (بارات) 54

(ج)

جنيه (مصري) 69، 168–169، 228، 291–292

الجنيه الإسترليني 208–209، 215، 258–259، 314، 329، 474–475

(د)

درهم 453

دينار (دنانير) 74، 139، 315، 330، 453

(ش)

شلن 181

(ق)

قرش 115، 153، 155، 159، 181، 236، 269، 277

(ل)

ليرة عثمانية 32، 40، 46، 50–51، 56، 262

(م)

مارك 253

(ن)

نحاسية (1/640 من الليرة العثمانية) 40

هيئات ومنظمات

(أ)

إدارة الآثار 82

إدارة الصحة العامة بفلسطين 72

(ب)

البطريركية الأورشليمية 68

البنك العربي 260

البوليس 108، 200، 228، 260، 280، 288

(ج)

الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات

الديمقراطية 403

الجمرك 154، 233، 389

جمعية الشبان المسلمين 320

جمعية العلماء المسلمين 403، 472، 475، 479، 494

جمعية عمر المختار 274-275

الجيش 280، 382، 462، 464

(ح)

الحزب الشيوعي 403

الحزب النازي 217

حزب الوفد المصري158

حلف ديلوس 255، 257

(ش)

الشرطة 78-79، 81-82، 108، 111

(ع)

عصبة الأمم 119

(غ)

الغستابو 210

(م)

مجلس النواب 162، 280، 399

مركز الطيران العسكري الألماني في جنين 23

مؤتمر طريق الحرير 309

(ن)

النادي الأرثوذكسي320

نادي الترقي 438

نادي شركة النفط القطرية 326

نادي يافا 320

(و)

وزارة الأوقاف 160

وسائل وأدوات

(أ)

آلات الرصد 206، 371، 444

إبريق (أباريق) 44، 268، 283، 290

الأركيلة (الأراكيل) 42، 78

أرائك 433

الأزرار 42

أغطية 42

أقفال 433

الأقلام 180

أكياس 46، 257

الألعاب 122

أوتومبيل 167

(ب)

الباخرة 115-116، 177-182، 232-233، 235، 254، 258-262

الباصات (الباص) 188–190 ، 217 ، 229 ،
267 ، 302 ، 307 ، 308 ،
380
البراويز 42
البريد 180–183 ، 187 ، 189 ،
213 ، 267 ، 282 ، 341
البريموس 269 ، 291
بُسط (ج بساط) 422
البسيكليت 212 ، 215 ، 221 ، 226 ،
229
بطانيات (حرامات) 62
البوارج (بارجة) 207
البيانو 180

(ت)

التابوت 31
تخت 30 ، 54
تذكرة سفر 253
تراموای (الترام) 31 ، 35 ، 40–42 ، 83 ،
74 ، 98 ، 171 ، 494 ،
504
التلغراف 53
التلفزيون (التلفاز) 192
تنكات (تنكة) 66 ، 278

(ث)

الثريا 442

(ج)

جرس 99
الجرن 135
جواز السفر 112 ، 287

(ح)

حُصُرُ الصلاة 55
حصيرة 54
الحناطير (حنطور) 35 ، 38
حنفية 30

(خ)

خُرج 46
خريطة 25 ، 246
الخزائن 42 ، 433

(د)

دولاب (دواليب) 124 ، 131 ، 218

(ر)

رفش 85–86 ، 322

(ز)

زرابيات (بُسُط) 399 ، 433 ، 447

(س)

سجاد (سجادة) 69
السرير (أسِرَّة) 213 ، 347
السفينة (السفن) 95 ، 105 ، 206 ، 234 ،
236 ، 259 ، 260 ، 265 ،
278 ، 299 ، 331
السكاكين (السكين) 80 ، 196

السلاسل 494
سيارة (سيارات) 75-77، 86، 109، 120، 124-125، 130، 142، 206، 208، 215، 226، 236، 239، 246، 248، 260، 266-267، 281، 283، 307، 326، 342-343، 377، 380، 282
سياط (سوط) 53، 55

(ش)

الشَّبَكة (الشِّبَاك) 72، 167، 315، 433
شراشف 42
شنتة (شنطة) 116، 181، 188، 257-258، 261
الشَّوْك (الشوكة) 80، 196، 270

(ط)

الطاسات النحاسية 42، 44
الطاولات (الطاولة) 42، 213-214
الطاولة (لعبة الزهر، النرد) 42
الطائرة 179، 207، 232، 236، 265، 280، 299، 300، 315، 326، 375-378، 380-381، 393
طناجر (طنجرة) 122، 268، 290

(ع)

عدة الحلاقة 116
العربات 31، 34-44، 64، 69، 96، 98، 109، 178، 356، 468

(غ)

الغليون 114، 270، 281

(ف)

فُرشاة الأسنان 116
فَرْشَة (فِرَاش) 30، 54، 56، 62، 82، 161، 484

(ق)

قطار 76-77، 403-404، 439

المحتويات

استهلال	7
المقدمة	13
إشارة	19
من أيامي المبكرة في الشام (1907-1916)	21
رحلات وزيارات في فلسطين ولبنان وسورية (1916-1925)	59
رحلتان إلى القاهرة (1933-1934)	151
السفر إلى لندن (1935)	175
في أوروبا (1935-1939)	185
في ألمانيا (1936-1937)	203
في بيزانسون (1938)	223
رحلتان إلى إمارة شرقي الأردن (1942)	237
من لندن إلى بيروت عبر مرسيليا وأثينا والاسكندرية وقبرص (1947)	251
في برقة ليبيا – رسائل من بنغازي وطرابلس ومدن أخرى (1949)	263
زيارة مالطة (1949)	295
الزيارة الأولى لاستانبول (1951)	301
زيارة تدمر (1952)	305
رحلات إلى العراق والخليج العربي (1956)	311
في بلاد السند والهند (1958–1959)	339
زيارة طهران وشيراز وأصفهان (1958)	361
الرحلة إلى أواسط آسيا : طشقند ، سمرقند ، بخارى ، وخيوه (1975)	369
رحلاتي في الشمال الأفريقي (1949 – 1979)	373
كشاف حضاري	507
فهارس الأعلام والأماكن وغيرها	509